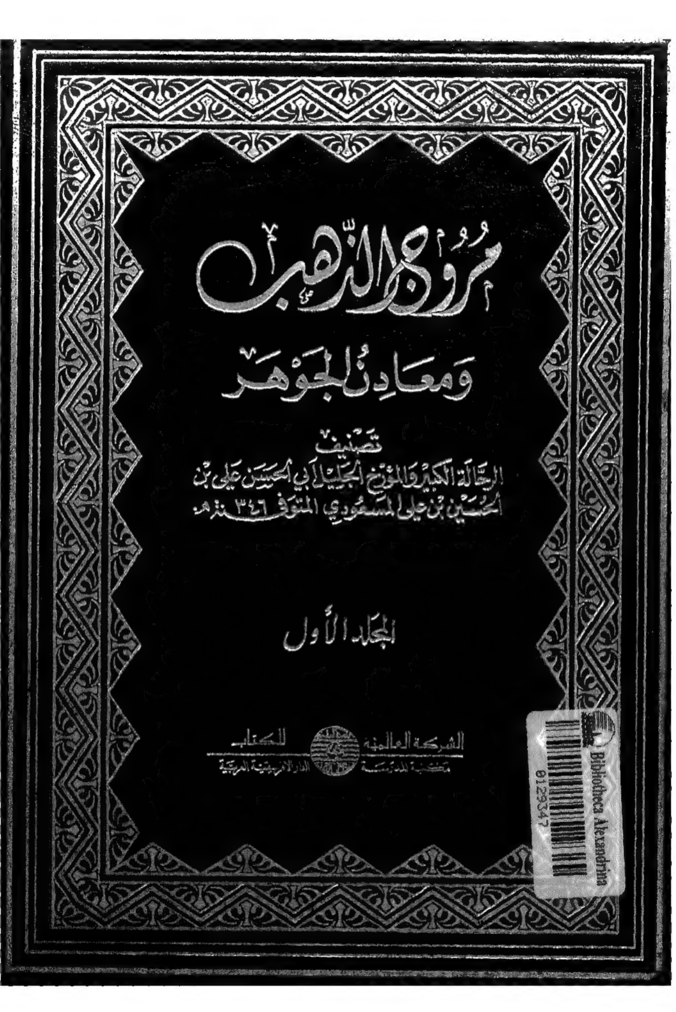

مروج الذهب
ومعادن الجوهر
تصنيف
الرحالة الكبير والمؤرخ الجليل أبي الحسن علي بن
الحسين بن علي المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ هـ
المجلد الأول
الشركة العالمية للكتاب
مكتبة المدرسة الدار الأفريقية العربية
Bibliotheca Alexandrina
0129347

مُرُوجُ الذَّهَبِ

وَمَعَادِنُ الجَوْهَرِ

تَصْنِيف
الرحالة الكبير والمؤرخ الجليل أبي الحسن علي ابن
الحسين بن علي المسعودي المتوفى ٣٤٦ هـ

المجلد الأول

الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل.
- دار الكتاب العالمي   الدار الافريقية العربية



الشركة العالمية للكتاب ش.م.ل

طباعة - نشر - توزيع

مكتبة المدرسة

دار الكتاب العالمي

الدار الإفريقية العربية

الإدارة العامة

الصنائع - مقابل الإذاعة اللبنانية

هاتف ٣٤٩٠٥٥-٣٤٩٠٥٥-٧٤٩٣٧٠ - ص.ب ٣١٧٦

تلكس LE ٢٣٨٦٥ - برقياً: كتالبنان

بيروت - لبنان

١٩٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمدلله الذي نزّل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ،؛ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له له من هاد .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله الى الناس كافة ، الذي قص الله تعالى عليه من انباء الأمم السالفة ما لم يكن يعلمه هو ولا قومه ، وجعل ذلك موعظة للناس يتدبرها من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، واشهد ان محمدا عبده ورسوله ، وصفوته من خلقه ، ومجتباه من بين العالمين .

اما بعد ، فهذا كتاب جمع فيه مؤلفه من علوم الأوائل ومعارفهم عيون المسائل وأمهاتها ، ولم يفصل القول فيه تفصيلا يطيل به على قارئه ، ولا احاط باطراف ما تعرض له من المسائل ، مكتفيا بان ينتقي من كل عقد درة هي أثمن درره واغلاها عنده ، وان يغترف من كل بحر قطرة هي أهنأ قطراته وأمرؤها ، وان يقتطف من كل روض زهرة هي آرج أزاهيره وأنضرها .

وقد تعرض لاختلاف العلماء في أكثر ما بحث من مسائله ، وبيّن أقاويلهم ، وأشار الى بعض حججهم ، تاركا تفصيل ما أخذ فيه من القول الى كتبه التي صنفها قبل هذا الكتاب .

وقد أخذ علمه الذي أودعه كتابه هذا وكتبه السالفة عليه من مصدرين :

أحدهما جملة من كتب العلماء الذين سبقوه بالتدوين ، وقد أشار الى أكثر هذه الكتب في مطلع هذا الكتاب ، وبيّن مقدار أهميتها في نظره .

والمصدر الثاني ، وهو في الأكثر عندما يريد ان يحدّثك عن عادات بعض البلدان او حاصلاتها ، أحاديث الناس التي يتناقلونها كبرا عن كابر. فهو يقول لك : «وقد رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات بباب الاخشيد محمد بن طغج ، وذلك سنة ثلاثين وثلاثمائة ، وسألته عن

كثير من اخبار بلادهم ، وما احتجت ان أعلمه من خواص ارضهم . وكذلك كان فعلي مع غيره في سائر الأوقات ممن لم أصل الى بلادهم . واخبرني هذا الرجل عما بأرضهم من الشب وأنواع الزاج ، وما يحمل من بلادهم : وما بأرضهم من انواع العيون الحامضة ، وغير ذلك من المياه المختلفة الطعوم» .

وقد أحصيت كتبه التي اختار منها لمعا أودعها في هذا الكتاب فوجدتها كثيرة العدد ، وأنا ذاكر لك منها جملة ، وكل هذه الكتب مفيد نافع جليل الموضوع ، ولكن اكثرها ـ مع الاسف ـ قد أصابته يد الضياع :

١ ـ كتاب « اخبار الزمان » ، يشير اليه في نهاية كل موضوع يطرقه تقريبا ، وكذلك الكتاب الأوسط .

٢ ـ كتاب « المبادىء والتراكيب » .

٣ ـ كتاب « الرؤوس السبعة » .

٤ ـ كتاب « الزلف » .

٥ ـ كتاب « الصفوة في الامامة » .

٦ ـ كتاب « الاستبصار » .

٧ ـ كتاب « الزاهي » .

٨ ـ كتاب « المقالات في اصول الديانات » .

٩ ـ كتاب « سر الحياة » .

١٠ ـ كتاب « الدعاوى » .

١١ ـ كتاب « الإسترجاع » .

١٢ ـ كتاب مزاهر الاخبار ، وطرائف الآثار » .

١٣ ـ كتاب « الرؤيا والكمال » .

١٤ ـ كتاب « طب النفوس » .

١٥ ـ كتاب « حدائق الأذهان في اخبار آل محمد عليه الصلاة والسلام » .

١٦ ـ كتاب « القضايا والتجارب » .

١٧ ـ كتاب « الواجب في الفروض واللوازم » .

وليست هذه كل كتبه التي اشار اليها ، وحكى انه اقتطف منها في كتابه هذا لمعا تدل عليها وتشير اليها ، بل هي اكثر مما تتسع له هذه العجالة اليسيرة التي أكتبها على عجل ، واحب الا أثقل فيها على نفسي وعلى القراء بإحصاء ذخائر قد يكون في احصائها من إيلام النفس وتعذيب الروح على فقدها وعبث المقادير بها ، أكبر مما في ذلك من التغنّي بمجد الأسلاف ، والاشادة بما رقوا اليه من معارج البحث والتحقيق .

وقد قمت لهذا الكتاب بعمل أرجو أن يكون مقبولا مرضيا عنه . وسيعرف كل قارىء قيمة هذا العمل ، اذا رجع الى هذه المطبوعة وقارنها بما طبع قبل ذلك ، وأكِلُ اليه وحده تقدير هذا المجهود المضني . وعند الله سبحانه في ذلك الجزاء الأوفى .

محمد محيي الدين عبد الحميد

المَسْعُودِيّ

قال عنه ابن شاكر في « فوات الوفيات » ما نصه :

« علي بن الحسين بن علي ، أبو الحسين[1] المسعودي ، المؤرخ ، من ذرية عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

« قال الشيخ شمس الدين : عداده في البغداديين ، وأقام بمصر مدة . وكان اخباريا علاّمة ، صاحب غرائب وملح ونوادر . مات سنة ست وأربعين وثلاثمائة .

« وله من التصنيفات : كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك ، وكتاب ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور ، وكتاب الرسائل ، والاستذكار بما مر في سالف الأعصار ، وكتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم ، وكتاب التنبيه والاشراف ، وكتاب خزائن الملوك وسر العالمين ، وكتاب المقالات في أصول الديانات ، وكتاب أخبار الزمان ومن أباده الحدثان ، وكتاب البيان في أسماء الأئمة ، وكتاب الخوارج . والله أعلم » .

***

وقال ابن النديم في الفهرست :

« المسعودي : هذا الرجل من أهل المغرب ، يعرف بأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، من ولد عبد الله بن مسعود . مصنف لكتب التواريخ وأخبار الملوك ، وله من الكتب : كتاب يعرف بمروج الذهب ومعادن الجوهر في تحف الأشراف والملوك ـ كتاب ذخائر العلوم وما كان في سائر الدهور ـ كتاب الاستذكار لما مر في سالف الأعمار ـ كتاب التاريخ في أخبار الأمم من العرب والعجم ـ كتاب رسائل » .

***

وقال جورجي زيدان في كتاب « تاريخ اللغة العربية » :

« هو علي بن الحسين بن علي ، من ذرية عبد الله بن مسعود ، ولذلك قيل له المسعودي . نشأ في بغداد وجاء مصر ، ورحل في طلب العلم الى أقصى البلاد ، فطاف فارس وكرمان سنة ٣٠٩ حتى استقر في اصْطَخْر . وفي السنة التالية قصد الهند الى ملتان والمنصورة ، ثم عطف الى كنباية فصيمور فسرنديب (سيلان) . ومن هناك ركب البحر الىٰ بلاد الصين ، وطاف البحر الهندي الىٰ مداغسكر وعاد الى عمان .

« ورحل رحلة أخرى سنة ٣١٤ الىٰ ما وراء أذربيجان وجرجان ثم الى الشام

---

١ ـ كذا ... والمعروف « أبو الحسن » .

وفلسطين . وفي سنة ٣٣٢ جاء انطاكية والثغور الشامية الى دمشق . واستقر أخيرا بمصر ، ونزل الفسطاط سنة ٣٤٥ . وتوفي في السنة التالية .

« ولم يفتر في أثناء أسفاره عن الاستقصاء والبحث واكتساب العلوم على اختلاف مواضيعها . فجمع من الحقائق التاريخية والجغرافية ما لم يسبقه اليه أحد . وألف كثيرا من الكتب المفيدة في مواضيع شتى ، وأهمها في التاريخ ، وهاك أشهر مؤلفاته :

أ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر : هو أشهر من أن يعرَّف لشيوعه . وقد طبع مرارا في جزءين : وصف في الأول منهما الخليقة وقصص الأنبياء مختصرا . ثم وصف البحار والأرضين وما فيهما من العجائب ، ويدخل في ذلك تواريخ الأمم القديمة من الفرس والسريان واليونان والرومان والافرنج والعرب القدماء وأديانهم وعاداتهم ومذاهبهم وأوابدهم وأطوال الشهور والتقاويم القديمة والبيوت المعظمة وغيرها ، ثم عطف على تاريخ الرسالة الاسلامية من ظهور النبي الى مقتل عثمان . وذكر في المجلد الثاني تاريخ الاسلام من خلافة علي الى أيام المطيع لله العباسي ، توفي سنة ٣٦٣[1] .

« ويظهر مما جاء في مقدمته أنه نقل هذا الكتاب عن عشرات من الكتب التاريخية وغيرها ، كانت موجودة في أيامه لم يصلنا منها الا بضعة قليلة ، كتاريخ الطبري ، وفتوح البلدان للبَلاذُري ، وأما الباقي فقد ضاع ، وفيه عشرات من كتب التاريخ والسياسة والاجتماع .

« وفي خلال هذا الكتاب فوائد كثيرة لا تجدها في سواه . ولذلك فقد عني المستشرق باربيه دي مينار بنقله الى اللغة الفرنساوية ، وطبع في باريس سنة ١٨٧٢ في تسعة مجلدات . وقد انتقد هذه الترجمة عبد الله المراشي في مجلة الضياء سنة ٢ . ونقله الى الانجليزية الأستاذ سيرنجر ، وطبع الجزء الأول من ترجمته في لندن سنة ١٨٤١ .

« ب ـ كتاب أخبار الزمان ، ومن أباده الحدثان ، من الأمم الماضية والأجيال الغابرة والممالك الداثرة : وهو كبير طويل مثل اسمه ، يدخل في ٣٠ مجلدا . وقد أكثر المسعودي من الاشارة اليه في مروج الذهب . . . اذا اختصر الكلام في باب قال : وقد فصلنا ذلك في كتابنا أخبار الزمان . لكن هذا الكتاب ضائع الآن ، وليس منه الا الجزء الأول في مكتبة فيينا .

« جـ ـ الكتاب الأوسط : هو وسط بين الكتابين المتقدمين ، وقد ضاع أيضاً ، ولكن في مكتبة أكسفورد نسخة يظنون أنها هو ، ويظن بعض الباحثين أنه وقف على شيء منه في بعض مكاتب دمشق .

---

١ ـ أي إن وفاة المطيع لله كانت بعد وفاة المسعودي بسبعة عشر عاما تقريبا .

« د ـ كتاب التنبيه والاشراف : أودعه لمعا من ذكر الأفلاك وهيئاتها ، والنجوم وتأثيراتها ، والعناصر وتراكيبها ، وأقسام الأزمنة وفصول السنة ومنازلها ، والرياح ومهابها ، والأرض وشكلها ومساحتها ، والنواحي والآفاق وتأثيرها على السكان ، وحدود الأقاليم السبعة ، والعروض والأطوال ، ومصاب الأنهار . وذكر الأمم السبع القديمة ولغاتها ومساكنها ، ثم ملوك الفرس على طبقاتهم ، والروم وأخبارهم ، وجوامع تواريخ العالم والأنبياء ، ومعرفة السنين القمرية والشمسية ، وسيرة النبي وظهور الاسلام ، وسير الخلفاء وأعمالهم ومناقبهم الى سنة ٣٤٥ . وفيه أشياء كثيرة لا توجد في غيره من كتب التاريخ . وقد طبع في ليدن سنة ١٨٩٤ في جملة المكتبة الجغرافية في ٥٠٠ صفحة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد ، ومستوجب الثناء والمجد ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلىٰ آله الطاهرين ، وسلم تسليما الىٰ يوم الدين .

الباب الأول

ذكر جوامع أغراض هذا الكتاب

أما بعد ، فإنا صنفنا كتابنا في أخبار الزمان ، وقدمنا القول فيه في هيئة الأرض ومدنها ، وعجائبها وبحارها وأغوارها ، وجبالها وأنهارها ، وبدائع معادنها ، وأصناف مناهلها ، وأخبار غياضها ، وجزائر البحار ، والبحيرات الصغار ، وأخبار الأبنية المعظمة ، والمساكن المشرفة ، وذكر شأن المبدأ وأصل النسل ، وتباين الأوطان ، وما كان نهرا فصار بحرا ، وما كان بحرا فصار برا ، وما كان برا فصار بحرا ، على مرور الأيام ، وكرور الدهور ، وعلة ذلك وسببه الفلكي والطبيعي ، وانقسام الأقاليم بخواص الكواكب ، ومعاطف الأوتاد ، ومقادير النواحي والآفاق ، وتباين الناس في التاريخ القديم ، واختلافهم في بدئه وأوليته ، من الهند وأصناف الملحدين ، وما ورد في ذلك عن الشرعيين ، وما نطقت به الكتب وورد علىٰ الدّيانيين .

ثم أتبعنا ذلك بأخبار الملوك الغابرة ، والأمم الداثرة ، والقرون الخالية ، والطوائف البائدة ، على مر سيرهم ، في تغير أوقاتهم وتضيف أعصارهم ، من الملوك والفراعنة العادية والأكاسرة واليونانية ، وما ظهر من حكمهم ، ومقاتل فلاسفتهم ، وأخبار ملوكهم ، وأخبار العناصر ، الى ما في تضاعيف ذلك من أخبار الأنبياء والرسل والأتقياء . . .

الىٰ أن أفضى الله بكرامته وشرّف برسالته محمدا نبيه صلى الله عليه وسلم ، فذكرنا مولده ومنشأه ، وبعثته وهجرته ، ومغازيه وسراياه ، الىٰ أوان وفاته ، واتصال الخلافة ، واتساق المملكة بزمن زمن ، ومقاتل من ظهر من الطالبيين ، الىٰ الوقت الذي شرعنا فيه في تصنيف كتابنا هذا من خلافة المتقي لله أمير المؤمنين ، وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة .

ثم أتبعناه بكتابنا الأوسط في الأخبار على التاريخ وما اندرج في السنين الماضية ، من لدن البدء الى الوقت الذي عنده انتهى كتابنا الأعظم وما تلاه من الكتاب الأوسط .

ورأينا ايجاز ما بسطناه ، واختصار ما وسطناه ، في كتاب لطيف نودعه لمع ما في ذينك الكتابين مما ضمناهما ، وغير ذلك من أنواع العلوم ، وأخبار الأمم الماضية ، والأعصار الخالية ، مما لم يتقدم ذكره فيهما .

على أنا نعتذر من تقصير إن كان ، ونتنصل من اغفال إن عرض ، لما قد شاب خواطرنا ، وغمر قلوبنا ، من تقاذف الأسفار ، وقطع القفار ، تارة على متن البحر ، وتارة على ظهر البر ، مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة ، عارفين خواص الأقاليم بالمعاينة ، كقطعنا بلاد السند والزنج والصنف والصين والزابج ، وتقحمنا الشرق والغرب : فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بوسائط ارمينية وأذربيجان والران والبيلقان ، وطورا بالعراق ، وطورا بالشام . . . فسيرى في الآفاق ، سرى الشمس في الاشراق ، كما قال بعضهم :

تيمم أقطار البلاد فتارة لدى شرقها الأقصى وطورا الى الغرب
سُرَى الشمس لا ينفك تقذفه النوىٰ الى أفق ناء يقصرٌ بالركب

***

قال المصنف : ثم مفاوضتنا أصناف الملوك على تغاير أخلاقهم ، وتباين هممهم ، وتباعد ديارهم ، وأخذنا بمسلك مسلك من مواقفهم . على أن العلم قد بادت آثاره ، وطمس مناره ، وكثر فيه العناء ، وقل الفهماء ، فلا تعاين الا مموها جاهلا ، ومتعاطيا ناقصا ، قد قنع بالظنون ، وعمي عن اليقين .

ولم نر الاشتغال بهذا الضرب من العلوم والتفرغ لهذا الفن من الآداب ، حتى صنفنا كتبنا من ضروب المقالات وأنواع الديانات :

ككتاب « الابانة عن أصول الديانة » .

وكتاب « المقالات في أصول الديانات » .

وكتاب « سر الحياة » .

وكتاب « نظم الأدلة في أصول الملة » ، وما اشتمل عليه من أصول الفتوى وقوانين الأحكام : كتيقن القياس ، والاجتهاد في الأحكام ووقع الرأي والاستحسان ، ومعرفة الناسخ من النسوخ ، وكيفية الاجماع وماهيته ، ومعرفة الخاص والعام ، والأوامر والنواهي ، والحظر والاباحة ، وما أتت به الأخبار من الاستفاضة والآحاد ، وأفعال النبي صلى الله عليه وسلم ، وما ألحق بذلك من أصول الفتوى ومناظرة أنباء الخصوم فيما نازعونا فيه ، وموافقتهم في شيء منه .

وكتاب « الاستبصار » في الامامة ووصف أقاويل الناس في ذلك من أصحاب النص والاختيار ، وحِجاج كل فريق منهم .

وكتاب « الصفوة في الامامة » وما احتواه ذلك . . .

مع سائر كتبنا في ضروب علم الظواهر والبواطن والجلي والخفي والدائر والوافر ، وايقاظنا على ما يرتقبه المرتقبون ، ويتوقعه المحدثون ، وما ذكروه من نور يلمع في الأرض وينبسط في الجدب والخصب ، وما في عقب الملاحم الكائنة ، الظاهر أنباؤها المتجلي أوائلها . . . الى سائر كتبنا في السياسة ، كالسياسة المدنية وأجزاء المدينة ومثلها الطبيعية ، وانقسام أجزاء الملة ، والابانة عن المواد ، وكيفية تركيب العوالم والأجسام السماوية ، وما هو محسوس وغير محسوس ، من الكثيف واللطيف ، وما قال أهل النحلة في ذلك .

***

وكان ما دعاني الى تأليف كتابي هذا ـ في التاريخ وأخبار العالم ، وما مضى في أكناف الزمان ، من أخبار الأنبياء والملوك وسيرها والأمم ومساكنها ـ محبة احتذاء الشاكلة التي قصدها العلماء وقفاها الحكماء ، وأن يبقى للعالم ذكرا محمودا ، وعلما منظوما عتيدا .

فانا وجدنا مصنفي الكتب في ذلك مجيدا ومقصرا ، ومسهبا ومختصرا ، ووجدنا الأخبار زائدة مع زيادة الأيام ، حادثة مع حدوث الأزمان ، وربما غاب البارع منها على الفطن الذكي . ولكل واحد قسط يخصه بمقدار عنايته ، ولكل اقليم عجائب يقتصر على علمها أهله . وليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمي اليه من الأخبار عن اقليمه ، كمن قسم عمره على قطع الأقطار ، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار ، واستخراج كل دقيق من معدنه ، واثارة كل نفيس من مكمنه .

وقد ألف الناس كتبا في التاريخ والأخبار ممن سلف وخلف ، فأصاب البعض وأخطأ البعض ، وكل قد اجتهد بغاية امكانه ، وأظهر مكنون جوهر فطنته : كوهب بن مُنبّه ، وأبي مِخْنَف لوط بن يحيى العامري ، ومحمد بن اسحق ، والواقدي ، وابن الكلبي ، وأبي عبيدة معمر بن المثنى ، وأبي العباس الهمداني ، والهيثم بن عدي الطائي ، والشرقي بن القُطَامي ، وحماد الراوية ، والأصمعي ، وسهل بن هارون ، وعبد الله بن المقفع ، واليزيدي ، ومحمد بن عبد الله العُتْبي الأموي ، وأبي زيد سعيد بن أُوس الأنصاري ، والنضر بن شُمَيْل ، وعبد الله بن عائشة ، وأبي عبيد القاسم بن سلام ، وعلي بن محمد المدائني ، ودَماذ بن رفيع بن سلمة ، ومحمد بن سلام الجمحي ، وأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وأبي زيد عمر ابن شَبّة النميري ، والزُّرقي الأنصاري ، وأبي السائب المخزومي ، وعلي بن محمد بن سليمان النوفلي ، والزبير بن بكار ، والانجيلي ، والرياشي ، وابن عابد ، وعمارة بن وسيمة المصري ، وعيسى بن لهيعة المصري ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم المصري ، وأبي حسان الزيادي ، ومحمد بن موسى الخُوارَزْمي ، وأبي جعفر محمد بن

أبي السري ، ومحمد بن الهيثم بن شبابة الخُراساني صاحب كتاب « الدولة » ، واسحق بن ابراهيم الموصلي صاحب كتاب « الأغاني » وغيرة من الكتب ، والخليل بن الهيثم الهرثمي صاحب كتاب « الحيل والمكايد في الحروب » وغيره ، ومحمد بن يزيد المبرد الأزدي ، ومحمد ابن سليمان المنقري الجوهري ، ومحمد بن زكريا الغلابي المصري المصنف للكتاب المترجم بكتاب الأجواد وغيره ، وابن أبي الدنيا مؤدب المكتفي بالله ، وأحمد بن محمد الخزاعي المعروف بالخاقاني الانطاكي ، وعبد الله بن محمد بن محفوظ البَلَوي الأنصاري صاحب أبي زيد عمارة بن زيد المديني ، وأحمد بن محمد بن خالد البرقي الكاتب صاحب « التبيان » ، وأحمد بن أبي طاهر صاحب الكتاب المعروف بـ « أخبار بغداد » وغيره ، وابن الوشّاء ، وعلي بن مجاهد صاحب الكتاب المعروف بـ « أخبار الأمويين » وغيره ، ومحمد بن صالح بن النطاح صاحب كتاب « الدولة العباسية » وغيره ، ويوسف بن ابراهيم صاحب « أخبار ابراهيم بن المهدي » وغيرها ، ومحمد بن الحارث الثعلبي صاحب الكتاب المعروف بـ « أخلاق الملوك » المؤلف للفتح بن خاقان وغيره ، وأبي سعيد السكري صاحب كتاب « أبيات العرب » ، وعبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة ، فانه كان إماما في التأليف متبرعا في ملاحة التصنيف ، أتبعه من يعتمد ، واخذ منه ، ووطىء على عقبه ، وقفا أثره .

واذا أردت ان تعلم صحة ذلك فانظر الى كتابه الكبير في التاريخ فانه أجمع هذه الكتب جدا ، وأبرعها نظما ، وأكثرها علما ، وأحوىٰ لأخبار الأمم وملوكها وسيرها من الأعاجم وغيرها . ومن كتبه النفيسة كتابه في « المسالك والممالك » ، وغير ذلك مما اذا طلبته وجدته ، واذا تفقدته حمدته . . .

وكتاب التاريخ من المولد الىٰ الوفاة ، ومن كان بعد النبي صلى الله عليه وسلم من الخلفاء والملوك الى خلافة المعتضد بالله ، وما كان من الأحداث والكوائن في أيامهم وأخبارهم ، تأليف محمد بن علي الحسيني العلوي الدِّينَوَري .

وكتاب التاريخ لأحمد بن يحيى البلاذري . وكتابه أيضا في البلدان وفتوحها صلحا وعنوة من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وما فتح في أيامه وعلى يد الخلفاء بعده ، وما كان من الأخبار في ذلك ، ووصف البلدان في الشرق والغرب والشمال والجنوب . ولا نعلم في فتوح البلدان أحسن منه .

وكتاب داود بن الجراح في التاريخ الجامع لكثير من أخبار الفرس وغيرها من الأمم . وهو جد الوزير علي بن عيسى بن داود بن الجراح .

وكتاب التاريخ الجامع لفنون من الأخبار والكوائن في الأعصار قبل الاسلام وبعده ،

تأليف أبي عبد الله محمد بن الحسين بن سوار المعروف بابن أخت عيسىٰ بن فرخان شاه ، بلغ في تصنيفه الى سنة عشرين وثلاثمائة .

وتاريخ أبي عيسى بن المنجم على ما أنبأت به التوراة وغير ذلك من أخبار الأنبياء والملوك وكُتّاب التاريخ ، وأخبار الأمويين ومناقبهم ، وذكر فضائلهم ، وما أتوا به عن غيرهم ، وما أحدوثه من السير في أيامهم ، تأليف أبي عبد الرحمن خالد بن هشام الأموي .

وكتاب القاضي أبي بشر الدولابي في التاريخ ، والكتاب الشريف تأليف أبي بكر محمد ابن خلف بن وكيع القاضي في التاريخ وغيره من الأخبار ، وكتاب السير والأخبار لمحمد بن خالد الهاشمي ، وكتاب التاريخ والسير لأبي اسحق بن سليمان الهاشمي، وكتاب سير الخلفاء لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي صاحب كتاب المنصوري في الطب وغيره .

فأما عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري فممن كثرت كتبه واتسع تصنيفه ، ككتابه المترجم بكتاب المعارف وغيره من مصنفاته .

ثناء على ابن جرير الطبري

وأما تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري الزاهي علىٰ المؤلفات ، والزائد علىٰ الكتب المصنفات ، فقد جمع أنواع الأخبار ، وحوىٰ فنون الآثار ، واشتمل علىٰ صنوف العلم . وهو كتاب تكثر فائدته ، وتنفع عائدته . وكيف لا يكون كذلك ومؤلفه فقيه عصره ، وناسك دهره ، اليه انتهت علوم فقهاء الأمصار ، وحملة السنن والآثار ؟!

وكذلك تاريخ أبي عبد الله ابراهيم بن محمد بن عرفة الواسطي النحوي الملقب بنفطويه ، فمحشو من ملاحة كتب الخاصة ، مملوء من فوائد السادة ، وكان أحسن أهل عصره تأليفا ، وأملحهم تصنيفا .

وكذلك سلك محمد بن يحيى الصُّولي في كتابه المترجم بكتاب الأوراق في أخبار الخلفاء من بني العباس وبني أمية وشعرائهم ووزرائهم ، فإنه ذكر غرائب لم تقع لغيره ، وأشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه . وكان محظوظا من العلم ، ممدوداً من المعرفة ، مرزوقا من التصنيف وحسن التأليف .

وكذلك كتاب الوزراء وأخبارهم لأبي الحسن علي بن الحسن المعروف بابن الماشطة ، فانه بلغ في تصنيفه الىٰ آخر أيام الراضي بالله .

ثناء على قدامة بن جعفر

وكذلك أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب ، فانه كان حسن التأليف ، بارع التصنيف ، موجزا للألفاظ ، مقربا للمعاني . واذا أردت علم ذلك فانظر في كتابه في

الأخبار المعروف بكتاب « زهر الربيع » ، وأشرف على كتابه المترجم بكتاب الخراج ، فانك تشاهد بها حقيقة ما قد ذكرنا ، وصدق ما وصفنا .

وما صنفه أبو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي الفقيه في كتابه في الأخبار الذي يعارض فيه كتاب « الروضة » للمبرد ولقبه بـ « الباهر » .

وكتاب ابراهيم بن ماهويه الفارسي الذي عارض فيه المبرد في كتابه الملقب بـ « الكامل » .

وكتاب ابراهيم بن موسى الواسطي الكاتب في أخبار الوزراء الذي عارض فيه كتاب محمد بن داود بن الجراح في الوزراء .

وكتاب علي بن الفتح الكاتب المعروف بـ « المطوق » في أخبار عدة من وزراء المقتدر بالله .

وكتاب زهرة العيون وجلاء القلوب تأليف المصري .

وكتاب « التاريخ » تأليف عبد الرحمن بن عبد الرازق المعروف بالجوزَجاني السعدي .

وكتاب « التاريخ وأخبار الموصل » تأليف أبي ذكرة الموصلي .

وكتاب التاريخ تأليف أحمد بن يعقوب المصري في أخبار العباسيين وغيرهم .

وكتاب التاريخ في أخبار الخلفاء من بني العباس وغيرهم لعبد الله بن الحسين بن سعد الكاتب .

وكتاب محمد بن مزيد بن أبي الأزهر في التاريخ وغيره ، وكتابه المترجم بكتاب الهرج والأحداث .

نقد لثابت بن قرة

ورأيت سنان بن ثابت بن قُرَّة الحرَّاني ـ حين انتحل ما ليس من صناعته ، واستنهج ما ليس من طريقته ـ قد ألف كتابا جعله رسالة الى بعض اخوانه من الكتاب ، واستفتحه بجوامع من الكلام في أخلاق النفس وأقسامها من الناطقة والغضبية والشهوانية ، وذكر لمعا من السياسات المدنية مما ذكره أفلاطون في كتابه في السياسة المدنية ، وهو عشر مقالات ، ولمعا مما يجب على الملوك والوزراء . ثم خرج الىٰ أخبار يزعم أنها صحت عنده ولم يشاهدها . ووصل بذلك بأخبار المعتضد بالله ، وذكر صحبته إياه ، وأيامه السالفة معه . ثم ترقىٰ الىٰ خليفة خليفة في التصنيف ، مضادة لرسم الأخبار والتواريخ ، وخروجا عن جملة أهل التأليف .

وهو وإن أحسن فيه ، ولم يخرجه عن معانيه ، فانما عيبه أنه خرج عن مركز صناعته ، وتكلف ما ليس من مهنته . ولو أقبل على علمه الذي انفرد به من علم اقليدس والمقطعات والمجسطي والمدورات ، ولو استفتح آراء سقراط وأفلاطون وأرسطاطليس ، فأخبر عن الأشياء الفلكية والآثار العلوية ، والمزاجات الطبيعية ، والنسب والتأليفات ، والنتائج والمقدمات ، والصنائع المركبات ، ومعرفة الطبيعيات من الالهيات والجواهر والهيئات ، ومقادير الأشكال ، وغير ذلك من أنواع الفلسفة . . . لكان قد سلم مما تكلفه ، وأتى بما هو أليق بصنعته . ولكن العارف بقدره معوز ، والعالم بمواضع الخلة مفقود . وقد قال عبد الله بن المقفع : من وضع كتابا فقد استهدف ، فان أجاد فقد استشرف ، وان أساء فقد استقذف .

***

قال أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي : ولم نذكر من كتب التواريخ والأخبار والسير والآثار الا ما اشتهر مصنفوها ، وعرف مؤلفوها ، ولم نتعرض للذكر كتب تواريخ أصحاب الأحاديث في معرفة أسماء الرجال وأعصارهم وطبقاتهم . اذ كان ذلك كله أكثر من أن نأتي على ذكره في هذا الكتاب ، اذ كنا قد أتينا على جميع تسمية أهل الأعصار من حملة الآثار ، ونقلة السير والأخبار ، وطبقات أهل العلم من عصر الصحابة ثم من تلاهم من التابعين ، وأهل كل عصر على اختلاف أنواعهم ، وتنازعهم في آرائهم ، من فقهاء الأمصار وغيرهم من أهل الآراء والنحل والمذاهب والجدل ، الى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، في كتابنا المترجم بكتاب أخبار الزمان ، وفي الكتاب الأوسط .

الكتاب به أجزل الفوائد

وقد وسمت كتابي هذا بكتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، لنفاسة ما حواه ، وعظم خطر ما استولى عليه من طوالع بوارع ما تضمنته كتبنا السالفة في معناه ، وغرر مؤلفاتنا في مغزاه . وجعلته تحفة للأشراف من الملوك وأهل الدرايات ، لما قد ضمنته من جمل ما تدعو الحاجة اليه ، وتنازع النفوس الى علمه من دراية ما سلف وغبر في الزمان . وجعلته منبها على أغراض ما سلف من كتبنا ، ومشتملا على جوامع يحسن بالأديب العاقل معرفتها ، ولا يعذر في التغافل عنها .

ولم نترك نوعا من العلوم ، ولا فنا من الأخبار ، ولا طريقة من الآثار ، الا أوردناه في هذا الكتاب مفصلا ، أو ذكرناه مجملا ، أو أشرنا اليه بضرب من الاشارات ، أو لوحنا اليه بفحوى من العبارات .

نهي عن التصرّف في الكتاب وتخويف من ذلك

فمن حرف شيئا من معناه ، أو أزال ركنا من مبناه ، أو طمس واضحة من معالمه ، أو لبّس شاهدة من تراجمه ، أو غيّره ، أو بدله ، أو أشانه[1] ، أو اختصره ، أو نسبه الى غيرنا ، أو أضافه الى سوانا ، فوافاه من غضب الله وسرعة نقمه وفوادح بلاياه ما يعجز عنه صبره ، ويحار له فكره ، وجعله الله مثلة للعالمين ، وعبرة للمعتبرين ، وآية للمتوسمين ، وسلبه الله ما أعطاه ، وحال بينه وبين ما أنعم به عليه من قوة ونعمة ، مبدع السموات والأرض ، من أي الملل كان والآراء ، انه على كل شيء قدير .

وقد جعلت هذا التخويف في أول كتابي هذا وآخره ، ليكون رادعا لمن ميله هوى ، أو غلبه شقاء ، فليراقب الله ربه ، وليحاذر منقلبه ، فالمدة يسيرة ، والمسافة قصيرة ، والى الله المصير .

وهذا حين نبدأ بجمل ما استودعناه هذا الكتاب من الأبواب ، وما حوى كل باب منها من أنواع الأخبار ، وبالله التوفيق .

١ ـ أشانه : افسده .

الباب الثاني

ذكر ما اشتمل عليه هذا الكتاب من الأبواب

قد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب ذكرنا لأغراضه ، فلنذكر الآن جملا من كمية أبوابه على حسب مراتبها فيه ، واستحقاقها منه ، لكي يقرب تناولها على مريدها .

فأول ذلك ذكر المبدأ وشأن الخليقة وذرء البرية من آدم الى ابراهيم عليهما الصلاة والسلام .

ذكر قصة ابراهيم عليه السلام ومن تلا عصره من الأنبياء والملوك من بني اسرائيل .

ذكر ملك أرخبعم بن سليمان بن داود ، ومن تلا عصره من ملوك بني اسرائيل ، وجمل من أخبار الأنبياء والملوك من بني اسرائيل .

ذكر أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد صلى الله عليه وسلم .

ذكر جمل من أخبار الهند وأربابها ومدد ممالكها وسيرها وآرائها في عبادتها .

ذكر الأرض والبحار ، ومبادىء الانهار والجبال ، والأقاليم السبعة وما والاها من الكواكب ، وغير ذلك .

ذكر جمل من الأخبار عن انتقال البحار ، وجمل من أخبار الأنهار الكبار .

ذكر الأخبار عن البحر الحبشي ، وما قيل في مقداره وتشعبه وخلجانه .

ذكر تنازع الناس في المد والجزر ، وجوامع ما قيل في ذلك .

ذكر البحر الرومي ، ووصف ما قيل في طوله وعرضه وابتدائه وانتهائه .

ذكر بحر نيطس ، وبحر مايطس ، وخليج القسطنطينية .

ذكر بحر الباب والأبواب والخزر وجرجان ، وجملة من الأخبار عن ترتيب جميع البحار .

ذكر ملوك الصين والترك ، وتفرق ولد عامور ، وأخبار الصين وملوكهم ، وجوامع من سيرهم وسياساتهم وغير ذلك .

ذكر جمل من الأخبار عن البحار ، وما فيها وما حولها من العجائب والأمم ومراتب الملوك وغير ذلك .

ذكر جبل القبج ، وأخبار الأمم من اللان والسرير والخزر ، وأنواع من الترك والبلغر ، وأخبار الباب والأبواب ، ومن حولهم من الملوك والأمم .

ذكر تنازع الناس في المعنى الذي من أجله سمي اليمن يمنا ، والشام شاما ، والعراق عراقا والحجاز .

ذكر اليمن وأنسابها ، وما قاله الناس في ذلك .

ذكر اليمن وملوكها من التبابعة وغيرها ، وسيرها ومقادير سنيها .

ذكر ملوك الحيرة من اليمن وغيرهم وأخبارهم .

ذكر ملوك الشام من اليمن من غسان وغيرهم ، وما كان من أخبارهم .

ذكر البوادي من العرب ، وغيرهم من الأمم ، وعلة سكناها البدو ، وأكراد الجبال ، وأنسابهم ، وجمل من أخبارهم ، وغير ذلك مما اتصل بهذا الباب .

ذكر ديانات العرب ، وآرائها في الجاهلية ، وتفرقها في البلاد ، وأخبار أصحاب الفيل ، وأمر الأحابيش ، وغيرهم ، وعبد المطلب ، وغير ذلك مما يلحق بهذا الباب .

ذكر ما ذهب اليه العرب في النفوس والهام والصفر ، وأخبارها في ذلك .

ذكر أقاويل العرب في التغول والغيلان ، وما قاله غيرهم من الناس في ذلك ، وغير ذلك مما لحق بهذا الباب واتصل بهذه المعاني .

ذكر أقاويل الناس في الهواتف والجان ، من العرب وغيرهم ممن أثبت ذلك ونفاه .

ذكر ما ذهب اليه العرب من القيافة والعيافة والزجر والسانح والبارح ، وغير ذلك .

ذكر الكهانة وصفتها ، وما قاله الناس في ذلك من أخبارها ، وحد الناطقة وغيرها من النفوس ، وما قيل فيما يراه النائم ، وما اتصل بهذا الباب .

ذكر جمل من أخبار الكهان ، وسيل العرم بأرض سبأ ومأرب ، وتفرق الأزد في البلدان ، وسكناهم في البلاد .

ذكر سني العرب والعجم وشهورها ، وما اتفق منها وما اختلف .

ذكر شهور القبط والسريانيين ، والخلاف في أسمائها ، وجمل من التاريخ ، وغير ذلك مما اتصل بهذا المعنى .

ذكر شهور السريانيين ، ووصف موافقتها لشهور الروم ، وعدد أيام السنة ومعرفة الأنواء .

ذكر شهور الفرس ، وما اتصل بذلك .

ذكر أيام الفرس ، وما اتصل بذلك .

ذكر سني العرب وشهورها ، وتسمية أيامها ولياليها .

ذكر قول العرب في ليالي الشهور القمرية ، وغير ذلك مما اتصل بهذا المعنى .

وثلاثين وثلاثمائة ، وقد انتهينا فيه الى الفراغ من هذا الكتاب .

ذكر من حج بالناس من أول الاسلام الىٰ سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة ، وهو آخر الكتاب .

ذكر جمل ألقابهم وما ورد عن ذوي الدراية في أعدادهم .

***

قال المسعودي: فهذه جوامع ما حوى هذا الكتاب من الأبواب . على أنه قد يأتي في كل باب مما ذكرناه من أنواع العلوم وفنون الأخبار والآثار ما لم تأت عليه تراجم الأبواب ، وهو مرتب على حسب ما قدمناه من أبوابه على تفصيل منا لتاريخ الخلفاء ومقادير أعمارهم بأبواب نفردها عن سيرهم وأخبارهم ، ثم نعقب بعد ذلك بالغرر من أخبارهم ، والعيون من سيرهم ، والجوامع مما كان في أعصارهم ، وأخبار وزرائهم ، وما جرى من أنواع العلوم في مجالسهم ، ملوحين بذلك الى ما سلف من تصنيفنا ، وتقدم من تأليفنا ، في هذه المعاني والفنون .

وعدد ما اجتمع من جميع ما اشتمل عليه هذا الكتاب من الأبواب مائة باب واثنان وثلاثون بابا ، أولها ذكر جميع أغراض هذا الكتاب ، والثاني ذكر ما اشتمل عليه هذا الكتاب من الأبواب ، وآخرها ذكر من حج بالناس من أول الاسلام الى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وذكر جمل ألقابهم .

وَمَا توفيقي إلاّ بالله

الباب الثالث

ذكر المبدأ وشأن الخليقة وذرء البرية

اتفق أهل العلم جميعا من أهل الاسلام أن الله عز وجل خلق الأشياء على غير مثال ، وابتدعها من غير أصل . ثم روي عن ابن عباس وغيره : أن أول ما خلق الله عز وجل الماء ، وكان عرشه عليه . فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا ، فارتفع الدخان فوق الماء فسماه سماء . ثم أيبس الماء فجعله ارضا واحدة ، ثم فتقها فجعلها سبع أرضين ، في يومي الأحد والاثنين . وخلق الأرض على حوت ، والحوت هو الذي ذكره الله سبحانه في القرآن في قوله تعالى « ن . والقلم وما يسطرون » .

والحوت في الماء ، والماء على الصفا ، والصفا على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة على الريح ، وهي الصخرة التي ذكرها الله تعالى في القرآن حكاية عن قول لقمان لابنه : « يا بني ، انها ان تك مثقال حبة من خردل ، فتكن في صخرة أو في السموات أو في الارض ، يأت بها الله ، ان الله لطيف خبير » .

فاضطرب الحوت فتزلزلت الأرض فأرسى الله عليها الجبال فقرت الأرض ، وذلك قوله تعالى : «وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » .

وخلق الجبال فيها ، وخلق أقوات أهلها ، وسخرها وما ينبغي لها ، في يومين في يوم الثلاثاء والأربعاء ، وذلك قوله تعالى : « قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا او كرها ، قالتا أتينا طائعين » .

فكان ذلك الدخان من نفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة . ثم فتقها فجعلها سبعا في يومين في يوم الخميس والجمعة ، وانما سمي الجمعة لأن الله جمع فيه خلق السموات والأرض ، ثم قال : « وأوحى في كل سماء أمرها » .

يقول : خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والبحار وجبال البرد ، وأن سماء الدنيا من زمردة خضراء ، والسماء الثانية من فضة بيضاء ، والسماء الثالثة من ياقوتة حمراء ،

والسماء الرابعة من درة بيضاء ، والسماء الخامسة من ذهب أحمر ، والسماء السادسة من ياقوتة صفراء ، والسماء السابعة من نور ، قد طبقها الله بملائكة قيام على رجل واحدة تعظيما لله لقربهم منه ، قد خرقت أرجلهم الأرض السابعة واستقرت أقدامهم على مسيرة خمسمائة عام تحت الأرض السابعة ، ورؤوسهم تحت العرش من غير أن تبلغ العرش ، وهم يقولون : لا اله الا الله ذو العرش المجيد ، فهم على ذلك منذ خلقوا الى أن تقوم الساعة .

وتحت العرش بحر تنزل منه ارزاق الحيوان ، يوحي الله تعالى اليه فيمطر ما شاء الله من سماء الى سماء ، حتى ينتهي الى موضع يقال له الأبرم ، فيوحي الله الى الريح فتحمله الى السحاب فتغربله .

وتحت سماء الدنيا بحر من ماء يطفح فيه من الدواب مثل ما في بحور الأرض مستمسك بالقدرة .

وأن الله تعالى أسكن ظهر الأرض ـ لما فرغ من خلقها ـ الجن قبل آدم ، فجعلهم من مارج من نار ، وابليس فيهم . فنهاهم الله أن يسفكوا دم البهائم ، وأن يظهروا المعصية بينهم ، فسفكوا وعدا بعضهم على بعض . فلما رآهم ابليس لا يقلعون عن ذلك سأل الله تعالى أن يرفعه الى السماء ، فصار مع الملائكة يعبد الله أشد عبادة .

وأرسل الله الى الجن ـ وهم حزب ابليس ـ قبيلا من الملائكة فطردوهم الى جزائر البحار وقتلوا من شاء الله منهم . وجعل الله ابليس على سماء الدنيا خازنا ، فوقع في صدره كبر .

ثم شاء الله عز وجل أن يخلق آدم فقال الله للملائكة : « إني جاعل في الأرض خليفة » . فقالوا : ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال : تكون له ذرية ، ويفسدون في الأرض ، ويتحاسدون ، ويقتل بعضهم بعضا . فقالوا : ربنا « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماءونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون » .

ثم بعث الله جبريل الى الأرض ليأتيه بطين منها ، فقالت له الأرض : إني أعوذ بالله منك أن تنقصني . فرجع ولم يأخذ شيئا ، وقال : يا رب ، إنها عاذت بك .

ثم بعث الله ميكائيل فقالت له مثل ذلك ، فرجع ولم يأخذ منها شيئا . فبعث الله ملك الموت فعاذت بالله منه ، فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ الأمر . فأخذ من تربة سوداء وحمراء وبيضاء ، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين في الألوان . وسمي آدم لأنه أخذ من أديم الأرض ، وقيل غير ذلك .

ووكل الله ملك الموت بالموت ، وجَبَلَه الله تعالى ، وتركه حتى صار طينا لازبا يلزق

بعضه ببعض أربعين سنة . ثم تركه حتى أنتن وتغير أربعين سنة ، وذلك قوله تعالى : « من حمأ مسنون » أي : متغير منتن . ثم صوره وتركه بلا روح من صلصـال كالفخار حتى أتى عليه مائة وعشرون سنة ، وقيل أربعون سنة ، وهو قوله تعالى : « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » .

فكانت الملائكة تمر به فيفزعون منه ، وكان أشدهم فزعا ابليس . . كان يمر به فيضربه برجله ، فيظهر له صوت كظهوره من الفخار وتكون له صلصلة ، وذلك قوله تعالى : (من صلصال كالفخار) ، وقد قيل أن الصلصال غير ما ذكرناه .

وكان ابليس يدخل من فيه ويخرج من دبره ، ويقول : لأمر ما خلقت .

فلما أراد الله تعالى ان ينفخ فيه الروح قال للملائكة : « اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا إبليس أبى واستكبر » ، وقال : يا رب « أنا خير منه ، خلقتني من نار وخلقته من طين » ، والنار أشرف من الطين ، وأنا الذي كنت مستخلفا في الأرض ، وأنا الملبس بالريش والموشح بالنور ، والمتوج بالكرامة ، وأنا الذي عبدتك في سمائك وأرضك .

فقال الله تعالى : « فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتي الى يوم الدين » . فسأل الله المهلة الى يوم يبعثون ، فأنظره الله الى يوم الوقت المعلوم ، وذهب على إبليس المعنى الذي له ومن أجله أمر لآدم بالسجود .

فمن الناس من رأى أن آدم كان محرابا للمأمورين بالسجود والمقصود بذلك الخالق عز وجل ، وموافقة الأمر والطاعة له على سبيل البلوى والاختبار والمحنة الواقعة بالمكلفين . ومنهم من رأى غير ذلك .

ثم نفخ الله تعالى في آدم من روحه ، فكان كلما دخل في بعضه الروح يذهب ليجلس ، فقال الله تعالى : « وكان الانسان عجولا » . ولما تتابع فيه الروح عطس ، فقال الله له : قل الحمد لله ، يرحمك الله يا آدم .

قال المسعودي : وما ذكرناه من الأخبار في مبدأ الخليقة هو ما جاءت به الشريعة ، ونقله الخلف عن السلف ، والباقي عن الماضي ، فعبرنا عنهم على حسب ما نقل الينا من ألفاظهم ووجدناه في كتبهم ، مع شهادة الدلائل بحدوث العالم واتضاحها بكونه .

ولم نتعرض لوصف قول من وافق ذلك وانقاد اليه من أهل الملل القائلين بالحدوث ، ولا الرد على من سواهم ممن خالف ذلك وقال بالقدم ، لذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا وتقدم من تصنيفنا وقد ذكرنا في مواضع كثيرة من كتابنا هذا جملا من علوم النظر والبراهين والجدل تتعلق بكثير من الآراء والنحل وذلك على طريق الخبر .

ورُوي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال : ان اللّه حين شاء تقدير الخليقة وذرء البرية وابداع المبدعات ، نصب الخلق في صور كالهباء قبل دحو الأرض ورفع السماء ، وهو في انفراد ملكوته وتوحد جبروته فأتاح نورا من نوره فلمع ، ونزع قبسا من ضيائه فسطع . ثم اجتمع النور في وسط تلك الصور الخفية فوافق ذلك صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

فقال الله عز من قائل : أنت المختار المنتخب ، وعندك مستودع نوري وكنوز هدايتي ، من أجلك أسطح البطحاء ، وأمرج الماء ، وأرفع السماء ، وجعل الثواب والعقاب والجنة والنار ، وأنصب أهل بيتك للهداية ، وأوتيهم من مكنون علمي ما لا يشكل عليهم دقيق ولا يعييهم خفي ، وأجعلهم حجتي على بريتي ، والمنبهين على قدرتي ووحدانيتي .

ثم أخذ الله الشهادة عليهم بالربوبية والاخلاص وبالوحدانية . فبعد أخذ ما أخذ من ذلك شاب ببصائر الخلق انتخاب محمد وآله ، وأراهم أن الهداية معه ، والنور له ، والامامة في آله ، تقديما لسنة العدل ، وليكون الاعذار متقدما .

ثم اخفى الله الخليقة في غيبه، غيبها في مكنون علمه ، ثم نصب العوامل وبسط الزمان ، ومرج الماء ، وأثار الزبد ، وأهاج الدخان ، فطفا عرشه على الماء ، فسطح الأرض على ظهر الماء وأخرج من الماء دخانا فجعله السماء ، ثم استجلبهما الى الطاعة فأذعنتا بالاستجابة . ثم أنشأ الله الملائكة من انوار ابدعها . وأرواح اخترعها ، وقَرَن بتوحيده نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، فشهرت في السماء قبل بعثته في الأرض .

فلما خلق الله آدم أبان فضله للملائكة ، وأراهم ما خصه به من سابق العلم من حيث عرفه عند استنبائه إياه أسماء الأشياء ، فجعل الله آدم محرابا وكعبة وبابا وقبلة أسجد اليها الأبرار والروحانيين الأنوار . ثم نبه آدم على مستودعه ، وكشف له عن خطر ما ائتمنه عليه ، بعد ما سماه أماما عند الملائكة ، فكان حظ آدم من الخير ما أراه من مستودع نورنا .

ولم يزل الله تعالى يخبأ النور تحت الزمان الى أن فضل محمدا صلى الله عليه وسلم في ظاهر الفترات ، فدعا الناس ظاهرا وباطنا ، وندبهم سراً وإعلاناً ، واستدعى عليه السلام التنبيه على العهد الذي قدمه الى الذر قبل النسل : فمن وافقه وقبس من مصباح النور المقدم اهتدى الى نوره ، واستبان واضح أمره ، ومن أبلسته[1] الغفلة استحق السخط .

ثم انتقل النور الى غرائزنا ، ولمع في أئمتنا . فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض ، فبنا

---

(١) ابلس : يئس وتحيّر . ومنه ابليس . وهو اعجمي . « القاموس المحيط » .

النجاة ، ومنا مكنون العلم ، وإلينا الأمور ، وبمهدينا تنقطع الحجج ، خاتمة الأئمة ، ومنقذ الأمة ، وغاية النور ، ومصدر الأمور فنحن أفضل المخلوقين ، وأشرف الموحدين ، وحجج رب العالمين فليهنأ بالنعمة من تمسك بولايتنا ، وقبض على عروتنا .

***

فهذا ما روي عن أبي عبد الله جعفر بن محمد ، عن أبيه محمد بن علي ، عن أبيه علي إبن الحسين ، عن أبيه الحسين بن علي ، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

ولم نتعرض لكثير من أسانيد هذه الأخبار وطرقها ، لأنا قد أتينا على جميع ذكرها واتصالها في النقل بمن ذكرناها عنه وعزوناها اليه فيما سلف من كتبنا خوف الاكثار والتطويل في هذا الكتاب .

وأما ما وجد في التوراة ، فهو ان الله تعالى ابتدأ الخلق في يوم الاثنين ، وكان انتهاء الفراغ يوم السبت ، فاتخذ اليهود لذلك يوم السبت عيدا . وزعم اهل الانجيل أن المسيح عليه السلام قام من قبره يوم الأحد ، فاتخذوا ذلك اليوم عيدا .

أما ما ذهب اليه الجمهور من أهل الفقه والآثار ، فهو أن الابتداء كان يوم الأحد والفراغ يوم الجمعة ، وفيه نفخ في آدم الروح ، وهو اليوم السادس من نيسان .

ثم خلقت حواء من آدم ، وأسكنا الجنة لثلاث ساعات مضت منه ، فمكثا ثلاث ساعات ، وهو ربع يوم بمائتي سنة وخمسين سنة من أعوام الدنيا .

وأهبط الله آدم بسرنديب ، وحواء بجدة ، وابليس ببيسان ، والحية باصبهان . فهبط آدم بالهند على جزيرة سرنديب على جبل الراهون وعليه الورق الذي خصفه من ورق الجنة ، فيبس ، فذرته الرياح فانتشر في بلاد الهند . فيقال ، والله أعلم ، ان علة كون الطيب بأرض الهند من ذلك الورق . وقيل غير ذلك .

ولذلك خصت أرض الهند بالعود والقرنفل والافاويه والمسك وسائر الطيب ، وكذلك الجبل ، لمعت عليه اليواقيت وكان منه الماس ، وفي جزائر بحره السُنْباذَج[1] ، وفي قعره مغائص اللؤلؤ .

وان آدم لما هبط من الجنة أخرج منها ومعه صرة من الحنطة ، وثلاثون قضيبا من شجرات الجنة مودعة أصناف الثمار :

منها عشرة مما له قشر ، وهي : الجوز ، واللوز ، والجلوز (وهو البندق) ، والفستق ، والخشخاش ، والشاهبلوط ، والرانج ، والرمان ، والموز ، والبلوط .

---

١ ـ السنباذج : حجر مسن معرب . . . و القاموس المحيط ، .

ومنها عشرة ذوات نوى ، وهي : الخوخ ، والمشمش ، والأجّاص ، والرطب ، والغبيراء ، والنبق ، والزعرور ، والعناب ، والمقل والشاهلوج (وهذا اسم فارسي وتفسيره ملك الأجاص) .

ومنها عشرة مما لا قشر لها ولا حجاب دون مطعمها ، ولا نوى داخلها ، وهي : التفاح ، والسفرجل ، والعنب ، والكمثرى ، والتين ، والتوت ، والأترج ، والقثاء ، والخيار ، والخروب .

ويقال : ان آدم لما أهبط من الجنة هو وحواء هبطا متفارقين ، فتعارفا بالموضع الذي يسمى عرفة ، وبتعارفهما فيه سمي بهذه التسمية . وقيل غير ذلك .

وان آدم عليه السلام تاق الىٰ حواء فغشيها فاشتملت على ذكر وأنثى فسمي الذكر قاين والأنثى لويذاء .

ثم عاود الغشيان ، فاشتملت حواء أيضا على ذكر وأنثى فسمى الذكر هابيل والأنثى أقليمياء .

وقد تنوزع في اسم الولد الأول منهما : فذهب الأكثر من أهل الكتاب وغيرهم أن اسمه قاين على ما ذكرنا، ومنهم من رأى أن أسمه قابيل وهو قول فريق من الناس ، والأغلب ما قدمناه . وقد ذكر علي بن الجهم في قصيدته في بدء الخلق والذرء ذلك فقال :

واقتنيا الابن فسمى قاينا ... وعاينا من نشئه ما عاينا
فشب هابيل وشب قاين ... ولم يكن بينهما تباين

وذكر أهل الكتاب ان آدم زوج أخت هابيل لقاين ، وأخت قاين لهابيل ، وفرق في النكاح بين البطنين . وهذه كانت سنة آدم عليه السلام احتياطا لأقصى ما يمكنه في ذوي المحارم لموضع الاضطرار وعجز النسل عن التباين والاغتراب .

وقد زعمت المجوس أن آدم لم يخالف في النكاح بين البطون ولم يتحر المخالفة . ولهم في هذا المعنى سر يدّعون فيه الفضل في صلاح الحال بتزويج الأخ من أخته والأم من ابنها . وقد أتينا به في الفن الرابع عشر من كتابنا الموسوم بـ « أخبار الزمان ، ومن أباده الحدثان ، من الأمم الماضية ، والأجيال الخالية ، والممالك الدائرة » .

وان هابيل وقاين قربا قرباناً ، فتحرى هابيل أجود غنمه وأجود طعامه فقربه ، وتحرى قاين شر ماله وقربه . فكان من أمرهما ما قد حكاه الله تعالى في كتابه العزيز من قتل قاين

هابيل . ويقال : انه اغتاله في برية قاع ، ويقال : ان ذلك كان ببلاد دمشق من أرض الشام .

وكان قتله شدخا بحجر ، فيقال : ان الوحوش هنالك استوحشت من الانسان ، وذلك أنه بدأ فبلغ الغرض بالشر والقتل .

فلما قتله تحير في توريته ، وحمله يطوف به الأرض . فبعث الله غرابا الى غراب فقتله ودفنه . فأسف قاين ، ثم قال ما حكاه القرآن عنه : « يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي » ؟ . . فدفنه عند ذلك . فلما علم آدم بذلك حزن وجزع وارتاع وهلع .

قال المسعودي : وقد استفاض في الناس شعر يعزونه الى آدم ، أنه قال حين حزن على ولده وأسف على فقده ، وهو :

تغيرت البلاد ومن عليها	فوجه الأرض مُغْبَر قبيح
تغير كل ذي لون وطعم	وقل بشاشة الوجه الصبيح
وبدل أهلها خمطا وأثلا	بجنات من الفردوس فيح
وجاورنا عدو ليس ينسى	لعين لا يموت فنستريح
وقتّل قاين هابيل ظلما	فوا أسفا على الوجه المليح
فمالي لا أجود بسكب دمع	وهابيلٌ تضمَّنه الضريح
أرى طول الحياة عليَّ غما	وما أنا من حياتي مستريح

ووجدت في عدة من كتب التواريخ والسيرة والأنساب ان آدم لما نطق بهذا الشعر أجابه إبليس من حيث يسمع صوته ولا يرى شخصه ، وهو يقول :

تنحَّ عن البلاد وساكنيها	فقد في الأرض ضاق بك الفسيح
وكنت وزوجك الحواء فيها	أآدم من أذى الدنيا مريح
فما زالت مكايدتي ومكري	الى أن فاتك الثمن الربيح
فلولا رحمة الرحمن أضحت	بكفك من جنان الخلد ريح

ووجدت أن آدم عليه السلام سمع صوتا ولا يرى شخصا ، وهو يقول بيتا آخر مفردا دون ما ذكرنا من هذا الشعر ، وهو هذا البيت :

أبـا هابيل ، قد قتـلا جميعاً   وصـار الحـي بالميت الذبيح

فلما سمع آدم ذلك ازداد حزنا وجزعا على الماضي والباقي ، وعلم أن القاتل مقتول .
فأوحى الله اليه : اني مخرج منك نوري الذي به السلوك في القنوات الطاهرة ، والأرومات[1] الشريفة . وأباهي به الأنوار ، وأجعله خاتم الأنبياء ، وأجعل آله خيار الأئمة الخلفاء ، وأختم الزمان بمدتهم ، وأغص الأرض بدعوتهم ، وأنشرها بشيعتهم . فشمر وتطهر ، وقدس وسبح ، واغش زوجتك على طهارة منها ، فان وديعتي تنتقل منكما الى الولد الكائن منكما .

حواء تحمل بشيث

فواقع آدم حواء ، فحملت لوقتها ، وأشرق جبينها ، وتلألأ النور في مخايلها ، ولمع من محاجرها . حتى اذا انتهى حملها وضعت نسمة كأسر ما يكون من الذكران ، وأتمهم وقارا ، وأحسنهم صورة ، وأكملهم هيئة ، وأعدلهم خلقا ، مجللا بالنور والهيبة ، موشحا بالجلالة والأبهة . فانتقل النور من حواء اليه حتى لمع في أسارير جبهته ، وبسق في غرة طلعته ، فسماه آدم شيثا ، وقيل شيث هبة الله . حتى اذا ترعرع وأيفع وكمل واستبصر أوعز اليه آدم وصيته ، وعرفه محل ما استودعه ، وأعلمه أنه حجة الله بعده ، وخليفته في الأرض ، والمؤدي حق الله الى أوصيائه ، وأنه ثاني انتقال الذرة الطاهرة ، والجرثومة الزاهرة .

وصية آدم لشيث ، ثم وفاته

ثم إن آدم حين أدى الوصية الى شيث ، احتقبها واحتفظ بمكنونها .

وأتت وفاة آدم عليه السلام ، وقرب انتقاله ، فتوفي يوم الجمعة لست خلون من نيسان ، في الساعة التي كان فيها خلقه ، وكان عمره عليه السلام تسعمائة سنة وثلاثين سنة ، وكان قد وصى ابنه شيثا عليه السلام على ولده . ويقال ان آدم مات عن أربعين الفا من ولده وولد ولده .

وتنازع الناس في قبره ، فمنهم من زعم أن قبره بمنى في مسجد الخيف ، ومنهم من رأى أنه في كهف في جبل أبي قبيس . وقيل غير ذلك ، والله أعلم بحقيقة الحال .

حكم شيث بن آدم

وان شيثا حكم في الناس ، واستشرع صحف أبيه وما أنزل عليه في خاصته من الأسفار

---

١ ـ الأرومة ـ بفتح الهمزة وضمها ـ الأصل .

والأشراع . وان شيثا واقع امرأته فحملت بأنوش ، فانتقل النور اليها ، حتى اذا وضعته لاح النور عليه .

فلما بلغ الوصاة أوعز اليه شيث في شأن الوديعة وعرفه شأنها وأنها شرفهم وكرمهم ، وأوعز اليه أن ينبه ولده على حقيقة هذا الشرف وكبر محله ، وأن ينبهوا أولادهم عليه ، ويجعل ذلك فيهم وصية متنقلة ما دام النسل .

فكانت الوصية جارية تنتقل من قرن الىٰ قرن ، الىٰ أن أدى الله النور الى عبد المطلب وولده عبد الله أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا موضع تنازع بين الناس من أهل الملة ، ممن قال بالنص وغيرهم من أصحاب الاختيار .

والقائلون بالنص هم الاباضية أهل الامامة من شيعة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والطاهرين من ولده الذين زعموا أن الله لم يخل عصرا من الأعصار من قائم بحق الله : أما أنبياء ، واما أوصياء منصوص على أسمائهم وأعيانهم من الله ورسوله .

وأصحاب الاختيار هم فقهاء الأمصار والمعتزلة وفرق من الخوارج والمرجئة وكثير من أصحاب الحديث والعوام وفرق من الزيدية .

فزعم هؤلاء أن الله ورسوله فوض الىٰ الأمة أن تختار رجلا منها فتنصبه لها أماما ، وأن بعض الأعصار قد يخلو من حجة الله ، وهو الأمام المعصوم عند الشيعة . وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب لمعا من ايضاح ما وصفنا من أقاويل المتنازعين وتباين المختلفين .

انوش بن شيث ولود

وان أنوش قد لبث في الأرض يعمرها ، وقد قيل ـ والله أعلم ـ ان شيثا أصل النسل من آدم دون سائر ولده ، وقيل غير ذلك .

وكانت وفاة شيث وقد مضت له تسعمائه سنة واثنتا عشرة سنة .

وفي زمن أنوش قتل قاين بن آدم قاتل أخيه هابيل . ولمقتله خبر عجيب قد أوردناه في « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط . وكانت وفاة أنوش لثلاث خلون من تشرين الأول ، فكانت مدته تسعمائة سنة وستين سنة .

وكان قد ولد له قينان ، ولاح النور في جبينه ، وأخذ عليه العهد ، فعمر البلاد حتى مات ، فكانت مدته تسعمائة سنة وعشرين سنة .

وقد قيل : ان موته كان في تموز بعدما ولد له مهلائيل ، فكانت مدة مهلائيل ثمانمائة سنة . وقد ولد له لود ، والنور متوارث ، والعهد مأخوذ ، والحق قائم .

ويقال : إن كثيرا من الملاهي ، أحدثت في أيامه ، أحدثها ولد قاين قاتل أخيه .

ولولد قاين مع ولد لود حروب وقصص قد أتينا علىٰ ذكرها في كتابنا « أخبار الزمان » .

وقع التحارب بين ولد شيث وبين غيرهم من ولد قاين ، فنوع من الهند ممن يقر بآدم ينتسبون الى هذا الشعب من ولد قاين ، وأكثر هذا النوع بأرض قمار من أرض الهند ، والى بلدهم أضيف العود القماري .

فكانت حياة لود سبعمائة سنة واثنتين وثلاثين سنة ، وكانت وفاته في آذار .

اخنوخ

وقام بعده ولده أخنوخ ، وهو ادريس النبي صلىٰ الله عليه وسلم ، والصابئة تزعم أنه هو هرمس (ومعنى هرمس عطارد) ، وهو الذي أخبر الله عز وجل في كتابه أنه رفعه مكانا عليا .

وكانت حياته في الأرض ثلاثمائة سنة ، وقيل أكثر من ذلك . وهو أول من درز الدروز ، وخاط بالابرة . وأنزل عليه ثلاثون صحيفة ، وكان قد نزل قبل ذلك على آدم احدى وعشرون صحيفة ، وأنزل على شيث تسع وعشرون صحيفة فيها تهليل وتسبيح .

متوشلح

وقام بعده متوشلح بن أخنوخ ، فعمر البلاد ، والنور في جبينه ، وولد له أولاد . وقد تكلم الناس في كثير من ولده ، وأن البلغر والروس والصقالبة من ولده . وكانت حياته تسعمائة سنة وستين سنة ، ومات في أيلول .

وقام بعده لمك ، وكانت في أيامه كوائن واختلاط في النسل . وتوفي ، وكانت حياته سبعمائة سنة وتسعين سنة .

نوح

وقام بعده نوح بن لمك عليه السلام ، وقد كثر الفساد في الأرض ، فاشتدت دياجي الظلم ، فقام في الأرض داعيا الى الله ، فأبوا الا طغيانا وكفرا ، فدعا الله عليهم .

فأوحى الله اليه أن اصنع الفلك ، فلما فرغ من السفينة أتاه جبريل عليه السلام بتابوت آدم فيه رمته ، وكان ركوبهم في السفينة يوم الجمعة لتسع عشرة ليلة خلت من آذار .

فأقام نوح ومن معه في السفينة على ظهر الماء ، وقد غرق جميع الأرض خمسة أشهر .

ثم أمر الله تعالى الأرض أن تبتلع الماء والسماء أن تقلع ، واستوت السفينة على الجودي ، والجودي : جبل ببلاد باسوري ، وجزيرة ابن عمر ببلاد الموصل ، وبينه وبين

دجلة ثمانية فراسخ ، وموضع جنوح السفينة على رأس هذا الجبل الى هذه الغاية .

وذكر أن بعض الأرض لم يسرع الىٰ بلع الماء ، ومنها ما أسرع الى بلعه عندما أمرت . فما أطاع كان ماؤه عذبا اذا احتفر ، وما تأخر عن القبول أعقبها الله بماء ملح اذا احتفر ، وسباخ وملاحات ، ورمال . وما تخلف من الماء الذي امتنعت الأرض من بلعه انحدر الى قعور مواضع من الأرض . فمن ذلك البحار ، وهي بقية الماء الذي عصت أرضه أهلك به أمم . وسنذكر بعد هذا الموضع من كتابنا هذا أخبار البحار ووصفها .

ونزل نوح من السفينة ومعه أولاده الثلاثة ، وهم : سام ، وحام ، ويافث ، وكنّاته[1] الثلاث أزواج اولاده ، وأربعون رجلا وأربعون امرأة .

وصاروا الى سفح الجبل ، فابتنوا هنالك مدينة وسموها ثمانين ، وهو اسمها الى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة . ودثر عقب هؤلاء الثمانين نفسا ، وجعل الله نسل الخليقة من نوح من الثلاثة من ولده ، وقد أخبر الله عز وجل بذلك بقوله : « وجعلنا ذريته هم الباقين » ، والله أعلم بهذا التأويل .

والمتخلف عنه من ولده الذي قال له : « يا بني اركب معنا » هو يام .

وقسم نوح الأرض بين أولاده أقساما ، وخص كل واحد بموضع ، ودعا على ولده حام لأمر كان منه مع أبيه قد اشتهر ، فقال : ملعون حام ، عبد عنيد يكون لاخوته .

ثم قال : مبارك سام ، ويكثر الله يافث ، ويحل يافث في مسكن سام .

ووجدت في التوراة أن نوحاً عاش بعد الطوفان ثلاثمائة سنة وخمسين سنة ، فجميع عمر نوح تسعمائة وخمسون سنة ، وقد قيل غير ذلك .

مساكن حام بن نوح

فانطلق حام وأتبعه ولده ، فنزلوا مساكنهم في البر والبحر على حسب ما نذكره بعد هذا الموضع من هذا الكتاب ، وسنذكر تفرق النسل في الأرض ومساكنهم فيها من ولد يافث وسام وحام .

مساكن سام

فأما سام فسكن وسط الأرض من بلاد الحرم الى حضرموت الى عمان الىٰ عالج ، فمن ولده ارم بن سام ، وارفخشذ بن سام بن نوح .

ارم بن سام

ومن ولد ارم بن سام عاد بن عوص بن ارم بن سام وكانوا ينزلون الأحقاف من

---

١ ـ الكنات : جمع كنة بفتح الكاف وتشديد النون وتجمع على كنائن على غير قياس ، والكنة امرأة الابن .

الرمل ، فأرسل اليهم هود .

ثمود بن سام

وثمود بن عابر بن ارم بن سام ، وكانوا ينزلون الحجر بين الشام والحجاز فأرسل الله اليهم أخاهم صالحا . وكان من أمرهم مع صالح ما قد اتضح أمره ، واشتهر خبره . وسنذكر بعد هذا الموضع من هذا الكتاب لمعا من أخباره وأخبار غيره من الأنبياء عليهم السلام .

طسم وجديس وعمليق

وطسم وجديس ابنا لاوذ بن ارم ، وكانوا ينزلون اليمامة والبحرين ، وأخوهما عمليق ابن لاوذ بن ارم ، نزل بعضهم الحرم ، وبعضهم الشام ، ومنهم العماليق ، تفرقوا في البلاد ، وأخوهم أميم بن لاوذ نزل أرض فارس . وسنذكر في باب تنازع الناس في أنساب الفرس من هذا الكتاب من ألحق كيومرت بأميم . وقيل : إن أميا نزل أرض وبار ، وهي التي غلبت عليها الجن على ما زعم الأخباريون من العرب .

ونزل بنو عبيل بن عوص أخي عاد بن عوص مدينة الرسول عليه السلام .

ماش بن ارم واولاده

وولد سام بن نوح ماش بن ارم بن سام ونزل بابل على شاطىء الفرات فولد نمرود بن ماش ، وهو الذي بنى الصرح ببابل ، وجسر جسرا ببابل على شاطىء الفرات ، وملك خمسمائة سنة ، وهو ملك النبط . وفي زمانه فرق الله الألسن . فجعل في ولد سام تسعة عشر لسانا ، وفي ولد حام سبعة عشر لسانا ، وفي ولد يافث ستة وثلاثين لسانا ، وتشعبت بعد ذلك اللغات وتفرقت الألسن . وسنذكر هذا في موضعه الذي يوجد في كتابنا هذا ، وتفرق الناس في البلاد ، وما قالوا في ذلك من الأشعار عند تفرقهم في البلاد بأرض بابل . ويقال : إن فالغ هو الذي قسم الأرض بين الأمم ، ولذلك سمي فالغ ، وهو فالح : اي قاسم .

فالغ بن شالخ واولاده

وولد أرفخشد بن سام بن نوح شالخ ، فولد شالخ فالغ بن شالخ الذي قسم الأرض ، وهو جد ابراهيم عليه السلام ، وعابر بن شالخ ، وابنه قحطان بن عابر ، وابنه يعرب بن قحطان ، وهو أول من حياه ولده تحية الملك « أنعم صباحا » و« أبيت اللعن » . وقيل : ان غيره حُيِّي بهذه التحية من ملوك الحيرة .

وقحطان أبو اليمن كلها على حسب ما يذكر ان شاء الله تعالى في باب تنازع الناس في أنساب اليمن من هذا الكتاب ، وهو أول من تكلم بالعربية لاعرابه عن المعاني وابانته عنها .

ويقطن بن عابر بن شالخ هو أبو جرهم ، وجرهم بنو عم يعرب . وكانت جرهم ممن سكن اليمن وتكلموا بالعربية ، ثم نزلوا بمكة فكانوا بها ، على حسب ما نورده من أخبارهم ، وقطورا بنو عم لهم . ثم أسكنها الله اسماعيل عليه السلام ، ونكح في جرهم ، فهم أخوال ولده .

وذكر أهل الكتاب أن لمك بن سام بن نوح حي ، لأن الله عز وجل أوحى الى سام : ان الذي وكلته بجسد آدم أبقيته الى آخر الأبد .

وذلك أن سام بن نوح دفن تابوت آدم في وسط الأرض ، ووكل لمكا بقبره . وكانت وفاة سام يوم الجمعة ، وذلك في أيلول ، وكان عمره الىٰ أن قبضه الله عز وجل ستمائة سنة .

ارفخشذ بن سام

وكان القيم بعد سام في الأرض ولده ارفخشذ ، وكان عمره الى أن قبضه الله عز وجل أربعمائة سنة وخمسا وستين سنة ، وكانت وفاته في نيسان .

شالخ بن ارفخشذ

ولما قبض الله ارفخشذ قام بعده ولده شالخ بن ارفخشذ ، وكان عمره الىٰ ان قبضه الله عز وجل أربعمائة سنة وثلاثين سنة .

عابر بن شالخ

ولما قبض الله شالخ قام بعده ولده عابر ، فعمر البلاد ، وكانت في أيامه كوائن وتنازع في مواضع من الأرض . وكان عمره الىٰ أن قبضه الله عز وجل اليه ثلاثمائة سنة وأربعين سنة .

فالغ بن عابر

ولما قبض الله عابر قام بعده ولده فالغ على نهج من سلف من آبائه ، وكان عمره الى ان قبضه الله عز وجل مائتي سنة وثلاثين سنة . وقد قدمنا ذكره في هذا الكتاب فيما سلف وما كان بأرض بابل عند تبلبل الألسن .

رعو بن فالغ

ولما قبض الله فالغ قام بعده ولده رعو بن فالغ ، وقيل : إن في زمنه كان مولد نمرود الجبار ، وكان عمره الى أن قبضه الله مائتي سنة ، وكانت وفاته في نيسان .

ساروغ بن رعو

ولما قبض الله رعو قام بعده ساروغ بن رعو ، وقيل : انه في أيامه ظهرت عبادة

الأصنام والصور ، لضروب من العلل أحدثت في الأرض وشبه ذلك . وكان عمره الى أن قبضه الله اليه مائتي سنة وثلاثين سنة .

ناحور بن ساروغ

ولما قبض الله ساروغ قام بعده ناحور بن ساروغ مقتديا بمن سلف من آبائه ، وحدث في أيامه رجف وزلازل لم تعهد فيما سلف من الأيام قبله ، وأحدثت في أيامه ضروب من المهن والآلات . وكانت في أيامه حروب وتحزيب الأحزاب من الهند وغيرها . وكان عمره الىٰ أن قبضه اليه مائة سنة وستا وأربعين سنة .

تارح بن ناحور

ولما قبض الله ناحور قام بعده ولده تارح ، وهو آزر أبو ابراهيم الخليل ، وفي عصره كان نمروذ بن كنعان . وفي أيام نمروذ حدثت في الأرض عبادة النيران والأنوار ، وجعل لها مراتب في العبادات ، وكان في الأرض هرج عظيم من حروب واحداث كور وممالك بالشرق والغرب ، وغير ذلك . وظهر القول بأحكام النجوم وصورت الأفلاك ، وعملت لها الآلات ، وقرب فهم ذلك الىٰ قلوب الناس .

فنظر أصحاب النجوم الىٰ طالع السنة التي ولد فيها ابراهيم عليه السلام وماذا يوجب ، فأخبروا النمروذ أن مولودا يولد يسفه أحلامهم ، ويزيل عبادتهم . فأمر النمروذ بقتل الولدان ، وأخفىٰ ابراهيم عليه السلام في مغارة ، ومات آزر ، وهو تارح . وكان عمره الىٰ أن قبضه الله عز وجل مائتين وستين سنة ، والله الموفق للصواب .

ذكر قصة ابراهيم عليه السلام
ومن تلى عصره من الأنبياء والملوك
من بني إسرائيل وغيرهم

ولما نشأ ابراهيم عليه السلام ، وخرج من المغارة التي كان بها ، وتأمل آفاق الأرض والعالم ، وما فيه من دلائل الحدوث والتأثير نظر الىٰ الزهرة واشراقها فقال : هذا ربي فلما رأىٰ القمر أنور منها قال : هذا ربي فلما رأىٰ الشمس أبهر مما رأى قال : هذا ربي ، هذا أكبر .

وقد تنازع الناس في قول ابراهيم « هذا ربي » : فمنهم من رأىٰ أن ذلك كان منه على طريق الاستدلال والاستخبار ، ومنهم من رأى أن ذلك كان قبل البلوغ وحال التكليف ، ومنهم من رأى غير ذلك .

فأتاه جبريل فعلمه دينه ، واصطفاه الله نبيا وخليلا .

وكان قد أوتي رشده من قبل ، ومن أوتي رشده فقد عصم من الخطأ والزلل وعبادة غير الواحد الصمد ، فعاب ابراهيم عليه السلام على قومه ما رأى من عبادتهم واتخاذهم المجوفات آلهة لهم .

فلما كثر عليهم ذم ابراهيم لآلهتهم ، واستفاض ذلك فيهم اتخذ النمروذ النار وألقاه فيها ، فجعلها الله بردا وسلاما ، وخمدت النار في سائر بقاع الأرض في ذلك اليوم .

مولد اسماعيل بن ابراهيم

وولد لابراهيم اسماعيل عليهما السلام ـ وذلك بعد أن مضى من عمره ست وثمانون سنة أو سبع وثمانون سنة ، وقيل : تسعون سنة ـ من هاجر جارية كانت لسارة . وكانت سارة أول من آمن بابراهيم عليه السلام ، وهي ابنة بتوايل بن ناحور ، وهي ابنة عم ابراهيم ، وقد قيل غير هذا مما سنورده بعد هذا الموضع . وآمن به لوط بن هاران بن تارح بن ناحور ، وهو ابن أخي ابراهيم عليه السلام .

اصحاب المؤتفكة

وأرسل الله لوطا الى المدائن الخمس ، وهي سلوم ، وعمورا ، وأدموثا ، وصاعورا ، وصابورا . وان قوم لوط هم أصحاب المؤتفكة ، وهذا الاسم مشتق من الافك ، وهو الكذب على رأي من ذهب الى الاشتقاق ، وقد ذكرهم الله في كتابه بقوله : « والمؤتفكة أهوى » .

وهذه بلاد بين تخوم الشام والحجاز مما يلي الأردن وبلاد فلسطين ، الا أن ذلك في حيز الشام . وهي مبقاة الى وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، خرابا لا أحد بها .

والحجارة المسوّمة موجودة فيها يراها الناس السفار سوداء براقة ، فأقام فيهم لوط بضعا وعشرين سنة يدعوهم الى الله فلم يؤمنوا ، فأخذهم العذاب على حسب ما أخبر الله من شأنهم .

ولما ولد اسماعيل لابراهيم من هاجر غارت سارة ، فحمل ابراهيم اسماعيل وهاجر الى مكة فأسكنهما بها . وذلك قوله عز وجل يخبر عن ابراهيم : « ربِّ اني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم » . فأجاب الله دعوته ، وآنس وحشتهم ، بجرهم والعماليق ، وجعل أفئدة من الناس تهوي اليهم .

وأهلك الله قوم لوط في عهد ابراهيم لما كان من فعلهم واتضح من خبرهم .

ثم أمر الله ابراهيم عليه السلام بذبح ولده ، فبادر الى طاعة ربه ، وتله للجبين ،

ففداه الله بذبح عظيم ، ورفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل .

مولد اسحاق

ثم ولد لابراهيم من سارة اسحاق عليه السلام ، وذلك بعد مضي عشرين ومائة سنة من عمره .

الذبيح من ولد ابراهيم

وقد تنازع الناس في الذبيح ، فمنهم من ذهب الى أنه اسحاق ، ومنهم من رأى انه اسماعيل . فان كان الأمر وقع بالذبح بالحجاز فالذبيح اسماعيل ، لأن اسحاق لم يدخل الحجاز ، وان كان الأمر بالذبح وقع بالشام فالذبيح اسحاق ، لأن اسماعيل لم يدخل الشام بعد أن حمل منه .

وتوفيت سارة وتزوج ابراهيم بعد ذلك بقنطوراء فولد منها ستة ذكور ، وهم : مرق ، ونفس ، ومدن ، ومدين ، وسنان ، وسرح . وتوفي ابراهيم بالشام ، وكان عمره الى أن قبضه الله عز وجل مائة سنة وخمسا وتسعين سنة ، وأنزل الله عليه عشرا من الصحف .

اولاد اسحاق بن ابراهيم الخليل

وتزوج اسحاق بعد ابراهيم برفقا ابنة بتوايل ، فولدت له العيص ويعقوب في بطن واحد ، وكان البادىء منهما الى الفصل عيص ، ثم يعقوب . وكان لاسحاق في وقت مولدهما ستون سنة . وذهب بصر اسحاق فدعا ليعقوب بالرياسة على اخوته والنبوة في ولده ، ودعا لعيص بالملك في ولده .

وكان عمر اسحاق الى أن قبضه الله مائة وخمسا وثمانين سنة ، ودفن مع أبيه الخليل ، ومواضع قبورهم مشهورة ا وذلك على ثمانية عشر ميلا من بيت المقدس في مسجد هناك يعرف بمسجد ابراهيم ومراعيه .

يعقوب بن اسحاق وأخوه العيص

وقد كان اسحاق أمر ولده يعقوب بالمسير الى أرض الشام وبشره بالنبوة ونبوة أولاده الاثني عشر ، وهم : لاوي ، ويهوذا ، ويساخر ، وزبولون ، ويوسف ، وبنيامين ، ودان ، ونفتالي ، وكان ، واشار ، وشمعون ، وروبيل . . . هؤلاء الأسباط الاثنا عشر .

والنبوة والملك في عقب أربعة منهم : لاوي ، ويهوذا ، ويوسف ، وبنيامين .

وكثر جزع يعقوب من أخيه العيص فأمنه الله من ذلك . وكان ليعقوب خمسة آلاف وخمسمائة من الغنم ، فأعطى يعقوب لأخيه العيص العشر من غنمه استكفاء للشر وخوفا من سطوته ، من بعد أن آمنه الله عز وجل من خوفه ، وأن لا سبيل له عليه ، فعاقبه الله في ولده لمخالفته لوعده .

فأوحى الله تعالى اليه : ألم تطمئن الى قولي ؟ فلأجعلن ولد العيص يملكون ولدك خمسمائة وخمسين عاما . . وكانت المدة منذ أخربت الروم بيت المقدس واستعبدت بني اسرائيل الى أن فتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه بيت المقدس .

وكان أحب ولد يعقوب اليه يوسف ، فحسده اخوته على ذلك ، وكان من أمره مع اخوته ما قص الله عز وجل في كتابه ، وأخبر به على لسان نبيه ، واشتهر ذلك في أمته .

وفاة يعقوب ويوسف

وقبض الله عز وجل يعقوب ببلاد مصر ، وهو ابن مائة وأربعين سنة ، فحمله يوسف فدفنه ببلاد فلسطين عند تربة ابراهيم واسحاق . وقبض الله يوسف بمصر وله مائة وعشرون سنة ، وجعل في تابوت من الرخام وسد بالرصاص ، وطلي بالأطلية الدافعة للهواء والماء ، وطرح في نيل مصر نحو مدينة منف ، وهناك مسجده .

وقيل : ان يوسف أوصى أن يحمل فيدفن عند قبر أبيه يعقوب في مسجد ابراهيم عليه الصلاة والسلام .

أيوب النبي

وكان في عصره ايوب النبي صلى الله عليه وسلم . وهو أيوب بن موص بن زراح بن راعوايل بن العيص بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام ، وذلك في بلاد الشام من أرض حوران والبثنية من بلاد الأردن من بين دمشق والجابية .

وكان كثير المال والولد ، فابتلاه الله في نفسه وماله وولده فصبر ، ورد الله عليه ذلك ، وأقاله عثرته ، واقتص ما اقتص من أخباره في كتابه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم .

ومسجده والعين التي اغتسل منها في وقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، مشهوران ببلاد نوى والجولان فيما بين دمشق وطبرية من بلاد الأردن .

وهذا المسجد والعين على ثلاثة أميال من مدينة نوى ، أو نحو ذلك . والحجر الذي كان يأوي اليه في حال بلائه هو وزوجته ، واسمها رحمة ، في ذلك المسجد الى هذا الوقت .

وذكر أهل التوراة والكتب الأولى أن موسى بن ميشاء بن يوسف بن يعقوب نبي قبل موسى بن عمران ، وأنه هو الذي طلب الخضر بن ملكان بن فالغ بن عابور بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح . وذكر بعض أهل الكتاب أن الخضر هو خضرون بن عميائيل ابن النفر بن العيص بن اسحاق بن ابراهيم ، وأنه أرسل الى قومه فاستجابوا له .

موسى بن عمران

فكان موسى بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بمصر في زمن فرعون الجبار ، وهو الوليد بن مصعب بن معاوية بن أبي نمير بن أبي الهلواس بن ليث بن هران بن عمرو بن عملاق ، وهو الرابع من فراعنة مصر ، وقد كان طال عمره وعظم جسمه .

وكان بنو اسرائيل قد استرقوا بعد مضي يوسف ، واشتد عليهم البلاء ، وأخبر أهل الكهانة والنجوم والسحر فرعون أن مولودا سيولد ويزيل ملكه ويحدث ببلاد مصر أمورا عظيمة .

فجزع لذلك فرعون ، وأمر بذبح الأطفال ، وكان من أمر موسى ما أوحى الله عز وجل الى أمه في أمره أن اقذفيه في اليم ، فقذفته ، الى آخر ما اقتص من خبره ، وأوضحه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم .

شعيب

وكان في ذلك الزمان شعيب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو شعيب بن نويت بن راعوايل بن مر بن عنقاء بن مدين بن ابراهيم . وكان لسانه عربيا ، وكان مبعوثا الى أهل مدين . ولما خرج موسى عليه السلام هاربا من فرعون مر بشعيب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان من أمره معه وتزويجه ابنته ما قد ذكره الله عز وجل .

هارون أخو موسى ، وبعثهما الى فرعون

وكلم الله موسى تكليما ، وشد عضده بأخيه هارون ، وبعثهما الى فرعون فخالفهما ، فأغرق الله عز وجل فرعون ، وأمره الله عز وجل بالخروج ببني اسرائيل الى التيه ، وكان عددهم ستمائة ألف بالغ ، دون من ليس ببالغ .

وكانت الألواح التي أنزلها الله على موسى بن عمران على جبل طور سيناء من زمرد أخضر فيها كتابة بالذهب . فلما نزل من الجبل رأى قوما من بني اسرائيل قد اعتكفوا على عبادة عجل لهم ، فارتعد ، فسقطت الألواح من يده فتكسرت فجمعها وأودعها تابوت السكينة مع غيرها وجعله في الهيكل . وكان هارون كاهنا ، وهو قيم الهيكل .

وأتم الله عز وجل نزول التوراة على موسى بن عمران وهو في التيه . وقبض الله

هارون في التيه فدفن في جبل وموات من نحو جبل الشراة مما يلي الطور ، وقبره مشهور في مغارة عادية يسمع منها في بعض الليالي دوي عظيم يجزع منه كل ذي روح .

وقيل : انه غير مدفون ، بل هو موضوع في تلك المغارة ، ولهذا الموضع خبر عجيب قد ذكرناه في كتابنا « أخبار الزمان » عن الأمم الماضية والممالك الداثرة ، ومن وصل الى هذا الموضع علم ما وصفنا . وكان ذلك قبل وفاة موسى بسبعة أشهر .

وقبض الله هارون وهو ابن مائة وثلاث وعشرين سنة ، وقيل : انه قبض وهو ابن مائة وعشرين ، وقيل : ان موسى قبض بعد وفاة هارون بثلاث سنين ، وانه خرج الى الشام وكان له بها حروب من سرايا كانوا يسرونها من البر الى العماليق والقربانيين والمدنيين وغيرهم ممن كانوا بالشام وغيرهم من الطوائف على حسب ما في التوراة .

وأنزل الله عز وجل على موسى عشر صحف ، فاستتم مائة صحيفة . ثم أنزل الله عليه التوراة بالعبرانية وفيها الأمر والنهي والتحريم والتحليل والسنن والأحكام ، وذلك في خمسة أسفار ، والسفر يريدون به الصحيفة .

يوشع بن نون الكاهن

وكان موسى قد ضرب التابوت الذي فيه السكينة من الذهب من ستمائة الف مثقال وسبعمائة وخمسين مثقالا ، فصار الكاهن بعد هارون يوشع بن نون من سبط يوسف . وقبض الله موسى وهو ابن عشرين ومائة سنة ، ولم يحدث لموسى ولا لهارون شيء من الشيب ، ولا حالا عن صفة الشباب .

ولما قبض الله عز وجل موسى بن عمران سار يوشع بن نون ببني اسرائيل الى بلاد الشام ،وقد كان غلب عليها الجبابرة من ملوك العماليق وغيرهم من ملوك الشام ، فأسرى اليهم يوشع بن نون سرايا ، وكانت له معهم وقائع .

فافتتح بلاد أريحاء وزغر من أرض الغور ، وهي أرض البحيرة المنتنة التي لا تقبل الغرقى ولا يتكون فيها ذو روح من سمك ولا غيره . وقد ذكرها صاحب « المنطق » وغيره من الفلاسفة ومن تقدم وتأخر من عصره . واليها ينتهي ماء بحيرة طبرية ، وهو الأردن . وبدء ماء بحيرة طبرية من بحيرة كفرلي والقرعون من أرض دمشق ، فاذا انتهى مصب نهر الأردن الى البحيرة المنتنة خرقها وانتهى الى وسطها متميزا عن مائها فيغوص في وسطها ، وهو نهر عظيم ، فلا يدرى أين غاص من غير أن يزيد في البحيرة ولا ينقص منها .

ولهذه البحيرة ـ أعني المنتنة ـ أخبار عجيبة وأقاصيص طويلة ، وقد أتينا على ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » عن الأمم الماضية والملوك الداثرة ، وذكرنا أخبار الأحجار

التي تخرج منها على صورة البطيخ علىٰ شكلين ، ويعرف الواحد منها بالحجر اليهودي ، وذكرته الفلاسفة ،واستعمله أهل الطب لمن به وجع الحصاة في المثانة . وهو نوعان : ذكر وأنثى ، فالذكر للرجال ، والأنثى للنساء .

ومن هذه البحيرة يخرج الغبار المعروف بالحمرة ، وليس في الدنيا ـ والله أعلم ـ بحيرة لا يتكون فيها ذو روح من سمك وغيره إلا هذه البحيرة وبحيرة ركبتهابلاد أذربيجان بين مدينة ارمينية والمراغة ، وهي المعروفة هنا بكبودان .

وقد ذكر الناس ممن تقدم علىر عدم تكون الحيوان في البحيرة المنتنة ، ولم يتعرضوا لبحيرة كبودان . وينبغي علىٰ قياس قولهم أن تكون علتهما واحدة .

وسار ملك الشام ـ وهو السميدع بن هوبر بن مالك ـ الىٰ يوشع بن نون ، فكانت بينهم حروب الى أن قتله يوشع ، واحتوىٰ علىٰ جميع ملكه ، وألحق به غيره من الجبابرة والعماليق ، وشن الغارات بأرض الشام . وكانت مدة يوشع بن نون في بني اسرائيل بعد وفاة موسى بن عمران تسعا وعشرين سنة .

وهو يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم . وقيل : ان يوشع بن نون كان بدء محاربته لملك العماليق ـ وهو السميدع ـ ببلاد ايلة نحو مدين ، ففي ذلك يقول عوف بن سعد الجرهمي :

ألم تر أن العملقي ابن هوبر	بأيلة أمسى لحمه قد تمزعا
تداعت عليه من يهود جحافل	ثمانين ألفا حاسرين ودرعا
فأمست عدادا للعماليق بعده	على الأرض مشيا مصعدين وفزعا
كأن لم يكونوا بين أجبال مكة	ولم ير راء قبل ذلك السميدعا

وكان بقرية من قرى البلقاء من بلاد الشام رجل يقال له بلعم بن باعوراء بن سنور بن وسيم بن ناب بن لوط بن هاران ، وكان مستجاب الدعوة . فحمله قومه على الدعاء على يوشع بن نون ، فلم يتأت له ذلك ، وعجز عنه . فأشار على بعض ملوك العماليق أن يبرزوا الحسان من النساء نحو عسكر يوشع بن نون ففعلوا . فتسرعوا الى النساء فوقع فيهم الطاعون ، فهلك منهم سبعون الفا ، وقيل أكثر من ذلك .

وبلعم هو الذي أخبر الله عنه أنه آتاه الآيات فانسلخ منها . وقيل ان يوشع بن نون قبض وهو ابن مائة وعشرين سنة .

كالب بن يوقنا

وقام في بني اسرائيل بعد يوشع بن نون كالب بن يوقنا بن بارض بن يهوذا ، ويوشع وكالب الرجلان اللذان أنعم الله عليهما .

قال المسعودي : ووجدت في نسخة أن القائم في بني اسرائيل بعد وفاة يوشع بن نون كوشان الكفري ، وأنه أقام فيهم ثمانين سنة وهلك .

وملك عميائيل بن قابيل من سبط يهوذا أربعين سنة ، وقيل : كوش جبار كان في آب من أرض البلقاء ، وان بني اسرائيل كفرت بعد ذلك فملك الله عليهم كنعان عشرين سنة وهلك ، فكان على بني اسرائيل عملال الأحباري أربعين سنة . ثم قام شمويل الى أن وليهم طالوت ، وخرج عليهم جالوت الجبار ملك البربر من أرض فلسطين .

قال المسعودي : فأما على الرواية الأولى التي قدمنا ذكرها أن القيم بعد يوشع في بني اسرائيل كالب بن يوقنا ، وأن القائم بعده في بني اسرائيل والمدبر لهم فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران ثلاثين سنة .

وكان عمد الى مصاحف موسى بن عمران عليه السلام فجعلها في خابية نحاس ورصص رأسها ، وأتى بها صخرة بيت المقدس ، وذلك قبل بنائه ، فانفرجت ، فاذا مغارة فيها صخرة ثانية ، فوضع الخابية فيها ، وانضمت الصخرة على ذلك ككونها أولا .

ولما هلك فنحاص بن العازر دبر أمرهم كوشان الأثيم ملك الجزيرة ، فتعبد بني اسرائيل ، وأخذهم البلاء ثماني سنين . ثم دبرهم عنيائيل بن يوقنا أخو كالب من سبط يهوذا أربعين سنة . ثم دبرهم أعلون ملك مواب بجهد شديد ثماني عشرة سنة . ثم دبرهم أهوذ من ولد افرايم خمسا وخمسين سنة ، ولخمس وثلاثين سنة خلت من أيامه ثم للعالم أربعة آلاف سنة ، وقيل غير ذلك من التاريخ .

ثم دبرهم شاعان بن أهوذ خمسا وعشرين سنة . ثم دبرهم يابين الكنعاني ملك الشام عشرين سنة .

ثم دبرتهم امرأة يقال لها دبورا ، وقيل : انها ابنته ، وضمت اليها رجلا من سبط نفتالي يقال له باراق أربعين سنة .

ثم تداولتهم رؤوس من بني مدين وهم عريب وربيب وبرسونا ودارع وصلنا تسع سنين وثلاثة أشهر .

ثم دبرهم كدعون من آل منشا أربعين سنة ، وقتل ملوك مدين ، ثم ابنه أبيمالخ ثلاث سنين وثلاثة أشهر .

ثم دبرهم تولع من آل افراين ثلاث وعشرين سنة ، ثم يامين من آل منشا اثنتين وعشرين سنة .

ثم ملوك عمان ثماني عشرة سنة وثلاثة أشهر .

ثم نحشون من بيت لحم سبع سنين ، ثم شنشون عشرين سنة ، ثم أملج عشر سنين ، ثم عجران ثماني سنين .

ثم قهرهم ملوك فلسطين أربعين سنة ، ثم عيلان الكاهن بعد ذلك أربعين سنة . وفي زمانه ظفر البابليون ببني اسرائيل وغنموا التابوت . وكان بنو اسرائيل يستفتحون به ، فحملوه الى بابل ، وأخرجوهم من ديارهم وأبناءهم ، وكان ما كان من أمر قوم حزقيل .

وهم الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم . وكان قد أصابهم الطاعون ، فبقي منهم ثلاثة أسباط : فلحقت فرقة بالرمل ، وفرقة بشواهق الجبال ، وفرقة بجزيرة من جزائر البحر . وكان لهم خبر طويل حتى رجعوا الى ديارهم ، فقالوا لحزقيل : هل رأيت قوما أصابهم ما أصابنا ؟ قال : لا ، ولا سمعت بقوم فروا من الله فراركم .

فسلط الله عليهم الطاعون سبعة أيام ، فماتوا عن آخرهم .

ودبر بني اسرائيل بعد عيلان الكاهن شمويل بن بروحان بن ناحورا ، ونبي فمكث فيهم عشرين سنة ، ووضع الله عزّ وجل عنهم القتال ، وصلح أمرهم ، فخلطوا بعد ذلك ، فقالوا لشمويل : ابعث لنا ملكا يقاتل معنا في سبيل الله .

طالوت وجالوت

فأمر بتمليك طالوت ، وهو ساود بن بشر بن اينال بن طرون بن بحرون بن أفيح بن سميداح بن فالح بن بنيامين بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام ، فملكه الله عليهم ، ولم يجمعهم قبل ذلك مثل طالوت .

وكان بين خروج موسى عليه السلام ببني اسرائيل من مصر الى أن ملك على بني اسرائيل طالوت خمسمائة سنة واثنتان وسبعون سنة وثلاثة أشهر .

وكان طالوت دباغا يعمل الأدم فأخبرهم نبيهم شمويل أن الله قد بعث لكم طالوت ملكا ، فقالوا فيه ما أخبر الله عز وجل في كتابه : « أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من المال ؟ قال : ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم » .

وأخبرهم نبيهم أن : « آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك

آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة » .

وكان مدة ما مكث التابوت ببابل عشر سنين ، فسمعوا عند الفجر حفيف الملائكة تحمل التابوت .

واشتد سلطان جالوت ، وكثرت عساكره وقواده ، وبلغه انقياد بني اسرائيل الى طالوت ، فسار جالوت من فلسطين بأجناس من البربر .

وهو جالوت بن بايول بن ريال بن حطان بن فارس ، فنزل بساحة بني اسرائيل .

فأمر شمويل طالوت بالمسير ببني اسرائيل الى حرب جالوت ، فابتلاهم الله عز وجل بنهر بين الأردن وفلسطين ، وسلط الله عليهم العطش ، وقد قصَّ اللّه ذلك في كتابه .

وأمروا كيف يشربون من النهر ، فولغه أهل الريبة ولوغ الكلاب ، فقتلهم طالوت عن آخرهم .

ثم فضل من خيارهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا فيهم اخوة داود عليه السلام ، ولحق داود باخوته ، فتوافق الجيشان جميعا ، وكانت الحروب بينهما سجالا .

وندب طالوت الناس ، وجعل لمن يخرج الى جالوت ثلث ملكه ويتزوج ابنته ، فبرر داود فقتله بحجر كان في مخلاته ، رماه بمقلاع فخر جالوت ميتا .

وقد أخبر الله عز وجل بذلك في كتابه بقوله : « وقتل داود جالوت » . وقد ذكر أن الحجر الذي كان في مخلاة داود كان ثلاثة أحجار ، فاجتمعت وصارت حجرا واحدا . ولها أخبار قدمنا ذكرها فيما سلف من كتبنا ، وهي التي قتل بها جالوت ، وأن القوم الذين ولغوا في الماء وخالفوا ما أمروا به كان القاتل لهم طالوت .

وقد أتينا على خبر الدرع التي كان أخبرهم نبيهم أنه لا يقتل جالوت الا من صلحت عليه تلك الدرع اذا لبسها ، وأنها صلحت على داود ، وما كان من هذه الحروب وخبر النهر الذي نش[1] على رأسه ، وخبر تملك طالوت ، وأخبار البربر وبدء شأنهم ، في كتابنا في أخبار الزمان . وسنورد بعد هذا جملا من أخبار البربر وتفرقهم في البلاد في الموضع اللائق بها من هذا الكتاب .

داود

ورفع الله ذكر داود ، وأخمل ذكر طالوت . وأبى طالوت أن يفي لداود بما تقدم من شرطه . فلما رأى ميل الناس اليه زوجه ابنته ، وسلم اليه ثلث الجباية ، وثلث الحكم ، وثلث الناس .

---

١ ـ نش الغدير ينش نشيشا : اخذ ماؤه في النضوب « القاموس المحيط » .

ثم حسده بعد ذلك وأراد اغتياله ، فمنعه الله عز وجل من ذلك ، فأبى داود أن ينافسه في ملكه .

ونما أمر داود ، فبات طالوت على سرير ملكه فمات من ليلته كمدا ، وانقادت بنو اسرائيل الى داود عليه السلام . وكان مدة ملك طالوت عشرين سنة .

وذكر أن الموضع الذي قتل فيه جالوت كان ببيسان من أرض الغور من بلاد الأردن .

وألان الله عز وجل لداود الحديد فعمل منه الدروع ، وسخر له الجبال والطير يسبحن معه .

وحارب داود أهل موب من أرض البلقاء ، وأنزل الله عز وجل عليه الزبور بالعبرانية خمسين ومائة سورة ، وجعله ثلاثة أثلاث : فثلث ما يلقون من بُخْت نَصّر وما يكون من أمره في المستقبل . وثلث ما يلقون من أهل أثور . وثلث موعظة وترغيب وتمجيد وترهيب ، وليس فيه أمر ولا نهي ولا تحليل ولا تحريم .

واستقامت الأمور لداود ، ولحقت الخوارج من الكفار بأطراف الأرض لهيبة داود .

وبنى داود بيتا للعبادة بأورشليم ، وهي بيت المقدس ، وهو البيت الباقي لوقتنا هذا ، وهو سنة اثنتين وثلاثمائة ، ويدعى بمحراب داود عليه السلام . وليس في بيت المقدس بناء هو أعلى منه في هذا الوقت ، وقد يرى في أعلاه البحيرة المنتنة ونهر الأردن المقدم ذكره .

وكان من أمر داود مع الخصمين ما قص الله عز وجل في كتابه من خبره ، وقوله لأحدهما قبل استماعه من الآخر : « لقد ظلمك » . . . الآية .

وقد تنازع الناس في خطيئة داود ، فمنهم من رأى ما وصفنا ونفى عن الأنبياء المعاصي وتعمد الفسق ، وأنهم معصومون ، فكانت الخطيئة ما ذكرنا ، وذلك قوله عز وجل : « يا داود ، إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق » .

ومنهم من رأى أن ذلك كان من قصة أروياء بن حيان ومقتله ، على ما ذكرنا في كتاب « المبتدأ » وغيره .

وتاب الله على داود بعد أربعين يوما كان فيها صائما باكيا ، وتزوج داود عليه السلام مائة امرأة .

نشأة سليمان بن داود

ونشأ سليمان بن داود عليه السلام ، وبرع ، وداخل أباه في قضائه ، فآتاه الله فصل الخطاب والحكم ، على ما أخبر الله عز وجل عنهما بقوله « وكلا آتينا حكما وعلما » .

ولما حضرت داود الوفاة أوصى الى ولده سليمان ، وقبض . فكان ملكه اربعين سنة على فلسطين والأردن ، وكان عسكره ستين ألفا أصحاب سيوف جردا مردا أصحاب بأس ونجدة .

لقمان الحكيم

وكان ببلاد مدين وأيلة في عصر داود عليه السلام لقمان الحكيم ، وهو لقمان بن عنقاء ابن مربد بن صاوون . وكان نوبيا مولى للقين بن جسر ، ولد على عشر سنين من ملك داود عليه السلام . وكان عبدا صالحا ، فمن الله عز وجل عليه بالحكمة ، ولم يزل باقيا في الأرض مظهرا للحكمة والزهد في هذا العالم الى أيام يونس بن متى حين أرسل الى أرض نينوى من بلاد الموصل .

ملك سليمان

ولما قبض الله داود عليه السلام قام بعده ولده سليمان بالنبوة والحكم ، وغمر عدله رعيته ، واستقامت له الأمور ، وانقادت له الجيوش . وابتدأ سليمان ببنيان بيت المقدس ، وهو المسجد الأقصى الذي بارك الله عز وجل حوله .

فلما استتم بناءه بنى لنفسه بيتا ، وهو الموضع الذي يسمى في وقتنا هذا كنيسة القيامة ، وهي الكنيسة العظمى ببيت المقدس عند النصارى . ولهم كنائس غيرها معظمة ببيت المقدس ، منها كنيسة صهيون ، وقد ذكرها داود عليه السلام ، والكنيسة المعروفة بالجسمانية ، ويزعمون أن فيها قبر داود عليه السلام .

واعطى الله عز وجل لسليمان عليه السلام من الملك ما لم يعطه لأحد من خلقه ، وسخر له الجن والانس والطير والريح على حسب ما ذكر الله عز وجل في كتابه . وكان ملك سليمان بن داود على بني اسرائيل أربعين سنة ، وقبض وهو ابن اثنتين وخمسين سنة والله ولي التوفيق .

***

ذكر ملك أَرْخَبْعم بن سليمان بن داود عليهما السلام ومن تلاه من ملوك بني اسرائيل وجمل من أخبار الانبياء

ارخبعم بن سليمان

وملك على بني اسرائيل بعد وفاة سليمان بن داود عليهما السلام أرخبعم بن سليمان . واجتمعت عليه الأسباط ، ثم افترقوا عنه ، الا سبط يهوذا وسبط بنيامين . وكان ملكه الى أن هلك سبع عشرة سنة .

بوريعم

وملك على العشرة الأسباط بوريعم . وكانت له كوائن وحروب ، واتخذ له عجلا من الذهب والجوهر ، واعتكف على عبادته ، فأهلكه الله عز وجل . فكان ملكه عشرين سنة .

أبيا بن أرخبعم بن سليمان

وملك بعده أبيا بن أرخبعم بن سليمان ثلاث سنين .

أحاب

ثم ملك بعده أحاب أربعين سنة .

يورام

وملك بعده يورام ، فأظهر عبادة الأصنام والتماثيل والصور ، وكان ملكه سنة .

عيلان

ثم ملكت بعده امرأة يقال لها عيلان ، فوضعت السيف في ولد داود عليه السلام ، فلم ينج منهم الا غلام . فأنكرت بنو اسرائيل ذلك من فعلها فقتلوها . وكان ملكها سبع سنين ، وقيل غير ذلك . وملكوا عليهم الغلام الذي بقي من نسل داود ، فملك وله سبع سنين ، فأقام ملكا أربعين سنة ، وقيل دون ذلك .

مليصا

وملك بعده مليصا ، وكان ملكه اثنتين وخمسين سنة ، وكان في عصره شعيب النبي ، ولشعيب معه أخبار . وكانت له حروب قد أتينا على ذكرها في كتاب « أخبار الزمان » .

نوفا بن عدل

وملك بعده نوفا بن عدل عشر سنين ،وقيل ست عشرة سنة .

أجام

وملك بعده أجام ، فأظهر عبادة الأصنام ، وطغى وأظهر البغي . فصار اليه بعض ملوك بابل ، وكان يقال له فلعيعس ، وكان من عظماء ملوك بابل .

وكان للاسرائيلي معه حروب الى أن أسره البابلي ، وخرب مدن الأسباط ومساكنهم . وكان في أيامه تنازع بين اليهود في الديانة ، فشذ منهم الأسامرة ، وأنكروا نبوة داود عليه السلام ومن تلاه من الأنبياء ، وأبوا أن يكون بعد موسى نبي ، وجعلوا رؤساءهم من ولد هارون بن عمران .

***

الأسامرة

والأسامرة في وقتنا هذا ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ـ ببلاد فلسطين والأردن ، وفي قرىً متفرقة مثل القرية المعروفة بعارا ، وهي بين الرملة وطبرية ، وغيرها من القرى الى مدينة نابلس . وأكثرهم في هذه المدينة ـ أعني نابلس ـ ولهم جبل يقال له طوريك ،

وللأسامرة عليه صلوات في أوقاتها ، ولهم بوقات من فضة ينفخ فيها عند أوقات الصلاة .

وهم الذين يقولون « لا مساس » ، ويزعمون أن نابلس هي بيت المقدس ، وهي مدينة يعقوب النبي عليه السلام ، وهناك مرعاه .

وهما صنفان متباينان كتباينهم لسائر اليهود . وأحد الصنفين يقال له الكوسان ، والآخر الدروسان . وأحد الصنفين يقول بقدم العالم ومعان غير ذلك أعرضنا عن ذكرها مخافة التطويل ، وأن كتابنا هذا كتاب خبر لا كتاب آراء ونحل .

***

حزقيل بن أجام

وكان ملك أجام الى أن أسره الملك البابلي سبع عشرة سنة . ولما أسر الملك أجام ملك ولد له يقال له حزقيل بن أجام ، فأظهر عبادة الرحمن ، وأمر بتكسير التماثيل والأصنام . وفي ملكه سار سنجاريب ملك بابل الى بيت المقدس .

وكانت له حروب كثيرة مع بني اسرائيل ، وقتل من أصحابه خلق كثيرون ، وسبى من الأسباط عددا كبيرا . وكان ملك حزقيل الى أن هلك سبعا وعشرين سنة .

ميشا

ثم ملك بعد حزقيل ولد له يقال له ميشا ، فغمر شره سائر مملكته ، وهو الذي قتل شعيبا النبي . فبعث الله قسطنطين ملك الروم فسار اليه في الجيوش ، فهزم جيشه وأسره . فأقام في أرض الروم عشرين سنة ، وأقلع عما كان عليه ، وعاد الى ملكه . فكان ملكه الى أن هلك خمسا وعشرين سنة ، وقيل : ثلاثين سنة .

أمور بن ميشا

ثم ملك بعده ولد له يقال له أمور بن ميشا ، فأظهر الطغيان ، وكفر بالرحمن ، وعبد التماثيل والأصنام . ولما اشتد بغيه سار اليه فرعون الأعرج من بلاد مصر في الجيوش ، فأمعن في القتل ، وأسره ومضى به الى مصر ، فمات هناك . وكان ملكه خمس سنين ، وقيل غير ذلك .

نوفين

وملك بعده أخ له يقال له نوفين ، وهو أبو دانيال النبي عليه السلام . وفي عصر هذا الملك سار البخت نصر ، وهو مرزبان العراق والعرب من قبل ملك فارس . وكان يومئذ ببلخ ، وكانت قصبة الملك . فأمعن البخت نصر في القتل لبني اسرائيل والأسر ، وحملهم الى أرض العراق . وأخذ التوراة وما كان في هيكل بيت المقدس من كتب الملوك وطرحه في بئر . وعمد الى تابوت السكينة فأودعه بعض المواضع من الأرض . . . فيقال : انه كان عدة

من سبي من بني اسرائيل ثمانية عشر ألفا .

وفي هذا العصر كان أرميا النبي عليه السلام .

وسار بخت نصر الى مصر فقتل فرعون الأعرج ، وكان يومئذ ملك مصر ، وسار نحو المغرب فقتل بها ملوكا ، وافتتح مدائن .

وكان ملك فارس تزوج جارية من سبايا بني اسرائيل ، فأولدها ولدا ، فرد بني اسرائيل الىٰ ديارهم . وكان ذلك بعد سنين .

زريايل بن سلسان

ولما رجعت بنو اسرائيل الى بلادهم ملكت عليها زريايل بن سلسان . فابتنى مدينة بيت المقدس ، وعمر ما كان خرب ، وأخرجت بنو اسرائيل التوراة من البئر ، واستقامت لهم الأمور .

فأقام هذا الملك على عمارة أرضهم ستا وأربعين سنة ، وشرع لهم الصلوات وغيرها من الشرائع مما كان تلف منهم في حال السبي .

والأسامرة تزعم أن التوراة التي في يد اليهود ليست التوراة التي أوردها موسٰى بن عمران عليه السلام ، وأن تلك حرفت وبدلت وغيرت ، وأن المحدث لهذه التي بأيديهم هذا الملك المذكور ، لأنه جمعها ممن كان يحفظها من بني اسرائيل ، وأن التوراة الصحيحة هي التي في أيدي الأسامرة دون غيرهم . وكان ملك هذا الملك ستا وأربعين سنة .

ووجدت في نسخة أخرى ان المتزوج في بني اسرائيل هو بخت نصر نفسه ، وهو الذي ردهم ، ومنّ عليهم . وفيه نظر .

اسماعيل بن ابراهيم

ودبر اسماعيل بن ابراهيم أمر البيت بعد ابراهيم عليه السلام . ونبأه الله عز وجل ، وأرسله الى العماليق وقبائل اليمن ، فنهاهم عن عبادة الأوثان ، فآمن طائفة منهم وكفر أكثرهم .

وولد لاسماعيل اثنا عشر ذكرا ، وهم : فائث ، وقيدار ، وأربل ، وميم ، ومسمع ، ودوما ، ودوام ، وميشا ، وحداد ، وحيم ، وقطورا ، وماس .

وكانت وصية ابراهيم الىٰ ابنه اسماعيل عليه السلام ، ووصى اسماعيل الىٰ اخيه اسحاق عليهما السلام . وقد قيل الىٰ ولده قيدار بن اسماعيل . وكان عمر اسماعيل الى أن قبضه الله اليه مائة سنة وسبعا وثلاثين سنة ، ودفن بالمسجد الحرام في الموضع الذي كان فيه الحجر الأسود .

فائث بن اسماعيل

ودبر أمر البيت بعده فائث بن اسماعيل عليه السلام ، على منهج اسماعيل وملته ، وقيل ايضا : انه كان وصي أبيه اسماعيل عليه السلام .

أنبياء بين سليمان والمسيح

وكان بين سليمان بن داود وبين المسيح عليهما السلام أنبياء وعباد صالحون منهم : أرمينيا ، ودانيال ، وعزير (وقد تنازع الناس في نبوته) وأيوب ، وأشعياء ، وحزقيل ، والياس ، واليسع ، ويونس ، وذو الكفل ، والخضر (وروي عن ابن اسحاق أنه أرمينيا ، وقيل بل كان عبدا صالحا) وزكريا ، وهو زكريا بن أدق ، وهو من ولد داود من سبط يهوذا ، وكان تزوج أشباع بنت عمران أخت مريم بنت عمران أم المسيح عليهما السلام ، وهو عمران بن ماتان بن يعاميم ، من ولد داود أيضا ، واسم أم أشباع ومريم حنة ، وولدت لزكريا يحيى .

وكان يحيى ابن خالة المسيح عليهم السلام . وكان زكريا نجارا ، فأشاعت اليهود أنه ركب من مريم الفاحشة فقتلوه . وكان لما أحس بهم لجأ الى شجرة فدخل في جوفها فدلهم عليه ابليس لعنه الله عز وجل ، فنشروا الشجرة وهو فيها ، فقطعوه وقطعوها .

ولما ولدت أشباع ابنة عمران ، أخت مريم أم المسيح ، يحيى بن زكريا عليهما السلام هربت به من بعض الملوك الى مصر .

فلما صار رجلا بعثه الله عز وجل الى بني اسرائيل ، فقام فيهم بأمر الله عز وجل ونهيه فقتلوه . وكثرت الأحداث في بني اسرائيل ، فبعث الله عليهم ملكا من ناحية المشرق يقال له حردوس ، فقتل منهم على دم يحيى بن زكريا الوفاً من الناس وهو يفور الى ان هدأ الدم بعد خطب طويل .

مولد عيسى ابن مريم عليه السلام

ولما بلغت مريم بنة عمران سبع عشرة سنة ، بعث الله عز وجل اليها جبريل فنفخ فيها الروح ، فحملت بالسيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام . وولدت بقرية يقال لها بيت لحم على أميال من بيت المقدس . ولدته في يوم الأربعاء لأربع وعشرين ليلة خلت من كانون الأول . وكان من أمره ما ذكره الله عز وجل في كتابه ، واتضح على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد زعمت النصارى أن أشيوع الناصري أقام على دين من سلف من قومه يقرأ التوراة والكتب السالفة في مدينة طبرية من بلاد الأردن في كنيسة يقال لها المدارس ثلاثين سنة وقيل تسعا وعشرين سنة .

وأنه في بعض الأيام كان يقرأ في سفر أشعياء ، اذ نظر في السفر الى كتاب من نور فيه « أنت نبيي ، وخالصتي ، اصطفيتك لنفسي » .

فأطبق السفر ودفعه الى خادم الكنيسة ، وخرج وهو يقول : الآن تمت المشيئة لله في ابن البشر .

وقد قيل : ان المسيح عليه السلام كان بقرية يقال لها ناصرة من بلاد اللجون من أعمال الأردن ، وبذلك سميت النصرانية . ورأيت في هذه القرية كنيسة تعظمها النصارى وفيها توابيت من حجارة فيها عظام الموتى يسيل منها زيت ثخين كالرُّب تتبرك به النصارى . وأن المسيح مر ببحيرة طبرية وعليها أناس من الصيادين ، وهم بنو زبدا ، واثنا عشر من القصارين ، فدعاهم الى الله وقال : اتبعوني تصيدوا البشر .

فاتبعه ثلاثة من الصيادين ، وهم بنو زبدا ، واثنا عشر من القصارين .

وقد ذكر أن ميروحنا وشمعون وبولس ولوقا هم الحواريون الأربعة الذين تلقوا الانجيل ، فألفوا خبر عيسى عليه السلام ، وما كان من أمره ، وخبر مولده ، وكيف عمده يحيى بن زكريا (وهو يحيى المعمداني) في بحيرة طبرية ، وقيل في بحر الأردن الذي يخرج من بحيرة طبرية ويجري الى البحيرة المنتنة ، وما فعل من الاعاجيب وأتى من المعجزات ، وما قالت اليهود . . . الى أن رفعه الله عز وجل اليه ، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة .

وفي الانجيل خطب طويل في أمر المسيح ومريم عليهما السلام ويوسف النجار ، أعرضنا عن ذلك لأن الله عز وجل لم يخبر بشيء من ذلك في كتابه ، ولا أخبر به محمد نبيه صلى الله عليه وسلم .

ذِكر أهـل الفَترة
مِمّن كَانَ بَينَ المَسيح وَمحمّد
صَلّى الله عَليهـمَا وَسَـلّم

وقد كان بين المسيح ومحمد صلى الله عليهما وسلم في الفترة جماعة من أهل التوحيد ممن يقر بالبعث . وقد اختلف الناس فيهم : فمن الناس من رأى أنهم أنبياء ، ومنهم من رأى غير ذلك .

حنظلة بن صفوان

فممن ذكر أنه نبي حنظلة بن صفوان ، وكان من ولد اسماعيل بن ابراهيم ، صلى الله عليهما وسلم ، وأرسل الى أصحاب الرس ، وكانوا من ولد اسماعيل بن ابراهيم . وهم قبيلتان يقال لاحداهما أدمان ، وللأخرى يامن ، وقيل : رعويل ، وذلك باليمن .

فقام فيهم حنظلة بأمر الله عز وجل فقتلوه . فأوحى الله الى نبي من أنبياء بني اسرائيل من سبط يهوذا أن يأمر بخت نصر بأن يسير اليهم . فسار اليهم ، فأتى عليهم ، فذلك قوله عز وجل : « فلما أحسوا بأسنا » الى قوله « حصيدا خامدين » .

وقيل : ان القوم كانوا من حمير ، وقد ذكر ذلك بعض شعرائهم في مرثية له فقال :

بكت عيني لأهل الرس رعويل وقدمان
وأسلم من أبي زرع نكال الحي قطحان

ذو القرنين

وقد حكي عن وهب بن منبه أن ذا القرنين ـ وهو الاسكندر ـ كان بعد المسيح عليه السلام في الفترة ، وأنه كان حلم حلما رأى فيه أنه دنا من الشمس حتى أخذ بقرنيها في شرقيها وغربيها ، فقص رؤياه على قومه فسموه بذي القرنين .

وللناس في ذي القرنين تنازع كبير . وقد أتينا على ذلك في كتاب « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط ، وسنذكر لمعا من خبره عند ذكرنا لملوك اليونانيين الروم .

أهل الكهف

وكذلك تنازع الناس في أصحاب الكهف في أي الأعصار كانوا ، فمنهم من زعم أنهم كانوا في زمن الفترة ، ومنهم من رأى غير ذلك . وسنأتي بلمع من خبرهم في ذكرنا ملوك الروم في هذا الكتاب ، وان كنا قد أتينا على ذلك في الكتاب الأوسط ، وفيما سلف قبله من كتاب « أخبار الزمان » .

جرجيس

ممن كان في الفترة بعد المسيح عليه السلام جرجيس . وقد أدرك بعض الحواريين ، فأرسله الله الى بعض ملوك الموصل ، فدعاه الى الله عز وجل ، فقتله . فأحياه الله اليه وبعثه اليه ثانية ، فقتله . فأحياه الله ، فأمر بنشره ثالثة واحراقه واذرائه في دجلة .

فأهلك الله عز وجل ذلك الملك وجميع اهل مملكته ممن اتبعه ، على حسب ما وردت به الأخبار عن اهل الكتاب ممن آمن وذلك موجود في كتاب المبتدأ والسير لوهب بن منبه وغيره .

حبيب النجار

وممن كان في الفترة حبيب النجار ، وكان يسكن انطاكية من أرض الشام . وكان بها ملك متجبر يعبد التماثيل والصور ، فسار اليه اثنان من تلامذة المسيح ، فدعواه الى الله عز وجل . فحبسهما وضربهما ، فعززهما الله بثالث .

وقد تنوزع فيه فذهب كثير من الناس الى أنه بطرس ، وهذا اسمه بالرومية ، واسمه بالعربية سمعان ، وبالسريانية شمعون ، وهو شمعون الصفاء . وذكر كثير من الناس - واليه ذهب سائر فرق النصرانية - أن الثالث المعزز به هو بولس ، وأن الاثنين المتقدمين اللذين أودعا الحبس توما وبطرس .

فكان لهم مع ذلك الملك خطب عظيم طويل فيما أظهروا من الاعجاز والأعاجيب والبراهين من ابراء الأكمه والأبرص ، واحياء الميت ، وحيلة بولس عليه بمداخلته اياه وتلطفه له ، واستنقاذ صاحبيه من الحبس .

فجاء حبيب النجار فصدقهم ، لما رأى من آيات الله عز وجل .

وقد أخبر الله عز وجل بذلك في كتابه بقوله : « اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء ، أن انتم الا تكذبون . قالوا ربنا يعلم أنا اليكم لمرسلون . وما علينا الا البلاغ المبين . قالوا انا تطيرنا منكم ، لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ، وليمسنكم منا عذاب أليم قالوا طائركم معكم أإن ذكرتم ، بل أنتم قوم مسرفون . وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين » .

وقتل بولس وبطرس بمدينة رومية ، وصلبا منكسين ، وكان لهما فيها خبر طويل مع الملك ، ومع سيما الساحر . ثم جعلا بعد ذلك في خزانة من البلور ، وذلك بعد ظهور دين النصرانية . وحرمهما في كنيسة هناك قد ذكرناها في الكتاب الأوسط عند ذكرنا لعجائب رومية ، وأخبار تلاميذ المسيح عليه السلام ، وتفرقهم في البلاد ، وسنورد في هذا الكتاب لمعا من أخبارهم ، ان شاء الله تعالى .

أصحاب الأخدود

فأما أصحاب الأخدود فانهم كانوا في الفترة في مدينة نجران باليمن ، في ملك ذي نواس ، وهو القاتل لذي شناتر . وكان على دين اليهودية ، فبلغ ذا نواس أن قوما بنجران على دين المسيح عليه السلام . فسار اليهم بنفسه ، واحتفر لهم أخاديد في الأرض ، وملأها جمرا ، وأضرمها نارا . ثم عرضهم على اليهودية ، فمن تبعه تركه ، ومن أبى قذفه في النار . فأتى بامرأة معها طفلها ابن سبعة أشهر ، فأبت أن تتخلى عن دينها ، فأدنيت من النار ، فجزعت . فأنطق الله عز وجل الطفل فقال : يا أمه ، امضي على دينك فلا نار بعد هذه ! فألقاها في النار .

وكانوا مؤمنين موحدين ، لا على رأي النصرانية في هذا الوقت . فمضى رجل منهم يقال له ذو ثعلبان الى قيصر ملك الروم يستنجده ، فكتب له الى النجاشي لأنه كان أقرب اليهم دارا . فكان من أمر الحبشة وعبورهم الى أرض اليمن وتغلبهم عليها ، الى أن كان من أمر سيف ذي يزن واستنجاده الملوك الى أن أنجده أنو شروان ما قد أتينا على ذكره في كتابنا « أخبار الزمان » ، وفي الكتاب الأوسط ، وسنذكر لمعا من ذلك فيما يرد من هذا الكتاب عند ذكرنا لأخبار الأذواء وملوك اليمن .

وقد ذكر الله عز وجل في كتابه قصة أصحاب الأخدود بقوله عز وجل : « قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . اذ هم عليها قعود . وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » .

خالد بن سنان العبسي

وممن كان في الفترة خالد بن سنان العبسي وهو خالد بن سنان بن غيث بن عبس ، وقد ذكره النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « ذلك نبي أضاعه قومه » .

وذلك أن نارا ظهرت في العرب ، فافتتنوا بها ، وكانت تنتقل ، وكادت العرب تتمجس وتغلب عليها المجوسية .

فأخذ خالد بن سنان هراوة وشد عليها وهو يقول : بدا بدا ، كل هدى ، مؤد الى الله الأعلى ، لأدخلنها وهي تتلظى ، ولأخرجن منها وثيابي تتندى . . . فأطفأها .

فلما حضرت خالد بن سنان الوفاة قال لاخوته : اذا أنا دفنت فانه ستجيء عانة من حمير يقدمها عير أبتر ، فيضرب قبري بحافره . فاذا رأيتم ذلك فانبشوا عني فاني سأخرج اليكم ، فأخبركم بجميع ما هو كائن .

فلما مات ودفنوه رأوا ما قال . فأرادوا أن يخرجوه ، فكره ذلك بعضهم ، وقالوا :

نخاف أن تنسبنا العرب الى نبشنا عن ميت لنا .

وأتت ابنته الىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعته يقرأ : « قل هو الله أحد الله الصمد » . فقالت : كان أبي يقول هذا .

وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب لمعا من أخباره مما تدعو الحاجة الى ذكره ، ان شاء الله تعالى .

رئاب الشني أحد بني عبد القيس

قال المسعودي : وممن كان في الفترة رئاب الشَّنِّي ، وكان من عبد القيس ، ثم من شن . وكان علىٰ دين المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فسمعوا مناديا ينادي من السماء قبل مبعث النبي : خير أهل الأرض ثلاثة : رئاب الشني ، وبحيرا الراهب ، ورجل آخر لم يأت بعد . . . يعني النبي عليه السلام .

وكان لا يموت أحد من ولد رئاب فيدفن الا رأوا واسطا على قبره .

أسعد أبو كرب الحميري

ومنهم أسعد أبو كرب الحميري ، وكان مؤمنا ، وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث بسبعمائة سنة ، وقال :

شهدت على أحمد أنه ... رسول من الله باري النسم
فلو مد عمري الى عمره ... لكنت وزيرا له وابن عم
وألزم طاعته كل من ... على الأرض من عرب أو عجم

وهو أول من كسا الكعبة الأنطاع والبرود ، فلذلك يقول بعض حمير :

وكسونا البيت الذي عظم الـ ... ـله ملاء مقصبا وبرودا

قس بن ساعدة الايادي

ومنهم قس بن ساعدة الايادي من أياد بن أد بن معد ، وكان حكيم العرب ، وكان مقراً بالبعث . وهو الذي يقول : من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت .

وقد ضرب العرب بحكمته وعقله الأمثال . . . قال الأعشى :

وأحكم من قس ، وأجرا من الذي
بذي الغيل من خفان أصبح خادرا

وقدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد من أياد ، فسألهم عنه ، فقالوا : هلك .

فقال : « رحمه الله ، كأنني أنظر اليه بسوق عكاظ على جمل له أحمر وهو يقول: أيها الناس ، اجتمعوا واسمعوا وعوا من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . بعد فان في السماء لخبرا ، وان في الأرض لعبرا : نجوم تمور ، وبحار تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع . أقسم قس بالله قسما لا حانثا فيه ولا آثما ، ان لله لديناً هو أرضى من دين أنتم عليه ما لي أراهم يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا ؟ سبيل مؤتلف ، وعمل مختلف ، وقال أبياتا لا أحفظها » .

فقام أبو بكر رضي الله عنه : فقال : أنا أحفظها يا رسول الله .

فقال : هاتها .

فقال :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر	
لما رأيت مواردا	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	تمضي الأوائل والأواخر
لا يرجع الماضي ، ولا	يبقى من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا	لة حيث صار القوم صائر

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله قسا ، اني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده » .

قال المسعودي : ولقس أشعار كثيرة وحكم ، وأخبار تبصر في الطب والزجر والفأل وأنواع الحكم . وقد ذكرنا ذلك في كتاب « أخبار الزمان » ، وفي الكتاب الأوسط .

زيد بن عمرو بن نفيل

وممن كان في الفترة زيد بن عمرو بن نفيل . ابو سعيد بن زيد أحد العشرة ، وهو ابن عم عمر بن الخطاب لحاً . وكان زيد يرغب عن عبادة الأصنام وعابها ، فأولع به عمه الخطاب سفهاء مكة ، وسلطهم عليه فآذوه . فسكن كهفا بحراء ، وكان يدخل مكة سرا . وصار الى الشام يبحث عن الدين ، فسمته النصارى ومات بالشام . وله خبر طويل مع الملك والترجمان ، ومع بعض ملوك غسان بدمشق ، وقد أتينا عليه فيما سلف من كتبنا .

امية بن ابي الصلت الثقفي

ومنهم أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وكان شاعرا عاقلا ، وكان يتجر الى الشام ، فتلقاه أهل الكنائس من اليهود والنصارى . وقرأ الكتب ، وكان قد علم أن نبيا يبعث من العرب . وكان يقول أشعارا على آراء اهل الديانة يصف فيها السموات والأرض والشمس والقمر والملائكة ، وذكر الأنبياء والبعث والنشور والجنة والنار ، ويعظم اللّه عز وجل ويوحده ، من ذلك قوله :

الحمد للّه ، لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما

ووصف أهل الجنة في بعض كلماته فقال :

فلا لغو ولا تأثيم فيها وما فاهوا به لهم مقيم

ولما بلغه ظهور النبي صلى الله عليه وسلم اغتاظ لذلك وتأسف ، وجاء المدينة ليسلم فرده الحسد ، فرجع الى الطائف . فبينا هو ذات يوم في فتية يشرب اذ وقع غراب فنعب ثلاثة أصوات وطار ، فقال أمية : أتدرون ما قال ؟

قالوا : لا .

قال : فانه يقول لكم ان أمية لا يشرب الكأس الثالثة حتى يموت .

فقال القوم : لتكذبن قوله .

ثم قال : احسوا كأسكم ، فحسوها فلما انتهت النوبة اليه أغمي عليه ، فسكت طويلا ، ثم افاق وهو يقول :

لبيكما لبيكما هأنذا لديكما

أنا من حفت به النعمة ، والحمد والشكر .

ان تغفر اللهم تغفر جما وأي عبد لك لا ألما

أو قال : أنا من حفت به النعمة والحمد ، ولم يجهد في الشكر ، ثم أنشأ يقول :

إن يوم الحساب يوم عظيم شاب فيه الصغير يوما طويلا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي في رؤوس الجبال أرعى الوعولا
كل عيش وان تطاول حينا فقصارى أيامه أن يزولا

ثم شهق شهقة ، فكانت فيها نفسه .

قال المسعودي :وقد ذكر جماعة من أهل المعرفة بأيام الناس ، وأخبار من سلف ـ كابن دأب ، والهيثم بن عدي ، وأبي مخنف لوط بن يحيى ، ومحمد بن السائب الكلبي ـ أن السبب في كتابة قريش ، واستفتاحها في أوائل كتبها « باسمك اللهم » هو أن أمية بن أبي الصلت الثقفي خرج الى الشام في نفر من ثقيف وقريش في عير لهم . فلما قفلوا راجعين نزلوا منزلا ، واجتمعوا لعشائهم ، اذ أقبلت حية صغيرة حتى دنت منهم ، فحصبها بعضهم بشيء في وجهها ، فرجعت . فشدوا سفرتهم ، ثم قاموا فشدوا على ابلهم وارتحلوا من منزلهم .

فلما نزلوا عن المنزل أشرفت عليهم عجوز من كثيب رمل متوكئة على عصا لها ، فقالت : ما منعكم ان تطعموا رحيمة ، الجارية اليتيمة ، التي جاءتكم عشية ؟

قالوا : ومن أنت ؟

قالت : أم العوام ، أوتمت منذ أعوام . أما ورب العباد ، لتفترقن في البلاد .

ثم ضربت بعصاها الأرض ، فأثارت بها الرمل ، وقالت : أطيلي إيابهم ، وأنفري ركابهم .

فوثبت الابل فكأن على ذروة كل بعير منها شيطانا ، ما نملك منها شيئا ، حتى افترقت في البوادي .

فجمعناها من آخر النهار الى غد ، ولم نكد . فلما أنخناها لنرحلها طلعت علينا العجوز ، فعادت بالعصا كفعلها أولا . وعادت الى مقالتها : ما منعكم أن تطعموا رحيمة ، الجارية اليتيمة ؟ . . أطيلي ايابهم ، وأنفري ركابهم .

فخرجت الابل ما نملك منها شيئا . فجمعناها من آخر النهار الى غد ، ولم نكد .

فلما أنخناها لنرحلها ، طلعت علينا العجوز ، ففعلت مثل فعلتها الأولى والثانية فتفرقت الابل .

وأمسينا في ليلة مقمرة ، وقد يئسنا من ظهورنا ، فقلنا لأمية بن أبي الصلت : أين ما كنت تخبرنا به عن نفسك ؟

فتوجه الى ذلك الكثيب الذي كانت تأتي منه العجوز ، حتى هبط من ناحية أخرى . ثم صعد كثيبا آخر حتى هبط منه . ثم رفعت له كنيسة فيها قناديل ، واذا رجل جالس أبيض الرأس واللحية .

قال أمية : فلما وقفت عليه رفع رأسه اليّ وقال : إنك لمتبوع .

قلت : أجل .

قال : فمن أين يأتيك صاحبك ؟

قالت : من أذني اليسرى .

قال : فبأي الثياب يأمرك ؟

قلت : بالسواد .

قال : هذا خطب الجن ، كدت ولم تفعل . ولكن صاحب هذا الأمر يكلمه في أذنه اليمنى ، وأحب الثياب اليه البياض . فما جاء بك ، وما حاجتك ؟

فحدثته حديث العجوز قال : صدقت ، وليست بصادقة . . . هي امرأة يهودية هلك زوجها منذ أعوام ، وانها لا تزال تصنع بكم ذلك حتى تهلككم ان استطاعت .

قال أمية : فما الحيلة ؟

قال : اجمعوا ظهوركم ، فاذا جاءتكم ففعلت ما كانت تفعل ، فقولوا لها : سبعا من فوق ، وسبعا من أسفل ، باسمك اللهم . . . فانها لا تضركم .

فرجع أمية الى أصحابه فأخبرهم بما قيل له . فجاءتهم ففعلت كما كانت تفعل ، فقالوا : سبعا من فوق وسبعا من أسفل ، باسمك اللهم . فلم تضرهم .

فلما رأت الابل لم تتحرك قالت : عرفت صاحبكم ، ليبيضن أعلاه ، ويسودن أسفله .

وسرنا ، فلما أدركنا الصبح نظرنا الى أمية وقد برص في عذاريه ورقبته وصدره ، واسود أسفله . فلما قدموا مكة ذكروا هذا الحديث .

وكان أمية أول من كتب « باسمك اللهم » الى أن جاء الله عز وجل بالاسلام فرفع ذلك وكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وله أخبار غير هذه قد أتينا عليها وعلى ذكرها في « أخبار الزمان » وغيره مما سلف من كتبنا .

ورقة بن نوفل

ومنهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عم خديجة بنت

خويلد زوج النبي صلى الله عليه وسلم لحاً[1] . وكان قد قرأ الكتب وطلب العلم ، ورغب عن عبادة الأصنام ، وبشر خديجة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه نبي هذه الأمة ، وأنه سيؤذى ويكذب . ولقي النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا بن أخي ، اثبت على ما انت عليه ، فوالذي نفس ورقة بيده انك لنبي هذه الأمة ، ولتؤذين ولتكذبن ولتحرجن ولتقاتلن ، ولئن أدركت يومك لأنصرن الله نصرا يعلمه .

وقد اختلف فيه : فمنهم من زعم أنه مات نصرانيا ، ولم يدرك ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يتيسر له أمره . ومنهم من رأى أنه مات مسلما وأنه مدح النبي صلى الله عليه وسلم فقال :

يعفو ويصفح لا يجزي بسيئة ويكظم الغيظ عند الشتم والغضب

عداس مولى عتبة بن ربيعة

ومنهم عداس مولى عتبة بن ربيعة ، وكان من أهل نينوى ، ولقي النبي صلى الله عليه وسلم بالطائف حين خرج يدعوهم الى الله عز وجل . وكان له مع النبي صلى الله عليه وسلم خطب في الحديقة . وقتل يوم بدر على النصرانية . وكان ممن يبشر بالنبي صلى الله عليه وسلم .

أبو قيس صرمة بن أبي أنس

ومنهم أبو قيس صرمة بن أبي أنس من الأنصار من بني النجار . وكان ترهب ولبس المسوح ، وهجر الأوثان ، ودخل بيتا ، واتخذه مسجدا لا تدخله طامث ولا جنب ، وقال : أعبد رب ابراهيم . فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أسلم وحسن اسلامه/، وفيه نزلت آية السحور « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » . وهو القائل في رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ثوى في قريش بضع عشرة حجة بمكة لا يلقى صديقا مؤاتيا

ابو عامر الأوسي

ومنهم أبو عامر الأوسي واسمه عبد عمرو بن صيفي بن النعمان ، من بني عمرو بن

---

١ ـ يقال ابن عمه لحا (بفتح اللام وتشديد الحاء) ، وابن عم لح . اي لاصق النسبة ولحت القرابة بينهما لحا . فان لم يكن لحا ، وكان رجلا من العشيرة ، قيل : ابن عم الكلالة . وابن عم كلالة .

عوف ، من الأوس . وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة ، وكان سيدا قد ترهب في الجاهلية ، ولبس المسوح . فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كان له معه خطب طويل ، فخرج في خمسين غلاما ، فمات على النصرانية بالشام .

عبد الله بن جحش الاسدي

ومنهم عبد الله بن جحش الأسدي ، من بني أسد بن خزيمة ، وكانت عنده أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، قبل أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان قد قرأ الكتب فمال الى النصرانية .

فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم هاجر الى أرض الحبشة فيمن هاجر من المسلمين ومعه زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب . ثم انه ارتد عن الاسلام هنالك وتنصر ، ومات بأرض الحبشة . وكان يقول للمسلمين : انا فقحنا وصأصأتم ... يريد أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر . وهذا مثل ضربه لهم ، وذلك أنه يقال للكلب اذا فتح عينيه بعدما يولد وهو جرو : قد فقح ، واذا كان يريد أن يفتحهما ولم يفتحهما بعد ، قيل : صأصأ .

ولما مات عبد الله بن جحش تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة بنت أبي سفيان ؛ زوجها اياه النجاشي ، وأمهرها عنه أربعمائة دينار .

بحيرا الراهب

ومنهم بَحيرا الراهب ، وكان مؤمنا على دين المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، واسم بحيرا في النصارى سرجس . وكان من عبد القيس ، ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب الى الشام في تجارة وهو ابن اثنتي عشرة سنة ومعهما أبو بكر وبلال ، مروا ببحيرا وهو في صومعته ، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته ودلائله وما كان يجده في كتابه ، ونظر الى الغمام تظله حيثما جلس .

فأنزلهم بحيرا ، وأكرمهم ، واصطنع لهم طعاما ، ونزل من صومعته حتى نظر الى خاتم النبوة بين كتفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضع يده على موضعه . وآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وأعلم أبا بكر وبلالا بقصته ، وما يكون من أمره .

وسأل أبا طالب أن يرجع به من وجهه ذلك ، وحذرهم عليه من أهل الكتاب وأخبر عمه أبا طالب بذلك ، فرجع به .

فلما رجع من سفره ذلك كان بدء قصته مع خديجة ، وما أظهر الله لها من دلائل نبوته ، وما أخبرت به مما كان منه في طريقه .

***

قال المسعودي : فهذه جمل مبدأ الخليقة الى حيث انتهينا من هذا الموضع . ولم نشبه بشيء غير ما جاءت به الشرائع ، ونطقت به الكتب ، واوضحت عنه الرسل عليهم الصلاة والسلام..

ولنذكر الآن بدء ممالك الهند ، ولمعا من آرائها ، ونتبع ذلك بذكر سائر المالك ، اذ كنا قدمنا جملا من ذكر ملوك الاسرائيليين على حسب ما وجدنا في كتب الشرعيين ، والله أعلم .

ذكر جمل من أخبار الهند وآرائها وبدء ممالكها وملوكها

ذكر جماعة من أهل العلم والنظر والبحث الذين وصلوا الغاية بتأمل شأن هذا العالم وبدئه أن الهند كانت في قديم الزمان الفرقة التي فيها الصلاح والحكمة .

فانه لما تجيلت الأجيال ، وتحزبت الأحزاب ، حاولت الهند أن تضم المملكة ، وتستولي على الحوزة ، وتكون الرياسة فيهم . فقال كبراؤهم : نحن كنا أهل البدء ، وفينا التناهي ، ولنا الغاية والصدر والانتهاء ، ومنا سرى الأب الى الأرض . فلا ندع أحدا شاققنا ولا عاندنا وأراد بنا الإغماض الا أتينا عليه وأبدناه أو يرجع الى طاعتنا .

البرهمن

فأزمعت على ذلك ، ونصبت لها ملكا ، وهو البرهمن الأكبر ، والملك الأعظم ، والامام فيها المقدم . وظهرت في أيامه الحكمة ، وتقدمت العلماء ، واستخرجوا الحديد من المعادن ، وضربت في أيامه السيوف والخناجر ، وكثير من أنواع المقاتل . وشيد الهياكل ورصعها بالجواهر المشرقة المنيرة ، وصور فيها الأفلاك والبروج الاثني عشر والكواكب ، وبين بالصورة كيفية العالم ، وأرى بالصورة أيضا أفعال الكواكب في هذا العالم وإحداثها للأشخاص الحيوانية من الناطقة وغيرها ، وبين حال المدبر الأعظم الذي هو الشمس .

وأثبت في كتابه براهين جميع ذلك ، وقرب الى عقول العوام فهم ذلك ، وغرس في نفوس الخواص دراية ما هو أعلىٰ من ذلك .

وأشار الى المبدأ الأول المعطي سائر الموجودات وجودها ، الفائض عليها بجوده ، وانقاد له الهند ، وأخصبت بلادها ، وأراهم وجه مصالح الدنيا . وجمع الحكماء ، فأحدثوا في أيامه كتاب « السند هند » وتفسيره دهر الدهور . ومنه فرعت الكتب ككتاب الأرجيهد والمجسطي . وفرع من الأرجيهد الأركند ، ومن المجسطي كتاب بطليموس ، ثم عمل منها بعد ذلك الزيجات ، وأحدثوا التسعة الأحرف المحيطة بالحساب الهندي .

وكان أول من تكلم في أوج الشمس ، وذكر أنه يقيم في كل برج ثلاثة آلاف سنة ويقطع الفلك في ست وثلاثين ألف سنة .

والأوج الآن على رأي البرهمن في وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) في برج الثور ، وأنه اذا انتقل الى البروج الجنوبية انتقلت العمارة ، فصار العامر خرابا ، والخارب عامرا ، والشمال جنوبا ، والجنوب شمالا .

ورتب في بيت الذهب حساب الدور الأول والتاريخ الأقدم الذي عليه عملت الهند في تواريخ البدأة ، وظهورها في أرض الهند دون سائر الممالك .

ولهم في البدأة خطب طويل أعرضنا عن ذكره ، إذ كان كتابنا كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر . وقد أتينا على جمل من ذلك في الكتاب الأوسط .

ومن الهند من يذكر أن ابتداء العالم في كل سبعين ألف سنة هازروان . وأن العالم اذا قطع هذه المدة عاد الكون ، فظهر النسل ، ومرحت البهائم ، وتغلغل الماء ، ودب الحيوان ، وبقل العشب ، وخرق النسيم الهواء .

فأما أكثر أهل الهند فانهم قالوا بكرور منصوبات على دوائر تبتدىء القوى متلاشية شبيهة الشخص ، موجودة القوة ، منتصبة الذات ، وحدوا لذلك أجلا ضربوه ، ووقتا نصبوه .

وجعلوا الدائرة العظمى والحادثة الكبرى ، وسموا ذلك بعمر العالم .

وجعلوا المسافة بين البدء والانتهاء مدة ست وثلاثين ألف سنة مكررة في اثني عشر ألف عام . وهذا عندهم الهازروان الضابط لقوى الأشياء والمدبر لها .

وأن الدوائر تقبض وتبسط جميع المعاني التي تستودعها . وأن الأعمار تطول في أول الكر لانفساح الدوائر ، وتمكن القوى من المجال ، وتقصر الأعمار في آخر الكر لضيق الدوائر ، وكثرة ما يعرض فيها من الأكدار الباترة للأعمار . وذلك أن قوى الأجسام وصفوها في أول الكر تظهر وتسرح ، وأن الصفو سابق الكدر ، والصافي يبادر الثفل ، والأعمار تطول بحسب صفاء المزاج ، وتكامل القوى المدبرة لعناصر اخلاط الكائنات الفاسدات المستحيلات البائدات .

وأن آخر الكر الأعظم وغاية البدء الأكبر تظهر الصورة متشوهة ، والنفوس ضعيفة ، والأمزجة مختلطة ، وتتناقص القوى ، وتبيد المواسك ، وترد المواد في الدوائر منعكسة مزدحمة ، فلا يحظى ذوو الأعصار بتمام الأعمار .

وللهند فيما ذكرناه علل وبراهين في المبادي الأول ، وفيما بسطناه من تفريعهم في الدوائر والهازروانات ، ورموز وأسرار في النفوس في اتصالها بما علا من العوالم وكيفية بدئها من أعلى الى أسفل ، وغير ذلك مما رتب لهم البرهمن في بدء الزمان .

وكان ملك البرهمن الى أن هلك ثلاثمائة سنة وستين سنة .

البراهمة

وولده يعرفون بالبراهمة الى وقتنا ، والهند تعظمهم . وهم أعلى أجناسهم

وأشرفهم ، ولا يغتذون بشيء من الحيوان ، وفي رقاب الرجال والنساء منهم خيوط صفر يتقلدون بها كحمائل السيوف ، فرقا بينهم وبين غيرهم من أنواع الهند .

وقد كان اجتمع منهم في قديم الزمان في ملك البرهمن سبعة من حكمائهم المنظور اليهم في بيت الذهب ، فقال بعضهم لبعض : اجلسوا حتى نتناظر ، فننظر ما قصة العالم ، وما سره ، ومن أين أقبلنا ، والى أين نمر ؟ وهل خروجنا من عدم الى وجود حكمة أو ضد ذلك ؟ وهل خالقنا المخترع لنا والمنشىء لأجسامنا يجتلب بخلقنا منفعة ، أم هل يدفع بفنائنا عن هذه الدار عن نفسه مضرة ، أم هل يدخل عليه من الحاجة والنقص ما يدخل علينا ؟ أم هل هو غني عن كل وجه ، فما وجه افنائه ايانا واعدامنا بعد وجودنا وآلامنا وملاذنا ؟ . .

فقال الحكيم المنظور اليه منهم : أترى أحدا من الناس ادرك الأشياء الحاضرة والغائبة على حقيقة الادراك ، فظفر بالبغية واستراح الى الثقة ؟

قال الحكيم الثاني : لو تناهت حكمة الباريء عز وجل في أحد العقول ، كان ذلك نقصا من حكمته ، وكان الغرض غير مدرك ، وكان التقصير مانعا من الادراك .

قال الحكيم الثالث : الواجب علينا أن نبتديء بمعرفة أنفسنا التي هي أقرب الأشياء منا ونحن أولى بها وهي أولى بنا ، من قبل أن نتفرغ الى علم ما بعد منا .

قال الحكيم الرابع : لقد ساء وقوع من وقع موقعا احتاج فيه الى معرفة نفسه .

قال الحكيم الخامس : من ههنا وجب الاتصال بالعلماء الممدودين بالحكمة .

قال الحكيم السادس : الواجب على المرء المحب لسعادة نفسه ألا يغفل عن ذلك ، لا سيما اذا كان المقام في هذه الدنيا ممتنعا ، والخروج منها واجبا .

قال الحكيم السابع : أنا لا أدري ما تقولون ، غير أني أخرجت الى هذه الدنيا مضطرا ، وعشت فيها حائرا ، وأخرج منها مكرها .

فاختلف الهند ممن سلف وخلف في آراء هؤلاء السبعة ، وكل قد اقتدى بهم ، ويمم مذهبهم . ثم تفرعوا بعد ذلك في مذاهبهم ، وتنازعوا في آرائهم ، والذي وقع عليه الحصر من طوائفهم سبعون فرقة .

***

قال المسعودي : وقد رأيت أبا القاسم البلخي ذكر في كتاب « عيون المسائل والجوابات » ، وكذلك الحسن بن موسى النوبختي في كتابه المترجم بكتاب « الآراء والديانات » ، مذاهب الهند وآراءهم ، والعلة التي من أجلها احرقوا أنفسهم في النيران ، وقطعوا أجسامهم بأنواع العذاب ، فما تعرضا لشيء مما ذكرنا ، ولا يمما نحو ما وصفنا .

حقيقة البرهمن

وقد تنوزع في البرهمن : فمنهم من زعم أنه آدم عليه السلام ، وأنه رسول الله عز وجل الى الهند ، ومنهم من يقول : إنه كان ملكا على حسب ما ذكرنا ، وهذا أشهر .

الباهبود بن البرهمن

ولما هلك البرهمن جزعت عليه الهند جزعا شديدا ، وفزعت الى نصب ملك عليها من أكبر ولده ، فكان ولي عهده الموصى له من ولده ابنه الباهبود . فسار فيهم سيرة أبيه ، وأحسن النظر اليهم وزاد في بناء الهياكل ، وقدم الحكماء ، وزاد في مراتبهم ، وحثهم على تعليم الناس الحكمة ، وبعثهم على طلبها . فكان ملكه الى أن هلك مائة سنة .

صنع النرد وحكمته

وفي أيامه عمل النرد ، وأحدث اللعب بها ، وجعل ذلك مثالا للمكاسب ، وأنها لا تنال بالكوس ، ولا بالحيل في هذه الدنيا ، وأن الرزق لا يتأتى فيها بالحذق .

وقد ذكر أن أردشير بن بابك أول من صنع النرد ولعب بها ، وارى تقلب الدنيا بأهلها ، واختلاف أمورها . وجعل بيوتها اثني عشر بيتا بعدد الشهور ، وجعل كلابها ثلاثين كلبا بعدد أيام الشهر . وجعل الفصين مثلا للقدر ، وتقلبه بأهل الدنيا ، وأن الانسان يلعب بها فيبلغ باسعاد القدر اياه في مراده باللعب بها ما يريد ، وأن الحازم الفطن لا يتأتى له ما تأتى لغيره ، الا اذا أسعده القدر ، وأن الأرزاق والحظوظ في هذه الدنيا لا تنال الا بالجدود .

زامان بعد الباهبود

ثم ملك زامان بعد الباهبود ، فكام ملكه نحوا من خمسين ومائة سنة . ولزامان سير وأخبار وحروب مع ملوك فارس وملوك الصين قد أتينا على الغرر منها فيما سلف من كتبنا .

ملك فور

ثم ملك فور ، وهو الذي واقعه الاسكندر ، فقتله الاسكندر مبارزة . وكان ملك فور الى أن هلك أربعين ومائة سنة .

ملك دبشليم

ثم ملك بعده دبشليم ، وهو الواضع لكتاب « كليلة ودمنة » الذي ينسب لابن المقفع . وقد صنف سهل بن هارون الكاتب لأمير المؤمنين المأمون كتابا ترجمه ثعلة وعفرة يعارض به كتاب « كليلة ودمنة » في أبوابه وأمثاله ، يزيد عليه في حسن نظمه . وكان ملكه مائة وعشرين سنة ، وقيل غير ذلك .

ملك بلهيت وصنع الشطرنج

ثم ملك بعده بلهيت ، وصنعت في أيامه الشِّطَرنج ، فقضى بلعبها على النرد ، وبين الظفر الذي يناله الحازم ، والبلية التي تلحق الجاهل ، وحسب حسابها ، ورتب لذلك كتابا: للهند يعرف بطرق جنكا يتداولونه بينهم . ولعب بالشطرنج مع حكمائه .

وجعلها مصورة تماثيل مشكلة على صور الناطقين ، وغيرهم من الحيوان مما ليس بناطق ، وجعلهم درجات ومراتب . ومثل الشاه بالمدبر الرئيس ، وكذلك ما يليه من القطع . وأقام ذلك مثالا للأجساد العلوية التي هي الأجسام السماوية من السبعة والاثني عشر ، وأفرد كل قطعة منها بكوكب ، وجعلها ضابطة للمملكة. واذا كان عدو من أعدائه ، فوقعت منه حيلة في الحروب نظروا من أين يؤتون ، في عاجل وآجل .

وللهند في لعب الشطرنج سر يسرونه في تضاعيف حسابها ، ويتغلغلون بذلك الى ما علا من الأفلاك ، وما اليه منتهى العلة الأولى .

وأعداد أضعاف الشطرنج ثمانية عشر ألف ألف ألف ألف ألف ألف وأربعمائة ألف وستة وأربعون ألف ألف ألف ألف ألف وسبعمائة وأربعون ألف ألف ألف ألف ، وثلاثة وسبعون ألف ألف ألف ، وسبعمائة ألف ألف ، وسبعة آلاف ألف وخمسمائة ألف وأحد وخمسون ألف وستمائة وخمسة عشر .

ومراتب هذه الألوف الستة الأولى ، ثم الخمسة التي هي ألف ألف خمس مرات ، ثم الأربع ، ثم الثلاث ، ثم الاثنتين ، ثم الواحدة . . . لها عندهم معان ، يذكرونها في الدهور والأعصار ، وما تقتضيه سائر المؤثرات العلوية في هذا العالم ، لارتباط نفوس الناطقين بها .

ولليونانيين والروم وغيرهم من الأمم في الشطرنج كلام ونوع من اللعب بها . وقد ذكر ذلك الشطرنجيون في كتبهم ، ممن تقدم منهم الى الصولي والعدلي ، واليهما كان انتهاء اللعب بالشطرنج في هذا العصر .

وكان ملك بلهيت ملك الهند الى أن هلك ثمانين سنة ، وفي بعض النسخ أنه ملك ثلاثين ومائة سنة .

ملك كورش

ثم ملك بعده كورش ، فأحدث للهند آراء في الديانات ، على حسب ما رأى من اصلاح الوقت ، وما يحتمله من التكليف أهلَ العصر . وخرج عن مذاهب من سلف . وكان في مملكته وعصره سندباد ، دوّن له كتاب الوزراء السبعة ، والمعلم والغلام وامرأة

الملك ، وهو الكتاب المترجم بالسندباد . وعمل في خزانة هذا الملك الكتاب الأعظم في معرفة العلل والأدواء والعلاجات وشكلت الحشائش وصورت . وكان مدة ملك الهند هذا الى أن مات عشرين ومائة سنة .

اختلاف أهل الهند ، وتعدد ملوكهم

ولما هلك هذا الملك اختلفت الهند في آرائها ، فتحزبت الأحزاب ، وتحيلت الأجيال ، وانفرد كل رئيس بناحية . . . فملك على أرض السند ملك ، وملك على أرض القنوج ملك ، وتملك على أرض قشمير ملك ، وتملك على مدينة المانكير (وهي الحوزة الكبرى) ملك يسمى بالبلهري . وهذا أول ملك سمي من ملوكهم بالبلهري ، فصارت سمة لمن طرأ بعده من الملوك لهذه الحوزة الى وقتنا هذا ؛ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة .

صفة ارض الهند

وأرض الهند ارض واسعة في البر والبحر والجبال ، وملكهم متصل بملك الزابج ، وهي دار مملكة المهراج ملك الجزائر . وهذه المملكة قدر بين مملكة الهند والصين ، وتضاف الى الهند .

والهند متصلة مما يلي الجبال بأرض خراسان والسند الى أرض التبت . وبين هذه الممالك تباين وحروب ، ولغاتهم مختلفة ، وآراؤهم غير متفقة ، والأكثر منهم يقول بالتناسخ وتنقل الأرواح ، على حسب ما قدمناه آنفا .

والهند في عقولهم وسياساتهم وحكمتهم وألوانهم وصفائهم وصحة أمزجتهم وصفاء أذهانهم ودقة نظرهم بخلاف سائر السودان من الزنج والدمادم وسائر الأجناس .

بعض طبائع الهند

وقد ذكر جالينوس في الأسود عشر خصال اجتمعت فيه ولم توجد في غيره : تفلفل الشعر ، وخفة الحاجبين ، وانتشار المنخرين ، وغلظ الشفتين ، وتحديد الأسنان ، ونتن الجلد ، وسواد الحدق ، وتشقق اليدين والرجلين ، وطول الذكر ، وكثرة الطرب .

قال جالينوس : وإنما غلب على الأسود الطرب لفساد دماغه ، فضعف لذلك عقله .

وقد ذكر غير جالينوس في طرب السودان ، وغلبة الفرح عليهم ، وما خص به الزنج من ذلك دون سائر السودان في الإكثار من الطرب ، أمورا قد ذكرناها فيما سلف من كتبنا .

ولقد كان طاوس اليماني صاحب عبد الله بن عباس لا يأكل من ذبيحة الزنجي ، ويقول : إنه عبد مشوه الخلقة .

وبلغنا أن أبا العباس الراضي بالله بن المقتدر بالله كان لا يتناول شيئا من أسود ،

ويقول : إنه عبد مشوه خلقه .

فلست أدري أقلدطاوسا في مذهبه أم لضرب من آراء النحل .

وقد صنف عمرو بن بحر الجاحظ كتابا في فخر السودان ومناظرتهم مع البيضان .

والهند لا تملك الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة . ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم الا في كل برهة من الزمان معلومة . ويكون ظهورها للنظر في أمور الرعية ، لأن في نظر العوام عندها الى ملوكها خرقا لهيبتها ، واستخفافا بحقها . والرياسات عند هؤلاء لا تجوز الا بالتخير ، ووضع الأشياء مواضعها من مراتب السياسة .

قال المسعودي : ورأيت في بلاد سرنديب (وهي جزيرة من جزائر البحر) أن الملك من ملوكهم اذا مات صير على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكرة معدة لهذا المعنى ، وشعره ينجر على الأرض ، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه ، وتنادي : أيها الناس ، هذا ملككم بالأمس قد ملككم وجاز فيكم حكمه . وقد صار أمره الى ما ترون من ترك الدنيا ، وقبض روحه ملك الموت ، والحي القديم الذي لا يموت فلا تغتروا بالحياة بعده . . . . وتقول كلاما هذا معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالم ، ويطاف به كذلك في جميع شوارع المدينة ثم يفصل أربع قطع ـ وقد هيىء له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيب ـ فيحرق بالنار ، ويذر رماده في الرياح .

وكذا فعل اكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم ، لغرض يذكرونه ، ونهج يتيممونه المستقبل من الزمان .

والملك مقصور على أهل بيت لا ينتقل عنهم الى غيرهم ، وكذلك بيت الوزراء ، والقضاة ، وسائر أهل المراتب ، لا تغير ولا تبدل .

والهند تمنع من شرب الشراب ، ويعنفون شاربه ، لا على طريق التدين ، ولكن تنزها عن أن يوردوا على عقولهم ما يغشيها ، ويزيلها عما وضعت له فيهم . واذا صح عندهم عن ملك من ملوكهم شربه استحق الخلع عن ملكه ، اذ كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط .

وربما يسمعون السماع والملاهي . ولهم ضروب من الآلات مطربة تفعل في الناس افعالا مرتبة من ضحك وبكاء . وربما يسقون الجواري فيطربن بحضرتهم ، فتطرب الرجال لطرب الجواري .

وللهند سياسات كثيرة قد أتينا على ذكر كثير منها ومن أخبارهم وسيرهم في كتابنا « أخبار الزمان »وفي الكتاب الأوسط ، وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعا .

***

وأعظم ملوك الهند في وقتنا هذا البلهري صاحب مدينة المانكير ، وأكثر ملوك الهند تتوجه في صلواتها نحوه ، وتصلي لرسله اذا وردوا عليهم .

وتلي مملكة البلهري ممالك كثيرة للهند .

ومنهم ملوك في الجبال لا بحر لهم مثل الراي صاحب القشمير ، وملك الطافن ، وغير ذلك من ملوكهم (أعني ملوك الهند) ، ومنهم من بملكه بر وبحر . فأما البلهري فان بين ديار ملكه وبين البحر مسيرة ثمانين فرسخا سندية ، والفرسخ ثمانية أميال . وله جيوش وفيلة لا تدرك كثرتها ، وأكثر جيوشه رجالة ، لأن دار ملكه بين الجبال .

ويساويه من ملوك الهند ممن لا بحر له بؤورة صاحب مدينة القنوج . وهذا الاسم سمة لكل ملك يلي هذه المملكة . وله جيوش مرتبة على الشمال والجنوب والصبا والدبور ، لأنه في كل وجه من هذه الوجوه يلقى ملكا محاربا له .

وسنذكر جملا من أخبار ملوك السند والهند وغيرهم من ملوك الأرض فيما يرد من هذا الكتاب ، عند ذكرنا البحار وما فيها وما حولها من العجائب والأمم ومراتب الملوك وغير ذلك . وإن كنا قد أسلفنا ذلك فيما تقدم من كتبنا ، والله أعلم .

ذكر الأرض والبحار
ومبادئ الأنهار والجبال والأقاليم السبعة
وما والاها من الكواكب وترتيب الأفلاك وغير ذلك

وصف الأرض

قسمت الحكماء الأرض الى جهة المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، وقسموا ذلك الى قسمين : مسكون وغير مسكون ، وعامر وغير عامر .

وذكروا أن الأرض مستديرة ، ومركزها في وسط الفلك ، والهواء محيط بها من كل الجهات ، وأنها عند فلك البروج بمنزلة النقطة قلة .

واخذوا عمرانها من حدود الجزائر الخالدات في بحر أوقيانوس الغربي ، وهي ستة أجزاء عامرة الى أقصى عمران الصين ، فوجدوا ذلك اثنتي عشرة ساعة . فعلموا أن الشمس اذا غابت في أقصى الصين كان طلوعها على الجزائر العامرة المذكورة التي في بحر اوقيانوس الغربي ، وإذا غابت في هذه الجزائر كان طلوعها في أقصى الصين . وذلك نصف دائرة الأرض ، وهو طول العمران الذي ذكروا أنهم وقفوا عليه . ومقداره من الأميال ثلاثة عشر ألف ميل وخمسمائة ميل من الأميال التي عملوا عليها في مساحة دور الأرض .

ثم نظروا الى العروض ، فوجدوا العمران من موضع خط الاستواء الى ناحية الشمال ينتهي الى جزيرة تولي التي في بريطانية حيث يكون طول النهار الأطول عشرين ساعة .

وذكروا أن موضع خط الاستواء من الأرض يقطع فيما بين المشرق والمغرب في جزيرة بين الهند والحبش من ناحية الجنوب ، فيعرض ما بين الشمال والجنوب في النصف مما بين الجزائر العامرة وأقصى عمران الصين وهو قبة الأرض المعروفة بما ذكرنا .

ويكون العرض من خط الاستواء الى جزيرة تولي قريبا من ستين جزءا ، وذلك سدس دائرة الأرض . واذا ضرب هذا السدس الذي هو مقدار العرض في النصف الذي هو مقدار الطول كان مقدار ما يظهر من العمران من ناحية الشمال مقدار نصف سدس دائرة الأرض .

الأقاليم السبعة

وأما الأقاليم السبعة فأولها أرض بابل ، منه خراسان وفارس والأهواز والموصل وأرض الجبال ، وله من البروج الحمل والقوس ، ومن الأنجم السبعة المشتري .

والأقليم الثاني : الهند والسند والسودان ، وله من البروج الجدي ، ومن الأنجم السبعة زحل .

والأقليم الثالث : مكة والمدينة واليمن والطائف والحجاز وما بينها . وله من البروج العقرب ، ومن الأنجم السبعة الزهرة ، وهي سعد الفلك .

والاقليم الرابع : مصر وافريقية والبربر والأندلس وما بينهما . وله من البروج الجوزاء ، ومن الأنجم السبعة عطارد .

والأقليم الخامس : الشام والروم والجزيرة ، له من البروج الدلو ، ومن الأنجم السبعة القمر .

والاقليم السادس : الترك والخزر والديلم والصقالبة ، له من البروج السرطان ، ومن الأنجم السبعة المريخ .

والاقليم السابع : الديبل والصين ، له من البروج الميزان ، ومن الأنجم السبعة الشمس .

ذكر حسين المنجم صاحب كتاب « الزيج » في النجوم ، عن خالد بن عبد الملك المروزي وغيره ـ وقد كانوا رصدوا الشمس لأمير المؤمنين المأمون في برية سنجار من بلاد ديار ربيعة ـ أن مقدار درجة واحدة من وجه الأرض ستة وخمسون ميلا .

فضربوا مقدار درجة واحدة في ثلثمائة وستين ، فوجدوا دور كرة الأرض المحيطة بالبر والبحر عشرين ألف ميل ومائة وستين ميلا .

ثم ضربوا دور الأرض في سبعة فاجتمع مائة ألف ميل وأحد وأربعون ألف ميل ومائة وعشرون ميلا .

فقسموا ذلك على اثنين وعشرين ميلا ، وخرج القسم الذي هو مقدار قطر الأرض ستة آلاف وأربعمائة وأربعة عشر ميلا ونصفا ونصف عشر ميل بالتقريب . ونصف قطر الأرض ثلاثة آلاف ميل ومائتا ميل وسبعة أميال وست عشرة دقيقة وثلثا ثانية ، يكون ربع ميل وربع عشر ميل . والميل أربعة آلاف ذراع بالأسود ، وهي الذراع التي وضعها أمير المؤمنين المأمون لذرع الثياب ومساحة البناء وقسمة المنازل ، والذراع مائة وعشرون اصبعا .

جغرافية بطليموس

قال المسعودي : وقد ذكر بطليموس في الكتاب المعروف بجغرافيا صفة الأرض ومدنها وجبالها ، وما فيها من البحار والجزائر والأنهار والعيون ، ووصف المدن المسكونة والمواضع العامرة ، وأن عددها أربعة آلاف مدينة وخمسمائة وثلاثون مدينة في عصره ، وسماها مدينة مدينة في اقليم اقليم .

وذكر في هذا الكتاب ألوان جبال الدنيا من الحمرة والصفرة والخضرة ، وغير ذلك من

الألوان ، وأن عددها مائتا جبل ونيف . وذكر مقدارها وما فيها من المعادن والجواهر .

وذكر هذا الفيلسوف أن عدد البحار المحيطة بالأرض خمسة أبحر ، وذكر ما فيها من الجزائر ، والعامر منها وغير العامر ، وما اشتهر من الجزائر دون ما لم يشتهر .

وذكر أن في البحر الحبشي جزائر متصلة نحوا من ألف جزيرة يقال لها الدبيحات عامرة كلها ، من الجزيرة الى الجزيرة للميلان والثلاثة واكثر من ذلك ، دون ما في هذا البحر من الجزائر .

وذكر بطليموس في جغرافيا ان ابتداء بحر مصر من الروم الى بحر الأصنام النحاس ، وأن جميع العيون الكبار التي تنبع من الأرض مائتا عين وثلاثون عينا ، دون ما عداها من الصغار . وأن عدد الأنهار الكبار الجارية في الأقاليم السبعة على دوام الأوقات مائتان وتسعون نهرا ، وأن الأقاليم على حسب ما قدمناه في عدة الأقاليم ، وكل اقليم سعته تسعمائة فرسخ في مثلها .

وفي البحار ما هو معمور بالحيوان ، ومنها ما ليس بمعمور ، وهو أوقيانوس البحر المحيط .

وسنأتي فيما يرد من هذا الكتاب على ذكر جمل في تفصيل البحار ووصفها .

وهذه البحار كلها مصورة في كتاب جغرافيا بأنواع من الأصباغ مختلفة المقادير في الصورة : فمنها ما هو على صورة الطيلسان ، ومنها ما هو على صورة الشابورة ، ومنها مصراني الشكل ، ومنها مدور ، ومنها مثلث ، إلاّ أنّ أسماءها في هذا الكتاب باليونانية متعذر فهمها .

وأن قطر الأرض ألفان ومائة فرسخ ، يكون ذلك على التصحيح ستة آلاف وستمائة فرسخ ، تقدير كل فرسخ ستة عشر ألف ذراع . والذي يحيط بأسفل دائرة النجوم ـ وهو فلك القمر ـ مائة ألف فرسخ وخمسة وعشرون ألفا وستمائة وستون فرسخا .

وأن قطر الفلك من حد رأس الحمل الى حد رأس الميزان أربعون ألف فرسخ بتقدير هذه الفراسخ .

وعدد هذه الأفلاك تسعة . فأولها وهو اصغرها وأقربها الى الأرض القمر ، والثاني : لعطارد . والثالث : للزهرة ، والرابع : للشمس ، والخامس : للمريخ ، والسادس : للمشتري ، والسابع : لزحل ، والثامن : للكواكب الثابتة ، والتاسع للبروج .

وهيئة هذه الأفلاك هيئة الأكر بعضها في جوف بعض . ففلك البروج يسمى الفلك الكلي ، وبه يكون الليل والنهار ، لأنه يدير الشمس والقمر وسائر الكواكب من المشرق الى

المغرب في كل يوم وليلة دورة واحدة ، على قطبين ثابتين : أحدهما مما يلي الشمال وهو قطب بنات نعش ، والآخر مما يلي الجنوب وهو قطب سهيل .

وليس البروج غير الفلك ، وإنما هي موضع لقبت بهذه الأسماء لتعرف مواضع الكواكب من الفلك الكلي .

فيجب أن تكون البروج تضيق من ناحية القطبين وتتسع في وسط الكرة ، والخط القاطع للكرة نصفين ، الآخذ من المشرق الى المغرب ، يسمى دائرة معدل النهار ، لأن الشمس اذا صارت عليها استوى الليل والنهار في جميع البلدان . فما كان من الفلك آخذا من الجنوب الى الشمال يسمى العرض ، وما كان آخذا من الشرق الى الغرب يسمى الطول .

والأفلاك مستديرة محيطة بالعالم ، وهي تدور على مركز الأرض ، والأرض في وسطها مثل النقطة في وسط الدائرة ، وهي تسعة أفلاك .

فأقربها من الأرض فلك القمر ، وفوقه فلك عطارد ، وفوق ذلك فلك الزهرة ، ثم فلك الشمس . والشمس متوسطة الأفلاك السبعة ، وفوقها فلك المريخ ، وفوقه فلك المشتري ، وفوق ذلك فلك زحل ، وفي كل فلك من هذه الأفلاك السبعة كوكب واحد فقط . وفوق فلك زحل الفلك الثامن الذي فيه البروج الاثنا عشر ، وسائر الكواكب في الفلك الثامن .

والفلك التاسع ـ وهو أرفع وأعظم جسما ، وهو الفلك الأعظم ـ يحيط بالأفلاك التي دونه مما سمينا ، وبالطبائع الأربع ، وبجميع الخليقة . وليس فيه كوكب ، ودوره من المشرق الى المغرب في كل يوم دورة واحدة تامة ، ويدير بدورانه ما تحته من الأفلاك المتقدم وصفها .

وأما الأفلاك السبعة التي قدمنا ذكرها فانها تدور من المغرب الى المشرق .

وللأوائل فيما ذكرنا حجج يطول الخطب بها .

والكواكب المرئية التي نشاهدها وسائر الكواكب في الفلك الثامن . وهو يدور على قطبين غير قطبي الفلك الأعظم المتقدم ذكره .

وزعموا أن الدليل على أن حركة هذه البروج غير حركة الأفلاك هو أن البروج الاثني عشر يتلو بعضها بعضا في مسيرها ، ولا تنتقل عن أماكنها ، ولا تتغير حركتها في طلوعها وغروبها . وأن الكواكب السبعة لكل واحد منها حركة خلاف حركة صاحبه ، ولها تفاوت في حركاتها ، فربما أسرع الكوكب في حركته ومسيره ، وربما أخذ في الجنوب وربما أخذ في الشمال .

وحد الفلك عندهم أنه نهاية لما تصير اليه الطبائع علوا وسفلا ، وحده من جهة الطبائع أنه شكل مستدير ، وهو أوسع الأشكال ، وهو يحيط بالأشكال كلها .

وإن مقادير حركة هذه الكواكب في افلاكها مختلفة فمقام القمر في كل برج يومان ونصف .. ويقطع الفلك في شهر ، ومقام الشمس في كل برج شهر ، ومقام عطارد في كل برج خمسة عشر يوما ، ومقام الزهرة في كل برج خمسة وعشرون يوما ، ومقام المريخ في كل برج خمسة وأربعون يوما ، ومقام المشتري في كل برج سنة ، ومقام زحل في كل برج ثلاثون شهرا .

وقد زعم بطليموس صاحب كتاب « المجسطي » أن استدارة الأرض كلها - جبالها وبحارها - أربعة وعشرون ألف ميل . وأن قطرها ، وهو عرضها وعمقها ، سبعة آلاف وستمائة وستة وثلاثون ميلا ، وأنهم انما استدركوا ذلك بأنهم أخذوا ارتفاع القطب الشمالي في مدينتين وهما على خط واحد من خط الاستواء ، مثل مدينة تدمر التي في البرية بين العراق والشام ، ومثل مدينة الرقة . فوجدوا ارتفاع القطب في مدينة الرقة خمسة وثلاثين جزءاً وثلثا . ووجدوا ارتفاع القطب في مدينة تدمر أربعة وثلاثين جزءاً بينهما زيادة جزء وثلث جزء . ومسحوا ما بين الرقة وتدمر فوجدوه سبعة وستين ميلا .

فالظاهر من الفلك سبعة وستون ميلا من الأرض ، والفلك ثلثمائة وستون جزءاً ، لعلل ذكروها يبعد علينا ايرادها في هذا الموضع .

وهذه قسمة صحيحة عندهم ، لأنهم وجدوا الفلك قد اقتسمته البروج الاثنا عشر ، وأن الشمس تقطع كل برج في شهر ، وتقطع البروج كلها في ثلثمائة وستين يوما . وأن الفلك مستدير يدور بمحورين أو قطبين . وأنهما بمنزلة محوري النجار والخراط الذي يخرط الأكر والقصاع وغيرها من الآلات الخشب . وأن من كان مسكنه وسط الأرض وعند خط الاستواء ، استوت ساعات ليله ونهاره سائر الدهور ، ورأى هذين المحورين (اعني القطب الشمالي والقطب الجنوبي جميعا) .

فأما أهل البلدان التي مالت الى ناحية الشمال فانهم يرون القطب الشمالي وبنات نعش ، ولا يرون القطب الجنوبي ولا الكواكب التي هي قريبة منه . وكذلك لا يرى الكوكب المعروف بسهيل بناحية خراسان ، ويرى في العراق في السنة أياما ، ولا تقع عين جمل من الجمال عليه الا هلك ، على حسب ما ذكرناه وما ذكر الناس من العلة في ذلك في موت هذا النوع من الحيوان خاصة .

وأما في البلدان الجنوبية فانه يرى في السنة كلها .

وقد تنازع طوائف الفلكيين وأصحاب النجوم في هذين المحورين اللذين يعتمد عليهما الفلك في دوره : أساكنان هما أم متحركان ؟ فذهب الأكثر منهم الى أنهما غير متحركين . وقد أتينا على ما يلزم كل فريق منهم في بيان هذين المحورين : أمن جنس الأفلاك هما أم من غير ذلك ، فيما سلف من كتابنا .

شكل البحار

وقد تنوزع في شكل البحار ، فذهب الأكثر من الفلاسفة المتقدمين من الهند وحكماء اليونانيين ـ الا من خالفهم وذهب الى قول الشرعيين ـ أن البحر مستدير على مواضع الأرض . واستدلوا على صحة ذلك بدلائل كثيرة ، منها أنك اذا لججت فيه غابت عنك الأرض والجبال شيئا بعد شيء ، حتى يغيب ذلك كله ولا ترى شيئا من شوامخ الجبال . واذا أقبلت أيضا نحو الساحل ظهرت تلك الجبال شيئا بعد شيء ، واذا قربت من الساحل ظهرت الأشجار والأرض .

وهذا جبل دنباوَند بين بلاد الري وطبرستان ، يرى من مائة فرسخ ، لعلوه وذهابه في الجو . ويرتفع في أعاليه الدخان ، والثلوج مترادفة عليه غير خالية من أعاليه . ويخرج من أسفله نهر كثير الماء أصفر كبريتي ذهبي اللون ، مسافة الصعود اليه في نحو ثلاثة أيام بلياليها . وان من علاه وصار في قلته وجد مساحة رأس القلة نحو ألف ذراع في مثل ذلك ، وهي ترى في رأي العين من أسفل نحو القبة المنخرطة .

وإن في هذه المساحة في اعاليه رملا احمر تغوص فيه الأقدام . وإن هذه القبة لا يلحقها شيء من الوحش ولا من الطير ، لشدة الرياح وسموها في الهواء ، وشدة البرد . وان في اعاليه نحوا من ثلاثين ثقبا يخرج منها الدخان الكبريتي العظيم ، ويخرج مع ذلك من هذه المخارق مع الدخان دوي عظيم كأشد ما يكون من الرعد ، وذلك صوت تلهب النيران .

وربما يحمل من غرر بنفسه وصعد الى أعاليه من أفواه هذه الثقوب كبريتا أصفر كأنه الذهب يقع في أنواع الصنعة والكيمياء وغير ذلك من الوجوه .

وان من علاه يرى ما حوله من الجبال الشامخة كأنها رواب وتلال لعلوه عليها .

وبين هذا الجبل وبحر طبرستان في المسافة نحو من عشرين فرسخا . والمراكب اذا لجت في هذه البحر غاب عنها جبل دنباوند فلم يره أحد ، فاذا صاروا في هذا البحر على نحو من مائة فرسخ ، ودنوا من جبال طبرستان رأوا اليسير من أعالي هذا الجبل . فكلما قربوا من هذا الساحل ظهر لهم . . . وهذا دليل على ما ذهبوا اليه من كرية ماء البحر ، وأنه مستدير الشكل .

وكذلك من يكون في بحر الروم الذي هو بحر الشام ومصر يرى الجبل الأقرع ، وهو جبل عال لا يدرك علوه مطل على بلاد انطاكية واللاذقية وطرابلس وجزيرة قبرص وغيرها من بلاد الروم ، فيغيب عن أبصار من في المراكب لانخفاضهم في المسير في البحر عن المواضع التي يرى منها .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جبل دنباوند وما قال الفرس في ذلك ، وأن الضحاك ذا الأفواه موثق في أعاليه بالحديد .

وهذه القبة التي في أعالي هذا الجبل أطم عظيمة من آطام الأرض وعجائبها .

مساحة الأرض والكواكب

وقد تكلم الناس في بعد الأرض ، فذكر الأكثر أن من مركز الأرض الى ما ينتهي اليه الهواء والنار مائة ألف وثمانية عشر ألف ميل .

وأما القمر فان الأرض اعظم منه بتسع وثلاثين مرة ، والأرض اعظم من عطارد بثلاث وعشرين ألف مرة ، والأرض أعظم من الزهرة بأربع وعشرين ألف مرة .

والشمس اعظم من الأرض بمائة وسبعين مرة وربع وثمن ، وأعظم من القمر بألف وستمائة وأربع وأربعين مرة .

والأرض كلها نصف عشر ثمن جزء من الشمس ، وقطر الشمس اثنان وأربعون ألف ميل .

والمريخ مثل الأرض وزيادة ثلاثة وستين مرة ، وقطره ثمانية آلاف وسبعمائة ميل ونصف ميل .

والمشتري مثل الأرض احدى وثمانين مرة ونصف وربع ، وقطره ثلاثة وثلاثون الف ميل وستة عشر ميلا .

وزحل أعظم من الأرض تسعا وتسعين مرة ونصفا ، وقطره اثنان وثلاثون ألف ميل وسبعمائة وستة وثلاثون ميلا .

وأما أجرام الكواكب الثابتة التي في المشرق الأول ـ وهي خمسة عشر كوكبا ـ فكل كوكب منها اعظم من الأرض بأربع وتسعين مرة ونصف مرة .

وأما بعدها من الأرض فان اقرب بعد القمر منها مائة ألف وثمانية وعشرون ألف ميل . وأبعد بعده من الأرض مائة ألف وأربعة وعشرون ألف ميل .

وابعد بعد عطارد من الأرض سبعمائة ألف ألف وسبعمائة وثلاثة وثلاثون ألف ميل .

وأبعد بعد الزهرة من الأرض اربعة آلاف ومائة وتسعة عشر ألف ميل وستمائة ميل .

وأبعد بعد الشمس من الأرض اربعة آلاف ألف ألف وثمانمائة ألف وعشرون ألفا ونصف ميل .

وأبعد بعد المريخ من الأرض ثلاثة وثلاثون ألف ألف ميل وستمائة ألف ميل وشيء .

وأبعد بعد المشتري من الأرض اربعة وخمسون ألف ألف ومائة ألف وستة وستون ألف ميل الا شيئا .

وأبعد بعد زحل من الأرض سبعة وسبعون ألف ألف ميل الا شيئا .

وأبعد الكواكب الثابتة من مركز الأرض نحو ذلك .

***

وفيما ذكرنا من القسمة والأجزاء والمقاييس استدرك القوم علم الساعات والكسوفات ، وبها استخرجوا الآلات والاسطرلابات ، وعليها صنفوا كتبهم كلها ، وهذا باب ان شرعنا في ايراد البعض منه كثر ، واتسع الكلام فيه . وإنما ذكرنا لمعا من هذه الفنون لندل بها على ما لم نورده .

***

وقد رتبت الصابئة من الحرانيين ـ وهم عوام اليونانيين وحشوية الفلاسفة المتقدمين ـ الكهنة في هياكلها مراتب على ترتيب هذه الأفلاك السبعة ، فأعلى كهانهم يسمى رأس كمري .

ثم وردت بعدهم النصارى فرتبت الكهنة في كهانتها ، على ما تقدمت فيه الصابئة في مذهبها . وسمت النصارى هذه المراتب العظات : فأولها السلط ، والثاني اعنسط ، والثالث يودنا ، والرابع شماس ، والخامس قسيس ، والسادس يودوط ، والسابع حور الغينطس (وهو الذي يخلف الأسقف) ، والثامن أسقف ، والتاسع مطران (وتفسير مطران رئيس المدينة) . . . والذي فوق هؤلاء كلهم في المرتبة البطرك ، وتفسيره أبو الآباء .

فمن تقدم ذكرهم من أصحاب المراتب وغيرهم من الأداني وعوامهم .

هذا عند خواص النصارى ، فأما العوام منهم فيذكرون في هذه المراتب غير ما ذكرنا . وهو أن ملكا ظهر لهم ، وأظهر أمورا يذكرونها لا حاجة بنا الى وصفها . وهذا ترتيب الملكية ، وهم عمد النصرانية وقطبها . لأن المشارقة ـ وهم العباد والملقبون بالنسطورية واليعاقبة ـ عن هؤلاء تفرعوا ، ومنهم تبلدوا .

وإنما اخذت النصارى جملا من هذه المراتب على ما ذكرنا من الصابئة ، وأما القسيس والشماس وغير ذلك فعن المانية ، الا التصلوس والسماع .

وإن كان ماني حدث بعد مضي السيد عيسى ابن مريم عليه السلام ، وكذلك ابن ديصان ومرقيون . والى ماني اضيفت المانية ، والى مرقيون أضيفت المرقيونية ، والى ابن ديصان أضيفت الديصانية ، ثم تفرعت بعد ذلك المزدقية وغيرها ممن سلك طريقة صاحب الاثنين .

وقد أتينا في كتابنا « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط على جمل من نوادر هذه المذاهب ، وما أوردوه من الخرافات المزخرفة ، والشبه الموضوعة ، وما ذكرناه من مذاهبهم في كتابنا في « المقالات في أصول الديانات » وما ذكرناه في كسر هذه الآراء وهدم هذه المذاهب في كتابنا المترجم بكتاب « الابانة في أصول الديانة » . وإنما نذكر في هذه الأبواب ما يتشعب الكلام اليه ، ويتغلغل الوصف نحوه ، فنورد منه لمعا على طريق الخبر والحكاية للمذهب ، لا على طريق النظر والجدل ، لئلا يخلو كتابنا هذا مما تدعو الحاجة الى ذكره ، والله أعلم .

ذكر الأخبار عن انتقال البحار وجمل من أخبار الأنهار الكبار

ذكر صاحب « المنطق » أن البحار تنتقل على مرور السنين وطويل الدهر ، حتى تصير في مواضع مختلفة . وأن جملة البحار متحركة ، إلا أن تلك الحركة اذا أضيفت الى جملة مياهها وسعة سطوحها وبعد قعورها صارت كأنها ساكنة .

وليست مواضع الأرض الرطبة أبدا رطبة ، ولا مواضع الأرض اليابسة أبدا يابسة ، لكنها تتغير وتستحيل ، لصب الأنهار اليها ، وانقطاعها عنها .

ولهذه العلة يستحيل موضع البحر وموضع البر ، فليس موضع البر أبدا برا ، ولا موضع البحر أبدا بحرا ، بل قد يكون برا حيث كان مرة بحرا ، ويكون بحرا حيث كان مرة برا .

وعلة ذلك الأنهار وبدؤها ، فان لمواضع الأنهار شبابا وهرما ، وحياة وموتا ، ونشأ ونشورا ، كما يكون ذلك في الحيوان والنبات . غير أن الشباب والكبر في الحيوان والنبات لا يكون جزءا بعد جزء ، لكنها تشب وتكبر أجزاؤها كلها معا ، وكذلك تهرم وتموت في وقت واحد .

فأما الأرض فانها تهرم وتكبر جزءا بعد جزء ، وذلك بدوران الشمس .

وقد اختلف الناس في الأنهار والأعين من أين بدؤها ، فذهبت طائفة الى أن مجراها كلها ـ اعني البحار ـ واحد ، وهو البحر الأعظم ، وأن ذلك بحر عذب ليس هو بحر أقيانوس .

وزعمت طائفة أن البحار في الأرضين كالعروق في البدن .

وقال آخرون : حق الماء أن يكون على سطح ، فلما اختلفت الأرض فكان منها العالي والهابط انحاز الماء الى أعماق الأرض ، فاذا انحصرت المياه في أعماق الأرض وقعورها طلبت التنفس حينئذ ، لغلظ الأرض وضغطتها اياها من أسفل ، فتنبثق من ذلك العيون والأنهار ، وربما تتولد في باطن الأرضين من الهواء الكائن هناك .

وأن الماء ليس بأسطقس ، وإنما هو متولد من عفونات الأرض وبخارها . وقالوا في ذلك كلاما كثيرا أعرضنا عن ذكره ، طلبا للايجاز وميلا للاختصار ، وقد بسطنا ذلك في غير هذا الكتاب من كتبنا .

وأما مبادىء الأنهار الكبار ، ومطارحها ، ومقادير جريانها على وجه الأرض كالنيل والفرات والدجلة ونهر بلخ (وهو جيحون) ۰ ومهران السند وجنجس (وهو نهر عظيم بأرض الهند) ، ونهر سابط(وهو نهر عظيم) ، ونهر طنابس الذي يصب الى بحر نيطس ، وغيرها مما كبر من الأنهار ، فقد تكلم الناس في مقدار جريانها على وجه الأرض .

فرأيت في جغرافيا النيل مصورا ظاهرا من تحت جبل القمر ، ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنتي عشرة عينا ، فتصب تلك المياه الى بحرين هناك كالبطائح ، ثم يجتمع الماء جاريا فيمر برمال هناك وجبال ، ويخترق ارض السودان مما يلي بلاد الزنج ، فيتشعب منه خليج ينصب الى بحر الزنج ، وهو بحر جزيرة قنبلو .

وهي جزيرة عامرة فيها قوم من المسلمين ، الا ان لغتهم زنجية ، غلبوا على هذه الجزيرة وسبوا من كان فيها من الزنج ، كغلبة المسلمين على جزيرة اقريطش في البحر الرومي ، وذلك في مبدأ الدولة العباسية وتقضي الأموية . ومنها الى عمان في البحر نحو من خمسمائة فرسخ على ما يقول البحريون ، حزرا منهم لذلك ، لا على طريق التحصيل والمساحة .

وذكر جماعة من نواخذة هذا البحر من السيرافيين والعمانيين ، وهم أرباب المراكب ، أنهم يشاهدون في هذا البحر ـ في هذا الوقت الذي فيه زيادة النيل بمصر ، أو قبل الأوان بمدة يسيرة ـ ماء يخترق هذا البحر ويشقه من شدة جريانه ، يخرج من جبال الزنج ، عرضه أكثر من ميل عذبا حلوا ، يتكدر في ابان الزيادة بمصر وصعيدها ، فيها الشوهمان ، وهو التمساح الكائن في نيل مصر ، ويسمى أيضا الورل .

بعض اوهام الجاحظ

وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذي هو نهر السند من نيل مصر ، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه . فلست أدري كيف وقع له هذا الدليل ؟ ! وذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب « الأمصار وعجائب البلدان » ، وهو كتاب في نهاية الغثاثة ، لأن الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الأسفار ، ولا تقرى المسالك والأمصار ، وإنما كان خاطب ليل ، ينقل من كتب الوراقين ، أو لم يعلم أن نهر مهران السند يخرج من أعين مشهورة من اعالي بلاد السند من أرض القنوج من مملكة بؤورة وأرض قشمير والقفندار والطافر ، حتى ينتهي الى بلاد المولتان ، ومن هناك يسمى مهران الذهب ، وتفسير المولتان مرج الذهب .

وصاحب مملكة بلد المولتان رجل من قريش من ولد سامة بن لؤي بن غالب ،

والقوافل منه الى خراسان متصلة . وكذلك صاحب مملكة المنصورة رجل من قريش من ولد هبار بـن الأسود ، والملك في هؤلاء وملك صاحب المولتان متوارثان قديما من صدر الاسلام .

ثم ينتهي نهر مهران الى بلاد المنصورة ويصب نحو بلاد الديبل في بحر الهند .

والتماسيح كثيرة في أجواف هذا البحر ، وفي خليج ميدايون من مملكة ياغر من أرض الهند ، وخلجان الزابج من بحر مملكة المهراج ، وكذلك في خلجان الأغياب ، وهي أغياب تلي جزيرة سرنديب .

والأغلب على التماسيح كونها في الماء العذب ، وما ذكرنا من خلجانات الهند فالأغلب من أمواهها أن تكون عذبة لصب مياه الأمطار اليها .

عود الى ذكر النيل

فلنرجع الآن الى الأخبار عن نيل مصر ، فنقول :

إن الذي ذكرته الحكماء أنه يجري على وجه الأرض تسعمائة فرسخ ، وقيل : ألف فرسخ ، في عامر وغير عامر ، حتى يأتي أسوان من صعيد مصر .

والى هذا الموضع تصعد المراكب من فسطاط مصر . وعلى أميال من أسوان جبال وأحجار يجري النيل في وسطها ، ولا سبيل الى جريان السفن فيه هناك .

وهذه الجبال والمواضع فارقة بين مواضع سفن الحبشة في النيل وبين سفن المسلمين . ويعرف هذا الموضع من النيل بالجنادل والصخور .

ثم يأتي النيل الفسطاط وقد قطع الصعيد ومر بجبل الطيلمون وحجر اللاهون من بلاد الفيوم (وهو الموضع المعروف بالجزيرة التي اتخذها يوسف النبي صلىٰ الله عليه وسلم وطنا) فيقطعه .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب اخبار مصر والفيوم وضياعها ، وكيفية فعل يوسف عليه الصلاة والسلام في مائها .

ثم يمضي جاريا فينقسم خلجانات الى بلاد تنيس ودمياط ورشيد والاسكندرية ، كل يصب الى البحر الرومي ، وقد أحدث فيه بحيرات في هذه المواضع .

وقد كان النيل انقطع عن بلاد الاسكندرية قبل هذه الزيادة التي زادها في هذه السنة (وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) ونمي الى وأنا بمدينة انطاكية والثغر الشامي ان النيل زاد في هذه السنة ثمانية عشر ذراعا ، فلست أدري أفي هذه الزيادة دخل خليج الاسكندرية أم لا .

وقد كان الاسكندر بن فيليبس المقدوني بنىٰ الاسكندرية على هذا الخليج من النيل ، وكان يتفجر اليه معظم ماء النيل ، ويسقي بلاد الاسكندرية وبلاد مريوط .

وكانت بلاد مريوط هذا في نهاية العمارة والجنان ، متصلة بأرض برقة من بلاد المغرب . وكانت السفن تجري في النيل فتتصل بأسواق الاسكندرية .

وقد بلط أرض نيلها في المدينة بالرخام والمرمر ، فانقطع الماء عنها لعوارض سدت خلجانها ومنعت الماء من دخوله ، وقيل لعلل غير ذلك منعت من تنفسه وردت الماء الى كنانه ، لا يحملها كتابنا هذا لاستعمالنا فيه الاختصار ، فصار شربهم من الآبار . وصار النيل على نحو يوم منهم .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب في باب ذكرنا لأخبار الاسكندرية جملا من أخبارها وأخبار بنائها ، ومما ذكرنا من الماء الجاري الى بحر الزنج ؛ فانما هو خليج آخذ من اعالي مصب الزنج ، وفارق بين بلاد الزنج وبين اقاصي بلاد اجناس الاحابيش . ولولا ذلك الخليج ومفاوز من رمال ودهاس ، لم يكن للحبشة مقام في ديارهم من أنواع الزنج لكثرتها وبطشها .

جيحون نهر بلخ

وأما نهر بلخ الذي يسمونه جيحون ، فانه يخرج من عيون تجري حتى تأتي بلاد خوارزم ، وقد اجتاز قبل ذلك ببلاد الترمذ واسفرائين ، وغيرها من بلاد خراسان . فاذا ورد الى بلاد خوارزم تفرق في مواضع هناك ، ويمضي باقيه فيصب في البحيرة التي عليها القرية المعروفة بالجرجانية اسفل خوارزم .

وليس في ذلك الصقع اكبر من هذه البحيرة . ويقال : إنه ليس في العمران بحيرة أكبر منها ، لأن طولها مسيرة شهر في نحو ذلك من العرض . تجري فيها السفن ، واليها يصب نهر فرغانة والشاش ويمر ببلاد الفاراب في مدينة جديس ، وتجري فيه السفن الى هذه البحيرة . وعليها مدينة للترك يقال لها المدينة الجديدة ، وفيها المسلمون . والأغلب من الأتراك في هذا الموضع الغزية ، وهم بواد وحضر . وهذا الجنس من الأتراك هم أصناف ثلاثة : الأسافل ، والأعالي ، والأواسط . وهم أشد الترك بأسا ، وأقصرهم ، وأصغرهم أعينا .

وفي الترك من هو أصغر من هؤلاء على ما ذكر صاحب « المنطق » في كتاب « الحيوان » في المقالة الرابعة عشرة والثامنة عشرة حين ذكر الطير المعروف بالغرانيق .

وسنذكر لمعا من أخبار أجناس الترك فيما يرد من هذا الكتاب مجتمعا ومفترقا .

وبمدينة بلخ رباط يقال له الأخشبان على نحو من عشرين يوما منها ، وهو في آخر اعمالها ، وبازائهم أنواع من الكفار يقال لهم أوخان وتبت .

وعلى اليمين من هؤلاء جنس آخر يقال لهم ايغان ، ويخرج من هنالك نهر عظيم يعرف بنهر ايغان .

وزعم قوم من أهل الخبرة أنه مبتدأ نهر جيحون ، وهو نهر بلخ . ومقدار جريانه على وجه الأرض نحو من خمسين ومائة فرسخ ، من مبدأ نهر الترك ، وهو ايغان . وقيل : أربعمائة فرسخ .

وقد غلط قوم من مصنفي الكتب في هذا المعنى . وزعموا أن جيحون يصب الى نهر مهران السند ، ولم يذكروا نهر رست الأسود ، ولا نهر رست الأبيض الذي تكون عليه مملكة كيماك بيغور ، وهم جنس من الترك وراء نهر بلخ ، وهو جيحون . وعلى هذين النهرين الغورية من الترك . ولهذين النهرين أخبار لم تحط بمقدار مسافتهما على وجه الأرض فنذكر ذلك .

نهر جنجس بالهند

وكذلك جنجس نهر الهند ، فمبدؤه في جبل من أقاصي أرض الهند مما يلي الصين من نحو بلاد الطغرغر من الترك ، ومقدار جريانه الى أن يصب في البحر الحبشي مما يلي ساحل الهند أربعمائة فرسخ .

نهر الفرات

وأما الفرات فمبدؤه من بلاد قاليقلا من ثغور ارمينية من جبل هناك يدعى افردحس ، على نحو يوم من قاليقلا . ومقدار جريانه من بلاد الروم الى أن يأتي بلاد ملطية مائة فرسخ .

وأخبرني بعض اخواننا من المسلمين ممن كان أسيرا في أرض بلاد النصرانية أن الفرات اذا توسط أرض الروم تحلبت اليه مياه كثيرة ، منها نهر يخرج مما يلي بحيرة الماذرمون . وليس في أرض الروم بحيرة أكبر منها : وهي نحو من شهر ، وقيل : أكثر من ذلك ، طولا وعرضا ، تجري فيها السفن .

وينتهي الفرات الى جسر منبج ، وقد اجتاز تحت قلعة سميساط ، وهي قلعة الطين ، ثم ينتهي الى بالس ، ويمر بصفين (موضع حرب أهل العراق وأهل الشام) ، ثم ينتهي الى الرقة والى الرحبة وهيت والأنبار . ويأخذ منه هناك أنهار مثل نهر عيسى وغيره ، مما ينتهي الى مدينة السلام ، فيصب في دجله .

وينتهي الفرات الى بلاد سوري وقصر ابن هبيرة والكوفة والجامعين وأحمد أباد والفرس والطفوف . ثم تنتهي غايته الى البطيحة التي بين البصرة وواسط . فيكون مقدار جريانه على وجه الأرض نحوا من خمسمائة فرسخ ، وقد قيل أكثر من ذلك .

وقد كان الفرات الأكثر من مائه ينتهي الى بلاد الحيرة ونهرها بين الى هذا الوقت ، وهو يعرف بالعتيق . وعليه كانت وقعة المسلمين مع رستم (وهي وقعة القادسية) ، فيصب في البحر الحبشي . وكان البحر حينئذ في الموضع المعروف بالنجف في هذا الوقت ، وكانت تقدم هناك سفن الصين والهند ترد الى ملوك الحيرة .

وقد ذكر ما قلنا عبد المسيح بن عمرو بن بقيلة الغساني حين خاطب خالد بن الوليد في أيام أبي بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه حين قال له : ما تذكر ؟ .

قال : أذكر سفن الصين وراء هذه الحصون . فلما انقطع الماء عن مصبه في ذلك الموضع انتقل البحر برا ، فصار بين الحيرة وبين البحر في هذا الوقت مسيرة أيام كثيرة .

ومن رأى النجف وأشرف عليه تبين له ما وصفنا .

وكتنقل الدجلة العوراء فصار بينها وبين الدجلة في هذا الوقت مسافة بعيدة ، وصارت تدعى ببطن جوخي ، وذلك من جهة مدينة فارس من أعمال واسط الى دنوقاء الى نحو بلاد السوس .

وكذلك ما حدث في الجانب الشرقي ببغداد من الموضع المعروف برقة الشماسية ، وما نقل الماء بتياره من الجانب الغربي من الضياع التي كانت بين قُطْرُبّل ومدينة السلام ، كالقرية المعروفة بالقب والموضع المعروف بالبشرى والموضع المعروف بالعين ، وغير ذلك من ضياع قُطْرُبّل . وقد كان لأهلها مطالبات مع أهل الجانب الشرقي ممن ملك رقة الشماسية في أيام المقتدر ، بحضرة الوزير أبي الحسن علي بن عيسى .

وما اجاب به اهل العلم في ذلك ، وما ذكرناه مشهور بمدينة السلام . فاذا كان الماء في نحو من ثلاثين سنة قد ذهب بنحو من سبع ميل ؛ فانه يسير ميلا في قدر مائتي سنة . فاذا تباعد النهر أربعة آلاف ذراع من موضعه الأول خربت بذلك السبب مواضع وعمرت مواضع .

وإذا وجد الماء سبيلا منخفضا وانصبابا وسع بالحركة وشدة الجرية لنفسه ، فاقتلع المواضع من الأرض من أبعد غايتها . وكلما وجد موضعا متسعا من الوهاد ملأه في طريقه من شدة جريته حتى يعمل بحيرات وبطائح ومستنقعات ، وتخرب بذلك بلاد ، وتعمر بذلك بلاد .

ولا يغيب فهم ما وصفنا على من له أدنى فكر .

ولنبدأ بذكر دجلة ومبدأ جريانها ومصبها ، فنقول :

دجلة تخرج من بلاد آمد من ديار بكر ، وهي أعين ببلاد خلاط من أرمينية ويصب اليها

نهر اسريط وساتيدما ، يخرج من بلاد أرزن وميافارقين، وغيرهما من الأنهار كنهر دوشا والخابور الخارج من بلاد ارمينية ، ومصبه في دجلة بين مدينة باسورين وقبر سابور ، من بلاد بقردي وبازبدي وباهمداء من بلاد الموصل . وهذه الديار ديار بني حمدان . وفي بقردي وبازبدي يقول الشاعر :

بقردي وبازبدي مصيف ومربع   وعذب يحاكي السلسبيل برود
وبغداد ، ما بغداد ، أما ترابها   فجمر ، وأما حرها فشديد

وليس هذا الخابور خابور النهر الذي يخرج من مدينة رأس العين من أعينها ويصب في الفرات أسفل مدينة قرقيسياء . ثم تمر دجلة بمدينة بلاد الموصل ويصب اليها نهر الزاب . وهو من بلاد ارمينية وهو الزاب الأكبر بعد الموصل .

وفوق الحديث مدينة الموصل ، ثم يصب فيها زاب آخر فوق مدينة السن ؛ يأتي من بلاد ارمينية وأذربيجان . ثم ينتهي الى مدينة تكريت وسر من رأى ومدينة السلام ، فيصب اليها الخندق والصراة ونهر عيسى ، وهي الأنهار التي ذكرنا أنها تأخذ من الفرات وتصب في دجلة .

ثم تخرج دجلة من مدينة السلام فيصب فيها أنهار كثيرة ، مثل النهر المعروف بدالي ، ونهر بين ، ونهر الروان ، مما يلي بلاد جرجرايا والسيب وتلي النعمانية .

فاذا خرجت دجلة من مدينة واسط تفرقت في أنهار هناك أخرى الى بطيحة البصرة ، مثل بردود اليهودي ومسامي والمصب الذي ينتهي الى القطر ، وفيه تجري أكثر سفن البصرة وبغداد وواسط .

فمقدار مسافة جريان دجلة على وجه الأرض نحو من ثلاثمائة فرسخ ، وقيل أربعمائة .

وقد أعرضنا عن ذكر كثير من الأنهار الا ما كبر واشتهر ، اذ كنا قد أتينا على ذكر ذلك على الأشباع في الكتاب المترجم بأخبار الزمان ، وكذلك في الكتاب الأوسط ، ونذكر في هذا الكتاب لمعا مما سميناه من الأنهار ومما لم نسمه .

وللبصرة أنهار كبار : مثل نهر شيرين ، ونهر الرس ونهر ابن عمر . وكذلك ببلاد الأهواز فيما بينها وبين بلاد البصرة، أعرضنا عن ذكر ذلك، إذ كنا قد تقصينا الأخبار عنها، وأخبار منتهى بحر فارس الى بلاد البصرة والأبلة ، وخبر الموضع المعروف بالجرارة . وهي دخلة من البحر الى البر تقرب من نحو بلاد الأبلة ، ومن أجلها ملح الأكثر من أنهار البصرة .

وهذه الجرارة اتخذت الخشبات في فم البحر مما يلي الأبلة وعبادان ، عليها أناس يوقدون النار بالليل على خشبات ثلاث كالكرمي في جوف الليل ، خوفا على المراكب الواردة من عمان وسيراف وغيرهما أن تقع في تلك الجرارة وغيرها ، فتعطب فلا يكون لها خلاص .

وقد ذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا .

وهذه الديار عجيبة في مصبات مياهها واتصال البحر بها . والله أعلم .

ذكر جمل من الأخبار عن البحر الحبشي
وما قيل في ذلك من مقداره وسعة خلجانه

قدروا بحر الهند ، وهو الحبشي ، وأنه يمتد طوله من المغرب الى المشرق من اقصى الحبش الى أقصى الهند والصين ، ثمانية آلاف ميل ، وعرضه ألفان وسبعمائة ميل ، وعرضه في موضع آخر ألف وتسعمائة ميل ، وقد يتقارب في قلة العرض في موضع دون موضع ، ويكثر كذلك .

وقد قيل في طوله وعرضه غير ما وصفنا من الكثرة ، وأعرضنا عن ذكره لعدم قيام الدلالة على صحته عند أهل هذه الصناعة .

وليس في المعمور أعظم من هذا البحر ، وله خليج متصل بأرض الحبشة يمتد الى ناحية بربري من بلاد الزنج والحبشة ، ويسمى الخليج البربري ، طوله خمسمائة ميل ، وعرض طرفيه مائة ميل . وليست هذه بربري التي ينسب اليها البرارة الذين ببلاد المغرب من أرض افريقية ، لأن هذا موضع آخر يدعى بهذا الاسم .

وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج الى جزيرة قنبلو من بحر الزنج ، وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار من الزنج .

والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري ـ وهم يعرفونه ببحر بربري ، وبلاد جفوني ـ أكثر مسافة مما ذكرنا ، وموجه عظيم كالجبال الشواهق ، فإنه موج أعمى . . . يريدون بذلك أنه يرتفع كارتفاع الجبال ، وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية ، لا ينكسر موجه ولا يظهر من ذلك زبد ، كتكسر أمواج سائر البحار . ويزعمون أنه موج مجنون .

وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان عرب من الأزد ، فاذا توسطوا هذا البحر ودخلوا بين ما ذكرناه من الأمواج ترفعهم وتخفضهم ، فيرتجزون ويقولون :

بربـــري وجفوني وموجـك المجنون
جفونـــي وبربري وموجهـا كما ترى

وينتهي هؤلاء في بحر الزنج الى جزيرة قنبلو على ما ذكرنا ، والى بلاد سفالة والواق واق من أقاصي أرض الزنج ، والأسافل من بحرهم .

ويقطع هذا البحر السيرافيون . وقد ركبت أنا هذا البحر من مدينة سنجار ، من بلاد عمان (وسنجار قصبة بلاد عمان) مع جماعة من نواخذة السيرافيين . وهم أرباب المراكب ، مثل محمد بن الريدوم السيرافي ، وجوهر بن أحمد ، وهو المعروف بابن سيرة . وفي هذا البحر تلف ومن كان معه في مركبه .

وآخر مرة ركبت فيه في سنة أربع وثلثمائة من جزيرة قنبلو الى مدينة عمان ، وذلك في مركب احمد وعبد الصمد أخوي عبد الرحيم بن جعفر السيرافي بميكان ، وهي محلة من سيراف ، وفيه غرقا في مركبهما وجميع من كان معهما . وكان ركوبي فيه أخيرا والأمير علي عمان أحمد بن هلال بن أخت القيتال .

وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن ، وأصابني فيها من الأهوال ما لا أحصيه كثرة ، فلم أشاهد أهول من بحر الزنج الذي قدمنا ذكره .

سمك الافال

وفيه السمك المعروف بافال طول السمكة نحو من اربعمائة ذراع بالذراع العمرية ، وهي ذراع ذلك البحر . والأغلب من هذا السمك طول مائة ذراع .

وربما يهز البحر فيظهر شيئا من جناحه ، فيكون كالقلع العظيم ، وهو الشراع .

وربما يظهر رأسه ، وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء في الجو أكثر من ممر السهم .

والمراكب تفزع منه في الليل والنهار ، وتضرب له بالدبادب والخشب لينفر من ذلك .

ويحشر بأجنحته وذنبه السمك الى فمه ، وقد فغر فاه ، وذلك السمك يهوي الى جوفه جريا .

فاذا بغت هذه السمكة بعث اللّٰه عليها سمكة نحو الذراع تدعى اللشك فتلصق بأصل اذنها فلا يكون لها منها خلاص ، فتطلب قعر البحر ، وتضرب بنفسها حتى تموت . فتطفو فوق الماء ، فتكون كالجبل العظيم .

وربما تلتصق هذه السمكة المعروفة باللشك بالمركب فلا يدنو الافال مع عظمتها من المركب ، ويهرب اذا رأى السمكة الصغيرة ، اذ كانت آفة له وقاتِلَته .

آفة التمساح

وكذلك التمساح يموت من دويبة تكون في ساحل النيل وجزائره . وذلك أن التمساح لا دبر له وما يأكله يتكون في بطنه دودا . وإذا آذاه ذلك الدود خرج الى البر فاستلقى على قفاه فاغرا فاه ، فيقيض اللّٰه اليه طير الماء كالطيطوي والحصافي وغير ذلك من أنواع الطيور ، وقد اعتادوا ذلك منه ، فيأكل ما ظهر في جوفه من ذلك الدود ، وتكون تلك الدويبة قد كمنت في

الرمل تراعيه ، فتدب الى حلقه ، وتصير في جوفه ، فيخبط بنفسه في الأرض ، فيطلب قعر النيل حتى تأتي الدويبة على حشوة جوفه ثم تخرق جوفه وتخرج . وربما يقتل نفسه قبل أن تخرج ، فتخرج بعد موته .

وهذه الدويبة تكون نحوا من ذراع على صورة ابن عرس ، ولها قوائم شتى ومخالب .

وفي بحر الزنج أنواع من السمك بصورة شتى . ولولا ان النفوس تنكر ما لم تعرفه وتدفع ما لم تألفه ، لأخبرنا عن عجائب هذه البحار ، وما فيها من الحيتان والدواب ، وغير ذلك من عجائب المياه والجماد .

عود الى البحر الحبشي

فلنرجع الآن الى ذكر تشعب مياه هذا البحر وخلجانه ، ودخوله في البر ودخول البر فيه ، فنقول :

ان خليجا آخر يمتد من هذا البحر الحبشي فينتهي الى مدينة القلزم من أعمال مصر ، وبينها وبين فسطاط مصر ثلاثة أيام . وعليه مدينة أيلة والحجاز وجدة واليمن . وطوله ألف وأربعمائة ميل ، وعرض طرفيه مائتا ميل ، وهو أقرب المواضع من عرضه ، وعرضه في الوسط سبعمائة ميل ، وهو أكثر العرض فيه .

ويلاقي ما ذكرناه من الحجاز وبلاد أيلة من غربية من الساحل الآخر من هذا الخليج بلاد العلاقي وبلاد العيذاب من أرض مصر وأرض البجة ، ثم أرض الحبشة والأحابش والسودان ، الى أن يتصل ذلك بأقاصي أرض الزنج وأسافلها ، فيتصل الى بلاد سفالة من أرض الزنج .

ويتشعب من هذا البحر خليج آخر ، وهو بحر فارس ، وينتهي الى بلاد الأبلة والخشبات وعبادان من أرض البصرة . وعرضه في الأصل خمسمائة ميل ، وطول هذا الخليج ألف وأربعمائة ميل ، وربما يصير عرض طرفيه مائة وخمسين ميلا .

وهذا الخليج مثلث الشكل ينتهي أحد زواياه الى بلاد الأبله . وعليه مما يلي المشرق ساحل فارس من بلاد دورق الفرس (وماهر بان) ومدينة حسان، واليها تضاف الثياب الحسانية ، ومدينة نجيرم ببلاد سيراف . ثم بلاد ابن عمارة ، ثم ساحل كرمان ، وهي بلاد هرموز ، وهرموز مقابلة لمدينة سنجار من بلاد عمان .

ثم يلي ساحل كرمان ويتصل به على ساحل هذا البحر بلاد مكران ، وهي أرض الخوارج الشراة . . . . وهذه كلها أرض نخل . ثم ساحل السند ، وفيه مصب نهر مهران ، وهناك مدينة الديبل . ثم يكون مارا متصلا بساحل الهند الى بلاد بروض ، واليها يضاف القنا البروضي ، برا متصلا الى أرض الصين ساحلا واحدا .

ويقابل ما ذكرنا من مبدأ ساحل فارس ومكران والسند بلاد البحرين وجزائر قطر وشط بني جذيمة وبلاد عمان وأرض مهرة الى رأس الجمجمة الى أرض الشّحر والأحقاف . وفيه جزائر كثيرة مثل جزيرة خارك ، وهي بلاد جنابة ، لأن خارك مضافة الى جنابة ، وبينها وبين البر فراسخ وفيها مغاص اللؤلؤ المعروف بالخاركي .

وجزيرة أوال فيها بنو معن وبنو مسمار وخلائق كثيرة من العرب بينهما وبين مدن ساحل البحرين نحو يوم ، بل أقل من ذلك ، وفي ذلك الساحل مدينة الزارة والعقل والقطيف من ساحل هجر .

ثم بعد جزيرة أوال جزائر كثيرة ، منها جزيرة لافت ، وتدعى جزيرة بني كاوان . وقد كان افتتحها عمرو بن العاص ، وفيها مسجده الى هذه الغاية . وفيها خلق من الناس وقرى وعمارة متصلة .

وتقرب هذه الجزيرة الى جزيرة هنجام ، ومنها يستسقي أرباب المراكب الماء . ثم الجبال المعروفة بكسير وعوير وثالث ليس فيه خير . ثم الدردور المعروف بدردور مسندم ، ويكنيه البحريون بأبي جهرة .

وهذه مواضع من البحر ، وجبال سود ذاهبة في الهواء لا نبات عليها ولا حيوان ، يحيط بها مياه من البحر ، عظم قعرها ، وأمواج متلاطمة تجزع منها النفوس اذا أشرفت عليها .

وهذه المواضع من بلاد عمان وسيراف لا بد للمراكب من الجواز عليها والدخول في وسطها ، فتخطىء وتصيب . وهذا البحر هو خليج فارس ، ويعرف بالبحر الفارسي ، عليه ما وصفنا من البحرين وفارس والبصرة وكرمان وعمان الى رأس الجمجمة . وبين هذا الخليج وخليج القلزم أيلة والحجاز واليمن ، ويكون بين الخليجين من المسافة ألف وخمسمائة ميل ، وهي داخلة من البر في البحر ، والبحر يطيف بها من أكثر جهاتها على ما وصفنا .

فهذا بحر الصين والهند وفارس وعمان والبصرة والبحرين واليمن والحبشة والحجاز والقلزم والزنج والسند ، ومن في جزائره ، ومن قد أحاط به من الأمم الكثيرة التي لا يعلم وصفهم ولا عددهم الا من خلقهم سبحانه وتعالى . ولكل قطعة منه اسم يفردها من غيرها ، والماء واحد متصل غير منفصل .

وفي هذا البحر مغاصات الدر واللؤلؤ ، وفيه العقيق والبادبيج ، وهو نوع من البجادي ، وأنواع الياقوت والماس والسنباذج . وفيه معادن ذهب وفضة نحو بلاد كلة وسريرة ، وحوله معادن حديد مما يلي بلاد كرمان ، ونحاس بأرض عمان . وفيه أنواع الطيب والأفاويه والعنبر وأنواع الأدوية والعقاقير والساج والخشب المعروف بالدارزنجي والقنا والخيزران .

وسنذكر بعد هذا الموضع تفصيل مواضع فيه أدركناها ، وكل ما ذكرنا من الجواهر والطيب والنبات ففيه وحوله .

وسائر ما ذكرنا من هذا البحر يدعى بالبحر الحبشي ، ورياح ما وصفنا من قطعة التي تدعى كل واحدة منها بحر ، كقولنا : بحر فارس ، وبحر اليمن ، وبحر القلزم ، وبحر الحبش ، وبحر الزنج ، وبحر السند ، وبحر الهند ، وبحر كلة ، وبحر الزابج ، وبحر الصين . . . فمختلفة .

فمنها ما ريحه من قعر البحر يظهر فتغليه ويعظم موجه كالقدر تفور مما يلحقها من مواد حرارة النار . ومنها ما ريحه والآفة فيه من قعره والنسيم . ومنها ما يكون مهبه من النسيم دون ما يظهر من قعره .

وما وصفناه مما يظهر من قعره من الرياح فذلك تنفسات من الأرض تظهر الى قعره ثم تظهر في سطحه والله عز وجل أعلم بكيفية ذلك .

ولكل من يركب هذه البحار من الناس رياح يعرفونها في أوقات تكون منها مهابها ، قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب ، يتوارثون علم ذلك قولا وعملا ، ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها ابان هيجانه وأحوال ركوده وتوارثه .

هذا فيما سمينا من البحر الحبشي والروم ، والمسافرون في البحر الرومي سبيلهم كذلك ، وكذلك من يركب بحر الخزر الى بلاد جرجان وطبرستان والديلم .

وسنأتي بعد هذا الموضع على جمل وفصول من علم معرفة هذا البحار ، وعجائب أوصافها وأخبارها ، إن شاء الله تعالى .

ذِكرُ تنازع الناس في المَدّ والجَزر وجَوامع مِمّا قيل في ذلك

المد : مضي الماء في فيحته وسيحته وسنن جريته .

والجزر : رجوع الماء على ضد سنن مضيه وانكشاف ما مضى عليه في هيجه ، وذلك كبحر الحبش الذي هو الصيني والهندي ، وبحر البصرة وفارس المقدم ذكره قبل هذا الباب .

وذلك أن البحار على ثلاثة أنواع : منها ما يتأتى فيه الجزر والمد ويظهر ظهورا بينا ، ومنها ما لا يتبين فيه الجزر والمد ويكون خفيفا مستترا ، ومنها ما لا يجزر ولا يمد .

فالبحار التي لا يكون فيها الجزر والمد امتنع منها الجزر والمد لعلل ثلاث ، وهي على ثلاثة أصناف : فأولها ما يقف الماء فيه زمانا فيغلظ وتقوى ملوحته ، وتتكيف فيه الأرياح ، لأنه ربما صار الماء الى بعض المواضع ببعض الأسباب فيصير كالبحيرة ، وينقص في الصيف ويزيد في الشتاء ، ويتبين فيه زيادة ما ينصب فيه من الأنهار والعيون .

والصنف الثاني البحار التي تبعد عن مدار القمر ومسافاته بعدا كثيرا ، فيمتنع منه المد والجزر .

والصنف الثالث : المياه التي يكون الغالب على أرضها التخلخل ، لأنه اذا كانت أرضها مخلخلة نفذ الماء منها الى غيرها من البحار وتخلخل ، وأنشبت الرياح الكائنة في أرضها أولا فأولا ، وغلبت الرياح عليها . وأكثر ما يكون هذا في ساحل البحار والجزائر .

وقد تنازع الناس في علة المد والجزر : فمنهم من ذهب الى أن ذلك من القمر لأنه مجانس للماء ، وهو يسخنه فينبسط ، وشبهوا ذلك بالنار اذا أسخنت ما في القدر وأغلته . وإن الماء يكون فيها على قدر النصف أو الثلثين ، فاذا غلا الماء انبسط في القدر وارتفع وتدافع حتى يفور فتتضاعف كميته في الحس ، وينقص في الوزن ، لأن من شرط الحرارة أن تبسط الأجسام ، ومن شرط البرودة أن تضمها .

وذلك أن قعور البحار تحمى فتتولد في أرضها عذوبة وتستحيل وتحمى ، كما يعرض ذلك في البلاليع والآبار ، فاذا حمي ذلك الماء انبسط ، واذا انبسط زاد ، وإذا زاد ارتفع ، فدفع كل جزء منه صاحبه ، فطفا على سطحه وبان عن قعره ، فاحتاج الى أكثر من وهدته .

وإن القمر اذا امتلأ حمي الجو حميا شديدا فظهرت زيادة الماء ، فسمي ذلك المد الشهري . وإن هذا البحر تحت معدل النهار آخذا من جهة المشرق الى المغرب ودور الكواكب المتحيرة عليه مع ما يساميه من الكواكب الثابتة اذا كانت المتحيرة في القدر مثل الميل على

تجاوزه . واذا زالت عنه كانت منه قريبة فاعلة فيه من أوله الى آخره في كل يوم وليلة . وهي مع ذلك في الموضع المقابل الحمى ، فقليل ما يعرض فيه من الزيادة ، ويكون في النهر الذي يعرض فيه المد بينا من أطرافه وما يصب اليه من سائر المياه .

وقالت طائفة أخرى : لو كان الجزر والمد بمنزلة النار اذا اسخنت الماء الذي في القدر وبسطته ، فيطلب أوسع منها فيفيض ، حتى اذا خلا قعره من الماء ، طلب الماء بعد خروجه منه عمق الأرض بطبعه ، فيرجع اضطرارا بمنزلة رجوع ما يغلي من الماء في المرجل والقمقم اذا فاض وتتابعت اجزاء النار عليه بالحمى . . . . لكان في الشمس ويجزر مع غيبتها .

فزعم هؤلاء أن علة الجزر والمد في الأبحر تتولد من الأبخرة التي تتولد من بطن الأرض ، فانها لا تزال تتولد حتى تكثف وتكثر فتدفع حينئذ ماء هذا البحر لكثافتها ، فلا تزال كذلك حتى تنقص موادها من أسفل ، فاذا انقطعت موادها تراجع الماء حينئذ الى قعر البحر ، وكان الجزر من أجل دلك والمد ليلا ونهارا ، وشتاء وصيفا ، وفي غيبة القمر وفي طلوعه ، وكذلك في غيبة الشمس وطلوعها .

قالوا : وهذا يدرك بالحس ، لأنه ليس يستكمل الجزر آخره حتى يبدأ أول المد ، ولا ينقضي آخر المد حتى يبتدىء أول الجزر ، لأنه لا يتغير توالد تلك البخارات ، حتى اذا خرجت تولد غيرها مكانها .

وذلك أن البحر اذا غارت مياهه ورجعت الى قعره تولدت تلك الأبخرة لمكان ما يتصل منها من الأرض بمائه ، وكلما عاد تولدت ، وكلما فاض نقصت .

وذهب آخرون من أهل الديانات أن كل ما لم يعرف له من الطبيعة مجرى ولا يوجد له فيها قياس فهو فعل الاله ، يدل على توحيد اللّه عز وجل وحكمته . فليس للمد والجزر علة في الطبيعة البتة ، ولا قياس .

وقال آخرون : ما هيجان ماء البحر الا كهيجان بعض الطبائع ، فإنك ترى صاحب الدم وصاحب الصفراء وغيرهما تهتاج طبيعته ثم تسكن ، وكذلك مواد تمدها حالا بعد حال ، فاذا قويت هاجت ، ثم تسكن قليلا قليلا حتى تعود .

وذهبت طائفة أخرى الى أبطال سائر ما وصفنا من القول ، وزعموا أن الهواء المطل على البحر يستحيل دائما ، فاذا استحال عظم ماء البحر وفاض عند ذلك ، وإذا فاض البحر فهو المد . فعند ذلك يستحيل ماؤه ويتنفس فيستحيل هواء فيعود الى ما كان عليه ، وهو الجزر . وهو دائم لا يفتر ، متصل مترادف متعاقب ، لأن الماء يستحيل هواء ، والهواء يستحيل ماء .

قالوا : وقد يجوز أن يكون ذلك عند امتلاء القمر أكثر ، لأن القمر اذا امتلأ استحال الهواء أكثر مما كان يستحيل . وإنما القمر علة لكثرة المد ، لا للمد نفسه ، لأنه قد يكون والقمر في محاقه ، والمد والجزر في بحر فارس يكونان على مطالع الفجر في الأغلب من الأوقات .

وقد ذهب كثير من نواخذة هذا البحر ـ وهم أرباب المراكب ، من السيرافيين والعمانيين ممن يقطعون هذا البحر ويختلفون الى عمائره من الأمم التي في جزائره وحوله ـ الى أن المد والجزر لا يكون في معظم هذا البحر الا مرتين في السنة : مرة يمد في شهور الصيف شرقا بالشمال ستة أشهر ، فاذا كان ذلك طغا الماء في مشارق الأرض وبالصين ، وما وراء ذلك الصقع ، وانحسر بالصين من مغارب البحر ، ومرة يمد في شهور الشتاء غربا بالجنوب ستة أشهر ، فاذا كان الصيف طغا الماء في مغارب البحر وانحسر بالصين ، وقد يتحرك البحر بتحرك الرياح .

وان الشمس اذا كانت في الجهة الشمالية تحرك الهواء الى الجهة الجنوبية لعلل ذكروها ،فيسيل ماء البحر بحركة الهواء الى الجهة الجنوبية ، فكذلك تكون البحار في جهة الجنوب في الصيف لهبوب الشمال طامية عالية ، وتقل المياه في جهة البحار الشمالية .

وكذلك اذا كانت الشمس في الجنوب وسال الهواء من الجنوب الى جهة الشمال ، سال معه ماء البحر من الجهة الجنوبية الى الجهة الشمالية ، فقلت المياه في الجهة الجنوبية منه ، وينتقل ماء البحر في هذين الميلين ـ اعني في جهتي الشمال والجنوب . فيسمى جزرا ومدا .

وذلك أن مد الجنوب جزر الشمال ، ومد الشمال جزر الجنوب . فان وافق القمر بعض الكواكب السيارة في أحد الميلين تزايد الفعلان وقوي الحمى واشتد لذلك سيلان الهواء فاشتد لذلك انقلاب ماء البحر الى الجهة المخالفة للجهة التي ليس فيها الشمس .

***

قال المسعودي : فهذا رأي يعقوب بن اسحاق الكندي وأحمد بن الطيب السرخسي فيما حكاه عنه : أن البحر يتحرك بالرياح .

ورأيت مثل ذلك ببلاد كنباية من أرض الهند . وهي المدينة التي تضاف اليها النعال الكنبائية الصرارة ، وفيما تعمل وفيما يليها مثل مدينة سندارة وسريارة .

وكان دخولي اليها في سنة ثلاث وثلاثمائة ، والملك يومئذ بانيا ، وكان برهمانيا من قبل البلهري صاحب المانكير .

وكان لبانيا هذا عناية بالمناظرة ، مع من يرد الى بلاده من المسلمين وغيرهم من أهل الملل .

وهذه المدينة على خور من أخوار البحر وهو الخليج ، أعرض من النيل أو دجلة أو الفرات ، عليه المدن والضياع والعمائر والنخل والنارجيل والطواويس والببغاء ، وغير ذلك من أنواع طيور الهند ، بين تلك الجنان والمياه .

وبين مدينة كنباية وبين البحر الذي يأخذ منه هذا الخليج يومان ، أو أقل من ذلك ، فيجزر الماء عن هذا الخليج حتى يبدو الرمل في قعر الخليج ويبقى في وسطه القليل من الماء . . .

فرأيت الكلب على هذا الرمل الذي ينصب عنه الماء وقعر الخليج قد صار كالصحراء ، وقد أقبل المد من نهاية الخور كالخيل في الحلبة . فربما أحس الكلب بذلك فأقبل يحضر ما استطاع خوفا من الماء ، فيطلب البر الذي لا يصل اليه الماء ، فيلحقه الماء بسرعته فيغرقه .

وكذلك المد يرد بين البصرة والأهواز في الموضع المعروف بالباسيان وبلاد القندر ، ويسمى هنالك الذئب ، له ضجيج ودوي وغليان عظيم يفزع منه أصحاب السفن ، وهذا الموضع يعرفه من يسلك هنالك الى بلاد مورق من أرض فارس ، والله أعلم .

ذكر بحر الروم

ووصف ما قيل في طوله وعرضه وابتدائه وانتهائه

أما بحر الروم وطرسوس وأذنة والمصيصة وأنطاكية واللاذقية وطرابلس وصيداء وصور ، وغير ذلك من ساحل الشام ومصر والاسكندرية وساحل المغرب ، فذكر جماعة من أصحاب الزيجات في كتبهم ، منهم محمد بن جابر النسائي وغيره ، أن طوله خمسة آلاف ميل ، وعرضه مختلف : فمنه ثمانمائة ميل ، ومنه سبعمائة ميل ، ومنه ستمائة ميل ، وأقل من ذلك ، على حسب مضايقة البر للبحر والبحر للبر .

ومبدأ هذا البحر من خليج يخرج جاريا بين بحر أقيانوس . وأضيق موضع من هذا الخليج بين ساحل طنجة وسبتة من بلاد الغرب وبين ساحل الأندلس .

وهذا الموضع المعروف بسيطاء ، وعرضه فيما بين الساحلين نحو من عشرة أميال ، وهذا الموضع هو المعبر لمن أراد العبور من الغرب الى الأندلس ومن الأندلس الى الغرب ويعرف بالزقاق .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب في أخبار مصر القنطرة التي كانت بين هذين الساحلين ، وما ركبها من ماء هذا البحر ، والطريق المتصل بين جزيرة قبرص وأرض العريش وسلوك القوافل اياه .

وعلى الحد بين البحرين ـ أعني بحر الـروم وبحـر اوقيانـوس ـ المنـارة النحـاس والحجارة التي بناها هرقل الجبار ، على أعلاها الكتابة والتماثيل مشيرة بأيديهـا أن لا طريق ورائي لجميع الداخلين الى ذلك البحر (بحر الروم) ٠ اذ كان بحرا لا تجري فيه جارية ، ولا عمارة فيه ، ولا حيوان ناطق يسكنه ، ولا يحاط بمقداره ، ولا تدرى غايته ، ولا يعلم منتهاه . وهو بحر الظلمات والأخضر والمحيط .

وقد قيل ان المنارة على غير هذا الزقاق ، بل في جزيرة من جزائر بحر أوقيانوس المحيط وسواحله .

وقد ذهب قوم الى أن هذا البحر أصل ماء سائر البحار .

وله أخبار عجيبة قد أتينا على ذكرها في كتابنا « أخبار الزمان » في أخبار من غرر وخاطر بنفسه في ركوبه ، ومن نجا منهم ، ومن تلف ، وما شاهدوا منه ، وما رأوا . وأن منهم رجلا من أهل الأندلس يقال له خشخاش ، وكان من فتيان قرطبة وأحداثها ، فجمع جماعة من أحداثها وركب بهم في مراكب استعدها في هذا البحر المحيط . فغاب فيه مدة ثم انثنى بغنائم واسعة . وخبره مشهور عند أهل الأندلس .

وبين هذه المنارة المنصوبة ، وبين موضع الأحجار مسافة طويلة في طول مصب هذا الخليج وجريانه . وذلك أن ماء يجري من بحر أوقيانوس الى البحر الرومي يحس بجريانه ويعلم بحركته .

ويتشعب من بحر الروم والشام ومصر ، خليج من نحو خمسمائة ميل يتصـل بمدينـة رومية تسمى بالرومية ادرس .

وعلى هذا الخليج من جانب المغرب قرية يقال لها سبتة ، وهي وطنجـة من ساحـل واحد . ويقابل سبتة هذه من ناحية الأندلس الجبل المعروف بجبل طارق مولى موسى بن نصير . ويعبر الناس من سبتة الى ساحل الأندلس من غدوة الى الظهر .

وفي هذا الخليج موج عظيم ، والماء من هناك يخرج من بحر أوقيانوس ، ويصب الى البحر الرومي . وفي هذا الخليج مواضع تعلو أمواجها ، ويعلو الماء من غير ريح .

وهذا الخليج يسميه أهل المغرب وأهل الأندلس الزقاق ، اذ كان على هيئة ذلك .

وفي بحر الروم جزائر كثيرة منها جزيرة قبرص بين ساحل الشام والـروم ، وجـزيرة رودس في مقابلة الاسكندرية ، وجزيرة اقريطش ، وجزيرة صقلية .

وسنذكر صقلية بعد هذا الموضع عند ذكرنا لجبل البركان الذي تظهر منه النار ، وفيها أجسام وجثث وعظام .

وقد ذكر يعقوب بن اسحاق الكندي وتلميذه أحمد بن الطيب السرخسي في طول هذا البحر وعرضه غير ما ذكرنا .

وسنذكر بعد هذا الموضع فيما يرد من هذا الكتاب هذه البحار على نظم من التأليف ، وترتيب من التصنيف ، إن شاء اللّٰه تعالى .

ذكر بحر نيطش

وبحر مانطش وخليج القسطنطينية

نيطش

فأما بحر نيطش فانه يمد من بلاد لاذقة الى القسطنطينية . وطوله ألف ومائة ميل ، وعرضه في الأصل ثلثمائة ميل . وفيه يصب النهر العظيم المعروف بأطنابس ، وقد قدمنا ذكره .

ومبدأ هذا البحر من الشمال ، وعليه كثير من ولد يافث بن نوح ، وخروجه من بحيرة عظيمة في الشمال من أعين وجبال ، ويكون مقدار جريانه على وجه الأرض نحو ثلثمائة فرسخ عمائر متصلة لولد يافث .

مانطش

ويسير بحر مانطش ـ فيما زعم قوم من أهل العناية بهذا الشأن ـ حتى يصب في بحر نيطش .

وهذا البحر عظيم فيه أنواع من الأحجار والحشائش والعقاقير . وقد ذكره جماعة ممن تقدم من الفلاسفة . ومن الناس من يسمي بحر مانطش بحيرة ، ويجعل طوله ثلثمائة ميل وعرضه مائة ميل .

ومنه ينفجر خليج القسطنطينية الذي يصب الى بحر الروم ، وطوله ثلثمائة ميل ، وعرضه نحو من خمسين ميلا ، وعليه القسطنطينية والعمائر من أوله الى آخره .

الخليج

والقسطنطينية في الجانب الغربي من هذا الخليج ، متصلة ببر رومية والأندلس وغيرهما . فيجب واللّٰه أعلم ـ على قول المنجمين من أصحاب الزيجات وغيرهم ممن تقدم ـ أن بحر البلغر والروس ، وبجني وبجناك وبغرد ، وهم ثلاثة أنواع من الترك ، هو بحر نيطش .

وسيأتي ذكر هؤلاء الأمم فيما يرد من هذا الكتاب ان شاء اللّٰه تعالى على حسب استحقاقهم في ذكرهم ، واتصال عمائرهم ، ومن يركب هذا البحر منهم ومن لا يركبه ، واللّٰه أعلم .

ذكر بحر الباب والأبواب والخزر وجرجان
وجمل من الأخبار على ترتيب البحار
بحر الأعاجم

فأما بحر الأعاجم الذي عليه دورها ومساكنها فهو معمور بالناس من جميع جهاته . وهو المعروف ببحر الباب والأبواب والخزر والجبل والديلم وجرجان وطبرستان ، وعليه أنواع من الترك . وينتهي في احدى جهاته نحو بلاد خوارزم ، وطوله ثمانمائة ميل ، وعرضه ستمائة ميل ، وهو مدور الشكل الى الطول .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملا من ذكر الأمم المحيطة بهذه البحار المعمورة .

وهذا البحر الذي هو بحر الأعاجم كثير التنانين ، وكذلك بحر الروم ، فالتنانين فيهما كثيرة ، وكثيرا ما تكون مما يلي بلاد طرابلس واللاذقية والجبل الأقرع من أعمال انطاكية .

وتحت هذا الجبل معظم ماء البحر وأكثره ، ويسمى عجز البحر . وغايته الى ساحل انطاكية ورشيد والاسكندرية وحصن المثقب ، وذلك في سفح جبل اللكام وساحل المصيصة .

وفيه مصب نهر جيحان ، وساحل أذنة ، وفيه مصب سيحان ، وساحل طرسوس ، وفيه مصب نهر بردان ، وهو نهر طرسوس ، ثم البلد الخالي من العمارات الخراب بين الروم والمسلمين مما يلي مدينة قلمية الى قبرص وقريطس وقراسيا ، ثم بلاد سلوقية ونهرها العظيم الذي يصب في هذا البحر ، ثم حصون الروم الى خليج القسطنطينية .

وقد أعرضنا عن ذكر انهار كثيرة بأرض الروم ومما يصب الى هذا البحر كنهر البارد ونهر العسل وغيرهما من الأنهار .

والعمارة على هذا البحر من المضيق الذي قدمنا ذكره ، وهو الخليج الذي عليه طنجة متصلة بساحل المغرب وبلاد افريقية والسوس وطرابلس المغرب والقيروان وساحل برقة والرفادة وبلاد الاسكندرية ورشيد وتنيس ودمياط وساحل الشام وساحل الثغور الشامية ثم ساحل الروم مارا متصلا الى بلاد رومية ،، الى أن يتصل بساحل الأندلس ، الى أن ينتهي الى ساحل الخليج الضيق المقابل لطنجة على ما ذكرنا . . . لا تنقطع من هذا البر كله العمائر التي وصفناها من الاسلام والروم ، الا الأنهار الجارية الى البحر وخليج القسطنطينية ، وعرضه نحو من ميل ، وخلجانات أخر داخلة في البر لا منفذ لها .

فجميع ما ذكرنا على شاطىء هذا البحر الرومي متصلو الديار غير منفصلين بما يقطعهم أو يمنعهم ، الا ما ذكرنا من الأنهار وخليج القسطنطينية .

ومثال هذا البحر الرومي ، ومثال ما ذكرنا من العمائر عليه الى أن ينتهي الى مبدأ الخليج الضيق الآخذ من أوقيانوس الذي عليه المنارة النحاس ، ويلي الأعلى من طنجة ، وساحل الأندلس : مثل الكرنيب ، في قبضة الخليج ، والكرنيب على ضفة البحر ، الا أنه ليس بمدور الشكل ، لما ذكرنا من طوله .

وليس تعرف التنانين في البحر الحبشي ، ولا في شيء من خلجانه من حيث وصفنا في نهاياته ، وأكثرها يظهر مما يلي بحر اوقيانوس .

التنين وآراء الناس فيه

وقد اختلف الناس في التنين : فمنهم من رأى أنه ريح سوداءتكون في قعر البحر فتظهر الى النسيم ، وهو الجو ، فتحلق السحب كالزوبعة . فاذا صارت من الأرض واستدارت وأثارت معها الغبار ثم استطالت في الهواء ذاهبة الصعداء ، توهم الناس أنها حيات سود قد ظهرت من البحر لسواد السحاب ، وذهاب الضوء ، وترادف الرياح .

ومنهم من رأى أنها دواب تتكون في قعر البحر ، فتعظم وتؤذي دواب البحر ، فيبعث اللهعليها السحاب والملائكة فيخرجونها من بينها . وأنها على صورة الحية السوداء لها بريق وبصيص ، لا تمر بمدينة الا أتت على ما لا يقدر عليه من بناء عظيم أو شجر أو جبل ، وربما تتنفس فتحرق الشجرة الكبيرة ، فيلقيه السحاب في بلد يأجوج ومأجوج ، ويمطر السحاب عليهم ، فيقتل التنين ، فمنه يتغذى يأجوج ومأجوج . وهذا القول يعزى الى ابن عباس .

وقد ذكر قوم في التنين غير ما ذكرنا ، وكذلك حكى قوم من أهل السير وأصحاب القصص أمورا فيما ذكرنا أعرضنا عن ذكرها منها خبر عمران بن جابر الذي صعد في النيل ، فأدرك غايته ، وعبر البحر على ظهر دابة تعلق بشعرها . وهي دابة ينجر منها على الأرض شبر من قوائمها ، تغادي قرن الشمس من مبدأ طلوعها الى حال غروبها ، فاغرة فاها نحوها لتبتلع عند نفسها الشمس .

فعبر ـ على ما وصفنا من تعلقه بشعرها ـ البحر ، ودار بدورانها طلبا لعين الشمس . حتى صار الى ذلك الجانب ، فرأى النيل منحدرا من قصور الذهب من الجنة ، وأعطاه الملك العنقود العنب .

وأنه أتى الرجل الذي رآه في ذهابه ، ووصف له كيف يفعل في وصوله الى مبدأ النيل ، فوجوده ميتا ، وخبر ابليس معه والعنقود العنب ، وغير ذلك من خرافات حشوية عن أصحاب الحديث .

ومنها ما روي أن قبة من الذهب وأنواع الجوهر في وسط البحر الأخضر على أربعة

أركان من الياقوت الأحمر ينحدر من كل ركن من هذه الأركان ماء عظيم من رشحه .

فقسم الى جهات أربع في ذلك البحر الأخضر غير مخالطه له ، ولا متماس به . ثم ينتهي الى جهات من البر من سواحل ذلك البحر : أحدها النيل ، والثاني سيحان ، والثالث جيحان ، والرابع الفرات .

ومنها أن الملك الموكل بالبحار يضع عقبه في أقصى بحر الصين فيفور منه البحر ، فيكون منه المد . ثم يرفع عقبه من البحر فيرجع الماء الى مركزه ، ويطلب قعره ، فيكون الجزر ، ومثلوا ذلك باناء فيه ماء في مقدار النصف منه . فيضع الانسان يده أو رجله فيملأ الماء الاناء ، فاذا رفعها رجع الماء الى حده ، وانتهى الى غايته .

ومنهم من رأى أن الملك يضع ابهامه من كفه اليمنى في البحر فيكون منه المد ، ثم يرفعها فيكون الجزر .

وما ذكرنا فغير ممتنع كونه ، ولا واجب ، وهو داخل في حيز الممكن والجائز ، لأن طريقه في النقل طريق الأفراد والآحاد ، ولم يرد مورد التواتر والاستفاضة كالأخبار الموجبة للعلم . والعلل القاطعة للعذر في النقل ، فان قارنها دلائل توجب صحتها وجب التسليم لها ، والانقياد الى ما أوجب اللّٰه عز وجل علينا من أخبار الشريعة والعمل بها ، لقوله عز وجل : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » .

وان لم يصح ما ذكرنا فقد وصفنا آنفا ما قال الناس في ذلك . وإنما ذكرنا هذا ليعلم من قرأ هذا الكتاب أنا قد اجتهدنا فيما أوردناه في هذا الكتاب وغيره من كتبنا ، ولم يعذب عنا فهم ما قاله الناس في سائر ماذكرنا . وباللّٰه التوفيق .

جملة البحار

فهذه جمل البحار ، وعند اكثر الناس أنها أربعة في المعمور من الأرض ، ومنهم من يعدها خمسة ، ومنهم من يجعلها ستة ، ومنهم من يرى أنها سبعة منفصلة غير متصلة .

وعلى أنها ستة فأولها البحر الحبشي ، ثم الرومي ، ثم نيطش ، ثم مانطش ، ثم الخزري ، ثم أوقيانوس الذي لا يعلم أكثر نهاياته ، وهو الأخضر المظلم المحيط .

وبحر نيطش متصل ببحر مانطش ، ومنه خليج القسطنطينية الذي يصب الى بحر الروم ويتصل به ، على حسب ما ذكرناه . والرومي بدؤه من بحر اوقيانوس الأخضر ، فيجب على هذا القياس ان يكون ما وصفنا بحرا واحدا لاتصال مياهها . وليست هذه المياه ولا شيء منها ، واللّٰه أعلم ، متصلة بشيء من بحر الحبش .

فبحر نيطش وبحر مانطش يجب ان يكونا أيضا بحرا واحدا ، وأن تضايق البحر في

بعض المواضع بينهما ، أو صار بين الماءين كالخليج . وليست تسمية مااتسع منه وكثر ماؤه بمانطش ، وما ضاق منه وقل ماؤه بنيطش ،يمنع من أن تجمعهما في اسم مانطش أو نيطش . فاذا عبرنا هذا الموضع في مبسوط هذا الكتاب فقلنا مانطش او نيطش ، فانما نريد به هذا المعنى فيما اتسع من البحر وضاق .

***

قال المسعودي : وقد غلط قوم زعموا ان البحر الخزري يتصل ببحر مايطس ، ولم أر فيمن دخل بلاد الخزر من التجار ومن ركب منهم في بحر مايطس ونيطس الى بلاد الروس والبلغر ، أحدا يزعم أن بحر الخزر يتصل ببحر من هذه البحار أو بشيء من مائها أو من خلجانها الا من نهر الخزر .

وسنذكر ذلك عند ذكرنا لجبل القبق ، ومدينة الباب والأبواب ، ومملكة الخزر ، وكيف دخل الروس في المراكب الى بحر الخزر ، وذلك بعد الثلثمائة .

ورأيت أكثر من تعرض لوصف البحار ممن تقدم وتأخر يكررون في كتبهم أن خليج القسطنطينية الآخذ من نيطش يتصل ببحر الخزر ، ولست أدري كيف ذلك ، ومن أين قالوه ؟ . . أمن طريق الحدس أم من طريق الاستدلال والقياس ؟ أو توهموا أن الروس ومن جاورهم على هذا البحر هم الخزر ؟

وقد ركبت فيه من أبسكون ، وهو ساحل جرجان ، الى بلاد طبرستان وغيرها ، ولم اترك ممن شاهدت من التجار ممن له أدب وفهم ومن لا فهم عنده من أرباب المراكب الا سألته عن ذلك ، وكل يخبرني ان لا طريق له اليها الا من بحر الخزر حيث دخلت اليه مراكب الروس ونفر من أهل اذربيجان ، والباب والأبواب وبردعة والديلم والجبل وجرجان وطبرستان اليها ، لأنهم لم يعهدوا عدوا يطرأ عليهم ، ولا عرف ذلك فيما سلف .

وما ذكرنا فمشهور فيما سمينا من الأمصار والامم والبلدان ، سالك مسلك الاستفاضة فيهم .

ورأيت في بعض الكتب المضافة الى الكندي وتلميذه ـ وهو أحمد بن الطيب السرخسي ، صاحب المعتضد بالله ـ أن في طرف العمارة من الشمال بحيرة عظيمة بعضها تحت قطب الشمال ، وأن بقربها مدينة ليس بعدها عمارة ، يقال لها تولية . ولقد رأيت لبني المنجم في بعض رسائلهم ذكر هذه البحيرة .

وقد ذكر أحمد بن الطيب في رسالته في البحار والمياه والجبال عن الكندي ان بحر الروم طوله ستة آلاف ميل من بلاد صور وطرابلس وأنطاكية واللاذقية والمثقب وساحل المصيصة

وطرسوس وقلمية الى منار هرقل ، وأن أعرض موضع فيه أربعمائة ميل . هذا قول الكندي وابن الطيب .

وقد أتينا على قول الفريقين جميعا وما بينهما من الخلاف في ذلك من أصحاب الزيجات وما وجدناه في كتبهم وسمعناه من أتباعهم . ولم نذكر ما ذكروه من البراهين المؤيدة لما وصفوا ، لاشتراطنا في هذا الكتاب على أنفسنا الاختصار والايجاز .

مبادىء تكون البحار

وأما ما تنازع فيه المتقدمون من أوائل اليونانيين والحكماء المتقدمين في مبادىء كون البحار وعللها ، فقد أتينا على مبسوطه في كتابنا « أخبار الزمان » ، في الفن الثاني من جملة الثلاثين فنا . وقد ذكرنا قول كل فريق منهم وعزونا كل قول من ذلك الى قائله ، ولم نخل هذا الكتاب من ايراد لمع من قولهم .

وذهبت طائفة منهم الى أن البحر بقية من الرطوبة الأولى التي جفف أكثرها جوهر النار ، وما بقي منها استحال لاحتراقه .

ومنهم من قال : إن الرطوبة الأولى المجتمعة لما احترقت بدوران الشمس وانعصر الصفو منها استحال الباقي الى ملوحة ومرارة .

ومنهم من رأى أن البحار عرق تعرقه الأرض لما ينالها من احتراق الشمس لاتصال دورها .

ومنهم من رأى ان البحر هو ما بقي مما صفته الأرض من الرطوبة المائية لغلظ جسمها . . . كما يعرض في الماء العذب اذا مزج بالرماد ، فانه اذا صفا من الرماد وجد مالحا بعد ان كان عذبا .

وذهب آخرون أن الماء ـ عذبه ومالحه ـ كانا ممتزجين ، فالشمس ترفع لطيفه وعذبه لخفته .

وبعضهم قال : ترفعه الشمس لتغتذي به .

وقال بعضهم بل يعود بالاستحالة ماء اذا صار بارتفاعه الى الموضع الذي يحصره البرد فيه ويكيفه .

ومنهم من ذكر ان الماء الذي هو اسطقس : ما كان منه عن الهواء وما يعرض منه من البرد يكون حلوا ، وما كان معه في الأرض لما يناله من الاحتراق والحرارة يكون مرا .

ومن أهل البحث من قال : إن جميع الماء الذي يفيض الى البحر من جميع ظهور الأرض

وبطونها ، اذا صار الى تلك الحفرة العظيمة فهو مضاض[1] من مضاض ، والأرض تقذف اليه ما فيها من الملوحة ، والذي في الماء من أجزاء النار التي تخرج اليه من بطون الأرض ومن أجزاء النيران المختلطة ، يرفعان لطائف الماء بارتفاعهما وتبخرهما . فاذا رفعا اللطائف صار منها ما يشبه المطر ، وكان ذلك دأبهما وعادتهما .

ثم يعود ذلك الماء مالحا ، لأن الأرض اذا كانت تعطيه الملوحة ، والنيران تخرج منها العذوبة واللطافة ، كان واجبا أن يعود الى الملوحة .

وكذلك يكون ماء البحر على كيل واحد ووزن واحد ، لأن الحر يرفع اللطيف فيصير طللا وماء .

ثم تعود تلك الأندية سيولا ، وتطلب الحدور والقرار ، وتجري في أعماق الأرض حتى يصير الى ذلك الهور . فليس يضيع من ذلك الماء شيء ، ولا يبطل منه شيء ، والأعيان قائمة كمجنون غرف من نهر وصب الى حفرة تفيض الى ذلك النهر .

وقد شبه ذلك قوم بأعضاء الحيوان اذا اغتذت وعملت الحرارة في غذائه فاجتذبت منه ما عذب الى الأعضاء المغتذية به ، وخلفت ما ثقل منه ، وهو المالح والمر ، فمن ذلك البول والعرق ، وهذه فضول الأغذية فيها .

ولما كانت عن رطوبات عذبة احالتها الحرارة الى المرارة والملوحة . وإن الحرارة لو زادت اكثر من مقدارها لصار الفضل مرا زائدا على ما يوجد من العرق والبول ، لوجودنا كل محترق مرا .

هذا قول جماعة ممن تقدم . وأما ما يوجد بالعيان وايقاع المحنة عند المباشرة ، فان كل الرطوبات ذات الطعوم اذا صعدت بالقرع والأنابيق بقيت روائحها وطعومها فيما يرتفع منها كالخل والنبيذ والورد والزعفران والقرنفل ، الا المالحة فانها تختلف طعومها وروائحها ، ولا سيما ان صعدت مرتين واسخنت مرة بعد أخرى .

وقد ذكر صاحب « المنطق » في هذا المعنى كلاما كثيرا .

من ذلك أن الماء المالح أثقل من الماء العذب . وجعل الدلالة على ذلك ان الماء المالح كدر غليظ والماء العذب صاف رقيق .

وأنه اذا أخذ شيء من الشمع فعمل منه اناء ، ثم سد رأسه وصير في ماء مالح ، وجد ذلك الماء الذي وصل الى داخل الاناء عذبا في الطعم خفيفا في الوزن ، ووجد الماء المحيط به على خلاف ذلك .

---

(١) المضاض (زنة غراب) : الماء الذي لا يطاق ملوحة .

وكل ماء يجري فهو نهر ، وحيث ينبع فهو عين ، وحيث يكون معظم الماء فهو بحر .

قال المسعودي : وقد تكلم الناس في المياه وأسبابها وأكثروا . وقد ذكرنا في كتابنا « أخبار الزمان » ، في الفن الثاني من جملة الثلاثين فنا ، ما أوردوه من البراهين في مساحة البحار ومقاديرها ، والمنفعة في ملوحة مائها ، واتصال بعضها ببعض وانفصالها ، وعدم بيان الزيادة فيها والنقصان ، ولأية علة كان الجزر والمد في البحر الحبشي أظهر من دون سائر البحار .

ووجدت نواخذة بحر الصين والهند والسند والزنج واليمن والقلزم والحبشة من السيرافيين والعمانيين يخبرون عن البحر الحبشي في أغلب الأمور على خلاف ما ذكرته الفلاسفة وغيرهم ممن حكينا عنهم المقادير والمساحة ، وان ذلك لا غاية له .

وفي مواضع منه شاهدت أرباب المراكب في البحر الرومي من الحربية والعمالة ـ وهم النواتي وأصحاب الرحل والرؤساء ومن يلي تدبير المراكب والحرب فيهم ، مثل لاوي المكنى بأبي الحرب غلام زراقة صاحب طرابلس الشام من ساحل دمشق ، وذلك بعد الثلثمائة ـ يعظمون طول البحر الرومي وعرضه ، وكثرة خلجانه وتشعبه .

وعلى هذا وجدت عبد الله بن وزير صاحب مدينة جبلة من ساحل حمص من أرض الشام ، ولم يبق في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) أبصر منه في البحر الرومي ، ولا أسن منه . وليس فيمن يركبه من أصحاب المراكب من الحربية والعمالة الا وهو منقاد الى قوله ، ويقر له بالبصر والحذق ، مع ما هو عليه من الديانة والجهاد القديم فيها .

وقد ذكرنا عجائب هذه البحار وما سمعناه ممن ذكرنا من أخبارها وآفاتها وما شاهدوا فيها فيما سلف من كتبنا ، وسنورد بعد هذا الموضع جملا من أخبارها .

علامات لمعرفة وجود المياه

وقد ذهب قوم في علامات المياه ومستقرها من الأرض مذهبا ، وهو أن يرى في المواضع التي يكون فيها الماء منابت القصب والحلفاء واللين من الحشيش . . . فذلك دلالة على قرب الماء لمن أراد الحفر ، وأن ما عدا ذلك فعلى البعد .

ووجدت في كتاب « الفلاحة » أنه من أراد أن يعلم قرب الماء وبعده فليحفر في الأرض قدر ثلاثة أذرع أو أربعة . ثم يأخذ قدرا من نحاس أو اجّانة خزف ، فيدهنها بالشحم من داخلها مستويا ، ولتكن القدر واسعة الفم .

فاذا غابت الشمس فخذ صوفة بيضاء منفوشة مغسولة ، وخذ حجرا قدر بيضة ، فلف ذلك الصوف عليه مثل الكرة . ثم أطل جانب الكرة بموم مذاب ، والصقها في أسفل

ذلك القدر الذي قد دهنته بدهن أو شحم ، ثم ألقها في أسفل الحفيرة ، فان الصوف يصير معلقا ، والموم يمسكه ، ويصير الى مكان الحجر معلقا .

ثم احْثُ على الاناء التراب قدر ذراعين أو ذراع ، ودعه ليلتك كلها . فاذا كان الغد قبل طلوع الشمس فاكنس التراب عنه ، وارفع الاناء .

فان رأيت الماء ملزقا بالاناء من داخل قطرا كثيرا بعضه قريب من بعض ، والصوفة ممتلئة ، فان في ذلك المكان ماء ، وهو قريب .

وان كان القطر متفرقا ، لا بالمجتمع ولا بالمتقارب ، والصوفة ماؤها وسط ، فان الماء ليس بالبعيد ولا بالقريب .

وان كان القطر ملتزقا متباعدا بعضه عن بعض والماء في الصوفة قليل ، فان الماء بعيد .

وإن لم تر على الاناء قطرا قليلا ولا كثيرا ولا على الصوفة ماء ، فانه ليس في ذلك الموضع ماء ، فلا تتعن في حفره .

ووجدت في بعض النسخ من كتاب « الفلاحة » في هذا المعنى ان من أراد علم ذلك فلينظر الى قرى النمل : فإن وجد النمل غلاظا سودا ثقيلة المشي فلينظر ، فعلى قدر ثقل مشيهن الماء قريب منهن . وان وجد النمل سريع المشي لا يكاد يلحق ، فالماء على أربعين ذراعا . والماء الأول يكون عذبا طيبا ، والثاني يكون ثقيلا مالحا .

فهذه جملة علامات لمن يريد استخراج الماء . وقد أتينا على مبسوط ما ذكرنا في كتابنا « أخبار الزمان » . وانما نذكر في هذا الكتاب ما تدعو الحاجة الى ذكره بالاشارة اليه دون بسطه وايضاحه .

واذ قد ذكرنا جملا من أخبار البحار وغيرها ، فلنقل في أخبار ملوك الصين وغيرها وأهلها ، وغير ذلك مما لحق به ، إن شاء الله تعالى .

ذِكر مُلوكِ الصّينِ وَالترك وَتفرق ولد عَابُور وأخبَار الصّين وَغير ذلك مِمّا لحق بهذا البَاب

القول في أنسَاب الصّين

قد تنازع الناس في أنساب أهل الصين وبدئهم ، فذكر كثير منهم ان ولد عابور بن سوبيل بن يافث بن نوح ، لما قسم فالغ بن عابر بن ارفخشذ بن سام بن نوح الأرض بين ولد نوح ساروا يسرة في الشرق : فسار قوم منهم من ولد أرعو على سمت الشمال ، وانتشروا في الأرض فصاروا عدة ممالك ، منهم الديلم ، والجيل ، والطيلسان ، والتتر ، وفرغان .

فأهل جبل القبق مع أنواع اللكز ثم اللان والخزر والأنجاد والسرير وكشك ، وسائر تلك الأمم المنتشرة في ذلك الصقع ، الى بلاد طوابريدة الى بحر مانطش ونيطش وبحر الخزر الى الرغز ومن اتصل بهم من الأمم .

وعبر ولد عابور نهر بلخ ، ويمم بلاد الصين الأكثر منهم ، وتفرقوا عدة ممالك في تلك البلاد وانتشروا في تلك الديار .

فمنهم الجيل ، وهم سكان جيلان ، والاشروسنة والصغد ، وهم بين بخارى وسمرقند ، ثم الفراغنة والشاش واستيجاب وأهل بلاد الفاراب . فبنوا المدن والضياع ، وانفرد منهم أناس غير هؤلاء فسكنوا البوادي :

فمنهم الترك والخزلج والطغرغر . ومنهم أصحاب مدينة كوشان ، وهي مملكة بين خراسان وبلاد الصين . وليس في أجناس الترك وأنواعهم في وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) أشد منهم بأسا ، ولا أكثر منهم شوكة ، ولا أضبط ملكا ، وملكهم أيرخان ، ومذهبهم مذهب المانية ، وليس في الترك من يعتقد هذا المذهب غيرهم .

ومن الترك الكيماكية والبرسخانية والبدية والجعرية . وأشدهم بأسا الغزية . وأحسنهم صورة ، وأطولهم قامة ، وأصبحهم وجوها : الخزلجية ، وهم أهل بلاد فرغانة والشاش وما يلي ذلك الصقع . وفيهم كان الملك ، ومنهم خاقان الخواقين ، وكان يجمع ملكه سائر ممالك الترك ، وتنقاد اليه ملوكها .

ومن هؤلاء الخواقين كان فراسياب التركي الغالب على بلاد فارس .

ومنهم سانة .

ولخاقان الترك في وقتنا هذا تنقاد ملوك الترك كلهم منذ خربت المدينة المعروفة بعمات ، وهي في مفاوز سمرقند .

وقد ذكرنا انتقال الملك عن هذه المدينة والسبب في ذلك في كتابنا المترجم بالكتاب الأوسط .

ولحق فريق من ولد عابور بتخوم الهند ، فأثرت فيهم تلك البقاع فصارت ألوانهم بخلاف ألوان الترك ، ولحقوا بألوان الهند ، ولهم حضر وبواد .

وسكن فريق منهم ببلاد التبت ، وملكوا عليهم ملكا وكان ينقاد الى ملك خاقان . فلما زال ملك خاقان على ما قدمنا ، سمى أهل التبت ملكهم بخاقان تشبيها بمن تقدم من ملوك الترك ، وهو خاقان الخواقين .

وسار الجمهور من ولد عابور على ساحل البحر حتى انتهوا الى أقاصيه من بلاد الصين ، فتفرقوا في تلك البقاع والبلاد ، وقطنوا الديار ، وكوروا الكور ، ومصروا الأمصار ومدنوا المدن. واتخذوا لمملكتهم مدينة عظيمة، وسموها انموا ، وبينها وبين ساحل البحر الحبشي ـ وهو بحر الصين ـ مسافة ثلاثة أشهر ، مدن وعمائر متصلة .

ملك نسطرطاس

وكان أول ملك تملك عليهم في هذه الديار وهي انموا : « نسطرطاس » بن باعور بن مدتج بن عابور بن يافث بن نوح ، فكان ملكه ثلثمائة سنة ونيفا . وفرق أهله في تلك الديار ، وشقق الأنهار ، وقتل السباع ، وغرس الأشجار ، وأطعم الثمار ، وهلك .

ملك عوون

فملك ولد له يقال له « عوون » فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب الأحمر جزعا عليه ، وتعظيما له . وأجلسه على سرير من الذهب الأحمر مرصع بالجواهر وجعل مجلسه دونه . وأقبل يسجد لأبيه وهو في جوف تلك الصورة ، هو وأهل مملكته ، في طرفي النهار اجلالا له . وعاش بعد أبيه مائتي سنة وخمسين سنة ، وهلك .

ملك عيثدون

فملك ولد له يقال له « عيثدون » ، فجعل جسد أبيه مخزونا في تمثال من الذهب الأحمر ، وجعله دون مرتبة جده على سرير من الذهب ، ورصعه بأنواع الجواهر ، وكان يسجد له ، ويبدأ بجده الأول ثم بأبيه ، وأهل مملكته يسجدون له .

وأحسن السياسة للرعية ، وسواهم في جميع أمورهم ، وشملهم بالعدل فكثر النسل وأخصبت الأرض ، فكان ملكه الى أن هلك نحوا من مائتي سنة .

ملك عيثنان

ثم ملك بعده ولده « عيثنان » ، فجعل أباه في تمثال من الذهب الأحمر ، وجرى فيه على ما سلف من أفعالهم من السجود والتعظيم . وطال ملكه ، واتصلت بلاده ببلاد الترك

من بني عمه ، فعاش أربعمائة سنة . واتخذ في أيامه كثير من المهن مما لطف في الدور من الصنائع .

ملك حراتان

وملك بعده ولده « حراتان » ، فأحدث الفلك وحمل فيها الرجال ، وحمل لطائف بلاد الصين ، وصيرها نحو بلاد السند والهند الى اقليم بابل والى سائر الممالك ما قرب منها وبعد في البحر ، وأهدى الهدايا العجيبة والرغائب النفيسة الى الملوك .

وأمرهم أن يجلبوا اليه ما في كل بلد من الطرائف والتحف ، من المآكل والمشارب والملابس وسائر الفرش . وأن يعرفوا سياسة كل ملك وكل أمة ، وشريعتها ونهجها الذي هي عليه .

وأن يرغبوا الناس فيما في بلدانهم من الجواهر والطيب والآلات .

فتفرقت المراكب في البلاد ، ووردوا الممالك لما امروا به . فلم يردوا على أهل مملكة الا واعجبوا بهم ، واستطرفوا ما اوردوه من أرضهم .

فبنت الملوك المطيفة بالبحار المراكب ، وجهزت نحوهم السفن ، وحملوا اليهم ما ليس عندهم وكاتبوا ملكهم ، وكافأوه على ما كان من هداياه اليهم .

فعمرت بلاد الصين ، واستقامت له الأمور ، فكان عمره نحوا من مائتي سنة ، فهلك ، فجزع عليه أهل مملكته ، وأقاموا النياحة عليه شهرا .

ملك توتال

ثم فزعوا الى الأكبر من اولاده فصيروه عليهم ملكا . فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب ، وسلك طريق من كان قبله في فعلهم مقتديا بمن مضى من آبائه .

وكان اسم هذا الملك (توتال) ، فاستقامت له الأمور ، وأحدث من السنن المحمودة ما لم يحدثه أحد ممن سلف من ملوكهم .

وزعم أن الملك لا يثبت الا بالعدل ، فان العدل ميزان الرب ، وإن من العدل الزيادة في الاحسان مع الزيادة في العمل .

وحصن ، وشرف ، وتوج ، ورتب الناس في رتبهم ووقفهم على طرائقهم . وخرج يرتاد موضعا ليبني فيه هيكلا . فوافى موضعا عامرا بالنبات ، حسن الاعتمام بالزهر ، تخترقه المياه . فخط الهيكل هناك ، وجلبت له أنواع الأحجار المختلفة الألوان .

فشيد الهيكل ، وجعل على علوه قبة ، وجعل لها مخارج للهواء متساوية ، ونصب فيها بيوتا لمن أراد التفرد بالعبادة .

فلما فرغ منها نصب في أعلاها تلك التماثيل التي فيها أجسام من سلف من آبائه ، وامر بتعظيمها . وجمع الخواص من أهل مملكته ، وأخبرهم أن من رأيه ضم النـاس الى ديانـة يرجعون اليها لجمع الشمل وتساوي النظام ، فانه متى عدم الملك الشريعة لم يؤمـن عليه الخلل ودخول الفساد والزلل . فرتب لهم سياسة شرعية ، وفرائض عقلية ، وجعلها لهم رباطا . ورتب لهم قصاصا في الأنفس والأعضاء ومستحلات مناكح يستباح بها النسوان ، وتصح بها الأنساب . وجعلها مراتب ، فمنها لوازم موجبة يحرجون من تركها ، ومنها نوافل يتنفلون بها .

وأوجب عليهم صلوات لخالقهم تقربا لمعبودهم : منها ايماء لا ركوع فيها ولا سجود في أوقات من الليل والنهار معلومة ، ومنها بركوع وسجود في أوقات من السنـة والشهـور محدودة .

ورسم لهم أعيادا ، وجعل على الزناة منهم حدا ، وعلى من أراد من نسائهم البغاء جزية مفروضة ، وألا يستبحن النكاح الا في وقت من الأوقات ، وإن اقلعن عما كن عليه تكف الجزية عنهن . وما يكون من أولادهن ذكورا يكون للملك عبيدا وجندا ، وما يكون من أولادهن اناثا ، فلأمهاتهن ، ويلحق بصنعتهن .

وأمرهم بقرابين للهياكل ، ودخن وأبخرة للكواكب ، وجعل لكل كوكب منها وقتا يتقرب اليه فيه بدخن معلوم من أنواع الطيب والعقاقير ، وأحكم لهم جميع الأمور .

فاستقامت أيامه ، وكثر النسل . فكانت حياته نحوا من مائة وخمسين سنة ، وهلك . فجزعوا عليه جزعا شديدا ، فجعلوه في تمثال من الذهب الأحمر ورصعوه بأنواع الجواهر ، وبنوا له هيكلا عظيما ، وجعلوا سقفه سبعة الوان من الجوهر على أنواع الكواكب السبعة من النيرين ، والخمسة بألوانها وأشكالها .

وجعلوا يوم وفاته صلوات وعيدا يجتمعون فيه عند ذلك الهيكل ، وصوروا صورته على أبـواب المدينـة وعلى الدنانـير والفلـوس وعلى الثياب . وأكثـر أموالهـم الفلـوس الصفـر والنحاس .

فاستقرت هذه المدينة بدار ملك الصين ، وهي مدينة انموا ، وبينها وبين البحر نحو من ثلاثة اشهر وأكثر من ذلك على حسب ما قدمناه آنفا ، ولهم مدينة عظيمة نحو ما يلي من أرضهم مغرب الشمس ، يقال لها مد ، وتلي بلاد التبت ، والحرب بين بلاد التبت وأهل المد سجال .

فلم تزل الملوك ممن طرأ بعد هذا الملك أمورهم منتظمة وأحوالهم مستقيمة ، والخصب

والعدل لهم شامل ، والجور في بلادهم معدوم ، يقتدون بما نصبه لهم من الشرع من قدمنا ذكرهم ، وحروبهم على عدوهم قائمة ، وثغورهم مشحونة ، والرزق على الجنود دارّ . والتجار يختلفون اليهم في البر والبحر من كل بلد بأنواع الجهاز .

ودينهم دين من سلف ، وهي ملة تدعى السمنية ، عباداتهم نحو من عبادات قريش قبل مجيء الاسلام : يعبدون الصور ، ويتوجهون نحوها بالصلوات.

واللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق ، ويقيم التماثيل من الأصنام والصور مقام قبلة . والجاهل منهم ومن لا علم له يشرك الأصنام بإلهية الخالق ، ويعتقدهما جميعا ، وأن عبادتهم الأصنام تقربهم الى الله زلفى ، وأن منزلتهم في العبادة تنقص عن عبادة الباريء لجلالته وعظمته وسلطانه ، وأن عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة اليه .

وهذا الدين كان بدء ظهوره في خواصهم من الهند لمجاورتهم إياهم ، وهو رأي الهند في العالم والجاهل على حسب ما ذكرنا في أهل الصين .

ولهم آراء ونحل حدثت عن مذاهب الثنوية وأهل الدهر ، فتغيرت احوالهم وبحثوا وتناظروا . الا أنهم ينقادون في جميع احكامهم الى ما نصب لهم من الشرائع المقدمة .

ومن حيث ان ملكهم متصل بملك الطغرغر ـ على حسب ما تقدم ـ صاروا على آرائهم من اعتقادهم مذاهب المانية والقول بالنور والظلمة .

وقد كانوا جاهلية ، سبيلهم في الاعتقاد سبيل الترك الى أن وقع لهم شيطان من شياطين المانية ، فزخرف لهم كلاما يريهم فيه تضاد ما في هذه العالم وتباينه : من موت وحياة ، وصحة وسقم ، وضياء وظلام ، وغنى وفقر ، واجتماع وافتراق ، واتصال وانفصال ، وشروق وغروب، ووجود وعدم ، وليل ونهار ، وغير ذلك من سائر المتضادات .

وذكر لهم أنواع الآلام المعترضة لأجناس الحيوان من الناطقين وغيرهم مما ليس بناطق من البهائم ، وما يعرض للأطفال والبله والمجانين ، وأن الباريء جل وعز غنيّ عن إيلامهم .

وأراهم أن هناك ضدا شديدا دخل على الخير الفاضل في فعله ، وهو الله عز وجل فاجتذب بما وصفنا وغيره من الشبه عقولهم ، فدانوا بما وصفنا : فان كان ملك الصين ينتمي لمذهب ذبح الحيوان كانت الحرب بينه وبين صاحب الترك أيرخان سجالا . واذا كان ملك الصين متنافي المذهب كان الأمر بينهم في الملك مشاعا .

وملوك الصين ذوو آراء ونحل ، الا انهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضية العقل والحق في نصب القضاة والحكام ، وانقياد الخواص والعوام الى ذلك .

بعض عادات الصين

وأهل الصين شعوب وقبائل كقبائل العرب وأفخاذها وتشعبها في أنسابها ، ولهم مراعاة لذلك وحفظ له . وينسب الرجل منهم الى خمسين أبا الى أن يتصل بعابور ، وأكثر من ذلك وأقل . ولا يتزوج أهل كل فخذ من فخذهم ، مثال ذلك أن يكون الرجل من مضر فيتزوج من ربيعة ، أو من ربيعة فيتزوج في مضر ، أو من كهلان فيتزوج في حمير أو من حمير فيتزوج من كهلان . ويزعمون أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية ، وأنه أصلح للبقاء ، وأتم للعمر ، وأسبابا يذكرونها نحو ما ذكرنا .

فلم تزل أمور الصين مستقيمة في العدل على حسب ما جرى به الأمر فيما سلف من ملوكهم الى سنة أربع وستين ومائتين . فانه حدث في الملك امر زال به النظام ، وانقضت به الأحكام والشرائع ، ومنع من الجهاد الى وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) :

وهو أن نابغا نبغ فيهم من غير بيت الملك كان في بعض مدائن الصين يقال له يانشو . وكان شريرا يطلب الفتنة ، ويجتمع اليه أهل الدعارة والشر . فلحق الملك وأرباب التدبير غفلة عنه ، لخمول ذكره ، وأنه ممن لا يبالى به . فاشتد امره ، ونما ذكره ، وكثر عتوه ، وقويت شوكته ، وقطع أهل الشر المسافات نحوه . وعظم جيشه ، فسار من موضعه ، وشن الغارات على العمائر حتى نزل مدينة خانقوا .

وهي مدينة عظيمة على نهر عظيم أكبر من دجلة يصب الى بحر الصين . وبين هذه المدينة وبين البحر مسيرة ستة أيام أو سبعة ، تدخل هذا النهر سفن التجار الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزائر الزابج والصنف وغيرها من الممالك بالأمتعة والجهاز . وتقرب الى مدينة خانقوا ، وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس ، وغير ذلك من أهل الصين .

فقصد هذا العدو الى هذه المدينة فحاصرها ، وأتته جيوش الملك فهزمها ، واستباح ما فيها . فكثرت جنوده ، وافتتح مدينة خانقوا عنوة ، وقتل من أهلها خلقا لا يحصون كثرة . واحصي من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس ممن قتل وغرق خوف السيف فكان مائتي ألف .

وإنما احصي ما ذكرناه في هذا العدد لأن ملوك الصين تحصي من في مملكتها من رعيتها ، وكذا من جاورها من الأمم ، ليصير ذمة لها في دواوين لها ، بكتاب قد وكلوا باحصاء ذلك لما يراعون من حياطة من شمله ملكهم .

وقطع هذا العدو ما كان حول مدينة خانقوا من غابات شجر التوت ، اذ كان يحتفظ به لما يكون من ورقه ، وما يطعم منه لدود القز الذي ينتج منه الحرير ، فكان ذهاب الشجر

داعيا الى انقطاع الحرير الصيني وجهازه الى ديار الاسلام .

وسار يانشو بجيوشه الى بلد بلد فافتتحه ، وانضاف اليه أمم من الناس ممن يطلب الشر والنهب وغيرهم ممن يخاف على نفسه ، وقصد مدينة أنموا ، وهي دار الملك ، فخرج اليه الملك في نحو مائة ألف ممن بقي معه من خواصه والتقى هو ويانشو . وكانت الحرب بينهم سجالا نحوا من شهر . وصبر الفريقان جميعا ، ثم كانت على الملك فولى منهزما .

وامعن الخارجي في طلبه ، فانحاز الملك الى مدينة في أطراف أرضه ، واستولى الخارجي على الحوزة ، واحتوى على ديار الملك ، وملك خزائن الملوك السالفة ، وما أعدوه للنوائب ، وشن الغارات في سائر العمارات ، وافتتح المدن .

وعلم أن لا قوام له بالملك ، اذ كان ليس من أهله ، فأمعن في خراب البلاد واستباحة الأموال ، وسفك الدماء .

وكاتب ملك الصين من المدينة التي انحاز اليها المتاخمة لبلاد التبت (وهي مدينة مد المتقدم ذكرها) ملك الترك ابن خاقان فاستنجده ، وأعلمه ما نزل به ، وأعلمه ما يلزم الملوك من الواجبات اذا استنجدها اخوانها من الملوك ، وأن ذلك من فرائض الملك وواجباته .

فأنجده ابن خاقان بولد له بنحو من أربعمائة ألف فارس وراجل ، وقد استفحل أمر يانشو . فالتقى الفريقان جميعا ، فكانت الحرب بينهم سجالا نحوا من سنة ، وتفانى من الفريقين خلق كثير .

ففقد يانشو ، فقيل انه قتل ، وقيل انه أحرق ، وأسر ولده والخواص من أصحابه .

وسار ملك الصين الى دار المملكة وعاد الى ملكه والعامة تسميه يعبور ، وتفسير ذلك ابن السماء تعظيما له . وهو الاسم الأخص لملوك الصين ، والذي يخاطبون به جميعا جحان ، ولا يخاطبون بيعبور . وتغلب كل صاحب ناحية من عمله على ناحيته ، كتغلب ملوك الطوائف حين قتل الاسكندر بن فيليبوس المقدوني دارا بن دارا ملك فارس ، وكنحو ما نحن بسبيله في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) .

فرضي ملك الصين منهم بالطاعة له ، ومكاتبته بالملك ، ولم يتأت له المسير الى سائر أعماله ، ولا محاربة من تغلب على بلاده ، وقنع بما وصفنا . وامتنع من ذكرنا من حمل الأموال اليه فتاركهم مسالما لهم ، وعدا كل فريق منهم على ما يليه على حسب قوته وتمكنه ، فعدم انتظام الملك واستقامته على حسب ما سلف من ملوكهم .

وقد كان لمن سلف من ملوكهم سير وسياسات للملك ، وانقياد للعدل ، على حسب ما توجبه قضية العقل .

وحكي أن رجلا من التجار من أهل مدينة سمرقند من بلاد خراسان خرج من بلاده ، ومعه متاع كثير ، حتى انتهى الى العراق ، فحمل من جهازه ، وانحدر الى البصرة ، وركب البحر حتى أتى الى بلاد عمان .

وركب الى بلاد كلة ، وهي النصف من طريق الصين أو نحو ذلك ، واليها تنتهي مراكب اهل الاسلام من السيرافيين والعمانيين في هذا الوقت فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين في مراكبهم .

وقد كانوا في بدء الزمان بخلاف ذلك . وذلك أن مراكب الصين كانت تأتي بلاد عمان وسيراف وساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة ، وكذلك كانت المراكب تختلف عن المواضع التي ذكرنا الى ما هناك . ولما عدم العدل وفسدت النيات وكان من أمر الصين ما وصفنا التقى الفريقان جميعا في هذا النصف .

ثم ركب هذا التاجر من مدينة كلة في مراكب الصينيين الى مدينة خانقوا ، وهي مرسى المراكب على حسب ما ذكرنا آنفا .

وبلغ ملك الصين خبر المراكب وما فيها من الجهاز والأمتعة ، فسرح خصيا من خواص خدمه ممن يثق به في أسبابه .

وذلك أن أهل الصين يستعملون الخصيان من الخدم في الخراج وغيره من العمالات والمهمات ، وفيهم من يخصي ولده طلبا للرياسة واعتقاد النعمة .

فسار الخصي حتى أتى مدينة خانقوا ، وأحضر التجار ومعهم التاجر الخراساني ، فعرضوا عليه ما احتاج اليه من المتاع وما يصلح له .

فسأل الخراساني ان يحضر متاعه فأحضره ، وجرت بينهم محادثة . ودار الأمر في التثمين للمتاع ، فأمر الخصي بسجن الخراساني واكراهه . وذلك أنه زاده ثقة منه بعدل الملك .

فمضى الخراساني من فوره حتى أتى مدينة انموا ، وهي دار الملك ، فوقف موقف المتظلم . وذلك أن المتظلم اذا أتى من البلد الشاسع أو غيره تقمص نوعا من الحرير الأحمر ووقف موضعا قد رسم للظلامة .

وقد رتب بعض ملوك النواحي للقبض على من يرد من المتظلمين ، ويقف ذلك الموقف ، فيحمل مسيرة شهر من أرضهم على البريد ، ففعل ذلك بالتاجر الخراساني ، ووقف بين يدي صاحب تلك الناحية المرتب لما ذكرناه ، فأقبل عليه وقال : أيها الرجل ، لقد تعرضت لأمر عظيم ، وخاطرت بنفسك ، انظر ان كنت صادقا فيما تخبر به ، والا فانا نقيلك ونردك من حيث جئت .

وكان هذا خطابه لمن يتظلم . فان رآه قد جزع وضرع في القول ضربه مائة خشبة ورده من حيث جاء . وأن هو صبر على ما هو عليه حمل الى حضرة الملك ، وأوقف بين يديه ، وسمع كلامه .

فصمم الخراساني في المطالبة والظلامة ، فرآه محقا غير ضرع ولا متلجلج ، فحمل الى الملك ، فوقف بين يديه وقص حديثه على الملك .

فلما أن أدى الترجمان اليه ما قاله وفهم ظلامته ، أمر به الى بعض المواضع وأحسن اليه . وأحضر الوزير وصاحب الميمنة وصاحب القلب وصاحب الميسرة ، وهم أناس قد رتبوا لذلك عند الملمات وحين الحروب ، قد عرف كل واحد منهم مرتبته والمراد منه . فأمرهم الملك أن يكتب كل واحد منهم الى صاحبه بالناحية ، ولكل واحد منهم خليفة في كل ناحية ، فكتبوا الى أصحابهم بخانقوا أن يكتبوا اليهم بما كان من خبر التاجر والخادم ، وكتب الملك الى خليفته بالناحية بمثل ذلك .

وقد كان خبر الخادم والتاجر اشتهر واستفاض ، فوردت الكتب على بغال البريد بتصحيح ما قاله التاجر . وذلك أن ملوك الصين لها في سائر الطرق من أعمالها بغال للبريد مسرجة محذوة الآلات للأخبار والخرائط .

فبعث الملك فاستحضر الخادم ، فلما وقف بين يديه سلبه ما كان أنعم به عليه ، ثم قال له : عمدت الى رجل تاجر قد خرج من بلد شاسع ، وقطع مسالك ، واجتاز بملوك في بر وبحر ، فلم يتعرض له ، يؤمل الوصول الى مملكتي ثقة منه بعدلي ، ففعلت به ما فعلت ، وكاد ينصرف عن ملكي ، ويقبح الأحدوثة عن سيرتي ، أما لولا قديم حرمتك بنا لقتلتك ، لكن أعاقبك بعقوبة ان عقلت فانها أكبر من القتل ، وهي أن أوليك مقابر الموتى من الملوك السالفة أن عجزت عن تدبير الأحياء والقيام بما اليه ندبت .

وأحسن الملك الى التاجر وحمله الى خانقوا ، وقال له : ان سمحت نفسك ان تبيع منا ما اختير لنا من متاعك بالثمن الجزيل ، والا فأنت المحكم في مالك : أقم اذا شئت ، وبع كيف شئت ، وانصرف راشدا حيث شئت ، وصرف الخادم الى مقابر الملوك .

****

قال المسعودي : ومن طرائف أخبار ملوك الصين أن رجلا من قريش من ولد هبار بن الأسود ، لما كان من أمر صاحب الزنج بالبصرة ما كان واشتهر ، خرج هذا الرجل من مدينة سيراف ـ وكان من أرباب البصيرة وأرباب النعم بها ، وذوي الأحوال الحسنة ـ ثم ركب منها في بعض مراكب بلاد الهند . ولم يزل يتحول من مركب الى مركب ، ومن بلد الى بلد ،

يخترق ممالك الهند ، الى أن انتهى الى بلاد الصين ، فصار الى مدينة خانقوا .

ثم دعته همته الى أن صار الى دار ملك الصين . وكان الملك يومئذ بمدينة حمدان ، وهي من كبار مدنهم ، ومن عظيم امصارهم ، فأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب .

فأمر الملك بعد هذه المدة الطويلة بانزاله في بعض المساكن وازاحة العلة من أموره وجميع ما يحتاج اليه . وكتب الى الملك المقيم بخانقوا يأمره بالبحث عنه ، ومسألة التجار عما يدعيه الرجل من قرابة نبي العرب صلى الله عليه وسلم .

فكتب صاحب خانقوا بصحة نسبه ، فأذن له في الوصول اليه ، ووصله بمال واسع ، وأعاده الى العراق .

وكان شيخا فهما ، فأخبر انه لما وصل اليه ، سأله عن العرب ، وكيف ازالوا ملك العجم .

فقال له : بالله عز وجل ، وما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس والقمر من دون الله عز وجل .

فقال له : لقد غلبت العرب على أجل الممالك وأنفسها ، وأوسعها ريعا ، وأكثرها اموالا ، وأعقلها رجالا ، وأهداها صوتا .

ثم قال له : فما منزلة سائر الملوك عندكم ؟ فقال : ما لي بهم علم .

فقال للترجمان : قل له : إنا نعد الملوك خمسة : فأوسعهم ملكا الذي يملك العراق ، لأنه في وسط الدنيا ، والملوك محدقة به ، ونجد اسمه ملك الملوك . وبعده ملكنا هذا ، ونجده عندنا ملك الناس ، لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا ، ولا أضبط لملكه من ضبطنا ملكنا ، ولا رعية من الرعايا أطوع لملكها من رعيتنا . فنحن ملوك الناس . ومن بعده ملك السباع ، وهو ملك الترك الذي يلينا ، وهم سباع الأنس . ومن بعده ملك الفيلة ، وهو ملك الهند ، ونجده عندنا ملك الحكمة أيضا ، لأن أصلها منهم . ومن بعده ملك الروم ، وهو عندنا ملك الرجال ، لأنه ليس في الأرض أتم خلقا من رجاله ، ولا أحسن وجوها منهم .... فهؤلاء أعيان الملوك والباقون دونهم .

ثم قال للترجمان : قل له : أتعرف صاحبك إن رأيته (يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم) ؟

قال القرشي : وكيف لي برؤيته وهو عند الله عز وجل ؟

فقال : لم أرد هذا ، وانما أردت صورته .

فقلت : أجل .

فأمر بسفط فأخرج فوضع بين يديه ، فتناول منه درجا وقال للترجمان : أره صاحبه . فرأيت في الدرج صور الأنبياء ، فحركت شفتي بالصلاة عليهم ، ولم يكن عندهم أنني أعرفهم ، فقال للترجمان : سله عن تحريكه لشفتيه . فسألني ، فقلت : أصلي على الأنبياء .

فقال : ومن أين عرفتهم ؟

فقلت : بما صور من أمورهم ، هذا نوح عليه السلام في السفينة ينجو بمن معه لما أمر الله عز وجل الماء فعم الماء الأرض كلها بمن فيها ، وسلمه ومن معه .

فقال : أما نوح فصدقت في تسميته . وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه ، وانما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ولم يصل الى أرضنا . وإن كان خبركم صحيحا فعن هذه القطعة . ونحن معاشر أهل الصين والهند والسند وغيرنا من الطوائف والأمم لا نعرف ما ذكرتم ، ولا نقل الينا أسلافنا ما وصفتم ، وما ذكرت من ركوب الماء الأرض كلها فمن الكوائن العظام التي تفزع النفوس الى حفظه وتتداوله الأمم ناقلة له .

قال القرشي : فهبت الرد عليه واقامة الحجة ، لعلمي بدفعه ذلك .

ثم قلت : وهذا موسى صلى الله عليه وسلم وبنو اسرائيل .

فقال : نعم ، على قلة البلد الذي كان به وفساد قومه عليه .

ثم قلت : هذا عيسى ابن مريم عليه السلام على حماره والحواريون معه .

فقال : لقد كان قليل المدة ، إنما كان أمده يزيد على ثلاثين شهرا شيئا يسيرا .

وعدد من سائر الأنبياء وأخبارهم ما اقتصرت على ذكر بعضه .

ويزعم هذا القرشي ـ وهو المعروف بابن هبار ـ أنه رأى فوق كل صورة كتابة طويلة قد دون فيها ذكر اسمائهم ، ومواضع بلدانهم ، ومقادير اعمارهم ، وأسباب نبواتهم وسيرهم .

وقال : ثم رأيت صورة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جمل ، وأصحابه محدقون به في أرجلهم نعال عربية من جلود الإبل ، وفي أوساطهم الحبال ، قد علقوا فيها المساويك .

فبكيت ، فقال للترجمان : سله عن بكائه .

فقلت : هذا نبينا وسيدنا وابن عمنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

فقال : صدقت ، لقد ملك قومه أجل الممالك ، الا انه لم يعاين من الملك شيئا ، إنما عاينه من بعده ومن تولى الأمر على أمته من خلفائه .

ورأيت صور أنبياء كثيرة منهم من قد أشار بيده جامعا بين سبابته وابهامه كالحلقة ، كأنه يصف أن الخليقة في مقدار الحلقة ، ومنهم من قد أشار بسبابته نحو السماء كالمرهب للخليقة بما فوق ، وغير ذلك .

ثم سألني عن الخلفاء وزيهم وكثير من الشرائع ، فأجبته على قدر ما أعلم منها .

ثم قال : كم عمر الدنيا عندكم ؟

فقلت : قد تنوزع في ذلك ، فبعض يقول ستة آلاف سنة ، وبعض يقول دونها ، وبعض يقول اكثر منها .

فقال : ذلك عن نبيكم ؟

فقلت : نعم .

فضحك ضحكا كثيرا ووزيره أيضا ، وهو واقف دل على انكار ذلك ، وقال : ما حسبت نبيكم قال هذا .

فزللت فقلت : بل هو قال ذلك .

فرأيت الانكار في وجهه ثم قال للترجمان : قل له ميز كلامك ، فان الملوك لا تكلم الا عن تحصيل . أما زعمت أنكم تختلفون في ذلك ، فانكم انما اختلفتم في قول نبيكم ، وما قالت الأنبياء لا يجب ان يختلف فيه ، بل هو مسلم لها ؛ فاحذر هذا وشبهه أن تحكيه .

وذكر أشياء كثيرة ذهبت عني لطول المدة .

ثم قال لي : لم عدلت عن ملكك وهو أقرب اليك دارا ونسبا ؟

قلت : بما حدث على البصرة ، ووقوعي الى سيراف ، ونزعت بي همتي الى ملكك أيها الملك ، لما بلغني من استقامة ملكك ، وحسن سيرتك ، وكثرة جنودك وشمول سياستك لسائر رعيتك فأحببت الوقوع الى هذه المملكة ومشاهدتها . وأنا راجع عنها الى بلادي ، وملك ابن عمي ، ومخبر بما شاهدت من جلالة هذا الملك ، وسعة هذه البلاد وعموم هذا العدل ، وحسن شيمك أيها الملك المحمود ، وسأقول بكل قول حسن وأثني بكل جميل .

فسره ذلك ، وأمر لي بجائزة سنية ، وخلع شريفة . وأمر بحملي على البريد الى مدينة خانقوا ، وكتب الى ملكها باكرامي وتقديمي على من في ناحيته من سائر خواص النـاس ، واقامة النزل الى وقت خروجي عنه . فكنت عنده في أخصب عيش وأنعمه ، الى أن خرجت من بلاد الصين .

وصف مدينة حمدان

قال المسعودي : واخبرني أبو زيد الحسن بـن يزيد السيرافي بالبصرة (وكان قد قطنها

وانتقل عن سيراف ، وذلك في سنة ثلاث وثلثمائة ، وأبو زيد هذا هو ابن عمر بن زيد بن محمد بن مزد بن ساسياد السيرافي . وكان الحسن بن يزيد من أهل التحصيل والتمييز) أنه سأل ابن هبار هذا القرشي عن مدينة حمدان التي بها الملك وصفتها . فذكر سعتها وكثرة أهلها ، وأنها مقسومة على قسمين يفصل بينهما شارع عظيم طويل عريض .

فالملك ووزيره وقاضي القضاة وجنوده وخصيانه ، وجميع أسبابه في الشق الأيمن منه مما يلي المشرق ، لا يخالطهم أحد من العامة ، وليس فيه شيء من الأسواق ، بل أنهار في سككهم مطردة ، واشجار عليها منتظمة ، ومنازل فسيحة .

وفي الشق الأيسر مما يلي المغرب الرعية والتجار والميرة والأسواق .

فاذا وضح النهار رأيت فيها قهارمة الملك وغلمانه وغلمان وزرائه ووكلاءهم ما بين راكب وراجل قد دخلوا الى الشق الذي فيه العامة والتجار ، فأخذوا بضائعهم وحوائجهم ثم انصرفوا ، فلا يعود واحد منهم الى هذا الشق الا في اليوم الثاني . وأن هذه البلدان فيها كل نزهة وغيضة حسنة ، وأنهار مطردة ، الا النخل فانه معدوم عندهم .

مهارة أهل الصين

وأما أهل الصين فمن أحذق خلق الله كفاً بنقش وصنعة ، وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم . والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه ، فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع . فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك الى سنة . فان لم يخرج أحد فيه عيبا أجاز صانعه وأدخله في جملة صناعه ، وان أخرج أحد فيه عيبا طرحه ولم يجزه .

وأن رجلا منهم صور سنبلة سقط عليها عصفور في ثوب حرير ، لا يشك الناظر اليها أنها سنبلة سقط عليها عصفور . فبقي الثوب مدة ، وأنه اجتاز به رجل أحدب ، فعاب العمل ، فأدخل الى الملك ، وأحضر صاحب العمل ، فسأل الأحدب عن العيب ، فقال : المتعارف عند الناس جميعا أنه لا يقع عصفور على سنبلة الا أمالها ، وصور هذا المصور السنبلة فنصبها قائمة لا ميل فيها ، وأثبت العصفور فوقها منتصبا ، فأخطأ . فصدق الأحدب ، ولم يثب صاحبها بشيء .

وقصدهم بهذا وشبهه الرياضة لمن يعمل هذه الأشياء ، ليضطرهم الى شدة الاحتراز والحذر واعمال الفكر فيما يصنعه كل واحد منهم بيده .

ولأهل الصين أخبار عظيمة عجيبة ، ولبلادهم أخبار طريفة ، سنورد فيما يرد من هذا الكتاب جملا منها ، وإن كنا قد أتينا على سائر الأخبار من ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » في

الأمم الماضية والممالك الدائرة ، وذكرنا في الكتاب الأوسط جملا لم نتعرض لذكرها في كتاب « أخبار الزمان » . وربما ذكرنا في هذا الكتاب ما لم يتقدم ذكره في ذينك الكتابين . والله أعلم .

ذكر جمل من الأخبار عن البحار
وما فيها وما حولها من العجائب والأمم ومراتب الملوك وأخبار الأندلس ومعادن الطيب وأصوله وعدد أنواعه وغير ذلك

قد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب جملا من ترتيب البحار المتصلة والمنفصلة ، فلنذكر الآن في هذا الباب جملا من أخبار ما اتصل بنا من البحر الحبشي والممالك والملوك ، وجملا من ترتيبها ، وغير ذلك من أنواع العجائب .

اضطراب بحر فارس وبحر الهند وهدوؤهما

فنقول : ان بحر الصين والهند وفارس واليمن متصلة مياهها غير منفصلة ، على ما ذكرنا ، الا أن هيجانها وركودها مختلف ، لاختلاف مهاب رياحها وآثار ثورانها ، وغير ذلك .

فبحر فارس تكثر أمواجه ، ويصعب ركوبه ، عند لين بحر الهند واستقامة ركوبه وقلة أمواجه . ويلين بحر فارس ، وتقل أمواجه ، ويسهل ركوبه ، عند ارتجاج بحر الهند ، واضطراب أمواجه وظلمته ، وصعوبة مركبه .

فأول ما تبتدىء صعوبة بحر فارس عند دخول الشمس السنبلة وقرب الاستواء الخريفي . ولا يزال في كل يوم تكثر أمواجه الى أن تصير الشمس الى برج الحوت . فأشد ما يكون ذلك في آخر الخريف عند كون الشمس في القوس ، ثم يلين الى أن تعود الشمس في الجوزاء .

وبحر الهند لا يزال كذلك الى أن تصير الشمس الى السنبلة فيركب حينئذ ، وأهدأ ما يكون عند كون الشمس في القوس .

وبحر فارس يركب في سائر السنة من عمان الى سيراف ، وهو ستون ومائة فرسخ ، ومن سيراف الى البصرة وهو أربعون ومائة فرسخ . ولا يتجاوز في ركوبه غير ما ذكرنا من هذين الموضعين ونحوهما .

وقد حكى أبو معشر المنجم في كتابه المترجم بالمدخل الكبير الى علوم النجوم ما ذكرنا من اضطراب هذه البحار وهدوئها عند كون الشمس فيما ذكرنا من البروج . وليس يكاد يقطع من عمان نحو الهند في انتهائه الا مركب معزز ، وحمولته يسيرة . وتسمى هذه المراكب بعمان اذا قطعت أرض الهند في هذا الوقت التيرماهية .

وذلك أن بلاد الهند وبحر الهند يكون فيه اليسارة ـ وهو الشتاء ـ ودوام الأمطار في

كانون ، وكانون وشباط عندنا صيف ، وعندهم الشتاء ، كما يكون عندنا الحر في حزيران وتموز وآب . فشتاؤنا صيفهم ، وصيفهم شتاؤنا . وكذلك سائر مدن السند والهند وما اتصل بذلك الى اقاصي هذا البحر ، ومن شتى في صيفنا بأرض الهند قيل : فلان يسر بأرض الهند ، أي شتى هنالك . وذلك لقرب الشمس وبعدها .

الغوص على اللؤلؤ

والغوص على اللؤلؤ في بحر فارس ، وانما يكون في أول نيسان الى آخر أيلول ، وما عدا ذلك من شهور السنة فلا غوص فيها .

وقد أتينا فيما سلف من كتبنا على سائر مواضع الغوص في هذا البحر ، اذ كان ما عداه من البحار لا لؤلؤ فيه . وهو خاص بالبحر الحبشي من بلاد خارك وقطر وعمان وسرنديب وغير ذلك من هذا البحر .

وقد ذكرنا كيفية تكون اللؤلؤ ، وتنازع الناس في تكونه ، ومن ذهب منهم الى أن ذلك من المطر ، ومن ذهب منهم الى أن ذلك من غير المطر ، وصفة صدف اللؤلؤ العتيق منه والحديث الذي يسمى بالمحار ، والمعروف بالبلبل ، واللحم الذي في الصدف والشحم . وهو حيوان يفزع على ما فيه من اللؤلؤ والدر خوفا من الغاصة ، كخوف المرأة على ولدها .

وقد أتينا على ذكر كيفية الغوص ، وأن الغاصة لا يكادون يتناولون شيئا من اللحمان الا السمك والتمر ، وغيرهما من الأقوات ، وما يلحقهم ، وذكر شق أصول آذانهم لخروج النفس من هناك بدلا من المنخرين ، لأن المنخرين يجعل عليهما شيء من الدبل وهو ظهور السلاحف البحرية التي تتخذ منها الأمشاط أو من القرن يضمهما كالمشقاص لا من الخشب ، وما يجعل في آذانهم من القطن فيه شيء من الدهن ، فيعصر من ذلك الدهن اليسير في الماء في قعره ، فيضيء لهم بذلك في البحر ضياء بينا ، وما يطلون به أقدامهم وأسواقهم من السواد خوفا من بلع دواب البحر اياهم ولنفورها من السواد ، وصياح الغاصة في قعر البحر كالكلاب ، وخرق الصوت الماء فيسمع بعضهم صياح بعض .

وللغواص واللؤلؤ وحيوانه أخبار عجيبة ، وقد أتينا على جميع أوصاف ذلك وصفات اللؤلؤ وعلاماته وأثمانه ومقادير أوزانه فيما سلف من كتبنا .

فأول هذا البحر مما يلي البصرة والأبلة والبحرين من خشبات البصرة ، ثم بحر لاروي وعليه بلاد صيمور وسوبارة وتابة وسندان وكنباية وغيرها من السند والهند ، ثم بحر هركند ، ثم بحر كلاه ، وهو بحر كلة والجزائر ، ثم بحر كردنج ، ثم بحر الصنف ، واليه يضاف العود الصنفي والى بلاده ، ثم بحر الصين ، وهو بحر صنجى ليس بعده بحر .

فأول بحار فارس على ما ذكرنا خشبات البصرة والموضع المعروف بالكفلاء ، وهي علامات منصوبة من خشب في البحر ، مغروسة علامات للمراكب الى عمان مسافة ثلثمائة فرسخ . وعلى ذلك ساحل فارس وبلاد البحرين .

ومن عمان ـ وقصبتها تسمى سنجار ، والفرس يسمونها مزون ـ الى المسقط ، وهي قرية منها يستقي أرباب المراكب الماء من آبار هناك عذبة ، خمسون فرسخا .

ومن المسقط الى رأس الجمجمة خمسون فرسخا . . . وهذا آخر بحر فارس . وطوله اربعمائة فرسخ ، هذا تحديد النواتية وأرباب المراكب .

ورأس الجمجمة جبل متصل ببلاد من اليمن من أرض الشحر والأحقاف ، والرمل منه تحت البحر ، لا يدرى أين تنتهي غايته في الماء (أعني الجبل المعروف برأس الجمجمة) .

واذا كان ما وصفنا من الجبل في البر ومنه تحت البحر سمي في البحر الرومي سفالة ، من تلك السفالة في الموضع المعروف بساحل سلوقيا من أرض الروم ، واتصالها تحت البحر بنحو من جزيرة قبرص ، وعليها عطب أكثر مراكب الروم وهلاكها .

وانما نعبر بلغة أهل كل بحر وما يستعملونه في خطابهم فيما يتعارفونه بينهم .

فمن هنالك تنطلق المراكب الى البحر الثاني وهو المعروف بلاروى ، ولا يدرى عمقه ولا يحصر طوله وعرضه عند البحريين . وربما يقطع في الشهرين والثلاثة وفي الشهر ، على قدر مهبات الريح والسلامة . وليس في هذه البحار ـ أعني ما احتوى عليه البحر الحبشي ـ أكبر من هذا البحر بحر لاروى ، ولا أشد .

وفي عرضه بحر الزنج وبلادهم ، وعنبر هذا البحر قليل . وذلك أن العنبر أكثره يقع الى بلاد الزنج وساحل الشحر من أرض العرب ، وأهل الشحر أناس من قضاعة وغيرهم من العرب .

وهم مهرة ، ولغتهم بخلاف لغة العرب . وذلك أنهم يجعلون الشين بدلا من الكاف ، مثل ذلك أن يقولوا : هل لش فيما قلت لي ، وقلت لش أن تجعلي الذي معي في الذي معش . . يريد : هل لك فيما قلت لي ، وقلت لك أن تجعلي الذي معي في الذي معك . وغير ذلك من خطابهم ونوادر كلامهم .

وهم ذوو فقر وفاقة . ولهم نجب يركبونها بالليل تعرف بالنجب المهرية تشبه في السرعة بالنجب البجاوية ، بل عند جماعة أنها أسرع منها ، يسيرون عليها على ساحل بحرهم ، فاذا أحست هذه النجب بالعنبر قد قذفه البحر بركت عليه ، قد ريضت لذلك واعتادته ، فيتناوله الراكب .

وأجود العنبر ما وقع في هذه الناحية والى جزائر الزنج وساحله ، وهو المدور الأزرق النادر ، كبيض النعام أو دون ذلك .

ومنه ما يبلعه الحوت المعروف بالافال المقدم ذكره . وذلك أن البحر اذا اشتد قذف من قعره العنبر كقطع الجبال وأصغر ، على ما وصفنا . فاذا ابتلع هذا الحوت العنبر قتله فيطفو فوق الماء .

ولذلك أناس يرصدونه في القوارب من الزنج وغيرهم ، فيطرحون فيه الكلاليب والحبال ، فيشقون عن بطنه ويستخرجون العنبر منه . فما خرج من بطنه يكون سهكا ، ويعرفه العطارون بالعراق وفارس بالند . وما بقي على ظهر الحوت منه كان نقيا جيدا ، على حسب لبثه في بطن الحوت .

وبين البحر الثالث ـ وهو هركند ـ والبحر الثاني ـ وهو لاروى ـ على ما ذكرنا جزائر كثيرة ، وهي فرز بين هذين البحرين . ويقال : انها نحو من ألفي جزيرة ، وفي قول المحق ألف وتسعمائة جزيرة ، كلها عامر بالناس . وملكة هذه الجزائر كلها امرأة ، وبذلك جرت عادتهم من قديم الزمان لا يملكهم رجل .

والعنبر يوجد في هذه الجزائر أيضا ، يقذفه البحر ، ويوجد في بحرها ، كأكبر ما يكون من قطع الصخر .

وأخبرني غير واحد من نواخذة السيرافيين والعمانيين بعمان وسيراف وغيرهما من التجار ممن كان يختلف الى هذه الجزائر ، أن العنبر ينبت في قعر هذا البحر ، ويتكون كتكون أنواع الفطر : من الأبيض ، والأسود ، والكمأة ، والمغاريد ، وبنات أوبر ونحوها . فاذا هاج البحر واشتد ، قذف من قعره الصخور والأحجار وقطع العنبر .

وأهل هذه الجزائر متفقون ، وكلمتهم واحدة ، ولا يحصرهم العد لكثرتهم ، ولا تحصى جيوش هذه الملكة عليهم . وبين الجزيرة والجزيرة نحو الميل والفرسخ والفرسخين والثلاثة .

ونخلهم شجر النارجيل ، لا يفقد من النخلة الا التمر . وقد زعم أناس ممن عني بتولدات الحيوان وتطعيم الأشجار أن النارجيل هو نخل المقل ، وانما أثرت فيه تربة الهند حين غرس فيها فصار نارجيلا ، وانما هو نخل المقل .

وقد ذكرنا في كتابنا المترجم بالقضايا والتجارب ما تؤثره كل بقعة من بقاع الأرض وهوائها في حيوانها من الناطقين وغيرهم ، وما تؤثر البقاع في النامي من النبات ، وفيما ليس بنام ، كتأثير أرض الترك في وجوههم وصغر أعينهم ، حتى أثر ذلك في جمالهم ، فقصرت

قوائمها ، وغلظت رقابها ، وابيض وبرها ، وأرض يأجوج ومأجوج في صورهم ، وغير ذلك ، مما اذا تبينه ذوو المعرفة في سكان الأرض من المشرق والمغرب وجدوه على ما ذكرناه .

وليس يوجد في جزائر البحر ألطف صنعة من أهل هذه الجزائر في سائر المهن والصناعة في الثياب والآلات وغير ذلك .

وبيوت أموال هذه الملكة الودع ، وذلك أن هذا الودع فيه نوع من الحيوان . واذا قل ما لها أمرت أهل هذه الجزائر أن يقطعوا من سعف نخل النارجيل بخوصه ويطروحنه على وجه الماء . فيتراكب عليه ذلك الحيوان ، فيجمع ويطرح على رمل الساحل . فتحرق الشمس ما فيه من الحيوان . ويبقى الودع خاليا مما كان فيه ، فتملأ من ذلك بيوت الأموال .

وهذه الجزائر تعرف جميعها بالدبيحات ، ومنها يحمل أكثر الزانج ، وهو النارجيل . وآخر هذه الجزائر جزيرة سرنديب .

ويلي جزيرة سرنديب جزائر أخر نحو من ألف فرسخ ، تعرف بالرامين ، معمورة ، وفيها ملوك وفيها معادن من ذهب كثيرة .

ويليها بلاد قنصور ، واليها يضاف الكافور القنصوري ، والسنة التي تكون كثيرة الصواعق والبروق والرجف والقذف والزلازل يكثر فيها الكافور ، واذا قل ذلك كان نقصانا في وجوده .

وأكثر ما ذكرنا من الجزائر غذاؤهم النارجيل ، ويحمل من هذه الجزائر خشب البَقَّم والخيزران والذهب . وفيلتها كثيرة ، ومنها ما يأكل لحوم الناس .

وتتصل هذه الجزائر بجزائر النجبالوس ، وهي أمم عجيبة الصور عراة يخرجون في القوارب عند اجتياز المراكب بهم ، معهم العنبر والنارجيل ، فيتعاوضون بالحرير وشيء من الثياب ، ولا يبيعون ذلك بالدراهم ولا بالدنانير ، وتليهم جزائر يقال لها أندامان ، فيها أناس سود عجيبو الصورة والمنظر ، مفلفلو الشعور ، قدم الواحد منهم أكبر من الذراع ، لا مراكب لهم . فاذا وقع الغريق اليهم مما قد انكسر في البحر أكلوه ، وكذلك فعلهم بالمراكب اذا وقعت اليهم .

وذكر لي جماعة من النواخذة أنهم ربما رأوا في هذا البحر سحابا أبيض قطعا صغارا يخرج منه لسان أبيض طويل حتى يتصل بماء البحر . فاذا اتصل به غلا البحر لذلك ، وارتفعت منه زوابع عظيمة ، لا تمر زوبعة منها بشيء الا أتلفته ، ويمطرون عقيب ذلك مطرا مهلكا فيه أنواع من قذى البحر .

بحر كلة

وأما البحر الرابع فهو كلاهبار ، على حسب ما ذكرنا ، وتفسير ذلك بحر كلة . وهو

بحر قليل الماء ، واذا قل ماء البحر كان أكثر آفات وأشد خبثا .

وهو كثير الجزائر والصراوي (واحدها صرو) . وذلك أن أهل المراكب يسمون ما بين الخليجين اذا كان طريقهم فيه الصرو .

وبهذا البحر أنواع من الجزائر والجبال عجيبة ، وانما غرضنا التلويح بلمع من الأخبار عنها ، لا البسط .

بحر كردنج

وكذلك البحر الخامس المعروف بكردنج ، فانه كثير الجبال والجزائر ، وفيه الكافور ، وهو قليل الماء كثير المطر ، لا يكاد يخلو منه .

وفيه أجناس من الأمم منهم جنس يقال له القنجب ، شعورهم مفلفلة وصورهم ومناظرهم عجيبة ، يتعرضون في قوارب لهم لطاف للمراكب اذا اجتازت بهم ، ويرمون بنوع من السهام عجيبة ، قد سقيت السم .

وبين هذه الأمة وبين بلاد كلة جبال معادن الرصاص الأبيض وجبال من الفضة ، ومنها أيضا معادن من الذهب ، ورصاص لا يكاد يتميز عنه .

بحر الصنف

ثم يليه بحر الصنف على ما رتبناه آنفا ، وفيه مملكة المهراج ملك الجزائر ، وملكه لا يضبط كثرة ، ولا تحصى جنوده ، ولا يستطيع أحد من الناس في أسرع ما يكون من المراكب أن يمر بجزائره في سنين .

وقد حاز هذا الملك أنواع الطيب والأفاويه ، وليس لأحد من الملوك ما له . ومما يحمل من بلاده ويجهز من أرضه الكافور والعود والقرنفل والصندل والجوز والبسباسة والقاقلة والكبابة وغير ذلك مما لم نذكره .

وجزائره تتصل ببحر لا تدرك غايته ، ولا يعرف منتهاه مما يلي بحر الصين .

وفي أطراف جزائره جبال فيها أمم كثيرة بيض ، آذانهم مخرمة ووجوههم كقطع التراس المطرقة ، يجزون شعورهم كما يجز الشعر من الزق مدرجا ، تظهر من جبالهم النار بالليل والنهار ، فنارها حمراء وبالليل تسود ، وتلحق بعنان السماء لعلوها وذهابها في الجو ، تقذف بأشد ما يكون من صوت الرعد والصواعق .

وربما يظهر منها صوت عجيب مفزع ينذر بموت ملكهم ، وربما يكون أخفض من ذلك فينذر بموت بعض رؤسائهم . . . قد عرف ما ينذر من ذلك بطول العادات والتجارب على طول السنين ، وأن ذلك غير مختلف .

وهذه أحد آطام الأرض الكبار ، وتليها الجزيرة التي يسمع منها على دوام الأوقات، أصوات الطبول والسرنايات والعيدان وسائر أنواع الملاهي المطربة المستلذة ، ويسمع ايقاع الرقص والتصفيق . ومن يسمع ذلك يميز بين كل نوع من أصوات الملاهي وغيره .

والبحريون ممن اجتاز بتلك الديار يزعمون أن الدجال بتلك الجزيرة .

وفي مملكة المهراج جزيرة سريرة ، ومسافتها في البحر نحو من أربعمائة فرسخ ، عمائر متصلة ، وبه جزيرة الزانج والرامني ، وغير ذلك مما لا يؤتى على ذكره من جزائره وملكه . وهو صاحب البحر السادس ، وهو بحر الصنف .

بحر الصين

ثم البحر السابع وهو بحر الصين على ما رتبناه آنفا ، ويعرف ببحر صنجى . وهو بحر خبيث كثير الموج والخب ، وتفسير الخب الشدة العظيمة في البحر . وانما نخبر عن عبارة أهل كل بحر وما يستعملونه في خطابهم .

وفيه جبال كثيرة لا بد للمراكب من النفوذ بينها . وذلك أن البحر اذا عظم خبه وكثر موجه ، ظهرت أشخاص سود طول الواحد منهم نحو الخمسة أشبار أو الأربعة ، كأنهم أولاد الأحابيش الصغار ، شكلا واحداً ، وقدا واحدا .

فيصعدون على المراكب ، ويكثر منهم الصعود من غير ضرر . فاذا شاهد الناس ذلك تيقنوا الشدة ، فان ظهورهم علامة للخب فيستعدون لذلك : فمعافى ، ومبتلى .

فاذا كان كذلك ربما شاهد المعافى منهم في أعلى الدقل ـ ويسميه أرباب المراكب في بحر الصين وغيره من البحر الحبشي الدولي ، ويسميه الرجال في البحر الرومي الصاري ـ شيئا على صورة الطائر يتوقد نورا ، ولا يستطيع الناظر منهم على ملء بصره منه ، ولا ادراكه كيف هو .

فاذا استقر على أعلى الدقل يرون البحر يهدأ ، والأمواج تصغر ، والخب يسكن . ثم ان ذلك النور يفقد ، فلا يدرى كيف أقبل ، ولا كيف ذهب ، فذلك علامة الخلاص ، ودليل النجاة .

وما ذكرنا فلا تناكر فيه عند أهل المراكب والتجار من أهل البصرة وسيراف وعمان وغيرهم ممن قطع هذا البحر . وما ذكرناه عنهم فممكن غير ممتنع ولا واجب ، اذ كان جائزا في مقدور الباري جل وعز خلاص عباده من الهلاك واستنقاذهم من البلاء .

وفي هذا البحر نوع من السراطين يخرج من البحر كالذراع والشبر . وأصغر من ذلك وأكبر . فاذا بان عن الماء بسرعة حركة وصار على البر صار حجارة وزالت عنه الحيوانية .

وتدخل تلك الحجارة في أكحال العين وأدويتها . وأمره مستفيض أيضا .

ولبحر الصين ايضا ، وهو السابع المعروف بصنجى ، أخبار عجيبة . وقد أتينا على جمل من أخباره وأخبار ما اتصل به من البحار فيا سمينا من كتبنا وأسلفنا من تصنيفنا في هذا المعنى . ونحن ذاكرون فيا يرد من هذا الكتاب من أخبار الملوك جوامع وجملا من ذلك .

وليس بعد بلاد الصين مما يلي البحر ممالك تعرف ولا توصف ، الا بلاد السيلى وجزائرها . ولم يصل اليها من الغرباء احد ـ من العراق ولا غيره ـ فخرج منها ، لصحة هوائها ، ورقة مائها ، وجودة تربتها ، وكثرة خيرها وصفاء جواهرها الا النادر من الناس .

وأهلها مهادنون لأهل الصين وملوكها ، والهدايا بينهم لا تكاد تنقطع . وقد قيل : انهم تشعبوا من ولد عامور ، وسكنوا هناك ، على حسب ما ذكرنا من سكنى أهل الصين في بلادهم .

وللصين أنهار كبار مثل الدجلة والفرات ، تجري من بلاد الترك والتبت والصغد ، وهي بين بخارى وسمرقند .

جبال النوشادر

وهنالك جبال النوشادر ، فاذا كان في الصيف رؤيت في الليل نيران قد ارتفعت من تلك الجبال من نحو مائة فرسخ بالنهار ، يظهر منها الدخان لغلبة شعاع الشمس وضوء النهار . ومن هناك يحمل النوشادر .

فاذا كان في أول الشتاء فمن أراد من بلاد خراسان أن يسلك الى بلاد الصين ، صار الى ما هنالك . وهنالك واد بين تلك الجبال طوله أربعون ميلا أو خمسون . فيأتي الى أناس هنالك على فم الوادي ، فيرغبهم في الأجرة النفيسة ، فيحملون ما معه على أكتافهم ، وبأيديهم العصي يضربون جنبيه خوفا أن يبلح[1] فيموت من كرب الوادي وهوله .

حتى يخرجوا الى ذلك الرأس من الوادي . وهنالك غابات ومستنقعات للماء ، فيطرحون أنفسهم في ذلك الماء ، لما قد نالهم من شدة الكرب وحر النوشادر .

ولا يسلك ذلك الطريق شيء من البهائم ، لأن النوشادر يلتهب نارا في الصيف ، فلا يسلك ذلك الوادي داع ولا مجيب .

فاذا كان الشتاء وكثرت الثلوج والأنداء . وقع في ذلك الموضع فأطفأ حر النوشادر ولهيبه ، فسلك الناس حينئذ ذلك الوادي . والبهائم لا صبر لها على ما ذكرناه من حره .

وكذلك من ورد من بلاد الصين فعل به من الضرب ما فعل بالمار .

---

١ ـ بلح الرجل بلوحا : اعيا .

والمسافة من بلاد خراسان على الموضع الذي ذكرناه الى بلاد الصين نحو من أربعين يوما ، بين عامر وغير عامر ودهاس ورمل . وفي غير هذا الطريق مما يسلكه البهائم نحو من أربعة أشهر ، الا أن ذلك في خفارات أنواع من الترك .

وقد رأيت بمدينة بلخ شيخا جميلا ذا رأي وفهم ، وقد دخل الصين مرارا كثيرة ولم يركب البحر قط .

ورأيت عدة من الناس ممن سلك من بلاد الصغد على جبال النوشادر الى أرض التبت والصين ببلاد خراسان ، وبلاد الهند متصلة ببلاد خراسان والسند مما يلي بلاد المنصورة والمولتان ، والقوافل متصلة من السند الى خراسان ، وكذلك الى الهند .

الى أن تتصل هذه الديار بديار زابلستان ، وهي بلاد واسعة تعرف بمملكة فيروز بن كبك . وفيها قلاع عجيبة ممتنعة ، ولغات مختلفة ، وأمم كثيرة . وقد تنازع الناس في أنسابهم ، فمنهم من ألحقهم بولد يافث بن نوح ومنهم من ألحقهم بالفرس الأولى في نسب طويل .

وصف بلاد التبت

وبلاد التبت مملكة متميزة من بلاد الصين ، والغالب عليهم حمير ، وفيهم بعض التبابعة على حسب ما ذكرنا من أخبار ملوك اليمن فيما يرد من هذا الكتاب ، وذلك موجود في أخبار التبابعة .

ولهم حضر وبدو ، وبواديهم ترك لا تدرك كثرة ، ولا يقاومهم أحد من بوادي الأتراك . وهم معظمون في سائر أجناس الترك ، لأن الملك كان منهم في قديم الزمان ، وعند سائر أجناس الترك أن الملك سيعود اليهم ويرجع فيهم .

ولبلاد التبت خواص عجيبة في هوائها وسهلها ومائها وجبلها ، ولا يزال الانسان أبدا ضاحكا بها فرحا مسرورا ، لا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار ، ولا تحصى عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وهوائها وأنهارها .

وهي بلاد تقوى فيها طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره . ولا يكاد يرى في هذا البلد شيخ حزين ولا عجوز ، بل الطرب في الشيوخ والكهول والشباب والأحداث عام .

وفي أهلها رقة الطبع وبشاشة وأريحية تبعث على كثرة استعمال الملاهي ، والمعاقرة ، وأنواع ايقاع الرقص . حتى ان الميت اذا مات لا يكاد يداخل أهله عليه كثير من الحزن مما يلحق غيرهم من سائر الناس عند فقد محبوب أو فوت مطلوب .

ولهم تحنن كثير من بعضهم على بعض . والتتيم[1] فيهم عام ، وكذلك يظهر في سائر بلادهم .

وهذه البلاد تسمى بمن ثبت فيها ورتب من رجال حمير فقيل ثبت لثبوتهم فيها . وقيل لمعان غير ذلك ، والأشهر ما وصفنا .

وقد افتخر دعبل بن علي الخزاعي بذلك في قصيدته التي يناقض فيها الكميت ويفخر بقحطان على نزار ، فقال:

وهم كتبوا الكتاب بباب مرو وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم سموا السهام بسمرقند وهم غرسوا هناك التُّبّتينا

وسنذكر في باب أخبار ملوك اليمن طرفا من أخبار ملوكهم ، ومن طاف منهم البلاد .

وبلاد التبت متاخمة لبلاد الصين وأرضها من احدى جهاته ، ولأرض الهند وخراسان ولمفاوز الترك . ولهم مدائن وعمائر كثيرة ذوات منعة وقوة .

وقد كانوا في قديم الزمان يسمون ملكوهم تبعا اتباعا لاسم تبع ملك اليمن . ثم ان الدهر ضرب ضرباته ، فتغيرت لغاتهم عن الحميرية ، وحالت الى لغة تلك البلاد ممن جاورهم من الأمم فسموا ملوكهم بخاقان .

ظباء المسك

وفي بلادهم الأرض التي بها ظباء المسك التبتي الذي يفضل على الصيني بجهتين :

احداهما أن ظباء التبت ترعى سنبل الطيب وأنواع الأفاويه ، وظباء الصين ترعى الحشيش دون ما ذكرنا من أنواع حشائش الطيب التي ترعاه التبتية .

والجهة الأخرى أن أهل التبت لا يتعرضون لاخراج المسك من نوافجه ويتركونه على ما هو به وأهل الصين يخرجونه من النوافج ويلحقونه الغش بالدم وغيره من أنواع الغش ، وأن الصيني أيضا يقطع به ما وصفنا من مسافة البحار ، وكثرة الأنداء ، واختلاف الأهوية .

وان عدم من أهل الصين الغش في مسكهم ، وأودع براني الزجاج وأحكم عقاصها ووكاؤها ، وأورد الى بلاد الاسلام من عمان وفارس والعراق وغيرها من الأمصار ، كان كالتبتي .

وأجود المسك وأطيبه ما خرج من الظباء بعد بلوغه النهاية في النضج . وذلك أنه لا

---

(١) التتيم : العشق .

فرق بين غزلاننا هذه وبين غزلان المسك في الصورة والشكل واللون والقرن .

وانما تتبين تلك بأنياب لها كأنياب الفيلة : لكل ظبي نابان خارجان من الفكين قائمان منتصبان أبيضان نحو الشبر وأقل وأكثر . فتنصب لها في بلاد التبت والصين الحبائل والأشراك والشباك فيصطادونها ، وربما رموها بالسهام فيصرعونها . فيقطعون عنها نوافجها والدم في سررها حار لم ينضج ، وطري لم يدرك ، فيكون لرائحته سهوكة . فيبقى زمانا حتى تزول منه تلك الرائحة السهكة الكريهة ، ويستحيل بمواد من الهواء فيصير مسكا .

وسبيل ذلك سبيل الثمار اذا أبينت عن الأشجار وقطعت قبل استحكام نضجها في شجرها واستحكام موادها فيه . وخير المسك ما نضج في وعائه ، وأدرك في سرته ، واستحكم في حيوانه ، وتمام مواده .

وذلك أن الطبيعة تدفع مواد الدم الى السرة ، فاذا استحكم كون الدم فيها ونضج آذاه ذلك وحكه . فيفزع حينئذ الى أحد الصخور والأحجار الحارة من حر الشمس ، فيحتك بها مستلذاً بذلك ، فينفجر حينئذ ويسيل على تلك الأحجار . . . كانفجار الخراج والدمل اذا نضج ما فيه عند ترادف المواد عليه ، فيجد لخروجه لذة .

فاذا فرغ ما في نافجته اندمل حينئذ ، ثم اندفعت اليه مواد من الدم ، ويجتمع ثانية ككونها بدءاً .

فتخرج رجال التبت يقصدون مراعيها بين تلك الأحجار والجبال ، فيجدون الدم قد جف على تلك الصخور والأحجار ، وقد أحكمته المواد ، وأنضجته الطبيعة في حيوانه ، وجففته الشمس ، وأثر فيه الهواء ، فيأخذونه . . . فذلك أفضل المسك .

فيدعونه نوافج معهم قد أخذوها من غزلان قد اصطادوها مستعدة معهم فذلك الذي تستعمله ملوكهم ويتهادونه بينهم ، ويحمله التجار في النادر من بلادهم .

والتبت ذو مدن كثيرة ، فيضاف مسك كل ناحية اليها .

***

قال المسعودي : وقد أقرت ملوك الصين والترك والهند والزنج وسائر ملوك العالم لملك بابل بالتعظيم ، وأنه أول ملوك العالم ، وأن منزلته فيهم كمنزلة القمر في الكواكب ، لأن اقليمه أشرف الأقاليم ، ولأنه أكثر الملوك مالا ، وأحسنهم طبعا ، وأكثرهم سياسة ، وأثبتهم قدما . وهذا وصف ملوك هذا الاقليم فيما مضى لا في هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة .

وكانوا يلقبون هذا الملك شاهنشاه ، وتفسيره ملك الملوك . ومنزلته في العالم منزلة القلب من جسد الانسان ، والواسطة من القلادة .

ثم يتلوه ملك الهند ، وهو ملك الحكمة ، وملك الفيلة ، لأن عند الملوك الأكاسرة أن الحكمة من الهند بدؤها .

ثم يتلوه في المرتبة ملك الصين ، وهو ملك الرعاية والسياسة واتقان الصنعة . وليس في ملوك العالم أكثر رعاية وتفقدا من ملك الصين لرعيته من جنده وعوامه . وهو ذو بأس شديد ، وقوة ومنعة ، له من الجنود المستعدة ، والكراع والسلاح ، ويرزق جنده كفعل ملوك بابل .

ثم يتلو ملك الصين ملك من ملوك الترك صاحب مدينة كوشان ، وهو ملك الطغرغر من الترك . ويدعى ملك السباع وملك الخيل ، اذ ليس في ملوك العالم أشد بأسا من رجاله ، ولا أشد استشادا منه على سفك الدماء ، ولا أكثر خيلا منه .

ومملكته فرز بين بلاد الصين ومفاوز خراسان ، ويدعى بالاسم الأعم أيرخان . وللترك ملوك كثيرة ، وأجناس مختلفة . ولا تنقاد الى ملكه ، الا أنه ليس منهم من يداني ملكه .

ثم يتلوه ملك الروم ، ويدعى ملك الرجال ، وليس في ملوك العالم أصبح وجوها من رجاله .

***

ثم ان ملوك العالم تتفاوت مراتبها ولا تتساوى ، وقد قال ذو عناية بأخبار العالم وملوكهم في شعر له يصف جملا من مراتب ملوك العالم وممالكهم وأسمائهم :

الـدار داران : ايوان وغمدان ،	والملك ملكان : ساسان وقحطان
والأرض فارس والاقليم بابل والـ	اسلام مكة والدنيا خراسان
والجانبـان العليان اللـذا حسنا	منها بخاري وبلـخ الشاهـدا ران
والبيلقـان وطبرستـان فارزها	والري شروانها ، والجيل جيلان
قد رتب النـاس فيهـا في مراتبهم	فمرزبان ، وبطـريق ، وطرخان
للفرس كسرى وللـروم القياصر والـ	حبش النجاشي والأتراك خاقان

وصاحب صقلية وافريقية من بلاد المغرب قبل ظهور الاسلام كان يدعى جرجير ، وصاحب الأندلس كان يدعى لذريق ، وهذا كان اسم سائر ملوك الأندلس .

وقد قيل : انهم كانوا من الأشبان ، وهم أمة من ولد يافث بن نوح ، دثرت هنالك . والأشهر عند من سكن الأندلس من المسلمين أن لذريق كان من ملوك الأندلس

الجلالقة ، وهم نوع من الأفرنجة .

مدينة طليطلة

وآخر لذريق الذي كان بالأندلس قتله طارق مولى موسى بن نصير حين افتتح بلاد الأندلس ودخل الى مدينة طليطلة . وكانت قصبة الأندلس ، ودار مملكتهم ، ويشقها نهر عظيم يدعى تاجة ، يخرج من بلاد الجلالقة والوشكند . وهي أمة عظيمة لهم ملوك ، وهم حرب لأهل الأندلس كالجلالقة والافرنجة .

ويصب هذا النهر في البحر الرومي ، وهو موصوف بأنه من أنهار العالم . وعليه على بعد من طليطلة مدينة طلبيرة ، ثم قنطرة عظيمة تدعى قنطرة السيف بنتها الملوك السالفة . وهي من البنيان المذكور الموصوف ، وانها أعجب عقودا من قنطرة سنجة من الثغر الخزري مما يلي سميساط من بلاد سرجة .

ومدينة طليطلة ذات منعة وعليها أسوار منيعة . وأهلها بعد أن فتحت وصارت لبني أمية قد كانوا عصوا على الأمويين ، فأقامت مدة سنين ممتنعة ، لا سبيل للأمويين اليها . فلما كان بعد الخمس عشرة وثلثمائة فتحها عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي .

وعبد الرحمن هذا هو صاحب الأندلس في هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة .

وقد كان غير كثيرا من بنيان هذه المدينة حين افتتحها . وصارت دار مملكة الأندلس قرطبة .

ومن قرطبة الى مدينة طليطلة نحو من سبع مراحل ، ومن قرطبة الى البحر مسيرة نحو من ثلاثة أيام .

ولهم على يوم من ساحل البحر مدينة يقال لها اشبيلية .

وبلاد الأندلس يكون مسيرة عمائرها ومدنها نحوا من شهرين . ولهم من المدن الموصوفة نحو من أربعين مدينة . وتدعى بنو أمية بها ببني الخلائف ، ولا يخاطبون بالخلفاء ، لأن الخلافة لا يستحقها عندهم الا من كان مالكا للحرمين ، غير أنه يخاطب بأمير المؤمنين .

بنو أمية بالأندلس

وقد كان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان سار الى الأندلس في

سنة تسع وثلاثين ومائة . فملكها ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر . ثم هلك ، فملكها ابنه هشام بن عبد الرحمن سبع سنين . ثم ملكها ابنه الحكم بن هشام نحوا من عشرين سنة . وولده ولاتها الى اليوم ، على ما ذكرنا أن صاحبها عبد الرحمن بن محمد ، وولي عهد عبد الرحمن في هذا الوقت فتاه الحَكَم أحسن الناس سيرة ، وأجملهم عدلا .

وقد كان عبد الرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت المقدم ذكره غزا سنة سبع وعشرين وثلثمائة في أزيد من مائة ألف فارس من الناس ، فنزل على دار مملكة الجلالقة ، وهي مدينة يقال لها سمورة عليها سبعة أسوار من عجيب البنيان قد أحكمتها الملوك السالفة ، بين الأسوار فصلان وخنادق ومياه واسعة ، فافتتح منها سورين . ثم أن أهلها ثاروا على المسلمين فقتلوا منهم ممن ادرك الاحصاء وممن عرف - أربعين ألفا ، وقيل : خمسين ألفا . وكانت للجلالقة والوشكند على المسلمين .

وآخر ما كان بأيدي المسلمين من مدن الأندلس وثغورها مما يلي الافرنجة مدينة أربونة ، خرجت من أيدي المسلمين سنة ثلاثين وثلثمائة مع غيرها مما كان في أيديهم من المدن والحصون . وبقي ثغر المسلمين في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) من شرقي الأندلس طرطوشة . وعلى ساحل بحر الروم مما يلي طرطوشة آخذا في الشمال افراغة على نهر عظيم ، ثم لاردة .

ثم بلغني عن هذه الثغور أنها تلاقي الافرنجة ، وهي أضيق مواضع الأندلس . وقد كان قبل الثلثمائة ورد الى الأندلس مراكب في البحر فيها ألوف من الناس أغارت على سواحلهم ، زعم أهل الأندلس أنهم ناس من المجوس تطرأ اليهم في هذا البحر في كل مائتين من السنين ، وأن وصولهم الى بلادهم من خليج يعترض من بحر أوقيانوس ، وليس بالخليج الذي عليه المنارة النحاس .

وأرى ، والله أعلم ، أن هذا الخليج متصل ببحر مايطس ونيطس وأن هذه الأمة هم الروس الذين قدمنا ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب ، اذ كان لا يقطع هذه البحار المتصلة ببحر أوقيانوس غيرهم .

وقد أصيب في البحر الرومي فيما بين جزيرة أقريطش ألواح المراكب الساج المثقبة المخيطة بليف النارجيل من مراكب قد عطبت تقاذفت بها الأمواج في مياه البحار . وهذا لا يكون الا في البحر الحبشي ، لأن مراكب البحر الرومي والعرب كلها ذوات مسامير ، ومراكب البحر الحبشي لا يثبت فيها الحديد ، لأن ماء البحر يذيب الحديد فترق المسامير في البحر وتضعف ، فاتخذ أهلها الخياطة بالليف بدلا منها ، وطليت بالشحوم والنورة .

فهذا يدل ـ والله أعلم ـ على اتصال البحار ، وأن البحر مما يلي الصين وبلاد السيلي يدور على بلاد الترك ، ويفضي الى بحار المغرب من بعض خلجان أوقيانوس المحيط .

وقد كان يوجد بساحل بلاد الشام عنبر قذف به البحر ، وهذا من المستنكر في البحر الرومي الذي لم يعهد فيه من قديم الزمان مثل ذلك . ويمكن أن يكون سبيل وقوع العنبر الى هذا البحر سبيل ما ذكرناه من ألواح مراكب البحر الصيني . والله اعلم بكيفية ذلك وعلمه .

ولبحر المغرب وما قرب منه من عمائر السودان وأقاصي أرض المغرب أخبار عجيبة .

بلاد الحبشة والسودان

وقد ذكر ذوو العناية بأخبار العالم أن أرض الحبشة وسائر السودان كلها مسيرة سبع سنين ، وأن أرض مصر جزء واحد من ستين جزءا من أرض السودان ، وأن أرض السودان جزء واحد من الأرض كلها ، وأن الأرض كلها مسيرة خمسمائة سنة ، ثلث عمران مسكون مأهول ، وثلث براري غير مسكون ، وثلث بحار .

وتتصل أقاصي السودان العراة بآخر بلاد ولد ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام من أرض المغرب .

وهي بلاد تلمسان وتاهرت وبلاد فاس ، ثم السوس الأدنى وبينه وبين بلاد القيروان نحو ألفي ميل وثلثمائة ميل .

وبين السوس الادنى والسوس الأقصى من المسافة نحو من عشرين يوما عمائر متصلة ، الى أن تتصل بوادي الرمل والقصر الأسود . ثم يتصل ذلك بمفاوز الرمل التي فيها المدينة المعروفة بمدينة النحاس وقباب الرصاص التي سار اليها موسى بن نصير في أيام عبد الملك ابن مروان ورأى فيها ما رأى من العجائب . وقد ذكر ذلك في كتاب يتداوله الناس . وقد قيل : ان ذلك في مفاوز تتصل ببلاد الأندلس وهي الأرض الكبيرة .

وقد كان ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسي (وهو اباضي المذهب ، وهو الذي أنشأ في ذلك البلد مذهب الخوارج ، وقد قيل : انهم من بقايا الأشبان) عمر تلك الديار ، وكانت له حروب مع الطالبيين .

وقد ذكرنا فيما يرد من هذا الكتاب تنازع الناس في الأشبان ، ومن قال : انهم من الفرس ناقلة من بلاد أصبهان .

بلاد المغرب

وفي هذا الصقع من بلاد المغرب خلق من الصفرية الخوارج ، لهم مدن ممدودة مثل

مدينة ثرغية . وفيها معدن كبير من الفضة ، وهو مما يلي الجنوب ويتصل ببلاد الحبشة . والحرب بينهم سجال .

وقد ذكرنا في كتابنا « أخبار الزمان » خبر المغرب ومدنها ، ومن سكنها من الخوارج الاباضية والصفرية ، ومن سكن المغرب من المعتزلة ، وما بينهم وبين الخوارج من الحروب .

وذكرنا خبر إبن الأغلب التميمي وتولية المنصور له على المغرب ، ومقامه ببلاد افريقية وغيرها من أرض المغرب ، وما كان من أمره في أيام الرشيد ، وتداول ولده ببلاد افريقية وغيرها ، الى أن انتهى الأمر الى أبي نصر زيادة الله بن عبد الله بن ابراهيم بن أحمد بن محمد ابن الأغلب بن ابراهيم بن محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن سالم بن سوادة ، فأخرجه عنها أبو عبد الله المحتسب الصوفي ، الداعية لصاحب المهدية حين ظهر في كتامة وغيرها من أجيال البربر ، وذلك في سنة سبع وتسعين ومائتين في أيام المقتدر ، ومسيره الى الرافقة ، وكان هذا المحتسب من مدينة رامهرمز من كور الأهواز .

ملوك العالم

ونعود الى ذكر مراتب الملوك ونسق ما بقي من الممالك على البحر الحبشي الذي شرعنا في وصفه ومن عليه ، فنقول :

ملك الزنج وهو فليمي .

ملك اللان كركنداج .

ملك الحيرة من بني نصر النعمانية والمناذرة .

ملك جبال طبرستان كان يدعى قارن والجبل معروف به وبولده في هذا الوقت .

ملك الهند البلهرا .

ملك القنوج من ملوك السند بؤورة ، وهذا اسم كل ملك يلي القنوج .

وهنا مدينة يقال لها بؤورة باسم ملوكهم . وقد صارت اليوم في حيز الاسلام . وهي من أعمال المولتان .

ومن هذه المدينة يخرج احد الأنهار التي اذا اجتمعت كانت نهر مهران السند الذي زعم الجاحظ أنه من النيل ، وزعم غيره أنه من جيحون خراسان .

وبؤورة هذا الذي هو ملك القنوج هو ضد البلهرا ملك الهند .

وملك القندهار من ملوك السند وجبالها ، ويدعى حجج ، وهو اسمه الأعم .

ومن بلاده يخرج النهر المعروف برائد ، وهو أحد الأنهار الخمسة التي منها مهران السند والقندهار يعرف ببلاد الرهبوط .

ونهر من الخمسة يخرج من بلاد السند وجبالها يعرف ببهاطل ، ويجتاز بلاد الرهبوط وهي بلاد القندهار .

والنهر الرابع يخرج من بلاد كابل وجبالها وهي تخوم السند مما يلي بسطوغزنين وزرعون والرخج وبلاد الدوار مما يلي بلاد سجستان .

ونهر من الخمسة يخرج من بلاد قشمير ، وملك قشمير يعرف بالراني ، هذا الاسم الأعم لسائر ملوكهم .

وقشمير هذه من ممالك السند وجبالها مملكة عظيمة حصينة يحتوي ملكها على مدن وضياع على نحو من ستين ألفا الى سبعين ألفاً ، لا سبيل لأحد من الناس على بلده الا من وجه واحد .

ويغلق على جميع ما ذكرناه من ملكه باب واحد ، لأن ذلك في جبال شوامخ منيعة لا سبيل للرجال أن يتسلقوا عليها ، ولا للوحش أن يلحق بعلوها ، ولا يلحقها الا الطير . وما لا جبل فيه فأودية وعرة وأشجار وغياض وأنهار ذات منعة من شدة الانصباب والجريان .

وما ذكرنا من منعة ذلك البلد فمشهور في أرض خراسان وغيرها من البلاد ، وذلك أحد عجائب الدنيا .

القنوج

فأما ملك بؤورة ، وهو ملك القنوج ، فان مسافة مملكته تكون نحوا من عشرين ومائة فرسخ في مثلها فراسخ سندية ، الفرسخ ثمانية أميال بهذا الميل .

وهو الملك الذي قدمنا ذكره فيما سلف ان له من الجيوش أربعة على مهاب الرياح الأربع ، كل جيش منها سبعمائة ألف ، وقيل : تسعمائة ألف ، وقيل : تسعة آلاف ألف . . . فيحارب بجيش الشمال صاحب المولتان ومن معه في تلك الثغور من المسلمين ، ويحارب بجيش الجنوب البلهرا ملك المانكير ، وبالجيوش الباقية من يلقاه في كل وجه من الملوك .

ويقال : ان ملكه يحيط في مقدار ما ذكرناه من المسافة من المدن والقرى والضياع مما يدركه الاحصاء والعدد بألف ألف وثمانمائة ألف قرية ، بين أنهار وشجر وجبال ومروج .

وهو قليل الفيلة من بين الملوك ، ورسمه لحربه ألفا فيل حربية تقاتل .

وذلك أن الفيل اذا كان فارها ممارسا شجاعا ، وكان راكبه فارسا وفي خرطومه القرطل (وهو نوع من السيوف) وخرطومه مغشى بالزرد والحديد ، وعليه تجافيف قد أحاطت سائر جسده من القرن والحديد ، وكان حوله خمسمائة راجل يمنعونه ويحرزونه من ورائه ، حارب ستة آلاف فارس ، وقام بها .

وأدناها اذا كان معه خمسمائة راجل ، كرّ على خمسة آلاف فارس ، ودخل وخرج وصال عليها كالرجل على الفرس .

وهذا رسم فيلتها في سائر حروبها .

المولتان

فأما صاحب المولتان فقد قلنا : ان الملك في ولد سامة بن لؤي بن غالب . وهو ذو جيوش ومنعة ، وهو ثغر من ثغور المسلمين الكبار . وحول ثغر المولتان من ضياعه وقراه عشرون ومائة ألف قرية مما يقع عليه الاحصاء والعد .

وفيه على ما ذكرنا الصنم المعروف بالمولتان ، يقصده السند والهند من أقاصي بلادهم بالنذور والأموال والجواهر والعود وأنواع الطيب ، ويحج اليه الألوف من الناس . وأكثر أموال صاحب المولتان مما يحمل الى هذا الصنم من العود القماري الخالص الذي يبلغ ثمن الأوقية منه مائة دينار ، واذا ختم بالخاتم أثر فيه كما يؤثر في الشمع ، وغير ذلك من العجائب التي تحمل اليه .

واذا نزلت الملوك من الكفار على المولتان وعجز المسلمون عن حربهم هددوهم بكسر هذا الصنم وتعويره ، فترحل الجيوش عنهم عند ذلك .

وكان دخولي الى بلاد المولتان بعد الثلثمائة ، والملك بها أبو اللهاب المنبه بن أسد القرشي .

المنصورة

وكذلك كان دخولي الى بلاد المنصورة في هذا الوقت ، والملك عليها أبو المنذر عمر بن عبد الله . ورأيت بها وزيره رباحا وابنيه محمدا وعليا . ورأيت بها رجلا سيدا من العرب وملكا من ملوكهم ، وهو المعروف بحمزة . وبها خلق من ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم من ولد عمر بن علي وولد محمد بن علي .

وبين ملوك المنصورة وآل أبي الشوارب القاضي قرابة وصلة ونسب . وذلك أن ملوك المنصورة الذين فيهم الملك في وقتنا هذا من ولد هبار بن الأسود ، ويعرفون ببني عمر بن عبد العزيز القرشي ، وليس هو عمر بن عبد العزيز بن مروان الأموي .

فاذا اجتاز جميع ما ذكرنا من الأنهار ببلاد مرج بيت الذهب ، وهو المولتان ، اجتمعت بعد المولتان بثلاثة أيام فيما بين المولتان والمنصورة في الموضع المعروف بدوسات .

فاذا انتهى جميع ذلك الى مدينة الروذ من غربيها ، وهي من أعمال المنصورة ، سمي هنالك مهران .

ثم ينقسم قسمين ، ويصب كل من القسمين من هذا الماء العظيم المعروف بمهران السند في مدينة شاكرة من أعمال المنصورة في البحر الهندي ، وذلك على مقدار يومين من مدينة الديبل .

والمسافة من المولتان الى المنصورة خمسة وسبعون فرسخا سندية على ما ذكرنا ، والفرسخ ثمانية أميال . وجميع ما للمنصورة من الضياع والقرى مما يضاف اليها ثلثمائة ألف قرية ذات زروع وأشجار وعمائر متصلة .

وفيها حروب كثيرة من جنس يقال لهم الميد ، وهم نوع من السند وغيرهم من الأجناس . وهم ثغر السند ، وكذلك المولتان من ثغور السند ومما أضيف اليها من العمائر والمدن .

وسميت المنصورة باسم منصور بن جهور عامل بني أمية .

ولملك المنصورة فيلة حربية ، وهي ثمانون فيلا رسم كل فيل أن يكون حوله على ما ذكرنا خمسمائة راجل وأنه يحارب ألوفا من الخيل على ما ذكرنا .

ورأيت له فيلين عظيمين كانا موصوفين عند ملوك السند والهند لما كانا عليه من البأس والنجدة والاقدام على فل الجيوش . وكان اسم أحدهما « منفرقلس » والآخر « حيدرة » .

ولمنفرقلس هذا أخبار عجيبة ، وأفعال حسنة ، وهي مشهورة في تلك البلاد وغيرها .

منها أنه مات بعض سواسه ، فمكث أياما لا يطعم ولا يشرب ، يبدي الحنين ، ويظهر الأنين ، كالرجل الحزين ، ودموعه تجري من عينيه لا تنقطع .

ومنها أنه خرج ذات يوم من حائره (وهي دار الفيلة) وحيدرة وراءه ، وباقي الثمانين تبع لهما . فانتهى منفرقلس في سيره الى شارع قليل العرض من شوارع المنصورة . ففاجأ في مسيره أمرأة على حين غفلة منها ، فلما بصرت به دهشت واستلقت على قفاها من الجزع ، وانكشفت عنها أطمارها في وسط الطريق . فلما رأى ذلك منفرقلس وقف بعرض الشارع مستقبلا بجنبه الأيمن ما وراءه من الفيلة مانعا لهم من النفوذ من أجل المرأة . وأقبل يشير اليها بخرطومه بالقيام ، ويجمع عليها أثوابها ، ويستر منها ما بدا ، الى أن انتقلت المرأة وتزحزحت عن الطريق بعد أن عاد اليها روعها ، فاستقام الفيل في طريقه ، واتبعه الفيلة !

وللفيلة أخبار عجيبة ـ الحربية منها والعمالة ـ لأن منها ما لا يحارب فيجر العجل ، وتحمل عليه الأثقال ، ويستعمل في دياس الأرز وغيره من الأقوات كدوس البقر في البيدر .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب أخبار الزنج والفيلة ، وكونها في بلادها ، وليس في سائر الممالك أكثر منها في بلاد الزنج ، وهي وحشية هنالك كلها .

فهذه جمل من أخبار ملوك السند والهند .

ولغة السند خلاف لغة الهند ، والسند مما يلي الاسلام ، ثم الهند . ولغة أهل المانكير ، وهي دار مملكة البلهرا ، كيرية مضافة الى الصقع وهي كيرة ، ولغة ساحله مثله صيمور وسوبارة وتانة وغير ذلك من مدن الساحل لارية . وبلدهم مضافة الى البحر الذي هم عليه ، وهو لاروى ، وقد تقدم ذكره فيما سلف من هذا الكتاب .

ولهذا الساحل أنهار عظيمة تجري من الجنوب ، بالضد من أنهار العالم ، وليس في أنهار العالم ما يجري من الجنوب الى الشمال الا نيل مصر ومهران السند ويسير من الأنهار ، وما عدا ذلك من أنهار العالم يجري من الشمال الى الجنوب .

وقد ذكرنا وجه العلة في ذلك ، وما قاله الناس في هذا المعنى في كتابنا « أخبار الزمان » . وقد ذكرنا ما انخفض من الأرض وما ارتفع .

وليس في ملوك السند والهند من يعز المسلمين في ملكه الا البلهرا ، فالاسلام في ملكه عزيز مصون ، ولهم مساجد مبنية ، وجوامع معمورة بالصلوات للمسلمين ، ويملك الملك منهم الأربعين سنة والخمسين سنة فصاعدا . وأهل مملكته يزعمون أنه انما طالت أعمار ملوكهم لسنة العدل واكرام المسلمين .

وهو ملك يرزق الجنود من بيت ماله كفعل المسلمين بجنودهم ، وله دراهم طاهرية وزن الدرهم منها وزن درهم ونصف ، سكته بدء تاريخ ملكهم . وفيلته الحربية لا تحصى كثرة . وتدعى بلاده أيضا بلاد الكمكر .

ويحاربهم ملك الخزر من احدى جهات مملكته ، وهو ملك كثير الخيول والابل والجنود ، ويزعم أنه ليس في ملوك العالم أجل منه الا صاحب اقليم بابل ، وهو الاقليم الرابع . وذلك أن هذا الملك ذو نخوة وصولة على سائر الملوك ، وهو مع ذلك مبغض للمسلمين . وهو كثير الفيلة ، وملكه على لسان من الأرض . وفي أرضه معادن الذهب والفضة ، ومبايعتهم بها .

ثم يلي هذا الملك ملك الطافن ، موادع لمن حوله من الملوك ، وهو مكرم للمسلين ، وليست جيوشه كجيوش من ذكرنا من الملوك . وليس في نساء الهند أحسن من نسائهم ، ولا أكثر منهن جمالا وبياضا ، وهن موصوفات الخلوات ، مذكورات في كتب الباه ، وأهل البحر يتنافسون في شرائهن . يعرفن بالطافنيات .

رهمي

ثم يلي هذا الملك مملكة رهمى ، وهذه سمة لملوكهم ، وهو الأعم من أسمائهم . ويقاتله الخزر ،وملكه متاخم لملكهم . ورهمى يحارب البلهرا أيضا من احدى جهات

مملكته ، وهو أكثر جيوشا وفيلة وخيولا من البلهرا ومن ملك الخزر ومن ملك الطافن . واذا خرج في حروبه فرسمه أن يكون في خمسين ألف فيل ، ولا يكون حربه الا في الشتاء لقلة صبر الفيلة على العطش وقلة لبثها .

والمكثر من الناس يغلو في القول في كثرة جنوده ، فيزعمون أن عدد القصارين والغسالين في عسكره من عشرة آلاف الى خمسة عشر ألفا . وحرب من ذكرنا من الملوك كراديس ، كل كردوس عشرون ألفا ، أربعة أوجه كل وجه من الكردوس خمسة آلاف . ومملكة رهمى تعاملهم بالودع ، وهو مال البلد .

وفي بلده العود والذهب والفضة والثياب التي ليست لغيره رقة ودقة ، ومن بلده يحمل الشعر المعروف بالضمر الذي تتخذ منه المذابّ بنصب العاج والفضة ، يقوم بها الخدم على رؤوس الملوك في مجالسها .

وصف الكركدن

وفي بلده الحيوان المعروف بالنشان المعلم ، وهو الذي تسميه العوام الكركدن . وله في مقدم جبهته قرن واحد . وهو دون الفيل في الخلقة وأكبر من الجاموس ، الى السواد ما هو . وهو يجتر كما تجتر البقر وغيرها مما يجتر من الحيوان .

والفيلة تهرب منه . وليس في أنواع الحيوان ، والله أعلم ، أشد منه . وذلك أن أكثر عظامه أصم ، ولا مفصل في قوائمه ، ولا يبرك في نيام ، وانما يكون بين الشجر والآجام يستند اليها عند نومه .

والهند تأكل لحمه ، وكذلك من في بلادهم من المسلمين ، لأنه نوع من البقر .

والجواميس بأرض السند والهند كثيرة ، وهذا النوع من الحيوان وهو النشان يكون في أكثر غابات الهند ، الا أنه في مملكة رهمى أكثر ، وقرونه أصفى وأحسن .

وذلك أن قرنه أبيض ، وفي وسطه صورة سوداء في ذلك البياض : اما صورة انسان ، أو صورة طاووس بتخطيطه وشكله ، أو صورة سمكة ، أو صورته في نفسه ، أو صورة نوع من الحيوان مما يوجد في تلك الديار .

فينشر هذا القرن وتتخذ منه المناطق والسيور على صورة الحلية من الذهب والفضة فتلبسها ملوك الصين وخواصها ، تتنافس في لبسها وتبالغ في أثمانها ، فتبلغ المنطقة ألفي دينار الى أربعة آلاف ، فيها معاليق الذهب ، وذلك في نهاية الحسن والاتقان .

وربما تقمع بأنواع من الجواهر على قضبان الذهب ، ووجوه تلك الصور مكتبة بسواد في بياض ، وربما يوجد في قرونه بياض في سواد . وليس في كل بلد يوجد في قرون النشان ما ذكرنا من الصور .

وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن الكركدن يحمل في بطن أمه سبع سنين ، وأنه يخرج رأسه من بطن أمه فيرعى ثم يدخل رأسه في بطنها .

وهذا القول أورده في كتاب « الحيوان » على طريق الحكاية والتعجب ، فبعثني هذا الوصف على مسألة من سلك تلك الديار من أهل سيراف وعمان ومن رأيت بأرض الهند من التجار ، فكل يتعجب من قوله اذا أخبرته بما عندي من هذا وسألته عنه ، ويخبرونني أن حمله وفصاله كالبقر والجواميس . ولست أدري كيف وقعت هذه الحكاية للجاحظ : أمن كتاب نقلها أو مخبر أخبره بها ؟

ولرهمى في ملكه بر وبحر ، ويلي ملكه ملك لا بحر له يقال له ملك الكامن . وأهل مملكته بيض مخرمو الآذان . لهم فيلة وابل وخيول ، وحسن وجمال للرجال والنساء .

ثم بعد هؤلاء ملك الافرنج ، وله بر وبحر . وهو على لسان من البر في البحر ، يقع الى بلده عنبر كثير ، وفي بلده فلفل يسير . وهو ذو فيلة كثيرة ، وهو ذو بأس بين الملوك وزهو وفخر ، وزهوه أكثر من قوته ، وفخره أكثر من بأسه .

ثم يلي هذا الملك ملك الموجه أهله بيض ذوو حسن وجمال غير مخرومي الآذان ، لهم خيل كثيرة ، وعدد منيعة .

والمسك في بلادهم كثير على ما قدمنا من غزلانهم ووصف ظبائهم فيما سلف من هذا الكتاب .

وهذه الأمة تشبه بأهل الصين في لباسهم ، وجبالهم منيعة شواهق بيض ، لا يعلم بأرض السند والهند ولا فيما ذكرنا من هذه الممالك جبال أطول منها ولا امنع .

ومسكهم موصوف مضاف الى بلدهم يتعارفه البحريون ، ممن عني بحمل ذلك وتجهيزه وهو المسك المعروف بالموجهي .

المائد

ثم يلي ملك الموجه مملكة المائد ، ولهم مدن كثيرة وعمائر واسعة وجنود عظيمة ، وملوكهم تستعمل الخدم والخصيان في عمالات بلدانهم من المعادن وجبايات الأموال والولايات وغيرها كفعل ملوك الصين على حسب ما وصفنا من أخبارهم .

والمائد مجاورون لمملكة الصين ، والرسل تختلف بينهم بالهدايا . وبينهم جبال منيعة وعقبات صعبة . وللمائد البأس العظيم والبطش الشديد والقوة . واذا دخل رسل ملك المائد مملكة الصين وكل ملك الصين بهم ، ولم يتركهم ينتشرون في بلادهم خوفا أن يقفوا على طرقهم وعورات بلادهم ، لكبرة المائد في نفوسهم .

بعض عوائد الهند والصين

ولمن ذكرنا من الهند والصين في بلادهم ولغيرهم من الأمم أخلاق وشيم في المآكل والمشارب والمناكح والملابس والعلاج والأدوية والكي بالنار وغيره .

وقد ذكر عن جماعة من ملوكهم أنهم لا يرون حبس الريح في أجوافهم لأنه داء يؤذي ، ولا يحتشمون في إظهارها في سائر أحوالهم . وكذلك فعل حكمائهم . ورأيهم أن حبسها داء يؤذي ، وأن ارسالها شفاء ينجي ، وأن في ذلك العلاج الأكبر ، وأن فيه راحة لصاحب القولنج والمحصور ، وأن فيه دواء للسقيم المطحول . ولا يحتشمون من الضرطة ، ولا يحصرون الفسوة ، ولا يرون ذلك عيبا .

وللهند التقدم في صناعة الطب ، ولهم فيه اللطافة والحذق . وذكر هذا المخبر عن الهند أن السعال عندهم أقبح من الضراط ، وأن الجشاء في وزن الفساء ، وأن صوت الضرطة دباغها والمذهب عنها ريحها .

واستشهد هذا المخبر على صحة ما حكاه عن الهند باستفاضة القول في ذلك في كثير من الناس عنهم ، حتى ذكر ذلك عنهم في السير والأخبار والنوادر والأشعار . فمن ذلك ما ذكر أبان بن عبد الحميد في الأرجوزة المعروفة بذات الحلل ، وهي :

قد قال ذو العلم النصيح الهندي	مقالة أجاد فيها عندي
لا تحبس الضرطة اما حضرت	وخلها وافتح لها ما استفتحت
فان أدوا الداء في امساكها	والروح والراحة في افكاكها
والقبح في السعال والمخاط	والشؤوم في العطاس لا الضراط
أما الجشاء ففساء صاعد	ونتنه على الفساء زائد

وان الريح واحدة في الجوف ، وانما تختلف أسماؤها باختلاف مخارجها : فما يذهب صعدا يسمى جشاء ، وما يذهب سفلا يسمى فساء . ولا فرق بين الريحين الا باختلاف المخرجين ، كما يقال الصفعة واللطمة ، الا أن اللطمة في الوجه والصفعة في مؤخر الرأس والقفا . والجنس واحد ، وانما اختلفت أسماؤها لاختلاف الموضعين وتباين المكانين .

وأن الحيوان الناطق انما كثرت علله ،وترادفت أدواؤه، واتصلت أمراضه ، ـ كالقولنج وأوجاع المعدة وغيرها من العوارض ـ بحبس الداء في جوفه وترك اظهاره في حال هيجانه وتفرغ الطبيعة لدفعه واخراجه .

وأن سائر الحيوان غير الناطق انما بعد عما ذكرنا من الآفات والمعترضات من العاهات

لسرعة خروج ما يعرض ويثور من الأدواء في أجوافها ، وعدم احتباسها في وعائها .

وأن الفلاسفة والمتقدمين من الحكماء اليونانيين كديموقريطس وفيثاغورس وسقراط وديوجانس وغيرهم من حكماء الأمم لم يكونوا يرون حبس شيء من ذلك ، لعلمهم بما يتولد من آفاته ، ويؤول اليه من متعقباته .

وأن ذلك يجده في نفسه كل ذي حس ، وأن ذلك يعلم بالطبيعة ، ويدرك بضرورة العقل . وانما استقبح ذلك أناس من أصحاب الشرائع والكتب لما وردت به الشرائع ومنعت منه الملل ، ولم يجر ذلك في عاداتهم .

***

قال المسعودي : وقد أتينا على أخبارهم وماالحكمنامن ذكر شيمهم وعجائب سيرهم ومتصرفاتهم في كتابنا « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط . وكذلك أتينا على ذكر أخبار المهراج ملك الجزائر والطيب والأفاويه ، مع سائر ملوك الهند ومع القنجب وغيره من ملوك الجبال مما قابل هذه الجزائر كالزابج وغيرها من بلاد الصين ، وأخبار ملوك الصين وملك سرنديب مع ملك مندورفين .

وهي بلاد مقابلة لجزيرة سرنديب كمقابلة بلاد قمار لجزائر المهراج من الزابج وغيرها . وكل ملك تملك بلاد مندورفين يسمى القايدي .

وسنأتي بجمل من أخبار ملوك الشرق والغرب واليمن والحيرة فيما يرد من هذا الكتاب ، ومن أخبار ملوك اليمن والفرس والروم واليونانيين والمغرب وأنواع الأحابيش والسودان وملوك الصين ولد يافث ، وغير ذلك من أخبار العالم وعجائب الأمم .

ذكر جبل القبخ وأخبار الأمم
من اللان والسرير والخزر وأنواع الترك والبرغز وغيرهم وأخبار الباب والأبواب ومن حولهم من الملوك والأمم

جبل القبخ

أما جبل القبخ فهو جبل عظيم ، وصقعه صقع جليل ، وقد اشتمل على كثير من الممالك والأمم . وفي هذا الجبل اثنتان وسبعون أمة ، كل أمة لها ملك ولسان بخلاف لغة غيرها .

وهذا الجبل ذو شعاب وأودية ، ومدينة الباب والأبواب على شعب من شعابه ، بناها كسرى أنو شروان ، وجعلها بينه وبين بحر الخزر ، وجعل هذا السور من جوف البحر على مقدار ميل منه مادا الى البحر ، ثم على جبل القبخ مادا في أعاليه ومنخفضاته وشعابه نحوا من أربعين فرسخا ، الى ان ينتهي ذلك الى قلعة يقال لها طبرستان .

وجعل على كل ثلاثة أميال من هذا السور أو أقل أو أكثر على حسب الطريق الذي جعل الباب من أجله بابا من حديد ، وأسكن فيه على كل باب من داخله أمة تراعي ذلك الباب وما يليه من السور . . . كل ذلك ليدفع أذى الأمم المتصلة بذلك الجبل من الخزر واللان وأنواع الترك والسرير وغيرهم من أنواع الكفار .

وجبل القبخ يكون في المسافة علوا وطولا وعرضا نحوا من شهرين ، بل وأكثر ، وحوله أمم لا يحصيهم الا الخالق عز وجل . أحد شعابه على بحر الخزر مما يلي الباب والأبواب على ما ذكرنا .

ومن شعابه مما يلي بحر مايطس المقدم ذكره فيما سلف من هذا الكلام الذي ينتهي اليه خليج القسطنطينية . وعلى هذا البحر طرابزندة ، وهي مدينة على شاطىء هذا البحر لها أسواق في السنة يأتي اليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم من بلاد كشك .

ولما بنى أنو شروان هذه المدينة المعروفة بالباب والأبواب والسور في البر والبحر والجبل ، أسكن هناك أمما من الناس وملوكا ، وجعل لهم مراتب رتبهم عليها ووسم كل أمة منهم بسمة معلومة ، وحد لها حدا معلوما ، على حسب فعل أردشير بن بابك حين رتب ملوك خراسان .

فممن رتب منهم أنو شروان من الملوك في بعض هذه البقاع والمواضع مما يلي الاسلام من بلاد بردعة ، ملك يقال له شروان ، ومملكته مضافة الى اسمه فيقال له شروان شاه .

وكل ملك يلي هذا الصقع يقال له شروان . وتكون مملكته في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) نحوا من شهر ، لأنه كان تغلب على مواضع لم يكن رسمها له أنو شروان فانضافت الى ملكه . .

والملك في هذا الوقت المؤرخ ، والله أعلم ، مسلم يقال له محمد بن يزيد ، وهو من ولد بهرام جور لا خلاف في نسبه . وكذلك ملك السرير من ولد بهرام جور . وكذلك صاحب خراسان في هذا الوقت المؤرخ من ولد اسماعيل بن أحمد ، واسماعيل من ولد بهرام جور . . . لا خلاف فيما ذكرنا من شهرة أنساب من ذكرنا .

وقد تملك محمد بن يزيد هذا وهو شروان على مدينة الباب والأبواب ، وذلك بعد موت صهر له يقال له عبد الملك بن هشام . وكان رجلا من الأنصار ، وكان فيه امرة الباب والأبواب . وقد كانوا قطنوا تلك الديار منذ دخلها مسلمة بن عبد الملك وغيره من أمراء الاسلام في صدر الزمان .

الايران

وتلي مملكة شروان مملكة أخرى من جبل القبخ يقال لها الايران ، وملكها يدعى الايران شاه . وقد غلب على هذه المملكة في هذا الوقت شروان أيضا ، وعلى مملكة أخرى يقال لها مملكة الموقانية ، والمعول في مملكته على مملكة اللكز ، وهي أمة لا تحصى كثرة ، ساكنة في أعالي هذا الجبل ، ومنهم كفار لا ينقادون الى ملك شروان يقال لهم الدودانية جاهلية لا يرجعون الى ملك ، ولهم اخبار طريفة في المناكح والمعاملات .

وهذا الجبل ذو أودية وشعاب وفجاج ، فيه أمم لا يعرف بعضهم بعضا لخشونة هذا الجبل وامتناعه وذهابه في الجو وكثرة غياضه وأشجاره وتسلسل المياه من أعلاه وعظم صخوره وأحجاره .

وغلب هذا الرجل المعروف بشروان على ممالك كثيرة من هذا الجبل كان رسمها كسرى أنو شروان لغيره ممن رتب هناك ، فأضافها محمد بن يزيد الى ملكه : منها خراسان شاه وزادان شاه . وسنذكر بعد هذا الموضع تغلبه على مملكة شروان ، وقد كان قبل ذلك على الايران هو وأبوه من قبل ، ثم على سائر الممالك .

طبرستان

وتلي مملكة شروان في جبل القبخ مملكة طبرستان ، وملكها في هذا الوقت مسلم ، وهو ابن أخت عبد الملك الذي كان أمير الباب والأبواب ، وهي أول الأمم المتصلة بالباب والأبواب .

جيدان

وببادي أهل الباب والأبواب مملكة يقال لها جيدان ، وهذه الأمة داخلة في جملة ملوك الخزر ، وقد كانت دار مملكتها مدينة على ثمانية أيام من مدينة الباب يقال لها سمندر . وهي اليوم يسكنها خلق من الخزر ، وذلك أنها افتتحت في بدء الزمان ، افتتحها سليمان بن ربيعة الباهلي رضي الله تعالى عنه ، فانتقل الملك عنها الى مدينة آمل ، وبينها وبين الأولى سبعة أيام .

وآمل التي يسكنها ملك الخزر في هذا الوقت ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يرد من أعالي بلاد الترك ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البرغز ، وتصب في بحر مايطس .

وهذه المدينة جانبان ، وفي وسط هذا النهر جزيرة فيها دار الملك ، وقصر الملك في وسط هذه الجزيرة ، وبها جسر الى أحد الجانبين من سفن .

وفي هذه المدينة خلق من المسلمين والنصارى واليهود والجاهلية . فأما اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسه . وكان تهود ملك الخزر في خلافة هارون الرشيد ، وقد انضاف اليه خلق من اليهود وردوا عليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم .

وذلك أن ملك الروم في وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) وهو أرمنوس نقل من كان في ملكه من اليهود الى دين النصرانية وأكرههم ـ وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب كيفية أخبار ملوك الروم ، واعدادهم ، وأخبار هذا الملك ومن قد شاركه في ملكه في هذا الوقت المؤرخ ـ فتهارب خلق من اليهود من أرض الروم الى أرضه على ما وصفنا .

وكان لليهود مع ملك الخزر خبر ليس هذا موضع ذكره ، وقد ذكرناه فيما سلف من كتبنا .

وأما من في بلاده من الجاهلية فأجناس : منهم الصقالبة والروس ، وهم في أحد جانبي هذه المدينة ، ويحرقون موتاهم ودواب ميتهم وآلاته والحلي . واذا مات الرجل أحرقت معه امرأته وهي في الحياة ، وان ماتت المرأة لم يحرق الرجل ، وان مات منهم اعزب زوج بعد وفاته . والنساء يرغبن في تحريق أنفسهن لدخولهن عند حرق أنفسهن الجنة .

عادة حرق الموتى وسائر حوائجهم

وهذا فعل من أفعال الهند على حسب ما ذكرنا آنفا ، الا أن الهند ليس من شأنها أن تحرق المرأة مع زوجها الا أن ترى ذلك المرأة .

والغالب في هذا البلد المسلمون ، لأنهم جند الملك ، وهم يعرفون في هذا البلد باللارسية ، وهم ناقلة من نحو بلاد خوارزم . وكان في قديم الزمان بعد ظهور الاسلام وقع

في بلادهم جدب ووباء ، فانتقلوا الى ملك الخزر ، وهم ذوو بأس وشدة ، وعليهم يعول ملك الخزر في حروبه ، وأقاموا في بلده على شروط بينهم :

أحدها : اظهار الدين والمساجد والأذان .

وثانيها : أن تكون وزارة الملك فيهم ، والوزير في وقتنا هذا منهم هو أحمد بن كويه .

وثالثها : أنه متى كان لملك الخزر حرب مع المسلمين وقفوا في عسكره منفردين عن غيرهم لا يحاربون أهل ملتهم ، ويحاربون معه سائر الناس من الكفار ، ويركب منهم مع الملك في هذا الوقت شخوص منهم سبعة آلاف ناشب بالجواشن والدروع والخوذ ، ومنهم رامحة أيضا على حسب ما في المسلمين من آلات السلاح ، ولهم قضاة مسلمون .

ورسم دار مملكة الخزر أن يكون فيها قضاة سبعة ، اثنان منهم للمسلمين ، واثنان للخزر يحكمان بحكم التوراة ، واثنان لمن بها من النصرانية يحكمان بحكم النصرانية ، وواحد منهم للصقالبة والروس وسائر الجاهلية يحكم بأحكام الجاهلية ، وهي قضايا عقلية . فاذا ورد عليهم ما لا علم لهم به من النوازل العظام اجتمعوا الى قضاة المسلمين فتحاكموا اليهم وانقادوا الى ما توجبه شريعة الاسلام .

وليس في ملوك الشرق في هذا الصقع من له جند مرتزقة غير ملك الخزر ، وكل مسلم من تلك الديار يعرف بأسماء هؤلاء القوم اللارسية .

والروس والصقالبة الذين ذكرنا أنهم جاهلية هم جند الملك وعبيده ، وفي بلاده خلق من المسلمين تجار وصناع غير اللارسية فروا الى بلاده لعدله وأمنه . ولهم مسجد جامع ، والمنارة تشرف على قصر الملك ، ولهم مساجد أخرى فيها المكاتب لتعليم الصبيان القرآن . فاذا اتفق المسلمون ومن بها من النصارى لم يكن للملك بهم طاقة .

مراسم خاقان

قال المسعودي : وليس اخبارنا عن ملك الخزر نريد به خاقان . وذلك أن للخزر ملكا يقال له خاقان ، ورسمه أن يكون في يدي ملك آخر هو وغيره ، فخاقان في جوف قصر لا يعرف الركوب ولا الظهور للخاصة ولا للعامة ، ولا الخروج من مسكنه ، معه حرمه ، لا يأمر ولا ينهى ، ولا يدبر من أمر المملكة شيئا .

ولا تستقيم مملكة الخزر لملكهم الا بخاقان يكون عنده في دار مملكته ، ومعه في حيزه . فاذا أجدبت أرض الخزر أو نابت بلدهم نائبة ، أو توجهت عليهم حرب لغيرهم من الأمم ، أو فاجأهم أمر من الأمور ، نفرت الخاصة والعامة الى ملك الخزر ، فقالوا له : قد تطيرنا بهذا الخاقان وأيامه ، وقد تشاءمنا به ، فاقتله أو سلمه الينا نقتله .

فربما سلمه اليهم فقتلوه ، وربما تولى هو قتله ، وربما رق له فدافع عنه ، لأن قتله بلا جرم استحقه ولا ذنب أتاه . . .

هذا رسم الخزر في هذا الوقت فلست أدري : أفي قديم الزمان كان ذلك أم حدث ، وانما منصب خاقان هذا من أهل بيت بأعيانهم أرى أن الملك كان فيهم قديما ، والله أعلم .

نهر برطاس

وللخزر زوارق يركب فيها الركاب التجار في نهر فوق المدينة يصب الى نهرها من أعاليها يقال له برطاس ، عليه أمم من الترك حاضرة داخلة في جملة ممالك الخزر ، وعمائرهم متصلة بين مملكة الخزر والبرغز ، يرد هذا النهر من نحو بلاد البرغز ، والسفن تختلف فيه من البرغز والخزر .

أمة برطاس

وبرطاس أمة من الترك على ما ذكرنا على هذا النهر المعروف بهم ، ومن بلادهم تحمل جلود الثعالب السود والحمر التي تعرف بالبرطاسية ، يبلغ الجلد منها مائة دينار ، وأكثر من ذلك ، وذلك من السود ، والحمر أخفض ثمنا منها .

وتلبس السواد منها ملوك العرب والعجم ، وتتنافس في لبسه ، وهو أغلى عندهم من السمور والفنك وما شاكل ذلك . وتتخذ الملوك منه القلانس والخفاف والدواويج . ويتعذر في الملوك من ليس له خفان ودواج مبطن من هذه الثعالب البرطاسية السود .

وفي أعالي نهر الخزر مصب متصل بخليج من بحر نيطس ، وهو بحر « الروس » لا يسلكه غيرهم ، وهم على ساحل من سواحله . وهي أمة عظيمة جاهلية لا تنقاد الى ملك ولا الى شريعة ، وفيهم تجار يختلفون الى ملك البرغز . وللروس في أرضهم معدن الفضة كثير ، نحو معدن الفضة الذي بجبل بنجهير من أرض خراسان .

البرغز

ومدينة البرغز على ساحل بحر مايطس ، وأرى أنهم في الاقليم السابع ، وهم نوع من الترك ، والقوافل متصلة بهم من بلاد خوارزم من أرض خراسان ، ومن خوارزم اليهم ، الا أن ذلك بين بوادي غيرهم من الترك ، والقوافل مخفرة منهم .

وملك البرغز في وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) مسلم ، أسلم في أيام المقتدر بالله ، وذلك بعد العشر والثلثمائة وذلك لرؤيا رآها ، وقد كان له ولد حج ، وورد مدينة السلام ، وحمل معه للمقتدر لواء وبنودا ومالا ولهم جامع .

وهذا الملك غزا بلاد القسطنطينية في نحو خمسين ألف فارس فصاعدا ويشن الغارات

حولها الى بلاد رومية والأندلس وأرض برجان والجلالقة والافرنجة . ومنهم الى القسطنطينية نحو من شهرين متصلين عمائر ومفاوز .

وقد كان المسلمون ـ حين غزوا من بلاد طرسوس من الثغر الشامي مع أمير الثغور ثمل الخادم المعروف بالزلفى ومن كان معه من مراكب الشاميين والبصريين سنة اثنتي عشرة وثلثمائة ـ قطعوا فم خليج القسطنطينية وفم خليج آخر من البحر الرومي لا منفذ له ، وانتهوا الى بلاد فندية . وأتاهم في البحر جماعة من البرغز ينجدونهم وأخبروهم أن ملكهم بالقرب .

وهذا يدل على ما وصفنا أن البرغز تتصل سراياها الى ساحل بحر الروم ، وكان نفر منهم ركبوا في مراكب الطرسوسيين ، فأتوا بهم الى بلاد طرسوس .

والبرغز أمة عظيمة منيعة شديدة البأس ، ينقاد اليها من جاورها من الأمم ، والفارس ممن قد أسلم مع ذلك الملك يقاتل المائة من الفرسان والمائتين من الكفار . ولا يمتنع أهل القسطنطينية منهم في هذا الوقت الا بسورها ، وكذلك كل من كان في هذا الصقع لا يعتصم منهم الا بالحصون والجدران .

والليل في بلاد البرغز في نهاية من القصر في بعض السنة ، ومنهم من زعم أن أحدهم لا يستطيع أن يفرغ من طبخ قدره حتى يأتي الصباح .

وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا علة ذلك من الوجه الفلكي ، وعلة الموضع الذي يكون الليل فيه ستة أشهر متصلة لا نهار فيه ، والنهار ستة أشهر متصلة لا ليل فيه ، وذلك نحو الجدي .

وقد ذكر أصحاب النجوم في الزيجات علة ذلك من الوجه الفلكي .

الروس واجناسهم

والروس أمم كثيرة ، وأنواع شتى ، ومنهم من يقال لهم اللوذعانة ، وهم الأكثرون ، يختلفون بالتجارة الى بلاد الأندلس ورومية وقسطنطينية والخزر .

وقد كان بعد الثلثمائة ورد عليهم نحو من خمسمائة مركب ، في كل مركب مائة نفس ، فدخلوا خليج نيطس المتصل ببحر الخزر . وهنالك رجال ملك الخزر مرتبين بالعدد القوية يصدون من يرد من ذلك البحر ، ومن يرد من ذلك الوجه من البر الذي شعبه من بحر الخزر تتصل ببحر نيطس .

وذلك أن بوادي الترك الغز ترد الى ذلك البر وتشتي هنالك . فربما يجمد هذا الماء المتصل من نهر الخزر الى خليج نيطس ، فتعبر الغز عليه بخيولها ، وهو ماء عظيم ، فلا ينخسف من تحتهم لشدة استحجاره ، فتغير على بلاد الخزر . وربما يخرج اليهم ملك الخزر

اذا عجز من هنالك من رجاله المرتبين عن دفعهم ومنعهم العبور على ذلك الجمد .

وأما في الصيف فلا سبيل للترك الى العبور ، فلما وردت مراكب الروس الى رجال الخزر المرتبين على فم الخليج راسلوا ملك الخزر في أن يجتازوا البلاد وينحدروا في نهره فيدخلوا نهر الخزر ويتصلوا ببحر الخزر الذي هو بحر جرجان وطبرستان وغيرهما من بلاد الأعاجم على ما ذكرنا ، ويجعلوا لملك الخزر النصف مما يغنمون ممن هناك من الأمم على ذلك البحر ، فأباحهم ذلك .

فدخلوا الخليج واتصلوا بمصب النهر فيه ، وساروا مصعدين في تلك الشعبة من الماء ، حتى وصلوا الى نهر الخزر ، وانحدروا واجتازوا بها وانتهوا الى فم النهر ومصبه الى البحر الخزري ، ومن مصب النهر الى مدينة آمل . وهو نهر عظيم وماء كثير .

فانتشرت مراكب الروس في هذا البحر ، وطرحت سراياها الى الجيل والديلم وبلاد طبرستان وآبسكون ، وهي بلاد على ساحل جرجان وبلاد النفاطة ، ونحو بلاد أذربيجان . وذلك أن من بلاد أردبيل من بلاد أذربيجان الى هذا البحر نحو من ثلاثة أيام .

فسفكت الروس الدماء ، واستباحت النسوان والولدان ، وغنمت الأموال ، وشنت الغارات ، وأخربت وأحرقت . فضج من حول هذا البحر من الأمم ، لأنهم لم يكونوا يعهدون في قديم الزمان عدوا يطرقهم فيه ، وانما تختلف فيه مراكب التجار والصيد . وكانت لهم حروب كثيرة مع الجيل والديلم مع قائد لابن أبي الساج .

فانتهوا الى ساحل النفاطة من مملكة شروان المعروفة بباركة . وكانت الروس تأوي عند رجوعها من غاراتها الى جزائر تقرب من النفاطة على أميال منها ، وكان ملك شروان يومئذ علي بن الهيثم . فاستعد الناس ، وركبوا في القوارب ، ومراكب التجار ، وساروا نحو تلك الجزائر . فمالت عليهم الروس ، فقتل من المسلمين وغرق ألوف .

وأقام الروس شهورا كثيرة في هذا البحر على ما وصفنا لا سبيل لأحد ممن جاور هذا البحر من الأمم اليهم ، والناس مهتابون لهم ، حذرون منهم لانه بحر عامر لمن حوله من الأمم .

فلما غنموا وسئموا ما هم فيه ساروا الى فم نهر الخزر ومصبه ، فراسلوا ملك الخزر وحملوا اليه الأموال والغنائم على ما اشترط عليهم وملك الخزر لا مراكب له ، وليس لرجاله بها عادة ، ولولا ذلك لكان على المسلمين منهم آفة عظيمة .

وعلم بشأنهم اللارسية ومن في بلاد الخزر من المسلمين ، فقالوا لملك الخزر : خلّنا وهؤلاء القوم فقد اغاروا على بلاد اخواننا المسلمين ، وسفكوا الدماء ، وسبوا النساء والذراري .

فلم يمكن الملك منهم ، وبعث الى الروس فأعلمهم بما قد عزم عليه المسلمون من حربهم .

وعسكروا ، وخرجوا يطلبونهم منحدرين مع الماء ، فلما وقعت العين على العين خرجت الروس من مراكبها وصافوا المسلمين . وكان مع المسلمين خلق من النصارى من المقيمين بمدينة آمل . وكان المسلمون في نحو خمسة عشر ألفا بالخيل والعدد .

فأقام الحرب بينهم ثلاثة أيام ، ونصر الله المسلمين عليهم ، وأخذهم السيف . فمن قتيل وغريق .

ونجا منهم نحو خمسة آلاف ، وركبوا في المراكب الى ذلك الجانب مما يلي بلاد برطاس ، وتركوا مراكبهم وتعلقوا بالبر . فمنهم من قتله أهل برطاس ، ومنهم من وقع الى بلاد البرغز الى المسلمين فقتلوهم .

وكان من وقع عليه الاحصاء ممن قتله المسلمون على شاطىء نهر الخزر نحوا من ثلاثين ألفا .

ولم يكن للروس من تلك السنة عودة الى ما ذكرنا .

***

قال المسعودي : وانما ذكرنا هذه القصة دفعا لقول من زعم أن بحر الخزر متصل ببحر مايطس وخليج القسطنطينية من جهة بحر مايطس ونيطس ولو كان لهذا البحر اتصال بخليج القسطنطينية من جهة بحر مايطس أو نيطس ، لكانت الروس قد خرجت فيه ، اذ كان ذلك بحرها على ما ذكرنا .

ولا خلاف بين من ذكرنا ممن تجاوز البحر من الأمم في أن بحر الأعاجم لا خليج له متصل بغيره من البحار ، لأنه بحر صغير يحاط بعلمه . وما ذكرنا من مراكب الروس فمستفيض في تلك البلاد عند سائر الأمم . والسنة معروفة ، وكانت بعد الثلثمائة ، وقد غاب عني تاريخها .

ولعل من ذكر أن بحر الخزر متصل بخليج القسطنطينية يريد أن بحر الخزر هو بحر مايطس ونيطس الذي هو بحر البرغز والروس . والله أعلم بكيفية ذلك .

وساحل طبرستان على هذا البحر ، وهنالك مدينة يقال لها الهم . وهي فرضة قريبة من الساحل ، وبينها وبين مدينة آمل ساعة من النهار .

وعلى ساحل جرجان ، مما يلي هذا البحر ، مدينة يقال لها آبسكون ، على نحو من ثلاثة أيام من جرجان ، وعلى هذا البحر الجيل والديلم .

وتختلف المراكب بالتجارات فيه الى مدينة آمل ، فيدخل في نهر الخزر اليها ، وتختلف المراكب فيه بالتجارات من المواضع التي سمينا من ساحله الى باكة ، وهي معدن النفط الأبيض وغيره ، وليس في الدنيا ـ والله أعلم ـ نفط أبيض الا في هذا الموضع ، وهي على ساحل مملكة شروان .

وفي هذه النفاطة أطمة ، وهي عين من عيون النار لا تهدأ على سائر الأوقات تتضرم الصعداء .

حديث عن آطام النيران

ويقابل هذا الساحل في البحر جزائر : منها جزيرة على نحو ثلاثة أيام من الساحل فيها أطمة عظيمة تزفر في أوقات من فصول السنة . فتظهر منها نار عظيمة تذهب في الهواء كأشمخ ما يكون من الجبال العالية ، فتضيء الأكثر من هذا البحر ، ويرى ذلك من نحو مائة فرسخ من البر .

وهذه الأطمة تشبه أطمة جبل البركان من بلاد صقلية من أرض الافرنجة ومن بلاد افريقية من أرض المغرب .

وليس في آطام الأرض أشد صوتا ولا أسود دخانا ولا أكثر تلهبا من الأطمة التي في أعمال المهراج .

وبعدها أطمة وادي برهوت ، وهي نحو بلاد سبأ وحضرموت من بلاد الشحر ، وذلك بين بلاد اليمن وبلاد عمان . وصوتها يسمع كالرعد من أميال كثيرة ، تقذف من قعرها بجمر كالجبال وقطع من الصخور سود ، حتى يرتفع ذلك في الهواء ويدرك حسا من أميال كثيرة ، ثم ينعكس سفلا فيهوي الى قعرها وحولها ، والجمر الذي يظهر منها حجارة قد احمرت مما قد أحالها من مواد حرارة النار .

وقد أتينا على علة تكون عيون النيران في الأرض ، وما سبب موادها ، في كتابنا « أخبار الزمان » .

حديث عن البزاة

وفي هذا البحر جزائر أخرى مقابلة لساحل جرجان ، يصاد منها نوع من البزاة البيض . وهذا النوع من البزاة أسرع الضواري اجابة ، وأقلها معاشرة ، الا أن في هذا النوع من البزاة شيئا من الضعف ، لأن الصائد يصطادها من هذه الجزائر فيغذيها بالسمك ، فاذا اختلف عليها الغذاء عرض لها الضعف .

وقد قال الجمهور من أهل المعرفة بالضواري وأنواع الجوارح من الفرس والترك والروم

والهند والعرب : ان البازي اذا كان الى البياض في اللون فانه أسرع البزاة وأحسنها ، وأنبلها أجساما ،واجرؤهاقلوبا ، وأسهلها رياضة ، وانه أقوى جميع البزاة على السمو في الجو ، وأذهبها الصعداء ، وأبعدها غاية في الهواء ، لأن فيها من حرف الحرارة وجراءة القلب ما ليس في غيرها من جميع أنواع البزاة . وان اختلاف ألوانها لاختلاف مواضعها ، وان من أجل ذلك خلصت البيض لكثرة الثلج في ارمينية وأرض الخزر وجرجان وما والاها من بلاد الترك .

وقد حكي عن حكيم من خواقين الترك ـ وهم الملوك المنقادة الى ملكهم جميع ملوك الترك ـ أنه قال : ان بزاة أرضنا اذا أسقطت أنفس فراخها من الوعاء الى الفضاء سمت في آخر الجو الى الهواء البارد الكثيف فأنزلت دواب تسكن هناك فتغذيها بها ، فلا تلبث أن تقوى وتنهض لإسراع الغذاء فيها ، وأنهم ربما وجدوا في أوكارها من تلك الدواب أشلاء .

وقد قال جالينوس : ان الهواء حار رطب ، والبرد يعرض فيه لقوة الرياح المرتفعة ولا يخلو الجو من نشاء فيه وساكن .

وعن بليناس أنه قال : واجب اذا كان لهذين الأسطقسين (يعني الأرض والماء) خلق وساكن أن يكون للأسطقسين الأعليين (يعني الهواء والنار) خلق وساكن .

القول بأن الهواء مسكون

ووجدت في بعض أخبار هارون الرشيد أن الرشيد خرج ذات يوم الى الصيد ببلاد الموصل ، وعلى يده باز أبيض ، فاضطرب على يده ، فأرسله . فلم يزل يحلق حتى غاب في الهواء ، ثم طلع بعد الاياس منه ، وقد علق شيئا فهوى به يشبه الحية أو السمكة ، وله ريش كأجنحة السمك . فأمر الرشيد فوضع في طست .

فلما عاد من قنصه أحضر العلماء فسألهم : هل تعلمون للهواء ساكنا ؟

فقال مقاتل : يا أمير المؤمنين ، روينا عن جدك عبد الله بن عباس أن الهواء معمور بأمم مختلفة الخلق ، فيها سكان أقربها منا دواب تبيض في الهواء وتفرخ فيه ، يرفعها الهواء الغليظ ويربيها حتى تنشأ في هيئة الحيات أو السمك ، لها أجنحة ليست بذات ريش تأخذها بزاة بيض تكون بأرمينية .

فأخرج الطست اليهم ، فأراهم الدابة ، وأجاز مقاتلا يومئذ .

وقد أخبر غير واحد من أهل التحصيل بمصر وغيرها من البلاد أنهم شاهدوا في الجو حيات تسعى كأسرع ما يكون من البرق ، بيض ، وأنها ربما تقع على الحيوان في الأرض فتقتله . وربما يسمع لطيرانها في الليل وحركتها في الهواء صوت كنشر ثوب جديد . وربما

يقول من لا علم له وغيره من البشر هذا صوت ساحرة تطير ، ذات أجنحة من قصب .

وللناس كلام كثير فيما ذكرنا ، واستدلالهم على هذا انما هو بما يحدث في أسطقس الماء من الحيوان ، وأنه يجب على هذه القصة أن يحدث ذلك بين العنصرين الخفيفين وهما الهواء والنار نشو وحيوان كحدوثه بين الثقيلين وهما الأرض والماء .

وصف البزاة

قال المسعودي : وقد وصفت الحكماء والملوك البزاة ، وأغربت في الوصف ، وأطنبت في المدح :

فقال خاقان ملك الترك : البازي شجاع مريد .

وقال كسرى أنو شروان : البازي رفيق يحسن الاشارة ، ولا يؤخر الفرص اذا أمكنت .

وقال قيصر : البازي ملك كريم إن احتاج أخذ وان استغنى ترك .

وقالت الفلاسفة : حسبك من البازي سرعة في الطلب وقوة على الرزق وفي السمو ، اذا طالت قوادمه وبعد ما بين منكبيه ، فذلك أبعد لغايته واخف لسرعته ألا ترى الى الصقور لا تزداد في غاياتها الا بعداً وسرعة وقوة على التكرار ، وذلك لطول قوادمها مع كثافة أجسامها ، وانما قصرت غاية البازي لقصر جناحيه ورقة جسمه ، فاذا طالت به الغاية أخره ذلك حتى تشتد نفسه .

ولا تؤتى الجوارح الا من قصر القوادم ، ألا ترى أن الدراج والسمان والحجل وأشباهها حين قصرت قوادمها ، كيف قصرت غاياتها ؟

وقال ارستجانس : البازي طير عاري الحجاب ، وما يفوته في كسوره يزيده في أخمصه ورجليه . وهو أضعف الطير جسما ، وأقواها قلبا وأشجعها ، وذلك لفضله على سائر الطير بالجزء الذي فيه من الحرارة التي ليست في شيء منها ، ووجدنا صدورها منسوجة بالعصب لا لحم عليها .

وقال جالينوس مؤيدا لما ذهب اليه ارستجانس : ان البازي لا يتخذ وكرا الا في شجرة لفَّاء مشتبكة بالشوك ، مختلفة الحجون ، بين شجر عسى [1] طلبا للكن ودفعا لألم الحر والبرد . فاذا أراد أن يفرخ بنى لنفسه بيتا وسقفه تسقيفا لا يصل اليه منه مطر ولا ثلج اشفاقا على نفسه وفراخه من البرد والضر .

---

١ ـ عسى النبات (كرضى) عسى وعساء وعسوا : غلظ ويبس .

اول من لعب بالصقور

وذكر أدهم بن محرز أن أول من لعب بالصقور الحارث بن معاوية بن ثور الكندي ، وهو أبو كندة وأنه وقف يوما لقانص وقد نصب حبالة للعصافير ، فانقض أكدر على عصفور منها قد علق ، فعلقه الأكدر (وهو الصقر ، ومن أسمائه ايضا الأجدل) ، فجعل يأكل العصفور وقد علق .

فعجب الملك فأتى به وهو يأكل العصفور ، فرمى به في كسر البيت ، فرآه قد دجن ولم يبرح مكانه ولم ينفر ، واذا رمى اليه طعاما أكله ، واذا رأى لحما نهض الى يد صاحبه ثم دعي فأجاب ، فطعم على اليد .

وكانوا يتباهون بحمله ، اذ رأى يوما حمامة فطار اليها من يد حامله فعلقها ، فأمر الملك باتخاذها والتصيد بها .

فبينا الملك يسير يوما اذ نفجت أرنب فطار الصقر اليها فأخذها ، فطلب بها الطير والأرانب فقتلها ، واتخذها العرب بعده ، ثم استفاضت في أيدي الناس .

اول من لعب بالشواهين

فأما الشواهين فان أرستجانس الحكيم ذكر في كتاب كان وجه به الى المهدي حمل اليه من أرض الروم أهداه اليه الملك أن ملكا من ملوك الروم يقال له فسيان نظر يوما الى شاهين يهوي منحدرا على طير الماء فيضربه ، ثم يسمو مرتفعا في الهواء ، حتى فعل ذلك مرارا .

فقال : هذا طير ضار تدلنا قوة انحداره على الطير في الماء أنه ضار ، وتدلنا سرعة ارتفاعه في جو السماء على أنه طير أبي ألوف .

فلما رأى الى حسن تكراره أعجبه ، فكان أول من اتخذ الشواهين .

وقد ذكر سعيد بن عبيس عن هاشم بن خديج قال : خرج قسطنطين ملك عمورية متصيدا بالبزاة ، حتى انتهى الى خليج نيطس الجاري الى بحر الروم ، فعبر الى مرج بين الخليج والبحر فسيح مديد . فنظر الى شاهين يتكفأ على طير الماء ، فأعجبه ما رأى من سرعته وضراوته ، ولم يدر الحيلة في صيده ، فأمر أن يصطاد له ، فضرّاه .

وكان قسطنطين أول من لعب بالشواهين ، ونظر الى ذلك المرج طويل البساط مفروشا بألوان الزهر ، فقال : هذا موضع حصين بين نهر وبحر ، وله سعة وامتداد يصلح أن يكون فيه مدينة ، فبنى فيه مدينة القسطنطينية .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب عند ذكرنا لملوك الروم قسطنطين بن هلاين هذا ، وما

كان من خبره . وهو المظهر لدين النصرانية ، وهذا الوجه أحد ما ذكر من السبب الداعي لبناء القسطنطينية .

وقد ذكر ابن غفير عن أبي زيد الفهري أنه كان من رتبة ملوك الأندلس اللذارقة ، اذا ركب الملك منهم صارت الشواهين في الهواء مظلة لعسكره ، مخيمة على موكبه ، تنحدر عليه مرة وترتفع أخرى ، معلمة لذلك .

فلا تزال على ما وصفنا في حال مسيره حتى ينزل فتقع حوله ، الى أن ركب يوما ملك منهم يقال له أزرق وصارت الشواهين معه على ما وصفنا ، فاستثارت طائرا فانقض عليه شاهين فأخذه . فأعجب بذلك الملك ، وضراها على الصعيد ، فكان أول من تصيد بها بالمغرب وبلاد الأندلس .

***

قال المسعودي : وكذلك ذكر جماعة من أهل العلم بهذا الشأن أنه كان أول من لعب بالعقبان من أهل المغرب . فلما نظرت الروم الى شدة أسرها وافراط سلاحها قال حكماؤهم : هذه التي لا يقوم خيرها بشرها .

وذكر أن قيصر أهدى الى كسرى عقابا وكتب اليه يعلمه أنها تعمل أكثر من عمل الصقر الذي أعجبه صيده . فأمر بها كسرى فأرسلت على ظبي عرض له فدقته ، فأعجبه ما رأى منها ، فانصرف مسرورا ، فجوعها ليصيد بها ، فوثبت على صبي فقتلته ، فقال كسرى : وترنا قيصر في أولادنا بغير جيش .

ثم إن كسرى أهدى الى قيصر نمرا ، وكتب اليه أنه يقتل الظباء وأمثالها من الوحش . وكتم ما صنعت العقاب .

فأعجب قيصر حسن النمر ، وطابق صفته بوصف من الفهد ، وغفل عنه ، فافترس بعض فتيانه ، فقال : صادنا كسرى ، فان كنا قد صدناه فلا بأس .

هذا ، وقد تغلغل بنا الكلام عند ذكرنا لبحر جرجان وجزائره الى الكلام في أنواع الجوارح . وسنذكر لمعا من أخبار البزاة وأعداد أجناس الجوارح وأشكالها عند ذكرنا لملوك اليونانيين .

فلنرجع الآن الى ذكر الباب والأبواب ومن يلي السور من الأمم وجبل القبخ .

مملكة جيدان

وقد قلنا ان شر الملوك ممن جاورها من الأمم مملكة جيدان .

وملكهم رجل مسلم يزعم أنه من العرب من قحطان ويعرف بسلفان في هذا الوقت ،

وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، وليس في مملكته مسلم غيره وولده وأهله . وأرى أن هذه السمة يسمى بها كل ملك لهذا الصقع .

وبين مملكة جيدان وبين الباب والأبواب أناس من المسلمين عرب لا يحسنون شيئا من اللغات غير العربية في آجام هناك وغياض وأودية وأنهار كبار من قرى قد سكنوها ، وقطنوا ذلك الصقع منذ الوقت الذي افتتحت فيه تلك الديار ممن طرأ من بوادي العرب اليها . فهم مجاورون لمملكة جيدان ، الا أنهم ممتنعون بتلك الأشجار والأنهار . وهم على نحو ثلاثة أميال من مدينة الباب والأبواب ، وأهل الباب يحذرونهم .

ويلي مملكة جيدان مما يلي جبل القبخ والسرير ملك يقال له برزبان ، مسلم . ويعرف بلده بالكرج ، وهم أصحاب الأعمدة . وكل ملك يلي هذه المملكة يدعى برزبان .

مملكة غميق

ثم يلي مملكة برزبان مملكة يقال لها غميق ، وأهلها أناس نصارى لا ينقادون الى ملك ، ولهم رؤساء ، وهم مهادنون لمملكة اللان .

مملكة زريكران

ثم يليهم مما يلي السرير والجبل مملكة يقال لها زريكران ، وتفسير ذلك عمال الزرد ، لأن أكثرهم يعمل الزرد واليلب واللجم والسيوف وغير ذلك من أنواع الحديد . وهم ذوو ديانات مختلفة : مسلمون ويهود ونصارى . وبلدهم بلد خشن ، قد امتنعوا بخشونته على من جاورهم من الأمم .

مملكة فيلان شاه

ثم يلي هؤلاء مملكة السرير وملكها يدعى فيلان شاه ، يدين بدين النصرانية . وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب أنه من ولد بهرام جور .

وسمي صاحب السرير لأن يزدجرد ، وهو الآخر من ملوك ساسان ، حين ولى منهزما قدم سريره الذهب وخزائنه وأمواله مع رجل من ولد بهرام جور ليسير بها الى هذه المملكة فيحرزها هناك الى وقت موافاته .

ومضى يزدجرد الى خراسان فقتل هناك ، وذلك في خلافة عمر رضي الله عنه على ما ذكرنا في هذا الكتاب وغيره من كتبنا .

فقطن ذلك الرجل في هذه المملكة ، واستولى عليها ، وصار الملك في عقبه ، فسمى صاحب السرير .

ودار مملكته تعرف بحمرج ، وله اثنا عشر ألف قرية يستعبد منهم من شاء ، وبلده بلد

خشن منيع لخشونته ، وهو شعب من جبل القبخ . وهو يغير على الخزر مستظهرا عليهم ، لأنهم في سهل وهو في جبل .

مملكة اللان

ثم تلي هذه المملكة مملكة اللان وملكها يقال له كركنداج ، هذا الاسم الأعم لسائر ملوكهم . وكذلك فيلان شاه ، فهو الاسم الأعم لسائر ملوك السرير . ودار مملكة ملك اللان يقال لها معص ، وتفسير ذلك الديانة .

وله قصور ومتنزهات في غير هذه المدينة ينتقل في السكنى اليها ، وبينه وبين صاحب السرير مصاهرة في هذا الوقت ، وقد تزوج كل واحد منهما بأخت الآخر .

وقد كانت ملوك اللان بعد ظهور الاسلام في الدولة العباسية اعتقدوا دين النصرانية . وكانوا قبل ذلك جاهلية ، فلما كان بعد العشرين والثلثمائة رجعوا عما كانوا عليه من النصرانية وطردوا من كان قبلهم من الأساقفة والقسيسين ، وقد كان أنفذهم اليهم ملك الروم .

وبين مملكة اللان وجبل القبخ قلعة وقنطرة على واد عظيم ، يقال لهذه القلعة قلعة باب اللان . بنى هذه القلعة ملك في قديم الزمان من الفرس الأوائل يقال له اسبنديار بن يستاسف بن بهراسب .

ورتب في هذه القلعة رجالا يمنعون اللان عن الوصول الى جبل القبخ ، ولا طريق لهم الا على هذه القنطرة من تحت هذه القلعة .

والقلعة على صخرة صماء لا سبيل الى فتحها والوصول اليها الا باذن من فيها . ولهذه القلعة المبنية على أعلى هذه الصخرة عين من الماء عذبة تظهر في وسطها من أعلى هذه الصخرة .

وهذه القلعة أحدى قلاع العالم الموصوفة بالمنعة ، وقد ذكرتها الفرس في أشعارها ، وما كان لاسبنديار بن يستاسف في بنائها .

ولاسبنديار في الشرق حروب كثيرة مع أصناف من الأمم ، وهو السائر الى بلاد الترك . فخرب مدينة الصفر ، وكانت من المنعة بالموضع العظيم الذي لا يرام ، وبها تضرب الفرس الأمثال .

وما كان من أفعال اسبنديار وما وصفنا فمذكور في الكتاب المعروف بكتاب البنكش ، نقله ابن المقفع الى لسان العرب .

وقد كان مسلمة بن عبد الملك بن مروان حين وصل الى هذا الصقع ووطىء أهله ، أسكن في هذه القلعة أناسا من العرب الى هذه الغاية يحرسون هذا الموضع . وربما يحمل

اليهم الرزق وأقوات من البر من ثغر تفليس ، وبين تفليس وهذه القلعة مسيرة خمسة أيام .

ولو كان رجل واحد في هذه القلعة لمنع سائر الملوك الكفار أن يجتازوا بهذا الموضع لتعلقها بالجو واشرافها على الطريق والقنطرة والوادي .

وصاحب اللان يركب في ثلاثين ألف فارس ، وهو ذو منعة وبأس شديد ، وذو سياسة بين الملوك ، ومملكته عمائرها متصلة غير منفصلة ، اذا تصايحت الديوك تجاوبت في سائر مملكته لاشتباك العمائر واتصالها .

أمة كشك

ثم يلي مملكة اللان أمة يقال لها كشك ، وهم بين جبل القبخ وبحر الروم . وهي أمة مطيعة منقادة الى دين المجوسية .

وليس فيمن ذكرنا من الأمم في هذا الصقع أنقى أبشارا ، ولا أصفى ألوانا ، ولا أحسن رجالا ، ولا أصبح نساء ،! ولا أقوم قدودا ، ولا أدق أخصارا ، ولا أظهر أكفالا وأردافا ، ولا أحسن شكلا من هذه الأمة .

ونساؤهم موصوفات بلذة الخلوات ، ولباسهم البياض والديباج والرومي والسقلاطوني وغير ذلك من أنواع الديباج المذهب .

وبأرضهم أنواع من الثياب يصنع من القنب ، فيها نوع يقال له الطلى أرق من الدبيقي وأبقى على الكد ، يبلغ الثوب عشرة دنانير ، ويحمل الى ما يليهم من الاسلام .

وقد تحمل هذه الثياب ممن جاورهم من الأمم ، الا أن الموصوف منها ما يحمل من قبل هؤلاء .

واللان مستظهرة على هذه الأمة ، لا تنتصف هذه الأمة من اللان ، الا أنها تمتنع من اللان بقلاع لها على ساحل البحر .

وقد تنوزع في البحر الذي هم عليه : فمن الناس من يرى أنه بحر الروم ، ومنهم من يرى انه بحر نيطس ، الا أنهم يقربون في البحر من بلاد طرابزندة . والتجارة تتصل بهم منها في المراكب ، وتتجهز من قبلهم أيضا .

والعلة في ضعفهم عن اللان تركهم أن يملكوا عليهم ملكا يجمع كلمتهم ، ولو اجتمعت كلمتهم لم يطقهم اللان ولا غيرها من الأمم .

وتفسير هذا الاسم ، وهو فارسي ، الى العربية التيه والصلف . وذلك أن الفرس اذا كان الانسان تائها صلفا قالوا : كشك .

وتلي هذه الأمة التي على هذا البحر أمة أخرى يقال لبلادهم : السبع بلدان ، وهي أمة كبيرة ممتنعة بعيدة الدار لا أعلم ملتها ، ولا نمي اليَّ خبرها في دينها .

ارم ذات العماد

وتليها أمة عظيمة بينها وبين بلاد كشك نهر عظيم كالفرات يصب الى بحر الروم ، وقيل : الى بحر نيطس ، ويقال لدار مملكة هذه الأمة ارم ذات العماد . وهم ذوو خلق عجيب ، وآراؤها جاهلية .

ولهذا البلد على هذا البحر خبر ظريف . وذاك أن سمكة عظيمة تأتيهم في كل سنة فيتناولون منها ، ثم تعود ثانية فتتوجه نحوهم من الشق الآخر فيتناولون منها ، وقد عاد اللحم على الموضع الذي أخذ منه أولا .

وخبر هذه الأمة مستفيض في تلك الديار من الكفار .

ويلي هذه الأمة أمة بين جبال أربعة ، كل جبل منها ممتنع ذاهب في الهواء . وبين هذه الجبال الأربعة من المسافة نحو من مائة ميل صحراء ، في وسط تلك الصحراء دارة مقورة ، كأنها قد خطت ببيكار . وشكل دائرتها خسفة مجوفة في حجر صلد منخسف كما تدور الدائرة ، استدارة تلك الخسفة نحو خمسين ميلا ، قطع قائم يهوي سفلا ، كحائط مبني من سفل الى علو يكون قعره على نحو من ميلين ، لا سبيل الى الوصول الى مستوى تلك الدارة .

ويرى فيها بالليل نيران كثيرة في مواضع مختلفة ، وبالنهار يرى قرى وعمائر وأنهار تجري بين تلك القرى وناس وبهائم . الا أنهم يرون لطاف الأجسام لبعد قعر الموضع ، لا يدرى من أي الأمم هم ، ولا سبيل لهم الى الصعود الى جهة من الجهات ، ولا سبيل لمن فوق الى النزول اليهم بوجه من الوجوه .

ووراء تلك الجبال الأربعة على ساحل البحر خسفة أخرى قريبة القعر فيها آجام وغياض فيها نوع من القرود منتصبة القامات مستديرة الوجوه ، والأغلب عليها صور الناس وأشكالهم ، الا أنهم ذوو شعر .

وصف نوع من القردة

وربما وقع في النادر القرد منها اذا احتيل في اصطياده ، فيكون في نهاية الفهم والدراية ، الا أنه لا لسان له فيعبر بالنطق ، ويفهم كل ما يخاطب به بالاشارة .

وربما حمل الواحد منها الى ملوك الأمم من هناك فتعلمه القيام على رؤوسها بالمذاب على موائدها ، لما في القرد من الخاصة بمعرفة السموم من المأكل والمشرب . ويلقي الملك له من طعامه : فان أكله أكل الملكُ منه ، وان اجتنبه علم أنه مسموم فحذر منه . . . وكذلك فعل الأكثر من ملوك السند والهند في القردة .

وقد ذكرنا في هذا الكتاب خبر وفد الصين حين وفدوا على المهدي ، وما ذكروا له مما في القرد من منافع ملوكهم به عند الطعام . وذكرنا خبر القرود باليمن ، واللوح الحديد الذي كتبه سليمان بن داود عهداً للقرود باليمن ، وما كان من أمرهم مع عامل معاوية ابن أبي سفيان ، وما كتب به في أمرهم ، ووصف القرد العظيم الذي كان في رقبته اللوح الحديد .

وليس في قرود العالم أفطن من هذا النوع ، ولا أخبث . وذلك أن القردة تكون في بقاع الأرض الحارة : فمنها بأرض النوبة وأعلى بلاد الأحابيش مما يلي أعالي مصب النيل وهي القرود المعروفة بالنوبية . وهي صغيرة القد ، صغيرة الوجوه ، ذات سواد غير حالك ، كأنه نوبي . وهو الذي يكون مع القرادين ، ويصعد على رمح فيصير على أعلاه .

ومنها ما يكون في ناحية الشمال في آجام وغياض نحو أرض الصقالبة وغيرها ممن هناك من الأمم ، كنحو ما وصفنا من هذا النوع من القرود ، وقرب شكله من صورة الانسان .

ومنها بخلجانات بلاد الزابج في الصين وفي مملكة المهراج ملك الجزائر . وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أن ملكه يوازي ملك الصين ، وهو بين مملكة البلهرا وملك الصين .

وهذه القرود مشهورة في هذا الصقع معروفة بالكثرة في هذه الخلجانات ، وهي ذات صور تامة ، وقد كان حمل الى المقتدر منها ، وجاءت في سلاسل عظام . وكان في القرود ذوو لحى وسبال كبار وشيوخ وشبان مع أنواع من الهدايا من عجائب البحر ، حمل ذلك أحمد بن هلال أمير عمان يومئذ .

وهذه القرود أمرها مشتهر عند البحريين من أهل سيراف وعمان ممن يختلف الى بلاد كلة والزابج ، وكيف تأتي بالحيلة لصيد التماسيح من جوف الماء .

على أن الجاحظ قد ذكر أن التماسيح لا تكون الا بنيل مصر ونهر مهران السند . وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب ما قيل في ذلك ، وأخبرنا عن مواضع التماسيح .

فأما اليمن فلا تناكر بين من دخله في أن القرود منه في مواضع كثيرة لا يحصرها عدد لكثرتها : فمنها في وادي نخلة ، وهي بين بلاد الجند وبلاد زبيد التي أميرها في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) ابراهيم بن زياد صاحب الحرملي . وبين هذا الوادي وبين زبيد يوم ، وبينه وبين الجند يوم أو أكثر من ذلك .

وهذا الوادي كثير العمائر ، ومصاب المياه اليه كثيرة ، وشجر الموز فيه كثير ، والقرود فيه كثيرة ، وهو بين جبلين . والقرود قطعان كل قطيع منها يسوقه هرز ، والهرز : الذكر العظيم ، كالفحل العظيم المقدم فيها .

وقد تلد القردة في بطن واحدة عدة من القرود نحو العشرة والاثني عشر ، كما تلد الخنزيرة خنانيص كثيرة .

وتحمل القردة البعض من أولادها كحمل المرأة ولدها ، ويحمل الذكر باقيهن . ولهن أندية ومجالس يجتمع فيها خلق منهن فيسمع لهن حديث ومخاطبات وهمهمة .

والاناث كالنساء متحيزات عن الذكور ، فاذا سمع السامع محادثتهن وهو لا يرى أشخاصهن بين تلك الجبال وأشجار الموز ، وذلك بالليل ، لم يشك أنهم أناس لكثرتهم بالليل والنهار .

وليس في جميع البقاع التي تكون فيها القرود أحسن ولا أخبث ولا أسرع قبولا للتعليم من قردة اليمن . وأهل اليمن يسمون القرد الرباح . ولهم جمم للذكور والاناث قد سرحت ، ومنها سود كأسود ما يكون من الشعر ، واذا جلسوا يجلسون مراتب دون مرتبة الرئيس ، ويتشبهون في سائر أعمالهم بالناس .

ومن القردة باليمن ببلاد مأرب بين بلاد صنعاء وقلعة كهلان ما يكون في برار وجبال هنالك كأنها السحب في تلك البراري والجبال لكثرتها .

وكهلان هذه قلعة من مخاليف اليمن فيها أسعد بن يعفور ملك اليمن في هذا الوقت محتجب عن الناس الا عن خواصه ، وهو بقية من ملوك حمير . وحوله من الجنود من الخيل والرجال نحو خمسين الفا مرتزقة يقبضون الرزق في كل شهر ، ويدعى وقت القبض البركة ، فيجتمعون هناك ويتحدرون وينحدرون من تلك المخاليف ، والمخاليف : القلاع .

وقد كانت لهذا الرجل حروب باليمن مع القرامطة وصاحب المذيخرة ، وهو علي بن الفضل ، وذلك بعد السبعين والمائتين . وقد كان لعلي باليمن شأن عظيم حتى قتل ، وتوطأت اليمن لهذا الرجل .

وباليمن للقرود مواضع كثيرة ، وكذلك في بقاع من الأرض أعرضنا عن ذكرها ، اذ كنا قد أتينا على علة تكونها في بعض البقاع دون بعض من الأرض وأخبار النسناس في كتابنا « أخبار الزمان » . وكذلك الأخبار عن العرابيد ، وهو نوع كالحيات تكون ببلاد حجر اليمامة فيما زعموا ، واحدها عربد .

وقد كان المتوكل في بدء خلافته سأل حنين بن اسحاق أن يتأتى له في حمل أشخاص من النسناس والعربد ، فلم يسلم منهم الى سر من رأى الا اثنان من النسناس . ولم تتأت له الحيلة في حمل العربد من اليمامة .

وذلك أن العربد هذا اذا خرج من اليمامة وصار الى موضع منها معروف المسافة عدم من الوعاء الذي حمل فيه .

وأهل اليمامة ينتفعون به لمنع الحيات والعقارب وسائر الهوام ، كمنفعة أهل سجستان بالقنافذ . ولذلك كان في عهد أهل سجستان القديم ألا يقتل قنفذ ببلدهم ، لأنه بلد كثير

الرمال بناه ذو القرنين في مطافه ، وحوله جبال كثيرة من الرمل قد سكرت بالخشب والقصب ، والبلد كثير الأفاعي والحيات جدا ، فلولا كثرة القنافذ لتلف من هنالك من الناس .

وكذلك أهل مصر في صعيدها وغيره ، لهم دويبة يقال لها العرانس أكبر من الجرذ وأصغر من ابن عرس حمراء بيضاء البطن ، لولا هذه الدويبة لغلب على أهل مصر الثعابين ، وهي نوع من الحيات عظيمة ، فينطوي الثعبان على هذه الدويبة ويلتف بها ، فترخي عليه الريح ، فينقطع الثعبان من ريحها . . . هذه خاصية هذه الدابة .

وفي الشرق أنواع من الخواص في بره وبحره وحيوانه ونباته وجماده وكذلك في الغرب واليمن وهو الجنوب ، والجدي وهو الشمال . وقد ذكرنا طبع كل واحد من هذه الأرباع ، ففي ذكرها في هذا الباب خروج عن الغرض الذي يممنا نحوه .

فلنرجع الآن الى ما كنا فيه آنفا من ذكر الأمم المحيطة بالباب والأبواب والسور وجبل القبخ وبلاد الخزر واللان ، فنقول :

انه يلي بلاد الخزر واللان فيما بينهم وبين المغرب أمم أربع ترك ترجع الى أب واحد في بدء أنسابهم ، حضر وبدو ، وذوو منعة وبأس شديد . لكل أمة منها ملك ، مسافة مملكته أيام ، متصلة ممالكهم بعضها ببحر نيطس ، وتتصل عماراتها بمدينة رومية ، وما يلي بلاد الأندلس ، مستظهرة على سائر ما هنالك من الأمم .

وبينهم وبين ملك الخزر مهادنة ، وكذلك مع صاحب اللان . وديارهم تتصل ببلاد الخزر .

فالجيل الأول منهم يقال له بجني .

ثم تليها أمة ثانية يقال لها بجغرد .

ثم تليها أمة يقال لها بجناك ، وهي أشد الأمم الأربعة بأسا .

ثم تليها أمة ثانية يقال لها نوكرده ، وملوكهم بدو ، وكان لهم حروب مع الروم بعد العشرين والثلثمائة ، أو فيها .

وقد كان للروم في تخوم أرضهم فيما يلي من ذكرنا من هذه الأجناس الأربعة مدينة عظيمة يونانية يقال لها ولندر ، فيها خلق من الناس ومنعة بين الجبال والبحر ، فكل من فيها مانع لمن ذكرنا من الأمم . ولم يكن لهؤلاء الترك سبيل الى أرض الروم لمنع الجبال والبحر إياهم ، ومن في هذه المدينة .

وكان بين هؤلاء الأجناس حروب لخلاف وقع بينهم على رأس رجل مسلم تاجر من

أرض اردبيل كان نازلا على أرض بعضهم ، فاستضافه ناس من الجبل الآخر . فاختلفت الكلمة ، وأغار من في ولندر من الروم على ديارهم وهم عنها خلوف ، فسبوا كثيرا من الذرية ، وساقوا كثيرا من الأموال .

ونمي ذلك اليهم وهم مشاغيل في حربهم ، فاجتمعت كلمتهم ، وتواهبوا ما كان بينهم من الدماء ، وعمد القوم جميعا نحو مدينة ولندر . فساروا اليها في نحو من ستين ألف فارس ، وذلك على غير احتفال منهم ولا تجمع ، ولو كان ذلك لكانوا في نحو من مائة الف فارس .

فلما نمي خبرهم الى أرمنوس ملك الروم في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) سير اليهم اثني عشر ألف فارس من المتنصرة على الخيول بالرماح في زي العرب ، وأضاف اليهم خمسين ألفا من الروم ، فوصلوا الى مدينة ولندر في ثمانية أيام ، وعسكروا وراءها ، ونازلوا القوم . وقد كانت الترك قد قتلت من أهل ولندر خلقا كثيرا من الناس ، وامتنع أهلها بسورهم الى أن أتاهم هذا المدد .

ولما صح عند الملوك الأربعة من سار اليهم من المتنصرة والروم ، بعثوا الى بلادهم فجمعوا من كان قبلهم من تجار المسلمين ممن يطرأ الى بلادهم من نحو بلاد الخزر والباب واللان وغيرهم ، وفي هؤلاء الأجناس الأربعة من قد أسلم ، وهم غير مخالطين لهم الا عند حروب الكفار .

فلما تصافّ القوم وبرزت المتنصرة أمام الروم خرج اليهم من كان قبل الترك من التجار المسلمين فدعوهم الى ملة الاسلام ، وأنهم ان دخلوا في أمان الترك أخرجوهم من بلادهم الى أرض الاسلام . فأبوا ذلك .

وتواقف الفريقان في ذلك الوقت ، فكانت للمتنصرة والروم على الترك ، لأنهم كانوا من الكثرة أضعاف الترك ، وباتوا على مصافهم .

وتشاور ملوك الترك الأربعة ، فقال لهم ملك بجناك : قلدوني التدبير في غداة غد ، فأنعموا له بذلك .

فلما أصبح جعل في جناح الميمنة كراديس كثيرة كل كردوس منها ألف ، وكذلك في جناح الميسرة .

فلما تصافّ القوم خرجت الكراديس من ناحية الميمنة فرشقت في قلب الروم فصارت الى الميسرة ، وخرجت كراديس الميسرة فرشقت في قلب الروم فصارت الى موضع من خرج من جناح الميمنة . واتصل الرمي ، واتصلت الكراديس كالرحى ، والقلب والميمنة والميسرة

للترك ثابتة ، والكراديس تعمل عليها في اللفيق .

وذلك أن من خرج من كراديس الترك من جناح ميمنتهم كان يبتدىء فيرمي في جناح ميسرة الروم ويمر بميمنتهم فيرمي وينتهي الى القلب .

وما يخرج من كراديسهم من جناح الميسرة يرمي في جناح ميمنة الروم ، وينتهي الى الميسرة فيرمي ، وينتهي الى القلب فيرمي ، فيكون ملتقى الكراديس في القلب دائرا على ما وصفنا .

فلما نظرت المتنصرة والروم الى ما لحقهم من تشوش صفوفهم وتواتر الرمي عليهم ، حملوا على القوم مشوشين في مصافهم فصادفوا صفوف الترك ثابتة فأخرجت لهم الكراديس ، فرشقتهم الترك كلها رشقا واحدا . فكان ذلك الرشق سبب هزيمة الروم .

وعقبهم الترك بعد الرشق بالحملة على صفوفهم وهم غير متشوشين عما كانوا عليه من التعبئة وركضت الكراديس من اليمين والشمال . وأخذ القوم السيف ، واسود الأفق ، وكثر صياح الخيل ، فقتل من الروم والمتنصرة نحو من ستين ألفا ، حتى كان يصعد الى سور المدينة على جثثهم .

فافتتحت المدينة وأقام السيف يعمل فيها أياما . وسبي أهلها ، وخرج عنها الترك بعد ثلاثة أيام يؤمون القسطنطينية ، ثم توسطوا العمائر والمروج والضياع قتلا وأسرا وسبيا ، حتى نزلوا على سور القسطنطينية ، فأقاموا عليها نحوا من أربعين يوما يبيعون المرأة والصبي منهم بالخرقة والثوب من الديباج والحرير . وبذلوا السيف في الرجال فلم يبقوا على أحد منهم ، وربما قتلوا النساء والولدان .

وشنوا الغارات في تلك الديار ، فاتصلت غاراتهم بأرض الصقالبة ورومية ، ثم اتصلت غاراتهم في هذا الوقت الى نحو بلاد الأندلس والافرنجة والجلالقة . فغارات من ذكرنا من الترك متصلة الى أرض القسطنطينية وما ذكرنا من الممالك الى هذه الغاية .

فلنرجع الآن الى ذكر جبل القبخ والسور والباب والأبواب ، اذ كنا قد ذكرنا جملا من أخبار الأمم القاطنة في هذا الصقع .

الابخاز

فمن ذلك أن أمة تلي بلاد اللان يقال لها الأبخاز منقادة الى دين النصرانية ، وملك اللان مستظهر عليهم . وهم متصلون بجبل القبخ .

ثم يلي ملك الأبخاز ملك الجورية ، وهي أمة عظيمة منقادة الى دين النصرانية تدعى خزران . ولها ملك في هذا الوقت يقال له الطبيعي . وفي مملكة هذا الطبيعي موضع يعرف بمسجد ذي القرنين .

وكانت الأبخاز والخزرية تؤدي الجزية الى صاحب ثغر تفليس منذ فتحت تفليس وسكنها المسلمون الى أيام المتوكل ، فانه كان بها رجل يقال له اسحاق بن اسماعيل ، وكان مستظهرا بمن معه من المسلمين على من حوله من الأمم ، وهم منقادون الى طاعته وأداء الجزية اليه .

وعلا أمر من هناك من الأمم حتى بعث المتوكل بعثا فنزل على ثغر تفليس ، وأقام عليها محاربا حتى افتتحها بالسيف ، وقتل اسحاق بن اسماعيل ، لأن اسحاق بن اسماعيل كان متغلبا على الناحية .

وكانت له أخبار يطول ذكرها ، وهي مشهورة في أهل ذلك الصقع وغيرهم ممن عني بأخبار العالم . وأراه رجلا من قريش من بني أمية أو مولى لاحقا .

فانخرقت هيبة المسلمين من ثغر تفليس من ذلك الوقت الى هذه الغاية ، فامتنع من جاورهم من الممالك من الإذعان لهم بالطاعة ، واقتطعوا الأكثر من ضياع تفليس وانقطع الوصول من بلاد الاسلام الى ثغر تفليس بين هؤلاء الأمم من الكفار ، اذ كانت محيطة بذلك الثغر ، وأهلها ذوو قوة وبأس شديد ، وان كان ما ذكرنا من الممالك محيطا بهم .

مملكة الصمصخية

ثم تلي مملكة خزران مملكة يقال لها الصمصخية ، نصارى ، وفيهم جاهلية لا ملك لهم .

مملكة الصنارية

ثم تلي مملكة هؤلاء الصمصخية بين ثغر تفليس وقلعة باب اللان ، المقدم ذكرها ، مملكة يقال لها الصنارية ، وملكهم يقال له كرسكوس ، هذا الاسم الأعم لسائر ملوكهم ، وينقادون الى دين النصرانية .

وهؤلاء النصرانية يزعمون أنهم من العرب من نزار بن معد ، من مضر ، وأنهم فخذ من عقيل سكنوا هنالك من قديم الزمان ، وهم هناك مستظهرون على كثير من الامم .

ورأيت ببلاد مأرب من أرض اليمن أناسا من عقيل مخالفة لمذحج ، لا فرق بينهم وبين أحلافهم لاستقامة كلمتهم ، فيهم خيل كثيرة ومنعة .

وليس في اليمن كلها قوم من نزار بن معد غير هذا الفخذ من عقيل ، الا ما ذكر من ولد أنمار بن نزار بن معد .

ودخولهم في اليمن حسب ما ورد به الخبر ، وهو ما كان من خبر جرير بن عبد الله البجلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وما كان من خبر بجيلة .

والصنارية يزعمون أنهم افترقوا في قديم الزمان هم ومن سمينا من عقيل ببلاد مأرب في خبر طويل .

مملكة شكين

ثم تلي مملكة الصنارية مملكة شكين ، وهم نصارى وفيهم خلق من المسلمين من التجار وغيرهم من ذوي المهن . ويقال لمكهم في هذا الوقت المؤرخ به كتابنا آزر بن نبيه بن مهاجر .

مملكة قيلة

ثم تليهم مملكة قيلة ، وما حوت المدينة منها مسلمون ، وما حولها من العمائر والضياع نصارى . ويقال لملكهم في هذا الوقت المؤرخ به كتابنا هذا عنبسة الأعور ، وهو مأوى اللصوص والصعاليك والدعار .

مملكة الموقان

ثم تلي هذه المملكة مملكة الموقان ، وهي التي قدمنا ذكرها ، وأنها متغلب عليها ، وأنها مضافة الى مملكة شروان شاه . وليس هذا البلد المعروف بالموقانية هو الملك الذي على ساحل بحر الخزر .

وقد كان محمد بن يزيد المعروف بشروان شاه في هذا الوقت ملك الايران شاه هو ومن سلف من آبائه .

وكان ملك شروان شاه علي بن الهيثم ، فلما هلك علي تغلب محمد علي شروان شاه ، على حسب ما ذكرنا آنفا ، بعد أن قتل عمومة له واحتوى على ما ذكرنا من الممالك . وله قلعة لا يذكر في قلاع العالم أحسن منها في جبل القبخ .

وللباب أخبار كثيرة من أخبار الأبنية العجيبة التي بناها كسرى بن قباذ بن فيروز ، وهو أبو كسرى أنو شروان ، في الموضع المعروف بالمسقط من المدينة بالحجارة والحيطان التي بناها ببلاد شروان المعروف بسور الطين وسور الحجارة المعروف بالبرمكي وما يتصل ببلاد برذعة . . أعرضنا عن ذكرها اذ كنا قد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا .

وأما نهر الكر فيبتدىء من بلاد خزران من مملكة جرجين ، ويمر ببلاد ابخاز حتى يأتي ثغر تفليس ، ويشق في وسطه ، ويجري في بلاد السياوردية حتى ينتهي على ثمانية أميال من برذعة ، ويجري الى برداج من أعمال برذعة .

ثم يصب فيه مما يلي الصنارة نهر الرس ، ويظهر من أقاصي بلاد الروم من نحو مدينة طرابزندة حتى يجيء الى الكر ، وقد صار فيه نهر الرس ، فيصب في بحر الخزر . ويجري

الرس بين بلاد البدين ، وهي بلاد بابك الخرمي ، من أرض اذربيجان وجبل أبي موسى من بلاد الران ، ويمر ببلاد ورثان ، وينتهي الى حيث وصفنا .

وقد أتينا على وصف هذه الأنهار أيضا ، والنهر المعروف بأسبيذروج (وتفسير ذلك النهر الابيض على التقديم والتأخير بين اللغتين وهي الفارسية والعربية) . وممره وجريانه في أرض الديلم نحو قلعة سلار . وهو ابن أسوار الديلمي بعض ملوك الديلم وقد ظهر في هذا الوقت المؤرخ به كتابنا تغلب ببلاد أذربيجان . ثم يمر هذا النهر من الديلم الى الجيل ، ويصب فيه نهر آخر في بلاد الديلم يقال له : شاهان روذ ، فينتهي مصب الجميع الى بحر الجيل ، وهوبحر الديلم والخزر وغيرهم ممن ذكرنا من الأمم المحيطة بهذا البحر .

وعلى هذه الأنهار أكثر هؤلاء الديلم والجيل الذين قد ظهروا وتغلبوا على كثير من الأرض .

ملوك العالم

فاذ قد قدمنا من أخبار بلاد جبل القبخ وما فيه وما حوله من الأمم وأخبار الباب والأبواب وبحر الخزر . فلنذكر الآن ملوك السريان ، وهم أول من يعد في كتب الزيجات والنجوم والتواريخ القديمة من ملوك العالم ، ثم ملوك الموصل ونينوي ، ثم ملوك بابل وهم الذين عمروا الأرض وشقوا الأنهار ، وغرسوا الأشجار ، وطعموا الثمار ، ومهدوا الوعر ، وسهلوا الطريق

ثم نتبع ذلك بالفرس الأولى ، وهم المعروفون بالخداهان الى ملك أفريدون .

ثم الاسكان الى دارا (وهو داريوس بن دارا) وهم السكنون ، ثم ملوك الطوائف ، ثم الفرس الثانية ، ثم اليونانيين ، ثم الروم . ونذكر من يتلوهم من ملوك العرب والأمم والسودان ومصر والاسكندرية وغير ذلك من بقاع الأرض ان شاء الله تعالى .

ذكر ملوك السريانيين
ولمع من أخبارهم

ذكر أهل العناية بأخبار ملوك العالم أن أول الملوك ملوك السريانيين بعد الطوفان ، وقد تنوزع فيهم وفي النبط : فمن الناس من رأى أن السريانيين هم النبط ، ومنهم من رأى أنهم اخوة لودماش بن نبيط ، ومنهم من رأى غير ذلك .

وكان أول من ملك منهم رجل يقال له « شوسان » وكان أول من وضع التاج على رأسه في تاريخ السريانيين والنبط . وانقادت له ملوك الأرض ، وكان ملكه ست عشرة سنة باغيا في الأرض ، مفسدا للبلاد ، سفاكا للدماء .

ثم ملك ولد له يقال له « بربر » وكان ملكه الى أن هلك عشرين سنة .

ثم ملك « سماسير » بن آوت ، سبع سنين .

ثم ملك بعده « أهريمون » عشر سنين ، فخط الخطط ، وكور الكور ، وجد في أمره ، واتقان ملكه ، وعمارة أرضه . فلما استقامت له الأحوال وانتظم له الملك بلغ بعض ملوك الهند ما عليه ملوك السريانيين من القوة وشدة العمارة ، وانهم يحاولون الممالك .

وقد كان هذا الملك من ملوك الهند غالبا على ما حوله من ممالك الهند ، وانقادت الى سلطانه ، ودخلت في أحكامه . وقيل : ان ملكه كان مما يلي بلاد السند والهند .

فسار نحو بلاد بسط وغزنين ولعس وبلاد الداور على النهر المعروف بنهر الهرمند ، وهو نهر سجستان ، ينتهي جريانه على أربع فراسخ منها .

وهذا النهر عليه أهل سجستان وضياعهم ونخلهم وجبالهم ومتنزهاتهم في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) .

وهذا النهر يعرف بنهر بسط ، وتجري فيه السفن من هناك الى سجستان فيها الأقوات وغير ذلك ، ومن بسط الى سجستان نحو من مائة فرسخ . وبلاد سجستان هي بلاد الرياح ، وهو البلد الموصوف بأن الريح به تدير الأرحية وتسقي الماء من الآبار وتسقي الجنان . وليس في الدنيا بلد ، والله أعلم ، أكثر منه استعمالا للرياح .

نهر الهرمند

وقد تنوزع في مبدأ هذا النهر المعروف بنهر الهرمند : فمن الناس من رأى أنه من عيون بجبال السند والهند ، ومنهم من رأى أن مبدأه من مبدأ نهر الكنك ، وهو نهر الهند ، ويمر بكثير من جبال السند .

وهو نهر حاد الانصباب والجريان ، عليه يعذب أكثر الهند أنفسها بالحديد وتغرقها

زهدا في هذا العالم ورغبة في النقلة عنه .

وذلك أنهم يقصدون موضعا في أعالي هذا النهر المعروف بالكنك ، وهناك جبال عالية ، وأشجار عادية ، ورجال جلوس ، وحدائد وسيوف منصوبة على ذلك الشجر ، وقطع من الخشب .

فتأتيهم الهند من الممالك النائية والبلدان القاصية ، فيسمعون كلام أولئك الرجال المرتبين على هذا النهر وما يقولون من تزهيدهم في هذا العالم والترغيب فيما سواه ، فيطرحون أنفسهم من أعالي تلك الجبال العالية على تلك الأشجار العادية والسيوف والحدائد المنصوبة ، فيتقطعون قطعا ، ويصيرون الى هذا النهر أجزاء .

وما ذكرنا فموصوف عنهم وما يفعلون على هذا النهر كذلك .

وصف نوع عجيب من الشجر

وهناك شجر من احدى عجائب العالم ونوادره والغرائب من نباته ، يظهر من الأرض أغصان مشتبكة من أحسن ما يكون من الشجر والورق ، فتستقيم في الجو كأبعد ما يكون من طوال النخل . ثم ينحني جميع ذلك منعكسا فيعود في الأرض مندسا ، ويهوي في قعرها سفلا على المقدار الذي ارتفع به في الهواءْ صعدا ، حتى يغيب عن الأبصار .

ثم تظهر أغصان بادئة على حسب ما وصفنا في الأول فتذهب صعدا ، ثم تنقطر منعكسة ، ولا فرق بين المقدار الذي يذهب منها في الهواء ويتسع في الفضاء وبين ما يغيب منه تحت الأرض ويتوارى تحت الثرى .

فلولا أن الهند قد وكلت بقطعه من يراعيه من أمره لأمر يذكرونه ، وخطر في المستقبل يصفونه ، لطبق على تلك البلاد ولغشى تلك الأرض .

ولهذا النوع من الشجر أخبار يطول ذكرها ، يعرفها من طرأ الى تلك البلاد ورآها ، أو نمي اليه خبرها .

أنواع من تهذيب الهند أنفسهم

والهند تعذب أنفسها على ما وصفنا بأنواع العذاب من دون الأمم ، وقد تيقنت أن ما ينالها من النعيم في المستقبل مؤجلا لا يكون بغير ما أسلفته من تعذيب أنفسها في هذه الدار معجلا .

ومنهم من يصير الى باب الملك يستأذن في احراقه نفسه ، فيدور في الأسواق وقد أججت له النار العظيمة وعليها حن قد وكل بايقادها .

ثم يسير في الأسواق وقدامه الطبول والصنوج ، وعلى بدنه أنواع من خرق الحرير قد

مزقها على نفسه ، وحوله أهله وقرابته ، وعلى رأسه اكليل من الريحان ، وقد قشر جلده عن رأسه ، وعليها الجمر ، وعليها الكبريت والسندروس .

فيسير وهامته تحترق وروائح دماغه تفوح وهو يمضغ ورق التنبول وحب الفوفل .

والتنبول في بلادهم ورق ينبت كأصغر ما يكون من ورق الأترج ، يمضغ هذا الورق بالنورة المبلولة مع الفوفل . وهو الذي غلب على أهل مكة وغيرهم من بقية أهل الحجاز واليمن في هذا الوقت مضغه بدلا من الطيب ، ويكون عند الصيادلة للورم وغير ذلك .

وهذا اذا مضغ على ما ذكرنا بالورق والنورة شد اللثة ، وقوى عمود الأسنان ، وطيب النكهة ، وأزال الرطوبة المؤذية ، وشهى الطعام ، وبعث على الباه ، وحمر الأسنان حتى تكون كأحمر ما يكون من حب الرمان ، وأحدث في النفس طربا وأريحية ، وقوى البدن ، وأثار من النكهة روائح طيبة خمرة .

والهند خواصها وعوامها تستقبح من أسنانه بيض ، وتجتنب من لا يمضغ ما وصفنا .

فاذا طاف هذا المعذب لنفسه بالنار في الأسواق وانتهى الى تلك النار وهو غير مكترث ولا متغير في مشيته ولا متهيب في خطوته ، ففيهم من اذا أشرف على النار وقد صارت جمرا كالتل العظيم يتناول بيده خنجرا - ويدعى الجريء عندهم - فيضعه في لبته .

وقد حضرت ببلاد صيمور من بلاد الهند من أرض اللار من مملكة البلهرا ، وذلك في سنة أربع وثلثمائة ، والملك يومئذ على صيمور المعروف بحاج ، وبها يومئذ من المسلمين نحو من عشرة آلاف قاطنين بياسرة وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداديين وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تأهل وقطن في تلك البلاد ، وفيهم خلق من وجوه التجار مثل موسى بن اسحاق الصندالوني ، وعلى الهزمة يومئذ أبو سعيد بن زكريا .

وتفسير الهزمة يراد به رئاسة المسلمين يتولاها رجل منهم عظيم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة اليه .

ومعنى قولنا البياسرة يراد به من ولدوا من المسلمين بأرض الهند ، يدعون بهذا الاسم ، واحدهم بيسر ، وجميعهم بياسرة . . .

فرأيت بعض فتيانهم وقد طاف على ما وصفنا في أسواقهم ، فلما دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقه ، ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده فجذب منها قطعة وهو يتكلم فقطعها بالخنجر ، فدفعها الى بعض اخوانه تهاونا بالموت ولذة بالنقلة . . ثم هوى بنفسه في النار .

واذا مات الملك من ملوكهم أو قتل نفسه حرق خلق من الناس أنفسهم لموته ، يدعون

هؤلاء البلانجرية ، واحدهم بلانجري ، وتفسير ذلك المصادق لمن يموت ، فيموت بموته ، ويحيا بحياته .

وللهند أخبار عجيبة تجزع من سماعها النفس من أنواع الآلام والمقاتل التي تألم عند ذكرها الأبدان ، وتقشعر منها الأبشار . وقد أتينا على كثير من عجائب أخبارهم في كتابنا « أخبار الزمان » .

فلنرجع الآن الى خبر ملك الهند ومسيره الى بلاد سجستان ، وقصده مملكة السريانيين ونعدل عما احتذينا من أخبار الهند ، فنقول :

كان هذا الملك من ملوك الهند يقال له زنبيل ، وكل ملك يلي هذا البلد من أرض الهند يسمى بهذا الاسم زنبيل الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) .

وكان بين الهند وملوك السريانيين حروب عظام نحو من سنة ، فقتل ملك السريانيين ، واحتوى ملك الهند على الصقع ، وملك جميع ما فيه . فسار اليه بعض ملوك العرب ، فأتى عليه ، وملك العراق ، ورد ملك السريانيين ، فملكوا عليهم رجلا منهم يقال له « تستر » وكان ولد المقتول ، فكان ملكه الى أن هلك ثماني سنين .

اهريمون

ثم ملك بعد « أهريمون » وكان ملكه اثنتي عشرة سنة .

هوريا

ثم ملك بعده ابن يقال له « هوريا » فزاد في العمارة ، وأحسن في الرعاية ، وغرس الأشجار ، وكان ملكه الى أن هلك اثنتين وعشرين سنة .

ماروب

ثم ملك بعده « ماروب » واستولى على الملك ، وكان ملكه مدة خمس عشرة سنة ، وقيل : ثلاثة وعشرين سنة .

ازور وخلنجاس

ثم ملك بعده « أزور » و « خلنجاس » ، ويقال : انهما كانا أخوين ، فأحسنا السيرة ، وتعاضدا على الملك . ويقال : ان أحد هذين الملكين كان جالسا ذات يوم اذ نظر في أعلى قصره الى طائر قد أفرخ هناك ، واذا هو يضرب بجناحيه ويصيح .

فتأمل الملك ذلك فنظر الى حية تنساب الى الوكر صاعدة لأكل فراخ الطائر . فدعا الملك بقوس فرمى به الحية فصرعها ، وسلمت فراخ الطائر .

فجاء الطائر بعد هنيهة يصفق بجناحيه وفي منقاره حبة وفي مخالبيه حبتان ، وجاء الى

الملك وألقى ما كان في منقاره ومخاليبه ، والملك يرمقه ، فوقع الحب بين يدي الملك . فتأمله وقال : لأمر ما ألقى هذا الطائر ما ألقى . لا شك أنه أراد مكافأتنا على فعلنا به .

فأخذ الحب وجعل يتأمله فلم يعرف مثله في اقليمه ، فقال جليس من جلسائه حكيم ، وقد نظر الى حيرة الملك في الحب : أيها الملك ، ينبغي أن يودع النبات أرحام الأرض فانها تخرج كنه ما فيه ، فنقف على الغاية منه ، وأداء ما في مخزونه ومكنونه .

فدعا بالأكرة وأمرهم بزرع الحب ومراعاته وما يكون منه . فزرع ، فنبت وأقبل يلتف بالشجر ثم حصرم وأعنب ، وهم يرمقونه ، والملك يراعيه . الى أن انتهى في البلوغ وهم لا يقدمون على ذوقه خوفا أن يكون متلفا .

فأمر الملك بعصر مائه ، وأن يودع في أواني ، وافراد حب منه وتركه على حالته . فلما صار في الآنية عصيرا هدر وقذف بالزبد وفاحت له روائح عبقة .

فقال الملك : عليّ بشيخ كبير فان . فأتي به ، فلـدد له من ذلك في انـاء فرآه لونـا عجيبا ، ومنظرا كاملا ، ولونا ياقوتيا أحمر ، وشعاعا نيرا .

اول من شرب الخمر

ثم سقوا الشيخ فما شرب ثلاثا حتى مال ، وأرخى من مآزره الفضول ، وصفق بيديه وحرك رأسه ، ووقع برجليه على الأرض ، فطرب ، ورفع عقيرته يتغنى .

فقال الملك : هذا شراب يذهب بالعقل ، وأخاف أن يكون قاتـلا . ألا ترى الى الشيخ كيف عاد في حال الصبا وسلطان الدم وقوة الشباب ؟

ثم أمر الملك به فزيد ، فسكر الشيخ فنام . فقال الملك : هلك .

ثم ان الشيخ أفاق وطلب الزيادة من الشراب ، وقال : لقـد شربتـه فكشف عنـي الغموم ، وأزال عن ساحتي الأحزان والهموم ، وما أراد الطائر الا مكافأتكم بهذا الشراب الشريف .

فقال الملك : هذا أشرف شراب أهل الأرض .

وذلك أنه رأى شيخا قد حسن يومه ، وقوي حيله ، وانبسط في نفسه ، وطرب في حال طبيعة الحزن وسلطان البلغم ، وجاد هضمه ، وجاءه النوم ، وصفا لونه ، واعترته أريحية .

فأمر الملك أن يكثر من غرس الكرم ، فكثر الغرس للكرم . وأمر أن يمنع العامة من ذلك ، وقال : هذا شراب الملوك ، وأنا السبب فيه ، فلا يشربه غيري .

فاستعمله الملك بقية أيامه ، ثم نما في أيدي الناس واستعملوه .

وقد قيل : ان نوحا أول من زرعها . وقد ذكرنا الخبر حين سرقها ابليس منه حين خرج من السفينة واستوى على الجودي في كتاب « المبدأ » وغيره من الكتب .

ذكر ملوك الموصل ونينوى وهم الأثوريون ولمع من أخبارهم وسيرهم

نينوى : هي مقابلة الموصل ، وبينهما دجلة ، وهي بين قردى ومازندى من كور الموصل .

ونينوى في وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) ، مدينة خراب فيها قرى ومزارع لأهلها ، والى أهلها أرسل اللّه يونس بن متى ، وآثار الصور فيها بينة واضحة ، وأصنام من حجارة مكتوبة على وجوهها . وظاهر المدينة تل عليه مسجد ، وهناك عين تعرف بعين يونس النبي عليه السلام ، ويأوي الى هذا المسجد النساك والعباد والزهاد .

بسوس

وكان أول ملك بنى هذه المدينة ، وسور سورها ، ملك عظيم قد دانت له الملوك ودانت له البلاد ، ويقال له بسوس بن بالوس ، فكانت مدة ملكه اثنتين وخمسين سنة .

وكان بالموصل ملك آخر محارب لهذا الملك ، وكانت بينهما حروب ووقائع .

ويقال ان ملك الموصل كان في ذلك العصر سابق بن مالك رجل من اليمن .

سميرم

ثم ملك أهل نينوى عليهم بعده امرأة ، يقال لها « سميرم » ، فأقامت عليهم أربعين سنة تحارب ملوك الموصل . وملكها من شاطىء دجلة الى بلاد ارمينية ، ومن بلاد أذربيجان الى حد الجزيرة والجودي ، وجبل التيتل الى بلاد الزوزان ، وغيرها من ارمينية .

وكان أهل نينوى ممن سمينا نبيطا وسريانيين ، والجنس واحد ، واللغة واحدة ، وانما بان النبط عنهم بأحرف يسيرة في لغتهم ، والمقالة واحدة .

الأرسيس

ثم ملك بعد هذه المرأة الأرسيس ، ويقال انه كان ابنها ، وكان ملكه نحوا من أربعين سنة . ورجعت اليه الأرمن ، وقد كانت الحروب بينهم سجالا في ملكه ، ثم غلبوا على أهل نينوى ، فكانت الحروب بين أهل ارمينية وبين ملوك الموصل .

ويقال ان هذا الملك آخر ملوك نينوى ، وقيل انه ملك بعده عشرون ، وكان يؤدي الضريبة الى ملك أرمينية .

ولهؤلاء الملوك أخبار وسير وحروب قد أتينا على جميعها في كتابنا « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط .

ذكر ملوك بابل ، وهم ملوك النبط وغيرهم المعروفين بالكلدانيين

ذكر جماعة من أهل التبصر والبحث ، ومن ذوي العناية بأخبار ملوك العالم أن ملوك بابل هم اول ملوك العالم الذين مهدوا الأرض بالعمارة ، وأن الفرس الأولى انما أخذت الملك من هؤلاء ، كما أخذت الروم الملك من اليونانيين .

نمروذ الجبار

وكان أولهم « نمروذ » الجبار ، وكان ملكه نحوا من ستين سنة . وهو الذي احتفر أنهارا بالعراق ، آخذة من الفرات ، فيقال : ان من ذلك نهر كوثى بطريق من طرق الكوفة ، وهو بين قصر ابن هبيرة وبغداد ، لا خفاء لخبره وشهرته .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب كثيرا من أنهار العراق ، عند ذكرنا لملوك الفرس الأولى والثانية ، وغيرهم من ملوك الطوائف ، وانما الغرض في هذا الكتاب التلويح بتاريخ ملوك العالم ، والتنبيه على ما سلف من كتبنا .

بقية ملوك بابل

وملك بعده « بولوس » نحوا من سبعين سنة ، وكان عظيم البطش ، متجبرا في الأرض ، وكانت في أيامه حروب .

ثم ملك بعده « فيومنوس » نحوا من مائة سنة ، باغيا في الأرض على أهلها .

ثم ملك بعده « سوسوس » نحوا من تسعين سنة .

ثم ملك بعده « كورش » نحوا من خمسين سنة .

ثم ملك بعده « أزفر » نحواً من عشرين سنة .

ثم ملك بعده « سملا » نحوا من أربعين سنة . وقيل أكثر من ذلك .

ثم ملك بعده « بوسميس » نحوا من سبعين سنة .

ثم ملك بعده « أنيوس » نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده « أفلاوس » خمس عشرة سنة .

ثم ملك بعده « الحلوس » نحوا من أربعين سنة .

ثم ملك بعده « أومرنوس » نحو ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده « كلوس » نحو ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده « سيفروس » نحو أربعين سنة ، وقد قيل دون ذلك ، وهلك .

ثم ملك بعده « مارنوس » نحو ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده « وسطاليم » أربعين سنة .

ثم ملك بعده « أمنوطوس » نحو ستين سنة .

ثم ملك بعده « تباوليوس » نحوامن خمسين سنة .

ثم ملك بعده « العداس » نحو ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده « أطيروس » نحو ستين سنة .

ثم ملك بعده«ساوساس » نحو عشرين سنة .

ثم ملك بعده « فاربنوس » نحو خمسين سنة . وقيل خمسا وأربعين سنة .

ثم ملك بعده « سوسا أدرينوس » نحو أربعين سنة ، فغزاهم ملك من ملوك فارس ، من عقب دارا .

ثم ملك بعده « مسروس » نحو خمسين سنة .

ثم ملك بعده « طاطايوس » نحو ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده « طاطاوس » نحو أربعين سنة .

ثم ملك بعده « أفروس » نحو أربعين سنة .

ثم ملك بعده « لاوسيس » نحو خمسين سنة . وقيل خمسا واربعين سنة .

ثم ملك بعده « أفريقريس » نحو ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده« منطوروس » نحوا من عشرين سنة .

ثم ملك بعده « قولا قسيا » نحوا من ستين سنة .

ثم ملك بعده « هنقلس » خمسا وثلاثين سنة ، وقيل خمسين سنة ، وكانت له حروب مع ملك من ملوك الصابئة . . . كذلك ذكر في كتاب التاريخ القديم .

ثم بعده « مرجد » نحو ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده « مردوح » أربعين سنة ، وقيل : أقل من ذلك .

ثم ملك بعده « سنجاريب » ثلاثين سنة ، وهو الذي اتى بيت المقدس .

ثم ملك بعده « نشوه منوشا » ثلاثين سنة ، وقيل أقل من ذلك .

ثم ملك بعده بختنصر الجبار خمسا وأربعين سنة .

ثم ملك بعده « فرمودوج » نحو سنة .

ثم ملك بعده « بنطسفر » نحو ستين سنة ، وقيل أقل من ذلك .

ثم ملك بعده « منسوس » نحو ثماني سنين ، وقيل عشرا .

ثم ملك بعده « معوسا » سنة وقيل أقل من ذلك .

ثم ملك بعده « داونوس » احدى وثلاثين سنة ، وقيل أكثر من ذلك .

ثم ملك بعده « كسرجوس » عشرين سنة ، ثم ملك بعده « مرطياسة » تسعة أشهر وقتل .

ثم ملك « فنحست » احدى وأربعين سنة .

ثم ملك بعده « أحترست » ثلاث سنين ، وقيل سنتين وشهرين .

ثم ملك بعده « شعرباس » سنة ، وقيل تسعة أشهر .

ثم ملك بعده « داريوس » عشرين سنة ، وقيل تسعة عشرة سنة .

ثم ملك بعده « أطحست » تسعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده « دارو اليسع » خمس عشرة سنة ، وقيل عشر سنين .

***

قال المسعودي : فهؤلاء الملوك الذين أتينا على ذكرهم وأسمائهم ومدة مملكتهم وقد رسمت أسماؤهم هكذا في كتب التواريخ السالفة .

اعمال ملوك بابل

وهم الذين شيدوا البنيان ومدنوا المدن ، وكوروا الكور ، وحفروا الأنهار ، وغرسوا الأشجار ، واستنبطوا المياه ، وأثاروا الأرضين ، واستخرجوا المعادن من الحديد والرصاص والنحاس وغير ذلك .

وطبعوا السيوف ، واتخذوا عدة الحرب ، وغير ذلك من الحيل والمكايد . ونصبوا قوانين الحرب بالقلب والميمنة والميسرة والأجنحة ، وجعلوا ذلك مثالا لأعضاء جسد الانسان .

ورتبوا لكل جزء نوعا من الأمة لا يوازيها غيرها :

فجعلوا أعلام القلب على صورة الفيل والتنين ، وما عظم من أجناس الحيوان .

وجعلوا أعلام الميمنة والميسرة على صورة السباع على حسب عظمها واختلافها في أنواعها .

وجعلوا في الأجنحة صور ما لطف من السباع كالنمر والذئب .

وجعلوا صور أعلام الكمناء على صور الحيات والعقارب ، وما خفي فعله من هوام الأرض .

وجعلوا ألوان كل نوع منها من السواد وغيره من الألوان الستة ، وهي السواد والبياض والصفرة والحمرة والخضرة ولون السماء .

بحث في الألوان

وقد ذكر قوم أن الألوان ثمانية على حسب الموضع المستحق لها ، ومنعوا أن تكون الحمرة تشوب شيئا من ذلك الا ما لطف من أجزائها داخلا في جملة الأكثر من أشباه الحيوان من تلك الأعلام .

وزعموا أن قضية القياس توجب أن تكون سائر أعلام الحرب حمراء ، اذ كانت أليق وأشكل بلون الدم ، وأكثر ملاءمة ، اذ كان لونها واحدا .

لكن منع من ذلك استعمالها في حال الزينة والطرب وأوقات السرور ، واستعمال النساء والصبيان لها ، وفرح النفوس بها ، وأوجب ترك ذلك .

وان حس البصر مشاكل للون الحمرة ، اذ كان من شأنه أنه اذا أدركها انبسط نوره في إدراكها ، واذا وقع البصر على اللون الأسود اجتمع نوره ولم ينبسط في إدراكه انبساطه في الحمرة .

وأن النسبة الواقعة بين بصر الناظر وبين لون الحمرة الاشتراك ، والمباينة بالضدية بين نور البصر ولون السواد .

وتكلم هؤلاء القوم في مراتب الألوان من الحمرة والسواد والبياض وغيرها ، ومراتب الأنوار ، وما وجه ذلك من أسرار الطبيعة ، والحد المشترك بين نورية حس البصر وبين لون الحمرة والبياض ، والضد المباين بين السواد وبين نور البصر ، دون سائر الألوان من الحمرة والخضرة والصفرة والبياض .

وتغلغل القوم في هذه المعاني الى ما علا من الأجسام السماوية من النيرين والخمسة ، واختلافها في ألوانها ، والى غير ذلك من الأشخاص العلوية .

وقد أتينا على ما قالوه من ذلك فيما سلف من كتبنا ، وأتينا على سير هؤلاء الملوك وأخبارهم واختلافهم في كتابنا « أخبار الزمان » ، وفي الكتاب الأوسط .

وقد ذهبت طائفة من الناس الى أن هؤلاء الملوك كانوا من النبط وغيرهم من الأمم ، وأنه كان يرأس بعضهم غيره من ملوك الفرس ممن كان مقيما ببلخ ، والأشهر ما قدمناه .

وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب لمعا من أخبار النبط وأنسابهم .

ذكر ملوك الفرس الأولى
وجمل من أخبارهم وسيرهم

أصل الفرس

الفرس تخبر ـ مع اختلاف آرائها وبعد أوطانها وتباينها في ديارها وما ألزمته أنفسها من حفظ أنسابها ، ينقل ذلك باق عن ماض ، وصغير عن كبير ـ أن أول ملوكهم « كيومرث » . ثم تنازعوا فيه : فمنهم من زعم أنه ابن آدم ، والأكبر من ولده ، ومنهم من زعم ـ وهم الأقلون عددا ـ أنه أصل النسل وينبوع الذرء .

وقد ذهبت طائفة منهم الى أن كيومرث هو أميم بن لاوذ بن ارم بن سام بن نوح ، لأن أميا أول من حل بفارس من ولد نوح . وكان كيومرث ينزل بفارس .

والفرس لا تعرف طوفان نوح ، والقوم الذين كانوا بين آدم ونوح عليهما السلام كان لسانهم سريانيا ، ولم يكن عليهم ملك ، بل كانوا في مسكن واحد والله أعلم بذلك .

كيومرث اول الملوك

وكان كيومرث أكبر أهل عصره ، والمقدم فيهم ، وكان أول ملك نصب في الأرض فيما يزعمون .

وكان السبب الذي دعا أهل ذلك العصر الى اقامة ملك ونصب رئيس أنهم رأوا أكثر الناس قد جبلوا على التباغض والتحاسد والظلم والعدوان ، ورأوا أن الشرير منهم لا يصلحه الا الرهبة .

ثم تأملوا أحوال الخليقة ، وتصرف شأن الجسم ، وصورة الانسان الحساس الدراك ، فرأوا الجسم في بنيته وكونه قد رتب بخواص تؤدي الى معنى هو غيرها يوردها ويصدرها ويميزها بما تورده اليه من أخلاقها في مداركها ، وهو معنى في القلب . فرأوا صلاح الجسم بتدبيره ، وأنه متى فسد تدبيره فسد سائره ، ولم تظهر أفعاله المتقنة المحكمة .

فلما رأوا هذا العالم الصغير الذي هو جسد الانسان المرئي لا تستقيم أموره ولا تنتظم أحواله الا باستقامة الرئيس الذي قدمنا ذكره ، علموا أن الناس لا يستقيمون الا بملك ينصفهم ، ويوجه العدل عليهم ، وينفذ الأحكام على ما يوجبه العقل بينهم .

فساروا الى كيومرث بن لاوذ ، وعرفوه حاجتهم الى ملك وقيم وقالوا : أنت أفضلنا ، وأشرفنا ، وأكبرنا ، وبقية أبينا ، وليس في العصر من يوازيك . فرد أمرنا اليك ، وكن القائم فينا ، فانا تحت سمعك وطاعتك ، والقائلون بما تراه .

فأجابهم الى ما دعوه اليه ، واستوثق منهم بأكيد العهود والمواثيق على السمع والطاعة وترك الخلاف عليه .

فلما وضع التاج على رأسه ، وكان أول من ركب التاج على رأسه من أهل الأرض ، قام خطيبا وقال : « ان النعم لا تدوم الا بالشكر ، وانا نحمد الله على أياديه ، ونشكره على نعمه ، ونرغب اليه في مزيده ، ونسأله المعونة على ما دفعنا اليه ، وحسن الهداية الى العدل الذي به يجتمع الشمل ويصفو العيش ، فثقوا بالعدل منا ، وأنصفونا من أنفسكم نوردكم الى أفضل ما في هممكم ، والسلام » .

فلم يزل كيومرث قائما بالأمر ، حسن السيرة في الناس ، والحال آمنة ، والأمة ساكنة طول مدته الى ان مات .

ولهم في وضع التاج على الرأس أسرار يذكرونها أعرضنا عن ذكرها ، اذ كنا قد أتينا على ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط .

وذكروا أن كيومرث أول من أمر بالسكوت عند الطعام ، لتأخذ الطبيعة بقسطها فيصلح البدن بما يرد اليه من الغذاء ، وتسكن النفس عند ذلك ، فتدبر كل عضو من الأعضاء تدبيرا يؤدي الى ما فيه صلاحه من أخذ صفو الطعام ، فيكون الذي يرد الى الكبد وغيره من الأعضاء القابلة للغذاء ما يناسبها ، وما فيه صلاحها .

فان الانسان متى شغل عن طعامه بضرب من الضروب انصرف قسط من التدبير وجزء من التقدير الى حيث انصباب الهمة ووقوع الاشتراك ، فأضر ذلك بالأنفس الحيوانية والقوى الانسانية . واذا كان ذلك أدى الى مفارقة النفس الناطقة لهذا الجسد المرئي ، وفي ذلك ترك للحكمة ، وخروج عن الصواب .

ولهم في هذا الباب سر لطيف من أسرار السبب الذي بين النفس والجسم ، ليس هذا موضعه ، وقد أتينا على ذكره في الكتاب المترجم بـ « سر الحياة » وفي كتاب « الزلف » عند ذكرنا النفس الناطقة والنفس العلامة والنفس الحسية والمخيلة والنزاعية ، وما قال الناس في ذلك ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة وغيرهم .

وقد تنوزع في مقدار عمر كيومرث هذا ، فمن الناس من رأى أن عمره ألف سنة ، وقيل دون ذلك . وللمجوس في كيومرث هذا خطب طويل في أنه مبدأ النسل ، وأنه نبت من نبات الأرض ـ وهو الريباس ـ هو وزوجته ، وهما شابة ومنشابة وغير ذلك مما يفحش ايراده ، وما كان من خبره مع ابليس ، وقتله اياه وكان ينزل اصطخر فارس ، وكانت مدة ملكه أربعين سنة ، وقيل أقل من ذلك .

أوشهنج

ثم ملك بعده أوشهنج بن فروال بن سيامك ابن يرنيق بن كيومرث الملك . وكان أوشهنج ينزل الهند ، وكان ملكه أربعين سنة ، وقيل أكثر من ذلك . وقد تنوزع فيه ، فمنهم من رأى أنه أخ لكيومرث بن آدم ، ومنهم من رأى أنه ولد الملك الماضي .

طهمورث

ثم ملك بعده طهمورث بن نوبجهان بن أرفخشذ بن أوشهنج ، وكان ينزل سابور .

أول الصابئة

وظهر في سنة من ملكه رجل يقال له « بوداسف » أحدث مذاهب الصابئة .

وقال ان معالي الشرف الكامل ، والصلاح الشامل ، ومعدن الحياة ، في هذا السقف المرفوع ، وان الكواكب هي المدبرات والواردات والصادرات ، وهي التي بمرورها في أفلاكها وقطعها مسافات واتصالها بنقطة وانفصالها عن نقطة يتم ما يكون في العالم من الآثار : من امتداد الأعمار وقصرها ، وترك البسائط ، وانبساط المركبات ، وتتميم الصور ، وظهور المياه وغيضها . وفي النجوم السيارة وفي أفلاكها التدبير الأكبر ، وغير ذلك مما يخرج وصفه عن حد الاختصار والايجاز .

واحتذى به جماعة من ذوي الضعف في الآراء فيقال ان هذا الرجل أول من أظهر آراء الصابئة من الحرانيين والكيماريين . وهذا النوع من الصابئة مباينون للحرانيين في نحلتهم ، وديارهم بين بلاد واسط والبصرة من أرض العراق نحو البطائح والآجام .

فكان ملك طهمورث الى أن هلك ثلاثين سنة ، وقيل غير ذلك .

جمشيد

ثم ملك بعده أخوه « جمشيد » ، وكان ينزل بفارس . وقيل : انه كان في زمنه طوفان . وذهب كثير من الناس الى أن النيروز في أيامه أحدث وفي ملكه رسم ، على حسب ما نورده فيما يرد من هذا الكتاب .

كذلك ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى عن عمر المعروف بكسرى ، وكان هذا الرجل ممن اشتهر بعلم فارس وأخبار ملوكها حتى لقب بعمر كسرى .

وكان ملك جمشيد الى أن هلك ستمائة سنة ، وقيل تسعمائة سنة وستة أشهر ، وأحدث في الأرض أنواعا من الصناعات والأبنية والمهن ، وادعى الالهية .

بيوراسب

ثم ملك بعده بيوراسب بن أروادسب بن رستوان بن نياداس بن طاح بن قروال بن ساهر فرس بن كيومرث ، وهو الده آك .

وقد عربت أسماؤه جميعا فسماه قوم من العرب الضحاك ، وسماه قوم بهراسب وليس هو كذلك ، وانما اسمه على ما وصفنا بيوراسب . وقتل جمشيد الملك .

وقد تنوزع فيه : أمن الفرس كان أم من العرب ؟

فزعمت الفرس أنه منها ، وأنه كان ساحرا ، وأنه ملك الأقاليم السبعة ، وأن ملكه كان ألف سنة ، وبغى في الأرض وتمرد .

وللفرس فيه خطب طويل ، وأنه مقيد مغلل في جبل دنباوند بين الري وطبرستان ، وقد ذكرته شعراء العرب ممن تقدم وتأخر . وقد افتخر أبو نواس به ، وزعم أنه من اليمن ، لأن أبا نواس مولى لسعد العشيرة من اليمن ، فقال :

وكان منا الضحاك تعبده الـ جامل[1] والوحش في مساربها

ملك أفريدون

ثم ملك بعده « أفريدون » بن أثقابان بن جمشيد ملك الأقاليم السبعة ، فأخذ بيوراسب ، فقيده في جبل دنباوند على حسب ما ذكرنا .

المهرجان

وقد ذكر كثير من الفرس ومن عني بأخبارهم مثل عمر كسرى وغيره أن أفريدون جعل هذا اليوم الذي قيد فيه الضحاك عيدا له ، وسماه المهرجان ، على حسب ما نورده بعد هذا الموضع من هذا الكتاب ، وما قيل في ذلك .

وكانت دار مملكة أفريدون بابل ، وهذا الاقليم يسمى باسم قرية من قراه يقال لها بابل ، على شاطىء نهر من أنهار الفرات بأرض العراق ، على ساعة من المدينة المعروفة بجسر بابل ونهر النرس ، واليه تضاف الثياب النرسية .

وفي هذه القرية جب يعرف بجب دانيال النبي عليه السلام ، تقصده النصارى واليهود في أوقات من السنة في أعيادهم .

واذا أشرف الانسان على هذه القرية تبين فيها آثارا عظيمة من ردم وهدم وبنيان قد صارت كالروابي .

وذهب كثير من الناس الى أن بها هاروت وماروت ، وهما الملكان المذكوران في القرآن على حسب ما قص الله تعالى من تسمية هذه القرية ببابل .

---

(١) الجامل : جماعة الجمال .

وكان ملك أفريدون خمسمائة سنة ، وقيل أقل من ذلك ، وقيل أكثر . وقسم الأرض بين ولده الثلاثة . وقد قال في ذلك بعض الشعراء ممن سلف من أبناء الفرس بعد الاسلام يذكر ولد أفريدون الثلاثة :

وقسمنا ملكنا في دهرنا قسمة اللحم على ظهر وضم
وجعلنا الشام والروم الى مغرب الشمس الى الغطريف سلم
وأطوج جعل الترك له فبلاد الترك يحويها ابن عم
ولايران جعلنا عنوة فارس الملك وفزنا بالنعم

وللناس فيما ذكرنا خطب طويل ، وأن بلاد بابل أضيفت الى ولد أفريدون وهو ايراج ، وقتله أخوه في حياة أفريدون ، وهلك ، ولم يخلص له الملك فيعد في الملوك .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب كيفية اضافة هذا الاقليم الى ايراج ، واسقاطهم الجيم وجعلهم النون بدلا منها فقالوا : ايران شهر ، والشهر الملك .

ملك منوجهر

ثم ملك بعد أفريدون منوجهر بن ايران ابن أفريدون ، على حسب ما ذكرنا من التنازع في نسبه والحاقه بايران بن أفريدون . وكان ملكه عشرين سنة ، وكان ينزل ببابل وقد قيل انه كان في زمان موسى بن عمران ويوشع بن نون عليهما السلام .

وكان لمنوجهر حروب مع عميه اللذين قتلا أباه ، وهما أطوج وسلم . وقد أتينا على ذكر حروبهم فيما سلف من كتبنا .

ملك سهم

ثم ملك بعد منوجهر سهم بن أبان بن أنقبان بن يود بن منوجهر ، فنزل بابل ، وملك ستين سنة ، وقيل أكثر من ذلك . وكانت له حروب كثيرة وسير وسياسات كثيرة قد أتينا على ذكرها في كتابنا « أخبار الزمان » .

ملك فراسياب

ثم ملك بعده فراسياب بن أطوج بن ياسر بن رامي بن آرس بن بورك بن ساساسب ابن زسست بن نوح بن دوم بن سرور بن أطوج بن أفريدون الملك .

وكان مولد فراسياب ببلد الترك ، فلذلك غلط من غلط من أصحاب الكتب والتصنيفات في التاريخ وغيره فزعم أنه تركي .

وكان تملكه على ما غلب عليه من البلاد اثنتي عشرة سنة ، وعمره عند كثير من الناس أربعمائة سنة .

ولاثنتي عشرة سنة حلت من ملكه ظهر عليه زو بن بهاست بن كمجهور بن عداسة بن رايسريج بن راع بن ماسر بن يود بن منوجهر الملك ، فهزمه وقتل اصحابه بعد حروب كثيرة ، وعمر ما خربه فراسياب .

وقد تنوزع في المقدار الذي ملك فيه : فقيل ثلاث سنين ، وقيل أكثر من ذلك ، وكان مسكنه ببابل .

وللفرس كلام طويل في قتل فراسياب ، وكيفية قتله وحروبه ، وما كان بين الفرس والترك من الحروب والغارات ، وما كان من قتل سياوخش وخبر رستم بن دستان . . .

هذا كله مشروح في الكتاب المترجم بكتاب السكيكين ترجمة ابن المقفع من الفارسية الأولى الى العربية ، وخبر اسفنديار بن كشتاسب بن بهراسب وقتل رستم بن دستان له ، وما كان من قتل بهمن بن اسفنديار لرستم ، وغير ذلك من عجائب الفرس الأولى وأخبارها .

وهذا الكتاب تعظمه الفرس ، لما قد تضمن من خبر أسلافهم وسير ملوكهم ، وقد أتينا بحمدالله على كثير من أخبارهم فيما سلف من كتبنا .

وقد قيل : ان أول من نزل من الملوك ببلخ وانتقل عن العراق كيكاووس ، وقد كان سار نحو اليمن ، بعد أن كان له بالعراق تمرد على الله ، وبنيان بناه لحرب السماء . وكان ملك اليمن الذي سار اليه كيكاووس في ذلك الوقت شمر بن فريقس ، فخرج اليه شمر فأسره وحبسه في أضيق محبس ، فهويته ابنة لشمر يقال لها سعدى ، كانت تحسن اليه في خفية من أبيها ، والى من كان معه من أصحابه .

ومكث في محبسه أربع سنين ، حتى أسرى رستم بن دستان من بلاد سجستان سرية فيها أربعة آلاف ، فقتل ملك اليمن شمر بن فريقس ، واستنقذ كيكاووس ، ورده الى ملكه ، وسعدى معه .

فاعتلت عليه ، وأغرته بولده سياوخش ، حتى كان من أمره مع فراسياب التركي ما قد شهر من استئمانه اليه وتزوجه بابنته حتى حملت منه بكيخسرو، وما كان من قتل فراسياب لسياوخش بن كيكاووس ، وقتل رستم بن دستان لسعدى ، وأخذه بطائلة سياوخش فقتل من قتله من وجوه الترك .

وعند الفرس على ما في كتاب « السكيكين » أن كيخسرو كان قبله على الملك جده

لأبيه ، وهو كيكاووس ، ولم يعلم من هو ولم يكن لكيخسرو عقب ، فجعل الملك في بهراسف .

وهؤلاء القوم كانوا يسكنون بلخ ، وكانت دار مملكتهم ، وكان يدعى نهر بلخ (وهو جيحون) بلغتهم كالف ، وكذلك يسميه كثير من أعاجم خراسان في هذا الوقت بهذا الاسم .

فلم يزالوا كذلك الى أن صار الملك الى جاي ابنة بهمن بن اسفنديار بن يستاسف بن بهراسف ، فانتقلت الى العراق ، وسكنت نحو المدائن .

لهراسب

ثم كان بعد كيخسرو بن سياوخش بن كيكاووس الملك الى لهراسب بن قنوج بن كيمس بن كيناسس بن كيناسة بن كيقباذ الملك ، فعمر البلاد ، وأحسن السيرة لرعيته ، وشملهم عدله .

ولسنين خلت من ملكه نال بني اسرائيل منه محن ، وشتتهم في البلاد ، وكانت له معهم أقاصيص يطول ذكرها .

وذكر في بعض الروايات من أخبار الفرس أنه بنى بلخ الحسناء ، لما فيها من المياه والشجر والمروج .

وكان ملكه مائة وعشرين سنة ، وقد ذكر خبر مقتله مع الترك وما كان منهم في حصاره ومن أخذ بثأره بعد قتله في كتب قدماء الفرس .

بختنصر

وقد ذكر كثير ممن عني بأخبار الفرس أن بختنصر مرزبان العراق والمغرب كان من قبل هذا الملك . وهو الذي وطىء الشام ، وفتح بيت المقدس ، وسبى بني اسرائيل ، وكان من أمره بالشام والمغرب ما قد اشتهر . والعامة تسميه البخت ناصر .

وأكثر الأخباريين والقصاص يغالون في أخباره ، ويبالغون في وصفه . والمنجمون في زيجاتهم وأهل التواريخ في كتبهم يجعلونه ملكا برأسه ، وانما كان مرزبانا على ما وصفنا للملوك ممن ذكرنا . وتفسير مرزبان يراد به صاحب ربع من المملكة ، وقائد عسكر ، ووزيرا وصاحب ناحية من النواحي ، وواليها .

وقد كان حمل سبايا بني اسرائيل الى الشرق ، وتزوج منهن امرأة يقال لها دينارد ، فكانت سبب رد بني اسرائيل الى بيت المقدس .

وقيل ان دينارد أولدها لهراسب بن كشتاسب ، وقيل غير ذلك من الوجوه ، وان حماية من نسل بني اسرائيل من أمها .

وقيل : ان بهراسف قد كان أنفذ سنجاريب ـ وكان خليفته على العراق ـ الى حرب بني اسرائيل فلم يصنع شيئا . فعقب بعده بالبخت‌نصر .

وقيل في البخت نصر غير ما ذكرنا مما سنورده بعد هذا الموضع في ذكر ملك بهمن بن اسفنديار بن يستاسف بن بهراسف .

وقد أرخ بطليموس صاحب كتاب المجسطي تاريخ كتابه من عهد بخت نصر مرزبان المغرب ، وأرخ ثاون صاحب كتاب القانون في النجوم من مملكة الاسكندر بن فيليبس المقدوني .

ثم ملك بعده ابنه يستاسف ، وكان منزله بلخ .

زرادشت المجوسي

ولثلاثين سنة خلت من ملكه أتاه زرادشت بن أسبيان ، وقيل : انه زرادشت بن بورشف بن فلراسف بن أريكدسف بن هجدسف بن ححيش بن باتير بن أرجدس بن هردار بن أسبيان بن واندست بن هايزم بن أرج بن دورشرين بن منوشهر الملك . وكان من أهل أذربيجان .

والأشهر من نسبه أنه زرادشت بن أسبيان ، وهو نبي المجوس الذي أتاهم بالكتاب المعروف بالزمزمة عند عوام الناس ، واسمه عند المجوس بستاه .

وأتى زرادشت عندهم بالمعجزات الباهرات للعقول ، وأخبر عن الكائنات من المغيبات قبل حدوثها من الكليات والجزئيات ، والكليات هي الأشياء العامة ، والجزئيات هي الأشياء الخاصة . مثل زيد يموت يوم كذا ، ويمرض فلان في وقت كذا ، ويولد لفلان في وقت كذا ، وأشياء من ذلك .

ومعجم هذا الكتاب يدور على ستين حرفا من أحرف المعجم ، وليس في سائر اللغات أكثر حروفا من هذا . ولهم خطب طويل قد أتينا على ذكره في كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط .

وأتى زرادشت بكتابهم هذا بلغة يعجزون عن ايراد مثلها ، ولا يدركون كنه مرادها .

وسنذكر بعد هذا الموضع من هذا الكتاب ما أتى به زرادشت ، وما جعل له من التفسير وتفسير التفسير . وكتب هذا الكتاب في اثني عشر ألف مجلد بالذهب ، فيه وعد ووعيد ، وأمر ونهي ، وغير ذلك من الشرائع والعبادات .

فلم تزل الملوك تعمل بما في هذا الكتاب الى عهد الاسكندر وما كان من قتله لدارا بن دارا ، فأحرق الاسكندر بعض هذا الكتاب .

ثم صار الملك بعد الطوائف الى أردشير بن بابك ، فجمع الفرس على قراءة سورة منه يقال لها اسناد ، فالفرس والمجوس الى هذا الوقت لا يقرأون غيرها . والكتاب الأول يسمى بستاه .

ثم عمل زرادشت تفسيرا عند عجزهم عن فهمه ، وسموا التفسير زندا . ثم عمل للتفسير تفسيرا ، وسماه بازند . ثم عمل علماؤهم بعد وفاة زرادشت تفسيرا لتفسير التفسير ، وشرحا لسائر ما ذكرنا ، وسموا هذا التفسير بارده .

فالمجوس الى هذا الوقت يعجزون عن حفظ كتابهم المنزل . فصار علماؤهم وموابذتهم يأخذون كثيرا منهم بحفظ أسباع من هذا الكتاب وأرباع وأثلاث ، فيبتدىء كل واحد بما حفظ من جزئه فيتلوه ، ويبتدىء الثاني منهم ، فيتلو جزءا آخر ، والثالث كذلك ، الى أن يأتي الجميع على قراءة سائر الكتاب ، لعجز الواحد منهم عن حفظه على الكمال .

وقد كانوا يقولون ان رجلا منهم بسجستان بعد الثلثمائة مستظهر يحفظ هذا الكتاب على الكمال .

وكان ملك يستاسف الى أن تمجس ثم هلك عشرين ومائة سنة . وكانت مدة نبوة زرادشت فيهم خمسا وثلاثين سنة ، وهلك وهو ابن سبع وسبعين سنة .

خاناس خليفة زرادشت

ولما هلك زرادشت ولي مكانه « خاناس » العالم ، وكان من أهل أذربيجان وهذا أول موبذ قام فيهم بعد زرادشت ، نصبه لهم يستاسف الملك .

ملك بهمن بن اسفنديار

ثم ملك بعده « بهمن » بن اسفنديار بن يستاسف بن بهراسف ، وكان له حروب كثيرة مع رستم صاحب سجستان الى أن قتل رستم ووالده دستان . وقيل ان أم بهمن كانت من بني اسرائيل من ولد طالوت الملك ، وانه هو الذي بعث بالبختنصر مرزبان العراق الى بني اسرائيل ، فكان من أمرهم ما وصفنا .

وكان ملك بهمن الى أن هلك مائة واثنتي عشرة سنة . وقيل انه في ملكه رد بقايا بني اسرائيل الى بيت المقدس ، فكان مقامهم ببابل الى أن رجعوا الى بيت المقدس سبعين سنة . وذلك في أيام كورش الفارسي المملك على العراق من قبل بهمن ، وبهمن يومئذ ببلخ .

وقد قيل ان أم كورش كانت من بني اسرائيل ، وكان دانيال الأصغر خاله .

وكانت مدة ملك كورش ثلاثا وعشرين سنة ، وفي وجه آخر من الروايات أن كورشا كان ملكا برأسه لا من قبل بهمن ، وذلك بعد انقضاء ملك بهمن ، وأن كورشا من ملوك

الفرس الأولى ، وليس هذا عاما في كتب التواريخ القديمة .

ودانيال الأكبر كان بين نوح وابراهيم الخليل عليهما السلام .

وهو الذي استخرج العلم وما يحدث في الأزمان الى أن تنقضي الأرض ومن عليها وعلوم ملوك العالم وما يحدث في السنين والشهور والأيام من الحوادث ، ودلائل ذلك في الأفلاك ، واليه ينسب كتاب الجفر .

ولما رجعت بنو اسرائيل الى بيت المقدس استخرجوا التوراة وغيرها من المواضع التي خبئت فيها من الأرض على ما قدمنا .

حماية

ثم ملكت حماية بنت بهمن بن اسفنديار بن يستاسف بن بهراسف ، وكانت تعرف بأمها شهرزاد .

ولهذه الملكة سير وحروب مع الروم وغيرهم من ملوك الأرض ، وكانت حسنة السياسة لأهل مملكتها ، وكان ملكها بعد أبيها بهمن ثلاثين سنة ، وقيل غير ذلك .

دارا

ثم ملك بعدها أخ لها يقال له دارا بن بهمن بن اسفنديار ، وكان ملكه اثنتي عشرة سنة ، وكان ينزل ببابل .

دارا بن دارا

ثم ملك دارا بن دارا بن بهمن بن اسفنديار بن يستاسف بن بهراسف . والفرس تسمي دارا هذا باللغة الأولى من لغاتهم داريوس ، وهو الذي قتله الاسكندر بن فيليبس المقدوني ، وكان ملكه الى أن قتل ثلاثين سنة .

وقد ذكر أن منوشهر ـ حين انهزم من حرب فراسياب التركي ـ سار الى جبل طبرستان فتحصن به ، ثم ثاب بعد ذلك ومعه خيل ، فحارب فراسياب التركي ، وقد وطىء العراق وغلب على الأقاليم ، فهرب الى أرض الترك .

وأن الملك صار بعد منوشهر الى أخوين ، وقيل : بل كانا شريكين في الملك متضافرين متعاونين على عمارة الأرض وما خربه فراسياب :

أحدهما بهاسف بن كنهجسر بن ورزق بن هومسف بن واحدسك بن دوس بن منوشهر .

والآخر كرشاسف بن يمار بن طهاهسف بن آشك بن فرسين بن أرج بن منوشهر .

وكان كرشاسف محاربا لفراسياب ، ومنازلا له ، والآخر وهو زاب بالعراق : يعمر ما خربه فراسياب من الأرض .

واحتفر النهرين المعروفين بالزابين الصغير والكبير على ما قدمنا من ذكرهما في هذا الكتاب ، الخارجين من بلاد ارمينية والصابين في دجلة : الأكبر بين الموصل والحديثة ، والآخر ببلاد السن وسماهما باسمه .

وحفر بسواد العراق نهرا آخر وسماه بالزاب ، وجعل على هذا النهر بالعراق ثلاث طساسيج من الضياع والعمائر وأسماها الزوابي .

وما ذكرنا فهو باق الى هذه الغاية ، وأن مملكتهما كانت ثلاث سنين . وأن كيخسرو لما قتل جده ببلاد السرو والران من بلاد أذربيجان وهو فراسياب بن بشنك بن نبت بن نشمر بن ترك .

وترك هذا جد سائر الترك عند طائفة من الناس من ولد يسب بن أطوج بن أفريدون . وقد قدمنا وجها من الرواية في نسبه فيما سلف من هذا الكتاب .

وسار كيخسرو في البلاد ، ووطىء الممالك ، وانتهى الى بلاد الصين ، فبنى هناك مدينة عظيمة ، وسماها كنكدر . وقد نزلها خلق من ملوك الصين كنزولهم انموا وغيرها من مدنهم . وقد قيل : ان كنكدر هي انموا بعينها .

وقد قيل ان كيكاووس بنى مدينة قشمير المقدم ذكرها بأرض السند ، وان سياوخش بنى في حياة أبيه كيكاووس مدينة القندهار من أرض السند المقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب .

***

قال المسعودي : ولمن ذكرنا من هؤلاء الملوك أخبار وسير قد أتينا على شرحها فيما سلف من كتبنا ، وانما نذكر في هذا الكتاب جوامع ، منبهين بها على ما سلف من مبسوطها وما نذكره من الوجوه فلاختلاف الروايات وتباين الناس في المصنفات من كتبهم فيما ذكرناه من أخبارهم ، ليعلم من قرأ كتابنا هذا أنا قد بذلنا المجهود من أنفسنا ، وذكرنا سائر ما قالوه فيما وصفناه . وبالله التوفيق ، ومنه الاعانة .

ذِكرُ مُلُوكِ الطَّوائف
وَهُم بَيْنَ الفُرس الأولى وَالثانيَة

اصل ملوك الطوائف

قال المسعودي : وقد تنازع الناس في ملوك الطوائف : أمن الفرس كانوا أم من النبيط أم من العرب ؟.

فحكى جماعة من الأخباريين ممن عني بأخبار الماضين أنه لما قتل الاسكندر بن فيليبس دارا بن دارا تغلب كل رئيس ناحية على ناحيته ، وكاتبهم الاسكندر ، فمنهم فرس ونبيط وعرب .

وكان مراد الاسكندر من ذلك تشتيت كلمتهم وتحريبهم ، وغلبة كل رئيس منهم على الصقع الذي هو به ، فينعدم نظام الملك ، والانقياد الى ملك واحد يجمع كلمتهم ليرجع اليه الأمر .

الا أن أكثرهم كانوا ينقادون الى الأشغانيين وهم ملوك الجبال من بلاد الدينور ونهاوند وهمذان وماسبدان وأذربيجان . وكان كل ملك منهم يلي هذا الصقع يسمى بالاسم الأعم أشغان . فقيل لسائر ملوك الطوائف « الأشغانيون » اضافة لهم الى ملك هذا الصقع لانقيادهم اليه .

وقد حكى محمد بن هشام الكلبي عن أبيه وغيره من علماء العرب أنهم قالوا : أول ملوك الدنيا الأسكيان ، وهم من سمينا من ملوك من سلف من الفرس الأولى الى دارا بن دارا .

ثم الأردوان ، وهم ملوك النبيط ، وكانوا من ملوك الطوائف . وكانوا بأرض العراق مما يلي قصر ابن هبيرة وسقي الفرات والجامعين وسورا وأحمد آباد والنرس الى حنبا وتل فحار والطفوف وسائر ذلك الصقع .

وكانت ملوك العرب من مضر بن نزار بن معد وربيعة بن نزار وأنمار بن نزار ، والنضرية من بني نضر من اليمن وغيرهم من قحطان لهم ملوك ، وقد نصبت كل طائفة لها ملكا . لعدم ملك يجمع كلمتهم .

وذلك أن الاسكندر أشار عليه معلمه ، وهو وزيره أرسطاطاليس ، في بعض رسائله اليه بذلك . وكاتب الاسكندر ملك كل ناحية ، وملكه على ناحيته ، وتوجه وحباه . فاستبد

كل واحد منهم بناحية ، فصار ملكه من بعده في عقبه ، ممانعا عما في يده ، وطالبا للازدياد من غيره .

وكان ملك الطوائف عند كثير من الناس ممن عني بأخبار الماضين ، ومعرفة سنيهم ، خمسمائة سنة وسبع عشرة سنة . وذلك من ملك الاسكندر الى أن ظهر أردشير بن بابك بن ساسان فغلب على ملوك الطوائف ، وقتل أردوان الملك بالعراق ، ووضع تاج أردوان على رأسه ، وكان قد قتله في مبارزة على شاطىء دجلة .

فهذا أول يوم يعد منه ملك أردشير لاستيلائه على سائر ملوك الطوائف . وتمهدت له البلاد ، واستقامت دعائمها بملكه . فمن ملوك الطوائف من قتله أردشير بن بابك ، ومنهم من انقاد الى ملكه وأجاب دعوته .

وملوك الطوائف بين الفرس الأولى ممن سمينا ، وبين الفرس الثانية وهم الساسانية .

عدة ملوك الطوائف

وقد ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي عن عمر كسرى في كتاب له في أخبار الفرس يصف فيه طبقات ملوكهم ممن سلف وخلف ، وأخبارهم ، وخطبهم وتشعب أنسابهم ، ووصف ما بنوه من المدن ، وكوروه من الكور ، واحتفروه من الأنهار ، وأهل البيوتات منهم ، وما وسم به كل فريق منهم ، من الشهارجة وغيرهم : أن أول ملك من ملوك الطوائف أشك بن أشك بن أردوان بن أشغان بن آس الجبار بن سياوخش بن كيكاووس الملك عشرين سنة .

ظهور المسيح

ثم ملك بعد أشك سابور بن أشك الملك ستين سنة . وفي احدى وأربعين من مملكته كان ظهور السيد المسيح عليه السلام ببلاد فلسطين بايليا .

ثم ملك جودرز بن أشك بن أردوان بن أشغان عشر سنين .

ثم ملك نيزر بن سابور الملك بن أشك الملك احدى وعشرين سنة . وقيل : انه في أيامه سار تطوس بن أسفانيوس ملك رومية الى ايليا ، وذلك بعد ارتفاع المسيح بأربعين سنة ، فقتل وأسر وسبى وخرب .

ثم ملك بعد نيزر بن سابور ابنه جودرز بن نيزر تسع عشرة سنة .

ثم ملك بعد جودرز نرسي بن نيزر أربعين سنة .

ثم ملك بعده أخوه هرمز بن نيزر عشرين سنة .

ثم ملك بعد أردوان بن هرمز بن نيزر خمس عشرة سنة .

ثم ملك بعد أردوان ابنه كسرى بن أردوان أربعين سنة .

ثم ملك بعد كسرى ابنه بلاس بن كسرى أربعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعد بلاس ابنه أردوان بن بلاس ثلاث عشرة سنة .

***

قال المسعودي : فهذا وجه آخر غير ما قدمنا ذكره . وقد قيل في تاريخ سني ملوك الطوائف غير ما وصفنا ، وان مدتهم كانت أقل مما وصفنا .

والأول أشهر وأصح في مقدار ما ملكوا من السنين ، مع تباين التواريخ واختلافها وتضاد ما فيها . غير أن الذي حكيناه هو ما أخذناه عن علماء الفرس ، وهم يراعون من تواريخ من سلف ما لا يراعيه غيرهم . لأن الفرس تدين بما وصفنا قولا وعملا ، وغيرهم من الناس يقول ذلك قولا ولا ينقاد اليه عملا ، لتباين أهل الشرائع .

وقد أتينا فيما سلف من كتبنا على الغرر من أخبار الطوائف وسيرهم وبالله التوفيق .

ذِكْرُ أنسَابْ فَارِسْ
وَمَا قَالَه النَاس فِي ذلك

اختلاف العلماء في أنسابهم

تنازع الناس في الفرس وأنسابهم : فمنهم من رأى أن فارس بن ياسور بن سام بن نوح . وكذلك النبط من ولد نبيط بن ياسور بن سام بن نوح . وهذا قول هشام بن محمد فيما حكاه عن أبيه وغيره من علماء العرب .

ففارس ونبيط أخوان ، وهما ابنا ياسور ، ومنهم من زعم أنه من ولد يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم الخليل صلوات الله عليهم .

ومنهم من ذكر أنه من ولد ارم بن ارفخشذ بن سام بن نوح ، وأنه ولد له بضعة عشر رجلا كلهم كان فارسا شجاعا ، فسموا الفرس بالفروسية . وفي ذلك يقول حطان بن المعلى الفارسي :

وبنا سمي الفوارس فرسا نا ، ومنا مناجب الفرسان
وكهول طواهم الركض والكر رُ كمثل الكرات يوم الطعان

وقد زعم قوم أن الفرس من ولد لوط من ابنتيه زهى ورعوى ، ولأصحاب التوراة في هذا خبر طويل .

وذكر آخرون أنهم من ولد بوان بن ايران بن الأسود بن سام بن نوح . وبوان هذا هو الذي ينسب اليه شعب بوان من بلاد فارس . وهو أحد المواضع المشهورة في العالم بالحسن وكثرة الأشجار ، وتدفق المياه ، وكثرة أنواع الأشجار . وقد ذكره بعض الشعراء فقال :

فشعب بوان فوادي الراهب فثم نلقى أرحل النجائب

ومنهم من رأى أن الفرس من ولد ايران بن أفريدون . وقد قدمنا في صدر هذا الكتاب أخبار ولد أفريدون حين قسم الأرض بينهم ، وما قاله الشاعر في ذلك من قوله :

ولإيران جعلنا عنوة فارس الملك وفزنا بالنعم

فأضيف الفرس الى ذلك ، وايران تسميه الفرس أيـرج اذا عرفوا اسمه ، ولا تناكـر بين الفرس جميعا في أنها من ولد أيرج جميعا . وأيرج هو ايران بن أفريدون ، هذا هو المستفيض بينهم .

والأغلب عليهم : أنهم من آل أيرج ، ومن الناس من ذهـب الى أن سائر أجناس الفرس وأهل كورالأهواز من ولد عيلام . ولا خلاف بين الفرس في أن الجميع منهم من ولد كيومرث وهذا هو الأشهر . وكيومرث هو قبل أيرج بن أفريدون ، وأيرج بن أفريدون هو الذي ترجع اليه فارس من ولد كيومرث . ومن الناس من ذهب الى أن الفرس الثانية ـ وهم الساسانية دون من سلف من الفرس الأولى ـ هم من ولد منوشهر بن أيرج بن أفريدون .

ومنهم من ذهب الى أن منوشهر هو ابن مشجر بن فريقس بن ويرك ، وويـرك هو اسحاق بن ابراهيم الخليل .

وسار مشجر الى أرض فارس ، وكان بها امرأة متملكة يقال لها كورك ابنة أيـرج ، فتزوجها ، فولدت له منوشهر الملك . وكثر ولـده ، فملكـوا الأرض ، وغلبوا عليهـا . وهابتهم الملوك ، لما هم عليه من الشجاعة والفروسية ، ودثرت الفرس الأولى كدثور الأمم الماضية والعرب العاربة .

***

قال المسعودي : وأكثر حكماء العرب من نزار بن معد يقول هذا ، ويعمل عليه في بدء النسب ، وينقاد الى كثير من الفرس ، ولا ينكرونه .

وقد ذكـرته شعـراء العـرب من نزار بن معـد ، وافتخرت على اليمن من قحطان بالفرس ، وأنها من ولد اسحاق بن ابراهيم الخليل عليهما السلام . . . فقال في ذلك اسحاق ابن سويد العدوي عدي قريش :

اذا افتخرت قحطان يوما بسؤدد	أتى فخرنا أعلى عليهـا وأسودا
ملكناهـم بدءا باسحاق عمنا	وصاروا لنا غرما على الدهر اعبدا
فان كان منهـم تبع وابن تبع	فأملاكهـم كانوا لأملاكنا يدا
ويجمعنا والغـر أبناء سارة	أب لا يبالي بعـده من تفردا
هُمُ ملكـوا شرقا وغـربا ملوكهم	وهـم منحوهـم بعـد ذلك سؤددا

وفي ذلك أيضا يقول جرير بن الخطفي التميمي يفخر على قحطان بأن الفرس والروم

من أولاد اسحاق والأنبياء من ولد يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام ، من كلمات طويلة يقول فيها :

وأبناء اسحاق الليـوث اذا ارتدوا	حمائل موت لابسين السنَّورا
اذا افتخروا عدوا الصبهبذ منهم	وكسرى وعـدوا الهرمزان وقيصرا
وكـان كتاب اللـه فيهـم ونوره	وكـانوا باصطخر الملوك وتسترا
ومنهـم سليمان النبي الـذي دعا	فأعـطي بنيـانا وملكـا مقدرا
أبونا أبو اسحاق ، يجمع بيننا	أب كان مهديـا نبيـا مطهرا
بنى قبلـة الله التي يهتدى بها	فأورثنا عزا وملكـا معمرا
وموسى وعيسى والذي خر ساجدا	وأنبت زرعـا دمع عينيـه اخضرا
ويعقوب منهم ، زاده الله حكمة	وكـان ابن يعقوب نبيـا مطهرا
ويجمعنا والغـر أبناء فارس	اب لا يبالي بعـده من تأخرا
أبونا خليـل اللـه ، واللـه ربنا	رضينا بما أعـطى الالـه وقدرا

وفي ذلك يقول بشار بن برد :

نمتني الكـرام بنو فارس	قريش ، وقومي قريش العجم

وقال أحد شعراء الفرس يذكر أنه من ولد اسحاق ، وأن اسحاق هو المسمى ويرك ، على حسب ما قدمنا قبل ، من كلمة له :

أبونا ويـرك ، وبه أسامي	اذا فخر المفاخر بالولاده
أبونا ويـرك عبد رسول	له شرف الرسالـة والزهاده
فمن مثلي اذا افتخرت قرون	وبيتي مثل واسطة القلاده ؟

ومن الفرس من يزعم أن ويرك هو ابن أيرك بن بورك ابن سبع نسوة تولدن من غير ذكر الى أن يلحقن في نسبهن بأيرج بن أفريدون . وهـذا مما يدفعـه العقل ، ويـأباه الحس ، ويخرج عن العادة ، وتنبو عنه المشاهدة . الا ما خص الله تعالى به السيد المسيح عيسى ابن

مريم عليه السلام ليري آياته ودلائله الخارجة عن العادة ، وعما ذكرنا من المشاهدات .

وللفرس ههنا منازعات في نسب منوشهر ، واضطراب في كيفية الحاقه بأفريدون وفي وطء أفريدون لبنت أيرج ، ووطئه بنت البنت الى السبع منهن .

وقد كان بين ملك منوشهر على ما ذكرنا وبين ملك أفريدون مدة خلت من الدهر ، وعدة من الملوك ، لتخرب كان باقليم بابل ، وعدم ذي همة تنقاد اليه المملكة ، ويستقيم له الملك ، وتجتمع عليه الكلمة . فانتقل الملك من ولد أفريدون الى ولد اسحاق .

فان كان كل ما ذكرنا هو المعول عليه من قول هذه الطائفة فيجب ،على مايوجبه الحساب ، أن من كيومرث الى انتقال الملك الى ولد اسحاق ألفا وتسعمائة واثنتين وعشرين سنة ... كذلك وجدت في كتب تواريخ هذه الطائفة بأرض فارس وبلاد كرمان .

***

قال المسعودي : وقد افتخر بعض أبناء الفرس بعد التسعين والمائتين بجده اسحاق بن ابراهيم الخليل ، على ولد اسماعيل ، بأن الذبيح كان اسحاق دون اسماعيل ، فقال من كلمة له :

قل لبني هاجر أبنت لكم	ما هذه الكبرياء والعظمه ؟
ألم تكن في القديم أمكم	لأمنا سارة الجهال أمه ؟
والملك فينا والأنبياء لنا	ان تنكروا ذاك توجدوا ظلمه
اسحاق كان الذبيح قد أجمع الـ	ـناس عليه الا ادعاء لمه
حتى اذا ما محمد أظهر الديـ	ـن وجلى بنوره الظلمه
قلتم قريش الأحساب مفخرة	أصل لنا ، ان كنتم بنيه فمه
أما بنو يعرب فليسوا كمن	أسكنه الله آمنا حرمه
ولا كأبناء فارس ، وهم	في الأرض مثل الأسود في الأجمه

وهي قصيدة طويلة ، ذكر فيها كلاما كثيرا لم يسعنا ذكره ، وقد أجابه عبد الله بن المعتز ، وكان قائل هذه القصيدة في عصره ، وعمر الى أن مضت الثلثمائة ، يناقضه في أبيات منها ، فمن ذلك قوله :

أسمع صوتا ولا أرى أحدا	من ذا الشقي الـذي أباح دمه ؟

حاشا لاسحاق أن يكـون لكم　أبا ، وان كنتم بنيـه فمه
قولا لكلـب يرى لبطشته　قد فغـر الليـث للفراس فمه

والفرس لا تنقاد الى القول بأن الملك كان فيها لأحد غير ولد أفريدون في عصر من الأعصار فيا سلف وخلف الى أن زال عنهم الملك ، الا أن يكون دخل عليهم داخل على طريق الغصب بغير حق .

الفرس يحجون البيت

وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام ، وتطوف به ، تعظيا له ، ولجدهـا ابراهيم عليه السلام ، وتمسكا بهديه ، وحفظا لأنسابها .

وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك وهو جد أردشير بن بابك . وهو أول ملوك ساسان وأبوهم الذي يرجعون اليه كرجوع ملوك المروانية الى مروان بن الحكـم ، وخلفاء العباسيين الى العباس بن عبد المطلب .

ولم يل الفرس الثانية أحد الا من ولد أردشير بن بابك هذا فكان ساسان اذا أتى البيت طاف به وزمزم على بئر اسماعيل ، فقيل : انما سميت زمزم لزمزمته عليها ، هو وغيره من فارس . وهذا يدل على ترادف كثرة هذا الفعل منهم على هذه البئر ، وفي ذلك يقول الشاعر في قديم الزمان :

زمزمت الفـرس علـى زمـزم　وذاك مـن سـالفهـا الأقـدم

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الاسلام بذلك ، فقال من كلمة :

وما زلنا نحج البيـت قدما　ونلفـى بالأباطـح آمـنينـا
وساسان بن بابك سار حتى　أتى البيـت العتيـق يطوف دينا
فطاف به ، وزمزم عند بئر　لاسماعيـل تروي الشاربينا

وكانت الفرس تهدي الى الكعبة أموالا في صدر الزمان ، وجواهر . وقد كان ساسان ابن بابك هذا أهدى غزالين من ذهب وجوهرا وسيوفا وذهبا كثيرا فقذفه في زمزم .
وقد ذهب قوم من مصنفي الكتب في التواريخ وغيرها من السير أن ذلك كان لجرهم

حين كانت بمكة ، وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك اليها ، ويحتمل أن يكون لغيرها والله أعلم .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب ما كان من فعل عبد المطلب بهذه الأسياف وغيرها مما أودع في زمزم .

وللناس في هذه الأنساب تنازع في بدئها وتشعبها ، وقد ذكرنا من ذلك جملا ، وأوردنا منه جوامع يكتفي ذو المعرفة بالاشراف عليها عن كثير من مبسوطها .

ذكر ملوك الساسانيّة
وهم الفرس الثانية ، وأخبارهم

أردشير بن بابك

كان أول من نسب اليه ملوكهم على حسب ما قدمنا في الباب الذي قبل هذا أردشير بن بابك شاه بن ساسان بن بهاوند بن دارا بن ساسان بن بهمن بن اسفنديار بن يستاسف بن بهراسف ، على حسب ما قدمنا من نسب بهراسف .

وقيل : انه أردشير بن بابك بن ساسان الأصغر بن بابك بن ساسان بن بابك بن مهرمس بن ساسان بن بهمن بن اسفنديار بن يستاسف بن بهراسف .

ولا خلاف بينهم في أن أردشير من ولد منوشهر ، وكان مما حفظ من قوله يوم ملك وقتل أردوان وفرغ من ملوك الطوائف ووضع التاج على رأسه أن قال :

« الحمد لله الذي خصنا بنعمه ، وشملنا بفوائده وقسمه ، ومهد لنا البلاد ، وقاد الى طاعتنا العباد . نحمده حمد من عرف فضل ما آتاه ، ونشكره شكر الداري بما منحه واصطفاه .

« ألا وانا ساعون في اقامة منازل العدل ، وادرار الفضل ، وتشييد المآثر ، وعمارة البلاد ، والرأفة بالعباد ، ورم أقطار المملكة ، ورد ما انحرم في سائر الأيام منها .

«فليسكن طائركم ، أيها الناس ، فاني أعم بالعدل القوي والضعيف ، والدنيء والشريف ، وأجعل العدل سنة محمودة ، وشريعة مقصودة .

« وستردون في سيرتنا الى ما تحمدوننا عليه ، وتصدق أفعالنا أقوالنا ، ان شاء الله تعالى ، والسلام » .

***

قال المسعودي : وأردشير بن بابك المتقدم في ترتيب طبقات القدماء ، وبه اقتدى المتأخرون من الملوك والخلفاء . وكان يرى أن ذلك من السياسة ، ومما يدعم عمود الرياسة . فكانت طبقات خاصته ثلاثا :

الأولى : الأساورة وأبناء الملوك . وكان مجلس هذه الطبقة عن يمين الملك ، على نحو من عشرة أذرع ، وهم بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم .

وكانت الطبقة الثانية على مقدار عشرة اذرع من الأولى . وهم وجوه المرازبة وملوك الكور والمقيمون بباب أردشير . والمرازبة هم الاصبهبذية ممن كانت مملكة الكور في أيامه .

والطبقة الثالثة كانت رتبتها على قدر عشرة أذرع من حد مرتبة الطبقة الثانية . وأهل هذه الطبقة المضحكون وأهل البطالة والهزل .

غير أنه لم يكن في هذه الطبقة الثالثة خسيس الأصل ، ولا وضيع القدر ، ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول أو القصر ، ولا مؤف ، ولا مرّمي بأبنة ، ولا ابن ذي صناعة دنيئة كابن حائك أو حجام ، ولو كان يعلم الغيب أو حوى كل العلوم مثلا .

وكان أردشير يقول :

« ما شيء أضر على نفس ملك أو رئيس أو ذي معرفة صحيحة من معاشرة سخيف أو مخالطة وضيع ، لأنه كما أن النفس تصلح على مخالطة الشريف الأريب الحسيب ، كذلك تفسد بمعاشرة الخسيس ، حتى يقدح ذلك فيها ، ويزيلها عن فضيلتها ، ويثنيها عن محمود شريف أخلاقها .

« وكما أن الريح اذا مرت بالطيب حملت طيبا تحيا به النفوس وتتقوى به جوارحها . . . كذلك اذا مرت بالنتن فحملته ، ألمت به النفس ، وأضر بأخلاقها اضرارا تاما ، والفساد أسرع اليها من الصلاح ، اذ كان الهدم أسرع من البناء . وقد يجد ذو المعرفة في نفسه عند معاشرة السفلة الوضعاء شهرا فساد عقله دهرا » .

وكان أردشير يقول :

« يجب على الملك أن يكون فائض العدل ، فان في العدل جماع الخير ، وهو الحصن الحصين من زوال الملك وتخرمه .

« وان أول مخايل الادبار في الملك ذهاب العدل منه ، وانه متى خفقت رايات الجور في ديار قوم كافحتها عقاب العدل فردتها على العقب .

« وليس أحد ممن يصحب الملوك ويخالطهم أولى باستجماع محاسن الأخلاق وفضائل الآداب وظرائف الملح وغرائب النتف من النديم ، حتى انه ليحتاج أن يكون له مع شرف الملوك تواضع العبيد ، ومع عفاف النساك مجون الفتاك ، ومع وقار الشيوخ مزاح الأحداث .

وكل واحدة من هذه الخلال هو مضطر اليها في حال لا يحسن أن يجلب غيرها . والى أن يجتمع له من قوة الخاطر ما يفهم به ضمير الرئيس الذي ينادمه ، على حسب ما يبلوه من خلائقه ، ويعلم من معاني لحظه واشاراته ما يعينه على شهوته .

« ولا يكون نديما حتى يكون له جمال ومروءة . فأما جماله فنظافة ثوبه ، وطيب رائحته ، وفصاحة لسانه ، وأما مروءته فكثرة حيائه في انبساطه الى الجميل ، ووقاره في مجلسه ، مع طلاقة وجهه في غير سخف ، ولا يستكمل المروءة حتى يسلو عن اللذة .

مراتب رجال الدولة

ورتب أردشير المراتب فجعلها سبعة أفواج :

فأولها : الوزراء ، ثم الموبذان ، وهو القائم بأمور الدين ، وهو قاضي القضاة ، وهو رئيس الموابذة ، ومعناها القوام بأمور الدين في سائر المملكة ، والقضاة المنصوبون للأحكام .

وجعل الأصبهبذيين أربعة : الأول بخراسان ، والثاني بالمغرب ، والثالث ببلاد الجنوب ، والرابع ببلاد الشمال .

فهؤلاء الأربعة هم أصحاب تدبير الملك ، كل واحد منهم قد أفرد بتدبير جزء من أجزاء المملكة ، فكل واحد منهم صاحب ربع منها ، لكل واحد من هؤلاء مرزبان ، وهم خلفاء هؤلاء الأربعة .

ورتب أردشير الطبقات الأربعة من أصحاب التدبير ومن اليهم أزمة الملك وحضور المشورة وايراد الأمور واصدارها .

ثم رتب طبقات المغنين وسائر المطربين وذوي الصنعة بالموسيقى .

فلم يزل على ذلك من طرأ بعده من ملوك آل ساسان الى بهرام جور ، فانه قرر مراتب الأشراف وأبناء الملوك ومدنة بيوت النيران والنساك والزهاد وطبقات العلماء بالديانة وأنواع المهن الفلسفية على حالها . وغير طبقات المغنين ، فرفع من كان بالطبقة الوسطى الى الطبقة العليا ، والطبقة الدنيئة الى الوسطى . وغير المراتب على حسب اعجابه بالمطرب له منهم .

وأفسد ما رتبه أردشير بن بابك في طبقات الملهين .

فسلك من ورد بعده من ملوكهم هذا المسلك ، حتى ورد كسرى أنوشروان فرد مراتب المغنين الى ما كانت عليه في عهد أردشير بن بابك .

وقد كانت ملوك الأعاجم كلها من عهد أردشير تحتجب عن الندماء ، وكان يكون بين الملك وبين أول الطبقات عشرون ذراعا ، لأن الستارة التي على الملك تكون منه على عشرة أذرع ، ومن الطبقة الأولى على عشرة أذرع .

وكان الموكل بالستارة رجلا من أبناء الأساورة يقال له خرم باش . فاذا غاب هذا الرجل وكل بها آخر من أبناء الأساورة وذوي التحصيل ، وسمي بهذا الاسم .

وهذا الاسم عام لمن رتب في هذه المرتبة ووقف هذا الموقف ، وتفسير ذلك كن فرحا مسرورا .

وكان خرم باش هذا اذا جلس الملك لندمائه ومعاقريه أمر رجلا أن يرتفع على أرفع

مكان في دار الملك ، فيرفع عقيرته ويغرد بصوت رفيع يسمعه كل من حضر فيقول : يا لسان احفظ رأسك ، فانك تجالس في هذا اليوم الملك . ثم ينزل .

وكان ذلك فعلهم في يوم جلوس الملك للهوه وطربه ، فيأخذ الندماء مراتبهم خافتة أصواتهم ، غير مشيرين بشيء من جوارحهم ، حتى يطلع الموكل بالستارة ، فيقول : غن أنت يا فلان كذا وكذا ، واضرب أنت يا فلان كذا وكذا ، من طريقة كذا وكذا ، من طرائق الموسيقى .

وقد كانت الأوائل من بني أمية لا تظهر للندماء ، وكذلك الأوائل من خلفاء بني العباس .

زهد اردشير

وكور أردشير بن بابك كورا ، ومدن مدنا ، وله عهد في أيدي الناس .

ولما خلا من ملكه أربع عشرة سنة ، وقيل : خمس عشرة سنة ، واستقامت له الأرض ، ومهدها ، وصال على الملوك فانقادت الى طاعته ، زهد في الدنيا ، وتبين له عوارها ، وما هي عليه من الغرور والعناء ، وقلة المكث ، وسرعة الغيلة منها الى من أمنها ، ووثق بها ، واطمأن اليها .

وبان له أنها غرارة ضرارة خاتلة زائلة بائدة ، وما اعذوذب منها جانب لامرىء وحلا الا تمرر منها عليه جانب وأوبى .

ورأى أن من بنى قبله المدائن وحصن الحصون وساق الجموع وكان أعظم جيشا وأشد جنودا وأتم عديدا ، قد صار رميا هشيا ، وتحت التراب مقيا ، فآثر التفرد عن المملكة ، والترك لها ، واللحاق ببيوت النيران ، والانفراد بعبادة الرحمن ، والأنس بالوحدة .

فنصب ابنه « سابور » لمملكته ، وتوّجه بتاجه . وذلك أنه رآه أرجح ولده حلما ، وأكملهم علما ، وأشدهم بأسا ، وأجزلهم مراسا .

فعاش بعد ذلك في حال تزهده ، وخلوه بربه . وكونه في بيوت النيران سنة ، وقيل شهرا ، وقيل : أكثر مما ذكرنا .

وأقام أردشير اثنتي عشرة سنة يحارب ملوك الطوائف ، فمنهم من يكاتبه فينقاد الى ملكه رهبة من صولته ، ومنهم من يمتنع عليه فيسير الى داره ويأتي عليه .

وكان آخر من قتل منهم ملكا للنبط بناحية سواد العراق اسمه بابا بن بردينا صاحب قصر ابن هبيرة ، ثم أردوان الملك ، وفي هذا اليوم سميَ شاهنشاه ، وهو ملك الملوك .

وأم ساسان الأكبر من سبايا بني اسرائيل ، وهي بنت سانال .

ولأردشير بن بابك أخبار في بدء ملكه مع زاهد من زهادهم وأبناء ملوكهم يقال له بيشر ، وكان أفلاطوني المذهب على رأي سقراط وأفلاطون . . أعرضنا عن ذكرها ، اذ كنا قد أتينا على جميع ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط مع ذكر سيره وفتوحه ، وما كان من أمره .

ولأردشير بن بابك كتاب يعرف بكتاب « الكرنامج » فيه ذكر أخباره وحروبه ومسيره في الأرض وسيره .

من وصايا أردشير وكتبه

وكان مما حفظ من وصية أردشير لابنه سابور عند نصبه اياه للملك أن قال له :

« يا بني ، ان الدين والملك أخوان ، ولا غنى لواحد منهما عن صاحبه ، فالدين أس الملك ، والملك حارسه ، وما لم يكن له أس فمهدوم ، وما لم يكن له حارس فضائع » .

وكان مما حفظ من مكاتباته (أعني أردشير) الى خواص من أنواع رعيته وعماله :

« من أردشير بن بهمن ملك الملوك ، الى الكتاب الذين بهم تدبير المملكة ، والفقهاء الذين هم عماد الدين ، والأساورة الذين هم حماة الحرب ، والى الحراث الذين هم عمرة البلاد . . .

« سلام عليكم ، نحن بحمد الله صالحون ، وقد رفعنا اتاوتنا عن رعيتنا بفضل رأفتنا ورحمتنا . ونحن كاتبون اليكم بوصية فاحفظوها : لا تستشعروا الحقد فيكم فيدهمكم العدو . ولا تحبوا الاحتكار فيشملكم القحط . وكونوا لأبناء السبيل مأوى ترووا غدا في المعاد . وتزوجوا في الأقارب فانه أمس للرحم وأقرب للنسب . ولا تركنوا للدنيا فانها لا تدوم لأحد ، ولا تهتموا لها فلن يكون الا ما شاء الله ، ولا ترفضوها مع ذلك فان الآخرة لا تنال الا بها » .

وكتب أردشير الى بعض عماله :

« بلغني أنك تؤثر اللين على الغلظة ، والمودة على الهيبة ، والجبن على الجرأة . فليشتد أولك ، وليلن آخرك ، ولا تخلين قلبا من هيبة ، ولا تعطلنه من مودة ، ولا يبعد عليك ما أقول لك فانهما يتجاوران » .

سابور بن أردشير

ثم ملك بعد أردشير ابنه سابور ، وكان ملكه ثلاثا وثلاثين سنة ، وكانت له حروب مع كثير من ملوك العالم . وبنى كورا ، ومصر مدنا نسبت اليه ، كما نسب من الكور والمدن الى آبائه .

والعرب تلقبه بسابور الجند .

ماني الثنوي

وفي أيامه ظهر ماني ، وقال بالاثنين ، فرجع سابور عن المجوسية الى مذهب ماني والقول بالنور والبراءة من الظلمة . ثم عاد بعد ذلك الى دين المجوسية ، ولحق ماني بأرض الهند ، لأسباب أوجبت ذلك قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا .

بين قيصر وسابور

وكتب ملك الروم الى سابور بن أردشير : « أما بعد ، فقد بلغني من سياستك لجندك ، وضبطك ما تحت يدك ، وسلامة أهل مملكتك بتدبيرك ، ما أحببت أن أسلك فيه طريقتك ، وأركب مناهجك » .

فكتب اليه سابور : « نلت ذلك بثماني خصال : لم أهزل في أمر ولا نهي قط . ولم أخلف وعدا ولا وعيدا قط . وحاربت للغنى لا للهوى . واجتلبت قلوب الناس ثقة بلا كره ، وخوفا بلا مقت . وعاقبت للذنب لا للغضب . وعممت بالقوت . وحسمت الفضول » .

من سابور الى بعض عماله

ويقال : ان سابور كتب الى بعض عماله :

« اذا استكتبت رجلا فأسن رزقه ، وشد بصالح الأعوان عضده ، وأطلق بالتدبير يده . ففي إسناء رزقه حسم طمعه ، وفي تقويته بالأعوان ثقل وطأته على أهل العدوان . وفي اطلاقه بالتدبير ما أخافه عواقب الأمور . ثم قفه من أمره على ما له قدمته ليمثله إماما ، ويحفظه كلاما .

« فان وقع أمره بما رسمت فأوله غرضك ، وأوجب زيادته عليك ، وان حاد عن أمرك علقته حجتك ، وأطلقت بالعقوبة عليه يدك ، والسلام » .

وعهد سابور الى ولده هرمز ومن تلاه من الملوك بعده ، فقال :

« اجعلوا علو أخلاقكم كعلو أخطاركم ، وارتفاع كرمكم كارتفاع هممكم ، وفضل سعيكم كفضل جدكم » .

وقيل : ان ملك سابور كان احدى وثلاثين سنة ونصفا وثمانية عشر يوما .

هرمز

ثم ملك بعد سابور ابنه هرمز بن سابور الملقب بالبطل وكان ملكه سنة ، وقيل : اثنين وعشرين شهرا ، وبنى مدينة رامهرمز من كور الأهواز .

وكتب الى بعض عماله :

« لا يصلح لسد الثغور وقود الجيوش وابرام الأمور وتدبير الأقاليم الا رجل تكاملت فيه خمس خصال : حزم يتيقن به عند موارد الأمور حقائق مصادرهـا ، وعلـم يحجبه عن التهور في المشكلات الا عند تجلي فرصتها ، وشجاعة لا تنقصها الملمات بتواتر جوائحها ، وصدق في الوعد والوعيد يوثق بوفائه بهما ، وجود يهون عليه بتدبير الأموال في حقها » .

بهرام

ثم ملك بعده بهرام بن هرمز ثلاث سنين ، وكانت له حروب مع ملوك الشرق .

وقد ذكرنا أن بهرام أتاه ماني بن يزيد تلميذ قاردون ، فعرض عليه مذاهب الثنوية ، فأجابه احتيالا منه عليه الى أن أحضر دعاته المتفرقين في البلاد من أصحابه الذيـن يدعـون الناس الى مذاهب الثنوية ، فقتله ، وقتل الرؤساء من أصحابه .

الزنادقة

وفي أيام ماني هذا ظهر اسم الزندقة الذي اليه أضيف الزنادقة ، وذلك أن الفرس حين أتاهم زرادشت بن أسبيمان ، على حسب ما قدمنا من نسبه فيما سلف من هذا الكتاب بكتابهم المعروف بالبستاه باللغة الأولى من الفارسية ، وعمل له التفسير ، وهو الزند ، وعمل لهذا التفسير شرحا سماه البازند ، على حسب ما قدمنا ، وكان الزند بيانا لتأويل المتقدم المنزل ، وكان من أورد في شريعتهم شيئا بخلاف المنزل الذي هو البستاه ، وعدل الى التأويل الذي هو الزند ، قالوا هذا زندي ، فأضافوه الى التأويل ، وأنه منحرف عن الظواهر من المنزل الى تأويل هو بخلاف التنزيل .

فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس ، وقالوا : زنديق ، وعربوه .

والثنوية هم الزنادقة ، ولحق بهؤلاء سائر من اعتقد القدم ، وأبى حدوث العالم .

بهرام بن بهرام

ثم ملك بعده « بهرام » بن بهرام ، وكان ملكه سبع عشرة سنة . وقيل غير ذلك .

وأقبل في أول ملكه على القصف واللذات والصيد والنزهة ، لا يفكر في ملكه ، ولا ينظر في أمور رعيته . وأقطع الضيــاع لخواصه من لاذ به من خدمه وحاشيته ، فخربت الضياع ، وخلت من عمارها ، وسكنوا الضياع المتعززة ، وسقطت عنهم المطالبة بالخراج بمايلة الوزراء خواص الملك ، وكان تدبير الملك مفوضا الى وزرائه .

فخربت البلاد ، وقلـت العمارة ، وقل ما في بيـوت الأموال ، فضعف القوي من الجنود ، وهلك الضعيف منهم .

فلما كان في بعض الأيام ركب الملك الى بعض متنزهاته وصيده ، فجنه الليل ، وهو يسير نحو المدائن ، وكانت ليلة قمراء ، فدعا بالموبذان لأمر خطر بباله فلحق به وسايره . وأقبل على محادثته ، مستخبرا له عن سير أسلافه .

فتوسطوا في مسيرهم خربات كانت من أمهات الضيـاع قد خربت في مملـكته ، ولا أنيس بها الا البوم . واذا بوم يصيـح وآخر يجاوبه من بعض تلك الخربات ، فقال الملك للموبذان : أترى أحدا من الناس أعطي فهـم منطق هذا الـطير المصوت في هذا الليـل الهادىء؟

فقال له الموبذان : أنا أيها الملك ممن قد خصه الله بفهم ذلك .

فاستفهمه الملك عما قال ، فاعلمه ان قوله صحيح .

فقال له : فما يقول هذا الطائر ، وما الذي يقوله الآخر ؟

قال الموبذان : هذا بوم ذكـر يخاطب بومة ، ويقول لها : أمتعيني من نفسك حتى يخرج منا أولاد يسبحون الله ، ويبقى لنا في هذا العالم عقب يكثرون ذكرنا والترحم علينا .

فأجابته البومة : ان الذي دعوتني اليه هو الحظ الأكبر ، والنصيب الأوفر ، في العاجل والآجل . الا أني أشترط عليك خصالا ان أنت أعطيتنيها أجبتك الى ما دعوتني اليه . فقال لها الذكر . وما تلك الخصال ؟

قالت : أولها أن أنا أبحتك نفسي وصرت الى ما اليه دعوتني تضمن لي أن تعطيني من خربات أمهات الضياع عشرين قرية مما قد خرب في أيام هذا الملك السعيد .

فقال له الملك : فما الذي قال لها الذكر ؟

قال الموبذان : كان من قوله لها : ان دامت أيام هذا الملك السعيد جده أعطيتك مما يخرب من الضياع الف قرية ، فما تصنعين بها ؟

قالت : في اجتماعنا ظهور النسل ، وكثرة الولد ، فنقطع كل واحد من أولادنا قرية من هذه الخربات .

قال لها الذكر : هذا أسهل أمر سألتنيه ، وأيسر أمر طلبته مني ، وقدمت لك الوعد وأنا مليء بذلك ، فهاتي ما بعد ذلك .

فلما سمع الملك هذا الكلام من الموبذان عمل في نفسه ، واستيقظ من نومه ، وفكر فيما خوطب به ، فنزل من ساعته ، وترجل للناس ، وخـلا بالـموبذان فقال له : أيها القيـم بالدين ، والناصح للملك ، والمنبه على ما أغفله من أمور ملكه ، وأضاعه من أمر بلاده ورعيته ، ما هذا الكلام الذي خاطبتني به ، فقد حركت مني ما كان ساكنا ، وبعثتني على علم ما كنت عنه غائبا ؟

قال الموبذان : صادفت من الملك السعيد جده وقت سعد للعباد والبلاد ، فجعلت الكلام مثلا وموقظا على لسان الطائر عند طلب الملك مني جواب ما سأل .

ثم قال له الملك : أيها الناصح ، اكشف لي عن هذا الغرض الذي اليه رميت ، والمعنى الذي له قصدت ، ما المراد منه ، والى ماذا يؤول ؟

قال الموبذان : أيها الملك السعيد جده ، ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام لله تعالى بطاعته ، والتصرف تحت أمره ونهيه ، ولا قوام للشريعة الا بالملك ، ولا عز للملك الا بالرجال ، ولا قوام للرجال الا بالمال ، ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ، ولا سبيل للعمارة الا بالعدل ، والعدل الميزان المنصوب بين الخليقة ، نصبه الرب وجعل له قيا ، وهو الملك .

قال الملك : أما ما وصفت فحق ، فأبن لي عما تقصد ، وأوضح لي في البيان .

قال الموبذان : نعم أيها الملك ، عمدت الى الضياع فانتزعتها من أربابها وعمارها ، وهم أرباب الخراج ومن تؤخذ منهم الأموال ، فأقطعتها الحاشية والخدم وأهل البطالة وغيرهم ، فعمدوا الى ما تعجل من غلاتها ، واستعجلوا المنفعة ، وتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع ، وسومحوا في الخراج ، لقربهم من الملك ، ووقع الحيف على من بقي من أرباب الخراج وعمار الضياع ، فانجلوا عن ضياعهم ، ورحلوا عن ديارهم ، وأووا الى ما تعزز من الضياع بأربابه ، فسكنوه . فقلت العمارة ، وخربت الضياع ، وقلت الأموال ، فهلكت الجند والرعية ، وطمع في ملك فارس من أطاف بها من الملوك والأمم ، لعلمهم بانقطاع المواد التي بها تستقيم دعائم الملك .

فلما سمع الملك هذا الكلام من الموبذان أقام في موضعه ذلك ثلاثا ، وأحضر الوزراء والكتاب وأرباب الدواوين ، وأحضرت الجرائد . فانتزعت الضياع من أيدي الخاصة والحاشية ، وردت الى أربابها .

وجروا على رسومهم السالفة ، وأخذوا في العمارة ، وقوي من ضعف منهم ، فعمرت الأرض ، وأخصبت البلاد . وكثرت الأموال عند جباية الخراج ، وقويت الجنود ، وقطعت مواد الأعداء ، وشحنت الثغور .

وأقبل الملك يباشر الأمر بنفسه في كل وقت من الزمان ، وينظر في أمر خواصه ، وعوامه ، فحسنت أيامه ، وانتظم ملكه . حتى كانت تدعى أيامه أعيادا ، لما عم الناس من الخصب والافضال وشملهم من العدل .

جماعة من ملوك الفرس

ثم ملك بعده بهرام ابن الملك بهرام بن بهرام فكان ملكه الى أن هلك أربع سنين ، وأربعة أشهر .

ثم ملك بعد نرسي بن بهرام الملك بن بهرام البطل ، وكان ملكه سبع سنين ، وقيل : ونصفا .

ثم ملك بعده هرمز بن نرسي بن بهرام ، على ما ذكرنا من النسب ، وكان ملكه سبع سنين وخمسة أشهر . وذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى عن عمر كسرى أن كل من ذكرنا من ملوك آل ساسان الى هذا الملك (وهو هرمز بن نرسي) كانوا ينزلون جنديسابور من بلاد خوزستان .

وقد كان يعقوب بن الليث الصفار أراد سكنى جنديسابور متشبها بمن مضى من ملوك ساسان ، الى أن مات بها .

وسنذكر فيا يرد من هذا الكتاب أخبار المعتمد حين سكناه اياها ووفاته فيها .

سابور ذو الأكتاف

ثم ملك بعد هرمز بن نرسي ابنه سابور بن هرمز ، وهو سابور ذو الأكتاف . وكان ملكه الى أن هلك اثنتين وسبعين سنة . وخلفه والده حملا ، فغلبت العرب على سواد العراق ، وقام الوزراء بأمر التدبير .

وكانت جمرة العرب ممن غلب على العراق ولد اياد بن نزار ، وكان يقال لها طبق لاطباقها على البلاد ، وملكها يومئذ الحارث بن الأغر الايادي .

فلما بلغ سابور من السن ست عشرة سنة أعد أساورته بالخروج اليهم والايقاع بهم .

وكانت اياد تصيف بالجزيرة وتشتو بالعراق ، وكان في حبس سابور رجل منهم يقال له لقيط فكتب الى اياد شعرا ينذرهم به ، ويعلمهم خبر من يقصدهم ، وهو :

سلام في الصحيفة من لقيط على من في الجزيرة من اياد
بأن الليث يأتيكم دلاقا فلا يحسبكم شوك القتاد
أتاكم منهم سبعون ألفا يجرون الكتائب كالجراد
على خيل ستأتيكم ، فهذا أوان هلاككم كهلاك عاد

فلم يعبأوا بكتابه ، وسراياه تكر نحو العراق وتغير على السواد ، فلما تجهز القوم نحوهم أعاد اليهم كتابا يخبرهم فيه أن القوم قد عسكروا وتحشدوا لهم ، وأنهم سائرون اليهم ، وكتب لهم شعرا أوله :

يا دار عمرة من تذكارها الجرعا هيجت لي الهم والأحزان والوجعا

أبلـغ إيـادا وخلل في سراتهم إني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا
ألا تخافون قوما لا أبا لكم مشوا اليكـم كأمثال الـدبى سرعا
لو أن جمعهـم راموا بهدتهم شم الشماريخ من ثهلان لانصدعا
فقلـدوا أمركـم للّـه دركم رحب الـذراع بأمر الحرب مضطلعا

فأوقع بهم ، فعمّمهم القتل ، فما أفلت منه الا نفر لحقوا بأرض الروم ، وخلع بعد ذلك أكتاف العرب ، فسمي بعد ذلك سابور ذا الأكتاف .

وقد كان معاوية بن أبي سفيان راسل من بالعراق من تميم ليثبوا بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه . فبلـغ ذلك عليـا رضوان اللـه عليـه ، فقال في بعض مقاماته في كلام له طويل :

ان حيـا يرى الصلاح فسادا أو يرى الغـي في الأمور رشادا
لقريـب من الهلاك كما أهـ ـلك سابور بالسواد ايادا

وقد كان سابور في مسيره في البلاد أتى على بلاد البحرين ، وفيها يومئذ بنو تميم ، فأمعن في قتلهم ، وفرت بنو تميم ، وشيخها يومئذ عمرو بن تميم بن مر ، وله يومئذ ثلثمائة سنة .

وكان يعلق في عمود البيت في قفة قد اتخذت له ، فأرادوا حمله ، فأبى عليهم الا أن يتركوه في ديارهم ، وقال : أنا هالك اليوم أو غدا ، وماذا بقي لي من فسحة العمر ؟ ولعل الله ينجيكم بي من صولة هذا الملك المسلط على العرب .

فخلوا عنه ، وتركوه على ما كان عليه .

فصبحت خيل سابور الديار ، فنظروا الى أهلها وقد ارتحلوا ، ونظروا الى قفة معلقة في شجرة .

وسمع عمـرو صهيـل الخيـل ووقعهـا ، وهمهمة الـرجال ، فأقبل يصيـح بصوت ضعيف ، فأخذوه ، وجاءوا به الى سابور .

فلما وضع بين يديه نظر الى دلائل الهرم ومرور الأيام عليه ظاهرة ، فقال له سابور : من أنت أيها الشيخ الفاني ؟

قال : أنا عمرو بن تميم بن مر ، وقد بلغت من العمر ما ترى . وقد هرب الناس

منك لاسرافك في القتل وشدة عقوبتك اياهم ، وآثرت الفناء على يديك ليبقى من مضى من قومي . ولعل الله ملك السموات والأرض يجري على يديك فرجهم ويصرفك عما أنت بسبيله من قتلهم . وأنا سائلك عن أمر إن أذنت لي فيه .

فقال له سابور : قل يسمع منك .

فقال له عمرو : ما الذي يحملك على قتل رعيتك ورجال العرب ؟

فقال سابور : أقتلهم لما ارتكبوا من أخذ بلادي وأهل مملكتي .

فقال عمرو : فعلوا ذلك ولست عليهم بقيم ، فلما بلغت وقفوا عما كانوا عليه من الفساد هيبة لك .

قال سابور : أقتلهم لأنا ملوك الفرس نجد في مخزون علمنا وما سلف من أخبار أوائلنا أن العرب ستدال علينا ، وتكون لهم الغلبة على ملكنا .

فقال عمرو : هذا أمر تتحققه أم تظنه ؟

قال : بل أتحققه ولا بد أن يكون ذلك .

قال له عمرو : فان كنت تعلم ذلك فلم تسيء الى العرب ؟ والله لأن تبقي على العرب جميعا وتحسن اليهم فيكافئون عند ادالة الدولة لهم قومك باحسانك ، وان أنت طالت بك المدة كافأوك عند مصير الملك اليهم ، فيبقون عليك وعلى قومك . وان كان الأمر حقا ـ كما تقول ـ فهو أحزم في الرأي ، وانفع في العاقبة . وان كان باطلا فلم تتعجل الاثم وتسفك دماء رعيتك ؟

فقال سابور : الأمر صحيح ، وهو كائن لكم ، والرأي ، ما قلت . ولقد صدقت في القول ، ونصحت في الخطاب .

فنادى منادي سابور بأمان الناس ، ورفع السيف ، والكف عن قتلهم .

ويقال : ان عمرا بقي في هذا العالم بعد هذا الوقت ثمانين سنة ، وقيل : أقل من ذلك ، والله أعلم .

وسار سابور نحو بلاد الشام ، فافتتح المدن وقتل خلائق من الروم . ثم طالبته نفسه بالدخول الى أرض الروم متنكرا ليعرف أخبارهم وسيرهم . فتنكر وسار الى القسطنطينية ، فصادف وليمة لقيصر قد اجتمع فيها الخاص والعام منهم ، فدخل في جملتهم . وجلس على بعض موائدهم .

وقد كان قيصر أمر مصورا أتى عسكر سابور فصوره له . فلما جاء قيصر بالصورة أمر بها فصورت على آنية الشراب من الذهب والفضة .

وأتى من كان على المائدة التي عليها سابور بكأس ، فنظر بعض الخدم الى الصورة التي على الكـأس وسابور مقابل له على المـائدة ، فعجب من اتفاق الصورتين ، وتقارب الشكلين .

فقام الى الملك ، فأخبره ، فأمر به ، فمثل بين يديه ، فسأله عن خبره ، فقال : أنا من أساورة سابور استحققت العقوبة لأمر كان مني ، فدعـاني ذلك الى الـدخول الى أرضكم .

فلم يقبل ذلك منه ، وقدم الى السيف فأقر ، فجعله في جلد بقرة .

وسار قيصر في جنوده حتى توسط العراق ، وافتتح المدائن ، وشن الغارات ، وعضد النخل ، وانتهى الى مدينة جنديسابور ، وقد تحصن بها وجوه فارس ، فنزل عليها .

وحضر عيد لهم في تلك الليلة التي أشرفوا على فتح المدينة في صبيحتهـا ، فأغفل الموكلون أمر سابور ، وأخذ الشراب منهم .

وكـان بالقرب من سابور جماعـة من أسارى الفرس ، فخاطبهـم أن يحل بعضهـم بعضا ، وشجعهم ، وأمرهم أن يصبوا عليه زقاقا من الزيت كانت هناك ففعلوا ، فلان عليه الجلد وتخلص .

وأتى المدينة وهم يتحارسون على سورها فخاطبهم ، فعرفوه ورفعوه بالحبال اليهم ، ففتح أبواب خزائن السلاح ، وخرج بهم ففرقهم حول مواضع من الجيش ، والروم غارون مطمئنون . فكبس الجيش عند ضرب النواقيس ، فأتوه بقيصر أسيرا ، فاستحيـاه وأبقى عليه ، وهم اليه من أفلت من القتل من رجاله .

فغرس قيصر بالعراق الزيتون بدلا مما عضده من النخل فيها .

ولم يكن يعهد بالعراق الـزيتون قبل ذلك ، وبنى شاذروان مدينة تستر لنهرهـا ، والشاذروان هو المسناة العظيمة ،والكر من الحجر والحديد والرصاص ، وعمر ما أخرب في أخبار يطول ذكرها ، وانصرف قيصر نحو الروم .

وقد ذكر في بعض الأخبار أن سابور ربق قيصر ، وقطع أعصاب عقبيه أو رقمها ، وان الـروم لا تربق دوابها ، ولا تبلس الخفاف المعقبة . وفي ذلك يقول الحارث بن جندة المعروف بالهرمزان :

هم ملكـوا جميـع الناس طرا وهـم ربقوا هرقلا بالسواد
وهـم قتلـوا أبا قابوس غصبا وهـم أخذوا البسيـطة من اياد

وفي فعل سابور وتغريره بنفسه في دخوله الى أرض عدوه متجسسا يقول بعض المتقدمين من شعراء أبناء فارس :

وكان سابور صفوا في ارومته	اختير عنها فأضحى غير مختار
اذ كان بالروم جاسوسا يجول به	حزم المنية من ذي كيد مكار
فاستأسروه وكانت كبوة عجبا	وزلة سبقت من غير عثار
فأصبح الملك الرومي معترضا	أرض العراق على هول وأخطار
فراطن الفرس بالأبواب فافترقوا	كما تجاوب أسد الغاب في الغار
فجد بالسيف أمر الروم فامتحقوا	لله · درك من طلاب اوتار
اذ يغرسون من الزيتون ما عضدوا	من النخيل وما حفوا بمنشار

وغزا سابور بعد ذلك بلاد الجزيرة وآمد وغيرها من بلاد الروم ، ونقل خلقا من أهلها ، وأسكنهم بلاد السوس وتستر وغيرها من مدن كور الأهواز ، فتناسلوا وقطنوا تلك الديار .

فمن ذلك الوقت صار الديباج التستري وغيره من أنواع الحرير يعمل بتستر ، والخز بالسوس ، والستور والفرش ببلاد نصيبين ، ومكث الى هذه الغاية .

وقد كان من قبله من ملوك الساسانية وكثير ممن سلف من فارس الأولى يسكن بطيسون ، وذلك بغربي المدائن من أرض العراق . فسكن سابور في الجانب الشرقي من المدائن .

ايوان كسرى

وبنى هناك الايوان المعروف بايوان كسرى الى هذه الغاية .

وقد كان ابرويز بن هرمز اتم مواضع من بناء هذا الايوان ، وقد كان الرشيد نازلا على دجلة بالقرب من الايوان ، فسمع بعض الخدم من وراء السرادق يقول لآخر : هذا الذي بنى هذا البناء ابن كذا وكذا أراد أن يصعد عليه الى السماء .

فأمر الرشيد بعض الأستاذين من الخدم أن يضربه مائة عصا ، وقال لمن حضره : ان الملك نسبة ، والملوك به اخوة ، وان الغيرة بعثتني على أدبه لصيانة الملك ، وما يلحق الملوك للملوك .

وذكر عن الرشيد بعد القبض على البرامكة انه بعث الى يحيى بن خالد بن برمك. وهو

في اعتقاله ، يشاوره في هدم الايوان ، فبعث اليه : لا تفعل .

فقال الرشيد لمن حضره : في نفسه المجوسية ، والحنو عليها ، والمنع من ازالة آثارها .

فشرع في هدمه ، ثم نظر فاذا يلزمه في هدمه أموال عظيمة لا تضبط كثرة ، فأمسك عن ذلك . وكتب الى يحيى يعلمه ذلك ، فأجابه بأن ينفق في هدمه ما بلغ من الأموال ، ويحرص على فعله .

فعجب الرشيد من تنافي كلامه في أوله وآخره . فبعث اليه يسأله عن ذلك ، فقال : نعم ، أما ما أشرت به في الأول فاني أردت بقاء الذكر لأمة الاسلام وبعد الصيت ، وأن يكون من يرد في الأعصار ويطرأ من الأمم في الأزمان يرى مثل هذا البنيان العظيم فيقول : ان أمة قهرت أمة هذا بنيانها فأزالت رسومها واحتوت على ملكها لأمة عظيمة شديدة منيعة . وأما جوابي الثاني فأخبرت أنه قد شرع في هدمه ثم عجز عنه ، فأردت نفي العجز عن أمة الاسلام ، لئلا يقول من وصفت ممن يرد في الأعصار : ان هذه الأمة عجزت عن هدم ما بنته فارس !

فلما بلغ الرشيد ذلك من كلامه قال : قاتله الله تعالى ، فما سمعته قال شيئا قط الا صدق فيه . وأعرض عن هدمه .

وسابور هو الذي بنى مدينة نيسابور ببلاد خراسان وغيرها بفارس والعراق .

أردشير بن هرمز

ثم ملك بعد سابور بن هرمز أخوه أردشير بن هرمز ، وكان ملكه الى أن خلع أربعين سنة .

ملك سابور بن سابور

ثم ملك بعده سابور بن سابور ، خمس سنين ، وقيل : وأربعة أشهر . وكانت له حروب كثيرة مع اياد بن نزار وغيرها من العرب . وفيه يقول شاعر اياد :

على رغم سابور بن سابور أصبحت ... قباب اياد حولها الخيل والنعم

ويقال : ان هذا الشعر قاله نفر قد لحقوا بأرض الروم حين اوقع بهم سابور ذو الأكتاف ـ على ما ذكرنا ـ ثم تراجعوا الى ديارهم ، وانضافوا الى ربيعة من ولد بكر بن وائل . وان ربيعة كانت قد غلبت على السواد ، وشنت الغارات في ملك سابور بن سابور ،

فقال شاعر اياد في ذلك ما وصفنا ، وهم داخلون في جملة ربيعة ، وقيل غير ذلك ، والله أعلم بالصحيح منه .

بهرام

ثم ملك بعده بهرام بن سابور ، وكان ملكه عشر سنين ، وقيل : احدى عشرة سنة .

يزدجرد

ثم ملك بعده يزدجرد بن سابور ، المعروف بالأثيم . وكان ملكه الى أن هلك احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وثمانية عشر يوما ، وقيل : اثنتين وعشرين سنة غير شهرين .

بهرام جور

ثم ملك بعده بهرام بن يزدجرد وهو بهرام جور ، فكان ملكه ثلاثا وعشرين سنة وقيل: تسع عشرة سنة . وملك وهو ابن عشرين سنة . وغاص هو وفرسه في حومة حمأة في بعض أيام صيده ، فجزعت عليه فارس ، لما كان عمها من عدله ، وشملها من احسانه ورأفته برعيته ، واستقامة الأمور في أيامه .

وقد كان خرج في أيامه خاقان ملك الترك الى الصغد ، وشن الغارات في بلاده . وقيل : انه أتى الى بلاد الري ، وان بهرام كتب أجناده وتنكب الطريق في اليسير من جريدة أصحابه حتى أتى على خاقان في جنوده ، وسار نحو العراق برأسه . فهابته ملوك الأرض ، وهادنه قيصر وحمل اليه الأموال .

وقد كان بهرام قبل ذلك دخل الى أرض الهند متنكرا ، ولأخبارهم متعرفا ، واتصل بشبرمة ملك من ملوك الهند ، فأبلى بين يديه في حرب من حروبه ، وأمكنه من عدوه ، ، فزوجه ابنته على أنه بعض أساورة فارس .

وكان نشوءه مع العرب بالحيرة ، وكان يقول الشعر بالعربية ويتكلم بسائر اللغات . وكان على خاتمه مكتوب : بالأفعال تعظم الأخبار .

وله أخبار في أخذه الملك بعد أبيه وتناوله التاج والراية ، وقد وضعا بين سبعين وأخبار غير ذلك وسير يطول ذكرها ، ولأية علة سمي بهرام جور ، وما أحدث من الرمي بالنشاب في أيامه ، ومن النظم في داخل القوس وخارجها .

وقد أتينا على جميع ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وما قالت الفرس والترك في بنية القوس ، وأنها مركبة على الطبائع الأربع كطبائع الانسان ، وما ذهبوا اليه من أنواع الرمي وكيفيته .

ومما حفظ من شعر بهرام جور قوله يوم ظفره بخاقان وقتله له :

أقول له لما فضضت جموعه　كأنك لم تسمع بصولات بهرام
فاني حامي ملك فارس كلها　وما خير ملك لا يكون له حام ؟

وقوله ايضا :

لقد علم الأنام بكل أرض　بأنهمُ قد اضحوا لي عبيدا
ملكت ملوكهم ، وقهرت منهم　عزيزهم المسود والمسودا
فتلك أسودهم تقعي حذاري　وترهب من مخافتي الورودا
وكنت اذا تشاوس ملك أرض　عبأت له الكتائب والجنودا
فيعطيني المقادة او أوافي　به يشكو السلاسل والقيودا

وله أشعار كثيرة بالعربيةوالفارسية أعرضنا عن ذكرها في هذا الموضع طلبا للايجاز .

يزدجرد بن بهرام

ثم ملك بعده يزدجرد بن بهرام . وكان ملكه تسع عشرة سنة ، وقيل : ثماني عشرة سنة وأربعة أشهر وثمانية عشر يوما ، وقد كان بنى حائطا باللبن والطين بناحية الباب والأبواب ، على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في ذكرنا للباب والأبواب وجبل القبخ .

وأحضر يزدجرد بن بهرام رجلا من حكماء عصره كان في أقاصي مملكته آخذا من أخلاقهم ومقتبس الرأي منه يسوس به رعيته . فقال له يزدجرد وقد مثل بين يديه : أيها الحكيم الفاضل ، ما صلاح الملك ؟

فقال : الرفق بالرعية ، وأخذ الحق منهم من غير مشقة ، والتودد اليهم بالعدل ، وأمن السبل ، وانصاف المظلوم من الظالم .

قال : فما صلاح أمر الملك ؟

فقال : وزراؤه وأعوانه ، فانهم ان صلحوا صلح ،وان فسدوا فسد .

وقال له يزدجرد : ان الناس قد أكثروا في أسباب الفتن ، فصف لي ما الذي يشبها وينشئها ، وما الذي يسكنها ويدفنها ؟

قال : يشبها ضغائن ، وينشئها جرأة عامة ، ولَّدها استخفاف بخاصة ، وأكدها انبساط الألسن بضمائر القلوب ، واشفاق موسر ، وأمل معسر ، وغفلة ملتذ ، ويقظة محروم . والذي يسكنها أخذ العدة لما يخاف قبل حلوله ، وايثار الجد حين يلتذ الهزل ، والعمل بالحزم في الغضب والرضا .

هرمز بن يزدجرد وأخوه فيروز

ثم ملك بعده هرمز بن يزدجرد ، فنازعه أخوه فيروز فقتله وولي الملك . وهو فيروز ابن يزدجرد بن بهرام .

وكان ملك فيروز الى أن هلك على يدي ملك الهياطلة أخشنواز بمرو الروذ من بلاد خراسان سبعا وعشرين سنة . والهياطلة هم الصغد ، وهم بين بخارى وسمرقند .

بلاس بن فيروز

ثم ملك بلاس بن فيروز الملك ، وكان ملكه أربع سنين .

قباذ

ثم ملك قباذ بن فيروز ، وفي أيامه ظهر مزدك الزنديق ، واليه تضاف المزدكية . وله أخبار مع قباذ ، وما أحدثه في العامة من النواميس والحيل ، الى أن قتله أنو شروان في ملكه ، وكان ملك قباذ الى أن هلك ثلاثا وأربعين سنة .

انو شروان

ثم ملك بعده ولده أنو شروان بن قباذ بن فيروز ثمانيا وأربعين سنة ، وقيل سبعا وأربعين سنة وثمانية أشهر .

وقد كان قباذ خلع من ملكه وأجلس بدله أخ له يقال له جاماسب نحوا من سنتين ، لأمر كان من مزدك وأصحابه . فظاهر أنو شروان بزرجمهر بن سرحو حتى أعيد قباذ الى ملكه في خبر طويل .

ولما ملك أنو شروان قتل مزدك وأتبعه بثمانين ألفا من أصحابه ، وذلك بين حادر والنهروان من أرض العراق ، فسمي من ذلك اليوم أنو شروان ، وتفسير ذلك جديد الملوك .

وجمع أهل مملكته على دين المجوسية ، ومنعهم النظر والخلاف والحجاج في الملل .
وسار نحو الباب والأبواب وجبل القبخ لما كان من غارات من هنالك من الملوك على بلاده ، فبنى السور في البحر على أزقاق البقر المنفوخة بالصخر والحديد والرصاص . . .

فكلما ارتفع البناء نزلت تلك الأزقاق الى أن استقرت في قرار البحر ، وقد ارتفع السور على الماء . وغاصت الرجال حينئذ بالخناجر والسكاكين الى تلك الأزقاق فشقتها ، وتمكن السور على وجه الماء في قرار البحر .

وهو باق الى وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) ، ويسمى هذا الموضع من السور في البحر الصد مانعا للمراكب في البحر ان وردت من بعض الأعداء .

ثم مد السور في البر ما بين جبل القبخ والبحر ، وجعل فيه الأبواب مما يلي الكفار . ثم مد السور على جبل القبخ على ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لأخبار جبل القبخ والباب .

وكان لأنو شروان خبر مع ملوك الخزر الى ان تأتى له هذا البناء . وقيل : انه بنى ذلك بالرهبة واذعان من هنالك من الأمم له .

وانصرف انو شروان الى العراق ، ووفدت عليه رسل الملوك وهداياها والوفود من الممالك . وكان فيمن وفد اليه رسول لملك الروم قيصر بهدايا وألطاف ، فنظر الرسول الى ايوانه وحسن بنيانه واعوجاج في ميدانه ، فقال : كان يحتاج هذا الصحن أن يكون مربعا .

فقيل له : ان عجوزا لها منزل من جانب الاعوجاج منه ، وان الملك أرادها على بيعه وأرغبها ، فأبت . فلم يكرهها الملك ، وبقي الاعوجاج من ذلك على ما ترى .

فقال الرومي : هذا الاعوجاج الآن أحسن من الاستواء .

وسار أنو شروان في بلاده ، ودار مملكته فأحكم البنيان ، وشيد القلاع والحصون ، ورتب الرجال . وغدر بقيصر ، فسار نحو الجزيرة ، فافتتح ما هنالك من المدن ، وانتهى الى الفرات فعبر الى الشام فافتتحها المدن ، وكان مما افتتح بلاد حلب وقنسرين وحمص وفامية ، وهي بين انطاكية وحمص .

وسار الى أنطاكية وحاصرها ، وفيها ابن أخت لقيصر ، فافتتحها .

وافتتح مدينة عظيمة كثيرة العمران عجيبة البنيان كانت في ساحل انطاكية رسومها تهدف الى هذه الغاية وأثرها قائم ، تدعى سلوقية وأقبل يفتتح المدائن بالشام وأرض الروم ، ويغنم الغنائم والجواهر والأموال وبذل السيف ، وبث عساكره وسراياه .

فهادنه قيصر ، وحمل اليه الخراج والجزية ، فقبل ذلك منه .

ونقل من الشام المرمر والرخام وأنواع الفسيفساء والأحجار (والفسيفساء : هي شيء يطبخ من الزجاج والأحجار ذو بهجة وألوان يدخل فيهما فرش من الأرض والبنيان كالفصوص ، ومنه على هيئة الجامات شاف) ، وحمل ذلك الى العراق ، فبنى مدينة نحو المدائن وسماها برومية ، وجعل بنيانها وما داخل سورها بما ذكرنا من أنواع الأحجار ، يحكي بذلك أنطاكية وغيرها من المدن في الشام .

وهذه المدينة سورها من طين قائم الى هذا الوقت خراب ، وباق يعرف بما ذكرنا .

وزوجه خاقان ملك الترك بابنته وابنة أخيه ، وهادنته ملوك السند والهند والشمال والجنوب وسائر الممالك . وحملت اليه الهدايا ، ووفدت اليه الوفود خوفا من صولته وكثرة

جنوده وعظم مملكته ، ولما ظهر من فعله بالممالك ، وقتله الملوك ، وانقياده الى العدل .

وكتب اليه ملك الصين : « من فغفور ملك الصين صاحب قصر الدر والجوهر ، الذي يجري في قصره نهران يسقيان العود والكافور الذي توجد رائحته على فرسخين ، والذي تخدمه بنات ألف ملك ، والذي في مربطه ألف فيل أبيض ، الى أخيه كسرى أنو شروان » .

وأهدى اليه فرسا من در منضد ، عينا الفارس والفرس من ياقوت احمر ، وقائم سيفه من زمرد منضد بالجوهر ، وثوب حرير صيني عسجدي فيه صورة الملك جالسا في ايوانه ، وعليه حليته وتاجه ، وعلى رأسه الخدم ، وبأيديهم المذابّ . والصورة منسوجة بالذهب ، وأرض الثوب لازورد ، في سفط من ذهب ، تحمله جارية تغيب في شعرها ، تتلألأ جمالا .

وغيرما ذكرنا من عجائب ما يحمل من أرض الصين وتهديه الملوك الى أكفائها .

وكتب اليه ملك الهند : « من ملك الهند ، وعظيم أراكنة المشرق ، وصاحب قصر الذهب وأبواب الياقوت والدر ، الى أخيه ملك فارس صاحب التاج والراية كسرى أنو شروان » .

وأهدى اليه ألف من من عود هندي يذوب في النار كالشمع ، ويختم عليه كما يختم على الشمع فتبين فيه الكتابة ، وجاما من الياقوت الأحمر فتحه شبر مملوءا درا ، وعشرة أمنان كافور كالفستق وأكبر من ذلك ، وجارية طولها سبعة أذرع تضرب أشفار عينيها خدها ، وكأن بين أجفانها لمعان البرق من بياض مقلتيها مع صفاء لونها ودقة تخطيطها واتقان تشكيلها مقرونة الحاجبين ، لها ضفائر تجرها ، وفرشا من جلود الحيات ألين من الحرير وأحسن من الوشي .

وكان كتابه في لحاء الشجر المعروف بالكاذي ، مكتوب بالذهب الأحمر . وهذا الشجر يكون بأرض الهند والصين ، وهو نوع من النبات عجيب ذو لون حسن وريح طيب ، لحاؤه أرق من الورق الصيني ، تتكاتب فيه ملوك الصين والهند .

وورد عليه وهو في عسكره محاربا لبعض أعدائه كتاب ملك التبت : « من خاقان ملك تبت ومشارق الأرض المتاخمة للصين والهند ، الى أخيه المحمود في السيرة والقدر ، ملك المملكة المتوسطة للأقاليم السبعة » .

وأهدى اليه أنواعا من العجائب التي تحمل من أرض تبت منها مائة جوشن تبتية ، ومائة قطعة تجافيف ، ومائة ترس تبتية مذهبة ، وأربعة آلاف من من المسك الخزائني في نوافج غزلانه .

وقد كان أنو شروان سار الى ما وراء نهر بلخ ، وانتهى الى ختلان ، وقتل أخشنواز

ملك الهياطلة بجده فيروز ، وملك مملكته فأضافها إلى ملكه .

وقد كان نقل اليه من الهند كتاب كليلة ودمنة والشطرنج ، والخضاب الأسود المعروف بالهندي ، وهو الخضاب الذي يلمع سواده فيا يظهر من أصول الشعر سنة كاملة بصبغة سوداء ، ولا ينصل منه شيء .

ويحكى أن هشام بن عبد الملك بن مروان كان يخضب بهذا الخضاب .

وكان لأنو شروان مائدة من الذهب عظيمة عليها أنواع من الجواهر مكتوب عليها من جوانبها : « ليهنه طعامه من أكله من حله ، وعاد على ذوي الحاجة من فضله . ما أكلته وأنت تشتهيه فقد أكلته ، وما أكلته وأنت لا تشتهيه فقد أكلك » .

وكان له خواتم أربعة : خاتم للخراج فصه من العقيق ونقشه العدل ، وخاتم للضياع فصه فيروزج نقشه العمارة ، وخاتم للمعونة فصه ياقوت كحلي نقشه التأني ، وخاتم للبريد فصه ياقوت أحمر يتقد كالنار نقشه الرجاء .

ووضع أنو شروان على العراق وضائع الخراج ، فألزم كل جريب من السواد من مزارع الحنطة والشعير درهما ، والأرز نصفا وثلثا ، ولكل أربع نخلات فارسية درهما ، وكل ست نخلات دقل درهما ، وكل ست أصول زيتون درهما ، والكرم ثمانية دراهم ، والرطب سبعة دراهم . فهذه سبعة أنواع من الغلات ، وترك ما عداها ، اذ كانت لقضم الناس والبهائم .

وكان أنو شروان يدعى كسرى الخير ، وقد ذكرته الشعراء في أشعارها ، ففي ذلك يقول عدي بن زيد العبادي من كلمة :

أيـن كسرى خير الملـوك أنو شر ... وان ؟ أم أيـن من قبلـه سابور ؟

لم يهبه ريـب المنون ، فولى المـ ... ـلك عنه ، فبابه مهجور

حين ولـوا كأنهم ورق جفْـ ... ـفَ فألـوت به الصبا والدبور

وجلس أنو شروان يوما للحكماء ليأخذ من آدابهم فقال لهم وقد أخذوا مراتبهم في مجلسه : دلوني على حكمة فيها منفعة لخاصة نفسي وعامة رعيتي .

فتكلم كل واحد منهم بما حضره من الرأي ، وأنو شروان مطرق يتفكر في أقاويلهم .

سياسة الدولة .

فانتهى القول الى بزرجمهر بن البختكان فقال : أيها الملك ، أنا جامع لك ذلك في

اثنتي عشرة كلمة .

فقال : هات .

فقال : « أولهن تقوى الله في الشهوة والرغبة والرهبة والغضب والهوى ، فاجعل ما عرض من ذلك كله لله لا للناس .

« والثانية : الصدق في القول والعمل والوفاء بالعدات والشروط والعهود والمواثيق .

« والثالثة : مشورة العلماء فيما يحدث من الأمور .

« والرابعة : اكرام العلماء والأشراف وأهل الثغور والقواعد والكتاب والخول بقدر منازلهم .

« والخامسة : التعهد للقضاة ،والفحص عن العمال محاسبة عادلة ، ومجازاة المحسن منهم باحسانه والمسيء على اساءته .

« والسادسة : تعهد أهل السجون بالعرض لهم في الأيام لتستوثق من المسيء وتطلق البريء .

« والسابعة : تعهد سبيل الناس وأسواقهم وأسعارهم وتجاراتهم .

« والثامنة : حسن تأديب الرعية على الجرائم واقامة الحدود .

« والتاسعة : اعداد السلاح وجميع آلات الحرب .

« والعاشرة : اكرام الولد والأهل والأقارب وتفقد ما يصلحهم .

« والحادية عشرة : اذكاء العيون في الثغور ليعلم ما يتخوف فيؤخذ له أهبته قبل هجومه .

« والثانية عشرة : تفقد الوزراء والخول والاستبدال بذي الغش والعجز عنهم » .

فأمر انو شروان أن يكتب هذا الكلام بالذهب ، وقال : هذا كلام فيه جوامع أنواع السياسات الملوكية .

وكان مما حفظ من كلام أنو شروان وحكمته أنه سئل : ما أعظم الكنوز قدرا ، وأنفعها عند الاحتياج اليها ؟

فقال : معروف اودعته الأحرار ، وعلم تورثه الأعقاب .

وقيل لأنو شروان : من أطول الناس عمرا ؟

فقال : من كثر علمه فتأدب به من بعده ، أو معروفه فيشرف به عقبه .

وأنو شروان الذي يقول : الانعام لقاح ، والشكر ولادة ، والمنعم هو الجاعل للشاكر الى شكره سبيلا .

وهو الذي يقول : لا تعدن الحرصاء في الأمناء ، ولا الكذابين في الأحرار .

وقال أنو شروان يوما لبررجمهر : من يصلح من ولدي للملك فأظهر ترشيحه والايماءَ اليه ؟

فقال : لا اعرف ولدك ، ولكني أصف لك من يصلح للملك : أسماهم للمعالي ، وأطلبهم للأدب ، وأجزعهم من العامة ، وأرأفهم بالرعية ، وأوصلهم للرحم ، وأبعدهم من الظلم . فمن كانت هذه صفته فهو حقيق بالملك .

**

قال المسعودي : وقد ذكرنا في كتاب « الزلف » الخصال التي يستحق بها الملك من وجدت فيه ، وما ذكرنا من حكماء الفرس وأسلافها في ذلك ، وغيرها من حكماء اليونانيين كأفلاطون وما ذكره في كتاب « السياسة المدنية » وغيره ممن تأخر عن عصره .

وذكر عن بزرجمهر أنه قال : رأيت من أنو شروان خصلتين متباينتين لم أر مثلهما منه :

جلس يوما للناس فدخل رجل من خاصة أهله فنحاه وزيره . فأمر به أن يقام ويحجب عنه سنة لتعديه المرتبة التي رسمت له ، وازدياده فيها عن مرتبة غيره في المجلس .

ثم رأيته يوما ونحن عنده في سر من تدبير شيء من المملكة ، وخدمه خلف فراشه وسرير ملكه يتحدثون ، فارتفعت أصواتهم حتى شغلونا عن بعض ما كنا فيه ، فقلت له وأخبرته بتفاوت ما بين الحالتين .

فقال لي : لا تعجب ، فنحن ملوك على رعيتنا ، وخدمنا ملوك على أرواحنا ينالون منا في خلوتنا ما لا حيلة لنا معه في التحرز منهم .

وكان أنو شروان يقول : الملك بالجند ، والجند بالمال ، والمال بالخراج ، والخراج بالعمارة ، والعمارة بالعدل ، والعدل باصلاح العمال ، واصلاح العمال باستقامة الوزراء ، ورأس الكل تفقد الملك أمور نفسه واقتداره على تأديبها حتى يملكها ولا تملكه .

وكان يقول : صلاح أمر الرعية أنصر من كثرة الجنود ، وعدل الملك أنفع من خصب الزمان .

وكان يقول : أيام السرور كلمح البصر ، وأيام الحزن تكاد تكون شهورا .

***

قال المسعودي : ولأنو شروان سير وأخبار حسان ، قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا ، وما كان منه في مسيره في سائر أسفاره ، وما بنى من المدن والحصون ، ورتب من المقاتلة في الثغور .

هرمز بن أنو شروان

ثم ملك بعده هرمز بن أنو شروان بن قباذ ، وأمه فاقم بنت خاقان ملك الترك ؛ وقيل : بل ملك من ملوك الخزر مما يلي الباب والأبواب . فكان ملكه اثنتي عشرة سنة .

وكان متحاملا على خواص الناس ، مائلا الى عوامهم ، مقويا لهم ، مؤثرا للروبصية وتوابع العوام ، مغريا لهم بخواص الناس .

وقيل : انه قتل في مدة ملكه من خواص فارس ثلاثة عشر ألف رجل مذكور .

ولاثنتي عشرة سنة من ملكه تخرم عليه الملك ، وتداعت أركانه ، وزحفت اليه الأعداء وكثرت عليه الخوارج .

وقد كان أزال أحكام الموبذان ، فخربت بذلك السنة المحمودة ، والشريعة المعهودة ، وغير الأحكام ، وأزال الرسوم .

وكان ممن سار اليه شابة بن شب ، عظيم من ملوك الترك في أربعمائة ألف ، فنزل نحو بلاد هراة وبدغيس وبوشنج من أرض خراسان .

وسار اليه من أطراف أرضه طراخنة من الخزر في جيش عظيم ، فشنوا الغارات فيما بين ذلك الصقع بخيل أوقعت ، وملوك تهادنت وتواهبت ما كان بينها من الدماء مما يلي جبل القبخ .

وسار بطريق لقيصر في ثمانين ألفا مما يلي الجزيرة .

وسار مما يلي اليمن جيش عظيم للعرب من قحطان ومعد ، وعليهم العباس المعروف بالأحول وعمر والأفوه .

فاضطرب على هرمز أمره ، وأحضر الموابذة وذوي الرأي منهم من بعد اخماله لهم ، وشاورهم . فكان من نتيجة رأيهم موادعة الوجوه الثلاثة وارضاؤهم والاقبال على شابة بن شاب .

فانتدب لحربه بهرام جوبين مرزبان الري ، وكان بهرام هذا من ولد جوبين بن ميلاد من نسل أنوش المعروف بالرام . فسار في اثني عشر ألفا ، وشابة في أربعمائة ألف .

فكانت لبهرام معه خطوب ومراسلات من ترغيب وترهيب وحيل في الحرب ، الى أن قتله بهرام ، واستباح عسكره ، واستولى على خزانته وأمواله ، وبعث الى هرمز برأسه .

وقد كان برمودة بن شابة ولده تحصن في بعض القلاع من بهرام . فنزل عليه بهرام ، فنزل برمودة على حكم هرمز ، وسار اليه .

وحمل بهرام حملا من الغنائم وما كان أخذه من شابة مما كان معه من تركات الملوك :

مثل ما كان في خزائن فراسياب من الأموال والجواهر التي كان أخذها من سياوخش ، وما كان بأيدي الترك من تركات بهراسف ملك الترك مما أخذه من خزائن يستاسف من مدينة بلخ وغيرها من ذخائر ملوك الترك السالفة .

فلما انتهى ما وصفنا من الأموال والجواهر وغير ذلك من الغنائم من قبل بهرام حسده وزير هرمز أريخسيس الخوزي ، وقد نظر الى اعجاب هرمز بما حمل اليه بهرام وسروره به ، فقال : أعظم هذه زلته . وعرض لهرمز بخيانة بهرام ، واستبداده بأكثر الجواهر والأموال والغنائم ، وأغراه به ، فعصاه بهرام .

ثم احتال بهرام بدراهم ضرب عليها اسم كسرى أبرويز ، ودس أناسا من التجار فأنفقوها بباب هرمز ، فتعامل بها الناس ، وكثرت في أيديهم . وعلم بها هرمز ، فلم يشك في أن ابنه أبرويز ضربها طلبا للملك . فهم به هرمز وهو لا يشك أن ذلك من فعله . ولم يعلم أن الحيلة في ذلك من بهرام .

فهرب أبرويز من أبيه لتغيره عليه . ولحق ببلاد أذربيجان وأرمينية والران والبيلقان ، وحبس هرمز خاليّ أبرويز بسطام وبندويه ، فأعملا الحيلة في محبسهما وخرجا ، فانضاف اليهما خلق من الجيش ، فدخلا على هرمز فسملا عينيه وأعمياه .

فلما نمي ذلك الى أبرويز سار الى أبيه فدخل عليه وأخبره أنه لا ذنب له في ذلك ، وانما هرب خوفا على نفسه منه ، فتوجه هرمز وسلم الملك اليه .

ونمي ذلك الى بهرام جوبين فسار في عساكره يؤم الباب ودار الملك . فخرج اليه أبرويز ، فالتقيا على شاطىء النهروان ، والنهر بينهما ، فتواقعا وكان لهما خطب طويل من تقاذف وتشاتم .

ثم كانت بينهما حروب انكشف فيها أبرويز لتخلف أصحابه عنه وميلهم الى بهرام ، فقام تحته فرسه المعروف بشبدار ، وهو المصور في الجبل ، وهو ببلاد فرماسين من أعمال الدينور من ماه الكوفة هو وأبرويز وغير ذلك من الصور ، وهذا الموضع من احدى عجائب العالم ، وغرائب ما فيه من الصور العجيبة المنقورة في الصخر ، والفرس تذكر في أشعارها وغيرها من العرب هذا الفرس المعروف بشبدار .

وقد كان أبرويز على شبدار في بعض الأيام فانقطع عنانه ، فدعا بصاحب سروجه ولجمه ، فأراد ضرب عنقه لما لم يتعهد العنان . فقال : أيها الملك ، ما بقي سير يجيد به ملك الانس وملك الخيل .

فأطلقه ، وأجازه .

ولما بلح هذا الفرس تحت أبرويز وقصر ، طلب الى النعمان في المعركة أن يمن عليه بفرسه المعروف باليحموم ، فأبى عليه ونجا عليه بنفسه .

ونظر حسان بن حنظلة بن حية الطائي الى أبرويز وقد خانته الرجال وأشرف على الهلاك ، فأعطاه فرسه المعروف بالضبيب ، وقال له : أيها الملك ، انج على فرسي ، فان حياتك للناس خير من حياتي .

وأعطاه أبرويز فرسه شبدار فنجا عليها في جملة الناس . ومضى أبرويز الى أبيه ، ففي ذلك يقول حسان بن حنظلة الطائي :

وأعطيت كسرى ما أراد ولـم أكن	لأتركـه في الخيـل يعثر راجلا
بذلت له ظهر الضبيب وقد بدت	مسومة من خيـل ترك ووائلا

فكافأه أبرويز بعد ذلك ، وعرف له ما صنع .

ولما سار أبرويز من الهزيمة الى أبيه هرمز أشار عليه أن يلحق بقيصر ويستنجده ، فان الملوك اذا استنجدت في مثل هذه الحالة أنجدت ، في خطب طويل جرى بينه وبين أبيه .

فمضى أبرويز وتبعه غيره من الخواص ، وخالاه بسطام وبندويه ، وعبر دجلة ، وقطع الجسر خوفا من خيل بهرام .

ونظر في مسيرة ذلك اليوم الى خاليه ، وقد تأخرا عنه ، فاستراب بهما وبمن انضاف اليهما ممن كان معهم ، فسألهما عن السبب ، فقالا : لسنا بآمنين أن يدخل بهرام الى أبيك هرمز فيضع تاج المملكة على رأسه ، وان كان أعمى ، ويصير هو الهرمزان (وتفسير ذلك أن أمير الأمراء ، والروم تسمي صاحب هذه المرتبة الدمستق) ، فيكتب بهرام عن أبيك هرمز الى قيصر : ان ابني أبرويز وجماعة انضافوا اليه وثبوا بي وسملوا عيني ، فاحمله الي . فيحملنا قيصر اليه ، فيأتي علينا بهرام . ولا بد لنا من الرجوع الى أبيك وقتله .

فناشدهما الله ألاّ يفعلا ذلك ، واظهر فيما ذكر عنه البراءة من فعلهما ، فرجعا من فورهما ، ومن تسرع معهما الى المدائن وقد صاروا على أميال منها، فدخلا على هرمز فخنقاه .

ولحقا بأبرويز ، ولحقتهم خيل بهرام ، وكانت بينهم حملة في بعض الديارات الى أن تخلصوا من تلك الخيل ، وسار أبرويز ، ففي هرمز يقول ورقة بن نوفل :

لم يغـن هرمز شيء من خزائنه	والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان اذ تجري الريـاح له	والجن والانس تجري بينهـا البرد

وأسرع بهرام جوبين الى المدائن من النهروان ، حين بلغه قتل هرمز فاحتوى على الملك ، ولحق أبرويز بالرها فنزلها ، وكاتب ملك الروم ، وهو موريقس مع خاله بسطام وجماعة ممن كانوا معه ، يسأله النصرة على عدوه ، ويضمن له الوفاء بما ينفقه من أمواله ، والاحسان الى جنده ، وأنه يؤدي اليه ديات من يقتل من رجاله ، وغير ذلك من الشروط .

وأهدى اليه هدايا كثيرة : منها مائة غلام من أبناء أراكنة الترك في نهاية الحسن والجمال واستقامة الصور ، في آذانهم أقراط الذهب فيها الدر واللؤلؤ ، ومائدة من العنبر فتحها ثلاثة أذرع على ثلاث قوائم من الذهب مفصلة بأنواع الجواهر أحد الأرجل ساعد وكف أسد ، والآخر ساق وعل بظلفه ، والثالث كف عقاب بمحلبه ، وفي وسطها جام جزع يماني فاخر فتحه شبر مملوء حجارة ياقوت أحمر ، وسفط من ذهب فيه مائة درة وزن كل درة مثقال أرفع ما يكون.

فحمل اليه موريقس ملك الروم ألفي ألف دينار ، ومائة ألف فارس ، بعث بهم مع هديته ، وألف ثوب من الديباج الخزائني المنسوج بالذهب الأحمر وغيره من الألوان ، وعشرين ومائة جارية من بنات ملوك برجان والجلالقة والصقالبة والوسكنس وغيرهم من الأجناس المجاورة لملك الروم ، على رؤوسهن أكاليل الجوهر ، وزوجه بابنته مارية وحملها اليه مع أخيه تندوس .

واشترط ملك الروم على أبرويز شروطا كثيرة : منها النزول عن الشام ومصر مما كان غلب عليه أنو شروان ، وترك التعرض لذلك . فأجابه الى ذلك .

وقد كانت ملوك الفرس تتزوج الى سائر من جاورها من ملوك الأمم ولا تزوجها ، لأنهم أحرار وأنجاد ، وللفرس في هذا خطب طويل كفعل قريش وتركها السنن وتحمسها . فكانوا يقفون بمزدلفة ، وهو يوم الحج الأكبر ، ويقولون : نحن الحمس .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار : « أنا رجل أحمسي » .

ولما اجتمع لابرويز ما وصفنا سار الى بلاد أذربيجان ، فاجتمع اليه هنالك من كان من العساكر بها ، وانضاف اليه كثير من الجنود والأمم . وبلغ بهرام جوبين ما قد عزم عليه ، فسار اليه فيمن كان معه من عساكره ، فالتقى الجيشان جميعا ، فتوجهت على بهرام ، فانكشف في نفر من أصحابه ، وانتهى الى أطراف خراسان .

وكاتب خاقان ملك الترك فأمنه وسار الى ملكه هو ومن زحف معه من أصحابه ، وأخته كردية ، وكانت في الشجاعة والفروسية نحوه ، وعليها كان يعول في كثير من حروبه .

ومضى كسرى أبرويز الى دار مملكته ، وأمر لجنود موريقس بالأموال والمراكب والكساوي ، وكافأهم على ما كان منهم في معونته ، وحمل اليه ألفي ألف دينار ، وقرن ذلك بهدايا كثيرة وأموال عظيمة من آلات الذهب والفضة ، ووفى له بكل ما وعده ، وخرج من كل ما أوجبه على نفسه .

واحتال أبرويز في قتل بهرام في أرض الترك ، فقتل هناك غيلة . وذكر أن رأسه حمل بعد أن احتيل عليه وأخرجه من الناووس الذي كان خاقان ملك الترك دفنه فيه ، وحمله اليه رجل تاجر فارسي فنصب على باب أبرويز في رحبة قصره .

وخرجت كردية فيمن كان معها من أصحاب بهرام من أرض الترك ، وقد كان لها أخبار في الطريق مع ابن خاقان ، وكاتبها أبرويز في قتل خاله بسطام ، وكان مرزبان الديلم وخراسان فقتلته ، وقتل خاله الآخر بأبيه هرمز ، ثم صارت كردية اليه فتزوجها .

وللفرس كتاب مفرد في أخبار بهرام جوبين ، وما كان من مكايده ببلاد الترك حين سار اليها ، واستنقاذه لابنة ملك الترك من حيوان اسمه السمع نحو العنز الكبير كان قد احتملها من بين جواريها وعلا بها وقد خرجت لبعض متنزهاتها ، وما كان من بدء حاله الى مقتله ونسبه .

بين أبرويز وبزرجمهر

وكان وزير أبرويز ، والغالب عليه ، والمدبر لأمره ، حكيم من حكماء الفرس ، وهو بزرجمهر بن البختكان . فلما خلا من ملكه ثلاث عشرة سنة اتهمه بالميل الى بعض الزنادقة من الثنوية ، فأمر بحبسه ، وكتب اليه : كان من ثمرة علمك ونتيجة ما أداك اليه عقلك ، أن صرت أهلا للقتل ، وموضعا للعقوبة .

فكتب اليه بزرجمهر . أما اذ كان معي الجد فقد كنت أنتفع بثمرة عقلي ، فالآن اذ لا جد معي فقد أنتفع بثمرة الصبر ، واذ قد فقدت كثير الخير فقد استرحت من كثير من الشر .

وأغري أبرويز ببزرجمهر ، فدعا به ، وأمر بكسر أنفه وفمه ، فقال بزرجمهر : فمي لأهل لما هو شر من هذا .

فقال أبرويز : ولم يا عدو الله المخالف ؟

فقال : لأني كنت أصفك لخواص الناس وعوامهم بما ليس فيك ،وأقربك من قلوبهم ، وأرفع من محاسن أمورك ما لم تكن عليه . اسمع مني يا شر الملوك نفسا ، وأخبثهم فعلا ، وأسوأهم عشرة ، أتقتلني بالشك وترفع به اليقين الذي قد علمته مني من التمسك بالشريعة ؟ من ذا الذي يرجو عدلك ويثق بقولك ويطمئن اليك ؟

فغضب أبرويز ، وأمر به فضرب عنقه .

ولبرزجمهر في أيدي الناس قضايا وحكم ومواعظ وكلام كثير في الزهد وغيره .

وندم أبرويز على قتله وتأسف . ودعا بخيرارّيس الوزير الثاني ، وكانت مرتبته دون مرتبة بزرجمهر ، فلما رأى بزرجمهر قتيلا أسف عليه ، وعلم أنه لا ينجو ، فأغلظ لأبرويز في الكلام ، فأمر به فقتل وأغرق في دجلة .

فلما عدم هذين الرجلين وما كانا عليه من الكفاية وتدبير الملك استوحش من شريعة العدل وواضحة الحق ، فعدل الى الجور والعسف بخواص رعيته وعوامها ، وحملها على ما لم تكن تعهد ، وأوردهم الى ما لم يكونوا يعرفونه من الظلم .

فوثب بطريق من بطارقة الروم يقال له فوقاس فيمن اتبعه على موريقس ملك الروم حمى أبرويز ومنجده فقتلوه ، وملكوا فوقاس . ونمي ذلك الى أبرويز فغضب لحميه ، وسير الى الروم الجيوش وكانت له في ذلك أخبار يطول ذكرها .

وسير شهريار مرزبان المغرب الى حرب الروم ، فنزل أنطاكية ، فكانت له مع الروم وأبرويز أخبار ومكاتبات وحيل ، الى أن خرج ملك الروم الى حرب شهريار ، وقدم خزائنه في البحر في ألف مركب ، فألقتها الريح الى ساحل أنطاكية ، فغنمها شهريار ، وحملها الى أبرويز ، فسميت خزائن الريح .

ثم فسدت الحال بين أبرويز وشهريار ، ومايل شهريار ملك الروم ، فسيره شهريار نحو العراق الى أن انتهى الى النهروان .

فاحتال أبرويز في كتب كتبها مع بعض أساقفة النصرانية ممن كان في ذمته حتى رده الى القسطنطينية وأفسد الحال بينه وبين شهريار . . . وغير ذلك مما قد أتينا على ذكره في الكتاب الأوسط .

يوم ذي قار

وفي ملك أبرويز كانت حروب ذي قار ، وهو اليوم الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : « هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم ، ونصرت عليهم بي » .

وكانت وقعة ذي قار لتمام أربعين سنة من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة بعد أن بعث . وقيل : بعد أن هاجر ، وفي رواية أخرى أنها كانت بعد وقعة بدر بأشهر ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

وكانت هذه الوقعة بين بكر بن وائل والهرمزان صاحب كسرى أبرويز .

وقد أتينا على هذه الأخبار على الشرح والايضاح في الكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن ايراده في هذا الموضع .

ارهاصات النبوة ببلاد فارس

وفي أيام أبرويز كانت حوادث تنذر بالنبوة وتبشر بالرسالة ، وأنفذ أبرويز عبد المسيح ابن بقيلة الغساني الى سطيح الكاهن ، فأخبره برؤيا الموبذان وارتجاج الايوان ، وغير ذلك من أخبار فيض وادي السماوة وما كان من بحيرة ساوة .

وكان لأبرويز تسعة خواتم تدور في أمر الملك : منها خاتم فضة فصه ياقوت أحمر ، نقشه صورة الملك وحوله مكتوب صفة الملك ، وحلقته ماس تختم به الرسائل والسجلات .

والخاتم الثاني فصه عقيق نقشه « خراسان حرة » ، وحلقته ذهب ، تختم به التذكرات .

والخاتم الثالث فصه جزع نقشه فارس يركض ، وحلقته ذهب منقوش فيه « الوحا » ، يختم به أجوبة البريد .

والخاتم الرابع فصه ياقوت مورد نقشه « بالمال ينال الفرح » ، وحلقته ذهب ، يختم به البراوات والكتب في التجاوز عن العصاة والمذنبين .

والخاتم الخامس فصه ياقوت بهرمان ، وهو أحسن ما يكون من الحمرة وأصفاها وأشرفها ، نقشه « حرة وخرم » (أي بهجة وسعادة) ، حافتاه لؤلؤ وماس ، يختم به خزائن الجوهر وبيت مال الخاصة وخزانة الكسوة وخزانة الحلي .

والخاتم السادس نقشه « عقاب » يختم به كتب الملوك الى الآفاق وفصه حديد حبشي .

والخاتم السابع نقشه « ذباب » يختم به الأدوية والأطعمة والطيب ، فصه بادزهر .

والخاتم الثامن فصه جمان نقشه « رأس خنزير » يختم به أعناق من يؤمر بقتله وما ينفذ من الكتب في الدماء .

والخاتم التاسع حديد يلبسه عند دخول الحمام وفصه الأبزن .

عدد دواب ابرويز

وكان على مربطه خمسون ألف دابة وسروج ذهب مكللة بالدر والجوهر على عدد ما لركابه من الخيل . وكان على مربطه ألف فيل ، منها أشهب أشد بياضا من الثلج ، ومنها ما ارتفاعه اثنا عشر ذراعا ، وفي النادر ما يوجد من الفيلة الحربية ما ارتفاعه هذا القدر . وأكثر ما يوجد من ارتفاع الفيلة من التسعة الأذرع الى العشرة .

وملوك الهند تبالغ في أثمان ما عظم من الفيلة ، وارتفع من الأرض .

وقد يكون من الوحشية في أرض الزنج ما هو أعظم سمكا مما وصفنا بأذرع كثيرة على حسب ما تحمل من قرونها المسماة بالأنياب ما وزن الناب منها خمسون ومائة من الى المائتين ، والمن رطلان بالبغدادي . وعلى قدر عظم الناب عظم جسد الفيل .

تدريب الفيلة

وقد كان أبرويز خرج في بعض الأعياد وقد صفت له الجيوش والعدد والسلاح ، وفيما صف له ألف فيل ، وقد أحدقت به خمسون ألف فارس دون الرجالة .

فلما نظرته الفيلة سجدت له . فما رفعت رؤوسها وبسطها لخراطيمهـا حتى جذبت بالمحاجن ، وراطنها الفيالون بالهندية .

فلما بصر بذلك أبرويز تأسف على ما خص به أهل الهند من فضيلة الفيلة ، وقال : ليت أن الفيل لم يكن هنديا وكان فارسيا . انظروا اليها والى سائر الدواب وفضلوها بقدر ما ترون من معرفتها وأدبها .

وقد افتخرت الهند بالفيلة وعظم أجسامها ، ومعرفتهـا ، وحسن طاعتهـا ، وقبولها الرياضات ، وفهمها المرادات ، وتمييزها بين الملك وغيره . وأن غيرها من الدواب لا يفهم شيئا من ذلك ولا يفصل بين شيئين .

وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب جملا من الفصول في أخبار الفيلة وما قالته الهند وغيرهم في ذلك وتفضيلها على سائر الدواب .

***

فكانت مدة ملك أبرويز ، الى أن خلع وسملت عيناه وقتل ، ثمانيا وثلاثين سنة .

شيرويه بن أبرويز

ثم ملك بعده ولده « قباذ » المعروف بشيرويه القابض على أبيه ، والجاني عليـه ، والقاتل له . والفرس تسميه المشؤوم . وفي أيامه كان الطاعون بالعراق وغيرها من الأقاليم ، فهلك فيـه مائتا ألف من الناس : فالمـكثر يقول : هلك نصف الناس ، والمقل يقول : الثلث .

وكان ملك شيرويه الى أن هلك سنة وستة أشهر ، وقيل أقل من ذلك .

ولكسرى أبرويز ولابنه شيرويه أخبار عجيبة ومراسلات قد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا .

اردشير

ثم ملك بعد شيرويه ولده « أردشير » ولي عهد الملك ، وهو ابن سبع سنين ، فسار اليه من أنطاكية من بلاد الشام شهريار مرزبان المغرب المقدم ذكره مع أبرويز وملك الروم فقتله ، فكان ملكه خمسة أشهر .

شهريار

ثم ملك شهريار نحوا من عشرين يوما ، وقيل : شهرين ، وقيل غير ذلك . واغتالته

ابنة لكسرى أبرويز يقال لها أرزمى دخت فقتلته .

كسرى

ثم ملك كسرى بن قباذ بن أبرويز ، وقيل انه ابن لأبرويز ، وكان بناحية الترك ، فسار يريد دار الملك ، فقتل في الطريق بعد ملكه ثلاثة أشهر .

بوران

ثم ملكت بعده بوران بنت كسرى أبرويز ، فكان ملكها سنة ونصفا .

ثم ملك رجل من أهل بيت الملك من ولد سابور بن يزدجرد الأثيم ، يقال له « فيروز خشنشده » ، فكان ملكه شهرين .

ثم ملكت ابنة لكسرى أبرويز يقال لها « أرزمى دخت » فكان ملكها سنة وأربعة أشهر .

ثم ملك فرخاد خسرو بن كسرى أبرويز وهو طفل ، فكانت مدة ملكه شهرا ، وقيل أشهرا .

يزدجرد

ثم ملك يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز بن هرمز بن أنو شروان بن قباذ بن فيروز بن بهرام بن يزدجرد بن سابور بن هرمز بن سابور بن أردشير بن بابك بن ساسان ، وهو آخر ملوك الساسانية .

فكان ملكه الى أن قتل بمرو من بلاد خراسان عشرين سنة . وذلك لسبع سنين ونصف خلت من خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وهي سنة احدى وثلاثين من الهجرة . وقيل غير ذلك في مقدار ملكه وخبر مقتله .

احصاء بعدة ملوك الفرس

قال المسعودي : وذهب الأكثر من الناس ممن عني بأخبار الفرس وأيامهم الى أن جميع من ملك من آل ساسان من أردشير بن بابك الى يزدجرد بن شهريار من الرجال والنساء ثلاثون ملكا : امرأتان وثمانية وعشرون رجلا .

ووجدت في بعض التواريخ أن عدد ملوك الساسانية اثنان وثلاثون ملكا ، وعدد الملوك الأول ـ وهم الفرس الأول ـ من كيومرث الى دارا بن دارا تسعة عشر ملكا ، منهم امرأة وهي حماية بنت بهمن ، وفراسياب التركي ، وسبعة عشر رجلا . وعدد ملوك الطوائف الذين قدمنا ذكرهم من مقتل دارا بن دارا الى أن ظهر أردشير بن بابك أحد عشر ملكا ، وهم ملوك الشيز والران ، ومن أجلهم سمي سائر ملوك الطوائف الأشغان .

فجميع الملوك من كيومرث بن آدم ـ وهو أول ملوك بني آدم عندهم ، على ما ذكرت الفرس ـ الى يزدجرد بن شهريار بن كسرى ستون ملكا : منهم ثلاث نسوة . ومدة ما ملكوا من السنين أربعة آلاف سنة وأربعمائة سنة وخمسون سنة ، وقيل ان عدة الملوك من كيومرث الى يزدجرد ثمانون ملكا .

ورأيت جماعة من الأخباريين وأصحاب السير وأرباب الكتب المصنفة في التواريخ وغيرها يذهبون الى أن سني الفرس الى الهجرة ثلاثة آلاف سنة وستمائة وتسعون سنة : منها من كيومرث الى انتقال الملك الى منوشهر ألف وتسعمائة واثنتان وعشرون سنة ، ومن منوشهر الى زرادشت خمسمائة وثلاث وثمانون سنة .

ومن زرادشت الى الاسكندر مائتان وثمان وخمسون سنة ، وملك الاسكندر خمس سنين ، ومن الاسكندر الى ملك اردشير خمسمائة سنة وسبع عشرة سنة ، ومن أردشير الى الهجرة أربعمائة سنة وأربع سنين .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملا من تاريخ العالم والأنبياء والملوك في باب نفرده لذلك في الموضع المستحق له من هذا الكتاب ، دون ذكر الهجرة وخلافة أبي بكر ومن تلا عصره من الخلفاء ومن ملوك بني أمية وبني العباس ، لأنا قد أفردنا لما ذكرنا بابا آخر يرد من هذا الكتاب بعد انقضاء أخبار الأمويين والعباسيين ترجمناه بذكر التاريخ الثاني .

اجناس الفرس

وكانت الفرس من بدء الدهر أربعة أجناس الى أن جاء الله تعالى بالاسلام :

فالصنف الأول يقال له الخداهـان وهـم الأرباب ، كما يقال : رب المتاع ، ورب الدار . وذلك من كيومرث الى أفريدون .

ثم الكيان من أفريدون الى دارا .

ثم الأشغان ، وهم ملوك الطوائف بعد الاسكندر على ما ذكرنا في باب ذكر ملوك الطوائف .

ثم الساسانية وهم الفرس الثانية . وقد ذكـر أبو عبيـدة معمر بن المثنى في كتابه في « أخبار الفرس » الذي رواه عن عمر كسرى أن الفرس طبقات أربع ممن سلف وخلف :

فالطبقة الأولى : من كيومرث الى كرساسب .

والطبقة الثانية : من كيان بن كيقباذ الى الاسكندر ، وآخرهم دارا .

والطبقة الثالثة : وهم الأشغانية ملوك الطوائف .

والطبقة الرابعة : سماهم ملوك الاجتماع ، وهم الساسانية أولهم أردشير بن بابك ،

ثم سابور بن أردشير ، هرمز بن سابور ، بهرام بن سابور ، بهرام بن بهرام ، نرسي بن سابور ، هرمز بن نرسي ، سابور بن هرمز ، أردشير بن هرمز ، سابور بن أردشير ، سابور بن سابور ، بهرام بن سابور ، يزدجرد بن بهرام ، بهرام بن يزدجرد ، فيروز بن يزدجرجد ، بلاس بن يزدجرد ، قباذ بن فيروز ، أنو شروان ، هرمز ، ابرويـز ، شيرويه ، أردشير ، شهريـار ، بوران ، كسرى بن قباذ ، فيروز ، خشنشده ، أرزمى دخت ، فرحاد خسرو ، يزدجرد .

وانما ذكرنا هؤلاء بعد أن قدمنا ذكرهم فيا سلف من هذا الباب للخلاف الواقع وتباين الروايات والتواريخ في أعدادهم وأسمائهم ، فأوردنا ماقاله المتنازعون من الأخباريين .

وقد أتينا على أخبارهم وسيرهم ووصاياهم وعهودهم ومكاتباتهم وتوقيعاتهم وكلامهم عند عقد التيجان على رؤوسهم ورسائلهم وسائر ما كان من الحوادث في أعصارهم ، وما كوروه من الكور ، وأحدثوه من المدن ، وغير ذلك من أحوالهم ، فيا سلف من كتبنا .

وانما نذكر في هذا الكتاب جوامع من تاريخهم وأعداد ملوكهم ولمعا من أخبارهم .

وكذلك ذكرنا في كتابنا في « أخبار الزمان » خطب الطبقات الأربع ، وما حفر كل ملك منهم من الأنهار وانفرد ببنائه من المدن ، وآراء الملوك وأحكامها ، وكثيرا من قضاياها في خواصها وعوامها ، وأنساب أصحاب خيل الملك ، ومن كان على خيل كل ملك منهم في الحروب ، وأنساب حكمائهم وزهادهم ممن اشتهر بذلك في أعصارهم ، وأنساب المرازبة ، وذكر أولاد الطبقات الأربع ممن تقدم ذكرهم ، وتشعب أنسابهم ، وتفرق أعقابهم .

ووصفنا الأبيات الثلاثة التي شرفها كسرى على سائر من بسواد العـراق ، وهـم مشهورون في أهل السواد الى وقتنا هذا .

وأشراف السواد بعد الأبيات الثلاثة من الشهارجة الذين شرفهم أيرج وجعلهم أشراف السواد .

ثم الطبقة الثانية بعد الشهارجة وهم الدهاقين وهم ولد وهكرت بن فردال بن سيامك ابن نرسي بن كيومرث الملك . وكـان لولـد وهكـرت عشر بنين ، فأبناء هؤلاء العشرة هم الدهاقين . وكان وهكـرت أول من تدهقن . والدهـاقين تتفرع على مراتب خمس ، ومن ذكرنا كانت ملابسهم تختلف على قدر مراتبهم .

وقتل يزدجرد الآخر من ملوكهم على حسب ما ذكـرنا ، ولـه خمس وثلاثون سنة ، وخلف من الولـد : بهرام ، وفيروز ، ومن النساء أدرك ، وشاهـين ، ومرداوند ، وأكثر عقبه بمرو .

والأكثر من أبناء الملوك وأعقاب الطبقات الأربع بسواد العراق الى الآن يتدارسون أنسابهم ويحفظون أحسابهم كحفظ العرب من قحطان ونزار ، ولا خلاف فيما ذكرنا عند ذوي الدراية بما وصفنا .

***

قال المسعودي : فاذ قد ذكرنا جوامع من أخبار الفرس وطبقاتهم ، فلنذكر الآن ملوك اليونانيين ولمعا من أخبارهم ، وتنازع الناس في بدء أنسابهم ، على الاختصار والايجاز ، والله ولي التوفيق ، برحمته ورضوانه .

ذِكر مُلوكِ اليُونَانيّين، وَلُمَع مِن أَخبَارِهِم،
وَمَا قَالَه النّاس في بدءِ انسَابِهم

اختلاف الناس في أصلهم

قال المسعودي : تنازع الناس في فرق اليونانيين :

فذهبت طائفة من الناس الى أنهم ينتمون الى الروم ، ويضافون الى ولد اسحاق .

وقالت طائفة اخرى : ان يونان هو ابن يافث بن نوح .

وذهب قوم الى أنهم من ولد آراش بن ناوان بن يافث بن نوح .

وذهب قوم الى أنهم قبيل متقدم في الزمان الأول .

وإنما وهم من وهم أن اليونانيين ينسبون الى حيث تنسب الروم ، وينتمون الى جدهم ابراهيم ، لأن الديار كانت مشتركة ، والمقاطن والمواطن كانت متساوية ، وكان القوم قد شاركوا القوم في السجية والمذهب .

فلذلك غلط من غلط في النسبة ، وجعل الأب واحدا ، وهذا طريق الصواب عند المفتشين ، وسبيل البحث عند الباحثين .

والروم قفت في لغاتها ووضع كتبها اليونانيين ، فلم يصلوا الى كنه فصاحتهم وطلاقة ألسنتهم . والروم أنقص في اللسان من اليونانيين ، وأضعف في ترتيب الكلام الذي عليه نهج تعبيرهم وسنن خطابهم .

قال المسعودي : وقد ذكر ذوو العناية بأخبار المتقدمين أن يونان أخو قحطان ، وأنه من ولد عابر بن شالخ ، وأن أمره في الانفصال عن دار أخيه كان سبب الشك في الشركة في النسب .

وأنه خرج عن أرض اليمن في جماعة من ولده وأهله ومن انضاف الى جملته ، حتى وافى أقاصي بلاد المغرب ، فأقام هنالك ، وأنسل في تلك الديار ، واستعجم لسانه ، ووازى من كان هنالك في اللغة الأعجمية من الأفرنجة والروم . فزالت نسبته ، وانقطع سببه ، وصار منسيا في ديار اليمن ، غير معروف عند النسابين منهم .

وكان يونان جبارا عظيما ، وسيما جسيما ، وكان حسن العقل والخلق ، جزل الرأي ، كثير الهمة ، عظيم القدر .

وقد كان يعقوب بن اسحاق الكندي يذهب في نسب يونان الى ما ذكرنا من أنه أخ لقحطان ، ويحتج لذلك بأخبار يذكرها في بدء الأنساب ، ويوردها من حديث الآحاد والأفراد ، لا من حديث الاستفاضة والكثرة .

وقد رد عليه أبو العباس عبد الله بن محمد الناشيء في قصيدة له طويلة ، وذكر خلطه نسب يونان بقحطان ، على حسب ما ذكرنا آنفا في صدر هذا الباب ، فقال :

أبا يوسف ، إني نظرت فلـم أجد … على الفحص رأيا صح منك ولا عقدا

وصرت حكيما عند قوم اذا امرؤ … بلاهم جميعا لم يجد عندهم عندا

أتقرن إلحاداً بديـن محمد ؟ … لقد جئت شيئا يا أخا كندة إدا

وتخلـط يونانا بقحطان ضلة … لعمري لقد باعـدت بينهما جدا

مساكن يونان

ولما نشأ ولد يونان وكثر ، خرج يسير في الأرض يطلب موضعا يسكنه ، فانتهى الى موضع من الغرب ، فنزل بمدينة أثينا ، وهي المعروفة بمدينة الحكماء في ديار المغرب في صدر الزمان ، وأقام بها هو ومن معه من ولده .

فكثر نسله بها وبنى بها البنيان العظيم ، الى أن أدركته الوفاة ، فجعل وصيته الى الأكبر من ولده ، واسمه حربيوس ، فقال له :

« يا بني ، إني قد وافيت الأجل ، وقربت من الحتم الواجب ، وإني راحل عنك ومفارقك ، ومفارق اخوتك وأهل بيتك . وقد كانت أحوالكـم حسنة النظام بي ، وكنت لكم كهفا في الشدائد ، وعونا على المحن ، ومجنا من الزمان .

« فعليك بالجود فانه قطب الملك ومفتاح السياسة ، وباب السيادة . وكن حريصا على اقتناء الرجال بالانعام عليهم ، تكن سيدا رشيدا . وإياك والحيد عن الطريق المثلى التي عليها بني العقل فان من ترك رأي اللـب وثمرة العقل تورط في المهـالك ، ووقع في مقابض المتالف » .

حربيوس

ثم مات يونان ، واستولى ولده حربيوس على مكان أبيه ، وضم اليـه أهلـه وولـده وعمل بما أمره ، ونما خبرهم ، وكثر نسلهم ، فغلبوا على ديار المغـرب من بلاد الافرنجة والنوكبرد وأجناس الأمم من الصقالبة وغيرهم .

فيلبيس

وكان أول ملوكهم ممن سماه بطليموس في كتابه : فيلبيس ، وتفسيره محب الفرس ، وقيل ان اسمه يابس ، وقيل فيلقوس ، وكانت مدة ملكه سبع سنين .

وقد قيل ان اليونانيين لما أن سار البخت نصر من ديار المشرق نحو الشام ومصر والمغرب وبذل السيف ، كانوا يؤدون الطاعة ويحملون الخراج الى فارس .

وكان خراجهم بيضا من ذهب عددا معلوما ووزنا مفهوما ، وضريبة محصورة .

فلما كان من أمر الاسكندر بن فيليبس ـ وهو الملك الماضي الذي هو أول ملوك اليونانيين على ما ذكره بطلميوس ـ ما كان من ظهوره وهمته ، بعث اليه داريوس ملك فارس ، وهو دار بن دارا ، يطالبه بما جرى من الرسم .

فبعث اليه الاسكندر : إني قد ذبحت الدجاجة التي كانت تبيض بيض الذهب . وأكلتها .

فكان من حروبهم ما دعا الاسكندر الى الخروج الى أرض الشام والعراق ، فاصطلم من كان بها من الملوك ، وقتل دارا بن دارا ملك الفرس .

وقد أتينا على خبر مقتله ومقتل غيره من ملوك الهند ومن لحق بهم من ملوك الشرق في الكتاب الأوسط .

ونسب قوم الاسكندر أنه الاسكندر بن فيليبس بن مصريم بن هرمس بن هردوس بن ميطون بن رومي بن نويط بن نوفيل بن رومي بن ليطى بن يونان بن يافث بن نوح .

ونسبه قوم أنه من ولد العيص بن اسحاق بن ابراهيم .

ومنهم من رأى أنه الاسكندر بن يونه بن سرحون بن رومي بن قرمط بن نوفيل بن رومي بن الأصفر بن اليغز بن العيص بن اسحاق بن ابراهيم .

الاسكندر وذو القرنين

وقد تنازع الناس فيه : فمنهم من رأى أنه ذو القرنين ، ومنهم من رأى أنه غيره .

وتنازعوا أيضا في ذي القرنين :

فمنهم من رأى أنه سمي بذي القرنين لبلوغه أطراف الأرض ، وأن الملك الموكل بجبل قاف سماه بهذا الاسم .

ومنهم من رأى أنه من الملائكة .

وهذا قول يعزى الى عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه ، والقول الأول لابن عباس في تسمية الملك اياه .

ومنهم من رأى أنه كان بذؤابتين من الذهب . وهذا قول يعزى الى علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه .

وقد قيل غير ذلك ، وإنما نذكر تنازع الشرعيين من أهل الكتب .

وقد ذكره تبع في شعره وافتخر به ، وأنه من قحطان .

وقيل ان بعض التبابعة غزا مدينة رومية وأسكنها خلقا من اليمن ، وان ذا القرنين الذي هو الاسكندر من أولئك العرب المتخلفين بها ، والله أعلم .

وسار الاسكندر بعد أن ملك بلاد فارس ، فاحتوى على ملوكها ، وتزوج بابنة ملكها دارا بعد أن قتله . ثم سار الى أرض السند والهند ، ووطىء ملوكها ، وحملت اليه الهدايا والخراج ، وحاربه ملكها فور ، وكان أعظم ملوك الهند ، وكان له معه حروب ، وقتله الاسكندر مبارزة .

ثم سار الاسكندر نحو بلاد الصين والتبت ، فدانت له الملوك ، وحملت اليه الهدايا والضرائب .

وسار في مفاوز الترك يريد خراسان من بعد أن ذلل ملوكها ورتب الرجال والقواد فيما افتتح من الممالك ، وتب ببلاد التبت خلقا من رجاله ، وكذلك ببلاد الصين ، وكور بخراسان كورا ، وبنى مدنا في سائر أسفاره .

وكان معلمه أرسطاطاليس حكيم اليونانيين ، وهو صاحب كتاب المنطق وما بعد الطبيعة ، وتلميذ أفلاطون ، وأفلاطون تلميذ سقراط .

وصرف هؤلاء هممهم الى تقييد علوم الأشياء الطبيعية والنفسية ، وغير ذلك من علوم الفلسفة واتصالها بالالهيات . وأبانوا عن الأشياء ، وأقاموا البرهان على صحتهنا ، وأوضحوها لمن استعجم عليه تناولها .

وسار الاسكندر راجعا من سفره يؤم المغرب ، فلما صار الى مدينة شهرزور اشتدت علته ـ وقيل ببلاد نصيبين من ديار ربيعة ، وقيل : بالعراق ـ فعهد الى صاحب جيشه وخليفته على عسكره بطليموس .

الحكماء على جدث الاسكندر

فلما مات الاسكندر طافت به الحكماء ممن كان معه من حكماء اليونانيين والفرس والهند وغيرهم من علماء الأمم ، وكان يجمعهم ، ويستريح الى كلامهم ولا يصدر الأمور الا عن رأيهم ، وجعل بعد أن مات في تابوت من الذهب ، ورصع بالجوهر بعد أن طلي جسمه بالأطلية الماسكة لأجزائه .

فقال عظيم الحكماء والمقدم فيهم : ليتكلم كل واحد منكم بكلام يكون للخاصة معزيا وللعامة واعظا .

وقام فوضع يده على التابوت فقال : أصبح آسر الأسراء أسيرا .

ثم قام حكيم ثان فقال : هذا الاسكندر الذي كان يخبيء الذهب فصار الذهب يخبئه

وقال الحكيم الثالث : ما أزهد الناس في هذا الجسد ، وأرغبهم في هذا التابوت !

وقال الحكيم الرابع : من اعجب العجب ان القوي قد غلب ، والضعفاء لاهون مغترون .

وقال الخامس : ياذا الذي جعل أجله ضمانا ، وجعل أمله عيانا ، هلا باعدت من أجلك ، لتبلغ بعض أملك ، هلا حققت من أملك بالامتناع عن فوت أجلك ؟!

وقال السادس : أيها الساعي المنتصب ، جمعت ما خذلك عن الاحتياج ، فغودرت عليك أوزاره ، وفارقتك أيامه ، فمغناه لغيرك ، ووباله عليك .

وقال السابع : قد كنت لنا واعظا فما وعظتنا موعظة أبلغ من وفاتك ، فمن كان له عقل فليعقل ، ومن كان معتبرا فليعتبر .

وقال الثامن : رب هائب لك كان يغتابك من ورائك ، وهو اليوم بحضرتك لا يخافك .

وقال التاسع : رب حريص على سكوتك اذ لا تسكت ، وهو اليوم حريص على كلامك اذ لا تتكلم .

وقال العاشر : كم أماتت هذه النفس لئلا تموت ، وقد ماتت .

وقال الحادي عشر ، وكان صاحب خزانة كتب الحكمة : قد كنت تأمرني ألا أبعد عنك ، فاليوم لا أقدر على الدنو منك .

وقال الثاني عشر : هذا اليوم عظيم العبر ، أقبل من شره ما كان مدبرا ، وأدبر من خيره ما كان مقبلا ، فمن كان باكيا على من زال ملكه فليبك .

وقال الثالث عشر : يا عظيم السلطان ، اضمحل سلطانك كما اضمحل ظل السحاب ، وعفت آثار مملكتك كما عفت آثار الرباب .

وقال الرابع عشر : يا من ضاقت عليه الأرض طولا وعرضا ، ليت شعري كيف حالك فيما احتوى عليك منها ؟

وقال الخامس عشر : أعجب لمن كانت هذه سبيله كيف شرهت نفسه بجمع الحطام البائد والهشيم الهامد .

وقال السادس عشر : أيها الجمع الحافل الملتقى الفاضل ، لا ترغبوا فيما لا يدوم سروره وتنقطع لذته ، فقد بان لكم الصلاح والرشاد من الغي والفساد .

وقال السابع عشر : انظروا الى حلم النائم كيف انقضى ، وظل الغمام كيف انجلى ؟

وقال الثامن عشر ، وكان من حكماء الهند : يا من كان غضبه الموت ، هلا غضبت على الموت .

وقال التاسع عشر : قد رأيتم أيها الجمع هذا الملك الماضي ، فليتعظ به الآن هذا الملك الباقي .

وقال العشرون : هذا الذي دار كثيرا ، والآن يقر طويلا .

وقال الحادي والعشرون : إن الذي كانت الآذان تنصت له قد سكت ، فليتكلم الان كل ساكت .

وقال الثاني والعشرون : سيلحق بك من سره موتك ، كما لحقت بمن سرك موته .

وقال الثالث والعشرون : ما لك لا تقل عضوا من أعضائك ، وقد كنت تستقل ملك الأرض ؟ بل ما لك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان الذي أنت به ، وقد كنت ترغب بها عن رحب البلاد ؟

وقال الرابع والعشرون ، وكان من نساك الهند وحكمائها : إن دنيا يكون هكذا آخرها ، فالزهد اولى أن يكون في أولها .

وقال الخامس والعشرون ، وكان صاحب مائدته : قد فرشت النمارق ، ونضدت الوسائد ، وهيئت الموائد ، ولا أرى عميد المجلس .

وقال السادس والعشرون ، وكان صاحب بيت ماله : قد كنت تأمرني بالجمع والادخار ، فالى من أدفع ذخائرك ؟

وقال السابع والعشرون ، وكان خازنا من خزانه : هذه مفاتيح خزائنك ، فمن يقبضها قبل أو أوخذ بما لم آخذ منها ؟

وقال الثامن والعشرون : هذه الدنيا الطويلة العريضة قد طويت منها في سبعة أشبار . ولو كنت بذلك موقنا لم تحمل على نفسك في الطلب .

القول التاسع والعشرون قول زوجته روشنك بنت دارا بن دارا ملك فارس : ما كنت أحسب أن غالب دارا الملك يغلب ، وإن كان هذا الكلام الذي سمعت منكم معاشر الحكماء فيه شماتة ، فقد خلف الكأس الذي تشرب به الجماعة .

القول الثلاثون ما يحكى عن أمه أنها قالت حين جاءها نعيه : لئن فقد من ابني امره ، فما فقدت من قلبي ذكره .

وقبض الاسكندر وهو ابن ست وثلاثين سنة . وكان ملكه تسع سنين قبل قتله لدارا ابن دارا ، وست سنين بعد قتلة لدارا بن دارا وتملكه على سائر ملوك الأرض ، وملك وهو

ابن احدى وعشرين سنة ، وذلك بمقدونية ، وهي مصر .

مأتم الاسكندر ودفنه

وعهد الى ولي عهده بطليموس بن أريب أن يحمل تابوته الى والدته بالاسكندرية ، وأوصاه أن يكتب اليها اذا أتاها نعيه أن تتخذ وليمة وتنادي في مملكتها ألا يتخلف عنها أحد ، وألا يجيب دعوتها من قد فقد محبوبا أو مات له خليل ، ليكون ذلك مأتم الاسكندر بالسرور ، خلاف مأتم الناس بالحزن .

فلما ورد نعيه اليها ، ووضع التابوت بين يديها ، نادت في أهل مملكتها على ما به أمرها ، فلم يجب أحد دعوتها ، ولا بادر الى ندائها .

فقالت لحشمها : ما بال الناس لم يجيبوا دعوتي ؟

فقالوا لها : أنت منعتهم من ذلك .

قالت : وكيف ؟

قيل لها : أمرت ألا يجيبك من فقد محبوبا ، أو عدم خليلا ، أو فارق حبيبا ، وليس فيهم أحد الا وقد أصابه بعض ذلك .

فلما سمعت ذلك استيقظت وعلمت ما به سألت ، وقالت : لقد عزاني ولدي أحسن العزاء .

وقالت : يا اسكندر ، ما أشبه أواخرك بأوائلك !

وأمرت به فجعل في تابوت من المرمر ، وطلي بالأطلية الماسكة لأجزائه ، وأخرجته عن الذهب ، لعلمها أن من يطرأ بعدها من الملوك والأمم لا يتركونه في ذلك الذهب . وجعل التابوت المرمر على أحجار نضدت ، وصخور نصبت ، من الرخام والمرمر قد رصفت .

وهذا الموضع من الرخام والمرمر باق ببلاد الاسكندرية من أرض مصر يعرف بقبر الاسكندر الى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جوامع من أخبار الاسكندرية وعجائبها ، ومصر وأخبارها ونيلها ، في الموضع المستحق له من ذلك في كتابنا ، إن شاء الله تعالى .

ذكر جوامع من حروب الاسكندر بأرض الهند

قال المسعودي : لما قتل الاسكندر فور صاحب مدينة المانكير من ملوك الهند ، وانقاد اليه جميع ملوك الهند ، على حسب ما ذكرناه من حمل الأموال والخراج اليه ، بلغه ان في أقاصي أرض الهند ملكا من ملوكهم ذا حكمة وسياسة وديانة وانصاف للرعية ، وأنه قد أتى عليه من عمره مئون من السنين ، وأنه ليس بأرض الهند من فلاسفتهم وحكمائهم مثله ، يقال له : كند ، وكان قاهرا لنفسه ، مميتا لصفاته من الشهوية والغضبية وغيرها ، حاملا لها على خلق كريم ، وأدب زائن .

فكتب اليه كتابا يقول فيه : أما بعد ، فاذا أتاك كتابي هذا فان كنت قائما فلا تقعد ، وإن كنت ماشيا فلا تلتفت ، والا مزقت ملكك ، وألحقتك بمن مضى من ملوك الهند .

فلما ورد عليه الكتاب أجاب الاسكندر أحسن جواب ، وخاطبه بملك الملـوك ، وأعلمه أنه قد اجتمع له قبله أشياء لا يجتمع عند غيره مثلها ، الا من صارت اليه عنه .

فمن ذلك ابنة له لم تطلع الشمس على أحسن صورة منها .

وفيلسوف يخبرك بمرادك قبل أن تسألـه ، لحدة مزاجه ، وحسن قريحته ، واعتدال بنيته ، واتساعه في علمه .

وطبيب لا تخشى معه داء ، ولا شيئا من العوارض ، الا ما يطرأ من الفناء والدثور الواقع بهذه البنية ، وحل العقدة التي عقدها المبدع لها المخترع لهذا الجسم الحسي ، وان كانت بنية الانسان وهيكله قد نصبت في هذا العالم غرضا للآفات والحتوف والبلايا .

وقدح عندي اذا أنا ملأته شرب منه عسكرك بجمعه ولا ينقص منه شيء ، ولا يزيده الوارد عليه الا دهاقا . . . .

وأنا منفذ جميع ذلك الى الملك ، وصائر اليه .

فلما قرأ الاسكندر هذا الكتاب ووقف على ما فيه قال : تكون هذه الأشياء الأربعة عندي ونجاة هذا الحكيم من صولتي احب من أن لا تكون عندي ويهلك .

فأنفذ اليه الاسكندر جماعة من حكماء اليونانيين والروم في عدة من الرجال ، وتقدم اليهم : إن كان صادقا فيما كتب به ، فاحملوا ذلك الي ، ودعوا الرجل في موضعه ، وإن تبينتم أن الأمر بخلاف ذلك وأنه أخبر عن الشيء على خلاف ما هو به ، فقد خرج عن حد الحكمة فأشخصوه الي .

فمضى القوم حتى انتهوا الى الملك ، فتلقاهم بأحسن لقاء ، وأنزلهم أحسن منزل ،

فلما كان في اليوم الثالث جلس لهم مجلسا خاصا للحكماء منهم دون من كان معهم من المقاتلة . فقال بعض الحكماء لبعض : إن صدقنا في الأولى صدقنا فيما بعدها مما ذكر .

فلما أخذت الحكماء مراتبها ، واستقرت بها مجالسها ؛ أقبل عليهم مباحثا لهم في أصول الفلسفة والكلام في الطبيعيات وما فوقها من الالهيات ، وعلى شماله جماعة من حكمائه وفلاسفته .

فطال الخطب في المبدأ الأول ، وتشاح القوم ، ونظروا في موضوعات العلماء وترتيبات الحكماء على غير مراء ، وتناهى بهم الكلام الى غاية كان اليها صدورهم من العلويات .

ثم أخرج الجارية ، فلما ظهرت لأبصارهم رمقوها بأعينهم ، فلم يقع طرف واحد منهم على عضو من أعضائها مما ظهر فأمكنه أن يتعدى ببصره الى غيره ، وشغله تأمل ذلك وحسنه وحسن شكلها واتقان صورتها .

فخاف القوم على عقولهم لما ورد عليهم عند النظر اليها . ثم ان كل واحد منهم رجع الى نفسه وفهمه وقهر سلطان هواه ودواعي طبعه .

ثم أراهم بعد ذلك ما تقدم الوعظ به ، وسيرهم وسير الفيلسوف والطبيب والجارية والقدح معهم ، وشيعهم مسافة من أرضه .

فلما وردوا على الاسكندر أمر بانزال الطبيب والفيلسوف ، ونظر الى الجارية ، فحار عند مشاهدتها ، وبهرت عقله ، وأمر قيمة جواريه بالقيام عليها ، ثم صرف همته الى الفيلسوف ، والى علم ما عنده ، والى علم الطبيب ومحله من صنعة الطب وحفظ الصحة .

وقص الحكماء عليه ما جرى لهم من المباحثة مع الملك الهندي ، ومن أحضره من فلاسفته وحكمائه ، فأعجبه ذلك . وتأمل أغراض القوم ومقاصدهم والغاية التي اليها كان اصدرهم . وأقبل ينظر الى مطاردة الهند في عللها ومعلولاتها وما يصفه اليونانيون من عللها وصحة قياسها على ما قدمنا من أوضاعها .

ثم أراد محنة الفيلسوف على حسب ما أخبر عنه ، فخلا بنفسه ، وأجال فكره ، فسنح له سانح من الفكر بايقاع معنى يختبره به . فدعابقدح فملأه سمنا وأدهقه ، ولم يجعل للزيادة عليه سبيلا ، ودفعه الى رسول له ، وقال له : امض به الى الفيلسوف ، ولا تخبره بشيء .

فلما ورد الرسول بالقدح ودفعه الى الفيلسوف قال بصحة فهمه وتبينه للأمور المتقنة المحكمة في نفسه : لأمر ما بعث هذا الملك الحكيم بهذا السمن الي . وأجال فكره وسبر المراد به ، ثم دعا بنحو ألف ابرة فغرز أطرافها في السمن ، وأنفذها الى الاسكندر .

فأمر الاسكندر بسبكها كرة مدورة ململمة متساوية الأجزاء ، وأمر بردها الى الفيلسوف .

فلما نظر اليها الفيلسوف وتأمل فعل الاسكندر فيها أمر ببسطها ، وبأن يتخذ منها مرآة بحضرته ، وصقلها ، فصارت جسما صقيلا ترد صورة من قابلها من الأشخاص ، لشدة صقلها ، وزوال الدرن عنها ، وأمر بردها الى الاسكندر .

فلما نظر اليها ، وتأمل حسن صورته فيها ، دعا بطست فجعل المرآة فيه ، وأمر باراقة الماء فيه عليها حتى رسبت فيه ، وأمر بحمل ذلك الى الفيلسوف .

فلما نظر الفيلسوف الى ذلك أمر بالمرآة فجعل منها مشربة كالطر جهارة ، وجعلها في الطست فوق الماء ، فطفت فوقه ، وأمر بردها الى الاسكندر .

فلما نظر الاسكندر الى ذلك امر بتراب ناعم فملئت منه ، وردها الى الفيلسوف .

فلما نظر الفيلسوف الى ذلك ، تغير لونه وحال ، وجزع وتغيرت صفاته ، وأسبل دموعه على صحن خده ، وكثر شهيقه ، وطال أنينه ، وظهر حنينه ، وأقام بقية يومه غير منتفع بنفسه .

ثم أفاق من ذلك الحال ، وزجر نفسه ، وأقبل عليها كالمعاتب لها ، وقال : ويحك يا نفس ، ما الـذي قذف بك في هذه السدفة ، وأصارك الى هذه الغمة ، ووصلك بهذه الظلمة .

« أنسيت وأنت في النور تسرحين وفي العلوم تمرحين ، وتنظرين في الضياء الصادق ، وتنفسحين في العالم المشرق ؟ أنزلت الى عالم الظلم والمعاندة ، والغشم والمفاسدة ، تخطفك الخواطف ، وتنتهرك العواصف ، قد حرمت علم الغيوب ، والكون في العالم المحبوب ، ورميت بشدائد الخطوب ، ورفضت كل مطلوب ، أين مصادرك الطبية ، وراحتك القوية .

« حللت في الأجساد ، فقوي عليك الكون والفساد . حللت يا نفس بين السباع القاتلة والأفاعي المهلكة ، والمياه الحاملة ، والنيران المحرقة ، والريح العاصفة ، وصيرتك الأعمار في قرارات الأجسام ، لا تشاهدين الا غافلا ، ولا ترين الا جاهلا ، قد زهد في الخيرات ورغب عن الحسنات » .

ثم رفع طرفه نحو السماء فرأى النجوم تزهر فقال بأعلى صوته : « يا لك من نجوم سائرة ، وأجسام زاهرة ، من عالم شريف طلعت ، ولشيء ما وضعت ، انك من عالم نفيس قد كانت النفس في أعاليه ساكنة ، وفي اكنافه قاطنة ، فقد أصبحت عنه ظاعنة » .

ثم أقبل على الرسول وقال : خذه ورده الى الملك ، يعني التراب ، ولم يحدث فيه حادثة .

. فلما ورد الرسول على الاسكندر أخبره بجميع ما شاهده ، فتعجب الاسكندر من ذلك ، وعلم مرامي الفيلسوف ومقاصده وغاية مراده فيما وقع بالنفوس من النقلة مما علا من العوالم الى هذا العالم .

ولما كان في صبيحة تلك الليلة جلس له الاسكندر جلوسا خاصا ، ودعا به ، ولم يكن رآه قبل ذلك .

فلما أقبل ونظر الى صورته وتأمل قامته وخلقته ، نظر الى رجل طويل الجسم ، رحب الجبين ، معتدل البنية ، فقال في نفسه : هذه بنية تضاد الحكمة ، فاذا اجتمع حسن الصورة وحسن الفهم كان أوحد زمانه ، ولست أشك أن هذا الشخص قد اجتمع له الأمران جميعا . فان كان هذا الشخص قد علم كل ما راسلته به ، وأجابني عليه من غير مخاطبة ولا موافقة ولا مباحثة ، فليس في وقته أحد يدانيه في حكمته ، ولا يلحقه في علمه .

وتأمل الفيلسوف الاسكندر ، فأدار أصبعه السبابة على وجهه ، ووضعها على أرنبة أنفه ، وأسرع نحو الاسكندر ـ وهو جالس على غير سرير ملكه ـ فحياه بتحية الملوك ، فأشار اليه الاسكندر بالجلوس ، فجلس حيث أمره .

فقال له الاسكندر : ما بالك حين نظرت اليّ ورميت بطرفك نحوي أدرت أصبعك حول وجهك ووضعتها على أرنبة أنفك ؟

قال : تأملتك أيها الملك بنورية عقلي وصفاء مزاجي ، فتبينت فكرتك في ، وتأملك لصورتي ، وأنها قلما تجتمع مع الحكمة ، فاذا كان ذلك كان صاحبها أوحد أهل زمانه ، فأدرت أصبعي مصداقا لما سنح لك ، وأريتك مثالا شاهدا ، كما أنه ليس في الوجه الا أنف واحد ، فكذلك ليس في دار مملكة الهند غيري ، ولا يلحق أحد من الناس بي في حكمتي .

فقال له الاسكندر : ما أحسن ما تأتى لك ما ذكرت ، وانتظم لك بحسن الخاطر ما وصفت ، فدع عنك هذا وأخبرني ما بالك حين أنفذت اليك قدحا مملوءا سمنا غرزت فيه ابرا ورددته الي ؟

قال الفيلسوف : علمت أيها الملك أنك تقول : إن قلبي قد امتلأ وعلمي قد انتهى كامتلاء هذا الاناء من السمن ، فليس لأحد من الحكماء فيه مستزاد . فأخبرت الملك ان علمي سيزيد في علمك ، ويدخل فيه دخول هذه الأبر في هذا الاناء .

قال : فأخبرني ما بالك حين عمل من الأبر كرة وأنفذتها اليك ، صيرتها مرآة ورددتها اليّ صقيلة ؟

قال : قد علمت أيها الملك أنك تريد أن قلبك قد قسا من سفك الدماء والشغل

بسياسة هذا العالم كقسوة هذه الكرة ، فلا يقبل العلم ، ولا يرغب في فهم الغايات في العلوم والحكمة ، فأخبرتك مجيبا متمثلا بسبك الكرة والحيلة في أمرها بجعلي منها مرآة صقيلة مؤدية الى الأجسام عند المقابلة لحسن الصفاء .

قال له الاسكندر : صدقت ، قد أجبتني عن مزادي ؛ فأخبرني أيها الفيلسوف حين جعلت المرآة في الطست ورسبت في الماء : لم جعلتها قدحا فوق الماء طافية ثم رددتها الي ؟

قال الفيلسوف : علمت أنك تريد بذلك أن الأيام قد انقضت وقصرت ، والأجل قد قرب ، ولا يدرك العلم الكثير في المهل القليل ، فأجبت الملك متمثلا أني سأعمل الحيلة في ايراد العلم الكثير في المهل القليل الى قلبه وتقريبه من فهمه ، كاحتيالي للمرآة من بعد كونها راسبة في الماء حتى جعلتها طافية عليه .

قال له الاسكندر : صدقت ، فأخبرني ما بالك حين ملأت الاناء ترابا رددته الي ولم تحدث فيه حادثة كفعلك فيا سلف ؟

قال : علمت انك تقول : ثم الموت وأنه لا بد منه ، ثم لحوق هذه البنية بهذا العنصر البارد اليابس الثقيل الذي هو الأرض ، ودثورها وتفرق اجزائها ، ومفارقة النفس الناطقة الصافية الشريفة اللطيفة لهذا الجسد المرئي .

قال له الاسكندر : صدقت : ولأحسنن الى الهند من أجلك . وأمر له بجوائز كثيرة ، وأقطعه قطائع واسعة .

فقال له الفيلسوف : « لو أحببت المال لما أردت العلم ، ولست أدخل على علمي ما يضاده وينافيه .

« واعلم أيها الملك أن القنية توجب الخدمة ، ولسنا نجد عاقلا من خدم غير ذاته ، واستعمل غير ما يصلح نفسه . والذي يصلح النفس الفلسفة ، وهي صقالها وغذاؤها ، وتناول اللذات الحيوانية وغيرها من الموجودات ضد لها ، والحكمة سبيل الى العلو وسلم اليه ، ومن عدم ذلك عدم القربة من بارئه .

« واعلم ايها الملك أن بالعدل ركب جميع العالم بجزئياته ، ولا يقوم بالجور ، والعدل ميزان الباريء جل وعز ، فكذلك حكمته مبرأة عن كل ميل وزلل ، وأشبه الأشياء من أفعال الناس بأفعال بارئهم الاحسان الى الناس .

« وقد ملكت أيها الملك بسيفك وصولة ملكك وتأتيك في أمورك وانتظام سياستك أجسام رعيتك ، فتحر ان تملك قلوبهم باحسانك اليهم ، وانصافك لهم ، وعدلك فيهم ، فهي خزانة سلطانك ؛ فانك ان قدرت ان تقول قدرت أن تفعل . فاحترز من أن تقول تأمن

من أن تفعل . فالملك السعيد من تمت له رياسة أيامه ، والملك الشقي من انقطعت عنه . فمن تحرى في سيرته العدل استنار قلبه بعذوبة الطهارة » .

***

قال المسعودي رحمه اللّه : وخلى الاسكندر عن الفيلسوف لاباثه المقام معه فلحق بأرضه .

ولـلاسكندر مع هذا الفيلسوف مناظرات كثيرة في أنواع من العلـوم ، ومكـاتبات ومراسلات جرت بين الاسكندر وبين كند ملك الهند ، قد أتينا على مبسوطها والغـرر من معانيها والزهر من عيونها في كتابنا « أخبار الزمان » .

***

وأما القدح فامتحنه حين أدهقه بالماء وأورد عليه الناس فلم ينقص شربهم منه شيئا ، وكان معمولا بضرب من خواص الهند والروحانية والطبائع التامة والتوهم ، وغير ذلك من العلم مما يدعيه الهند .

وقد قيل : انه كان لآدم أبي البشر عليه السلام بأرض سرنديب من بلاد الهند مبارك له فيه ، فورث عنه ، وتداولته الملوك ، الى أن انتهى الى كند هذا الملك العظيم سلطانه ، وما كان عليه من الحكمة .

وقيل غير ذلك من الوجوه ، مما قد أتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا .

***

وللطبيب معه أخبار ظريفة ، ومناظرات عجيبة في أوائل المعـرفة وصنعـة الـطب ، وترقيه معه الى مبسوط الصنعة من الطبيعيات وغيرها ، أعرضنا عن ذكرها خوفا من الاطالة وميلا الى الاختصار في هذا الكتاب ، لتعلق الكلام بالتوهم الذي تدعيه الهند في صنعة الطب وغيرها .

وقد كان للاسكندر في أسفاره وتوسطه الممالك وقطعه الأقاليم ومشاهدته الأمم وملاقاته الحكماء ـ مع تنائي ديارهم ، وبعد أوطانهم ، واختلاف لغاتهم ، وعجائب صورهـم ، وتباينهم في شيمهم وأخلاقهم . أخبار كثيرة من حروب ومكايد وحيل وفنون من السير ، وما أحدث من الأبنية .

وقد أتينا على شرح ذلك فيما سلف من كتبنا مما سمينا ، وغـير ذلك مما عن وصفه أمسكنا ، وإنما ذكرنا اليسير من أخباره ، لئلا يعرى كتابنا هذا من شيء منها ، مع ذكرنا لمسيره ووفاته ، وباللّه التوفيق .

ذِكرُ مُلوكِ اليُونانيّين بَعدَ الإسْكندَر

ثم ملك بعد الاسكندر خليفته بطليموس وكان حكيما عالما سائسا مدبرا ، وكان ملكه أربعين سنة ، وقيل : بل كان ملكه عشرين سنة .

وقد كان لهذا الملك ـ وهو التالي لملك الاسكندر ـ حروب مع بني اسرائيل وغيرهم من ملوك الشام .

اللعب بالبزاة والشواهين

وذكر جماعة من أهل الدرايات بأخبار ملوك العالم أنه أول من اقتنى البزاة ولعب بها وضراها . وأنه ركب في بعض الأيام في طربه الى بعض منتزهاته ، فنظر الى باز يطير فرآه اذا علا صفق ، واذا سفل خفق ، واذا أراد أن يستوي ذرق . فأتبعه بصره حتى اقتحم شجرة ملتفة كثيرة الشوك .

فتأمله فأعجبه صفاء عينيه وصفرتها وكمال خلقه ، فقال : هذا طائر حسن ، وله سلاح ، وينبغي أن تتزين به الملوك في مجالسها .

فأمر أن يجمع منها عدة لتكون في مجلسه زينته ، فعرض لباز منها أيم (وهو الحية الذكر) ، فوثب عليه البازي فقتله . فقال الملك : هذا ملك يغضب مما تغضب منه الملوك .

ثم عرض له بعد أيام ثعلب كان داجنا : فوثب عليه البازي فما أفلت الا جريحا ، فقال الملك : هذا ملك جبار لا يحتمل الضيم .

ثم مر به طائر فوثب عليه فأكله . فقال الملك : هذا ملك يمنع حماه ولا يضيع أكله .

فلعب بها ، ثم لعب بعده ملوك الأمم من اليونانيين والروم والعرب والعجم وغيرهم ، وثنى من بعده من ملوك الروم بلعب الشواهين والاصطياد بها .

وقد قيل ان اللذارقة ، وهم ملوك الأندلس من الأشبان ، أول من لعب بالشواهين وصاد بها .

وكذلك اليونانيون أول من صاد بالعقبان ولعب بها . وقد ذكرنا أن ملوك الروم أول من صاد بالعقبان .

* * *

قال المسعودي : وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لجبل القبخ والباب والأبواب جملا من أخبارها وأخبار من لعب بها .

وقد كان من سلف من حكماء اليونانيين يقولون : إن الجوارح أجناس خلقها اللّه

تعالى ، وأنشأها على منازلها ودرجاتها . وهي أربعة أجناس وثلاثة عشر شكلا .

فأما الأجناس الأربعة فهي : البازي، والشاهين ، والصقر ، والعقاب .

وقد ذكرنا هذه الأجناس والأشكال على طريق الخبر في الكتاب الأوسط على مراتبها من سائر أنواع الجوارح ، ودلائلها ، وما قاله الناس في ذلك .

هيفلوس

ثم ملك بعد بطليموس « هيفلوس » ، وكان رجلا جبارا ، وفي أيامه عملت الطلسمات ، وظهرت عبادة التماثيل والأصنام لشبه دخلت عليهم ، وأنها وسائط بينهم وبين خالقهم تقربهم اليه وتدنيهم منه ، وكان ملكه ثمانيا وثلاثين سنة ، وقيل : أربعين سنة .

وقد قيل : إن الذي تملك بعد خليفة الاسكندر بطليموس الثاني ، محب الأخ ، وغزا بني اسرائيل ببلاد فلسطين ، وايليا من أرض الشام ، فسباهم وقتل منهم . وطلب العلوم . ثم رد بني اسرائيل الى فلسطين ، وحمل معهم الجواهر والأموال ، وآلات الذهب والفضة لهيكل بيت المقدس .

وكان ملك الشام يومئذ أبطنجنس ، وهو الذي بنى مدينة أنطاكية ، وكانت دار ملكه . وجعل بناء سورها أحد عجائب العالم في البناء على السهل والجبل . ومسافة السور اثنا عشر ميلا ، عدة الأبراج فيه مائة وستة وثلاثون برجا .

وجعل عدد شرفاته أربعة وعشرين ألف شرفة . وجعل كل برج من الأبراج ينزله بطريق برجاله وخيله .

وجعل كل برج منها طبقات الى أعلاه : فمرابط الخيل في أسفله وأرضه ، والرجال في طبقاته ، والبطريق في أعلاه .

وجعل كل برج منها كالحصن عليه أبواب حديد ، وآثار الأبواب ومواضع الحديد بين الى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة .

وأظهر فيها مياها من أعين وغيرها ، لا سبيل الى قطعها من خارجها .

وجعل اليها مياها منصبة في قنى مخرقة الى شوارعها ودورها .

ورأيت فيها من هذه المياه ما يستحجر في مجاريها المعمولة من الخزف لترادف التقن فيها ، فيتراكم طبقات ويمنع الماء من الجريان بانسداده ، فلا يعمل الحديد في كسره .

وقد ذكرنا ذلك في كتابنا المترجم بـ « القضايا والتجارب » ما شاهدناه حسا ، ونمي الينا خبرا ، مما يولده ماء أنطاكية في أجساد الحيوان الناطق وأجوافهم ، وما يحدث في معدهم ، من الرياح السوداوية الباردة والقولنجية الغليظة .

وقد أراد الرشيد سكناها فقيل له بعض ما ذكرنا من أوصافها ، وترادف الصدأ على السلاح من السيوف وغيرها بها ، وعدم بقاء ريح أنواع الطيب بها ، واستحالته على اختلاف أنواعه . . . . فامتنع من سكناها .

جماعة من ملوك اليونانيين

ثم ملك على اليونانيين بعد هيفلوس « بطليموس » الصانع ستا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده عليهم « بطليموس » المعروف بمحب الأب ، تسع عشرة سنة .

وكانت له حروب مع ملوك الشام ، وصاحب انطاكية الاسكندروس ، وهو الذي بنى مدينة فامية بين حمص وأنطاكية .

ثم ملك بعده على اليونانيين « بطليموس » صاحب علل علم الفلك والنجوم ، وكتاب « المجسطي » وغيره ، أربعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده « بطليموس » محب الأم ، خمسا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده « بطليموس » الصانع الثاني سبعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده « بطليموس » المخلص سبع عشرة سنة .

ثم ملك بعده « بطليموس » الاسكندراني اثنتي عشرة سنة .

ثم ملك بعده « بطليموس » الجديد ثماني سنين .

ثم ملك بعده « بطليموس » الجوال ثمانيا وستين سنة ، وكانت له حروب كثيرة .

ثم ملك بعده « بطليموس » الحديث ثلاثين سنة .

كليوباترا

ثم ملكت بعده ابنته « قلبطرة » ، وكان ملكها اثنتين وعشرين سنة . وكانت حكيمة متفلسفة ، مقربة للعلماء ، معظمة للحكماء ، ولها كتب مصنفة في الطب والرقية وغير ذلك من الحكمة ، مترجمة باسمها ، منسوبة اليها ، معروفة عند صنعة أهل الطب .

وهذه الملكة آخر ملوك اليونانيين ، الى أن انقضى ملكهم ودثرت أيامهم ، وامحت آثارهم ، وزالت علومهم ، الا ما بقي في أيدي حكمائهم .

وقد كان لهذه الملكة خبر ظريف في موتها وقتلها لنفسها . وقد كان لها زوج يقال له انطونيوس مشارك لها في ملك مقدونية ، وهي بلاد مصر من الاسكندرية وغيرها ، فسار اليهم الثاني من ملوك الروم من بلاد رومية ، وهو اغسطس . وهو أول من سمي قيصر ، واليه تنسب القياصرة بعده ، وسنذكر خبره في باب ملوك الروم بعد هذا الموضع .

وكانت له حروب بالشام ومصر مع قلبطرة الملكة ومع زوجها انطونيوس ، الى أن قتله ، ولم يكن لقلبطرة في دفع أغسطس ملك الروم عن ملك مصر حيلة .

وأراد اغسطس إعمال الحيلة فيها لعلمه بحكمتها ، وليتعلم منها - اذ كانت بقية الحكماء اليونانيين - ثم بعدها يقتلها ، فراسلها .

وعلمت مراده فيها وما قد وترها به من قتل زوجها وجنودها ، فطلبت الحية التي تكون بين الحجاز ومصر والشام . وهي نوع من الحيات : تراعي الانسان ، حتى اذا تمكنت من النظر الى عضو من أعضائه تفزت أذرعا كثيرة كالرمح فلم تخطىء ذلك العضو بعينه ، حتى تتفل عليه سما ، فتأتي عليه ، ولا يعلم بها ، لخموده من فوره ، ويتوهم الناس أنه قد مات فجأة حتف انفه .

ورأيت نوعا من هذه الحيات بين بلاد خوزستان من كور الأهواز لمن أراد بلاد فارس من البصرة ، وهو الموضع المعروف بخان مردويه بين مدينة دورق وبلاد الباسيان والفندم في الماء . وهي حيات شبرية ، وتدعى هنالك الفترية ، ذات رأسين تكون في الرمل وفي جوف تراب الأرض . فاذا احست بالانسان أو غيره من الحيوان وثبت من موضعها اذرعا كثيرة فضربت باحدى رأسيها الى أي موضع من ذلك الحيوان ، فتلحقه من ساعته ضد الحياة وعلمها لحينه .

فبعثت قلبطرة هذه الملكة فاحتمل لها حية من هذه المقدم ذكرها التي توجد بأطراف الحجاز .

فلما أن كان اليوم الذي علمت أن أغسطس يدخل قصر ملكها ، أمرت بعض جواريها ومن أحبت فناءها قبلها ، وألا يلحقها العذاب بعدها ، فسمتها في أنائها فخمدت من فورها .

ثم جلست قلبطرة الملكة على سرير ملكها ، ووضعت تاجها على رأسها ، وعليها ثيابها وزينة ملكها ، وجعلت أنواع الرياحين والزهر والفاكهة والطيب وما يجتمع بمصر من عجائب الرياحين وغيرها مما ذكرنا ، مبسوطة في مجلسها وقدام سريرها .

وعهدت بما احتاجت اليه من أمورها ، وفرقت حشمها من حولها ، فاشتغلوا بأنفسهم عن ملكتهم ، لما قد غشيهم من عدوهم ودخوله عليهم في دار ملكهم .

وأدنت يدها من الاناء الزجاج الذي كانت فيه الحية ، فقربت يدها من فيه فتفلت عليه الحية ، فجفت مكانها . وانسابت الحية وخرجت من الاناء ، ولم تجد جحرا ولا مذهبا تذهب فيه لاتقان تلك المجالس بالرخام والمرمر والأصباغ ، فدخلت في تلك الرياحين .

ودخل أغسطس حتى انتهى الى المجلس ، فنظر اليها جالسة والتاج على رأسها ، فلم يشك في انها تنطق ، فدنا منها فتبين له أنها ميتة .

وأعجب بتلك الرياحين ، فمد يده الى كل نوع منها يلمسه ويتبينه ويعجب خواص من معه به . ولم يدر سبب موتها ، وهو يتأسف على ما فاته منها .

فبينا هو كذلك من تناول تلك الرياحين وشمها اذ قفزت عليه تلك الحية فرمته بسمها ، فيبس شقه الأيمن من ساعته ، وذهب بصره الأيمن وسمعه .

فتعجب من فعلها وقتلها لنفسها وايثارها للموت على الحياة مع الذل ، ثم ما كادته به من القاء الحية بين الرياحين ، فقال في ذلك شعرا بالرومية يذكر حاله وما نزل به وقصتها ، وأقام بعد ما نزل به ما ذكرنا يوما وهلك .

ولولا أن الحية كانت قد أفرغت سمها على الجارية ثم على قلبطرة الملكة . لكان أغسطس قد هلك من ساعته ، ولم تمهله هذه المدة .

وهذا الشعر معروف عند الروم الى هذه الغاية ، يذكرونه في نوحهم ويرثون به ملوكهم وموتاهم . وربما ذكروه في أغانيهم ، وهو متعالم معروف عندهم .

وقد ذكرنا فيما سلف من كتبنا سير هؤلاء الملوك وأخبارهم وحروبهم وطوافهم البلاد ، وأخبار حكمائهم ، وما أحدثوه من الآراء والنحل ، ومقائل فلاسفتهم ، وغير ذلك من اسرارهم وعجيب أخبارهم .

عدد ملوك اليونانيين ومدة حكمهم

والذي يعول عليه من عدد ملوكهم ، واتفق على ذلك أهل المعرفة بأخبارهم أن جميع عدد ملوك اليونانيين أربعة عشر ملكا آخرهم الملكة قلبطرة . وأن جميع عدد سني ملوكهم ومدة أيامهم وامتداد سلطانهم ثلثمائة سنة وسنة واحدة .

وكان كل ملك يملك على اليونانيين من بعد الاسكندر بن فيليبس يسمى بطليموس ، وهذا الاسم الأعم الشامل لملكهم ، كتسمية ملوك الفرس كسرى ، وتسمية ملوك الروم قيصر ، وتسمية ملوك اليمن تبع ، وتسمية ملوك الحبشة النجاشي ، وتسمية ملوك الزنج فليمي .

وقد ذكرنا جملا من مراتب ملوك العالم وسماتهم واسمهم الأعم الشامل لهم فيما سلف من كتابنا هذا ، وسنورد بعد هذا الموضع ـ في الموضع المستحق له من هذا الكتاب ـ جملا عند ذكرنا الملوك والممالك ان شاء الله تعالى .

ذِكر مُلوك الرُّوم وَمَا قَاله النَّاس في أنسَابهم

الاختلاف في نسب الروم

تنازع الناس في الروم ، ولأية علة سموا بهذا الاسم .

فمنهم من قال : سموا روماً لاضافتهم الى مدينة رومية ، واسمها روماس بالرومية ، وعرب هذا الاسم فسمي من كان بها روماً ، وكذلك الروم في لغتها لا يسمون أنفسهم ولا يدعوهم أهل الثغور الا رومينس .

ومنهم من رأى أن هذا الاسم اسم للأب ، وهو روم بن سماحلين بن هربان بن عقلا ابن ابن العيص بن اسحاق بن ابراهيم الخليل عليه السلام .

ومنهم من رأى أنهم سموا باسم جدهم ، وهو رومي بن ليطن بن يونان بن يافث بن بريه بن سرحون بن رومية بن مربط بن نوفل بن روين بن الأصفر بن اليغز بن العيص بن اسحاق بن ابراهيم عليه السلام .

وقد قيل من الوجوه غير ما ذكرنا . وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب في باب اليونانيين نسب الاسكندر واتصاله بهذا النسب ، على ما ذكره الناس في ذلك ، والله أعلم .

وقد ولد للعيص ثلاثون رجلا ، فالروم الآخرة بنو الأصفر بن النفر بن العيص بن اسحاق .

وقد ذكر جماعة ممن سلف من شعراء العرب قبل ظهور الاسلام ذلك لاشتهار ما وصفنا فيهم ، منهم عدي بن زيد العبادي حيث يقول :

وبنو الأصفر الكرام ملوك الرّ ـرُوم لم يبق منهُم مذكور

وقد كان العيص بن اسحاق ، وهو عيصو ، تزوج من بنات الكنعانيين ، فأكثر اولاده منهم .

وقد قيل : ان العماليق ـ وهم العرب البادية الذين كانوا بالشام ـ من ولد النفاز بن عيصو ، وكذلك رعوئيل بن عيصو .

وهذا ما لا ينقاد اليه علماء العرب الا في الروم دون ما ذكرنا من العماليق وغيرهم . وهذه الأنساب كلها تتعلق بما في التوراة وغيرها من كتب العبرانيين .

أول ملوك الروم

قال المسعودي : وغلبت الروم على ملك اليونانيين لأخبار يطول ذكرها ويتعذر في هذا الكتاب شرحها . وكان أول من ملك من ملوك الروم فيهـا ساطوخاس ، وهـو جاليـوس الأصغر بن روم بن سماحليق . فكان ملكه اثنتين وعشرين سنة .

وقد قيل : إن أول من ملك من ملوك الروم قيصر ، واسمه غالوس بن كوليوس ، ثماني عشرة سنة .

وفي نسخة أخرى أن أول من ملك من ملوك الروم بعد اليونانيين توليس ، سبع سنين ونصفا ، وكانت مدينة رومية بنيت قبل الروم بأربعمائة سنة .

اغسطس

ثم ملك بعده « أغسطس » قيصر ، ستا وخمسين سنة . وهذا الملك هو أول من سمي من ملوك الروم قيصر ، وهو الثاني من ملوكهم . وتفسير قيصر : بقر ، أي شق عنه .

وذلك أن أمه ماتت وهي حامل به فشق بطنها ، فكان هذا الملك يفتخر في وقته بأن النساء لم تلده . وكذلك من حدث بعده من ملوك الروم ممن كان من ولده يفتخرون بهذا الفعل وما كان من أمهم ، فصارت سمة لمن طرأ بعده من ملوك الروم ، والله أعلم .

وغـزا هذا الملك الشام ومصر والاسكندريـة وأزال من بقي من ملـوك الاسكندريـة ومقدونية ، ونقلها الى رومية .

وكانت له حروب كثيرة في الأرض . وقد أتينا على ذكرها فيما سلف من كتبنا .

وكان يعبد الأوثان . وبنى بأرض الروم مدنا وكور كورا نسبت تلك المدن اليه ، منها قيسارية .

وكذلك بالشام بساحل فلسطين مدينة قيسارية ، وكان مولد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بها ، وهو يسوع الناصري على حسب ما قدمنا ، لا ثنتين وأربعين بسنة خلت من ملك قيصر أغسطس هذا ، فكان من ملك الاسكندر الى مولد المسيح ثلثمائة سنة وتسع وستون سنة .

مولد المسيح

ورأيت في مدينة انطاكية في بعض تواريخ الروم الملكية في كنيسة القسبان أنه كان من ملك الاسكندر الى مولد المسيح ثلثمائة سنة وتسع سنين .

وكان مولد يسوع الناصري لاحدى وعشرين سنة خلت من ملك هيردوس ملك بني اسرائيل في ذلك العصر بإيليا من بلاد فلسطين ، وهي أورشليم بالعبرانية . . . فمن هبوط

آدم الى مولد المسيح في تواريخ أصحاب الشرائع من أهل الكتب خمسة آلاف سنة وخمسمائة سنة وخمسون سنة .

وأقام أغسطس وهو قيصر ملكا بعد مولد المسيح أربع عشرة سنة ونصفا . وكان مدة ملكه على الروم برومية وفي سائر أسفاره ستا وخمسين سنة ، على حسب ما قدمنا من موته ولسع الحية اياه بمقدونية ، وجفاف نصفه ، وذهاب سمعه وبصره ، عند ذكرنا لفعل قلبطرة في الباب الذي قبل هذا الباب .

طيباريوس

ثم ملك الروم بعده « طيباريوس » ، وكانت مدة ملكه اثنتين وعشرين سنة ، ولثلاث سنين بقيت من ملكه رفع المسيح عليه السلام ، ولما هلك هذا الملك برومية اختلفت الروم وتحزبت ، فأقاموا على اختلاف الكلمة والتنازع في الملك مائتي سنة وثمانيا وتسعين سنة ، لا نظام لهم ، ولا ملك يجمعهم .

ولما انقضى ما ذكرنا من المدة ملكوا عليهم « طباريس غانس » بمدينة رومية ، فكان ملكه أربع سنين ، والقوم لا يعرفون غير عبادة التماثيل والصور .

قلوديس

ثم ملك بعده « قلوديس » أربع عشرة سنة ، وذلك برومية ، وهو أول ملك من ملوك الروم شرع في قتل النصارى وأتباع المسيح .

مقتل أتباع المسيح

وقيل : ان في أيامه قتل برومية بطرس (واسمه باليونانية شمعون والعرب تسميه سمعان) هو وبولص ، وصلبا منكسين ، وما كان من خبرهما مع سيما الساحر برومية .

وهما ممن أتى الى أنطاكية وأخبر اللّه عز وجل عنهما في سورة يس .

ثم كان لهما بعد ذلك نبأ عظيم ، وذلك بعد ظهور دين النصرانية برومية ، فجعلا في أجربة من البلور ، فهما على ذلك بمدينة رومية في بعض الكنائس الى هذه الغاية ، على حسب ما قدمنا آنفا فيما سلف من هذا الكتاب .

وأكثر من عني بأخبار العالم وسير ملوكهم وتاريخهم ، يذهب الى أنهما قتلا برومية في ملك الخامس من ملوك الروم .

وتفرق تلاميذ يسوع الناصري في الأرض .

فسار ماري الى مادنا من العراق فمات بمدينة دير قنى والصافية ، على شاطىء دجلة بين بغداد وواسط . وهذا البلد بلد علي بن عيسى بن داود بن الجراح ، ومحمد بن داود بن

الجراح ، وغيرهما من الكتاب . فقبره هناك في كنيسة الى وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) يعظمه أهل دين النصرانية .

ومضى توما ، وكان من الاثني عشر ، الى بلاد الهند داعيا الى شريعة المسيح ، فمات هناك .

وسار آخر الى آخر مدينة بخراسان ، فمات هنالك ، وموضع قبره مشهور يعظمه النصارى . ومنهم من رأى أنه مات ببلاد دقوقا وخانيجار وكرخ حدان في تخوم العراق وموضعه مشهور .

ومات مرقس بالاسكندرية مع أرض مصر ، وقبره هناك . وهو أحد التلاميذ الأربعة الذين ألفوا الانجيل .

وقد كان لمارقس من أهل مصر خبر ظريف في مقتله ، وقد أتينا على السبب في ذلك في كتابنا الأوسط الذي كتابنا هذا تال له . وأتينا على قصته مع أهل مصر ، ووصيته لهم حين أراد المسير الى المغرب : أنه من جاءكم على صورتي فاقتلوه ، فانه سيرد عليكم بعدي أناس يتشبهون بي ، فبادروا الى قتلهم ، ولا تقبلوا منهم ما يقولون .

ومضى ، وغاب عنهم برهة من الزمان ، ولم يلحق بحيث أراد ، فرجع اليهم ، فلما هموا بقتله قال لهم : ويحكم أنا مارقس !

قالوا : لا ، وقد أخبرنا أبونا مارقس ، وعهد الينا بقتل من يتشبه به .

قال : فاني أنا مارقس .

قالوا : لا سبيل الى تركك ، ولا بد من قتلك ، فقتلوه .

وقد كان قبل ذلك سئل في بدء الأمر عن البراهين المؤيدة لقوله ، وطلبوا منه المعجزات . وقال له بعضهم : إن كنت صادقا فيما أتيتنا به فاعرج الى هذا السماء ، ونحن نراك .

فنزع عنه زربانقته ، واتزر بمئزر صوف ، على أن يصعد الى السماء ، فتعلق به جماعة من تلامذته وقالوا له : ان مضيت ، فمن لنا بعد اذ كنت الأب ؟ . .

وكان أمره بعد ذلك على ما وصفنا .

تلاميذ المسيح

وتلاميذ المسيح اثنان وسبعون تلميذا ، واثنا عشر من غير الاثنين والسبعين . فأما الذين نقلوا الانجيل فهم : لوقا ، ومارقس ، ويوحنا ، ومتى . ومنهم من الاثنين والسبعين لوقا ومتى ، وقد يعد متى أيضا في الاثني عشر ، ولا أدري ما معناهم في ذلك .

والاثنان اللذان من الاثني عشر يوحنا بن زبدى ، ومارقس صاحب الاسكندرية ، والثالث الذي ورد أنطاكية ، وقد تقدمه بطرس وتوما ، وهو بولس . وهو الثالث المذكور في القرآن بقوله تعالى : « فعززنا بثالث » .

قال : وليس في سائر رهبان النصرانية من يأكل اللحم غير رهبان مصر ، لأن مارقس أباح لهم ذلك .

ملك تيزون

ثم ملك الروم « تيزون » واستقام ملكه ، ورغب في عبادة التماثيل والأصنام . ويقال : أنه قتل في ملكه بطرس وبولس برومية على حسب ما قدمنا . ونمى دين النصرانية الى الروم ، فكثرت فيهم الدعاة اليه ، فقتل هذا الملك منهن خلائق كثيرة ، وكان ملكه أربع عشرة سنة وأشهرا .

ملك طيطش

ثم ملك بعده « طيطش » و« أسباسيانوس » مشتركين في الملك ثلاث عشرة سنة ، وذلك بمدينة رومية . ولسنة خلت من ملك هذين الملكين سارا الى الشام ، وكانت لهما مع بني اسرائيل حروب عظيمة ، وقتل فيها من بني اسرائيل ثلثمائة ألف . وخربا بيت المقدس وأحرقا الهيكل بالنار ، وحرثاه بالبقر ، وأزالا رسمه ، ومحوا أثره ، وكانت عبادتهما للاصنام .

ووجدت في بعض كتب التواريخ أن الله عاقب الروم من ذلك اليوم الذي خرب فيه بيت المقدس أن يسبى كل يوم من سَبْى ، يفعل ذلك من أطاف ببلادهم من الأمم ، فلا يأتي يوم من أيام العالم الا والسبي واقع بهم ، قل ذلك أو كثر .

دوبطياس

ثم ملك الروم بعدهما « دوبطياس » خمس عشرة سنة ، عابدا للتماثيل معظما لها ، ولتسع سنين من ملكه نفى يوحنا التلميذ أحد الأربعة من أصحاب الانجيل الى بعض جزائر البحر ، ثم رده بعد ذلك .

ثم ملك بعده « بيرنوس » سنة .

جماعة من ملوك الروم

ثم ملك بعده « طريانوس » سبع عشرة سنة يعبد الأصنام ، ولتسع سنين خلت من ملكه مات يوحنا التلميذ .

ثم ملك بعده « أدريانس » احدى عشرة سنة ، يعبد التماثيل ، وخرب سائر ما بنى بنو اسرائيل بالشام .

ثم ملك بعده « أبطوليس » برومية ثلاثا وعشرين سنة ، وبنى بيت المقدس وسماه ايليا ، وهو أول من سماه بهذا الاسم ايليا .

ثم ملك بعده « مرلس » سبع عشرة سنة يعبد الأصنام .

ثم ملك بعده « فرمودش » يعبد الأصنام ثلاث عشرة سنة .

ثم ملك بعده « سويرس » ثماني عشرة سنة .

ثم ملك بعده ولد له يقال له « أبطونيس » يعبد التماثيل سبع سنين .

ثم ملك بعده « أبطونيس » الثاني ، أربع سنين ، يعبد التماثيل . وفي آخر ملك هذا الملك مات جالينوس الطبيب .

ثم ملك بعده « الاسكندر مامياس » ، وتفسير « مامياس » العاجز . وكان يعبد التماثيل ، وكان ملكه ثلاث عشرة سنة .

ثم ملك بعده « مقسمس » يعبد التماثيل . وكان ملكه ثلاث سنين .

ثم ملك بعده « غر دانس » يعبد التماثيل ست سنين .

دقيوس وأصحاب الكهف

ثم ملك بعده « دقيوس » يعبد الأوثان ستين سنة ، وأمعن في قتل النصرانية وطلبهم . ومن هذا الملك هرب اصحاب الكهف .

وقد اختلف الناس في أصحاب الكهف والرقيم : فمنهم من رأى أن أصحاب الكهف هم أصحاب الرقيم ، وزعموا أن الرقيم هو ما رقم من أسماء أهل الكهف في لوح من حجر على باب تلك المغارة . ومنهم من رأى أن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف . . . .

وقد ذكرنا كلا الموضعين بأرض الروم .

وقد حكى احمد بن الطيب بن مروان السرخسي تلميذ يعقوب بن اسحاق الكندي ، عن محمد بن موسى المنجم ، حين أنفذه الواثق بالله من سر من رأى الى بلاد الروم حتى أشرف على أصحاب الرقيم ، وهو الموضع المعروف من بلاد الروم بحارمي . . . .

وقد ذكرنا في الكتاب الأوسط قصة أصحاب الكهف ، وموضعهم ، وكيفية أحوالهم ، الى هذه الغاية ، وخبر أصحاب الرقيم ، وما حكاه محمد بن موسى المنجم من خبرهم ، وما لحقه من الموكل بهم حين أراد قتله بالسم ، وقتل من كان معه من المسلمين . وأخبرنا عن خبر السد الذي بناه ذو القرنين مانعا ليأجوج ومأجوج .

****

قال المسعودي : ووجدت في كتاب صور الأرض ، وما عليها من الأبنية المعظمة

والهياكل المشيدة ، قد صور مقدار عرض السد فيما بين الجبلين دون الطول والذهاب في الصعد تسع درج ونصف من درج الفلك . فمقدار ذلك من الجبل الى الجبل خمسون ومائة فرسخ .

وهذا عند جماعة من أهل النظر والبحث مستحيل كونه .

وقد أنكر ذلك محمد بن كثير الفرغاني المنجم ، وتكلم عليه ، وبرهن على فساده .

وأفرد أحمد بن الطيب الذي قتله المعتضد بالله لما ذكرنا من الكهف والرقيم رسائل .

وقد أتينا على جميع ما قيل في ذلك في كتابنا المترجم بالكتاب الأوسط .

ثم ملك « جالينوس » ثلاث سنين .

ثم ملك بعده « يدنوس » نحوا من عشرين سنة ، وقيل : خمس عشرة سنة .

ثم ملك بعده « فورس » نحوا من عشرين سنة .

ثم ملك بعده ولد له يقال له « فارس » نحوا من سنتين .

ثم ملك بعده « قليطانس » عشر سنين .

ثم ملك بعده « قسطنطين » .

* * *

قال المسعودي : والذي وجدت في الأكثر من كتب التواريخ مما اتفقوا عليه أن عدة ملوك الروم الذين ملكوا بمدينة رومية - وهم الذين قدمنا ذكرهم في هذا الباب - تسعة وأربعون ملكا ، وجميع عدد سني ملكهم من أول ملك ملكهم على حسب ما ذكرنا من الخلاف في صدر هذا الكتاب الى قسطنطين هذا (وهو ابن هلاني) أربعمائة وسبع وثلاثون سنة وسبعة أشهر وسبعة أيام .

ونسخ كتب التواريخ في هذا المعنى مختلفة غير متفقة في أسماء ملوكهم ، ومدة ملكهم ، وأكثرها بالرومية ، فحكينا من ذلك ما تأتى لنا وصفه .

ولهؤلاء الملوك أخبار وسير ، هي موجودة في كتب النصارى الملكية ، وقد أتينا على مبسوطها ، والغرض منها في كتابنا « أخبار الزمان » وما شدوا من البنيان ، وما كان لهم في هذا العالم من الأسفار . وبالله التوفيق .

ذِكرُ مُلوكِ الرّومِ المُتَنصِّرَة وَهُمْ مُلوكُ القِسطنطينيّة، وَلمع مِنْ أخبارِهِم

قسطنطين وبناء القسطنطينية

ملك قسطنطين بعد أن هلك قليطانس برومية ، وهو يعبد الأوثان . وكان أول ملك انتقل من ملوك الروم عن رومية الى بوزنطيا ، وهي مدينة القسطنطينية ، فبناها وسماها باسمه الى وقتنا هذا . وكان له في بنائها خبر ظريف مع بعض ملوك برجان ، لخوف داخله من بعض ملوك ساسان .

وكان خروجه من رومية ، ودخوله في دين النصرانية ، لسنة خلت من ملكه .

ولتسع سنين خلت من ملكه خرجت أمه « هلاني » الى أرض الشام ، فبنت الكنائس ، وسارت الى بيت المقدس ، وطلبت الخشبة التي صلب عليها المسيح عندهم ، فلما صارت اليها حلتها بالذهب والفضة ، واتخذت لوجودها عيدا ، وهو عيد الصليب . وهو لأربع عشرة تخلو من أيلول ، وفيه تفتح الترع والخلجانات ببلاد مصر ، على حسب ما نورده عند ذكرنا لأخبار مصر من هذا الكتاب .

وهي التي بنت كنيسة حمص على أربعة أركان ، وذلك من عجائب بنيان العالم ، واستخرجت الكنوز والدفائن بمصر والشام ، وصرفت ذلك الى بناء الكنائس ، وتشييد دين النصرانية . وكل كنيسة بالشام ومصر وبلاد الروم ، فانها بنتها هذه الملكة « هلاني » أم قسطنطين . وجعل اسمها مع الصليب في كل كنيسة لها .

وليس للروم في أحرفهم هاء ، وأحرف « هلاني » خمسة أحرف : فالأول امالة ، وهو بحساب الجمل خمسة ، والثاني - وهو اللام - ثلاثون ، والثالث امالة أيضا ، وهي خمسة أيضا ، والرابع النون وهي خمسون ، والخامس ياء ، وهو في حساب الجمل عشرة . . . فذلك مائة اختصارا على ما ذكرنا ، وهذه صورة الحرف الذي هو مائة بالرومية .

السنودسات (الاجتماعات) الستة

ولتسع عشرة سنة خلت من ملك قسطنطين بن هلاني اجتمع ثلثمائة وثمانية عشر أسقفا بمدينة نيقية بأرض الروم ، فأقاموا دين النصرانية .

وهذا الاجتماع أول الاجتماعات الستة التي يذكرها الروم في صلواتهم ، ويسمونها القوانين ، ومعنى هذه الاجتماعات الستة بالرومية السنودسات ، واحدها سنودس .

فالأول بنيقية على ما ذكرنا من العدد ، وكان الاجتماع فيه على أريوس وهذا اتفاق من سائر أهل دين النصرانية من الملكية والمشارقة ، وهم العباد الذين تسميهم الملكية وعامة

الناس النسطورية ، واتفاق من اليعاقبة على هذا السنودس أيضا .

والسنودس الثاني بالقسطنطينية على مقدونس ، وعدة المجتمعين فيه من الأساقفة مائة وخمسون رجلا .

والسنودس الثالث بأفسوس ، وعددهم مائتا رجل .

والسنودس الرابع بخلقدونية ، وعددهم ستمائة وستون رجلا .

والسنودس الخامس بقسطنطينية ، وعددهم مائة وستة وأربعون رجلا .

والسنودس السادس كان في مملكة المدائن ، وعددهم مائتان وتسعة وثمانون رجلا .

وسنذكر بعد هذا الموضع في ترتيب ملوك الروم هذه السنودسات ، وغلبة دين النصرانية ، وزوال عبادة التماثيل والصور .

سبب تنصر قسطنطين

وكان السبب في دخول قسطنطين بن هلاني في دين النصرانية والرغبة فيه ، أن قسطنطين خرج في بعض حروب برجان ، أو غيرهم من الأمم . وكانت الحرب بينهم سجالا نحوا من سنة ، ثم كانت عليه في بعض الأيام ، فقتل من أصحابه خلق كثير ، فخاف البوار .

فرأى في النوم كأن رماحا نزلت من السماء فيها عذاب ، وأعلاما على رؤوسها صلبان من الذهب والفضة والحديد والنحاس ، وأنواع الجواهر والخشب ، وقيل له : خذ هذه الرماح ، وقاتل بها عدوك ، تنصر .

فجعل يحارب بها في النوم ، فرأى عدوه منهزما ، وقد نصر عليه ، وولاه الدبر . فاستيقظ من رقدته ، ودعا بالرماح فركب عليها ما ذكرنا ، ورفعها في عسكره ، وزحف الى عدوه ، فولوا وأخذهم السيف .

فرجع الى مدينة نيقية ، وسأل أهل الخبرة عن تلك الصلبان ، وهل يعرفون ذلك في شيء من الآراء والنحل ؟

فقيل له : إن بيت المقدس من أرض الشام مجمع لهذا المذهب ، وأخبر بما فعل من قبله من الملوك من قتل النصرانية . فبعث الى الشام ، والى بيت المقدس ، فحشد له ثلثمائة وثمانية عشر أسقفا ، فأتوه وهو بنيقية ، فقص عليهم أمره فشرعوا له دين النصرانية . .

فهذا هو السنودس الأول ، وهو الاجتماع على ما ذكرنا .

وقد قيل ان أم قسطنطين هلاني كانت قد تنصرت وأخفت ذلك عنه قبل هذه الرؤيا .

وكان ملك قسطنطين الى أن هلك احدى وثلاثين سنة ، وفي وجه آخر من التاريخ أنه ملك خمسا وعشرين سنة .

وقد أتينا على أخباره وحروبه وخروجه مرتادا لموضع القسطنطينية ، ووروده الى هذا الخليج الآخذ من بحر مايطس ونيطس في كتابنا « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط ، وأن خليج القسطنطينية يأخذ من هذا البحر ، ويجري فيه الماء جريا ، ويصب الى بحر الشام .

ومسافة هذا الخليج ثلثمائة وخمسون ميلا ، وقيل : أقل من ذلك . وعرضه في الموضع الذي يأخذ من بحر مايطس نحو من عشرة أميال . وهناك عمائر ، ومدينة للروم تدعى سباه ، تمنع من يرد في هذا البحر من مراكب الروس ، وغيرها .

ثم يضيق هذا الخليج عند القسطنطينية ، فيصير عرضه ـ وهو موضع العبور من الجانب الشرقي الى الموضع الغربي الذي فيه القسطنطينية ـ نحوا من أربعة أميال وعليه العمائر .

وينتهي في ضيقه الى الموضع المعروف بالأندلس ، وهناك جبال وعين ماء كثير ، ماؤها موصوف ، يعرف بعين مسلمة بن عبد الملك ، وكان نزوله عليها حين حاصر القسطنطينية ، وأتته مراكب المسلمين .

وفم هذا الخليج مما يلي بحر الشام ، ومنتهى مصبه مضيق . وهناك برج يمنع من فيه من يرد من مراكب المسلمين في الوقت الذي كانت للمسلمين فيه مراكب تغزو الروم ، وأما الآن فمراكب الروم تغزو بلاد الاسلام ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وأخبرني أبو عمير عدي بن أحمد بن عبد الباقي الأزدي ـ وهو شيخ الثغور الشامية قديما وحديثا الى وقتنا هذا ، وهو من أهل التحصيل ـ أنه لما عبر الى القسطنيطينية في هذا الخليج حين دخل لاقامة الهدنة والفداء ، كان يتبين جرية هذا الماء وتردده مما يلي بحر مايطس ، وربما يتبين في الماء الذي يلي بحر الشام فيجده فاترا .

وهذا يدل على اتصال ماء هذين البحرين ، وأنه قد دخل في بحر الروم الى هذا الخليج أيضا .

وسمعت غير واحد من أهل التحصيل ممن غزا غزاة سلوقية مع غلام زرافة ـ وقد كانوا قد دخلوا الى خليج القسطنطينية ، وساروا فيه مسافة بعيدة ـ أنهم وجدوا الماء في هذا الخليج يقل في أوقات من الليل والنهار ويكثر كالمد والجزر ، وعليه العمائر والمدن ، فلما أحسوا بنقص الماء بادروا بالخروج منه الى البحر الرومي .

وأن في مدخلـه من بحر الـروم مدينة تقرب من فم الخليـج ، والخليـج يطيف بالقسطنطينية من جهتين ، مما يلي الشرق ومما يلي الشمال ، [illegible] الجنوبي البر ، وفيه باب الذهب مطلي على صفائح النحاس .

وهو عدة أسوار مما يلي الغرب ، وفيه قصر . وأعلى أسوارها الغربية نحو من ثلاثين ذراعا ، وقد ذكر أنه أقل من ذلك ، وأن أقصر موضع فيه عشرة أذرع ، وأعلى موضع من سورها ما كان مما يلي الجنوب .

فأما ما كان مما يلي الخليج فسور واحد ، وفيه قصر وبواشير وأبراج كثيرة ، ولها أبواب كثيرة مما يلي البر والبحر ، وحولها كنائس كثيرة . وقد قيل : إن لها ثلاثين بابا ، ومنهم من زعم أن عليها مائة باب صغارا وكبارا .

وهو بلد عفن مختلف المهاب مرطب للأبدان لكونه بين ما وصفنا من هذه البحار .

قال المسعودي : ولم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونانيين ، وبرهة من مملكة الروم ، تعظم العلماء ، وتشرف الحكماء .

وكانت لهم الآراء في الطبيعيات والجسم والعقل والنفس ، والتعاليم الأربعة : أعني الارثماطيقي وهو علم الأعداد ، والجومطريقي وهو علم المساحة والهندسة ، والاسترنوميا وهو علم النجوم ؛ والموسيقى وهو علم تأليف اللحون .

ولم تزل العلوم قائمة السوق ، مشرقة الأقطار قوية المعالم ، شديدة المقاوم ، سامية البناء ، الى أن تظاهرت ديانة النصرانية في الروم ، فعفوا معالم الحكمة ، وأزالوا رسمها ، ومحوا سبلها ، وطمسوا ما كانت اليونانية أبانته ، وغيروا ما كانت القدماء منهم أوضحته .

الموسيقى وشرفها

وكان من شريف ما تركته المعرفة بعلم الموسيقى ، لأنه غذاء للنفس ، ومطرب لها ، وملهيها ، تبتهج عند سماعه ، وتحن الى تأليف أوضاعه .

وقد نطقت الحكماء بشرفه ، ونبهت على نفاسة محله :

فقال الاسكندر : من فهم الألحان استغنى عن سائر اللذات .

وقد قالت الفلاسفة : ان النغم والأغاني فضيلة شريفة كانت تعذرت عن المنطق ليست في قدرته ، فلم يقدر على اخراجها ، فأخرجتها النفس ألحانا ، فلما أظهرتها سرت بها وعشقتها وطربت اليها .

ورتبت الحكماء الأوتار الأربعة بازاء الطباع الأربع : فجعلوا الزير بازاء المرة الصفراء والمثنى بازاء الدم ، والمثلث بازاء البلغم ، والبم بازاء المرة السوداء .

وقد أشبعنا القول في الموسيقى وأصحاب الملاهي والايقاع ، وأصناف الرقص والطرب والنغم ، ونسب النغم ، وما استعملته كل أمة من الأمم من أصناف الملاهي ، من اليونانيين والروم والسريانيين والنبط والسند والهند والفرس وغيرهم من الأمم ، وذكرنا مناسبة النغم

للأوتار ، وممازجة النفس والألحان ، وكيفية تولد الطرب وأنواع السرور وذهاب الغم وزوال الحزن ، وعلل ذلك الطبيعية والنفسية ، وما أحاط بذلك من جميع الوجوه ، في كتابنا المترجم بكتاب « الزلف » ، وأتينا على ظريف أخبارهم وأنواع لهوهم وملاهيهم في كتاب « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن اعادته ههنا ، اذ هذا الكتاب في غاية الايجاز . وإن سنح لنا سانح ذكرنا لمعا من هذه الجوامع فيما يرد من هذا الكتاب ان شاء الله تعالى ، وإن تعذر ذلك فقد قدمنا التنبيه على ما سلف من كتبنا ، على الشرح والايضاح .

قسطنطين .

ثم ملك الروم بعد قسطنطين بن هلاني الملك المتنصر قسطنطين بن قسطنطين ، وهو ابن الملك الماضي . وكان ملكه أربعا وعشرين سنة ، وبنى كنائس كثيرة ، وشيد دين النصرانية .

لليانس

ثم تملّك ابن اخي قسطنطين الأول لليانس فرفض دين النصرانية ، ورجع الى عبادة الأوثان ، وهو لليانس المعروف بالحنيفي .

وأهل دين النصرانية لبغضهم فيه لرجوعه عن النصرانية وتغييره لرسومها يسمونه لليانس البزطاط .

وغزا العراق في ملك سابور بن أردشير بن بابك ، فأتاه سهم غرب فذبحه ، وقد كان سار الى العراق في جنود لا تحصى ، ولم يكن لسابور حيلة في دفعه ولقائه لمفاجأته اياه ، فانصرف سابور عن اللقاء الى الحيلة في دفعه . . . وكان من أمره ما وصفنا من سهم الغرب .

وكان ملكه الى أن هلك سنة ، وقيل أكثر من ذلك . وهو الملك الثالث من بعد ظهور دين النصرانية .

يونياس

ولما هلك لليانس جزع من كان معه من الملوك ، والبطارقة ، والجيوش ، ففزعوا الى بطريق كان معظما فيهم ، يقال له يونياس ، وقيل : أنه كان كاتب الماضي ، فأبى عليهم أن يتملك الا أن يرجعوا الى دين النصرانية ، فأجابوه الى ذلك .

وضايق سابور القوم ،و أحاط بعساكرهم ، فكان ليونياس مع سابور مراسلات ومهادنة واجتماع ومحادثة ومعاشرة ، ثم افترقا . وانصرف بجيوش النصرانية موادعا لسابور ، وأخلف عليه ما أتلف من أرضه بأموال حملها اليه ، وهدايا من لطائف الروم .

وشيد هياكل في دين النصرانية ، وردها الى ما كانت عليه . ومنع من الأصنام والتماثيل ، وقتل على عبادتها . وكان ملكه سنة .

ثم ملك بعده أوالس وهو على دين النصرانية ، ثم رجع عنها . وهلك في بعض حروبه ، وكان ملكه الى أن هلك أربع عشرة سنة .

يقظة أهل الكهف

وقيل : ان في أيامه استيقظ أصحاب الكهف من رقدتهم على حسب ما أخبر الله جل ثناؤه عنهم أنهم بعثوا احدهم بورقهم الى المدينة . وهذا الموضع من أرض الروم في الشمال .

وللناس ممن عني بعلم الفلك في ازورار الشمس عن كهفهم في حال طلوعها وغروبها لموضعهم من الشمال كلام كثير . وقد أخبر الله تعالى في كتابه عن ذلك فقال : « وترى الشمس اذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين واذا غربت تقرضهم ذات الشمال ، وهم في فجوة منه ، ذلك من آيات الله ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .

وكانوا من أهل مدينة أفسيس من أرض الروم .

غراطياس

ثم ملك بعد أوالس غراطياس خمس عشرة سنة ، ولسنة من ملكه كان اجتماع النصرانية ، وهو أحد الاجتماعات فأتموا القول في روح القدس عندهم ، وأحرقوا مقدونس بطريق القسطنطينية ، وهو السنودس الثاني .

تدوسيس

ثم ملك بعده تدوسيس الأكبر (وتفسير هذا الاسم عندهم عطية الله) ، وقام بدين النصرانية ، وعظم منها ، وبنى كنائس .

ولم يكن من أهل بيت الملك ولا من الروم ، وانما كان أصله من الأشبان ، وهم بعض الأمم السالفة ، وقد كانت ممن ملك الشام ومصر والمغرب والأندلس . وقد تنازع الناس فيهم .

فذكر الواقدي في كتابه فتوح الأمصار أن بدأهم من أهل أصبهان ، وأنهم ناقلة من هنالك . وهذا يوجب أنهم من قبل ملوك فارس الأولى .

وذكر عبيد الله بن خرداذبة نحو ذلك وساعدهما على ذلك جماعة من أهل السير والأخبار .

والأشهر من أمرهم أنهم من ولد يافث بن نوح ، وهم ملوك الأندلس من اللذارقة واحدهم لذريق .

وقد تنوزع في دياناتهم : فمنهم من رأى أنهم كانوا على دين المجوس ، ومنهم من رأى أنهم كانوا على مذهب الصابئة وغيرهم من عبدة الأصنام ، وقد قلنا : ان الأشهر من أنسابهم أنهم من ولد يافث بن نوح .

فكانت مدة ملك تدوسيس الى أن هلك عشر سنين .

جماعة من ملوكهم

ثم ملك بعده « أرقاديس » أربع عشرة سنة ، وكان على دين النصرانية .

ثم ملك بعده ابنه تدوسيس الأصغر ، وذلك بمدينة أفسيس ، وجمع مائتي أسقف (وهذا الاجتماع الثالث الذي قدمنا ذكره آنفا) ، ولعن فيه نسطورس البطرك .

وقد ذكرنا في كتابنا « أخبار الزمان » الحيلة التي وقعت على نسطورس بطرك القسطنطينية من صاحب الكرسي بالاسكندرية وما كان من نسطورس ، ونفيه ليوحنا المعروف بالراهب ، وما كان من يدوقيا زوجة الملك ... الى أن نفي نسطورس من القسطنطينية الى أنطاكية ، ثم منها الى صعيد مصر .

والمشارقة من النصارى أضيفوا الى نسطورس لأنهم اتبعوه وقالوا بقوله . وإنما وسمتهم الملكية بهذا الاسم لتعيّرهم وتعييبهم بذلك .

وقد كانت المشارقة بالحيرة وغيرها من الشرق تدعى بالعباد وسائر نصارى المشرق يأبون هذه الاضافة الى نسطورس ، ويكرهون ان يقال لهم نسطورية .

وقد أيد برصوما مطران نصيبين رأي المشارقة في الثالوث ، وهو الكلام في الأقاليم الثلاثة والجوهر الواحد وكيفية اتحاد اللاهوت القديم بالناسوت المحدث .

وكان ملك تدوسيس الأصغر الى أن هلك اثنتين وأربعين سنة .

اليعاقبة

ثم ملك بعده مرقيانوس .

ثم ملك الروم بلخاريا زوجة مرقيانوس ، وكانت ملكة معه ، وفي أيامها كان خبر اليعاقبة من النصارى ، ووقوع الخلاف بينهم في الثالوث ... فكان ملكها سبع سنين .

وأكثر اليعاقبة بالعراق وبلاد تكريت والموصل والجزيرة ومصر وأقباطها ، الا اليسير فانهم ملكية . والنوبة والأرمن يعاقبة .

ومطران اليعاقبة بتكريت بين الموصل وبغداد ، وقد كان لهم بالقرب من رأس العين واحد فمات . وصاحبهم اليوم بناحية حلب ببلاد قنسرين والعواصم .

وكرسي اليعاقبة رسمه أن يكون بمدينة انطاكية ، وكذلك لهم كرسي بمصر ، ولا أعلم لهم غير هذين الكرسيين ، وهما مصر وأنطاكية .

ثم ملك بعدهما اليون الأكبر بن اليون ، وكان ملكه ست عشرة سنة . وفي أيامه أحرم مسعرة اليعقوبي بطرك الاسكندرية ، واجتمع له من الأساقفة ستمائة وثلاثون أسقفا ، وفي تاريخ الروم ان عدة المجتمعين ستمائة وستون رجلا ، وذلك بخلقدونية .

وهذا الاجتماع هو السنودس الرابع عند الملكية ، واليعاقبة لا تعتد بهذا السنودس .

ولهم خبر ظريف في قصة سواري البطرك ، وما كان من أمره ، وخبر تلميذه يعقوب البراذعي ، ودعوته الى مذهب سواري .

واليعاقبة اضيفت الى مذهب يعقوب البراذعي هذا ، وبه عرفت ، وكان من أهل أنطاكية يعمل البراذع .

ثم ملك بعد اليون الأصغر ابن اليون ، سنة على دين الملكية .

ثم ملك بعده زينو وهو من بلاد الأرمينيان ، وكان يذهب الى رأي اليعقوبية ، وكان ملكه سبع عشرة سنة . وكانت له حروب مع خوارج خرجوا عليه في دار الملك فظفر بهم .

ثم ملك بعده نسطاس وكان يذهب الى مذهب اليعقوبية ، وبنى مدينة عمورية ، وأصاب كنوزا ودفائن عظيمة . وكان ملكه الى أن هلك تسعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده يوسطاناس تسع سنين .

ثم ملك بعده يوسطانياس تسعا وثلاثين سنة ، وقيل : أربعين . وبنى كنائس كثيرة ، وشيد دين النصرانية ، وأظهر مذهب الملكية ، وبنى كنيسة الرها ، وهي احدى عجائب العالم ، والهياكل المذكورة .

وقد كان في هذه الكنيسة منديل يعظمه النصارى ، وذلك ان يسوع الناصري ـ حين اخرج من ماء المعمودية ـ تنشف به ، فلم يزل هذا المنديل يتداول الى أن قر بكنيسة الرها .

فلما اشتد أمر الروم على المسلمين وحاصروا الرها في هذه السنة (وهي سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) ، اعطى هذا المنديل للروم ، فجنحوا الى الهدنة ، وكان للروم عند تسلمهم هذا المنديل فرح عظيم .

ثم ملك بعده ابن أخيه نوسطيس ثلاث عشرة سنة ، على رأي الملكية .

ثم ملك بعده طباريس أربع سنين ، وأظهر في ملكه أنواعا من اللباس والآلات وآنية الذهب والفضة ، وغير ذلك من آلات الملوك .

ثم ملك بعده موريقس عشرين سنة ، ونصر كسرى أبرويز على بهرام جوبين ، فقتل غيلة ، وبعث ابرويز غضبا له بجيوش الى الروم ، وكانت لهم حروب على حسب ما قدمنا .

ثم ملك بعده فوقاس ثماني سنين الى أن قتل ايضا .

ثم ملك بعده هرقل وكان بطريقا في بعض الجزائر قبل ذلك ، فعمر بيت المقدس ، وذلك بعد انكشاف الفرس عن الشام ، وبنى الكنائس . ولسبع سنين من ملكه كانت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة شرفها الله تعالى .

ذِكر مُلوك الرّوم بَعدَ ظهُورِ الإسْلام

ملك الروم في عهد مولد رسول الله
صلى الله عليه وسلم

قال المسعودي : وجدت في كتب التواريخ تنازعا في مولد النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وفي عصر من كان من ملوك الروم : فمنهم من ذهب الى ما قدمنا من مولده وهجرته ، ومنهم من رأى أن مولده عليه الصلاة والسلام كان في ملك يوسطينوس الأول ، وكان ملكه تسعا وعشرين سنة .

ثم ملك يوسطينوس الثاني ، وكان ملكه عشرين سنة .

ثم ملك هرقل بن يوسطينوس ، وهو الذي ضرب الدنانير والدراهم هرقلية ، وكان ملكه خمس عشرة سنة .

ثم ملك بعده ابنه مورق بن هرقل .

والذي في كتب الزيجات في النجوم وعليه يعمل أهل الحساب ، وفي تواريخ ملـوك الروم ممن سلف وخلف ، أن ملك الروم كان في وقت ظهور الاسلام وأيام أبي بكر وعمر هرقل .

وليس هذا الترتيب فيما عداها من كتب التواريخ وأصحاب الأخبار والسير ، إلا في اليسير منها . وفي تواريخ أصحاب السير أن رسول اللّه صلى الله عليه وسلم هاجر وملك الروم قيصر بن مورق ..

في عهد خلفاء الاسلام

ثم ملك بعده قيصر بن قيصر ، وذلك في أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ثم ملك على الروم هرقل بن قيصر ، وذلك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وهو الذي حاربه أمراء الاسلام الذين فتحوا الشام : مثل أبي عبيـدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، ويزيد بن أبي سفيان وغيرهـم من أمراء الاسلام ، حين أخرجوه من الشام .

وكان الملك على الروم مورق بن هرقل في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه .

في عهد علي

ثم ملك مورق بن مورق في خلافة علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ، وأيام معاوية بن أبي سفيان .

في عهد معاوية

ثم ملك بعده قلفط بن مورق بقية أيام معاوية . وكان بينه وبين معاويـة مراسلات ومهادنات ، وكان المختلف بينهما فناق الرومي غلام كان لمعاوية .

وقد كان معاوية هادن أباه مورق بن مورق حين سار الى حرب علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ، وكان بشره بالملك ، وأعلمه أن المسلمين تجتمع كلمتهم على قتل صاحبهم (يعني عثمان) ، ثم يؤول الملك الى معاوية ، وقد كان معاوية يومئذ أميرا على الشام لعثمان . . . في خبر طويل قد أتينا على ذكره في الكتاب الأوسط . وأن ذلك من علم الملاحم يتوارثه ملوك الروم عن أسلافهم .

وكان ملك قلفط بن مورق في الآخر من أيام معاوية وأيام يزيد بن معاوية وأيام معاوية ابن يزيد وأيام مروان بن الحكم وصدرا من أيام عبد الملك بن مروان .

في عهد الدولة المروانية

ثم ملك لاون بن قلفط في أيام عبد الملك بن مروان ، وكان الملك بعده حيرون بن لاون في أيام الوليد بن عبد الملك وأيام سليمان بن عبد الملك وخلافة عمر بن عبد العزيز .

ثم اضطرب ملك الروم لما كان من أمر مسلمة بن عبد الملك وغزو المسلمين اياهم في البر والبحر . فملكوا عليهم رجلا من غـير أهـل بيـت الملك من أهـل مرعش ، يقال له جرجيس ، وكان ملكه تسع عشرة سنة .

في عهد الدولة العباسية

ولم يزل ملك الروم مضطربا الى أن ملكهم قسطنطين بن اليون ، وذلك في خلافة أبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور أخيه .

ثم ملك بعده اليون بن قسطنطين ، وذلك في أيام المهدي والهادي .

ثم ملك بعده قسطنطين بن اليون ، وكانت أمه أريش ملكة معـه ، مشاركـة له في الملك ، لصغر سنه في أيام هارون الرشيد ، فمات قسطنطين بن اليون وسملت عينا أمه بعد ذلك لأخبار يطول ذكرها .

ثم ملك على الروم يعفور بن اسدراق ، وكانت بينه وبين الرشيد مراسلات . وغزاه الرشيد ، فأعطاه القود من نفسه بعد بغي كان منه في بعض مراسلاته ، فانصرف الرشيـد عنه . ثم غدر ونقض ما كان أعطاه من الانقياد ، وكتم عن الرشيد أمره ، لعارض علة كان وجدها بالرقة .

وفي انقياد يعفور الى الرشيد وحمله الأموال والهدايا والضريبة اليه يقول أبو العتاهية :

امام الهدى أصبحت بالدين معنيا وأصبحت تسقي كل مستمطر ريا
لك اسمان شقا من رشاد ومن هدى فأنت الذي تدعى رشيدا ومهديا
اذا ما سخطت الشيء كان مسخطا وإن ترض شيئا كان في الناس مرضيا
بسطت لنا شرقا وغربا يد العلا فأوسعت شرقيا وأوسعت غربيا
وغشيت وجه الأرض بالجود والندى فأصبح وجه الأرض بالجود مغشيا
وأنت ، أمير المؤمنين ، فتى التقى نشرت من الاحسان ما كان مطويا
قضى الله أن صفى لهارون ملكه وكان قضاء الله في الخلق مقضيا
تحببت الدنيا لهارون بالرضا وأصبح يعفور لهارون دميا

فلما عوفي الرشيد من علته دخل عليه بعض الشعراء ، وقد هابه الناس أن يخبروه بغدر يعفور ، فقال :

نقض الذي أعطاكه يعفور فعليه دائرة البوار تدور
أبشر ، أمير المؤمنين ، فانه فتح أتاك به الاله كبير
فتح يزيد على الفتوح ، يؤمنا بالنصر فيه لواؤك المنصور
فلقد تباشرت الرعية أن أتى بالغدر عنه وافد وبشير
ورجت بيمنك أن تعجل غزوة تشفي النفوس ، نكالها مذكور
يعفور ، انك حين تعدر إن نأى عنك الامام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلت هبلتك أمك ، ما ظننت غرور
إن الامام على اقتسارك قادر قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الامام وان غفلنا غافلا عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه فعدوه أبدا به مقهور
يا من يريد رضا الاله بسعيه والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغش امامه والنصح من نصحائه مشكور
نصح الامام على الأنام فريضة ولأهله كفارة وظهور

.... وهي طويلة .

فلما أنشده اياها قال الرشيد : أو قد فعل ؟ وعلم أن الوزراء قد احتالوا ، فتجهز وغزاه ، ونزل على هرقلة . وذلك في سنة تسعين ومائة .

الرشيد يحاصر هرقلة

وأخبرني أبو عمير عدي بن احمد بن عبد الباقي الأزدي ان الرشيد لما أراد النزول على حصن هرقلة ، وكان معه أهل الثغور ، وفيهم شيخا الثغور الشامية مخلد بن الحسين ، وأبو اسحاق الفزاري صاحب كتاب السير ، فخلا الرشيد بمخلد بن الحسين فقال : أي شيء تقول في نزولنا على هذا الحصن ؟

فقال : هذا أول حصن لقيت من حصون الروم ، وهو في نهاية المنعة والقوة ، فان نزلت عليه وسهل الله فتحه لم يتعذر عليك فتح حصن بعده .

فأمره بالانصراف ، ودعا بأبي اسحاق الفزاري فقال له مثل ما قال لمخلد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا حصن بنته الروم في نحر الدروب ، وجعلته لها ثغرا من الثغور ، وليس بالآهل ، فان أنت فتحته لم يكن فيه ما يعم المسلمين من الغنائم ، وإن تعذر فتحه كان ذلك نقصا في التدبير . والرأي عندي أن يسير أمير المؤمنين الى مدينة عظيمة من مدن الروم فان فتحت عمت غنائمها المسلمين ، وان تعذر ذلك قام العذر .

فمال الرشيد الى قول مخلد ، فنزل على هرقلة ، ونصب حولها الحرب تسعة عشر يوما ، فأصيب خلق كثير من المسلمين ، وفنيت الأزواد والعلوفات ، وضاق صدر الرشيد من ذلك ، فأحضر أبا اسحاق الفزاري ، فقال : يا ابراهيم قد ترى ما نزل بالمسلمين ، فما الرأي الآن عندك ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كنت أشفقت من هذا ، وقدمت القول فيه ، ورأيت ان يكون الجد والحرب من المسلمين على غير هذا الحصن . وأما الآن فلا سبيل الى الرحيل عنه من بعد المباشرة ، فيكون ذلك نقصا في الملك ، ووهنا في الدين ، واطماعا لغيره من الحصون في الامتناع عن المسلمين ، والمصابرة لهم . لكن الرأي يا أمير المؤمنين أن تأمر بالنداء في الجيش أن أمير المؤمنين مقيم على هذا الحصن الى أن يفتحه الله عز وجل على المسلمين ، وتأمر بقطع الخشب وجمع الأحجار وبناء مدينة بازاء هذا الحصن الى أن يفتحه الله عز وجل ، ولا يكون هذا الخبر ينمو الى أحد من الجيش الا على المقام ، فان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الحرب خدعة » وهذه حرب حيلة لا حرب سيف .

فأمر الرشيد من ساعته بالنداء ، فحملت الأحجار وقطع الأخشاب من الشجر ، وأخذ الناس في البناء . فلما رأى أهل الحصن ذلك جعلوا يتسللون في الليل ، ويدلون أنفسهم بالحبال .

وفي خبر أبي عمير بن عبد الباقي زيادات ، منها خبر الجارية التي سباها الرشيد من

هذا الحصن ، وهي ابنة بطريقه ، وكانت ذات حسن وجمال ، فزايد فيها صاحب الرشيد في المغنم ، وبالغ فيها حتى اشتراها له ، فبلغت من قلبه ، وبنى لها نحو الرافقة بأميال على طريق بالس حصنا سماه هرقلة على الفرات ، يحاكي به حصن هرقلة ببلاد الروم ، في خبر طويل قد أتينا على جميعه في كتابنا الأوسط . وهذا الحصن باق الى هذه الغاية هنالك خراب يعرف بهرقلة .

وأخبرنا أبو بكر محمد بن الحسين بن دريد ، قال : أخبرني أبو العيناء ، قال : أخبرني شبل الترجمان ، قال : كنت مع الرشيد حين نزل على هرقلة وفتحها ، فرأيت بها حجرا منصوبا مكتوبا عليه باليونانية . فجعلت أترجمه والرشيد ينظر الي ، وأنا لا أعلم ، فكانت ترجمته : « بسم الله الرحمن الرحيم ، يا بن آدم غافص الفرصة عند امكانها ، وكل الأمور الى وليها ، ولا يحملنك افراط السرور على المآثم ، ولا تحمل على نفسك هم يوم لم يأت ، فانه ان يك من أجلك وبقية عمرك يأت الله فيه برزقك ، ولا تكن من المغرورين بجمع المال ، فكم قد رأينا جامعا لبعل حليلته ، ومقترا على نفسه ، موفرا لخزانة غيره » .

وقد كان تاريخ هذا الكتاب في ذلك اليوم زائدا على ألفي سنة .

وباب هرقلة مطل على واد وخندق يطيف بها ، وذكر جماعة من أهل الخبرة من اهل الثغور أن أهل هرقلة لما اشتد بهم الحصار ، وعضتهم الحرب بالحجارة والسهام والنار ، فتحوا الباب ، فاستشرف المسلمون لذلك ، فاذا رجل من أهلها كأجمل الرجال قد خرج في أكمل السلاح ، فنادى : يا معشر العرب ، قد طالت موافقتكم ايانا ، فليخرج الي منكم الرجل والعشرة الى العشرين مبارزة .

فلم يخرج اليه من الناس أحد ، ينتظرون اذن الرشيد ، وكان الرشيد نائما ، فعاد الرومي الى حصنه ، فلما استيقظ أخبر بذلك ، فتأسف ولام خدمه على تركهم ايقاظه .

فقيل له : يا أمير المؤمنين ، ان امتناع الناس منه اليوم يطمعه ويطغيه ويجرئه ان يخرج في غد فيطلب المبارزة ويعود لمثل قوله .

فطالت على الرشيد ليلته ، وأصبح كالمنتظر له ، اذ فتح الباب ، فاذا الفارس قد خرج وعاد الى كلامه ، فقال الرشيد : من له ؟

فابتدره جلة القواد ، فعزم على اخراج بعضهم ، فضج أهل الثغور والمتطوعة بباب المضرب ، فأذن لبعضهم ـ وفي مجلسه مخلد بن الحسين وابراهيم الفزاري ـ فدخلوا فقالوا : يا أمير المؤمنين ، قوادك مشهورون بالبأس والنجدة وعلو الصيت ومباشرة الحرب . ومتى خرج واحد منهم وقتل هذا العلج لم يكبر ذلك ، وان قتله العلج كانت وصمة على العسكر

عظيمة ، وثلمة لا تنسد ، ونحن عامة لا يرتفع لأحد منا صيت ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يختار رجلا منا يخرج اليه فعل .

فصوب الرشيد رأيهم وقال مخلد وابراهيم : صدقوا يا أمير المؤمنين . فأومؤوا الى رجل منهم يعرف بابن الجزري مشهور في الثغور موصوف بالنجدة ، فقال له الرشيد : أتخرج اليه ؟

قال : نعم ، وأستعين بالله عليه .

فقال : أعطوه فرسا وسيفا ورمحا وترسا .

فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا بفرسي أوثق ، ورمحي في يدي أشد ، ولكن قد قبلت السيف والترس .

فلبس السلاح ، واستدناه الرشيد فودعه وأتبعه بالدعاء ، وخرج معه عشرون من المتطوعة . فلما انقض في الوادي قال لهم العلج وهو يعدهم واحدا واحدا : إنما كان الشرط عشرين ، وقد ازددتم رجلا ، ولكن لا بأس .

فنادوه : ليس يخرج لك منا الا رجل واحد .

فلما فصل منهم ابن الجزري تأمله العلج ، وقد أشرف أكثر الروم من الحصن يتأملون صاحبهم ، فقال له الرومي ، أتصدقني عما أسألك عنه ؟

قال : نعم .

قال : أنت ابن الجزري بالله ؟

قال : اللهم نعم ، فكفء لك ؟

قال : بلى كفء .

ثم أخذا في شأنهما ، فتطاعنا حتى طال الأمر بينهما ، وكاد الفرسان ان يقوما تحتهما وليس واحد منهما خدش صاحبه . ثم رميا برمحيهما هذا نحو أصحابه وهذا نحو حصنه ، وانتضيا سيوفهما وقد اشتد الحر عليهما ، وتبلد جواداهما .

فجعل ابن الجزري يضرب الرومي الضربة التي يظن أنه قد بالغ فيها فيتقيها الرومي ، وكانت درقته حديدا فيسمع لها صوت منكر ، ويضربه الرومي فيغوص سيفه لأن ترس ابن الجزري كان درقة تبتية ، وكان العلج يخاف أن يغوص السيف فيعطب .

فلما يئس كل واحد منهما من صاحبه انهزم ابن الجزري ، فداخلت الرشيد والمسلمين من ذلك كآبة لم يصبهم مثلها ، وعطعط المشركون من حصنهم . وإنما كانت حيلة من ابن الجزري فاتبعه العلج وعلا عليه . فلما تمكن منه ابن الجزري رماه بوهق فاختطفه من

سرجه ، ثم عطف عليه ، فما وصل الى الأرض جسده حتى فارقه رأسه .

وكبر المسلمون ، وانكسر المشركــون ، وبادروا الباب ليغلقوه . واتصل الخبر بالرشيد ، فصاح بالـقواد أن يجعلوا في حجارة المجانيق النار ؛ فليس عند القوم دفع بعدها وعاجلهم المسلمون الى الباب فدخلوها بالسيف ، وقيـل : انهم نادوا بالأمان ، فأمنوا . وافتتاحها عنوة أشهر من قول من قال انها فتحت صلحا .

فقال في ذلك شاعر الحكمي ، وهو أبو نواس :

هوت هرقلــة لمــا أن رأت عجبا   جوائما ترتمي بالنفط والنار
كأن نيراننا من جنب قلعتهم   كمشعــلات على أرسان قصار

وهذا كلام ضعيف ، ولكن قد عظم قدره في ذلك الوقت للمعنى ، وعظمت لصاحبه الجائزة . وصبت الأموال على ابن الجزري ، وقود وخلع عليه ، فلم يقبل شيئا من ذلك ، وسأل أن يعفى ويترك على ما هو عليه ، ففي هذا يقول الشاعر أبو العتاهية :

ألا نادت هرقلــة بالخراب   من الملك المــوفق للصواب
غدا هارون يرعــد بالمنايا   ويبرق بالمذكــرة العضاب
ورايــات يحل النصر فيها   تمر كأنها مر السحاب
أمير المـؤمنين ظفرت فاسلم   وأبشر بالغنيمة والأياب

وللرشيـد مع يعفور هذا بعــد ذلك أخبار كثيرة ، قد أتينا على مبسوطهــا في كتابنا الأوسط ، وما كان من خبره في ارساله ليحيى بن الشخير حين أمره أن يتطارش على يعفور ، وما كان من يعفور واخباره لبطارقته أن الرشيد بعث بهذا متصاما ، وما طالبه ابن الشخير بدينار أو درهم عليه صورة الملك حين عرضت عليه الخزائن ، وما كان من انقياد يعفور بعد ذلك الى طاعة الرشيد ، وشرطه عليه أن يحمل اليه أينما كان من ماء عين العشيرة ، وهي عين البربدون ، وهي في نهاية الصفاء والرقة ، وغير ذلك مما عنه أمسكنا طلبا للاختصار .

ثم ملك بعد يعفور استراق بن يعفور بن استراق في أيام محمد الأمين ، فلم يزل ملكا حتى غلب على الملك قسطنطين بن قلفط ، وكان ملك قسطنطين هذا في خلافة المأمون .

ثـم ملك بعده توفيـل وذلك في خلافة المعتصم ، وهـو الـذي فتح زبطرة ، وغـزاه المعتصم بالله ففتح عمورية .

وسنورد خبره فيما يرد من هذا الكتاب في أخبار المعتصم ، إن شاء اللّه تعالى .

ثم ملك بعده ميخائيل بن توفيل ، وذلك في خلافة الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين .

ثم كان بين الروم تنازع في الملك ، فملكوا عليهم توفيل بن ميخائيل بن توفيل . ثم غلب على الملك بسيل الصقلبي ولم يكن من أهل بيت الملك ، وكان ملكه أيام المعتز والمهتدي ، وبعض خلافة المعتمد .

ثم ملك بعده ابنه اليون بن بسيل بقية أيام المعتمد وصدرا من أيام المعتضد .

ثم هلك فملكوا عليهم ابنا له يقال له الاسكندروس فلم يحمدوا أمره ، فخلعوه وملكوا عليهم أخاه لاوي بن اليون بن بسيل الصقلبي . وكان ملكه بقية أيام المعتضد والمكتفي وصدرا من أيام المقتدر .

ثم هلك وخلف ولدا صغيرا يقال له قسطنطين ، فملك وغلب على مشاركته في الملك ارمنوس بطريق البحر وصاحب غزوه وحروبه فزوج قسطنطين الصبي بابنته ، وذلك في بقية أيام المقتدر وأيام القاهر والراضي والمتقي ، الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) في خلافة أبي اسحاق المتقي للّه بن المقتدر .

وملوك الروم في هذا الوقت المؤرخ ثلاثة ، والأكبر منهم والمدبر للأمور أرمنوس المتغلب ، ثم الناس وهو قسطنطين بن لاوي بن اليون بن بسيل ، والملك الثالث ابن لأرمنوس ، يخاطب بالملك ، واسمه اسطفنوس .

وجعل أرمنوس ابنا له آخر صاحب الكرسي بالقسطنطينية ، وهو البطرك الأكبر الذي يأخذون عنه دينهم . وقد كان خصاه قبل ذلك ، وقربه الى الكنيسة . وأمر الروم يدور في وقتنا هذا على ما ذكرنا من ملوكهم .

***

قال المسعودي : والى هذا الوقت انتهت أخبار ملوك الروم ، على حسب ما ذكرنا ، واللّه أعلم بما يكون من أمرهم في المستقبل من الزمان .

مدة ملك الروم

فعدد سني ملوك الروم المتنصرة من قسطنطين بن هلاني ـ وهو المظهر لدين النصرانية على ما ذكرنا ـ الى هذا الوقت خمسمائة سنة وسبع سنين .

والذي أجمع عليه من عدد ملوكهم ، من قسطنطين الى هذا الوقت المؤرخ ، أحد وأربعون ملكا ، ولم يعد بعد ابن أرمنوس ، ووقع العدد على قسطنطين وأرمنوس اللذين هما ملكا الروم في هذا الوقت المؤرخ . وإن أدخلنا في هذا العدد ابن أرمنوس فعدد ملوك

الروم من بدء النصرانية ـ وهو الملك قسطنطين بن هلاني ـ اثنان وأربعون ملكا ، في مدة هذه السنين المذكورة .

وقدذهب جماعة ممن عني بأخبار العالم الى أن من حين هبط آدم عليه السلام الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) ستة آلاف سنة ومائتين وتسعا وخمسين سنة .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملا من تاريخ سني العالم والأنبياء والملوك في باب نفرده لذلك ، إن شاء الله تعالى .

ذِكرُ مِصرَ وأخبارِهَا ونيلِهَا وعجائبِهَا وأخبارِ مُلوكِهَا وغيرِ ذلكَ مِمّا اتّصلَ بهذا البَابِ

ذكر مصر في القرآن

قال المسعودي : ذكر اللـه جل ثناؤه مصر في مواضع من كتابه ، فقال عز وجل : « وقال الذي اشتراه من مصر » .

وقال : « ادخلوا مصر إن شاء اللّه آمنين » .

وقال تعالى : « وأوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا » .

وقال : « اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم » .

وقال تعالى : « وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » .

وصف مصر

ووصف بعض الحكماء مصر فقال : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء .

فأما اللؤلؤة البيضاء فإن مصر في شهر أبيب (وهو تموز) ومسرى (وهو اب)، وتوت (وهو ايلول) ، يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء وضياعها على روابي وتلال مثل الكواكب ، قد أحاطت المياه بها من كل وجه ، فلا سبيل لبعض البلاد الى بعض الا في الزوارق .

وأما المسكة السوداء فإن في شهر بابه (وهو تشرين الأول) وهاتور (وهو تشرين الثاني) وكيهك (وهو كانون الأول) ، ينكشف الماء عنها ، وينضب عن أرضها ، فتصير أرضا سوداء . وفيها تقع الزراعات ، وللأرض روائح طيبة تشبه روائح المسك .

وأما الزمردة الخضراء ، فإن في شهر طوبة (وهو كانون الثاني) ، وأمشير (وهو شباط) ، وبرمهات (وهو آذار) ، تلمع ويكثر عشبها ونباتها ، فتصير كالزمردة الخضراء .

وأما السبيكة الحمراء فإن في شهر برمودة (وهو نيسان) ، وبشنس (وهو أيار) ، وبؤونة (وهو حزيران) ، يبيض الزرع ، ويتورد العشب ، فهو كسبيكة الذهب منظرا ومنفعة .

وسنذكر هذه الشهور بالسريانية والعربية والفارسية ، ونسمي كل شهر منها بعد هذا الموضع من هذا الكتاب ، وإن كنا قد أتينا على جميع ذلك في الكتاب الأوسط .

ووصف آخر مصر فقال : نيلها عجب ، وأرضها ذهب ، وخيرها جلب ، وملكها

لمن سلب ، ومالها رغب ، وفي أهلها صخب ، وطاعتهم رهب ، وسلامهم شغب ، وحروبهم حرب ، وهي لمن غلب .

نهر النيل

ونهرها النيل من سادات الأنهار ، وأشراف البحار ، لأنه يخرج من الجنة ، على حسب ما ورد به خبر الشريعة أن النيل وسيحان (وهو نهر أذنة من الثغر الشامي ، ويصب الى البحر الرومي ، ومخرجه على ثلاثة أيام من ملطية ، ويجري في بلاد الروم ، وليس للمسلمين عليه الا مدينة أذنة بين طرسوس والمصيصة وجيحان ، مخرجه من عيون تعرف بعيون جيحان على ثلاثة أيام من مدينة مرعش ، ويطرح الى البحر الرومي ، فليس للمسلمين عليه من المدن الا المصيصة وكفر بيا ، ومجراه بينهما) والفرات ، وقد قدمنا الأخبار عنه وعن النيل ومبدئهما ومقدار جريانهما على وجه الأرض ومصبهما ، فيما سلف من هذا الكتاب ، وأنه يخرج من الجنة ، وكذلك الدجلة وغيرها مما اشتهر من الأنهار الكبار .

وقد قالت العرب في النيل : إنه إذا زاد غاضت له الأنهار ، والأعين والآبار ، واذا غاض زادت ، فزيادتها من غيضه ، وغيضه من زياداتها .

قال البصري :

يغيض إن زادت له الأنهار في الأرض ذات العرض والمقدار

وقالت الهند : زيادته ونقصانه بالسيول ، ونحن نعرف ذلك بتوالي الأنواء وكثرة الأمطار وركود السحاب .

وقالت الروم : لم يزد قط ولم ينقص ، وإنما زيادته ونقصانه من عيون كثرت واتصلت .

وقالت القبط : زيادته ونقصانه من عيون في شاطئه ، يراها من سافر ، ولحق بأعاليه .

وقيل : لم يزد قط ، وإنما زيادته بريح الشمال اذا كثرت واتصلت به ، فتحبسه ، فيفيض على وجه الأرض .

وقد ذكرنا التنازع في النيل وزيادته ممن سلف وخلف ، على الشرح والايضاح ، وغيره من الأنهار الكبار والبحار والبحيرات الصغار ، في كتاب « أخبار الزمان » في الفن الثاني ، فأغنى ذلك عن اعادتها في هذا الكتاب .

وصف مصر أيضا

ومصر من سادات القرى ، ورؤساء المدن ، قال اللّه تعالى حاكيا عن فرعون : « أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ، أفلا تبصرون » ، وقال عز وجل حاكيا عن يوسف عليه السلام : « اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم » ، وهي مصر .

وليس في أنهار الدنيا نهر يسمى بحراً ويّماً غير نيل مصر لكبره واستبحاره .

وقد قدمنا فيا سلف من كتبنا الخبر عن جبل القمر الذي بدء النيل منه ، وما يظهر من تأثير القمر فيه عند زيادته ونقصانه من النور والظلام في البدر والمحاق .

وقد روي عن زيد بن أسلم في قوله تعالى « فان لم يصبها وابل فطل » قال : هي مصر ، إن لم يصبها وابل زكت ، وإن أصابها مطر ضعفت .

وقال بعض الشعراء يصف مصر ونيلها :

مصر ، ومصر شأنها عجيب ونيلها تجري به الجنوب

وهي مصر ، واسمها كمعناها ، وعلى اسمها سميت الأمصار ، ومنه اشتق هذا الاسم عند علماء البصريين ، وقد قال عمرو بن معد يكرب :

ما النيل أصبح زاخرا بمدوده وجرت له ريح الصبا فجرى لها
عودت كندة عادة محمودة فاصبر لجاهلها ورُوِّ سجالها

زيادة النيل ونقصانه

قال المسعودي : ويبتدىء نيل مصر بالتنفس والزيادة بقية بؤونة (وهو حزيران) وأبيب (وهو تموز) ومسرى (وهو آب) ، فاذا كان الماء زائدا زاد شهر توت كله (وهو أيلول) الى انقضائه . فاذا انتهت الزيادة الى ست عشرة ذراعا ، ففيه تمام الخراج ، وخصب الأرض ، وريع للبلد عام . وهو ضار للبهائم لعدم المرعى والكلأ .

وأتم الزيادات كلها العامة النفع للبلد كله سبع عشرة ذراعا ، وفي ذلك كفايتها ، وري جميع أراضيها .

واذا زاد على السبع عشرة وبلغ ثماني عشرة ذراعا وغلقها ، استبحر من أرض مصر

الربيع وفي ذلك ضرر لبعض الضياع ، لما ذكرنا من وجه الاستبحار وغير ذلك .

وإن كانت الزيادة ثماني عشرة ذراعا كانت العاقبة في انصرافه حدوث وباء بمصر .

وأكثر الزيادات ثماني عشرة ذراعا . وقد كان النيل بلغ في زيادته تسع عشرة ذراعا ، وذلك سنة تسع وتسعين في خلافة عمر بن عبد العزيز .

ومساحة الذراع الى أن تبلغ اثني عشر ذراعا ثمان وعشرون أصبعا . ومن أثني عشر ذراعا الى ما فوق يصير الذراع أربعا وعشرين أصبعا .

وأقل ما يبقى في قاع المقياس من الماء ثلاثة أذرع ، وفي مثل تلك السنة يكون الماء قليلا .

والأذرع التي يستسقى عليها بمصر هي ذراعان تسميان منكرا ونكيرا ، وهي الذراع الثالث عشر ، والذراع الرابع عشر .

فاذا انصرف الماء عن هاتين الذراعين (أعني ثلاث عشرة وأربع عشرة) وزيادة نصف ذراع من الخمس عشرة ، استسقى الناس بمصر ، وكان الضرر شاملا لكل البلدان ، إلا أن يأذن الله عز وجل في زيادة الماء .

واذا تم خمس عشرة ودخل في ست عشرة ذراعا كان فيه صلاح لبعض الناس ، ولا يستسقى فيه ، وكان ذلك نقصا من خراج السلطان .

والترع التي بغيضة مصر أربع أمهات ، أسماؤهـا : ترعـة ذنب التمساح ، وترعـة بلقينة ، وخليج سردوس ، وخليج ذات الساحل ، وتفتح هذه الترع اذا كان الماء زائدا في عيد الصليب ، وهو لأربع عشرة تخلو من توت ، وهو أيلول .

وقد قدمنا خبر تسمية هذا اليوم بعيد الصليب فيما سلف من هذا الكتاب .

والنبيذ الشيراري يتخذ بمصر من ماء طوبة (وهو كانون الآخر) بعد الغطاس ، وهو لعشرة تمضي من طوبة ، وأصفى ما يكون النيل في ذلك الـوقت ، وأهـل مصر يفتخرون بصفاء النيل في هذا الوقت ، وفيه تختزن المياه أهل تنيس ودمياط وتونة وسائر قرى البحيرة .

ليلة الغطاس

ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها ، لا ينام الناس فيها ، وهي ليلة احدى عشرة تمضي من طوبة وستة من كانون الثاني .

ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلثمائة ليلة الغطاس بمصر ، والأخشيد محمد بن طغج في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطيف بها . وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع .

وقد حضر النيل في تلك الليلة مئو آلاف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم في الزوارق ، ومنهم في الدور الدانية من النيل ، ومنهم على الشطوط ، لا يتناكرون الحضور ، ويحضرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والقصف .

وهي أحسن ليلة تكون بمصر ، وأشملها سرورا ، ولا تغلق فيها الدروب ، ويغطس أكثرهم في النيل ، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ومبرىء للداء .

***

مقاييس النيل

قال المسعودي : وأما المقاييس الموضوعة بمصر لمعرفة زيادة النيل ونقصانه فاني سمعت جماعة من أهل الخبرة يخبرون أن يوسف النبي صلى الله عليه وسلم ، حين بنى الأهرام ، اتخذ مقياسا لمعرفة زيادة النيل ونقصانه ، وأن ذلك كان بمنف ، ولم يكن الفسطاط يومئذ . وأن دلوكة الملكة العجوز وضعت مقياسا بأقصى الصعيد ، ووضعت أيضا مقياسا آخر ببلاد اخميم . . . فهذه المقاييس الموضوعة قبل مجيء الاسلام .

ثم ورد الاسلام ، وافتتحت مصر ، وكانوا يعرفون زيادة النيل بما ذكرنا ونقصانه بما وصفنا ، الى أن ولي عبد العزيز بن مروان ، فاتخذ مقياسا بحلوان وهو صغير الذراع ، وحلوان فوق الفسطاط .

ثم اتخذ أسامة بن زيد التنوخي مقياسا بالجزيرة التي تدعى جزيرة الصناعة ، وهي الجزيرة التي بين الفسطاط والجيزة ، والمعبر عليها من الفسطاط على الجسر ، ثم منها على جسر آخر الى الجيزة ، وهو الجانب الغربي ، لأن الفسطاط من الجانب الشرقي .

وهذا المقياس الذي اتخذه أسامة بن زيد التنوخي هو أكثرها استعمالا ، واتخذ ذلك في أيام سليمان بن عبد الملك بن مروان . وهو المقياس الذي يعمل عليه في وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) بالفسطاط .

وقد كان من سلف يقيسون بالمقياس الذي بمنف ، ثم ترك استعماله ، وعمل على مقياس الجزيرة المعمول في أيام سليمان بن عبد الملك .

وفي هذه الجزيرة مقياس آخر لأحمد بن طولون ، والعمل عليه عند كثرة الماء ، وترادف الرياح ، واختلاف مهابها ،وكثرة الموج .

وقد كانت أرض مصر كلها تروى من ست عشرة ذراعا عامرها وغامرها ، لما أحكموا من جسورها ، وبناء قناطرها ، وتنقية خلجانها .

وكان بمصر سبع خلجانات : فمنها خليج الاسكندرية ، وخليج سخا ، وخليج دمياط ، وخليج منف ، وخليج الفيوم ، وخليج سردوس ، وخليج المنهى .

وكانت مصر فيما يذكر أهل الخبرة أكثر البلاد جنانا ، وذلك ان جنانها كانت متصلة بحافتي النيل من أوله الى آخره ، من حد اسوان الى رشيد .

وكان الماء إذا بلغ في زيادته تسعة أذرع دخل خليج المنهى وخليج الفيوم وخليج سردوس وخليج سخا .

وكان الذي ولي حفر خليج سردوس لفرعون عدو الله هامان ، فلما ابتدأ في حفره أتاه أهل القرى يسألونه أن يجري الخليج الى تحت قراهم ، ويعطوه على ذلك ما أراد من المال ، وكان يعمل ذلك حتى اجتمعت له أموال عظيمة ، فحمل تلك الأموال الى فرعون .

فلما وضعها بين يديه سأله عنها فأخبره بما فعل ، فقال فرعون : أنه ينبغي للسيد أن يعطف على عبيده ، ويفيض عليهم معروفه ، ولا يرغب فيما في أيديهم ، ونحن أحق من فعل هذا بعبيده . فاردد على أهل كل قرية ما أخذته منهم .

ففعل ذلك هامان ، ورد على أهل كل قرية ما أخذ منهم ، فليس في الخلجان التي بأرض مصر أكثر عطوفا وعزاقيل من خليج سردوس .

وأما خليج الفيوم وخليج المنهى ، فان الذي حفرهما يوسف بن يعقوب صلى الله عليهما وسلم ، وذلك أن الريان بن الوليد ملك مصر لما رأى رؤياه في البقر والسنابل وعبرها يوسف عليه السلام ، استعمله على ما كان يلي من أرض مصر . وقد أخبر الله بذلك عند اخباره عن نبيه يوسف بقوله « اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم » .

***

معاونة المسلمين الكفار

قال المسعودي : وقد تنازع أهل الملة في تصرف المؤمنين مع الفاسقين : فمنهم من رأى ان الملك كان مؤمنا ، ولولا ذلك ما وسع يوسف معاونة الكفار والتصرف في أوامرهم ونواهيهم ، ومنهم من رأى أن ذلك جائز على ما توجبه أحوال الوقت والأصح للحال ، وقد ذكرنا قول كل فريق من هؤلاء في كتابنا في « المقالات في أصول الديانات » .

الفيوم

وأما أخبار الفيوم من صعيد مصر وخلجانها من المرتفع والمطاطي ومطاطي المطاطي ، وهذه عبارة أهل مصر ، يريدون بذلك المنخفض ، وكيفية فعل يوسف فيها وعمارته أرضها بعد كونها خربة ومصفاة لمياه الصعيد ، وهي جزيرة قد أحاط الماء حينئذ بأكثر أقطارها ، فقد أتينا على ذلك في الكتاب الأوسط فأغنى عن اعادته في هذا الكتاب ، وكذلك في تسمية الفيوم

فيوما ، وأن ذلك ألف يوم ، وما كان من خبر يوسف مع الوزراء وحسدهم إياه .

وقد كانت مصر ـ على ما زعم أهل الخبرة والعناية بأخبار شأن هذا العالم ـ يركب أرضها ماء النيل وينبسط على بلاد الصعيد الى أسفل الأرض ، وموضع الفسطاط في وقتنا هذا .

وقد كان بدء ذلك من موضع يعرف بالجنادل بين أسوان والحبشة ، وقد قدمنا ذكر هذا الموضع فيما سلف من هذا الكتاب ، الى إن عرض لذلك موانع من انتقال الماء وجريانه ، وما ينقل من التربة بتياره من موضع الى موضع ، فيصب من بعض المواضع من بلاد مصر ، على حسب ما وصفنا عن صاحب « المنطق » في عمران الأرض وخرابها فيما سلف من هذا الكتاب ، فسكن الناس بلاد مصر .

ولم يزل الماء ينصب عن أرضها قليلا قليلا حتى امتلأت أرض مصر من المدن والعمائر ، وطرقوا للماء ، وحفروا له الخلجانات ، وعقدوا في وجهه المسناة ، إلا أن ذلك خفي على ساكنيها ، لأن طول الزمان أذهب معرفة أول سكناهم كيف كان ذلك .

ولم نتعرض في هذا الكتاب لذكر العلة الموجبة لامتناع المطر بمصر ولا لكثير من أخبار الاسكندرية وكيفية بنائها ، والأمم التي تداولتها والملوك التي سكنتها من العرب وغيرهم ، لأنا قد أتينا على ذلك في الكتاب الأوسط . وسنذكر بعد هذا الموضع جملا من أخبارها ، وجوامع من كيفية بنائها ، وما كان من أمر الاسكندر فيها .

***

بين ابن طولون ورجل مصري

قال المسعودي : وقد كان أحمد بن طولون بمصر بلغه في سنة نيف وستين ومائتين أن رجلا بأعالي بلاد مصر من أرض الصعيد له ثلاثون ومائة سنة من الأقباط ، ممن يشار اليه بالعلم من لدن حداثته ، والنظر والاشراف على الآراء والنحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم من أهل الملل ، وأنه علامة بمصر وأرضها من برها وبحرها وأخبارها وأخبار ملوكها ، وأنه ممن سافر في الأرض ، وتوسط الممالك ، وشاهد الأمم من أنواع البيضان والسودان ، وأنه ذو معرفة بهيئات الأفلاك والنجوم وأحكامها .

فبعث أحمد بن طولون برجل من قواده في أصحابه ، فحمله في النيل اليه مكرما ، وكان قد انفرد عن الناس في بنيان اتخذه ، وسكن في أعلاه ، وقد رأى الولد الرابع عشر من ولد ولده .

فلما مثل بحضرة أحمد بن طولون ، نظر الى رجل دلائل الهرم فيه بينة ، وشواهد ما أتى

عليه من الدهر ظاهرة ، والحواس سليمة ، والقضية قائمة ، والعقل صحيح ، يفهم عن مخاطبه . ويحسن البيان والجواب عن نفسه .

فأسكنه بعض مقاصيره ، ومهد له ، وحمل اليه لذيذ المآكل والمشارب . فأبى أن يتوطأ على شيء ، وأن يتغذى الا بغذاء كان حمله معه من كعك وغيره ، وقال : هذه بنية قوامها بما ترون من هذا الغذاء ، وهذا الملبس ، فان أنتم سمتموها النقلة عن هذه العادة وتناول ما أوردتموه عليها من المآكل والمشارب والملابس كان ذلك سبب انحلال هذه البنية ، وتفريق هذه الصورة .

فترك على ما كان عليه ، وما جرت به عادته ، وأحضر له أحمد بن طولون من حضره من أهل الدراية ، وصرف همته عليه ، وأخلى نفسه له في ليال وأيام كثيرة ، يسمع كلامه وايراداته وجواباته فيما يسأل عنه .

بحيرة تنيس ودمياط

فكان مما سئل عنه الخبر عن بحيرة تنيس ودمياط ، فقال :

كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها استواء وطيب تربة وثراوة ، وكانت جنانا ونخلا وكرما وشجرا ومزارع ، وكانت فيها مجار على ارتفاع من الأرض ، وقرى على قرارها .

ولم ير الناس بلدا كان أحسن من هذه الأرض ، ولا أحسن اتصالا من جنانها وكرومها . ولم يكن بمصر كورة يقال انها تشبهها الا الفيوم . وكانت أكثر خيرا من الفيوم وأخصب وأكثر فاكهة ورياحين من الأصناف الغريبة .

وكان الماء منحدرا اليها لا ينقطع عنها صيفا ولا شتاء ، يسقون منه جنانهم اذا شاءوا ، وكذلك زروعهم ، وسائره يصب الى البحر من سائر خلجانه ، ومن الموضع المعروف بالأشتوم .

وقد كان بين البحر وبين هذه الأرض نحو مسيرة يوم . وكان فيما بين العريش وجزيرة قبرس طريق مسلوكة الى قبرس تسلكه الدواب يبس ، ولم يكن فيما بين العريش وجزيرة قبرس الا مخاضة . وجزيرة قبرس اليوم بينها وبين العريش في البحر سير طويل ، وكذلك فيما بينها وبين أرض الروم .

وقد كان بين الأندلس وبين الموضع الذي يسمى الخضراء ـ وهو قريب من فاس المغرب وطنجة ـ قنطرة مبنية بالحجارة والطوب تمر عليها الابل والدواب من ساحل المغرب من بلاد الأندلس الى المغرب .

وماء البحر تحت تلك القنطرة متقطع خلجانات صغارا تجري تحت قناطرها وما عقد من

الطاقات تحتها على صخور صم ، وقد عقد من كل حجر الى حجر طاق . وهو مبدأ بحر الروم الآخذ من أوقيانوس ، وهو البحر المحيط الأكبر .

فلم يزل البحر يزيد ماؤه ويعلو أرضا فأرضا في طول ممر السنين ، يرى زيادته أهل كل زمان ، ويتبينه أهل كل عصر ، ويقفون عليه ، حتى علا الماء الطريق الذي كان بين العريش وبين قبرس وعلا القنطرة التي كانت بين الاندلس وبر طنجة .

وما وصفت فبين ظاهر عند أهل الأندلس وأهل فاس من بلاد المغرب من خبر هذه القنطرة . وربما بدا الموضع لأهل المراكب تحت الماء ، فيقولون : هذه القنطرة .

وكـان طولها نحو اثني عشر ميـلا ، في عرض واسع وسمو بين . فلما مضت لديقلطيـانوس من ملكـه مائتان واحدى وخمسون سنة ، هجم المـاء من البحر على بعض المواضع التي تسمى اليوم بحيرة تنيس فأغرقه ، وصار يزيد في كل عام حتى أغرقها بأجمعها . فما كان من القرى التي في قرارها غرق ، وأما التي كانت على ارتفاع من الأرض فبقيت منها بونة وسمنود وغير ذلك مما هي باقية الى هذا الوقت ، والماء محيط بها .

وكان أهل القرى التي في هذه البحيرة ينقلون موتاهم الى تنيس فيقبرونهم واحدا فوق آخر ، وهي الأكوام الثلاثة التي تسمى اليوم أبو الكوم .

وكان استحكام غرق هذه الأرض بأجمعها وقد مضى لديقلطيانوس الملك مائتان واحدى وخمسون سنة ، وذلك قبل أن تفتح مصر بمائة سنة .

وقال : وقد كان لملك من ملوك الأمم كانت داره الفرما مع أركون من أراكنة البلينا وما اتصل بها من الأرض حروب وخنادق وخلجانات فتحت من النيـل الى البحر ، ومنع كل واحد من الآخر ، وكان ذلك داعيا لتشعب الماء من النيل واستيلائه على هذه الأرض .

وسئل عن ملوك الأحابش على النيل وممالكهم ، فقال : لقيت من ملوكهم ستين ملكا في ممالك مختلفة ، كل ملك منهم ينازع من يليه من الملوك ، وبلادهم حارة يابسة مسودة ليبسها وحرارتها . ولاستحكام النارية فيها تغيرت الفضة ذهبا لطبخ الشمس اياها ـ لحرارتها ويبسها وناريتها ـ فتحولت ذهبا . وقد يطبخ الذهب الذي يؤتى به من المعدن خالصا صفائح بالملح والزاج والـطوب فيخرج منه فضة خالصة بيضاء ، وليس يدفع هذا الأمر الا من لا معرفة له بما وصفنا ، ولا قارب شيئا مما ذكرنا .

قيل له : فما منتهى النيل في أعاليه ؟

قال : البحيرة التي لا يدرك طولها وعرضها ، وهي نحو الأرض التي الليل والنهار فيها متساويان طول الدهر ، وهي تحت الموضع الذي يسميـه المنجمون الفلك المستقيـم ، وما ذكرت فمعروف غير منكر .

الأهرام

وسئل عن بناء الأهرام ، فقال : إنها قبور الملوك ، وكان الملك منهم اذا مات وضع في حوض حجارة ويسمى بمصر والشام « الجرن » وأطبق عليه . ثم يبنى من الهرم على قدر ما يزيدون من ارتفاع الأساس . ثم يحمل الحوض فيوضع وسط الهرم ، ثم يقنطر عليه البنيان والأقباء . ثم يرفعون البناء على هذا المقدار الذي ترونه . ويجعل باب الهرم تحت الهرم ، ثم يحفر له طريق في الأرض بعقد أزج ، فيكون طول الأزج تحت الأرض مائة ذراع وأكثر . ولكل هرم من هذه الأهرام باب يدخل منه على ما وصفت .

فقيل له : فكيف بنيت هذه الأهرام المملسة ؟ وعلى أي شيء كانوا يصعدون ويبنون ؟ وعلى أي شيء كانوا يحملون هذه الحجارة العظيمة التي لا يقدر أهل زماننا هذا على أن يحركوا الحجر الواحد الا بجهد ان قدروا ؟

فقال : كان القوم يبنون الهرم مدرجا ذا مراقي كالدرج ، فاذا فرغوا منه نحتوه من فوق الى أسفل ، فهذه كانت حيلتهم ، وكانوا مع هذا لهم صبر وقوة وطاعة لملوكهم ديانية .

فقيل له : ما بال هذه الكتابة التي على الأهرام والبرابي لا تقرأ ؟

فقال : دثر الحكماء وأهل العصر الذين كان هذا قلمهم ، وتداول أرض مصر الأمم ، فغلب على أهلها القلم الرومي ، وأشكال الأحرف للروم .

والقبط تقرؤه على حسب تعارفها اياه ، وخلطها لأحرف اليوم بأحرفها ، على حسب ما ولدوا من الكتابة بين الرومي والقبطي الأول ، فذهبت عنهم كتابة آبائهم .

فقيل له : فمن أول من سكن مصر ؟

قال : أول من نزل هذه الأرض مصر بن بيصر بن حام بن نوح .

ومر في أنساب ولد نوح الثلاثة وأولادهم ، وتفرقهم في الأرض .

فقيل له : أتعرف بمصر مقاطع رخام ؟

قال : نعم في الجانب الشرقي من الصعيد جبل رخام عظيم كانت الأوائل تقطع منه العمد وغيرها ، وكانوا يجلون ما عملوا بالرمل بعد النقر .

فأما العمد والقواعد والرؤوس التي تسميها أهل مصر الأسوانية ، ومنها حجارة الطواحين فتلك نقرها الأولون بعد حدوث النصرانية بمئين من السنين ، ومنها العمد التي بالاسكندرية ، والعمود الذي بها الضخم الكبير لا يعلم بالعالم عمود مثله .

وقد رأيت في جبل أسوان أخا لهذا العمود قد هندس ونقر ولم يفصل من الجبل ، ولم يحك ما ظهر منه ، وانما كانوا ينتظرون أن يفصل من الجبل ثم يحمل الى حيث يريد القوم .

وسئل عن مدينة العقاب ، فقال : هي غربي أهرام بوصير الجيزة وهي على خمسة أيام بلياليها للراكب المجد . وقد وعرت طريقها وعميت المسالك اليها ، والسمت الذي يؤدي نحوها .

وذكر ما فيها من عجائب البنيان والجواهر والأموال ، والعلة التي لها سميت مدينة العقاب .

ووصف مدينة أخرى غربي أخميم من أرض الصعيد ذات بنيان عجيب اتخذتها الملوك السالفة . وذكرَ من شأن هذه المدينة الأخرى عجائب من الأخبار ، وزعم أن بينها وبين اخميم من أرض الصعيد مسيرة ستة أيام .

وسئل عن النوبة وأرضها ، فقال : هم أصحاب ابل وبخت وبقر وغنم ، وملكهم يستعد الخيل العتاق ، والأغلب من ركوب عوامهم البراذين . ورميهم بالنبل عن قسي عربية ، وعنهم أخذ الرمي أهل الحجاز واليمن وغيرهم من العرب ، وهم الذين يسميهم العرب رماة الحدق .

ولهم النخل والكرم والذرة والموز والحنطة ، وأرضهم كأنها جزء من أرض اليمن . وللنوبة أترج كأكثر ما يكون بأرض الاسلام ، وملوكهم تزعم أنهم من حمير ، وملكهم يستولي على مقرا ونوبة وعلوة .

ووراء علوة أمة عظيمة من السودان تدعى بكنة ، وهم عراة كالزنج ، وأرضهم تنبت الذهب .

وفي مملكة هذه الأمة يفترق النيل فيتشعب منه خليج عظيم ثم يخضر الخليج بعد انفصاله من النيل ، وينحدر الأكثر الى بلاد النوبة ، وهو النيل لا يتغير .

فاذا كان في بعض الأزمنة انفصل الأكثر من الماء في ذلك الخليج ، وأبيض الأكثر ، واخضر الأقل . فيشق ذلك الخليج في أودية وخلجان وأعماق مأنوسة ، حتى يخرج الى جلاسق والجنوب ، وذلك على ساحل الزنج ، ومصبه في بحرهم .

ثم سئل عن الفيوم والمنهى وحجر اللاهون فذكر كلاما طويلا في أمر الفيوم . وأن جارية من بنات الروم وابنها نزلوا الفيوم ، وكانوا البدء في عمارتها وعمارة أرضها .

وانما كان الماء يأتي الفيوم من المنهى أيام جري النيل ، ولم يكن حجر اللاهون بني ، وإنما كان مصب الماء من المنهى من الموضع المعروف بدمونة .

ثم بني اللاهون على ما هو اليوم عليه .

ويقال : ان يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام ، بناه أيام

العزيز . ودبر من أمر الفيوم ما هو اليوم قائم بين من الخلج المرتفعة والمطاطية ، وهو خليج فوق خليج فوق خليج وبنى القنطرة المعروفة بسفونة .

وأقام العمود الذي في وسط الفيوم ، وهو غائص في الأرض لا يدرك منتهاه منها وهو أحد عجائب الدنيا ، مربع الشكل ، قد جهد أناس من الأمم ممن ورد بعد يوسف أن ينتهوا الى آخره في الأرض حفرا فلم يتأتَ لهم ذلك ، ولا قدروا عليه ، وغلبهم الماء فعجزهم ورأس هذا العمود مساو لأرض المنهى .

قال : وأما حجر اللاهون فان من سطح الحجر الذي فيما بين القبتين الى ناحية اللاهون . واللاهون هي القرية بعينها ففي ما بين السطح الى القرية ستون درجا ، وربما قل الماء في المنهى ، وظهر بعض الدرج .

وفي حائط الحجر فوارات بعضها اليوم يخرج منه الماء ، وبعض لا يرى .

وفيما بين سطح الحجر الذي بين القبتين وبين القرية شاذروان ، وهو من أسفل الدرج . وإنما يدخل الماء الفيوم بوزن الحجر ، وجعلت الاسقالة ـ وهي القناطر ـ ليخرج الماء منها ، ولا يعلو الماء الحجر أيام سده . . .

فبالتقدير بني حجر اللاهون . وبقدر ما يكفي الفيوم من الماء يدخل اليها . وبناء حجر اللاهون من أعجب الامور ، ومن أحكم البنيان ، ومن البناء الذي يبقى على وجه الماء لا يتحرك ولا يزول : بالهندسة عمل ، وبالفلسفة أتقن ، وفي السعود نصب .

وقد ذكر كثير من أهل بلدنا أن يوسف عليه السلام عمل ذلك بالوحي ، والله أعلم .

ولم تزل ملوك الأرض اذا غلبت على بلادنا ، واحتوت على أرضنا ، صارت الى هذا الموضع فتأملته ، لما قد نمي اليها من أخباره ، وسار في الخليقة من عجائب بنيانه واتقانه . .

وكان هذا الرجل من أقباط مصر ، ممن يظهر دين النصرانية ورأي اليعقوبية . فأمر السلطان أحمد بن طولون في بعض الأيام ، وقد أحضر مجلسه بعض أهل النظر ، أن يسأله عن الدليل على صحة دين النصرانية .

فسأله عن ذلك ، فقال : دليلي على صحتها وجودي اياها متناقضة متنافية، تدفعها العقول ، وتنفر منها النفوس ، لتباينها وتضادها ، لا نظر يقويها ، ولا جدل يصححها ولا برهان يعضدها من العقل والحس عند التأمل لها والفحص عنها . . . ورأيت مع ذلك أمما كثيرة ، وملوكا عظيمة ذوي معرفة وحسن رأي ، قد انقادوا اليها وتدينوا بها . فعلمت أنهم لم يقبلوها ، ولم يتدينوا بها ـ مع ما ذكرت من تناقضها في العقل ـ إلا لدلائل شاهدوها ، وآيات علموها ، ومعجزات عرفوها ، أوجبت انقيادهم اليها والتدين بها .

قال له السائل : وما التضاد الذي فيها ؟

قال : وهل يدرك أو يعلم غايته ؟ . .

منها قولهم بأن الواحد ثلاثة ، والثلاثة واحد ، ووصفهم الأقانيم والجوهر وهو الثالوث ، وهل الأقانيم في أنفسها قادرة عالمة أم لا ؟

وفي اتحاد ربهم القديم بالانسان المحدث ، وما جرى في ولادته وقتله وصلبه .

وهل في التشنيع أكبر وأفحش من اله صلب ، وبصق في وجهه ، ووضع على رأسه الأكليل من الشوك ، وضرب رأسه بالقضيب ، وسمرت يداه ، ونخس بالأسنة والخشب جنباه ، وطلب الماء فسقي الخل في بطيخ الحنظل ؟! .

فأمسكوا عن مناظرته ، وانقطعوا عن مجادلته ، لما قد أعطاهم من تناقض مذهبه وفساده ووهيه .

بين يهودي ونصراني

فقال طبيب لابن طولون يهودي وقد حضر المجلس : أيأذن لي الأمير في مخاطبته ؟

فقال : شأنك .

فأقبل على القبطي مسائلا له ، فقال له القبطي : وما أنت أيها الرجل ، وما نحلتك ؟

فقال له : يهودي .

فقال له : مجوسي اذن .

قال له : كيف ذلك وهو يهودي ؟

قال : لأنهم يرون نكاح البنات في بعض الحالات ، إذ كان في دينهم أن الأخ يتزوج بنت أخيه ، وعليهم أن يتزوجوا نساء اخوتهم اذا ماتوا ، فاذا وافق اليهودي أن تكون امرأة أخيه ابنته لم يجد بدا من أن يتزوجها . وهذا من أسرارهم ، وما يكتمونه ولا يظهرونه ، فهل في المجوسية أشنع من هذا ؟

فأنكر اليهودي ذلك وجحد أن يكون في دينه او يعرفه أحد من اليهود .

فاستخبر ابن طولون عن صحة ذلك ، فوجد ذلك الطبيب اليهودي قد تزوج امرأة اخيه ، وكانت بنته .

ثم أقبل القبطي على ابن طولون ، فقال أيها الأمير ، هؤلاء يزعمون ـ وأشار الى اليهودي ـ أن الله خلق آدم على صورته . وعن نبي من أنبيائهم سماه قال في كتابه : إنه رآه في قديم الزمان أبيض الرأس واللحية ، وأن الله تعالى قال : إني أنا النار المحرقة ، والحمى الآخذة ، وأنا الذي آخذ الأبناء بذنوب الآباء .

ثم في توراتهم أن بنات لوط سقينه الخمر حتى سكر وزنى بهن ، وحملن منه وولدن وأن موسى رد على الله الرسالة مرتين حتى اشتد غضب الله عليه .

وأن هارون صنع العجل الذي عبده بنو اسرائيل .

وأن موسى أظهر معجزات لفرعون وفعلت السحرة مثلها .

ثم قالوا في ذبائح الحيوان والتقرب الى الله بدمائها ولحومها ، وتحكمهم على العقل ، ومنعهم من النظر بغير برهان ، وهو قولهم ان شريعتهم لا تنسخ ، ولا يقبل قول أحد من الأنبياء بعد موسى اذا انحرف عما جاء به موسى ولا فرق في قضية العقل بين موسى وغيره من الأنبياء إذا أتى ببرهان ، وبان بحجة .

ثم الأكبر من كفرهم قولهم في يوم عيد الكفور ، وهو يوم الاستغفار وذلك لعشر تخلو من تشرين الأول : إن الرب الصغير ـ ويسمونه ميططرون ـ يقوم في هذا اليوم قائما ، وينتف شعور رأسه ، ويقول ، ويلي اذا خربت بيتي ، وأيتمت بنتي ، قامتي منكسة لا أرفعها حتى آتي بنتي ! . .

وذكر عن اليهود أقاصيص وتخاليط كثيرة ، ومناقضات واسعة .

ولهذا القبطي مجالس كثيرة عند أحمد بن طولون مع جماعة من الفلاسفة والديصانية والثنوية والصابئة والمجوس ، وعدة من متكلمي الاسلام .

وقد أتينا على ما احتمل منها ايراده في كتابنا في « أخبار الزمان » ، وذكرنا جميع ذلك في كتابنا « المقالات في أصول الديانات » .

وكان هذا القبطي ـ على ما نمي الينا من خبره ، وصح عندنا من قوله ـ يذهب الى فساد النظر ، والقول بتكافؤ المذاهب .

وأقام عند ابن طولون نحو سنة ، فأجازه ، وأعطاه ، فأبى قبول شيء من ذلك ، فرده الى بلده مكرما ، وأقام بعد ذلك مدة من الزمان ، ثم هلك .

وله مصنفات تدل من كلامه على ما ذكرنا عنه ، والله أعلم بكيفية ذلك .

واليهود تأبى ما ذكره القبطي في نكاح بنت الأخ ، وأكثرهم يقر بالتزويج ببنت الأخ .

***

بعض عجائب مصر ونيلها

قال المسعودي : وفي نيل مصر وأرضها عجائب كثيرة من أنواع الحيوان مما في البر والبحر .

من ذلك السمك المعروف بالرعاد ، وهو نحو الذراع ، اذا وقعت في شبكة الصياد

رعدت يداه وعضداه ، فيعلم بوقوعها ، فيبادر الى أخذهـا واخراجهـا عن شبكته . ولـو أمسكها بخشب أو قصب فعلت ذلك .

وقد ذكرها جالينوس ، وأنها ان جعلت على رأس من به صداع شديد أو شقيقة وهي في الحياة ، هدأ من ساعته .

والفرس الذي يكون في نيل مصر اذا خرج من الماء وانتهى وطؤه الى بعض المواضع من الأرض ، علم أهل مصر أن النيل يزيد الى ذلك الموضع بعينه غير زائد عليه ولا مقصر عنه ، لا يختلف ذلك عندهم بطول العادات والتجارب .

وفي ظهوره من الماء ضرر بأرباب الأرض والفلاحة لرعيه الزرع . وذلك أنه يظهر من الماء في الليل فينتهي الى موضع من الزرع ، ثم يولي عائدا الى الماء ، فيرعى في حال رجوعه من الموضع الذي انتهى اليه سيره ، ولا يرعى من ذلك شيئا في ممره ، كأنه يحدد مقدار ما يرعاه .

فمنها ما اذا رعت وردت الى النيل فشربت لم تقذف ما في أجوافها في مواضع شتى ، فينبت ذلك مرة ثانية .

فاذا كثر ذلك من فعله واتصل ضرره بأرباب الضياع ، طرح له الترمس في الموضع الذي يعرف خروجه منه مكاكيك كثيرة مبددا مبسوطا ، فيأكله ، ثم يعود الى الماء فيربو في جوفه ، ويزداد في انتفاخه فيشق جوفه ، فيموت ويطفو على الماء ،ويقذفبه الى الساحل .

والموضع الذي يكون فيه لا يكاد يرى فيـه تمساح . وهـو على صورة الفرس إلا أن حوافره وذنبه بخلاف ذلك ، والجبهة أوسع .

من نزل مصر من ابناء نوح

قال المسعودي : وقد ذكر جماعة من الشرعيين أن بيصر بن حام بن نوح لما انفصل عن أرض بابل بولده وكثير من أهل بيته ، غرب نحو مصر ، وكان له أولاد أربعة : مصر بن بيصر ، وفارق بن بيصر ، وماح ، وياح . فنزل بموضع يقال له منف ، وبذلك سمـي الى وقتنا هذا .

وكان عددهم ثلاثين فسميت ثلاثين بهم ، كما سميت مدينة ثمانين من أرض الجزيرة وبلاد المـوصل من بلاد بني حمدان . وإنما نسبت الى عدد ساكنيهـا ممن كان مع نوح في السفينة .

وكان بيصر بن حام قد كبر سنه ، فأوصى الى الأكبر من ولده ، وهو مصر . واجتمع الناس اليه وانضافوا الى جملتهم ، وأخصبت البلاد ، فتملك عليهم مصر بن بيصر ، وملك

من حد رفح من أرض فلسطين من بلاد الشام . وقيل : من العريش ، وقيل : من الموضع المعروف بالشجرة ، وهو آخر أرض مصر ، والفرق بينها وبين الشام ، وهو الموضع المشهور بين العريش ورفح ، الى بلاد أسوان من أرض الصعيد طولا ، ومن أيلة ـ وهي تخوم الحجاز ـ الى برقة عرضا .

وكان لمصر أولاد أربعة ، وهم قبط ، وأشمون ، وأتريب ، وصا .

فقسم مصر الأرض بين أولاده الأربعة أرباعا ، وعهد الى الأكبر من ولده ـ وهو قبط ـ وأقباط مصر يضافون في النسب الى أبيهم قبط بن مصر .

وأضيفت المواضع الى ساكنيها ، وعرفت بأسمائهم ، فمنها أشمون ، وقبط ، وصا ، وأتريب ، وهذه أسماء هذه المواضع الى هذه الغاية .

واختلطت الأنساب ، وكثر ولد قبط ، وهم الأقباط ، فغلبوا على سائر الأرض ، ودخل غيرهم في أنسابهم ، لما ذكرنا من الكثرة . . . فقيل لكل قبط مصر وكل فريق منهم يعرف نسبه واتصاله بمصر بن بيصر بن حام بن نوح الى هذه الغاية .

جملة من ملوك مصر

ولما هلك قبط بن مصر ملك بعده اشمون بن مصر .

ثم ملك بعده صا بن مصر .

وملك بعده اتريب بن مصر .

ثم ملك بعده ماليق بن دارس .

ثم ملك بعده حرايا بن ماليق .

ثم ملك بعده كلكي بن حرايا ، وأقام في الملك نحوا من مائة سنة .

ثم ملك بعده أخ يقال له ماليا بن حرايا .

ثم ملك بعده لوطس بن ماليا نحوا من سبعين سنة .

ثم ملكت بعده ابنة له يقال لها حوريا بنت لوطس نحوا من ثلاثين سنة .

ثم ملكت بعدها امرأة اخرى يقال لها ماموم .

وكثر ولد بيصر بن حام بأرض مصر ، فتشعبوا ، وملكوا النساء ، فطمعت فيهم ملوك الأرض ، فسار اليهم من الشام ملك من ملوك العماليق ، يقال له الوليد بن دومع ، فكانت له حروب بها ، وغلب على الملك ، فانقادوا اليه ، واستقام له الأمر الى أن هلك .

ثم ملك بعده الريان بن الوليد العملاقي ، وهو فرعون يوسف . وقد ذكر الله تعالى خبره مع يوسف ، وما كان من أمرهما في كتابه العزيز ، وقد أتينا على شرح ذلك في كتابنا الأوسط .

ثم ملك بعده دارم بن الريان العملاقي .
ثم ملك بعده كامس بن معدان العملاقي .
ثم ملك بعده الوليد بن مصعب ، وهو فرعون موسى .

وقد تنوزع فيه : فمن الناس من رأى أنه من العماليق ، ومنهم من رأى أنه من لخم من بلاد الشام ، ومنهم من رأى أنه من الأقباط من ولد مضر بن بيصر ، وكان يعرف بظلما ، وقد أتينا على ذلك في الكتاب الأوسط .

وهلك فرعون غرقا حين خرج في طلب بني اسرائيل حين أخرجهم موسى بن عمران ، وجعل الله لهم طريقا في البحر يبسا .

ولما غرق فرعون ومن كان معه من الجنود ، وخشي من بقي بأرض مصر من الذراري والنساء والعبيد أن يغزوهم ملوك الشام والمغرب ، فملكوا عليهم امرأة ذات رأي وحزم ، يقال لها دلوكة ، فبنت على بلاد مصر حائطا يحيط بجميع البلاد ، وجعلت عليه المحارس والأحراس والرجال متصلة أصواتهم يقرب بعضهم من بعض . وأثر هذا الحائط باق الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) يعرف بحائط العجوز .

وقيل : إنما بنته خوفا على ولدها ، وكان كثير القنص ، فخافت عليه من سباع البر والبحر ، واغتيال من جاور أرضهم من الملوك والبوادي ، فحوطت الحائط من التماسيح وغيرها . وقد قيل في ذلك من الوجوه غير ما ذكرنا .

فملكتهم ثلاثين سنة ، وقيل : أقل من ذلك . واتخذت بمصر البرابي والصور ، وأحكمت آلات السحر ، وجعلت في البرابي صور من يرد من كل ناحية ، ودوابهم ابلا كانت أو خيلا ، وصورت ما يرد في البحر من المراكب من بحر المغرب والشام .

وجمعت في هذه البرابي العظيمة المشيدة البنيان أسرار الطبيعة وخواص الأحجار والنبات والحيوان ، من الجاذبة والدافعة . وجعلت ذلك في أوقات حركات فلكية واتصالها بالمؤثرات العلوية .

وكانوا اذا ورد اليهم جيش من نحو الحجاز أو اليمن عورت تلك الصورة التي في البرابي من الأبل وغيرها ، فيتعور ما في ذلك الجيش ، وينقطع عنهم ناسه وحيوانه .

واذا كان الجيش من نحو الشام فعل في تلك الصور التي من تلك الجهة التي أقبل منها جيش الشام ما فعل بما وصفنا قبلها ، فيحدث في ذلك الجيش من الآفات في ناسه وحيوانه ما صنع في تلك الصور التي من تلك الجهة .

وكذلك ما ورد من جيوش الغرب ، وما ورد في البحر من رومية والشام وغير ذلك من المالك . . .

فهابتهم الملوك والأمم ، ومنعوا ناحيتهم من عدوهـم ، واتصل ملكهـم بتدبير هذه العجوز واتقانها لزم أقطار المملكة واحكامها السياسة .

وقد تكلم الناس ممن سلف وخلف في هذه الخواص ، وأسرار الطبيعة التي كانت ببلاد مصر .

وهذا الخبر من فعل العجوز عند المصريين مستفيض لا يشكون فيه . والبرابي بمصر من صعيدها وغيره باقية الى هذا الوقت ، وفيها أنواع الصور مما اذا صورت في بعض الأشياء أحدثت أفعالا على حسب ما رسمت له ووضعت من أجله ، على حسب قولهم في الطباع التام ، والله أعلم بكيفية ذلك .

***

كتابة على البرابي

قال المسعودي : وأخبرني غير واحد من بلاد اخميم من صعيد مصر ، عن أبي الفيض ذي النون بن ابراهيم المصري الأخميمي الزاهد ـ وكان حكيا ، وكانت له طريقة يأتيها ونحلة يعضدها ، وكان ممن يقرأ عن أخبار هذه البرابي ودارها ، وامتحن كثيرا مما صور فيها ورسم عليها من الكتابة والصور ـ قال :

رأيـت في بعض البرابي كتابا تدبرته ، فاذا هو : « احذروا العبيـد المعتقين ، والأحداث المغترين ، والجند المتعبدين ، والنبط المستعربين » .

قال : ورأيت في بعضها كتابا تدبرته فاذا فيه : « يقدر المقدور والقضاء يضحك » .

وزعم أنه رأى في آخره كتابة وتبينها بذلك القلم الأول فوجدها :

تدبر بالنجوم ولست تدري ورب النجم يفعـل ما يريد

وكانت هذه الأمة التي اتخذت هذه البرابي لهجة بالنظر في أحكام النجوم مواظبة على معرفة أسرار الطبيعة ، وكان عندهـا مما دلـت عليـه أحكـام النجوم أن طوفانا سيكـون في الأرض ، ولم تقطع بأن ذلك الطوفان ما هو : أنار تأتي على الأرض فتحرق ما عليها ، أو ماء فيغرقها ، أو سيف يبيد أهلها .

فخافت دثور العلوم وفناءها بفناء أهلهـا ، فاتخذت هذه البرابي ، واحدهـا بربا ، ورسمت فيها علومها من الصور والتماثيل والكتابة .

وجعلت بنيانها نوعين : طينا ، وحجرا ، وفرزت ما يبنى بالطين مما يبني بالحجر ، وقالت : إن كان هذا الطوفان نارا استحجر ما يبنى من الطين وانحرق ، وبقيت هذه العلوم ، وإن كان الطوفان الوارد ماء أذهب ما يبنى بالطين ، ويبقى ما يبنى بالحجارة ، وإن كان الطوفان سيفا بقي كلا النوعين ما هو بالطين وما هو بالحجر .

وهذا على ما قيل ـ والله أعلم ـ كان قبل الطوفان .

وقيل : إن ذلك كان بعد الطوفان ، وإن الطوفان الذي كانوا يرقبونه ولم يتيقنوا أنار هو أم ماء أم سيف ، كان سيفا أتى على جميع أهل مصر من أمة غشيتها وملك نزل عليها فأباد أهلها .

ومنهم من رأى أن ذلك الطوفان كان وباء عم أهلها ، ومصداق ذلك ما يوجد ببلاد تنيس من التلال المنضدة من الناس من صغير وكبير . وذكر وأنثى ، كالجبال العظام ، وهي المعروفة ببلاد تنيس من أرض مصر بأبي الكوم ، وما يوجد ببلاد مصر وصعيدها من الناس المنكسين بعضهم على بعض في دهوف وغيران ونواويس ، ومواضع كثيرة من الأرض لا يدرى من أي الأمم هم ، فلا النصارى تخبر عنهم أنهم من أسلافهم ، ولا اليهود تقول عنهم إنهم من أوائلهم ، ولا المسلمون يدرون من هم ولا تاريخ ينبىء عن حالهم ، عليهم أثوابهم ، وكثيرا ما يوجد في تلك الروابي والجبال من حليهم .

والبرابي ببلاد مصر بنيان قائم عجيب : كالبربا المتخذة بأنصناء من صعيد مصر ، وهو أحد الموصوفين منها ، والبربا التي ببلاد أخميم ، والبربا التي ببلاد سمنود ، وغير ذلك .

وكتابة على الأهرامات أيضا

والأهرام وطولها عظيم ، وبنيانها عجيب ، عليها بأنواع من الكتابات بأقلام الأمم السالفة ، والممالك الداثرة ، لا يدرى ما تلك الكتابة ولا ما المراد بها ، وقد قال من عني بتقدير ذرعها ان مقدار ارتفاع ذهابها في الجو نحو من أربعمائة ذراع ، أو أكثر ، وكلما علا به الصعداء دق ذلك ، والعرض نحو ما وصفنا ، عليها من الرسوم ما ذكرنا .

وإن ذلك علوم وخواص وسحر وأسرار للطبيعة .

وإن من تلك الكتابة مكتوب : إنا بنيناها فمن يدعي موازنتنا في الملك وبلوغنا في القدرة وانتهاءنا من السلطان فليهدمها ، وليزل رسمها ، فإن الهدم أيسر من البناء ، والتفريق أيسر من التأليف .

وقد ذكر أن بعض ملوك الاسلام شرع في هدم بعضها فاذا خراج مصر وغيرها من

الأرض لا يفي بقلعها ، وهي من الحجر والرخام .

والغرض في كتابنا هذا الاخبار عن جمل الأشياء وجوامعها ، لا عن تفصيلها وبسطها .

وقد أتينا على سائر ما شاهدناه حسا في مطافاتنا الأرض والممالك ، وما نمي الينا خبرا من الخواص وأسرار الطبيعة من الحيوان والنبات والجماد في عجائب البلدان والآثار والبقاع ، في كتابنا المترجم بكتاب « القضايا والتجارب » .

ولا تمانع بين ذوي الفهم أن في مواضع من الأرض مدنا وقرى لا يدخلها عقرب ولا حية ، مثل مدينة حمص ومعرة وبصرى وأنطاكية .

وقد كان ببلاد أنطاكية ، إذا أخرج انسان يده خارج السور وقع عليها البق ، فاذا جذبها الى داخل لم يبق على يده من ذلك شيء . . . الى أن كسر عمود من الرخام في بعض المواضع بها ، فأصيب في أعلاه حق من نحاس في داخله بق مصور من نحاس نحو كف ، فلما مضت أيام - أو على الفور من ذلك - حتى صار البق في وقتنا هذا يعم الأكثر من دورهم .

وهذا حجر المغناطيس يجذب الحديد ، ولقد رأيت بمصر حية مصورة من حديد أو نحاس توضع على شيء ويدنى منها حجر المغناطيس فتحدث فيها حركة تباعد منه .

وحجر المغناطيس اذا أصابته رائحة الثوم بطل فعله في الحديد ، وإذا غسل بشيء من الخل أو ناله شيء من عسل النحل ، عاد الى فعله الأول من جذب الحديد .

وللمغناطيس في الحديد خواص عجيبة غير ما ذكرنا كالحجر الماص للدم .

والله عز وجل قد استأثر بعلم الأشياء ، وأظهر للعباد ما شاء مما لهم فيه الصلاح على قدر الوقت وحاجتهم فيه اليه ، وأشياء استأثر بعلمها لم يظهرها لخلقه ، فلا تقف العقول على كنهها . وكما يجمع بين أشياء فيحدث لاجتماعها معنى هو غيرها ، كما يحدث من ماء العفص والزاج عند الاجتماع من شدة السواد ، وكحدوث جوهر الزجاج عند جمعنا بين الرمل والمغنيسيا والقلي عند الطبخ والسبك لذلك .

وكذلك لو جمع بين ماء القلي وماء المرتك وهو المرداسنج خرج الحادث من مزاجيهما كالزبد بياضا .

واذا مزج ماء القلي بماء الزاج خرج من مزاجيهما لون أحمر كالعصفر .

وكجمعنا في النتاج بين الفرس الأنثى والحمار فتحدث بغلا ، ولو نتج دابة على أتان لخرج منها بغل أفطس ذو خبث ودهاء يسمى الكودن .

وقد ذكرنا النتاج الذي كان بصعيد مصر مما يلي الحبشة ، وما كان ينتج من الثيران على

الأتن ، والحمير على البقر ، وما كان يحدث من ذلك من الدواب العجيبة التي ليست بحمير ولا بقر كالبغل الذي ليس بدابة ولا حمار .

وقد ذكرنا ضروب التوليدات في أنواع الحيوان والنبات ، من تطعيمهم الغروس والأشجار وما تولد من الطعوم في المذاق ، في كتابنا المترجم بكتاب « القضايا والتجارب » في أنواع الفلاحات وغيرها .

وذكرنا باب خواص الأشياء ومعرفتها والطلسمات وعجائبها ، وهو باب كبير في ذكر بعضه نيابة عن بعض ، والجزء منه يوهمك الكل ، واليسير منه يدلك على معرفة الكثير .

ويمكن ، والله أعلم ، أن تكون هذه الخواص والطلسمات والأشياء المحدثة في العالم للحركات مما وصفنا والدافعة والمانعة والمنفردة والجاذبة والفاعلة في الحيوان وغير ذلك بمثل الطرد والجذب . . . . كانت دلالة لبعض الأنبياء في الأمم الخالية ، جعلها الله كذلك لذلك النبي دلالة ومعجزة تدل على صدقه وتنبيئه من غيره ليؤدي عن الله أمره ونهيه وما فيه من الصلاح لخلقه في ذلك الوقت ، ثم رفع الله ذلك النبي ، وبقيت علومه . وما أبانه الله عز وجل مما ذكرنا ، في أيدي الناس ، وأصل ذلك الهي كما وصفنا ، إذ كان ما ذكرنا ممكنا غير واجب ولا ممتنع في القدرة .

***

قال المسعودي : فلنرجع الى ما كنا فيه من أخبار ملوك مصر .

بقية ملوك مصر

وكان الملك بعد انقضاء ملك دلوكة العجوز دركوس بن بلوطس .

ثم ملك بعده بورس بن دركوس .

ثم ملك بعده فغامس بن بورس نحوا من خمسين سنة .

ثم ملك بعده دنيا بن بورس نحوا من عشرين سنة .

ثم ملك بعده نماريس بن مرينا عشرين سنة .

ثم ملك بعده بلوطس بن ميناكيل أربعين سنة .

ثم ملك بعده مالوس بن بلوطس عشرين سنة .

ثم ملك بعده بلوطس بن ميناكيل بن بلوطس .

ثم ملك بعده بلونا بن ميناكيل ، وكانت له حروب ومسير في الأرض ، وهو فرعون الأعرج الذي غزا بني اسرائيل وخرب بيت المقدس .

ثم ملك بعده مرينوس ، وكانت له حروب كثيرة بالمغرب .

ثم ملك بعده نقاس بن مرينوس ثمانين سنة .

ثم ملك بعده قوميس بن نقاس عشر سنين .

ثم ملك بعده كابيل ، وكانت له حروب مع ملوك المعرب ، وغزاه البخت ناصر مرزبان المغرب من قبل ملوك فارس ، فخرب أرضه وقتل رجاله ، وسار البخت ناصر نحو المغرب .

وقد أتينا على أخباره في كتاب « راحة الأرواح » لأن هذا الكتاب رسمناه بأخبار مسير الملوك للأرض ، وأخبار مقاتلتهم ، دون ما ذكرناه في كتابنا « أخبار الزمان » .

ولما زال أمر البخت ناصر ومن معه من جنود فارس ، ملكت الروم مصر ، وغلبت عليها ، فتنصر أهلها . فلم يزالوا على ذلك الى أن ملك كسرى أنو شروان ، فغلبت جيوشه على الشام ، وسارت نحو مسر ، فملكوها ، وغلبوا على أهلها نحوا من عشرين سنة .

وكانت بين الروم وفارس حروب كثيرة ، فكان أهل مصر يؤدون خراجين : خراجا الى فارس ، وخراجا الى الروم ، عن بلادهم !

ثم انجلت فارس عن مصر والشام لأمر حدث في دار مملكتهم ، فغلب الروم على مصر والشام ، وأشهروا النصرانية . فشمل ذلك من بالشام ومصر ، الى أن أتى الله بالاسلام ، وكان من أمر المقوقس صاحب القبط من النبي صلى الله عليه وسلم من الهدايا ما كان ... الى أن افتتحها عمرو بن العاص ومن كان معه في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فبنى عمرو بن العاص الفسطاط وهي قصبة مصر في هذا الوقت .

وكان ملك مصر ـ وهو المقوقس صاحب القبط ـ ينزل الاسكندرية في بعض فصول السنة ، وفي بعضها ينزل مدينة منف ، وفي بعضها قصر الشمع ، وهو اليوم يعرف بهذا الاسم في وسط مدينة الفسطاط .

ولعمرو بن العاص في فتح مصر أخبار ، وما كان بينه وبين المقوقس وفتحه لقصر الشمع ، وغير ذلك من أخبار مصر والاسكندرية ، وما كان من حروب المسلمين في ذلك ، ودخول عمرو بن العاص الى مصر والاسكندرية في الجاهلية . وما كان من خبره مع الراهب والكرة الذهب التي كانوا يظهرونها للناس في أعيادهم ، ووقوعها في حجر عمرو بن العاص ، وذلك قبل ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ... قد أتينا على جميع ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط .

***

عدة ملوك مصر

قال المسعودي : والذي اتفقت عليه التواريخ ـ مع تباين ما فيها ـ أن عدة ملوك مصر من الفراعنة وغيرها اثنان وثلاثون فرعونا ، ومن ملوك بابل ممن تملك على مصر خمسة ، ومن ملوك بابل ـ وهم العماليق الذين طرأوا اليها من بلاد الشام ـ أربعة ، ومن الروم سبعة ، ومن اليونانيين عشرة . . . وذلك قبل ظهور السيد المسيح عليه السلام .

وملكها أناس من الفرس من قبل الأكاسرة .

وكان مدة من ملك مصر من الفراعنة والفرس والروم والعماليق واليونانيين ألف سنة وثلثمائة سنة .

***

قال المسعودي : وسألت جماعة من أقباط مصر بالصعيد وغيره من بلاد مصر من أهل الخبرة عن تفسير « فرعون » ، فلم يخبروني عن معنى ذلك ، ولا تحصل لي في لغتهم . فيمكن ـ والله أعلم ـ أن هذا الاسم كان سمة ملوك تلك الأعصار ، وأن تلك اللغة تغيرت كتغير الفهلوية ، وهي الفارسية الأولى ، الى الفارسية الثانية ، وكاليونانية الى الرومية ، وتغير الحميرية ، وغير ذلك من اللغات .

دفائن أرض مصر

ولمصر أخبار عجيبة من الدفائن والبنيان وما يوجد في الدفائن من ذخائر الملوك التي استودعوها الأرض وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض ، وتدعى بالمطالب الى هذه الغاية . . . . قد أتينا على جميع ذلك فيا سلف من كتبنا .

فمن عجيب اخبارها ما ذكره يحيى بن بكير ، قال : كان عبد العزيز بن مروان عاملا على مصر لأخيه عبد الملك بن مروان فأتاه رجل متنصح ، فسأله عن نصحه ، فقال : بالقبة الفلانية كنز عظيم .

قال عبد العزيز : وما مصداق ذلك ؟

قال : هو أن يظهر لنا بلاط من المرمر والرخام عند يسير من الحفر ، ثم ينتهي بنا الحفر الى قلع باب من الصفر ، تحته عمود من الذهب على أعلاه ديك من الذهب ، عيناه ياقوتتان تساويان ملك الدنيا ، وجناحاه مضرجان بالياقوت والزمرد ، براثنه على صفائح من الذهب على أعلى ذلك العمود .

فأمر له عبد العزيز بنفقة ألوف من الدنانير لأجرة من يحفر من الرجال في ذلك ويعمل فيه . وكان هنالك تل عظيم ، فاحتفروا حفرة عظيمة في الأرض ، والدلائل المقدم ذكرها

من الرخام والمرم تظهر ، فازداد عبد العزيز حرصا على ذلك ، وأوسع في النفقة ، وأكثر من الرجال .

ثم انتهوا في حفرهم الى ظهور رأس الديك ، فبرق عند ظهوره لمعان عظيم كالبرق الخاطف لما في عينيه من الياقوت وشدة نوره ولمعان ضيائه .

ثم بانت قوائمه ، وظهر حول العمود عمود من البنيان بأنواع من الأحجار والرخام ، وقناطر مقنطرة ، وطاقات على أبواب معقودة ، ولاحت منها تماثيل وصور أشخاص من أنواع الصور والذهب وأجربة من الأحجار قد أطبقت عليها أغطيتها وشبكت ، وقيد ذلك بأعمدة الذهب .

فركب عبد العزيز بن مروان حتى أشرف على الموضع ، فنظر الى ما ظهر من ذلك ، فأسرع بعضهم فوضع قدمه على درجة منسبكة من نحاس تنتهي الى ما هنالك ، فلما استقرت قدمه على المرقاة الرابعة ، ظهر سيفان عظيمان عاديان عن يمين الدرجة وشمالها ، فالتفتا على الرجل ، فلم يدرك حتى جزآه قطعا وهوى جسمه سفلا .

فلما استقر جسمه على بعض الدرج اهتز العمود وصفر الديك تصفيرا عجيبا سمعه من كان بالبعد من هنالك ، وحرك جناحيه فظهرت من تحته أصوات عجيبة ، وقد عملت باللوالب والحركات . . . اذا ما وقع على بعض تلك الدرج شيء أو ماسها ، تهافت من هنالك من الرجال الى أسفل تلك الحفيرة . وكان ممن يحفر ويعمل وينقل التراب ويبصر ويتحرك ويأمر وينهى نحو ألف رجل ، فهلكوا جميعا .

فجزع عبد العزيز ، وقال : هذا ردم عجيب الأمر ، ممنوع النيل ، نعوذ بالله منه .

وأمر جماعة من الناس فطرحوا ما أخرج من التراب على من هلك من الناس ، فكان الموضع قبرا لهم .

***

قال المسعودي : وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ، ومن قد أغرى بحفر الحفائر وطلب الكنوز وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر ، وقع اليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة فيه وصف موضع بلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام المقدم ذكرها : بأن فيه مطلبا عجيبا .

فأخبروا الأخشيد محمد بن طغج بذلك ، فأذن لهم في حفره ، وأباحهم استعمال الحيلة في اخراجه .

فحفروا حفرا عظيما الى أن انتهوا الى أزج وأقباء وحجارة مجوفة في صخر منقور فيه

تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب ، قد طليت بالأطلية المانعة من سرعة البلى وتفرق الأجزاء . والصور مختلفة : منها صور شيوخ وشبان ونساء وأطفال أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والفيروزج والزبرجد ، ومنها ما وجوهها ذهب وفضة .

فكسروا بعض تلك التماثيل ، فوجدوا في أجوافها رمما بالية ، وأجساما فانية ، والى جانب كل تمثال منها نوع من الآنية كالبراني وغيرها من الآلات من المرمر والرخام ، وفيه نوع من الطلاء الذي قد طلي منه ذلك الميت الموضوع في تمثال الخشب ، وما بقي من الطلاء متروك في ذلك الاناء ، والطلاء دواء مسحوق وأخلاط معمولة لا رائحة لها ، فجعل منه على النار ، ففاح منه روائح طيبة مختلفة لا تعرف في نوع من الأنواع التي للطيب .

وقد جعل كل تمثال من الخشب على صورة من فيه من الناس على اختلاف أسنانهم ومقادير أعمارهم ، وتباين صورهم ، وبازاء كل تمثال من هذه التماثيل تمثال من الحجر المرمر ، أو من الرخام الأخضر ، على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل والصور ، وعليها أنواع من الكتابات لم يقف على استخراجها أحد من أهل الملل .

وزعم قوم من ذوي الدراية منهم أن لذلك القلم ، من حين فقد من الأرض (أعني أرض مصر) أربعة آلاف سنة .

وفيما ذكرناه دلالة على أن هؤلاء ليسوا بيهود ولا بنصارى ، ولم يؤدهم الحفر الا الى ما ذكرنا من هذه التماثيل . وكان ذلك في سنة ثمان وعشرين وثلثمائة .

وقد كان لمن سلف وخلف من ولاة مصر الى أحمد بن طولون وغيره الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) أخبار عجيبة ، فيما استخرج في أيامهم من الدفائن والأموال والجواهر ، وما أصيب في القبور من المطالب والخزائن . وقد أتينا على ذكرها فيما سلف من تأليفنا ، وتقدم من تصنيفنا ، وبالله التوفيق .

ذِكر أخبار الإسكندرية وبنائها ومُلوكها وعجائبها وما أُلحق بهذا الباب

اختيار الموضع

ذكر جماعة من أهل العلم ان الاسكندر المقدوني لما استقام ملكه في بلاده سار يختار أرضا صحيحة الهواء والتربة والماء ، حتى انتهى الى موضع الاسكندرية ، فأصاب في موضعها آثار بنيان عظيم وعمدا كثيرة من الرخام ، وفي وسطها عمود عظيم عليه مكتوب بالقلم المسند ، وهو القلم الأول من اقلام حمير وملوك عاد :

« أنا شداد بن عاد بن شداد بن عاد ، شددت بساعدي البلاد ، وقطعت عظيم العماد من الجبال والأطواد .

« وأنا بنيت ارم ذات العماد ، التي لم يخلق مثلها في البلاد ، وأردت أن أبني ههنا كإرم ، وأنقل اليها كل ذي اقدام وكرم ، من جميع العشائر والأمم ، وذلك اذ لاخوف ولا هرم ، ولا اهتمام ولا سقم ، فأصابني ما أعجلني ، وعما أردت قطعني ، مع وقوع ما أطال همي وشجني ، وقل نومي وسكني .

« فارتحلت بالأمس عن داري لا لقهر ملك جبار ، ولا لخوف جيش جرار ، ولا عن رهبة ولا عن صغار ، لكن لتمام المقدار ، وانقطاع الآثار ، وسلطان العزيز الجبار .

« فمن رأى أثري ، وعرف خبري ، وطول عمري ، ونفاذ بصري ، وشدة حذري ، فلا يغتر بالدنيا بعدي ، فانها غرارة تأخذ منك ما تعطي ، وتسترجع ما تولي » .

وكلام كثير يري فناء الدنيا ، ويمنع من الاغترار بها والسكون اليها .

ونزل الإسكندر متفكرا يتدبر هذا الكلام ويعتبره ، ثم بعث فحشر الصناع من البلاد ، وخط الأساس ، وجعل طولها وعرضها اميالا ، وحشد اليها العمد والرخام ، وأتته المراكب فيها أنواع الرخام ، وأنواع المرمر والأحجار ، من جزيرة صقلية ، وبلاد افريقية ، واقريطش ، وأقاصي بحر الروم مما يلي مصبه من بحر أوقيانوس .

وحمل اليه أيضا من جزيرة رودس ، وهي جزيرة مقابلة للاسكندرية على ليلة منها في البحر ، وهي أول بلاد الافرنجة . وهذه الجزيرة في وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) دار صناعة الروم ، وبها تنشأ المراكب الحربية ، وفيها خلق كثير من الروم ، ومراكبهم تطرق بلاد الاسكندرية وغيرها من بلاد مصر فتغير وتأسر وتسبي .

وأمر الاسكندر الفعلة والصناع ان يدوروا بما رسم لهم من أساس سور المدينة ،

وجعل على كل قطعة من الأرض خشبة قائمة ، وجعل من الخشبة الى الخشبة حبالا منوطة بعضها ببعض ، وأوصل جميع ذلك بعمود من الرخام ، وكان أمام مضربه .

وعلق على العمود جرسا عظيما مصوتا ، وأمر الناس والقوام على البنائين والفعلة والصناع أنهم اذا سمعوا صوت ذلك الجرس وتحركت الحبال ، وقد علق على كل قطعة منها جرسا صغيرا ، حرصوا على أن يضعوا أساس المدينة دفعة واحدة من سائر أقطارها .

وأحب الاسكندر أن يجعل ذلك في وقت يختاره ذي طالع سعيد ، فخفق الاسكندر برأسه وأخذته سنة في حال ارتقابه الوقت المحمود المأخوذ فيه الطالع ، فجاء غراب فجلس على حبل الجرس الكبير الذي فوق العمود فحركه ، وخرج صوت الجرس وتحركت الحبال ، وخفقت ما عليها من الأجراس الصغار ، وكان ذلك معمولاً بحركات فلسفية ، وحيل حكمية .

فلما رأى الصناع تحرك تلك الحبال وسمعوا تلك الأصوات ، وضعوا الأساس دفعة واحدة ، وارتفع الضجيج بالتحميد والتقديس ، فاستيقظ الاسكندر من رقدته وسأل عن الخبر ، فأخبر بذلك ، فعجب وقال : أردت أمرا وأراد اللّه غيره ، ويأبى الله الا ما يريد ، أردت طول بقائها وأراد الله سرعة فنائها وخرابها ، وتداول الملوك ايها .

وان الاسكندرية لما أحكم بنيانها ، وأثبت أساسها ، وجن الليل عليهم ! خرجت دواب من البحر فأتت على جميع ذلك البنيان ، فقال الاسكندر حين أصبح : هذا بدء الخراب في عمارتها ، وتحقق مراد الباري في زوالها ، وتطير من فعل الدواب .

فلم يزل البناء يبنى في كل يوم ويحكم ، ويوكل به من يمنع الدواب اذا خرجت من البحر ، فيصبحون وقد أخرب البنيان .

فقلق الاسكندر لذلك . وراعه ما رأى ، فأقبل يفكر ما الذي يصنع ، وأي حيلة تنفع في دفع الأذية عن المدينة .

فسنحت له الحيلة في ليلته عند خلوته بنفسه وايراده الأمور واصدارها ، فلما أصبح دعا بالصناع فاتخذوا له تابوتا من الخشب طوله عشرة أذرع في عرض خمس ، وجعلت فيه جامات من الزجاج قد أحاط بها خشب التابوت باستدارتها ، وقد امسك ذلك بالقار والزفت وغيره من الأطلية الدافعة للماء ، حذرا من دخول الماء الى التابوت ، وقد جعل فيها مواضع للحبال .

ودخل الاسكندر في التابوت هو ورجلان معه من كتابه ممن له علم باتقان التصوير ومبالغة فيه ، وأمر أن تسد عليهم الأبواب ، وأن تطلى بما ذكرنا من الأطلية . وأمر فأتى

بمركبين عظيمين فأخرجا الى لجة البحر ، وعلق على التابوت من أسفله مثقلات الرصاص والحديد والحجارة لتهوي بالتابوت سفلا ،اذ كان من شأنه لما فيه من الهواء أن يطفو فوق الماء ولا يرسب في أسفله .

وجعل التابوت بين المركبين فألصقهما بخشب بينهما لئلا يفترقا . وشد حبال التابوت الى المركبين وطول حباله ، فغاص التابوت حتى انتهى الى قرار البحر .

فنظروا الى دواب البحر وحيوانه من ذلك الزجاج الشفاف في صفاء ماء البحر ، فاذا هم بشياطين على مثال الناس : رؤوسهم على مثال رؤوس السباع ، وفي أيدي بعضهم الفؤوس ،وفي أيدي بعض المناشير والمقامع ، يحاكون بذلك صناع المدينة والفعلة وما في أيديهم من آلات البناء .

فأثبت الاسكندر ومن معه تلك الصور وأحكموها بالتصوير في القراطيس ، على اختلاف أنواعها وتشوه خلقتهم وقدودهم وأشكالهم ، ثم حرك الحبال ، فلما أحس بذلك من في المركبين جذبوا الحبال وأخرجوا التابوت .

فلما خرج الاسكندر من التابوت وسار الى مدينة الاسكندرية ، أمر صناع الحديد والنحاس والحجارة فصنعوا تماثيل تلك الدواب على ما كان صوره الاسكندر وصاحباه . فلما فرغوا منها وضعت الصور على العمد بشاطىء البحر ، ثم أمرهم فبنوا .

فلما جن الليل ظهرت تلك الدواب والآفات من البحر . فنظرت الى صورها على العمد مقابلة الى البحر ، فرجعت الى البحر ولم تعد بعد ذلك .

ثم لما بنيت الاسكندرية وشيدت ، أمر الاسكندر أن يكتب على أبوابها :

« هذه الاسكندرية ، أردت أن أبنيها على الفلاح والنجاح واليمن والسعادة والسرور والثبات في الدهور ، فلم يرد الباري عز وجل ملك السموات والأرض ومفني الأمم ان نبنيها كذلك ، فبنيتها وأحكمت بنيانها ، وشيدت سورها .

« وآتاني اللّه من كل شيء علما وحكما ، وسهل لي وجوه الأسباب ، فلم يتعذر علي شيء في العالم مما أردته ، ولا امتنع عني شيء مما طلبته . . . لطفا من اللّه عز وجل ، وصنعا بي ، وصلاحا لي ولعباده من أهل عصري ، والحمد للّه رب العالمين ، لا اله الا الله رب كل شيء » .

ورسم الاسكندر بعد هذه الكتابة كل ما يحدث ببلده من الأحداث بعده في مستقبل الزمان : من الآفات ، والعمران ، والخراب ،وما يؤول اليه الى وقت دثور العالم .

وكان بناء الاسكندرية طبقات ، وتحتها قناطر مقنطرة ، عليها دور المدينة ، يسير

تحتها الفارس وبيده رمح لا يضيق به حتى يدور جميع تلك الآزاج والقناطر التي تحت المدينة ، وقد عمل لتلك العقود والآزاج ، مخاريق ، وتنفسات للضياء ، ومنافذ للهواء .

وقد كانت الاسكندرية تضيء بالليل بغير مصباح ، لشدة بياض الرخام والمرمر ، وأسواقها وشوارعها وأزقتها مقنطرة بها لئلا يصيب أهلها شيء من المطر .

وقد كان عليها سبعة أسوار من أنواع الحجارة المختلفة ألوانها ، بينها خنادق ، وبين كل خندق وسور فصلان ، وربما علق على المدينة شقاق الحرير الأخضر ، لاختطاف بياض الرخام أبصار الناس لشدة بياضه .

فلما أحكم بناؤها ، وسكنها أهلها ، كانت آفات البحر وسكانه ـ على ما زعم الاخباريون من المصريين والاسكندريين ـ تختطف بالليل أهل هذه المدينة ، فيصبحون وقد فقد منهم العدد الكثير .

المال

ولما علم الاسكندر بذلك اتخذ الطلسمات على أعمدة هناك تدعى المسال ، وهي باقية الى هذه الغاية . وكل واحد من هذه الأعمدة على هيئة السروة ، وطول كل واحد منها ثمانون ذراعا ، على عمد من نحاس ، وجعل تحتها صورا وأشكالا وكتابة ،وذلك عند انخفاض درجة من درجات الفلك وقربها من هذا العالم .

وعند اصحاب الطلسمات من المنجمين والفلكيين أنه اذا ارتفعت من الفلك درجة وانخفضت أخرى في مدة يذكرونها من السنين نحو ستمائة سنة ، وتأتي في هذا العالم فعل الطلسمات النافعة المانعة والدافعة .

وقد ذكر هذا جماعة من أصحاب الزيجات والنجوم وغيرهم من مصنفي الكتب في هذا المعنى . ولهم في ذلك سر من أسرار الفلك ليس كتابنا هذا موضعا له ، وغيرهم ممن ذهب الى أن ذلك للطف قوى الطبائع التام وغير ذلك مما قاله الناس .

وما ذكرنا من درج الفلك فموجود في كتب من تأخر من علماء المنجمين والفلكيين ، كأبي معشر البلخي ، والخوارزمي ، ومحمد بن كثير الفرغاني ، وما شاء الله ، وحبش ، واليزيدي ، ومحمد بن جابر البتاني في زيجه الكبير ، وثابت بن قرة ، وغير هؤلاء ممن تكلم في علوم هيئات الفلك والنجوم .

***

منارة الاسكندرية

قال المسعودي : فأما منارة الاسكندرية فذهب الأكثر من المصريين والاسكندرانيين ـ

ممن عني بأخبار بلدهم ـ الى أن الاسكندر بن فيلبيس المقدوني هو الذي بناها على حسب ما قدمنا في بناء المدينة .

ومنهم من رأى أن دلوكة الملكة هي التي بنتها ، وجعلتها مرقبا لمن يرد من العدو الى بلدهم .

ومنهم من رأى أن العاشر من فراعنة مصر هو الذي بناها .

وقد قدمنا ذكر هذا الملك فيما سلف من هذا الكتاب .

ومنهم من رأى أن الذي بنى مدينة رومية هو الذي بنى مدينة الاسكندرية ومنارتها والأهرام بمصر . وانما أضيفت الاسكندرية الى الاسكندر لشهرته بالاستيلاء على الأكثر من ممالك العالم فشهرت به . وذكروا في ذلك أخبارا كثيرة ، يدلون بها على ما قالوا .

والاسكندر لم يطرقه في هذا البحر عدو ، ولا هاب ملكا يرد اليه في بلده ويغزوه في داره ، فيكون هو الذي جعلها مرقبا .

وإن الذي بناها جعلها على كرسي من الزجاج على هيئة السرطان في جوف البحر ، وعلى طرف اللسان الذي هو داخل في البحر من البر ، وجعل على أعلاها تماثيل من النحاس وغيره .

وفيها تمثال قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك ، واذا علت في الفلك فأصبعه مشيرة نحوها ، فاذا انخفضت انخفضت يده سفلا ، يدور معها حيث دارت .

ومنها تمثال يشير بيده الى البحر اذا صار العدو منه على نحو من ليلة ، فاذا دنا وجاز أن يرى بالبصر لقرب المسافة سمع لذلك التمثال صوت هائل يسمع من ميلين أو ثلاثة ، فيعلم أهل المدينة ان العدو قد دنا منهم ، فيرمقونه بأبصارهم .

ومنها تمثال كلما مضى من الليل والنهار ساعة سمعوا له صوتا بخلاف ما صوت في الساعة التي قبلها ، وصوته مطرب .

حيلة هدم المنارة

وقد كان ملك الروم في مدة الوليد بن عبد الملك بن مروان انفذ خادما من خواص خدمه ذا رأي ودهاء سرا ، وجاء مستأمنا الى بعض الثغور ، فورد بآلة حسنة ، ومعه جماعة .

فجاء الى الوليد فأخبره انه من خواص الملك ، وأنه أراد قتله لموجدة وحال بلغته عنه لم يكن لها أصل ، وأنه استوحش منه ، ورغب في الاسلام ، فأسلم على يدي الوليد ، وتقرب

من قلبه ، وتنصح اليه في دفائن استخرجها له من بلاد دمشق وغيرها من الشام بكتب كانت معه فيها صفات تلك الدفائن .

فلما رأى الوليد تلك الأموال والجواهر شرهت نفسه ، واستحكم طمعه ، ،فقال له الخادم : يا أمير المؤمنين ، إن ههنا أموالا وجواهر ودفائن للملوك .

فسأله الوليد عن الخبر .

فقال : « تحت منارة الاسكندرية أموال الأرض ، وذلك أن الاسكندر احتوى على الأموال والجواهر التي كانت لشداد بن عاد وملوك العرب بمصر والشام ، فبنى لها الآزاج تحت الأرض ، وقنطر لها الأقباء والقناطر والسراديب ، وأودعها تلك الذخائر من العين والورق والجواهر ، وبنى فوق ذلك هذه المنارة .

وكان طولها في الهواء ألف ذراع ، والمرآة على علوها والديادبة جلوس حولها ، فاذا نظروا الى العدو في البحر ، في ضوء تلك المرآة صوتوا بمن قرب منهم ، ونصبوا ونشروا أعلاما فيراها من بعد منهم فيحذر الناس وينذر البلد ، فلا يكون للعدو عليهم سبيل » .

فبعث الوليد مع الخادم بجيش وأناس من ثقاته وخواصه فهدم نصف المنارة من أعلاها ، وأزيلت المرآة ، فضج الناس من أهل الاسكندرية وغيرها ، وعلموا أنها مكيدة وحيلة في أمرها .

ولما علم الخادم استفاضة ذلك ، وأنه سينمى الى الوليد ، وأنه قد بلغ ما يحتاج اليه ، هرب في الليل في مركب كان قد أعده ، وواطأ قوما على ذلك من أمره ، فتمت حيلته .

وبقيت المنارة على ما ذكرنا الى هذا الوقت ، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة .

وكان حوالى منارة الاسكندرية في البحر مغاص يخرج منه قطع من الجواهر تتخذ منه فصوص للخواتم يشبه أنواعا من الجواهر : منه الكركهن والأدرك وأشباد جشم .

ويقال : إن ذلك من الآلات التي كان اتخذها الاسكندر للشراب ، فلما مات كسرتها أمه ورمت بها في تلك المواضع من البحر .

ومنهم من رأى أن الاسكندر اتخذ ذلك النوع من الجوهر وغرقه حول المنارة لكيلا يخلو من الناس حولها ، لأن من شأن الجوهر أن يكون مطلوبا أبدا في كل عصر في معدنه ، برا كان أو بحرا ، فيكون الموضع على دوام الأوقات بالناس معمورا .

والأكثر مما يستخرج من الجوهر حول منارة الاسكندرية الأشباد جشم . وقد رأيت كثيرا من أصحاب التلويحات وممن عني بأعمال الجواهر المنسوبة بالمغرب يعمل هذه الجواهر المعروفة بالأشباد جشم ، ويتخذ منه الفصوص وغيرها ، وكذلك الفصوص المعروفة

بالباقلمون ، وهي ترى ألوانا مختلفة من حمرة وخضرة وصفرة ، تتلون في المنظر ألوانا مختلفة على حسب ما قدمنا .

والتلـون من ذلك على حسب الجوهـر في صفائه واختلاف نظر البصر في ادراكـه . وتلون هذا النوع من الجوهر ـ أعني الباقلمون ـ نحو تلون ريش صدر الطواويس ، فانها تتلون ألوانا مختلفة بأذنابها وأجنحتها ، أعني الذكور دون الاناث .

الطواويس

وقد رأيت منها بأرض الهند ألوانا تظهر لحس البصر عند تأملها ، لا تدرك ولا تحصى ، ولا تشبه بلون من الألوان ، لما يترادف من تموج الألوان في ريشها .

ويتأتى ذلك منها لعظم خلقها وكبر أجسامها وسعة ريشها ، لأن للطواويس بأرض الهند شأنا عجيبا ، والـذي يحمل منهـا الى أرض الاسلام ويخرج عن أرض الهند فيبيض ويفرخ تكون صغيرة الأجسام ، كدرة الألوان ، لا تخطف انوار الأبصار بادراكها ، وإنما تشبه بالهندية بالشبه اليسير ، هذا في الذكور منها دون الاناث .

وكذلك شجر النارنج والأترج المـدور ، حمل من أرض الهند الى أرض غيرهـا بعـد الثلثمائة ، فزرع بعمان ثم نقل الى البصرة والعـراق والشام ، حتى كثر في دور الناس بطرسوس وغيرها من الثغور الشامية وأنطاكية وسواحل الشام وفلسطين ومصر ، وما كان يعهد ولا يعرف . . . فعدمت منه الروائح الخمرية الطيبة ، واللون الحسن الذي يوجد فيه بأرض الهند ، لعدم ذلك الهواء والتربة والماء وخاصية البلد .

سر بناء المنارة

ويقال : إن هذه المنارة انما جعلت المرآة في أعلاها ، لأن ملوك الروم بعد الاسكندر كانت تحارب ملوك مصر والاسكندرية ، فجعل من كان بالاسكندرية من الملوك تلك المرآة ترى من يرد في البحر من عدوهم ، إلا أن من يدخلها يتيه فيها الا ان يكون عارفا بالدخول والخروج فيها لكثرة بيوتها وطبقاتها وممارقها .

وقد ذكر ان المغاربة حين وافوا في خلافة المقتدر في جيش صاحب المغرب دخل جماعة منهم على خيولهم الى المنارة فتاهوا فيها .

وفيها طرق تؤول الى مهاو تهوي الى سرطان الزجاج وفيها مخارق الى البحر ، فتهوروا بدوابهم ، وفقد منهم عدد كثير ، وعلم بهم بعد ذلك .

وقيل : إن تهورهم كان في كرسي بها قدامها .

وفيها مسجد في هذا الوقت يرابط فيه في الصيف متطوعة المصريين وغيرهم .

ولبلاد مصر والاسكندرية والمغرب وبلاد الأندلس وروميـة وما في الشرق واليمن والمغرب أخبار كثيرة في عجائب البلـدان والأبنيـة والآثار ، وخواص البقاع ، وما يؤثر في ساكنيها وقطانها ، أعرضنا عن ذكرها ، اذ كنا قد أتينا على الأخبار عنها فيما سلف من كتبنا من عجائب العالم وحيوانه ،وبره وبحره ، فأغنى ذلك عن اعادة ذكره .

ولم نتعرض فيما سلف من هذا الكتاب لذكر بيوت النيران والهياكل المعظمة والبيوت المشرفة وغير ذلك مما يليق بمعناها ، بل نذكرها في الموضع المستحق لها من هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالى .

ذكر السودان وأنسابهم
واختلاف أجناسهم وأنواعهم
وتباينهم في ديارهم وأخبار ملوكهم

ولد كوش بن كنعان ومساكنهم

قال المسعودي : ولما تفرق ولد نوح في الأرض سار ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر ، ثم افترقوا فسارت منهم طائفة ميمنة بين المشرق والمغرب ، وهم النوبة والبجة والزنج ، وسار فريق منهم نحو المغرب ، وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة والكانم ومركه وكوكو وغانة وغير ذلك من أنواع السودان والدمادم .

ثم افترق الذين مضوا بين المشرق والمغرب ، فصارت الزنج من المكير والمشكر وبربرا وغيرهم من أنواع الزنج .

وقدمنا فيما سلف عند ذكرنا للبحر الحبشي الخليج البربري وما عليه من أنواع السودان واتصالهم في دياوهم الى بلاد الدهلك والزيلع وناصع .

وهؤلاء اليوم أصحاب جلود النمور الحمر وهي لباسهم ، ومن أرضهم تحمل الى بلاد الاسلام ، وهي أكبر ما يكون من جلود النمورة وأحسنها للسروج .

وبحر الزنج والأحابش هو عن يمين بحر الهند ، وان كانت مياههما متصلة .

ومن أرضهم يحمل الذبل من ظهور السلاحف ، وهو الذين تتخذ منه الأمشاط كالقرون ، وأكثر ما تكون الدابة المعروفة بالزرافة في أرضهم ، وإن كانت عامة الوجود في أرض النوبة دون سائر بلاد الأحابيش .

الزرافة

وقد تنوزع في نتاج هذا النوع من الدواب المعروف بالزرافة :

فمنهم من رأى أن بدء نتاجها من الأبل .

ومنهم من رأى أن ذلك كان بجمع بين الابل والنمورة ، وأن الزرافة ظهرت من ذلك .

ومنهم من زعم أنه نوع من الحيوان قائم بذاته كقيام الخيل والحمير والبقر ، وأن ليس سبيلها كسبيل البغال المولدة من النتاج بين الخيل والحمير .

وتدعى الزرافة بالفارسية اشتركاو . وقد كانت تهدى الى ملوكهم من أرض النوبة ، كما تحمل الى ملوك العرب ومن مضى من خلفاء بني العباس وولاة مصر .

وهي دابة طويلة اليدين والرقبة ، قصيرة الرجلين ، لا ركبتين لرجليها وانما الركبتان ليديها .

وقد ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان عند ذكر الزرافة كلاما كثيرا في نتاجها ، وأن في أعالي بلاد النوبة يجتمع سباع ووحوش ودواب كثيرة في حمارة القيظ الى شرائع الميـاه : فتتسافد هنالك ، فيلقح منها ما يلقح ويمتنع منها ما يمتنع ، فيجيء من ذلك خلق كثير مختلفون في الصور والأشكال ، منها الزرافة ذات الأظلاف ، وهي دابة منحنية الى خلفها ، منصوبة الظهر الى مؤخرها ، وذلك لقصر رجليها .

وللناس في الزرافة كلام كثير على حسب ما قدمنا في بدء نتاجها .

وان النمور ببلاد النوبة عظيمة الخلق ، وأن الابل صغيرة الخلق قصيرة القوائم .

وأن ذلك كاتساع أرحام القلاص العربية ، لفوالج كرمان وغيرها من ابل خراسان ، فيظهر بينهما ويتولد عنهما الجمال البخت والجمازات ، ولا ينتج بين بختي وبختية .

وانما يصح هذا النوع من الابل بين فوالج الابل (وهي ذات السنامين) وبين قلاص الابل (وهي النوق العربية) وكنتاج البخت بين البجاوية والمهرية .

وللزرافة أخبار كثيرة قد ذكر ذلك صاحب « المنطق » في كتابه الكبير في الحيوان ومنافع أعضائها وغير ذلك من سائر أعضاء الحيوان . وقد أتينا على جميع ما يحتاج اليه من ذلك في كتابنا المترجم بـ« القضايا والتجارب » .

والزرافة عجيبة الفعل في الفها ، وتوددها الى أهلها . وهي كالفيلة : منها وحشية ، ومنها مستأنسة أهلية مع من قدمنا ذكره من الزنوج والأجناس من الأحابش الذين صاروا عن يمين النيل ، ولحقوا بأسافل البحر الحبشي .

وقطعت الزنج دون سائر الأحابش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذي يصب الى بحر الزنج ، فسكنت الزنج في ذلك الصقع ، واتصلت مساكنهم الى بلاد سفالة .

وهي أقاصي بلاد الزنج ، واليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين ، وهـي غايـة مقاصدهم في أسافل بحر الزنج ، كما أن أقاصي بحر الصين متصل ببلاد السيلي ، وقد تقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب ، وكذلك أقاصي بحر الزنج هو بلاد سفالة ، وأقاصيه بلاد الواق واق ، وهي أرض كثيرة الذهب ، كثيرة العجائب ، خصبة حارة .

فليمي ملك الزنج

واتخذها الزنج دار مملكة ، وملكـوا عليهـم ملكـا سموه فليمي ، وهـي سمة لسائر ملوكهم في سائر الأعصار على ما قدمنا آنفا ، ويركب فليمي ـ وهو يملك ملوك سائر الزنوج ـ في ثلثمائة ألف فارس .

ودوابهم البقر ، وليس في أرضهم خيل ولا بغال ولا ابل ، ولا يعرفونها . وكذلك لا يعرفون الثلج والبرد ، ولا غيرهم من الأحابش . ومنهم أجناس محددة الأسنان يأكل بعضهم بعضا .

ومساكن الزنج من حد الخليج المتشعب من أعلى النيل الى بلاد سفالة والواق واق ، ومقدار مسافة مساكنهم واتصال مقاطنهم في الطول والعرض نحو سبعمائة فرسخ أودية وجبال ورمال .

صيد الفيلة

والفيلة في بلاد الزنج في نهاية الكثرة ، وحشية كلها غير مستأنسة ، والزنج لا تستعمل منها شيئا في حروب ولا غيرها ، بل تقتلها .

وذلك أنهم يطرحون لها نوعا من ورق الشجر ولحائه وأغصانه يكون بأرضهم في الماء ، ويختفي رجال الزنج . فترد الفيلة لشربها ، فاذا وردت وشربت من ذلك الماء حرقها وأسكرها ، فتقع ـ ولا مفاصل لقوائمها ولا ركب على حسب ما قدمنا ـ فيخرجون اليها بأعظم ما يكون من الحراب فيقتلونها لأخذ أنيابها . . .

فمن أرضهم تجهز أنياب الفيلة ، في كل ناب منها خمسون ومائة من ، بل أكثر من ذلك ، والاثنان منها ثلثمائة من ، واكثر من ذلك ، فيجهز الأكثر منها من بلاد عمان الى أرض الصين والهند ، وذلك أنها تحمل من بلاد الزنج الى عمان ، ومن عمان الى حيث ذكرنا ، ولولا ذلك لكان العاج بأرض الاسلام كثيرا .

وأهل الصين يتخذ ملوكها وقوادها وأراكنتها الأعمدة من العاج . ولا يدخل قوادها ولا أحد من خواصها على ملوكها بشيء من الحديد ، بل بتلك الأعمدة المتخذة من العاج . ورغبتهم فيما استقام من أنياب الفيلة ولم يتقوس ، لاتخاذ الأعمدة منها على ما ذكرنا .

ويستعمل العاج في دخن بيوت أصنامها وأبخرة هياكلها ، كاستعمال النصارى في الكنائس الدخنة المعروفة بدخنة مريم وغيرها من الأبخرة .

وأهل الصين لا يتخذون الفيلة في أرضهم ، ويتطيرون من اقتنائها عندهم والحرب عليها ، لخبر كان لهم في قديم الزمان في بعض حروبهم .

والهند كثيرة الاستعمال لما يجهز اليهم من العاج في نصب الخناجر ، وهي الحراري ، واحدها حري ، وفي قوائم سيوفها ، وهي القراطل ، واحدها قرطل ، وهي سيوف معوجة .

لعب الشطرنج ومقامرة الهندية

والأغلب في استعمال الهند العاج اتخاذها منه الشطرنج والنرد . والشطرنج ذو صور

وأشكال على صور الحيوان من الناطقين وغيرهم ، كل قطعة من الشطرنج كالشبر في عرض ذلك بل أكثر ، فاذا لعبوا بها فانما يقوم الواحد منهم قائما فينقلها في بيوتها .

والأغلب عليهم القمار في لعبهم بالشطرنج والنرد على الثياب والجواهر .

وربما أنفذ الواحد منهم ما معه فيلعب في قطع عضو من أعضاء جسمه . وهو أن يجعلوا بحضرتهم قدرا من النحاس صغيرة على نار فحم فيها دهن لحم أحمر ، فيغلي ذلك الدهن المدمل للجراح والماسك لسيلان الدم .

فاذا لعب في أصبع من أصابعه وقمر ، قطعها بذلك الخنجر ، وهو مثل النار ، ثم غمس يده في ذلك الدهن فكواها ثم عاد الى لعبه . فاذا توجه عليه اللعب أبان أصبعا ثانية .

وربما توجه عليه اللعب في قطع الأصابع والكف ثم الذراع ، والزند وسائر الأطراف ، وكل ذلك يستعمل فيه الكي بذلك الدهن .

وهو دهن عجيب يعمل من أخلاط وعقاقير بأرض الهند عجيب المعنى ، لما ذكرنا ، وما ذكرناه عنهم فمستفيض من فعلهم .

الفيل ببلاد الهند

والهند تتخذ الفيلة في بلادها وتتناتج في أرضها ، ليس فيها وحشية ، وإنما هي حربية ومستعملة كاستعمال البقر والابل ، وأكثرها يأوي الى المروج والضياع والغياض كالجواميس في أرض الاسلام .

والفيلة تهرب من المكان الذي يكون فيه الكركدن على حسب ما قدمنا ، فلا ترعى في موضع تشم فيه رائحة الكركدن .

ويعمر الفيل بأرض الزنج نحوا من أربعمائة سنة ، كذلك يذكر الزنج ، لأنها تعرف في ديارها ومفاوزها ، والفيل العظيم مما لا يتأتى لهم قتله . ومنها الأسود والأبيض والأبلق والأغبر . وفي أرض الهند منها ما يعمر المائة سنة والمائتين ، ويضع حمله في كل سبع سنين .

حيوان الزبرق

ولها بأرض الهند آفة عظيمة من نوع من الحيوان يعرف بالزبرق ، وهو دابة أصغر من الفهد ، أحمر ، ذو زغب وعينين براقتين ، عجيبة ، سريع الوثبة ، يبلغ في وثبته الثلاثين والأربعين والخمسين ذراعا وأكثر من ذلك .

فاذا أشرف على الفيل ، رشش عليه بوله بذنبه فيحرقه ، وربما لحق الانسان فأتى عليه . وفي الهند من اذا أشرفت عليه هذه الدابة تعلق بأكبر ما يكون من شجر الساج ، وهي أكبر من النخل وأكبر من شجر الجوز ، تكن الشجرة منها الخلق الكثير من الناس وغيرهم من

الحيوان ، على حسب ما يحمل الى البصرة والعراق ومصر من خشب الساج في طوله .

فاذا تعلق الانسان بأعلى تلك الشجرة وعجز هذا الحيوان عن ادراكه ، لصق بالأرض ووثب الى أعلى الشجرة : فإن لم يلحق الانسان في وثبته ، رشش من بوله الى أعلى الشجرة ، والا وضع رأسه في الأرض وصاح صياحا عجيبا ، فيخرج من فيه قطع دم ويموت من ساعته . وأي موضع من الشجر سقط عليه بوله أحرقه ، وان أصاب الانسان شيء من بوله أتلفه ، وكذلك سائر الحيوان .

وملوك الهند تتخذ في خزائنها مرارة هذه الدابة ، ومذاكيره ، ومواضع من أعضائه ، وهو السم القاتل من ساعته ، ومنه ما يسقى به السلاح فيتلف من فوره .

ومذاكير هذه الدابة كمذاكير كلب الماء الذي يخرج منه الجند بادستر ، وهذا الكلب أمره مشهور عند الصيادلة وغيرهم . وهو اسم فارسي معرب ، وإنما هو كند ـ وتفسير ذلك الخصية ـ فعرب فقيل : جند بادستر .

والدابة المتقدم ذكرها المعروفة بالزبرق لا تأوي الى موضع يكون فيه النوشان ، وهو الكركدن ، وتهرب منه كما يهرب منه الفيل أيضا .

والفيل يهرب من السنانير ، وهي القطاط ، ولا يقف لها البتة اذا أبصرها .

وقد ذكر عن ملوك الفرس أنها كانت توقي الفيلة المقاتلة بالرجالة حولها ومراعاة حيل الأعداء عند الحرب بتخلية السنانير عليها ، وكذلك أفعال ملوك السند والهند الى هذه الغاية .

وقد ذكر أن الخنازير ربما تهرب منها الفيلة .

وقد كان رجل بالمولتان من أرض السند يدعى هارون بن موسى مولى الأزد ، وكان شاعرا شجاعا ذا رياسة في قومه ومنعة بأرض السند مما يلي أرض المولتان ، وكان في حصن له ، فالتقى مع بعض ملوك الهند وقد قدمت الهند أمامها الفيلة .

فبرز هارون بن موسى أمام الصف ، وقصد لعظيم من الفيلة وقد خبأ تحت ثوبه سنورا ، فلما دنا في حملته من الفيل خلى القط عليه ، فولى الفيل منهزما لما بصر بذلك الهر ، وكان ذلك سبب هزيمة الجيش ، وقتل الملك ، وغلبة المسلمين عليهم .

ولهارون بن موسى قصيدة يصف فيها ما ذكرناه ، وهي :

أليس عجيبا بأن تلقه ... له فطن الأسد في جرم فيل
وأطرف من نسبه زوله ... بحلم يجل عن الخنشبيل

أليس عجيبا بأن تلقه غليظ الـدراك لطيف الحويل
وأرقص مختلف خلقه طويـل النيـوب قصير النصيل
ويخضع لليـث ليـث العرين فان ناشب الهر من رأس ميل
ويلقى العـدو بناب عظيم وجوف رحيـب وصوت ضئيل
وأشبه شيء اذا قسته بخنزيـر بر وجاموس غيل
ينازعـه كل ذي أربع فما في الأنام له من عديل
ويعصف بالببر بعـد النمور كما تعصف الريـح بالعندبيل
وشخص ترى يده أنفه فان وصلـوه فسيف صقيل
وأقبل كالـطود هادي الخميس بصوت شديـد أمام الرعيل
فمر بسيـل كسيـل الأتي بخطو خفيـق وجرم ثقيل
فان سمته زاد في هوله بشاعـة أذنين في رأس غول
وقد كنت أعـددت هرا له قليـل التهيـب للزندبيل
فلما أحس به في العجاج أتانا الالـه بفتح جليل
وطار وراغـم فياله بقلـب نخيـب وجسم ثقيل
فسبحان خالقه وحده إلـه الأنام ورب الفيول

العندبيل : طائر صغير يكون بأرض السند والهند ، تذكره الشعراء في أشعارها تمثلا به لصغره .

والزندبيل : هو العظيم من الفيلة والمقدم فيها . وقد قيل : ان الزندبيل هو اسم لما اشتد في الحرب من إناث الفيلة .

وقد ذكر بعض الشعراء في هذا المعنى الزندبيل عند ذكره للفيل ، فقال :

ذاك الـذي مشفره طويل وهـو من الأفيـال زندبيل

وقال آخر :

*وفيله كالطود زندبيل *

وقد ذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الحيـوان هذه القصيـدة ، وفسر بعض أبياتها ، وذكر في معنى الخنشبيل وتفسيره قول الأنصاري في صفة النحل :

تبيض العشاء بأذنابها وفي مدر الأرض عنهـا فضول
ويشبعهـا المص مص الثرى اذا جاعـت الشاة والخنشبيل

قال : وهذا غير قوله :

قد علمت جاريـة عطبول أني بنصل السيف خنشبيل

والفيلة لا تنتج ولا تتوالد الا بأرض الزنج والهند ، ولا تعـظم أنيـابها بأرض السند والهند على حسب ما تعظم بأرض الزنج .

والزنج تتخذ من جلود الفيلة الدرق ، وكذلك الهند . ولا يلحق ذلك في المنعة شيء من الدرق الصيني والتبتي ، واللمطي والبجاوي ، ولا ما نقع في اللبن وغير ذلك من أنواع الدرق .

وخرطومه أنفه ، وبه يوصل الطعام والشراب الى جوفه ، وهو شيء بين الغضروف واللحم والعصب ، وبه يقاتل ويضرب ، ومنه يصيح ، وليس صوت الفيل على مقدار عظم جسمه وكبر خلقه .

عناية المنصور بالفيلة

وقد كان المنصور عني بجمع الفيلـة لتعظيـم الملـوك السالفة اياهـا واقتنائهـا لها ، واعدادها للحروب والزينة في الأعياد وغيرها ، فانها أوطأ مراكب الملوك وأمهدها .

وأخبرني بعض الكتاب ممن يرجع الى أدب وعقل ومعرفة بأيام الناس بمدينة السلام ، أنه اشترى بغلة في غاية الفراهة والحسن ، فكان يركبها في مهماته وتصرفاته ، وكانت اذا رأت الجمال البخت أو العراب من العمالة أو غيرها في الطريق نفرت وشبت . وكان يلقى منهـا جهدا جهيدا فيصبر على ذلك المكروه ، لما هي عليه من الفراهة والحسن ، وأنه لا يحملـه غيرها لعظم جسمه وكبر بطنه وسمنه .

قال : فلما كان في بعض الأيام اجتزت بباب الـطاق ـ وذلك في أيـام المقتدر ، وقد أخرج الفيلة للرياضة والتمهيد ، وليحمل عليها الليث بن علي الصفار وأصحابه ، وقد كان مؤنس المظفر الخادم أسره ببلاد فارس حين خرج على السلطان .

قال : فأشرفت على قطار من الجمال البخت منهـزمة خائفة من الفيـل ، تجمز في مشيتها ، لا سبيل لمن عليها أن يحبسها لما قد لحقها من الجزع . فلما رأت البغلة ذلك شبت

وولت على عقبها ، ورمت بي الأرض فوقعت كجلد ثور منفوخ ، ودخلت الجمال الى درب لا ينفذ .

وقد كانت البغلة حين رمت بي ونفرت من الجمال دخلت ذلك الدرب ، وجاءت الفيلة على أثر ذلك . فلما نظرت البغلة الى الفيلة وعظم خلقها ، لحقت بالجمال ودخلت بينها كأنها لم تزل معها ، وتزلزلت كتزلزل الجمال .

إذ رآني جماعة من الناس ، فرفعوني ، ودخل الغلام فأخرج البغلة ، وما استطاع اخراجها حتى مضت الفيلة ، وأخرجت في وسط بعض الجمال . . . فوالله ما نفرت بعد ذلك من جمل ، ولقد ألفت الجمال حتى كأنها بعضها ، لاستصغارها صورة الجمل عندما شاهدت من عظم صورة الفيل .

عود الى وصف الفيل

وكل حيوان ذي لسان فأصل لسانه الى داخل ، وطرفه الى خارج ، الا الفيل ، فان طرف لسانه الى داخل وأصله الى خارج .

والهند تزعم أنه لولا أن لسانه مقلوب ثم لقن الكلام لتكلم .

والهند تشرف الفيل وتفضله على سائر الحيوان ، لما اجتمع فيه من الخصال المحمودة : من علو سمكه ، وعظم صورته ، وبديع منظره ، واتصال صهوته ، وطول خرطومه ، وسعة أذنه ، وكبر غرموله ، مع خفة وطئه ،وطول عمره ، وثقل جسمه ، وقلة اكترائه بما وضع على ظهره ، وأنه ـ مع كبر هذا الجسم وعظم هذه الصورة ـ يمر بالانسان فلا يحس بوطئه ، ولا يشعر به حتى يغشاه لحسن خطوته واستقامة مشيه .

وقد وصف عمرو بن بحر الجاحظ الفيل في كتاب الحيوان فأغرق في وصفه ، وأكثر في مدحه ، وعدد معاني كثيرة في صفة الفيل وهيئته ، وما هو عليه من عجيب التركيب وغريب التأليف ، والمعاني الصحيحة ، والاحساسات اللطيفة ، وفي قبولها التأديب وصحة تمييزها وسرعتها الى التلقين والتقويم ،وما في أبدانها من الأعضاء الكريمة ، والأجزاء الشريفة ، وكم مقدار منافعها ، ومبلغ مضارها ، وبتلك الفضيلة من الاحساس فاقت تلك الأجناس ، وما فيها من الآيات والبرهانات والعلامات النيرات التي جلاها الله لعيون خلقه ، وفرق بينها وبين عقول عباده ، وقيدها عليهم ، وحفظها لهم ، لتكثر لهم ، وتزيد بهم الى وضوح الحجة ، وتسخرهم لتمام النعمة ، وما ذكر الله في الكتاب الناطق والخبر الصادق ، وفي الآثار المعروفة ، والأمثال المضروبة ، والتجارب الصحيحة ، وما قالت الشعراء فيه ، ونطقت به الفصحاء ، وميزته العلماء ، وعجبت منه الحكماء ، وحالها عند الملوك وموضع

نفعها عند الحروب ، وتباينها في العلوم ، وجلالتها في الصدور ، وفي طول أعمارها ، وقوة أبدانها ، وفي اعتزامها وتصميمها وأحقادها وشدة اكترائها ، وطلبها بطوائلها ، وارتفاعها عن ملك السقاط واقتناء السفلة والأراذل وعن ارتخاصها في الثمن ، وارتباطها على الخسف ، وابتذالها ، واذلالها ، وعن امتناع طبائعها ، وتمنع غرائزها أن تصلح أبدانها وتنبت أنيابها وتعظم جوارحها وتتسافد وتتلاقح الا في معادنها وبلادها ومغارس أعراقها ، مع التماس الملوك ذلك منها ، وطمع القوم عليها بالتقرب بذلك منها ، حتى أعجزت الحيل ، وخرجت عن حد الطمع ، وعن الأخبار عن حملها ووضعها ومواضع أعضائها ، والذي خالفت فيه الأشكال الأربعة التي تحيط بالجميع مما يستناخ أو يقوم أو يمشي أو يطير ، وجميع ما ينتقل عن أولية خلقه ، وما يبقى على الطبع الأول من صورته ، وعما يتنازعه من شبه الحيوان ، وما يخالف فيه جميع الحيوان ، وعن القول في شدة قلبه وأسره وفي حدته على ما هو أعظم بدنا وأشد قلبا وأحد ظفرا وأذرب لسانا ، وهربه مما هو أصغر جسما ، وأكل حدا ، وأضعف أسرا ، وأخمل ذكرا ، وعن الأخبار عن خصاله المذمومة ، وأموره المحمودة ، وعن القول في لونه وجلده وشعره ولحمه وشحمه وعظمه وبوله ونجوه ، وعن لسانه وفمه ، مع ذلك من المواعيد الكثيرة التي تضمن ايرادها .

فلما انتهى الى موضع نظمها وايراد وصفها وما أسلفه من القول في هذه المعاني التي قدمها أورد جوامع متفرقة ، ولمعا غير متسقة في الفيلة وغيرها .

وأعرض عن ايراد خواص أعضائها ، وأكثر منافعها ، وعجيب خصالها ، وما ذكر من أسرار الطبيعة فيها ، وما قالته فلاسفة الهند في بدئها ، وما أثرته عمن تقدم من حكمائها في بدء أوليتها وعلة تكونها في أرض الزنج والسند ، دون سائر البقاع من الأرض ، والسبب المانع لتكونها في غيرها ، والتضاد الذي بينها وبين الكركدن مع عظم خلقها ، وفرارها من السنور ، مع صغر حجم جسمه ولطافة منظره ، وعن كثرة الطرب الذي يوجد في الفيل دون غيره من الحيوان ، وقبولها الرياضة والدربة والمعرفة عند المحاورة ، والدهاء ، والخبث ، والتمييز .

وقد ذكر صاحب « المنطق » في كتاب الحيوان جملا كثيرة من خصال الفيل ومنافع أعضائه ، وسلك طريقة لم يسلكها من تقدم من حكماء الهند في الفيل .

وما ذهب اليه حكماء الهند من أن العالم بما فيه من الأجسام على جهات ثلاث : متفق ، ومختلف ، ومضاد . وأن ذلك في الجملة هو جماد ونام ، واخراجهم عن العالم الأفلاك والنجوم والبروج وغير ذلك من الأجسام السماوية ، وأنها ليست بجماد ولا نام ، وأنها أحياء ناطقة .

عود الى وصف الزنج

قال المسعودي : فلنرجع الآن الى ما كنا فيه آنفا في صدر هذا الباب ، من ذكر الزنج وبلادهم وغيرهم من أنواع الأحابش .

فالزنج مع كثرة اصطيادها لما ذكرنا من الفيلة وجمعها لعاجها ، غير منتفعة بشيء من ذلك في آلاتها ، وإنما تتحلى الزنج بالحديد بدلا عن الذهب والفضة .

وما ذكرنا من دوابهم أنها بقر ، وأنهم عليها يتقاتلون بدلا من الابل والخيل ، وهي بقر تجري كالخيل بسروج ولجم .

البقر والجواميس

ورأيت بالري نوعا من هذا البقر يبرك كما يبرك الجمل ، ويثور بحمله كما تثور الابل اذا استقلت بأحمالها .

وهذا النوع من البقر يحمل عليه الميتة من الحيوان كالخيل والابل والحمير والبغال ، وملاكها نوع من المجوس مزدقية ، ولهم خارج الري قرية لا يسكن معهم فيها غيرهم .

فاذا مات بالري أو قزوين شيء مما ذكرناه من البهائم ، ورد الواحد منهم مع ثورة فأناخه وحمل عليه تلك الجيفة وسار بها الى قريته . . . فأكلهم منها ، وبنيانهم من عظامها ، ويجففون من لحمها ما يدخرونه لشتائهم ، فأكثر أكلهم وأكل بقرهم من تلك اللحمان رطبا ويابسا .

وهذا النوع من البقر الغالب عليه حمرة الحدق ، وسائر البقر تنفر وتهرب من هذا البقر .

ورأيت بأصبهان وقم منها ما في أنوفها حلق الحديد والصفر ، قد خزمت فيها الجمال ، وخطمت بها كما يفعل بالجمال البخت .

وكذلك بالري رأيت ثورا منها قد عدا نحو ثور من غير هذا النوع ، فلما رآه قد قصده قام فزعا من هذا الجنس .

وليس في سائر أنواع البقر ما يأوي المياه والجزائر والبحيرات الا البقر المعروف بالحبشية التي تكون ببلاد مصر وأعمالها ، وبحيرة تنيس ودمياط وما اتصل بتلك الديار .

وأما الجواميس فانها بالثغر الشامي تجر أكبر ما يكون من العجل ، في أنوفها حلق الحديد والصفر على ما ذكرنا من البقر ، وكذلك منها ببلاد أنطاكية ، وأكثر ذلك ببلاد السند والهند وطبرستان .

وقرون تلك البقر أكبر من قرون هذه الجواميس التي بأرض الاسلام ، وطول القرن منها نحو الذراع والذراعين .

وكذلك الجواميس كثيرة بأرض العراق مما يلي طفوف الكوفة والبصرة والبطائح وما اتصل بهذه الديار .

والناس يذكرون عنقاء مغرب ، ويصورون العنقاء في الحمامات وغيرها ، ولم أجد أحداً في هذه الممالك ممن شاهدته أو نمي الي خبره ذكر أنه رآها . ولست أدري كيف ذلك ، ولعله اسم لا مسمى له .

تفسير لقب ملك الزنج

ولنرجع الآن الى أخبار الزنج وأخبار ملوكها : فأما تفسير ملك الزنج الذي هو فليمي ، فمعنى ذلك ابن الرب الكبير ، لأنه اختاره لملكهم والعدل فيهم .

فمتى جار الملك عليهم في حكمه وحاد عن الحق ، قتلوه وحرموا عقبه الملك .

ويزعمون أنه اذا فعل ذلك فقد بطل أن يكون ابن الرب الذي هو ملك السموات والأرض . ويسمون الخالق عز وجل ملكنجلو ، وتفسيره الرب الكبير .

والزنج أولو فصاحة في ألسنتهم ، وفيهم خطباء بلغتهم ، يقف الرجل الزاهد منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم ، ويرغبهم في القرب من بارئهم ، ويبعثهم على طاعته ، ويرهبهم من عقابه وصولته ، ويذكرهم من مضى من ملوكهم وأسلافهم .

وليس لهم شريعة يرجعون اليها ، بل رسوم لملوكهم ، وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهم .

وأكلهم الموز ، وهو ببلادهم كثير ، وكذلك بأرض الهند .

والغالب على أقوات الزنج الذرة ، ونبت يقال له الكلاري يقلع من الأرض كالكمأة والراسن ، ومنه كثير ببلاد عدن وما اتصل بها من أرض اليمن ، ويشبه هذا الكلاري القلقاس الذي يكون بالشام ومصر .

ومن غذائهم أيضا العسل واللحم . ومن هوى منهم شيئا من نبات أو حيوان أو جماد يجله .

وجزائرهم في البحر لا تحصى كثرة ، وفيها النارجيل يعم أكله سائر الزنج . ومن بعض تلك الجزائر جزيرة بينها وبين ساحل الزنج نحو من يوم أو يومين ، فيها خلائق من المسلمين يتوارثها ملوك من المسلمين ، يقال لها قنبلو ، على حسب ما ذكرنا من أمرها في هذا الكتاب .

مساكن النوبة

وأما النوبة فافترقت فرقتين :

فرقة في شرق النيل وغربيه ، وأناخت على شطيه ، فاتصلت ديارها بديار القبط من أرض مصر والصعيد من بلاد أسوان وغيرها ، واتسعت مساكن النوبة على شاطىء النيل مصعدة ، ولحقوا بقريب من أعاليه ، وبنوا دار مملكة ، وهي مدينة عظيمة تدعى دنقلة .

والفريق الآخر من النوبة يقال لهم علوة ، وبنوا مدينة عظيمة وسموها سرية .

***

قال المسعودي : وانتهيت في تصنيفي الى هذا الموضع من كتابنا هذا في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة ، وكنت بفسطاط مصر ، فأخبرت أن الملك في مدينة دنقلة للنوبة كابل بن سرور . وهو ملك ابن ملك ابن ملك . . . فصاعدا . وملكه يحتوي على ماقرة وعلوة . والبلد المتصل بمملكته بأرض أسوان يعرف بمريس ، واليه تضاف الريح المريسية . وعمل هذا الملك متصل بأعمال مصر من أرض الصعيد ومدينة أسوان .

البجة

وأما البجة فانها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر ، وتشعبوا فرقا ، وملكوا عليهم ملكا . وفي أرضهم معادن الذهب ، وهو التبر ، ومعادن الزمرد ، وتتصل سراياهم ومناسرهم على النجب الى بلاد النوبة ، فيغيرون ويسبون .

وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجة ، الى أن قوي الاسلام وظهر ، وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقي وعيذاب ، وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، فاشتدت شوكتهم ، وتزوجوا في البجة .

فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة ، وقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مضر بن نزار ممن سكن تلك الديار .

وصاحب المعدن في وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) أبو مروان بشر بن اسحاق . وهو من ربيعة ، يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مضر واليمن ، وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة بالحجف البجاوية ، وهم الحدارية ، وهم المسلمون ممن بين سائر البجة ، وباقي البجة كفار يعبدون صنما لهم .

الحبش

وأما الحبشة فاسم مملكتهم كعبر ، وهي مدينة عظيمة ، وهي دار مملكة النجاشي . وللحبشة مدن كثيرة وعمائر واسعة ، يتصل ملك النجاشي بالبحر الحبشي . ولهم ساحل لهم فيه مدن كثيرة ، وهو مقابل لبلاد اليمن ، فمن مدن الحبشة على الساحل الزيلع والدهلك وناصع ، وهذه مدن فيها خلق من المسلمين الا انهم في ذمة الحبشة .

وبين ساحل الحبشة ومدينة غلافقة ـ وهي ساحل زبيد من أرض اليمن ـ ثلاثة أيام عرض البحر بين الساحلين ، ومن هذا الموضع عبرت الحبشة البحر حين ملكت اليمن في أيام ذي نواس ، وهو صاحب الأخدود المذكور في القرآن .

وصاحب زبيد في وقتنا هذا ابراهيم بن زياد صاحب الحرملي ومراكبه تختلف الى ساحل الحبشة ، وتركب فيها التجار بالأمتعة ، وبينهم مهادنة .

وهذا الموضع من البحر بين هذين الشطين ـ أعني ساحل اليمن وساحل الحبشة ـ أقل المواضع فيه عرضا ، وهنالك جزائر بين هذين الساحلين : منها جزيرة العقل ، يقال : إن فيها ماء يعرف بماء العقل ، يستسقي منه أرباب المراكب ، ويفعل في القرائح والذكاء فعلا جميلا .

وقد ذكر بعض الفلاسفة المتقدمين ما يفعل هذا الماء وما له من الخواص ، وذكر علة ذلك .

وقد أتينا على الخبر في كتابنا « أخبار الزمان » عند ذكرنا لأخبار المتطببين في تجاربهم ، وما كان من قضاياهم في علاجاتهم ممن سلف قبل ظهور الاسلام وغيرهم ممن اتصل بالملوك والخلفاء بعد ظهور الشرع .

وقد غلب ابن زياد على هذه الجزيرة ، وله في هذا الوقت رجال مرتبون فيها من أصحابه .

جزيرة سقطرة وسكانها

وفي هذا البحر مما يلي بلاد عدن جزيرة تعرف بسقطرة ، اليها يضاف الصبر السقطري ، ولا يوجد الا فيها ، ولا يحمل الا منها .

وقد كان أرسطاطاليس بن نقوماخس كتب الى الاسكندر بن فيليبس حين سار الى الهند في أمر هذه الجزيرة يوصيه بها ، وأن يبعث اليها جماعة من اليونانيين يسكنهم فيها من أجل الصبر السقطري الذي يقع في الأيارجات وغيرها .

فصير الاسكندر الى هذه الجزيرة خلقا من اليونانيين أكثرهم من مدينة أرسطاطاليس ابن نقوماخس ، وهو مدينة اسطاغر ، في المراكب بأهليهم في بحر القلزم ، فغلبوا على من كان بها من ملوك الهند ، وملكوا الجزيرة .

وكان للهند بها صنم عظيم ، فنقل ذلك الصنم في أخبار يطول ذكرها .

وتناسل من بالجزيرة من اليونانيين فيها ، ومضى الاسكندر ، فظهر المسيح فتنصر من كان بها الى هذا الوقت ، وليس في الدنيا ، والله أعلم ، موضع فيه قوم من اليونانيين

يحفظون أنسابهم لم يداخلهم في أنسابهم رومي ولا غيرهم غير أهل هذه الجزيرة .

وهم في هذا الوقت تأوي اليهم بوارج الهند الذين يقطعون على المسلمين في هذه البوارج (وهي المراكب) على من أراد الصين والهند وغيرها ، كما يقطع الروم في الشواني على المسلمين في البحر الرومي من ساحل الشام ومصر .

ويحمل من جزيرة سقطرة الصبر السقطري وغيره من العقاقير .

ولهذه الجزيرة أخبار عجيبة ، ولما فيها من خواص النبات والعقاقير ، قد أتينا على كثير من ذكرها فيما سلف من كتبنا .

بقية اجناس السودان

وأما غير هؤلاء من الحبشة الذين قدمنا ذكرهم ممن أمعن في المغرب ، مثل الزغاوة والكوكو والقراقر ومديدة ومريس والمبرس والملانة والقوماطي ودويلة والقرمة ، فلكل واحد من هؤلاء وغيرهم من أنواع الأحابش ملك ، ودار مملكة .

وقد أتينا على ذكر جميع أجناس السودان وأنواعهم ومساكنهم ومواضعها من الفلك ، ولأية علة تفلفلت شعورهم واسودت ألوانهم ، وغير ذلك من أخبارهم وأخبار ملوكهم وعجائب سيرهم وتشعبهم في أنسابهم ، في كتابنا « أخبار الزمان » في الفن الأول من جملة الثلاثين فنا ، ثم في الكتاب الأوسط مما لم نذكره في كتابنا « أخبار الزمان » من أخبارهم ، وذكرنا في هذا الكتاب ما لا يسع ترك ايراده فيه ولا تعريته منه .

***

بين النوبة وفاتح مصر

قال المسعودي : وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما افتتح عمرو بن العاص مصر كتب اليه بمحاربة النوبة ، فغزاهم المسلمون فوجدوهم يرمون الحدق .

وأبى عمرو بن العاص أن يصالحهم ، حتى صرف عن مصر ، ووليها عبد الله بن سعد ، فصالحهم على رؤوس من السبي معلومة ، مما يسبي هذا الملك المجاور للمسلمين من غيرهم من ممالك النوبة المقدم ذكرها فيما سلف من صدر هذا الباب المدعو بملك مريس وغيرها من أرض النوبة .

فصار ما قبض منه من السبي سنة جارية في كل سنة الى هذه الغاية يحمل الى صاحب مصر .

ويدعى هذا السبي في العربية بأرض مصر والنوبة بالبقط ، وعدد ذلك ثلثمائة رأس وخمس وستون رأسا ، وأراه رسم على عدد أيام السنة .

هذا لبيت مال المسلمين بشرطة الهدنة بينهم وبين النوبة .

وللأمير بمصر غير ما ذكرنا من عدد السبي أربعون رأسا .

ولخليفته المقيم ببلاد أسوان المجاورة لأرض النوبة ـ وهو المتولي لقبض هذا البقط ، وهو السبي ـ عشرون رأسا غير الأربعين .

وللحاكم المقيم بأسوان الذي يحضر مع أمير أسوان قبض البقط خمسة رؤوس غير العشرين التي يقبضها الأمير .

ولاثني عشر شاهدا عدولا من أهل أسوان يحضرون مع الحاكم حين قبض البقط أثنا عشر رأسا من السبي . . . .

حسب ما جرى به الرسم في صدر الاسلام في بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة .

والموضع الذي يتسلم فيه هذا البقط ويحضره من سميناه وغيرهم من النوبة من ثقات الملك يعرف بالقصر ، وهو على ستة أميال من مدينة أسوان بالقرب من جزيرة بلاق .

وبلاق هذه مدينة في الموضع المعروف بالجنادل من الجبال والأحجار . وهذه المدينة في هذه الجزيرة يحيط بها ماء النيل كاحاطة ماء الفرات بالمدن التي في الجزائر الكائنة بين رحبة مالك بن طوق ، وهيت ، وهي ناوسة وعانة والحديثة .

وفي مدينة بلاق خلق كثير من الناس ومنبر ، ونخل كثير في كلا الشطين . وهذه المدينة اليها تنتهي سفن النوبة وسفن المسلمين من بلاد مصر وأسوان .

ومدينة أسوان يسكنها كثير من العرب من قحطان ونزار بن معد من ربيعة ومضر وخلق من قريش ، وأكثرهم ناقلة من الحجاز وغيره .

والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير تودع النواة الأرض فتنبت نخلة ، ويؤكل من ثمرها بعد سنتين .

وليست تربتهم كتربة البصرة ولا الكوفة ولا غيرهما من أرض النخل ، لأن النخل بالبصرة لا ينبت من النوى ، بل ينبت من الثال والفسيل ، وهو النخل الصغير ، وما يخرج من النواة فليس يثمر ولا يفلح .

ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة يؤدون خراجها الى ملك النوبة . وابتيعت هذه الضياع من النوبة في صدر الزمان في دولة بني أمية وبني العباس .

وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفد أوفدهم الى الفسطاط ، ذكروا عنه أن ناسا من أهل مملكته وعبيده باعوا ضياعا من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان ، وأنها ضياعه والقوم عبيده ولا أملاك لهم ، وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها .

فرد المأمون أمرهم الى الحاكم بمدينة أسوان ومن بها من أهل العلم والشيوخ .

وعلم من ابتاع هذه الضياع من أهل أسوان أنها ستنتزع من أيديهم ، فاحتالوا على ملك النوبة بأن تقدموا الى من ابتاع منهم من أهل النوبة أنهم اذا حضروا حضرة الحاكم ألا يقروا لمليكهم بالعبودية ، وأن يقولوا : سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم ، تجب علينا طاعته وترك مخالفته ، فان كنتم أنتم عبيدا لملككم وأموالكم له فنحن كذلك .

فلما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب الملك أتوا بهذا الكلام للحاكم أو نحوه مما وقفوا عليه من هذا المعنى .

فمضى البيع لعدم اقرارهم بالرق لملكهم الى هذا الوقت ، وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس .

وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك نوعين : نوع ممن وصفنا أحرار غير عبيد ، والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد ، وهم من سكن النوبة في غير هذه البلاد المجاورة لأسوان ، وهي بلاد مريس .

معدن الزمرد وأنواعه

ومعدن الزمرد في عمل الصعيد الأعلى من أعمال مدينة قفط ، ومنها يخرج الى هذا المعدن . والموضع الذي فيه الزمرد يعرف بالخربة مفاوز وجبال ، والبجة تحمي هذا المكان المعروف بالخربة ، واليها يؤدي الخفارات من يرد الى حفر الزمرد .

والزمرد الذي يقتلع من هذا المكان يتنوع أربعة أنواع :

النوع الأول منها يعرف بالمر : وهو أجودها وأغلاها ثمنا . وهو شديد الخضرة كثير الماء ، تشبه خضرته بأشد ما يكون من السلق خضرة . وهذا اللون غير كدر ولا ضارب الى السواد .

والنوع الثاني يدعى بالبحري : ومعناهم في هذه التسمية هو أن ملوك البحر من السند والهند والزنج والصين ترغب في هذا النوع من الزمرد ، وتباهي في استعماله ولباسه في تيجانها وأكاليلها وخواتيمها وأسورتها ، فسمي البحري لما ذكرنا ، وهو ثاني المر في الجودة ، وتشبه خضرته بالأول والماء كفراخ ورق الآس الذي يظهر في أوائل أغصان الآس وأطرافه .

والنوع الثالث يعرف بالمغربي : ومعناهم في هذه التسمية واضافتهم اياه الى المغرب هو أن ملوك المغرب من الافرنجة والنوكبرد والأندلس والجلالقة والوشكند والصقالبة والروس ـ وإن كان أكثر هؤلاء الأمم متصلين بالجدي وهو ما بين المشرق والمغرب على حسب ما ذكرنا من ديار ولد يافث بن نوح ـ يتنافسون في هذا النوع من الزمرد كتنافس من ذكرنا من ملوك الهند والصين في النوع المعروف بالبحري .

والنوع الرابع هو المسمى بالأصم : وهو أدنى الأنواع وأقلها ثمنا ، لقلة مائه وخضرته ، وهذا النوع يتفاوت في اللون من الخضرة في القلة والكثرة .

وجملة الوصف لهذه الأنواع الأربعة في الجودة والمبالغة في الثمن هو أكثرها ماء وأصفاها ، وأكثرها خضرة وأنقاها من السواد والصفرة وغير ذلك من الألوان ، مع تعري هذا الجوهر من النموشة . فاذا سلم مما ذكرنا كان في نوعه غاية في الجودة ونهاية في الوصف .

وفي حجارته ما يبلغ الخمسة المثاقيل في الوزن ، الى أن ينتهي الى حد العدسة في المقدار ، فيدخل ذلك في النظم من المخانق وغيرها .

وآفات هذا الجوهر كثيرة ، منها الريم ، والحجارة ، والعروق البيض التي تشوب هذا الجوهر وتوجد فيه .

ولا تناكر بين ذوي الدراية بهذا الجوهر ومن عني بمعرفته أن الحيات والأفاعي وسائر أنواع الحيات من الثعابين وغيرها اذا أبصرت الزمرد الخالص سالت أحداقها . وأن الملسوع اذا سقي من الزمرد الخالص وزن دانقين على الفور أمن على نفسه من أن يسري السم في جسده . ولا يوجد شيء من أنواع الحيات يقرب من معدنه وأرضه .

وهو حجر لين رخو ، يتكلس اذا ورد على النار .

وقد كانت ملوك اليونانيين ومن تلاهم من ملوك الروم تعظم شأن هذا الجوهر ، وتفضله على غيره من سائر الجواهر ، لما اجتمع فيه من الخواص العجيبة ، والمنافع الكثيرة ، ولخفته في الوزن دون سائر الجواهر المعدنية .

وأكثر ما يوجد من هذه الأنواع الأربعة العروق في الأرض ، وهو المتنافس فيه ، اذا سلم من الاعوجاج والثقب ، واستقام سلكه ، واستطال ما استدار . وأدناه ما ينحل في معدنه من التراب ويلتقط من الطين .

وقد يوجد على ظهر الأرض في هذا المعدن في وهاده وجباله وما انخفض وارتفع من أرضه نوعان منه وهما المغربي والأصم المقدم ذكرهما .

وقد يحمل من أرض الهند من بلاد سندان : ونحو كنباية من مملكة البلهرا صاحب المانكير المقدم ذكره فيما سلف من هذا الكتاب نوع من الزمرد يلحق بما وصفنا من النور والخضرة والشعاع ، إلا أنه حجر صلب أصلب مما وصفنا ، وأثقل مما ذكرنا .

ولا يفرق بين هذا النوع المحمول من أرض الهند وبين الأنواع الأربعة المقدم ذكرها الا ذو دراية فطن ، أو ماهر فيه . وهذا النوع الهندي يعرفه أصحاب الجوهر بالمكي ، لأنه يحمل من أرض الهند الى بلاد عدن وغيرها من سواحل اليمن ، ويؤتى به مكة ، فاشتهر بهذا الاسم لما وصفنا ، وبان بهذا النعت لما ذكرنا .

وقد أتينا على مبسوط أخبار الجواهر الشفافة وغيرها ووصف معادنها على الشرح والايضاح في كتابنا « أخبار الزمان » .

ووجدت جماعة بصعيد مصر ، من ذوي الدراية ـ ممن اتصلت معرفته بهذا المعدن ، وعرف هذا النوع من الجوهر ، الذي هو الزمرد ـ يخبرون أن هذا الزمرد يكثر ويقل في فصول من السنة ، وفي قوة من مواد الهواء ، وهبوب نوع من الرياح الأربع ، وتقوى الخضرة فيه والشعاع النوري في أوائل الشهر والزيادة في نور القمر .

وكذلك وجدت في أخبار من عني بمعرفة أكثر المعادن من الجوهرية وغيرها أن الكبريت الأبيض والأصفر وغيرهما من أنواع الكبريت يكثر في معدنه في السنة التي يكثر برقها ، وتشتد صواعقها ، على حسب ما أخبرنا به فيما سلف من هذا الكتاب عن الكافور في بلاد منصورة وغيرها من أرض الهند أنه يكثر في السنة التي تكثر فيها الصواعق والرعود والبروق .

ولولا ان المكثار كحاطب ليل ، والايجاز لمحة دالة ، ووحي صرح عن ضمير ، والبلاغة ايضاح بايجاز . . . لأسهبت في هذا الباب .

قوص وقفط من بلاد مصر

وبين هذا الموضع المعروف بالخربة الذي فيه معدن هذا النوع من الجوهر ـ وهو الزمرد ـ وبين ما اتصل به من العمارة وقرب منه من الديار مسيرة سبعة أيام ، وهي قفط وقوص وغيرهما من صعيد مصر .

وقوص راكبة للنيل ، وبين النيل وقفط نحو من ميلين .

ولمدينتي قفط وقوص أخبار عجيبة في بدء عمرانهما وما كان في أيام الأقباط من أخبارهما . إلا أن مدينة قفط في هذا الوقت متداعية للخراب ، وقوص أعمر ، والناس فيها أكثر .

وبوادي البجة المالكة لهذا المعدن تتصل ديارها بالعلاقي ، وهي معدن الذهب على حسب ما قدمنا في هذا الباب .

وبين العلاقي والنيل خمس عشرة مرحلة ، وماء أهل العلاقي ما انهل من السماء ، ولهم ماء من عين يسيل في وسط العلاقي . وأقرب العمارة اليه مدينة أسوان ، ومنها يسمى العلاقي .

والنوبة متصلة بتجارتها وقوافلها بمدينة أسوان ، وأهل أسوان مختلطون بالنوبة .

***

الواحات

قال المسعودي : وأما بلاد الواحات ـ وهي بين بلاد مصر والاسكندرية وصعيد مصر

والمغرب وأرض الأحابش من النوبة وغيرهم ـ فقد ذكرنا جملا من أخبارها ، وكيفية العمران بها ، والخواص في أرضها ، فيما سلف من كتبنا .

وبها أرض شبية وزاجية وعيون حامضة وغير ذلك من الطعوم .

وصاحب الواحات في وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) عبد الملك بن مروان . وهو رجل من لواتة ، الا انه مرواني المذهب . ويركب في ألوف من الناس خيلا ورجلا ونجبا .

وبينه وبين الأحابش نحو من ستة أيام ، وكذلك بينه وبين سائر ما ذكرنا من العمائر هذا المقدار من المسافة ، وفي أرضه خواص وعجائب .

وهو بلد قائم بنفسه ، غير متصل بغيره ، ولا مفتقر اليه ، ويحمل من أرضه التمر والزبيب والأعناب .

وقد رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات بباب الأخشيد محمد بن طغج ، وذلك سنة ثلاثين وثلثمائة ، وسألته عن كثير من أخبار بلدهم ، وما احتجت أن أعلمه من خواص أرضهم . . . . وكذلك كان فعلي مع غيره في سائر الأوقات ممن لم أصل الى بلادهم .

وأخبرني هذا الرجل عما بأرضهم من الشب وأنواع الزاج ، وما يحمل من بلادهم ، وما بأرضهم من أنواع العيون الحامضة ، وغير ذلك من المياه المختلفة الطعوم .

وقد ذكر صاحب « المنطق » أن ببعض المواضع عيونا حامضة يستعمل ماؤها ، كاستعمال الخل . وذكر المواضع التي تنبع منها العيون المرة ، وأن قوة مائها في المرارة لا يخالط شيئا الا مرره ، وأن العلة في اختلاف هذه الطعوم في المياه أن الأرضين مختلفة مثل مواضع الشب والمواضع النارية والرمادية . وذكر أن الأطعمة التي ببلاد صقلية المقدم ذكرها اذا خالطت الماء أفادته طعوما مختلفة على قدر اختلافها وأعداد طعومها .

اعداد الطعوم وخواصها

وأعداد الطعوم ثمانية : فأولها العذب ، والملح ، والدسم ، والحلو ، والحامض ، والمر ، والقابض ، والحريف .

وقد تنازع الناس فيما ذكرنا : فمنهم من رأى أن أعدادها سبعة ، ومنهم من ذهب الى أنها ستة ، وأكثر من قال في أعدادها هو ما ذكرنا آنفا من أنها ثمانية .

وقد قال من سلف في قوى المياه أقاويل مختلفة :

فمن ذلك أن العذب مغذ وان كان سخنا : فان استعمل من داخل أو من خارج ـ بقدر الحاجة اليه ـ فانه ينقي الجسد ، وان استعمل أكثر مما يحتاج اليه فانه يرخي الأعضاء ويضعفها .

وأن الماء البارد يشد الأعضاء ، ويقطع العطش ، وأن الزيادة منه تخدر الجسد وتميته .
وأن الماء الأجاج ينفع من سدد الكبد والطحال .
وأن الماء الكبريتي ينفع الجراح والقروح العتيقة والحكة .
والبورقي نافع للحكة والجرب .
وأما القاري فانه نافع من أوجاع الصلب والعصب .
وماء الحديد نافع من الاسترخاء في الأحشاء وما بطن من الأوعية .
وماء النحاس نافع من الرطوبة والبلة الكائنة في الجسد والرأس .
وماء الجص يشنج المعدة ويقبضها ويكرشها .
وماء الزاج يحبس الدم ، وماء البحر نافع من البرص ، وقد ذكر جماعة أنه ينفع من الأخلاط الفاسدة اذا شرب منه اليسير مع دهن اللوز وله في البصر اتعاب فظيع .
وأن أصح المياه للأجساد الأبيض البراق الذي يخرج من جبال الطين من مشرق الشمس نحو مغربها ، القابل بسرعة ما يرد اليه من الحر والبرد .
وللناس فيما ذكرنا كلام كثير في أنواع المياه وأوصافها ومنافعها ومضارها ، وليس كتابنا هذا موضعا له ، وإنما تغلغل بنا الكلام الى ذكرها ، وتشعب بنا القول الى وصفها .

وصف بلاد الأحابش وحاصلاتها

وكل ما ذكرنا من بلاد الأحابش ما كان من غربي اليمن وجدة والحجاز مما يلي بحر القلزم ، فبلاد قشفة لا خير في أرضها ، ولا شيء يحمل من ساحلها الا ما وصفنا من الذبل والنمور وغيرهما .
وكذلك ما عليه من ساحل الشحر وبلاد الأحقاف من ساحل حضرموت الى عدن ، فبلد لا خصب لأهله فيه ، ولا يحمل من أرضهم في وقتنا الا اللبان ويسمى الكندر .
وهذا البحر اتصاله بالقلزم ، وهو عن يمين بحر الهند وان كان الماء متصلا .
وليس في البحار ، وما ذكرنا من الخلجان مما احتوى عليه البحر الحبشي ، أصعب ولا أكثر حيالا ، ولا أسهك رائحة ، ولا أقحط ، ولا أقل خيرا في بطنه وظهره من بحر القلزم .
وسائر البحر الحبشي تقطعه المراكب في ابان سيرها فيه بالليل والنهار ، الا بحر القلزم ، فان المراكب تسير فيه بالنهار ، فاذا جن الليل أرست في مواضع معروفة كالمراحل المشهورة ، والمنازل المعروفة ، لكثرة جباله وظلمته ووحشته .
وليس هذا البحر مما اتصل به بحر الهند والصين وغيره في شيء ، وهو بالضد من ذلك ، لأن بحر الهند والصين : في قعره اللؤلؤ ، وفي جباله الجواهر ، ومعادن الذهب والفضة والرصاص القلعي .

وفي أفواه دوابه العـاج ، وفي منابته الأبنوس ، والخيـزران ، والقنا ، والبقم ، والساج ، والعـود ، وأشجار الكـافور ، والجوز ، والقرنفل ، والصندل ، والأفاويـة ، والطيب ، والعنبر .

وطيوره الباغي البيض والخضر ، واحدها ببغة ، ثم الطواويس وأنواعها في صورها واختلافها في الصغر والكبر ، ومنها ما يكون كالنعامة كبرا .

وحشرات أرض الهند الزباد كالسنانير بأرض الاسلام كثيرة متخذة كالسنور . وأكثر ما يخرج من ضروعها الطيب المعروف بلبن الزباد ، وهو نوع من الطيب عجيب .

ثم ما يظهر في وقت من السنة من جباه الفيلة بأرض الهند ورؤوسها من العرق الذي هو كالمسك .

عرق الفيل

والهند تراعي ظهور هذا الطيب في الفصل من الزمان الذي يكون فيه ، فتأخذه وتجعله على بعض أدهانها الطيبة ، فيكون أغلى طيبها والمستطرف عندها ، والذي تستعمله ملوكها وخواصها لضروب من المنافع : منها طيب الرائحة والتجمر الذي قد فاق على سائر الطيب عندهم ، وما يؤثر في الانسان عند شمه اياه واستعماله من ظهور الشبق من الرجال والنساء والطلب للباه والاغتلام والطرب والنشاط والأريحية .

وكثير من فتاك الهند وشجعانهم يستعمل هذا الدهن عند اللقاء والحرب ، لأن ذلك عندهم مما يشجع القلب ، ويقوي النفس ، ويبعثها على الاقدام .

وأكثر ما يظهر هذا النوع من العرق في جباه الفيلة في ذلك الفصل من السنة في حال اغتلامها وهيجانها . واذا كان ذلك منها ، هرب عنها سواسها ورعاتها ، ولا تفرق بين من تعرف وغيره من الناس .

واذا وجد الفيل ما وصفنا سلك الأودية والجبال والغياض ، وند عن بلده ، وغاب عن وطنه . فاذا قدم على النوشان الذي هو الكركدن هرب حينئذ من الفيل ، ولا يقيم في الموضع الذي هو فيه ، لأن الفيل عند ذلك بحال السكران لا يعقل ولا يميز بين الكركدن الذي كان يخافه قبل ذلك وغيره .

فاذا خرج عنه ذلك الفصل من السنة واسترجع عاد الى بلاده على مسيرة شهر وأكثر من ذلك ، وهو في بقية من سكره ، فيبقى نحو ذلك المقدار الذي كان هيجانه فيه عليلا .

ولا يكون ذلك الا في الفحول من الفيلة وذوي الجراءة منها والاقدام ، وما ذكرنا من ظباء المسك وغير ذلك مما عنه أمسكنا من عجائبه وخيراته ، وفيما ذكرنا تنبيه على غيره .

وللهند خطب طويل في ظهور هذا النوع من الطيب في هذه الحالة من الفيلة ، والفرق بينه وبين سائر أنواع الدواب ، وما يظهر من الفيل من الجزع عند وروده المياه من الغدران والأنهار للشرب اذا كان الماء صافيا ، فانه يثيره ويكدره ويمتنع من شربه حين صفائه .

وان ذلك يوجد في أكثر الخيل اذا وردت الماء وكان صافيا ضربته بأيديها فكدرته فتشرب حينئذ . وتوافق الخيل الفيلة في هذا المعنى دون سائر الحيوان ، وإن ذلك لمشاهدة صورها في الماء لصقالته وصفائه ، ولعلها تقصد زوال ذلك عند كدر ما تضربه بأيديها ، لعدم ظهور الصور فيه في حال الكدر .

وان الابل الأغلب منها يفعل ذلك . . .

ولمعان غير ذلك مما وصفنا من أن ما عظم من الحيوان اذا رأى صورته منعكسة على صفاء الماء أعجبته لعظمها وحسنها وما بان به من حسن الهيئة عما دونه من أنواع الحيوان . وليس شيء يفعل ذلك من الحيوان غير ما ذكرنا من الخيل والابل والفيلة .

وأن الفيل ـ مع عظم جسمه ولطافة نفسه وخفة روحه ، وحسن تمييزه والتفرقة بين وليه وعدوه من الناطقين وغيرهم ، وقبوله الرياضة . . . يمتنع من الأنثى كما تمتنع النوق اذا لقحت .

وليس شيء من الدواب يمتنع من السفاد من الاناث عند حمله الا الفيلة والابل ، وهذا باب ان نحن تقصيناه وذكرنا ما فيه طال به الكتاب ، وخرج عن حد الاختصار والايجاز .

وقد أتينا على وصف جميع ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » وغيره من كتبنا ، فلنذكر أنواعا من ولد يافث بن نوح ، إذ كنا قد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب كثيرا من ذكر الأمم مع اختلاف ألوانهم ، وتباينهم في أحوالهم ، إن شاء الله تعالى .

ذِكْرُ الصَّقالبَة ومَسَاكِنهَا
وَاخبَار مُلوكهَا وَتفَرّق أجنَاسهَا

نسب الصقالبة وأجناسهم

الصقالبة من ولد مار بن يافث بن نوح ، واليه يرجع سائر أجناس الصقالبة ، وبه يلحقون في أنسابهم . . هذا قول كثير من أهل الدراية ممن عني بهذا الشأن .

ومساكنهم بالجدي الى أن يتصلوا بالمغرب . وهم أجناس مختلفة وبينهم حروب ، ولهم ملوك .

ومنهم من ينقاد الى دين النصرانية الى رأي اليعقوبية ، ومنهم من لا كتاب له ولا ينقاد الى شريعة ، وهم جاهلية لا يعرفون شيئا من الشرائع .

وهؤلاء أجناس :

فمنهم جنس كان الملك فيهم قديما في صدر الزمان ، وكان ملكهم يدعى ماجك ، وهذا الجنس يدعى ولينانا . وكان يتلو هذا الجنس في القديم سائر أجناس الصقالبة ، لكون الملك فيهم ، وانقياد سائر ملوكهم اليه .

ثم يتلو هذا الجنس من أجناس الصقالبة اصطبرانة ، وملكهم في هذا الوقت يدعى بصقلائح .

وجنس يقال له دلاونة ، وملكهم يدعى وانج علاف .

وجنس يقال لهم ناجين ، وملكهم يدعى عزانة . وهذا الجنس أشجع أجناس الصقالبة وأفرسهم .

وجنس يدعى منابن ، وملكهم يدعى زنبير .

ثم جنس يقال له سرتين ، وهو جنس عند الصقالبة مهيب لعلل يطول ذكرها وأوصاف يكثر شرحها ، ونفرتهم من ملة ينقادون اليها .

ثم جنس يقال له صاصين .

ثم جنس يقال له جروانيق .

ثم جنس يقال له خشانين .

ثم جنس يقال له برانجابين .

وما سميناه من أسماء بعض ملوك هذه الأجناس فسمة معروفة لملوكهم .

والجنس الذي سميناه المعروف بسرتين يحرقون أنفسهم بالنار اذا مات فيهم الملك والرئيس ، ويحرقون دوابه ، ولهم أفعال مثل أفعال الهند .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب طرفا من ذكرهم عند ذكرنا لجبل القبخ والخزر ، وأن في بلاد الخزر مع الخزر خلقا من الصقالبة والروس ، وأنهم يحرقون أنفسهم بالنيران .

وهذا الجنس من الصقالبة وغيرهم متصلون بالمشرق ، ويعبرون من المغرب .

ملوك الصقالبة

فالأول من ملوك الصقالبة ملك الدير ، وله مدن واسعة وعمائر كثيرة ، وتجار المسلمين يقصدون دار ملكه بأنواع التجارات .

ثم يلي هذا الملك من ملوك الصقالبة ملك الأوانج ، وله مدن وعمائر واسعة ، وجيوش كثيرة ، وعدد كثير ، ويحارب الروم والافرنج والنوكبرد ، وغير هؤلاء من الأمم ، والحرب بينهم سجال .

ثم يلي هذا الملك من ملوك الصقالبة ملك الترك ، وهذا الجنس أحسن الصقالبة صورا ، وأكثرهم عددا ، وأشدهم بأسا .

أجناس الصقالبة

والصقالبة أجناس كثيرة ، وأنواع واسعة ، لا يأتي كتابنا هذا على وصف أجناسهم وتفريع أنواعهم . وقد قدمنا الأخبار عن الملك الذي كان ينقاد اليه ملوكهم في قديم الزمان ، وهو ماجك ملك ولينانا . وهذا الجنس أصل من أصول الصقالبة معظم في أجناسهم ، وله قدم فيهم .

ثم اختلفت الكلمة بين أجناسهم ، فزال نظامهم ، وتحزبت أجناسهم ، وملك كل جنس منهم ملكا على حسب ما ذكرنا من ملوكهم لأمور يطول ذكرها . وقد أتينا على جمل من شرحها وكثير من مبسوطها في كتابنا « أخبار الزمان » من الأمم الماضية ، والأجيال الخالية ، والممالك الداثرة .

ذكر الإفرنجة والجلالقة وملوكها وما يتصل بذلك

نسبهم وصفاتهم

الافرنجة والصقالبة والنوكبرد والأشبان ويـأجوج ومأجوج والترك والخزر وبرجان واللان والجلالقة وغير ذلك ممن ذكرنا ممن حل الجدي ، وهو الشمال . . . لا خلاف بين أهل البحث والنظر من الشرعيين أن جميع من ذكرنا من هؤلاء الأمم من ولد يافث بن نوح ، وهو الأصغر من ولد نوح .

فالافرنجة أشد هؤلاء الأجناس بأسا ، وأمنعهم هيبة ، وأكثرهم عدة ، وأوسعهم ملكا ، وأكثرهم مدنا ، وأحسنهم نظاما وانقيادا لملوكهم ، وأكثرهم طاعة . . . الا أن الجلالقة أشد من الافرنجة بأسا ، وأعظم منهم نكاية . والرجل من الجلالقة يقاوم عدة من الافرنجة .

وكلمة الأفرنجة متفقة على ملك واحد ، لا تنازع بينهم في ذلك ، ولا تحزب ، واسم دار مملكتهم في وقتنا هذا بويرة ، وهي مدينة عظيمة . ولهم من المدن نحو من خمسين ومائة مدينة غير العمائر والكور .

مساكنهم

وكان أوائل بلاد الافرنجة قبل ظهور الاسلام في البحر جزيرة رودس ، وهي الجزيرة التي ذكرنا أنها مقابلة للاسكندرية ، وأن فيها دار صناعة المراكب في وقتنا هذا للروم . ثم جزيرة اقريطش ، وقد كانت للافرنجة ايضا ففتحها المسلمون ونزلوها الى هذه الغاية .

وكانت بلاد افريقية وجزيرة صقلية للافرنجة أيضا .

وقد أتينا على أخبار هذه الجزائر وخبر الجزيرة المعروفة بالبركان ، وهي الأطمة التي يخرج منها أجسام من النار كأجساد الناس بلا رؤوس فتعلو في الهواء بالليل ، ثم تسقط في البحر فتطفو على الماء ، وهي الحجارة التي يحك بها الكتابة من الدفاتر ، وهي خفاف بيض على هيئة الشهد وأكوار الزنابير الصغار .

وهي الأطمة المعروفة بأطمة صقلية ، وفيها قبر فرفوريس الحكيم الذي صنف كتاب ايساغوجي ، وهو المدخل الى علم المنطق . وهذا الكتاب بهذا الرجل يعرف .

وكذلك أتينا على ذكر آطام الأرض ، كأطمة وادي برهوت من بلاد حضرموت وبلاد الشحر ، وأطمة بلاد الزابج من بحر الصين ، وأطمة بلاد أسك ، وهي ما بين بلاد فارس

وبلاد الأهواز من أعمال مدينة أرجان من بلاد فارس .

وهذه النار ترى بالليل من نحو عشرين فرسخا ، وهي مشهـورة بأرض الاسلام . وتفسير أطمة هي عين النار التي تنبع من الأرض .

ولم نتعرض في هذا الكتاب لذكر الحمامات الكبريتية والزاجية ، ولا الحمامات التي تظهـر من مائهـا النار بالأطمة التي ببلاد ماسبذان من أرض أريـوجان والسيروان يقال لها النومان ، وهي أطمة تظهر من وسط مائها النار ، وهـي أطمة عجيبة تمنع ورود الماء عن اطفائها ، وتدفعه بشدة قوتها وسلطان لهبها ، وهي احدى عجائب العالم ، اذ كنا قد أتينا على علل جميع ذلك فيما سلف من كتبنا .

وقد أتينا على منافع أنواع المياه بجوامع ذكرناها ، ولمع لوحنا بها ، فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لأرض الواحات من بلاد مصر ، وان كنا قد أتينا على مبسوط ذلك فيما تقدم من كتبنا .

***

ملوك الافرنجة

قال المسعودي : ووجدت في كتاب وقع الي بفسطاط مصر سنة ست وثلاثين وثلثمائة أهـداه عرماز الأسقف بمدينة جربذة من مدن الافرنجة في سنة ثماني وعشريـن وثلثمائة الى الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ولي عهد أبيه عبد الرحمن صاحب الأندلس في هذا الوقت في عهده :

« يا أمير المؤمنين ، إن أول ملوك افرنجة قلودية ، وكان مجوسيا فنصرته امرأته وكان اسمها غرطلة . ثم ملك بعده ابنه لذريق ، ثم ولي بعد لذريق ابنه دقشرت ، ثم ولي بعده ابنه لذريق ، ثم ولي بعده قرطان بن دقشرت ، ثم بعده ابنه قارله ، ثم ولي بعده ابنه تبين .

« ثم ولي بعده قارله بن تبين ، وكانت ولايته ستا وعشرين سنة ، وكان في أيام الحكم صاحب الأندلس .

« وقد تدافع اولاده بعده ووقع الاختلاف بينهم حتى تفانت الافرنجة بسببهم ، وصار لذريق بن قارله صاحب ملكهم ، فملك ثمانيا وعشرين سنة وستة أشهر ، وهو الذي أقبل الى طرطوشة فحاصرها .

« ثم ولي بعده ابنه قارله بن لذريق ، وهو الذي تهادن مع محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان . وكان محمد

يخاطب بالامام . وكانت ولايته تسعا وثلاثين سنة وستة أشهر .

« ثم ولي بعده ابنه لذريق ستة أعوام ، ثم وثب عليه قائد الافرنجة المسمى نوسة ، وملك افرنجة ، وأقام في ملكه ثماني سنين . وهو الذي صالح المجوس على بلده سبع سنين بستمائة رطل ذهب وستمائة رطل فضة يؤديها صاحب الافرنجة اليهم .

« ثم ولي بعده قارله بن تقويرة أربع سنين .

« ثم ملك بعده قارله آخر ، ومكث احدى وثلاثين سنة وثلاثة أشهر .

« ثم ولي بعده لذريق بن قارله وهو ملك افرنجة الى هذا الوقت (وهـو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) ، وقد استوفى في مملكته عشر سنين الى هذا التاريخ على حسب ما نمي الينا من خبره .

***

بين عبد الرحمن والجلالقة

قال المسعـودي : وأشد ما على الأندلس من الأمم المحاربة لهم الجلالقة ، كما أن الافرنجة حرب لهم ، غير أن الجلالقة أشد بأسا .

وقد كان لعبد الرحمن بن محمد صاحب الأندلس في هذا الوقت وزير من ولد أمية يقال له أحمد بن اسحاق فقبض عليه عبد الرحمن لأمر كان منه استحق عليه في الشريعة العقوبة ، فقتله عبد الرحمن .

وكان للوزير أخ يقال له أمية في مدينة من ثغور الأندلس ، يقال لها شنترين . فلما نمي اليه ما فعل بأخيه عصى على عبد الرحمن فصار في حيز رذمير ملك الجلالقة ، فأعـانه على المسلمين ، ودله على عوراتهم .

ثم خرج أمية في بعض الأيام من المدينة يتصيد في بعض متنزهاتها ، فغلب على المدينة بعض غلمانه ومنعوه من الدخول اليها ، وكتبوا الى عبد الرحمن .

ومضى أمية بن اسحاق أخو الوزير المقتول الى رذمير ، فاصطفاه ، واستوزره ، وصيره في جملته .

وغزا عبد الـرحمن صاحب الأندلس سمورة ، مملكـة الجلالقة المتقدمة صفة بنيانها وأسوارها في باب جمل الأخبار عن البحار وما فيها وما حولها من العجائب والأمم ومراتب الملوك وأخبار الأندلس وغير ذلك .

وكان عبد الرحمن في مائة ألف أو يزيدون ، فكـانت الواقعـة بينه وبين رذمير ملك الجلالقة في شوال سنة سبع وعشرين وثلثمائة بعد الكسوف الذي كان في هذا الشهر بثلاثة

أيام . وكانت للمسلمين عليهم ، ثم أنابوا بعد أن حوصروا وأوجلوا الى المدينة فقتلوا من المسلمين ـ بعد عبورهم الخندق ـ خمسين ألفا .

وقيل ان الـذي منع رذمير من طلـب من نجا من المسلمين أميـة بن اسحق وخوفه الكمين ، ورغبه فيما كان في معسكر المسلمين من الأموال والعدد والخزائن ، ولولا ذلك لأتى على جميع المسلمين .

ثم أن أمية بعد ذلك استأمن الى عبد الرحمن ، وتخلص من رذمير ، فقبله عبد الرحمن أحسن قبول . وقد كان عبد الرحمن صاحب الأندلس بعد هذه الوقعة جهز عساكره مع عدة من قواده الى الجلالقة ، وكانت لهم معهم حروب هلك فيها من الجلالقة ضعف ما قتل من المسلمين في الوقعة الأولى ، وكانت للمسلمين عليهم الى هذه الغاية .

ورذمير ملك الجلالقة الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) ، وكان قبله على الملك أردون ، وكان قبل أردون أذبوشن . والجلالقة والافرنجة تدين بدين النصرانية على رأي الملكية .

ذكر النوكبرد وملوكها

نسب النوكبرد ومساكنهم

قد تقدم ذكرنا للنوكبرد ، وأنهم من ولد يافث بن نوح ، وبلادهم متصلة بالمغرب ، ومحلهم بالجدي ، ولهم جزائر كثيرة فيها أمم من الناس . وهم ذوو بأس شديد ومنعة ، ولهم مدن كثيرة ، يجمعهم ملك واحد ، واسماء ملوكهم في سائر الأعصار « أدنكبس » .

والمدينة العظمى من مدنهم ودار مملكتهم هي يست ، ويخترقها نهر عظيم ، وهي جانبان .

وهذا النهر أحد أنهار العالم الموصوفة بالكبر والعجائب يقال له سايبط قد ذكره جماعة ممن عني بهذا المعنى ممن تقدم .

وكان المسلمون ممن جاورهم من بلاد الأندلس والمغرب غلبوهم على مدن كثيرة من مدنهم مثل مدينة باري ومدينة طارنيو ومدينة شبرامة وغيرها من مدنهم الكبار .

ثم أن النوكبرد أنابوا ورجعوا على من كان في تلك المدن من المسلمين ، فأخرجوهم عنها بعد حرب طويل ، وما ذكرنا من المدن في وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) في أيدي النوكبرد .

***

قال المسعودي : ومن ذكرنا من الجلالقة والافرنجة والصقالبة والنوكبرد وغيرها من الأمم فديارهم متقاربة ، والأكثر منهم حرب لأهل الأندلس وصاحب الأندلس في هذا الوقت ذو منعة وقوة عظيمة على ما قدمنا من نسبه واخباره .

وقد كان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام سار الى الاندلس في أول دولة بني العباس ، وله أخبار كثيرة في كيفية وصوله الى الأندلس .

ودار مملكة الأندلس قرطبة على ما ذكرنا ، ولهم مدن كثيرة وعمائر متصلة واسعة ، وثغور في أطراف أرضهم . وربما يجتمع عليهم من جاورهم من الأمم من ولد يافث من الجلالقة وبرجان والافرنجة وغيرها من الألسن .

وصاحب الأندلس في هذا الوقت يركب في مائة ألف ، وهو ذو منعة بالرجال والمال والكراع والعدد ، والله أعلم .

ذِكرُ عَاد وَمُلوكهَا

عاد الأولى

ذكر جماعة من ذوي العناية بأخبار العالم أن الملك يؤثر من بعد نوح في عاد الأولى التي بادت قبل سائر ممالك العرب كلهـا ، ومصداق ذلك قولـه عز وجل : « وأنه أهلك عادا الأولى » . فانه يدل على تقدمهم ، وأن هناك عادا ثانية .

وأخبر اللّه عن ملكهم ، ونطق بشدة بطشهم ، وما بنوه من الأبنية المشيدة التي تدعى على مر الدهور العادية .

وقد أخبر اللّه تعالى عن قول نبيه هود عليه السلام وخطابه اياهم : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . واذا بطشتم بطشتم جبارين » .

عاد . . . أول ملك بعد نوح

وعاد أول من ملك في الأرض في قول هذه الطائفة ، بعد أن أهلك اللّه عز وجل الكفار من قوم نوح ، وذلك لقوله تعالى : « واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم في الخلق بسطة » .

وذلك أن هؤلاء القوم كانوا في هيئات النخل طولا ، وكانوا في اتصال الأعمار وطولها بحسب ذلك من القدر . وكانت نفوسهم قوية وأكبادهم غليظة ، ولم يكن في الأرض أمة هي أشد بطشا وأكثر آثارا وأقوى عقولا وأكثر أحلاما من قوم عاد . ولم يكن الهلك يعرض في أجسامهم ، لقوة آثار الطبيعة فيها ، وما أتوه من الزيادة في تمام البنية وكمال الهيئة ، على حسب ما أخبر اللّه عز وجل .

نسب عاد وعبادته وأولاده

وكان عاد رجلا جبارا عظيم الخلقة ، وهو عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح ، وكان عاد يعبد القمر . وذكروا أنه رأى من صلبه أربعة آلاف ولد ، وأنه تزوج ألف إمرأة ، وكانت بلاده متصلة باليمن ، وهـي بلاد الأحقاف ، وبلاد صحاري هي وبلاد عمان الى حضرموت على حسب ما قدمنا آنفا فيما سلف من هذا الكتاب وغيره من كتبنا .

وقد ذكر جماعة من الاخباريين ممن عني بأخبار العرب أن عادا لما توسط العمر واجتمع له الولد وولد الولد ، ورأى البطن العـاشر من ولـده ، وظهـور الـكثرة مع تشييد الملك واستقامة الأمر ، غمر احسانه الناس ، وقرى الضيف ، وأحواله منتظمة ، والدنيا عليـه مقبلة ، فعاش ألف سنة ومائتي سنة ثم مات .

شديد بن عاد

وكان الملك بعده في الأكبر من ولده ، وهو شديد بن عاد . وكان ملكه خمسمائة سنة وثمانين سنة ، وقيل غير ذلك .

شداد بن عاد

ثم ملك بعده أخوه شداد بن عاد وكان ملكه تسعمائة سنة . ويقال : انه احتوى على سائر ممالك العالم ، وهو الذي بنى مدينة ارم ذات العماد ، على حسب ما قدمنا فيما سلف من كتبنا عند اخبارنا عن هذه المدينة وتنازع الناس في كيفيتها وماهيتها وفي أي بلاد هي .

وهذه عاد الثانية التي ذكرها الله تعالى فقال : « ألم تر كيف فعل ربك بعاد . ارم ذات العماد » . . . والى هذه الأمة انتهى البطش .

ولشداد بن عاد مسير في الأرض ، وطواف في البلاد وبأس عظيم في ممالك الهند وغيرها من ممالك الشرق والغرب ، وحروب كثيرة ، أعرضنا عن ذكرها لشرط الاختصار ، ومعولنا في ذلك على ما بسطناه من أخبارهم في كتاب « أخبار الزمان » من الأمم الماضية ، والأجيال الخالية ، والممالك الدائرة .

وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب ـ عند ذكرنا تفرق الناس ببابل وتشعب الأنساب ، وما قالوا في ذلك من الأشعار ـ جملا من أخبار عاد ونبيها هود .

فأما تنازع الناس ممن سلف وخلف في العلة التي لها عظمت أجسامهم وطالت أعمارهم ، فقد أتينا على ذكر ذلك في كتابنا المترجم بـ « كتاب الرؤوس السبعة من السياسة الملوكية » . وكذلك في كتابنا المترجم بكتاب « الزلف » .

وذكرنا العلة التي لها ومن أجلها عدم كون السباع والجمال بأرض الأندلس ، وما يتكون في هذه الأرض من الجواهر في نباتها ومعادنها ، وما في أرض جليقية .

والى هذه الأرض أضيفت مملكة الجلالقة المقدم ذكرها فيما سلف من هذا الكتاب ، وهم أشد الأمم على أهل الأندلس ، وأعظمهم بطشا ممن جاورهم .

ثم يليهم في الناس أمة عظيمة الملك يقال لها الوشكنش ، على حسب ما قدمنا من ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب وفي غيره من كتبنا مما تقدم تأليف هذا الكتاب .

ذكر ثمود وملوكها ، وصالح نبيها

مساكن ثمود

قد ذكرنا فيا سلف من ذكر ثمود ونبيها صالح عليه السلام لمعا ، وان كنا قد بسطنا ذلك في غير هذا الكتاب . وكان ملك ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح بين الشام والحجاز الى ساحل البحر الحبشي ، وديارهم بفج الناقة ، وبيوتهم الى وقتنا هذا أبنية منحوتة في الجبال ، ورسومهم باقية ، وآثارهم بادية . . . وذلك في طريق الحاج لمن ورد من الشام بالقرب من وادي القرى .

وبيوتهم منحوتة في الصخر بأبواب صغار ، ومساكنهم على قدر مساكن أهل عصرنا . وهـذا يدل على أن أجسامهم على قدر أجسامنا ، دون ما يخبر به القصاص من بعد أجسامهم ، وليس هؤلاء كعاد ، اذ كانت آثارهم ومواضع مساكنهم وبنيانهم بأرض الشحر تدل على بعد أجسامهم .

ملوك ثمود

وكان ملك الملك الأول من ملوكهم مائتي سنة ، وهو عابر بن ارم بن ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح .

ثم ملك بعده جندع بن عمرو بن الذبيل بن ارم بن ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح ، وكان ملكه الى أن هلك مائتي سنة وتسعين سنة .

وهلك جندع هذا بعد أن كان من أمر صالح النبي صلى الله عليه وسلم ما كان على ما ذكرنا أربعين سنة . فجميع ما ملك هذا الملك ـ وهو جندع ـ ثلثمائة وسبع وعشرون سنة . . . فهؤلاء ملوك ثمود .

صالح رسول الله الى ثمود

وبعث الله صالحا نبيا وهو غلام حدث لثمود على حين فترة كانت بينه وبين هود نحو من مائة سنة ، فدعاهم الى الله ـ وملكهم يومئذ هو جندع بن عمرو على ما ذكرنا ـ فلم يجب صالحا من قومه الا نفر يسير .

وكبر صالح ، ولم يزدد قومه من الايمان الا بعدا . فلما تواتر عليهم اعذاره وانذاره ووعده ووعيده ساموه المعجزات ، واظهار العلامات ليمنعوه من دعائهم ، وليعجزوه عن خطابهم .

فحضر عيدا لهم ، وقد أظهروا أوثانهم ، وكان القوم أصحاب ابل ، فساموه الآية من

جنس أموالهم ، وطالبوه بما هو مجانس لأملاكهم ، وذلك من بعد اتفاق آرائهم .

فقال له زعيم من زعمائهم : يا صالح ، ان كنت صادقا في قولك ، وأنك معبر عن ربك ، فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة ، ولتكن وبراء سوداء عشراء نتوجا حالكة صافية اللون ذات عرف وناصية وشعر ووبر .

فاستغاث بربه ، فتحركت الصخرة وتململت وبدا منها حنين وأنين ، ثم انصدعت من بعد تمخض شديد كتمخض المرأة حين الولادة ، وظهر منها ناقة على ما طلبوه من الصفة ، ثم تلاها من الصخرة سقب لها نحوها في الوصف ، فأمعنا في رعي الكلأ وطلب الماء والمرعى .

فآمن خلق ممن حضره ، وزعيمهم الذي سأله ، وهو جندع بن عمرو . وأقامت الناقة يحلبون من لبنها ما يعم شربه ثمودا كلها ، وضايقتهم في الكلأ والماء .

وكان في ثمود امرأتان ذواتا حسن وجمال ، فزارهما رجلان من ثمود ، وهما قدار بن سالف ، ومصدع بن مفرج ، والمرأتان عنيزة بنت غنم وصدوف بنت المجبا .

فقالت صدوف : لو كان لنا في هذا اليوم ماء لأسقيناكما خمرا ، وهذا يوم الناقة ووردها الى الماء ، ولا سبيل لنا الى الشرب .

فقالت عنيزة : بلى والله ، لو أن لنا رجالا لكفونا اياها ، وهل هي الا بعير من الابل ؟!

فقال قدار : يا صدوف ، ان أنا كفيتك أمر الناقة فما لي عندك ؟

فقالت : نفسي ، وهل حائل دونها عنك ؟

فأجابت الأخرى صاحبها بنحو ذلك .

فقالا : ميلا علينا بالخمر ، فشربا حتى توسطا السكر ، ثم خرجا فاستغويا تسعة رهط ، وهم التسعة الذين أخبر الله تعالى عنهم في كتابه بقوله « وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون » .

وقصدوا طريق الناقة في حال صدورها ، فضرب قدار عرقوبها بالسيف ، فعرقبها ، وأتبع صاحبه الآخر العرقوب الآخر بسهمه ، فخرت الناقة لوجهها ، ووجأ قدار لبتها فنحرها . ولاذ السقب بصخرة فلحقه بعضهم فعقره وفرقوا لحم الناقة .

وورد صالح فنظر الى ما فعلوه ، فوعدهم العذاب ، وكان ذلك في يوم الأربعاء ، فقالوا له مستهزئين : يا صالح ، متى يكون ما وعدتنا به من العذاب عن ربك ؟

فقال : تصبح وجوهكم يوم مؤنس ـ وهو يوم الخميس ـ مصفرة ، ويوم العروبة

محمرة ، ويوم شيار مسودة ، ثم يصبحكم العذاب يوم أول .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب اسماء الشهور والأيام بلغتهم .

فهم التسعة بقتل صالح ، وقالوا : ان كان صادقا كنا قد عاجلناه قبل أن يعاجلنا ، وان كان كاذبا كنا قد ألحقناه بناقته .

فأتوه ليلا ، فحالت الملائكة بينهم وبينه ، وأمطرتهم الحجارة ، ومنعه الله منهم .

فلما أصبحوا نظروا الى وجوههم كما وعدهم صفراء كأنها الورس : قد حالت الألوان ، وتغيرت الأجسام ، وتيقن القوم صدق الوعيد ، وأن العذاب واقع بهم .

وخرج صالح في ليلة الأحد من بين ظهرانيهم مع من خف من المؤمنين ، فنزل موضع مدينة الرملة من بلاد فلسطين ، وأتاهم العذاب يوم الأحد .

وفيهم يقول بعض منآمن بصالح عليه السلام :

أراكم يا رجال بني عتيد ... كأن وجوهكم طليت بورس
ويوم عروبة احمرت وجوه ... مصفرة ، ونادوا يال مرس
ويوم شيار فاسودت وجوه ... من الحيين قبل طلوع شمس
فلما كان أول في ضحاه ... أتتهم صيحة عمت بتعس

وفيهم يقول حباب بن عمرو ، وكان ممن اعتزلهم من المؤمنين وبان عن ديارهم :

كانت ثمود ذوي عز ومكرمة ... ما ان يضام لهم في الناس من جار
لا يرهبون من الأعداء حولهم ... وقع السيوف ، ولا نزعا بأوتار
فأهلكوا ناقة كانت لربهم ... قد أنذروها وكانوا غير أبرار
نادوا قدارا ولحم السقب بينهم ... هل للعجول وهل للسقب من ثار
لم يرعيا صالحا في عقر ناقته ... وأخفروا العهد هذيا أي اخفار
فصادفوا عنده من ربه حرسا ... فشدخوا روسهم شدخا بأحجار

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب ـ عند ذكرنا لتفرق الناس ببابل ـ من أخبار ثمود جملا ، وما كان من أمر الناس بأرض بابل وافتراق لغاتهم ، وما قاله كل فريق منهم من الشعر ، على حسب ما أعطاه الله من اللسان ، وان كنا قد أتينا على شرح ذلك على الكمال فيما تقدم لنا من كتابنا « أخبار الزمان » ، وبالله التوفيق .

ذكر مكة وأخبارها
وبناء البيت ومن تداوله من جرهم وغيرها
وما لحق بهذا الباب

سكن اسماعيل وأمه بمكة

ولما أسكن ابراهيم ولده اسماعيل مكة مع أمه هاجر ، واستودعهما خالقه ـ على حسب ما أخبر به الله عنه بأنه أسكنه بواد غير ذي زرع ، وكان موضع البيت ربوة حمراء ـ أمر ابراهيم هاجر أن تتخذ عليها عريشا يكون لها مسكنا ، وكان من ظمأ اسماعيل وخبر هاجر ما كان الى أن أنبع الله لهما زمزم ، وأقحط الشحر واليمن ، فتفرق العماليق وجرهم في البلاد ومن هناك من بقايا عاد .

نزول العماليق معهما

فيممت العماليق نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى والدار الخصيبة ، وعليهم السميدع ابن هوبر بن لاوى بن قيطور بن كركر بن حيدان . فلما أمعنت بنو كركر في المسير ـ وقد عدمت الماء والمرعى ، واشتد بها الجهد ـ أقبل السميدع بن هوبر يحثهم على السير في شعر له ويشجعهم بما قد نزل بهم ، وهو :

سيروا بني الكركر في البلاد	اني أرى ذا الدهر في فساد
قد سار من قحطان ذي الرشاد	جرهم لما هدها التعادي

فأشرف روادهم ـ وهم المتقدمون منهم لطلب الماء ـ على الوادي ، فنظروا الطير ترتفع وتنخفض ، فهبطوا الوادي ونظروا الى العريش على الربوة الحمراء ، وفيها هاجر واسماعيل ، وقد زمت حول الماء بالأحجار ومنعته من الجريان .

وقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « رحم الله أمنا هاجر ، لولا أنها بخلت ومنعت ماء زمزم من أن يجري بما حوطت حوله من الأحجار لجرى الماء على وجه الأرض » .

فسلم الرواد عليها ، واستأذنوها في نزولهم وشربهم من الماء ، فأنست اليهم ، وأذنت لهم في النزول . فتلقوا من كان وراءهم من أهليهم ، وأخبروهم خبر الماء . فنزلوا الوادي مطمئنين ، مستبشرين بالماء ، وبما أضاء الوادي من نور النبوة وموضع البيت

الحرام ، فرحين . وعيل اسماعيل وتكلم بالعربية خلاف لغة أبيه .

وقد ذكرنا في هذا الكتاب وغيره ما قاله الناس في ذلك من قحطان ونزار .

وتزوج اسماعيل بالجداء بنت سعد العملاقي .

زيارة ابراهيم الأولى لابنه

وقد كان ابراهيم استأذن سارة في زيارة اسماعيل ، فأذنت له . فوافى مكة واسماعيل في الصيد والرعي ومعه أمه هاجر ، فسلم على الجداء بنت سعد زوجة اسماعيل ، فلم ترد عليه السلام ، فقال : هل من منزل ؟

فقالت : لا ها الله .

قال : فما يفعل رب البيت ؟

قالت : هو غائب .

فقال لها : اذا ورد فأخبريه أن ابراهيم يقول لك بعد مسألته عنك وعن امك : استبدل بعتبة بيتك غيرها .

وانصرف ابراهيم من فوره نحو الشام ، وراح اسماعيل وهاجر ، فنظرا الى الوادي قد أشرق وأنار ، والأغنام تتنسم الآثار ، فقال لزوجته الجداء : ه هل كان لك بعدي من خبر ؟

قالت : نعم ، شيخ ورد علي ، وأخبرته بالقصة ، فقال : ذاك أبي خليل الرحمن ، وقد أمرني بتخليتك ، فالحقي بأهلك ، فلا خير فيك .

نزول جرهم مكة

وتسامعت جرهم ببني كركر ونزولهم الوادي ، وما هم فيه من الخصب وادرار الضرع ، وهم في حال القحط ، فبادروا نحو مكة ، وعليهم الحارث بن مضاض بن عمرو ابن سعد بن الرقيب بن ظالم بن هيني بن نبت بن جرهم ، حتى أتوا الوادي ، ونزلوا مكة ، واستوطنوها مع اسماعيل ومن تقدمهم من العماليق من بني كركر .

وقد قيل في بني كركر: انهم من العماليق ، وقيل انهم من جرهم ، والأشهر أنهم من العماليق .

وتزوج اسماعيل زوجته الثانية ، وهي سامة بنت مهلهل بن سعد بن عوف بن هيني ابن نبت .

زيارة ابراهيم الثانية

واستأذن ابراهيم سارة في زيارة اسماعيل ، فاستحلفته غيرة عليه أنه اذا أتى الموضع لا ينزل من ركابه .

وقد تنازع الناس على أي شيء كان ركوبه : فمنهم من قال انه كان راكبا على البراق ، ومنهم من قال على أتان ، وقيل غير ذلك من الحيوان .

فلما أتى ابراهيم الوادي سلم على زوجة اسماعيل الجرهمية، فسلمت عليه ، ورحبت به وتلقته بأحسن لقاء . وسألها عن اسماعيل وهاجر ، فأخبرته بخبرهما ، وأنهما في رعيهما ، وعرضت عليه النزول ، فأبى .

وقيل : ان هاجر كانت قد ماتت ولها من السن تسعون سنة . وألحت الجرهمية على ابراهيم في النزول ، فأبى . فقدمت اليه لبنا وشرائح من لحم الصيد ، فدعا فيه بالبركة ، وجاءته بحجر كان في البيت ، فمال عن ركابه ، وجعلته تحت قدمه اليمنى ، ثم رجلت شعره ودهنته ، ثم حولت الحجر الى شماله ، فوضع رجله اليسرى عليه ايضا ، ومال برأسه نحوها ، فرجلته ودهنته .

فأثرت قدماه في الحجر على ما وصفنا من ترتيب اليمين والشمال ، فلما رأت الجرهمية ذلك أكبرت ما شاهدته ، وهذا الحجر هو مقام ابراهيم ، فقال لها ابراهيم : ارفعيه ، فسيكون له شأن ونبأ بعد حين .

ثم قال لها : اذا جاءك إسماعيل فقولي له : ان ابراهيم يقرأ عليك السلام ويقول لك احتفظ بعتبة بيتك ، فنعمت العتبة هي .

وسار ابراهيم راجعا نحو الشام .

سر تسمية اسماعيل

وقيل : انما سمي اسماعيل لأن الله سمع دعاء هاجر ورحمها حين هربت من سيدتها سارة ام اسحاق .

وقيل : ان الله سمع دعاء ابراهيم .

وقبض اسماعيل وله مائة وسبع وثلاثون سنة ، فدفن في المسجد الحرام حيال الموضع الذي كان فيه الحجر الأسود .

أبناء اسماعيل

وولد لاسماعيل اثنا عشر ولدا ذكرا ، وهم : نابت ، وقيدار ، وأدبيل ، ومبسم ، ومشمع ، ودوما ، ودوام ، ومسا ، وحداد ، وثيما ، ويطور ، ونافش . وكل هؤلاء قد أنسل .

بناء الكعبة

وقد كان ابراهيم قدم الى مكة ولاسماعيل ثلاثون سنة ، حين أمره الله تعالى ببناء

البيت ، فبناه . وكان اسماعيل يأتي بالحجر من عدة جبال ذكرت ، وطوله ثلاثون ذراعا . والحجر فيه وهو سبعة أذرع ، وعرضه اثنان وعشرون ذراعا ، وسمكه سبعة أذرع . وجعل له بابا ، ولم يسقف ، ووضع الركن موضعه ، وألصق المقام بالبيت . .

وذلك قوله عز وجل : « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ، ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » .

وأمر الله تعالى ابراهيم أن يؤذن في الناس بالحج .

ولاة البيت من جرهم
وأبناء اسماعيل

ولما قبض اسماعيل قام بالبيت بعده نابت بن اسماعيل ، ثم قام من بعده اناس من جرهم ، لغلبة جرهم على ولد اسماعيل .

وكان ملك جرهم يومئذ الحارث بن مضاض ، وهو أول من ولي البيت ، وكان ينزل هناك في الموضع المعروف بقعيقعان في هذا الوقت ، وكان كل من دخل مكة بتجارة عشرها عليه ، وذلك في أعلى مكة .

وملك العماليق السميدع بن هوبر بن لاوى بن قبطور بن كركر بن حيد وكان ينزل أجيادا من أسفل مكة ، وكان يعشر من دخل مكة من ناحيته .

وكانت بينهم حروب ، فخرج الحارث بن مضاض ملك جرهم تتقعقع معه الرماح والدرق ، فسمي الموضع بقعيقعان لما ذكرنا . وخرج السميدع ملك العماليق ومعه الجياد من الخيل فعرف الموضع بأجياد الى هذا الوقت ، فكانت على الجرهميين وافتضحوا ، فسمي الموضع فاضحا الى هذا الوقت ، ثم اصطلحوا ونحروا الجزر وطبخوا فسمي الموضع بطابخ الى الآن ، وصارت ولاية البيت الى العماليق .

ثم كانت لجرهم عليهم ، وأقاموا ولاة البيت نحو ثلثمائة سنة ، وكان آخر ملوكهم الحارث بن مضاض الأصغر بن عمرو بن الحارث بن مضاض الأكبر . وزادوا في بناء البيت ورفعته على ما كان عليه من بناء ابراهيم عليه السلام .

اساف ونائلة

وبغت جرهم في الحرم وطغت ، حتى فسق رجل منهم في الحرم بامرأة ، وكان الرجل يدعى باساف والمرأة نائلة ، فمسخهما الله عز وجل حجرين ، صيرا بعد ذلك وثنين وعبدا تقربا بهما الى الله تعالى .

وقيل : بل هما حجران نحتا ومثلا بمن ذكرنا وسميا بأسمائهما .

فبعث الله على جرهم الرعاف والنمل وغير ذلك من الآفات فهلك كثير منهم .

وكثر ولد اسماعيل ، وصاروا ذوي قوة ومنعة ، فغلبوا على أخوالهم جرهم وأخرجوهم من مكة ، فلحقوا بجهينة ، فأتاهم في بعض الليالي السيل فذهب بهم .

وكان الموضع يعرف بإضم ، وقد ذكر ذلك أمية بن أبي الصلت الثقفي في شعر له فقال :

وجرهم دمنوا تهامة في الدّ   دهر فسالت بجمعهم اضم

وفي ذلك يقول الحارث بن مضاض الأصغر الجرهمي :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا   أنيس ، ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها ، فأبادنا   صروف الليالي والجدود العواثر
وكنا لاسماعيل صهرا ووصلة   ولما تدر فيها علينا الدوائر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت   نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
فبدلنا ربي بها دار غربة   بها الذئب يعوي والعدو المحاصر

وفيما ذكرنا من أخبارهم يقول عمرو بن الحارث بن مضاض الأصغر الجرهمي :

وكنا ولاة البيت والقاطن الذي   اليه يؤدي نذره كل محرم
سكنا بها قبل الظباء وراثة   لها عن بني هيني بن نبت بن جرهم

وفي ذلك يقول :

كهفنا جرهم وآية كهف   وولاة لبيته والحجاب
فسقوا في الحرام بعد تقاهم   واستعاضوا العقاب بعد الثواب

ثم صارت ولاية البيت في ولد اياد بن نزار بن معد ، وكانت حروب كثيرة بين مضر واياد ، وكانت لمضر على اياد ، فانجلوا عن مكة الى العراق .

وسنورد بعد هذا جملا من أخبار مكة وولد نزار وخزاعة وغيرهم .

***

رواية أخرى في الولاة بمكة

قال المسعودي : وقدأتينا على جمل من الأخبار في هذا الباب من أخبار جرهم وغيرها ، ووجدت في وجه آخر من الروايات أن أول من ملك من ملوك جرهم بمكة مضاض بن عمرو ابن سعد بن الرقيب بن هيني بن نبت بن جرهم بن قحطان مائة سنة .

ثم ملك بعده ابنه عمرو بن مضاض مائة وعشرين سنة .

ثم ملك بعده الحارث بن عمرو مائتي سنة ، وقيل دون ذلك .

ثم ملك بعده عمروبن الحارث مائتي سنة ، وقيل دون ذلك .

ثم ملك مضاض بن عمرو الأصغر بن الحارث بن عمرو بن مضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن هيني بن نبت بن جرهم بن قحطان أربعين سنة .

وانقرضت العرب العاربة من عاد وثمود وعبيد وطسم وجديس والعماليق ووبار وجرهم ، ولم يبق من العرب الا من كان من عدنان وقحطان . ودخل من بقي ممن ذكرنا من العرب البائدة في عدد قحطان وعدنان فانمحت أنسابهم وزالت آثارهم .

العماليق

وقد كانت العماليق بغت في الأرض ، فسلط الله عليهم ملوك الأرض فأفنتها .

وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا للروم وأنسابها من ألحق ولد عملاق ، وغيرهم ، ممن ذكرنا ، بولد عيصو بن اسحاق بن ابراهيم عليهما السلام ، وأن علماء العرب تنسبهم الى غير هذا النسب ، وهو الأشهر في الناس .

وقد رثتهم الشعراء ، فقال بعض من رثاهم :

مضى آل عملاق فلم يبق منهم ... خطير ، ولا ذو نخوة متشاوس
عتوا فأدال الله منهم ، وحكمه ... على الناس هذا وعده وهو سائس

طسم وجديس

وأما طسم وجديس فتفانت في نحو من سبعين سنة في البراري ، بما كان بينهم من الشحناء وطلب الرياسة ، فدثروا ولم يبق لهم باقية . فضربت بهم العرب المثل ، وضربت بهم الشعراء المقال ، فمن ذلك ما قاله بعض الشعراء ممن رثاهم في قوله :

فويلي مـن جـوى هـم رسيس	من الـلأوا لطسم أو جديس
بنـو عـم تفـانوا بالمذاكي	وباليـوم الأحـم العيطموس

اصحاب الرس

أما الرس وأصحابه فقد قدمنا ذكرهم فيما سلف من كتبنا ، وهم قوم حنظلة بن صفوان العبسي ، بعثه الله اليهم فكذبوه ، وقد ذكرنا من خبره لمعا . وقد قيل في أصحاب الرس أوجه كثيرة غير ما ذكرنا في هذا الكتاب .

وقد ذكرت هذه القبائل في التوراة ، وكل يرجع الى ولد سام بن نوح ، ومن بني ارم ابن سام وهو من ولده عوص بن ارم ، ومن ولده عابر بن ارم ، ومن ولده ماش بن ارم .

النبيط

فولد عوص عاد بن عوص ، وولد عابر ثمود بن عابر ، وولد ماش بن ارم نبيط بن ماش . . فسائر النبط وملوكها ترجع في أنسابها الى نبيط بن ماش .

مساكن عاد وثمود وجديس
وطسم وعيلام ونبيط

فحل عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح وولده الأحقاف من بلاد حضرموت .

وحل ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح وولده أكناف الحجاز .

وحل جديس بن عابر بلاد جو ، وهي بلاد اليمامة ما بين البحرين والحجاز .

وهذا البلد في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) بيد ولد الأخيضر العلوي ، وهو من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو مجاور للبحرين ومن فيها الى هذا الوقت .

وحل طسم بن لود بن سام بن نوح وولده اليمامة مع بني جديس .

وحل عمليق بن لود بن سام بن نوح الحجاز .

وقد ذكرنا ولد عيلام فيما سلف من هذا الكتاب أنهم حلوا الأهواز وفارس ، وهو عيلام ابن سام بن نوح .

وحل نبيط بن ماش بن ارم بن سام بن نوح بابل ، فغلبوا على العراق ، وهم النبط ، ومنهم ملوك بابل الذين قدمنا ذكرهم ، وأنهم الملوك الذين عمروا الأرض ، ومهدوا البلاد ، وكانوا أشر ملوك الأرض ، فأدال منهم الدهر ، وسلبهم الملك والعز ، فصاروا على ما هم عليه من الذل في هذا الوقت بالعراق وغيرها .

دعوى الشعوبية

وقد زعم جماعة من المتكلمين ـ منهم ضرار بن عمرو وثمامة بن الأشرس وعمرو بن بحر الجاحظ ـ أن النبط خير من العرب ، لأن من جعل الله تبارك وتعالى النبي صلى الله عليه وسلم منهم لم يدع أكبر شرف في الدنيا الا وقد أعطاهم اياه ، ومن لم يجعله منهم فلم يدع أكبر شرف في الدنيا الا وقد أعراهم منه وسلبهم اياه ، ولا نعمة على من جعل الله تعالى النبي عليه السلام منهم أكبر من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا بلوى على من لم يجعل الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم منهم أكبر من خروج النبي صلى الله عليه وسلم عنهم ، الا انهم مع هذا كله لهم عند الله فضل ما بين النعمة والبلاء .

الرد على الشعوبية

قال المسعودي : ولما لم يبال من قدمنا ذكره من تشريف النبط وتفضيلهم على ولد قحطان وعدنان ، وفيهم الفضل والشرف من النبوة والملك والعزة ، قال لهم المحتج عن قحطان ونزار :

اذا كان النبط قد صاروا أفضل من العرب لما امتحن الله به النبط من سلبه النبوة منهم وأنعم العرب بكون النبي صلى الله عليه وسلم منهم ، فللعرب أيضا التعلق بهذه العلة التي اعتل بها النبط، فتقول: قد صرنا بعد أفضل من النبط ، لما امتحنا به من سلب ما جعل الله للنبط من الفضل في شدة امتحانهم بسلب النبي صلى الله عليه وسلم عنهم ، والنبط ايضا قد صاروا دون العرب ، اذ للعرب من فضل النبي صلى الله عليه وسلم مما جعله الله لهم بتعريتهم من فضل النبط على شدة امتحانهم بتعرية الله اياهم من النبي صلى الله عليه وسلم ما ليس للنبط ، فتصير العرب أيضا خيرا من النبط . وهذا لا يصح لهم الا كما يصح عليهم ، والكلام متوجه عليهم فيما قالوه ، ومكافىء لعلتهم فيما اوردوه من تفضيل النبط على العرب .

وقد ذكرنا تنازع الناس في الأنساب والفضل بها وبالأعمال دون الأنساب ، ومن قال العمل والنسب ، ومن قال العمل دون النسب ، وما قالته الشعوبية وغيرها في كتابنا « المقالات في أصول الديانات » .

وقد ذكر أبو الحسن أحمد بن يحيى في كتابه في الرد على الشعوبية عللا كثيرة ، وذكر أن من اختصه الله تعالى من عباده ، واصطفاه من خلقه ، إذاك على طريق الثواب أم على طريق التفضيل ؟

قال : فان زعم زاعم أن ذلك ثواب خرج من معقول كلام العرب ومفهوم خطابها ،

لأنه لا يقال لمن أعطى الأجير أجرته ووفى العامل ثوابه : قد اختص فلان فلانا بعطيته ، وانما يقال ذلك اذا تطوع عليه بالعطية بغير عمل ومنعها غيره بغير جرم .

وان زعموا أنه تفضل قلنا لهم : فاذا جاز أن يصرف الله عز وجل رحمته الى بعض خلقه بغير عمل استحقوها به ، فلم لا يجوز أن يشرفهم بأنسابهم ، وان لم تكن الأنساب من أعمالهم ؟!

فان قالوا : ليس من العدل أن يشرفهم بغير أعمالهم ، قلنا لهم : أرأيتكم ان عارضكم معارض ، فزعم أنه ليس من العدل أن يمن عليهم برحمته دون غيرهم بغير عمل كان منهم ، وبغير معصية كانت من غيرهم ، ماذا يكون الفصل بينكم معاشر الشعوبية وبينه ، وقد أخبر الله عمن اصطفاه من خلقه فقال : « ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم » .

والواجب على ذي النسب الشريف ، والمجد الرفيع ، ألا يجعل ذلك سلما الى التراخي عن الأعمال الموافقة لنسبه ، والاتكال على آبائه ، فان شرف الأنساب يحض على شرف الأعمال ، والشريف بهذا أولى ، اذ كان الشرف يدعو الى الشرف ولا يثبط عنه ، كما أن الحسن يدعو الى الحسن ويحرك عليه .

وأكثر الممدوحين انما مدحوا بأعمالهم دون أنسابهم ، وهذا كثير في أشعار الناس ومنثور كلامهم ، وقد قال الشاعر في هاشم بن عبد مناف وهو امام ذوي الأنساب :

عمرو الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف

فمدحه بعمله ، ولم يذكر نسبه ، وان كان شريفا رفيعا ، وانما ينبغي لذوي الأنساب أن يكونوا كما قال أخوهم وشريكهم في النسب عامر بن الطفيل :

واني وان كنت ابن سيد عامر وفي السر منها والصريح المهذب
فما سودتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها ، وأتقي أذاها ، وأرمي من رماها بمقنب

وكما قال الآخر :

لسنا وان كرمت أوائلنا يوما على الأحساب نتكل

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل كالذي فعلوا

***

ولاية خزاعة أمر البيت

قال المسعودي : ولما خرج عمرو بن عامر وولده من مأرب ، انخزع بنو ربيعة فنزلوا تهامة ، فسموا خزاعة لانخزاعهم .

ولما ثارت الحرب بين اياد ومضر ابني نزار وكانت على اياد ، قلعت الحجر الأسود ودفنته في بعض المواضع ، فرأت ذلك امرأة من خزاعة ، فأخبرت قومها ، فاشترطوا على مضر أنهم ان ردوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم .

عمرو بن لحي أول من عبد الاصنام

فوفوا لهم بذلك ، ووليت خزاعة أمر البيت وكان أولَ من وليه منهم عمرو بن لحي ، واسم لحي حارثة بن عامر ، فغير دين ابراهيم وبدله ، وبعث العرب على عبادة التماثيل ، لخبر قد ذكرناه في هذا الكتاب وغيره ، حين خرج الى الشام ورأى قوما يعبدون الأصنام ، فأعطوه منها صنما فنصبه على الكعبة .

وقويت خزاعة ، وعم الناس ظلم عمرو بن لحي ، وفي ذلك يقول رجل من جرهم كان على دين الحنيفية :

يا عمرو لا تظلم بمكـ ـــة انها بلد حرام
سائل بعاد أين هم وكذاك تخترم الأنام
وبني العماليق الذيـ ـن لهم بها كان السوام

ولما أكثر عمرو بن لحي من نصب الأصنام حول الكعبة وغلب على العرب عبادتها ، وانمحت الحنيفية منهم الا لمعا ، قال في ذلك شحنة بن خلف الجرهمي :

يا عمرو ، انك قد أحدثت آلهة شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت رب واحد أبدا فقد جعلت له في الناس أربابا
لتعرفن بأن الله في مهل سيصطفي دونكم للبيت حجابا

وعمر عمرو بن لحي ثلثمائة سنة وخمسا وأربعين سنة .

خصال ولاية البيت الثلاث

وكانت ولاية البيت في خزاعة وفي مضر ثلاث خصال : الاجازة بالناس من عرفة ، والافاضة بالناس غداة النحر الى منى . فانتهى ذلك منهم الى أبي سيارة ، فدفع أبو سيارة من مزدلفة الى منى اربعين سنة على حمار له ، ولم يعتل في ذلك ، حتى أدركه الاسلام ، فكانت العرب تتمثل به فتقول: « أصح من عير أبي سيارة » .

وفي أبي سيارة يقول قائلهم :

نحن دفعنا عن أبي سيارة حتى أفاض محرما حماره
مستقبل القبلة يدعو جاره

النسء والنسأة

والنسء للشهور الحرم[1] ، وكانت النسأة في بني مالك بن كنانة ، وكان أولهم أبو القلمس حذيفة بن عبد ، ثم ولده قلع بن حذيفة ، وورد الاسلام ، وآخرهم أبو ثمامة . وذلك أن العرب كانت اذا فرغت من الحج وأراد ت الصدر اجتمعت اليه ، فيقوم فيهم فيقول : اللهم اني قد أحللت أحد الصفرين الصفر الأول ، وأنسأت الآخر للعام المقبل .

وظهر الاسلام وقد عادت الشهور الحرم الى بدئها على ما كانت عليه في أصلها ، وذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم :« ألا ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » وما ذكر عليه السلام في هذا الحديث الى آخره فأخبر الله عز وجلّ عنهم بذلك بقوله تعالى : « انما النسيء زيادة في الكفر » .

وقد فخر بذلك عمير بن قيس بن جذل الطعان فقال :

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما ؟

ولاية البيت تؤول الى قصي بن كلاب

وقد كان قصي بن كلاب بن مرة تزوج ابنة حليل ، وحليل هو آخر من ولي البيت من خزاعة ، وقد كان عمرو بن لحي ـ حين عمر ما ذكرنا من السنين ـ مات وله من الولد وولد الولد ألف .

ولما حضرت حليلا الوفاة ـ وهو آخر من ولي البيت من خزاعة ـ وقد كان عمرو على ما

---

١ ـ هذه هي الخصلة الثالثة بعد الاجازة والافاضة .

ذكرنا جعل ولاية البيت الى ابنته زوج قصي بن كلاب ، فقيل له : انها لا تقوم بفتح الباب وغلقه .

فجعل ولاية البيت اليها ، وفتح الباب وغلقه الى رجل من خزاعة يعرف بأبي غبشان الخزاعي ، فباعه أبو غبشان الى قصي ببعير وزق خمر ، فأرسلت العرب ذلك مثلا ، فقالت : « أخسر من صفقة أبي غبشان » .

وفي بيعه لولاية البيت ببعير وزق من الخمر ونقله ولاية البيت من قومه من خزاعة الى قصي بن كلاب ، يقول الشاعر :

أبو غبشان أظلم من قصي وأظلم من بني فهر خزاعة
فلا تلحوا قصيا في شراه ولوموا شيخكم اذ كان باعه

وقال في ذلك آخر :

اذا افتخرت خزاعة في قديم وجدنا فخرها شرب الخمور
وباعت كعبة الرحمن جهرا بزق ، بئس مفتخر الفجور

وقد كانت ولاية البيت في خزاعة ثلثمائة سنة ، واستقام أمر قصي ، وعشر على من دخل مكة من غير قريش ، وبنى الكعبة ، ورتب قريشا على منازلها في النسب بمكة ، وبين الأبطحي من قريش ، وهم الأباطح ، وجعل الظاهري ظاهريا .

قريش البطاح

وقريش البطاح : هي قبائل عبد مناف ، وبني عبد الدار ، وبني عبد العزى بن قصي ، وزهرة ، ومخزوم ، وتيم بن مرة ، وجمح ، وسهم ، وعدي ، وهم لعقة الدم ، وبنو عتيك بن عامر بن لؤي .

قريش الظواهر

وقريش الظواهر : بنو محارب والحارث بن فهر ، وبنو الأدرم بن غالب بن فهر ، وبنو هصيص بن عامر بن لؤي .

وفي ذلك يقول ذكوان مولى عبد الدار للضحاك بن قيس الفهري :

تطاولت للضحاك حتى رددته الى نسب في قومه متقاصر

فلو شاهدتني من قريش عصابة ... قريش البطاح لا قريش الظواهر
ولكنهم غابوا واصبحت شاهدا ... فقبحت من حامي ذمار وناصر
فريقان منهم ساكن بطن يثرب ... ومنهم فريق ساكن بالمشاعر

الأحلاف

والأحلاف من قريش : بنو عبد الدار بن قصي ، وسهم ، وجمح ، وعدي ، ومخزوم .

المطيبون

والمطيبون : بنو عبد مناف ، وبنو أسد بن عبد العزى ، وزهرة ، وتيم ، وبنو الحارث بن لؤي .

وفي ذلك يقول عمر بن أبي ربيعة المخزومي في امرأة :

ولها في المطيبين جدود ... ثم نالت ذوائب الأحلاف
انها بين عامر بن لؤي ... حين تدعى وبين عبد مناف

الايلاف والتقريش

وأخذت قريش الايلاف من الملوك ، وتفسير ذلك الأمن ، وتقرشت ، والتقرش : الجمع ، ومنه قول ابن حلزة اليشكري :

اخوة قرشوا الذنوب علينا ... في حديث من دهرنا وقديم

ورحلت قريش ، حين اخذ لها الايلاف من الملوك ، الى الشام والحبشة واليمن والعراق ، وفي ذلك يقول مطرود الخزاعي :

يا أيها الرجل المحول رحله ... هلا نزلت بآل عبد مناف
الآخذين العهد من آنافنا ... والراحلين برحلة الايلاف

ولقريش أخبار كثيرة ، وكذلك لجرهم وخزاعة وغيرهما من معد ، قد أتينا على جميعها

فيما سلف من كتبنا ، وانما نذكر في هذا الكتاب لمعا ، تنبيها بها على ما سلف . وسنورد عند ذكرنا تفرق الناس من بابل جملا من أخبار مكة وعبد المطلب والحبشة وغير ذلك مما لحق بهذا المعنى ، ان شاء الله .

ذِكرُ جَوامِعٍ مِنَ الأخبَار
وَوَصفُ الأرضِ وَالبُلدان وَحَنِينِ النّفوسِ للأوطَان

عمر بن الخطاب رضي الله عنه
يستوصف بقاع الأرض

ذكر ذوو الدراية أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك من الأرض ـ كتب الى حكيم من حكماء العصر : إنا أناس عرب ، وقد فتح الله علينا البلاد ، ونريد أن نتبوأ الأرض ، ونسكن البلاد والأمصار ، فصف لي المدن وأهويتها ومساكنها ، وما تؤثره الترب والأهوية في سكانها .

تأثير البيئة الطبيعية

فكتب اليه ذلك الحكيم :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن تعالى قد قسم الأرض أقساما : شرقا وغربا وشمالا وجنوبا : فما تناهى في التشريق ولجج في المطلع ألسانح منه النور ، فهو مكروه لاحتراقه وناريته وحدته واحراقه لمن دخل فيه . وما تناهى مغربا أيضا أضر سكانه ، لموازاته ما أوغل في التشريق .

« وهكذا ما تناهى في الشمال أضر ببرده وقره وثلوجه وآفاته الأجسام فأورثها الآلام ، وما اتصل بالجنوب وأوغل فيه أحرق بناريته ما اتصل به من الحيوان ، ولذلك صار المسكون من الأرض جزءا يسيرا ، ناسب الاعتدال ، وأخذ بحظه من حسن القسمة . وسأصف لك يا أمير المؤمنين القطع المسكونة من الأرض .

الشام

« أما الشام فسحب وآكام ، وريح وغمام وغدق ركام ، ترطب الأجسام ، وتبلد الأحلام ، وتصفي الألوان ، لا سيما أرض حمص فانها تحسن الجسم ، وتصفي اللون ، وتبلد الفهم ، وتنزح غوره ، وتجفي الطبع ، وتذهب بماء القريحة ، وتنضب العقول .

« والشام يا أمير المؤمنين ، وان كانت على ما وصفت لك ، فهي مسرح خصب ، ووابل سكب ، كثرت أشجاره ، واطردت أنهاره ، وغمرت أعشاره ، وبه منازل الأنبياء ، والقدس المجتبى ، وفيه حل أشرف خلق الله تعالى من الصالحين والمتعبدين ، وجباله مساكن المجتهدين والمنفردين .

مصر

« وأما أرض مصر فأرض قوراء غوراء ، ديار الفراعنة ، ومنازل الجبابرة ، تحمد

بفضل نيلها ، وذمها أكثر من حمدها ، هواؤها راكد ، وحرها زائد ، وشرها وارد ، تكدر الألوان ، وتخبب الفطن ، وتكثر الاحن .

« وهي معدن الذهب والجوهر والزمرد والأموال . ومعارس الغلات ، غير أنها تسمن الأبدان وتسود الأبشار . وتنمو فيها الأعمار ، وفي أهلها مكر ورياء ، وخبث ودهاء وخديعة ، الا أنها بلد مكسب لا بلد مسكن ، لترادف فتنها ، واتصال شرورها .

اليمن

« وأما اليمن فيضعف الأجسام ، ويذهب الاحلام ، ويذهب بالرطوبة ، في أهله همم كبار ، ولهم أحساب وأخطار ، مغايضة خصبة ، وأطرافه جدبة ، وفي هوائه انقلاب ، وفي سكانه اغتيال ، وبهم قطعة من الحسن ، وشعبة من الترفه ، وفقرة من الفصاحة .

الحجاز

« وأما الحجاز فحاجز بين الشام واليمن والتهائم ، هواؤه حرور ، وليله بهور ، ينحف الأجسام ، ويجفف الأدمغة ، ويشجع القلوب ، ويبسط الهمم ، ويبعث على الاحن ، وهو بلد محل قحط جدب ضنك .

المغرب

« وما المغرب فيقسي القلب ، ويوحش الطبع ، ويطيش اللب ، ويذهب بالرحمة ، ويكسب الشجاعة ، ويقشع الضراعة ، وفي أهله غدر ، ولهم خبث ومكر ، ديارهم مختلفة ، وهممهم غير مؤتلفة . ولديارهم في آخر الزمان نبأ عظيم ، وخطب جسيم ، من أمر يظهر ، وأحوال تبهر .

العراق

« وأما العراق فمنار الشرق ، وسرة الأرض وقلبها ، اليه تحادرت المياه ، وبه اتصلت النضارة ، وعنده وقف الاعتدال ، فصفت أمزجة أهله ، ولطفت أذهانهم ، واحتدت خواطرهم ، واتصلت مسراتهم ، فظهر منهم الدهاء ، وقويت عقولهم ، وثبتت بصائرهم .

« وقلب الأرض العراق ، وهو المجتبى من قديم الزمان ، وهو مفتاح الشرق ، ومسلك النور ، ومسرح العينين ، ومدنه المدائن وما والاها ، ولأهله أعدل الألوان ، وأنقى الروائح ، وأفضل الأمزجة ، وأطوع القرائح ، وفيهم جوامع الفضائل ، وفوائد المبرات ، وفضائله كثيرة ، لصفاء جوهره . وطيب نسيمه ، واعتدال تربته ، واغداق الماء عليه ، ورفاهية العيش به .

الجبال

« وأما الجبال فتخشن الأجسام وتغلظها ، وتبلد الأفهام وتقطعها ، وتفسد الأحلام ، وتميت الهمم ، لما هي عليه من غلظ التربة ، ومتانة الهواء ، وتكاثفه ، واختلاف مهابه ، وسوء متصرفاته .

« والأخلاق والصور يا أمير المؤمنين تناسب البلد وتحاذيه ، وتقاربه وتوافقه وتضاهيه وكل بلد اعتدل هواؤه ، وخف ماؤه، ولطف غذاؤه ، كانت صور أهله وخلائقهم تناسب البلد وتحاذيه ، وتشاكل ما عليه أركانه ، وما أسس عليه بنيانه ، وكل بلد يزول عن الاعتدال ، انتسب أهله الى سوء الحال .

خراسان

« وأما خراسان فتكبر الهام ، وتعظم الأجسام وتلطف الأحلام ، ولأهلها عقول وهمم طامحة ، وفيهم غوص وتفكير ، ورأي وتقدير .

فارس

« وأما بلد فارس فخصب الفضاء ، رقيق الهواء ، متراكم الماء ، معتم بالأشجار ، كثير الثمار ، وفي أهله شح ، ولهم خب ، وغرائزهم سيئة ، وهممهم دنيئة ، وفيهم مكر وخداع .

خوزستان

« وأما بلاد خوزستان فهي كدرة الأهواء ، تفسد الأحلام ، وتبلد الأفهام ، وتخبث الهمم ، وتستأصل الكرم ، يساق أهله سوق الأنعام ، وهم الهمج الطغام .

الجزيرة

« وأما أرض الجزيرة فتناسب البر بالهواء اللطيف ، وفيها خصب وسرح ، ولأهلها بأس ومراس .

« والبر يا أمير المؤمنين أفضل قطع الأرض وأسناها ، وأشرفها وأعلاها ، نحو الأنجاد والتهائم ، لحماية الهواء الأقذاء عن سكانه ، ودفعه الآفات عن قطانه ، وسماحة المثوى ، وتهذيب الماء ، وصحة المتنسم ، وارتفاع الأكدار ، وذهاب الأضرار .

« واعلم يا أمير المؤمنين أن الله تبارك وتعالى قسم الأرض أقساما فضل بعضها على بعض ، فأفضل أقسامها العراق ، فهو سيد الآفاق ، وقد سكنه أجيال وأمم ذوو كمال .

الهند والصين

« وأما الهند والصين وبلاد الروم فلا حاجة بي الى وصفها لك ، لأنها منازل شاسعة ، وبلدان نائية كافرة طاغية .

« وفي الذي ذكرته لك ما أشفى بك الى ما شمرت الى علمه ، وكل ما وصفته في هذه البلدان فهو الأعم من أمور أهلها ، والأغلب على أحوالهم ، فان وجد فيهم احد بخلاف ذلك فهو النادر يا أمير المؤمنين ، والحكم في ذلك للأغلب » .

كعب الأحبار يصف العراق
لعمر رضي الله عنه

قال المسعودي : وذكر جماعة من أهل العلم بالسير والأخبار أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أراد الشخوص الى العراق ، حين بلغه ما عليه الأعاجم من الجمع ببلادهم ، سأل كعب الأحبار عن العراق ، فقال :

« يا أمير المؤمنين ، ان الله لما خلق الأشياء ألحق كل شيء بشيء ، فقال العقل : أنا لاحق بالعراق ، فقال العلم : أنا معك .

« فقال المال : وأنا لاحق بالشام ، فقالت الفتن : وأنا معك .

« فقال الخصب : وأنا لاحق بمصر ، فقال الذل : وأنا معك .

« فقال الفقر : وأنا لاحق بالحجاز ، فقالت القناعة : وأنا معك .

« فقال الشقاء : وأنا لاحق بالبوادي ، فقالت الصحة : وأنا معك » .

وصف اقليم بابل
وحنين المؤلف اليه

قال المسعودي : وأوسط الأقاليم الاقليم الذي ولدنا به ، وان كانت الأيام أنأت بيننا وبينه ، وساحقت مسافتنا عنه ، وولدت في قلوبنا الحنين اليه ، اذ كان وطننا ومسقطنا ، وهو اقليم بابل .

وقد كان هذا الاقليم عند ملوك الفرس جليلا ، وقدره عظيما ، وكانت عنايتهم اليه مصروفة ، وكانوا يشتون بالعراق ، وأكثرهم يصيفون بالجبال ، وينتقلون في الفصول الى الصرود من الأرض والحرور .

وقد كان أهل المروءات في الاسلام كأبي دلف القاسم بن عيسى العجلي وغيره يشتون في الحرور ، وهو العراق ، ويصيفون في الصرود ، وهي الجبال . وفي ذلك يقول أبو دلف :

وانّي امرؤ كسروي الفعال   أصيف الجبال وأشتو العراقا

وذلك لما خص به هذا الاقليم من كثره مرافقه ، واعتدال أرضه ، وغضارة عيشه ،

ومادة الوافدين اليه ، وهما دجلة والفرات ، وعموم الأمن فيه ، وبعد الخوف عنه ، وتوسطه الأقاليم السبعة .

وقد كانت الأوائل تشبهه من العالم بالقلب من الجسد ، لأن أرضه من اقليم بابل الذي تشعبت الآراء عن أهله بحكمة الأمور كما يقع ذلك عن القلب ، وبذلك اعتدلت ألوان أهله ، واقتدرت أجسامهم ، فسلموا من شقرة الروم والصقالبة ، وسواد الحبشة ، وغلظ البربر ، ومن جفا من الأمم ، واجتمعت فيهم محاسن جميع الأقطار ، وكما اعتدلوا في الجبلة ، كذلك لطفوا في الفطنة ، والتمسك بمحاسن الأمور .

وأشرف هذا الاقليم مدينة السلام ، ويعز على ما أصارتني اليه الأقدار من فراق هذا المصر الذي عن بقعته فصلنا ، وفي قاعته تجمعنا ، لكنه الزمن الذي من شيمته التشتيت ، والدهر الذي من شروطه الابانة ، ولقد أحسن أبو دلف العجلي حيث يقول :

أيا نكبة الدهــر التي طوحت بنا   أيــادي سبا في شرقهــا والمغارب
قفي بالتي نهوى فقد طرت بالتي   اليهـا تناهـت راجعـات المصائب

الحنين الى الأوطان

وقد ذكر الحكماء ـ فيما خرجنا اليه من هذا المعنى ـ أن من علامة وفاء المرء ودوام عهده حنينه الى اخوانه ، وشوقه الى أوطانه ، وبكــاءه على ما مضى من زمانه ، وأن من علامة الرشد أن تكون النفوس الى مولدها مشتاقة ، والى مسقط رأسها تواقة ، وللالف والعادة قطع الرجال نفسه لصلة وطنه .

وقال ابن الزبير : ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم .

وقال بعض حكماء العرب : عمر الله البلدان بحب الأوطان .

وقالت الهند : حرمة بلدك عليك كحرمة والديك ، لأن غذاءك منهما ، وغـذاءهما منه .

وقال آخر : أولى البلدان بصيانتك بلد رضعت ماءه ، وطعمت غذاءه .

وقال آخر : ميلك الى موضع مولدك من كرم محتدك .

وقال أبقراط : يداوى كل عليل بعقاقير أرضه ، فان الطبيعة تتطلـع الى هوائهـا ، وتنزع الى غذائها .

وقال أفلاطون : غذاء الطبيعة من أنفع أدويتها .

وقال جالينوس : يتروح العليل بنسيم أرضه ، كما تنبت الحبة ببلل الأرض .

وللنفوس في علة حنينها الى الأوطان كلام ليس هذا موضعه ، وقد ذكرناه في كتابنا المترجم بـ « سر الحياة » وفي كتاب « طب النفوس » .

فضل علم الأخبار

ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر لبطل أول العلم ، وضاع آخره ، اذ كان كل علم من الأخبار يستخرج ، وكل حكمة منها تستنبط ، والفقه منها يستثار ، والفصاحة منها تستفاد، وأصحاب القياس عليها يبنون ، وأهل المقالات بها يحتجون ، ومعرفة الناس منها تؤخذ ، وأمثال الحكماء فيها توجد ، ومكارم الأخلاق ومعاليها منها تقتبس ، وآداب سياسة الملك والحزم منها تلتمس ، وكل غريبة منها تعرف ، وكل عجيبة منها تستطرف .

وهو علم يستمتع بسماعه العالم والجاهل ، ويستعذب موقعه الأحمق والعاقل ، ويأنس بمكانه وينزع اليه الخاصي والعامي ، ويميل الى رواياته العربي والعجمي .

وبعد ، فانه يوصل به كل كلام ، ويتزين به في كل مقام ، ويتجمل به في كل مشهد ، ويحتاج اليه في كل محفل .

ففضيلة علم الأخبار بينة على كل علم ، وشرف منزلته صحيح في كل فهم ، فلا يصبر على فهمه وتيقن ما فيه ، وايراده واصداره ، الا انسان قد تجرد له ، وفهم معناه ، وذاق ثمرته ، واستفسر من غرره ، ونال من سروره .

فضل الكتاب

وقد قالت الحكماء : الكتاب نعم الجليس ، ونعم الذخر ، ان شئت ألهتك نوادره ، وأضحكتك بوادره ، وان شئت أشجتك مواعظه ، وان شئت تعجبت من غرائب فوائده .

وهو يجمع لك الأول والآخر ، والغائب والحاضر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب ، والبادي والحاضر ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده .

وهو ميت ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الأحياء . وهو مؤنس ينشط بنشاطك ، وينام بنومك ، ولا ينطق معك الا بما تهوى .

ولا نعلم جارا أبر ، ولا خليطا أنصف ، ولا رفيقا أطوع ، ولا معلما أخضع ، ولا صاحبا أظهر كفاية ، وأقل خيانة ، ولا أجدى نفعا ، ولا أحمد أخلاقا ، ولا أقل خلافا ، ولا أدوم سرورا ، ولا أسكت غيبة ، ولا أحسن موافاة ، ولا أعجل مكافأة ، ولا أخف مؤنة منه .

ان نظرت اليه أطال امتاعك ، وشحذ طباعك ، وأيد فهمك ،وأكثر علمك ، وتعرف منه في شهر ، ما لا تأخذه من أفواه الرجال في دهر ، ويغنيك عن كد الطلب ، وعن الخضوع لمن أنت أثبت منه أصلا ، وأسمح فرعا .

وهو العلم الذي لا يجفوك ، وان قطعت عنه المائدة ، لم يقطع عنك الفائدة ، وهو الذي يطيعك بالليل طاعته لك بالنهار ، ويطيعك في السفر كطاعته لك في الحضر . وقد قال الله تبارك وتعالى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » . . . فوصف عن نفسه أنه علم بالقلم ، كاخباره عن نفسه بالكرم ، وفي ذلك يقول بعض أهل الأدب :

لما علمت بأني لست أعجزهم ... فوتا ولا هربا قدمت أحتجب
فصرت بالبيت مسرورا به جذلا ... حاوي البراءة ، لا شكوى ولا شغب
فردا يحدثني حقا وينطق لي ... عن علم ما غاب عني منهم الكتب
المؤنسون هم اللائي عنيت بهم ... فليس لي في جليس غيرهم أرب
لله در جليسي لا جليسهم ... فذا عشيرهم للسوء يرتقب

وقد كان عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب لا يجالس الناس ، ونزل مقبرة ، وكان لا يرى الا وفي يده كتاب يقرأه . فسئل عن ذلك فقال : لم أر واعظا أوعظ من قبر ، ولا ممتعا أمتع من كتاب ، ولا شيئا أسلم من الوحدة .

فقيل له : قد جاء في الوحدة ما جاء !

فقال : ما أفسدها للجاهل .

وقد قال بعض الشعراء فيمن يجمع الكتب ولا يعلم ما فيها :

زوامل للأسفار لا علم عندهم ... بجيدها الا كعلم الأباعر
لعمرك ما يدري البعير اذا غدا ... بأحماله أو راح ما في الغرائر

ذِكرُ تنَازع النَّاسُ

في المعنى الذي من أجله سُمي اليمن يمناً ، والعراق عراقاً ،
والشام شاماً ، والحجاز حجازاً

تنازع الناس في اليمن وتسميته ، فمنهم من زعم أنه انما سمي يمنا لأنه عن يمين الكعبة ، وهو التيمن ، وسمي الشام شاما لأنه عن شمال الكعبة ، وسمي الحجاز حجازا لأنه حاجز بين اليمن والشام ، نحو ما أخبر الله عز وجل عن البرزخ الذي بين بحر القلزم وبحر الروم بقوله عز وجل : « وجعل بين البحرين حاجزا » .

وانما سمي العراق عراقا لمصب المياه اليه كالدجلة والفرات وغيرهما من الأنهار ، وأظنه مأخوذا من عراقي الدلو وعراقي القربة .

ومنهم من زعم أن اليمن انما سمي يمنا ليمنه ، والشام شاما لشؤمه ، وهذا قول يعزى الى قطرب النحوي في آخرين من الناس .

ومنهم من رأى أنه انما سمي اليمن يمنا لأن الناس حين تفرقت لغاتهم ببابل تيامن بعضهم يمين الشمس وهو اليمن ، وبعضهم تشاءم فوسم له هذا الاسم .

وسنذكر تفرق هذه القبائل من أرض بابل بعد هذا الموضع ، وبعض ما قالوه في ذلك من الشعر ، عند مسيرهم في الأرض واختيارهم البقاع .

وقيل : انما سمي الشام شاما لشامات في أرضه بيض وسود ، وذلك في التراب والبقاع والحجر وأنواع النبات والأشجار . وهذا قول الكلبي .

وقال الشرقي بن القطامي : انما سمي الشام شاما بسام بن نوح ، لأنه أول من نزله وقطن فيه ، فلما سكنته العرب تطيرت من أن تقول سام ، فقالت : شام .

وقيل : ان سامرا انما سميت بذلك اضافة الى سام .

وقيل : ان أول من سكنها من خلفاء بني العباس سماها بهذا الاسم ، وانها سرور لمن رآها .

وقد ذكر في أسماء هذه المعاقل والبقاع والأمصار وجوه غير ما ذكرنا قد أتينا عليها فيما سلف من كتبنا .

ذكر اليمن وأنسابها
وما قاله الناس في ذلك

اختلف الناس في أنساب قحطان ، فحكى هاشم بن الكلبي عن أبيه والشرقي بن

القطامي أنهما كانا يذهبان الى أن قحطان بن الهميسع بن نبت ـ وهو نابت ـ بن اسماعيل بن ابراهيم الخليل ، ويحتجان لذلك بوجوه من الأخبار :

منها ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ما رواه هشام عن أبيه عن ابن عباس ، ورواه الهيثم عن الكلبي عن أبي صالح أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على فتية من الأنصار يتناضلون ، فقال : « ارموا يا بني اسماعيل فان أباكم كان راميا ، ارموا وأنا مع ابن الأدرع » ، رجل من خزاعة .

فرمى القوم نبالهم ، وقالوا : يا رسول الله ، من كنت معه فقد نضل !

فقال : « ارموا وأنا معكم جميعا » .

قال المسعودي : وسائر ولد قحطان من حمير وكهلان يأبى هذا القول وينكره وقد ثبت أن قحطان هو يقطن ، وانما عرب فقيل له : قحطان .

وحكى ابن الكلبي أن اسم يقطن في التوراة الجبار بن عامر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح .

والواضح من أنساب اليمن ، وما تدين به كهلان وحمير ابنا قحطان الى هذا الوقت قولا وعملا ، وينقله الباقي عن الماضي والصغير عن الكبير ، والذي وجدت عليه التواريخ القديمة للعرب وغيرها من الأمم ، وعليه وجدت الأكثر من شيوخ ولد قحطان من حمير وكهلان بأرض اليمن والتهائم والأنجاد وبلاد حضرموت والشحر والأحقاف وبلاد عمان وغيرها من الأمصار . . . أن الصحيح في نسب قحطان أنه قحطان بن عابر بن شالخ بن سالم ـ وهو قينان ـ بن أرفخشذ بن سام بن نوح .

وقد كان لعابر ثلاثة أولاد : فالغ ، وقحطان ، وملكان ، والخضر عليه السلام من ولد ملكان في قول كثير من الناس .

وولد لقحطان أحد وثلاثون ذكرا ، وأمهم حي بنت روق بن قزارةبن منقذبن سويد ابن عوص بن ارم بن سام بن نوح . فولد قحطان يعرب بن قحطان ، وولد يعرب يشجب وولد يشجب ولدين : أحدهما عبد شمس ـ وهو سبأ بن يشجب ـ وانما سمي سبأ لسبيه السبايا ، فولد سبأ حمير وكهلان ابني سبأ .

والثاني لم يعقب ، وانما العقب من ولد هذين ، وهما حمير وكهلان .

فهذا المتفق عليه عند أهل الخبرة بهما ، والمتيقن لديهم .

وكان الهيثم بن عدي الطائي ينكر ايضا أن يكون قحطان من ولد اسماعيل ، وانما اسماعيل تكلم بلغة جرهم ، لأن اسماعيل كان سرياني اللسان على لغة أبيه خليل الرحمن

حين أسكنه هو وأمه هاجر بمكة على ما ذكرناه ، فصاهر جرهم ، ونشأ على لغتها ، ونطق بكلامها ، وقفا في مراده خطابها .

ونزار تأبى أن يكون اسماعيل نشأ على لغة جرهم ، ويقولون : ان الله عز وجل أعطاه هذه اللغة .

وذلك أن ابراهيم خلفه هو وأمه هاجر ، واسماعيل ابن ست عشرة سنة ، وقيل : ابن أربع عشرة سنة ، في واد غير ذي زرع ، ولا أنيس ، فحفظهما الله تعالى ، وأنبع لهما زمزم ، وعلم اسماعيل هذه اللغة العربية .

قالوا : ولغة جرهم غير هذه اللغة ، ووجدنا لغة ولد قحطان بخلاف لغة ولد نزار بن معد ، فهذا يقضي بابطال قول من قال : ان اسماعيل أعرب بلغة جرهم .

ولو وجب أن يكون اسماعيل انما كان عربي اللسان لأجل جرهم ونشئه فيها ، لوجب أن تكون لغته موافقة للغة جرهم ، أو لغيرها ممن نزل مكة وقد وجدنا قحطان سرياني اللسان ، وولده يعرب بخلاف لسانه .

وليست منزلة يعرب عند الله أعلى من منزلة اسماعيل ، ولا منزلة قحطان أعلى من منزلة ابراهيم خليل الرحمن ، فيمنع اسماعيل فضيلة اللسان العربي التي أعطيها يعرب بن قحطان .

ولولد نزار وولد قحطان خطب طويل ومناظرات كثيرة لا يأتي عليها كتابنا هذا ، في التنازع والتفاخر بالأنبياء والملوك ، وغير ذلك مما قد أتينا على ذكر جمل من حجاجهم وما أدلى به كل فريق منهم ممن سلف وخلف ، وكذلك مناظرات السودان والبيضان والعرب والعجم ومناظرات الشعوبية في كتابنا « أخبار الزمان » .

وزعم الهيثم بن عدي أن جرهم بن عابر بن سبأ بن يقطن هو قحطان ، وتأول الهيثم قول النبي صلى الله عليه وسلم ــ حين قال للرماة من الأنصار : « ارموا يا بني اسماعيل » ــ أنه عليه السلام نسبهم الى اسماعيل من جهة الأمهات ، وما نالهم من الولادات من ولد اسماعيل ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا يزيل نسبا قد ثبت ، ولا يثبت نسب قوم الى غير آبائهم ، وقد نقلوا ذلك قولا وعملا .

وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أن سائلا سأله من مراد عن سبأ : أرجلا كان أو امرأة او واديا أو جبلا ؟

فقال له : « كان رجلا ، ولد له عشرة فتشاءم اربعة وتيامن ستة ، فالذين تشاءموا لخم وجذام وعاملة وغسان ، والذين تيامنوا حمير والأزد ومذحج وكنانة والأشعريون وأنمار الذين هم بجيلة وخثعم » .

وقال أبو المنذر : هو أنمار بن اياد بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ .

***

قال المسعودي : وقد تنوزع في نسب أنمار ، فذهب الأكثر الى أن أنمارا وايادا وربيعة ومضر وبنو نزار بن معد بن عدنان ، وانما دخلوا في اليمن فأضيفوا اليهم ، وما ذكرناه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيمن تيامن وتشاءم فمن أخبار الآحاد ، وليس مجيئه مجيء الاستفاضة التي يقطع بها العذر ويثبت بها الحكم .

وللناس في هؤلاء كلام كثير ، وقد ذكر هشام عن أبيه الكلبي قال : كان يقال لسائر ولد سبأ السبئيون ، ولم تكن لهم قبائل تجمعهم دون سبأ .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب خبر عمرو بن عامر مزيقياء ، وخبر طريفة الكاهنة ، وخبر عمران الكاهن ، وهو أخو عمرو بن عامر ، وأخبار العرم والسيل وما كان من كهانتها في أمر السد وسيل العرم ، وتفرق القبائل من مأرب ، ومن لحق بعمان وشنوءة والسراة والشام وغير ذلك من بقاع الأرض .

ذكر اليمن وملوكها ومقدار سنيها

سبأ

أول من يعد من ملوك اليمن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، واسمه عبد شمس . وقد أخبرنا فيما سلف من هذا الكتاب وغيره من كتبنا لأية علة سمي سبأ على ما قيل ، والله أعلم . وكان ملكه أربعمائة سنة وأربعا وثمانين سنة .

حمير

ثم ملك بعده ولده حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب ، وكان أشجع الناس في وقته ، وأفرسهم ، وأكثرهم جمالا . وكان ملكه خمسين سنة ، وقيل : أكثر من ذلك ، وقيل : أقل . وكان يعرف بالمتوج ، وكان أول من وضع على رأسه تاج الذهب من ملوك اليمن .

كهلان

ثم ملك بعده أخوه كهلان بن سبأ ، فطال عمره ، وكبر سنه ، واستقامت له الأمور ، وكان ملكه ثلثمائة سنة ، وقيل غير ذلك .

ثم عاد الملك بعد أن هلك كهلان الى ولد حمير ، لأخبار يطول ذكرها ، وتنازع في الملك بين ولد حمير وكهلان .

عمرو بن سبأ

ثم ملك أبو مالك عمرو بن سبأ ، واتصل ملكه ، وغمر الناس عدله ، وشملهم احسانه ، وكان ملكه ثلثمائة سنة .

قول آخر

وقيل : ان أول من ملك بعد كهلان الرائش ، وهو الحارث بن شداد .

ثم ملك جبار بن غالب بن زيد بن كهلان ، فكان ملكه عشرين ومائة سنة .

ثم ملك بعده الحارث بن مالك بن افريقس بن صيفي بن يشجب بن سبأ . وكان ملكه مائة سنة ونحو أربعين سنة ، وقيل : ان هذا الملك هو أبو أبرهة بن الرائش المعروف بذي المنار .

جماعة من ملوك اليمن

ثم ملك بعده الرائش بن شداد بن ملطاظ ، وكان ملكه مائة وخمسا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده أبرهة بن الرائش ، وهو ذو المنار ، وكان ملكه مائة وثمانين سنة .

ثم ملك بعده أفريقس بن أبرهة ، فكان ملكه مائة وأربعا وستين سنة .

ذو الأذعار

ثم ملك بعده أخوه العبد بن أبرهة ، وهو ذو الأذعار ، وكان ملكه خمسا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو بن الرائش ، وقد تنوزع في مقدار ملكه : فمنهم من رأى أنه عاش عشر سنين ، ومنهم من ذكر سبعا ، ومنهم من قال : ستا .

تبع الأول

ثم ملك تبع الأول ، وكان ملكه أربعمائة سنة ، وذكر كثير من الناس أن بلقيس قتلته ، وقيل غير ذلك ، والأشهر ما قدمنا .

بلقيس وسليمان

ثم ملكت بعده بلقيس بنت الهدهاد ، وكان لمولدها خبر ظريف ذكرته الرواة فيما روي أنه تصور لأبيها في بعض قنصه حيتان سوداء وبيضاء ، فأمر بقتل السوداء منهما ، وما ظهر له بعد ذلك من شيخ وشاب من الجن ، وأن الشيخ زوجه بابنته ، واشترط عليه شروطا لها ، فعلقت منه ببلقيس ، ونقض تلك الشروط المأخوذة عليه لها ، فغابت عنه . . . في خبر ظريف ، وهو موجود في كتاب أخبار التبابعة .

وإنما نحكي هذه الأخبار على حسب ما وجدناه في كتب الأخباريين وعلى حسب ما توجبه الشريعة والتسليم لها ، وليس قصدنا من ذلك وصف أقاويل أصحاب القدم ، لأنهم ينكرون هذا ويمنعونه ، وانما نحكي في هذا الكتاب أقاويل اصحاب الحديث المنقادين للشرع والمسلمين للحق ، وأخبار الشياطين على حسب ما نطق به الكتاب المنزل على النبي المرسل ، وما قارن ذلك من الدلائل الدالة على صدقه صلى الله عليه وسلم واعجاز الخليقة أن يأتوا بمثل هذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وكان ملك بلقيس عشرين ومائة سنة ، وكان من أمرها مع سليمان عليه السلام ما ذكر الله عز وجل في كتابه ، وما اقتص من خبر الهدهد ، وما اقتص من أمرهما ، فملك سليمان اليمن ثلاثا وعشرين سنة .

بقية ملوك اليمن

ثم عاد بعد ذلك الملك الى حمير ، فملكهم ناشر النعم بن عمرو بن يعفر ، وكان ملكه خمسا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده شمر بن افريقس بن ابرهة ، فكان ملكه ثلاثا وخمسين سنة .

ثم ملك بعده تبع الأقرن بن شمر ، فكان ملكه مائة وثلاثا وستين سنة .

ثم ملك بعده كليكرب بن تبع وكان ملكه مائة سنة وعشرين سنة ، وسير قومه نحو الشرق من بلاد خراسان والتبت والصين وسجستان .

ثم ملك بعده حسان بن تبع ، فاستقام له الأمر ، ثم وقع بعد ذلك في ملكه تنازع وخلاف ، وكان ملكه إلى أن قتل خمسا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده عمرو بن تبع ، وهو القاتل لأخيه حسان الملك الماضي ، وكان ملكه أربعا وستين سنة ، ويقال : انه عدم النوم ، لما كان من فعله من قتل أخيه .

ثم ملك بعده تبع بن حسان بن كليكرب ، وهو الملك السائر من اليمن الى الحجاز ، وكانت له مع الأوس والخزرج حروب ، وأراد هدم الكعبة فمنعه من كان معه من أحبار اليهود ، فكساها القصب اليماني ، وسار نحو اليمن وقد تهود وغلبت على اليمن اليهودية ، ورجعوا عن عبادة الأصنام ، وكان ملكه نحو مائة سنة .

ثم ملك عمرو بن تبع بعد تفرق وتنازع كان بينهم في الملك ، ثم خلع عن الملك وملكوا عليهم مرثد بن عبد كلال ، وكان في اليمن تنازع وحروب ، وكان ملكه أربعين سنة .

ثم ملك بعده وليعة بن مرثد ، وكان ملكه تسعا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده أبرهة بن الصباح بن وليعة بن مرثد ، وهو الذي يدعى شيبة الحمد ، وكان ملكه ثلاثا وتسعين سنة ، وقيل أقل من ذلك ، وكان علامة ، وله سير مدونة .

ثم ملك بعده عمرو بن ذي قيفان ، وكان ملكه سبع عشرة سنة .

ثم ملك بعده ذو شناتر ، ولم يكن من أهل بيت الملك ، فغري بالأحداث من أبناء الملوك ، وطالبهم بما تطالب به النسوان ، وأظهر الفسق باليمن واللواط ، وعدل مع ذلك في الرعية ، وأنصف المظلوم ، وكان ملكه ثلاثين سنة ، وقيل : تسعا وعشرين سنة ، وقتله يوسف ذو نواس ، وكان من أبناء الملوك ، خوفا على نفسه ، وأنفة أن يفسق به .

ثم ملك بعده يوسف ذو نواس بن زرعة بن تبع الأصغر بن حسان بن كليكرب .

وقد ذكرنا خبره في غير هذا الموضع من كتبنا ، وما كان من أمره مع أصحاب الأخدود ، وتحريقه اياهم بالنار . وهم الذين أخبر اللّه تعالى عنهم في كتابه فقال : « قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود » .

واليه عبرت الحبشة من بلاد ناصع والزيلع ، وهو ساحل الحبشة على حسب ما ذكرنا ، الى بلاد غلافقة من ساحل زبيد من أرض اليمن ، فغرق يوسف نفسه بعد حروب طويلة خوفا من العار .

وكان ملكه مائتي سنة وستين سنة ، وقيل أقل من ذلك .

وذلك أن النجاشي ملك الحبشة لما بلغه فعل ذي نواس بأتباع المسيح عليه السلام ، وما يعذبهم به من أنواع العذاب والتحريق بالنار ، بعث اليه الحبشة وعليهم أرياطبن أصحمة ، فملك اليمن عشرين سنة .

أبرهة ابو يكسوم

ثم وثب عليه أبرهـة الأشرم أبو يكسوم فقتله وملك اليمن ، فلما بلغ ذلك من فعله الى النجاشي غضب عليه ، وحلف بالمسيح أن يجز ناصيته ، ويريق دمه ، ويطأ تربته ، يعني أرض اليمن .

فبلغ ذلك أبرهة فجز ناصيته وجعلها في حق من العاج ، وجعل من دمه في قارورة ، وجعل من تراب اليمن في جراب ، وأنفذ ذلك الى النجاشي ملك الحبشة ، وضم الى ذلك هدايا كثيرة وألطافا ، وكتب اليه يعترف بالعبودية ، ويحلف له بدين النصرانية أنه في طاعته ، وأنه بلغه أن الملك حلف بالمسيح أن يجز ناصيته ويريق دمه ويطأ أرضه ، وقد أنفذت الى الملك ناصيتي فليجزها بيده ، وبدمي في قارورة فليهرقه ، وبجراب من تربة بلادي فليطأه بقدميه ، وليطفىء الملك عني غضبه ، فقد أبررت يمينه وهو على سرير ملكه .

فلما وصل ذلك الى النجاشي استصوب رأيه ، واستحسن عقله ، وصفح عنه ، وكان ذلك في ملك قباذ ملك فارس .

أبو رغال

وأبرهة أبو يكسوم هو الذي سار بأصحاب الفيل الى مكة لاخراب الكعبة ، وذلك لأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان . فعدل الى الطائف ، فبعثت معه ثقيف بأبي رغال ليدله على الطريق السهل الى مكة ، فهلك أبو رغال في الطريق بموضع يقال له المغمس بين الطائف ومكة ، فرجم قبره بعد ذلك . والعرب تتمثل بذلك ، وفي ذلك يقول جرير ابن الخطفي في الفرزدق :

اذا مات الفرزدق فارجموه   كما ترمون قبر أبي رغال

***

قال المسعودي رحمه الله : وقيل ان أبا رغال وجهه صالح النبي صلى اللّه عليه وسلم على صدقات الأموال ، فخالف أمره ، وأساء السيرة . فوثب عليه ثقيف ، وهو قس بن

منبه ، فقتله قتلة شنيعة لسوء سيرته في أهل الحرم . فقال غيلان بن سلمة وذكر قسوة أبيهم ثقيف على أبي رغال :

﴿ نحن قسي وقسا أبونا ﴾ .

وفي ذلك يقول أمية بن أبي الصلت الثقفي :

نفوا عن أرضهم عدنان طرا ... وكانوا للقبائل قاهرينا
وهم قتلوا الرئيس أبا رغال ... بمكة اذ يسوق بها الوضينا

وفي ذلك يقول عمرو بن دراك العبدي :

تراني ان قطعت حبال قيس ... وخالفت المرور على تميم
لأعظم فجرة من أبي رغال ... وأجور في الحكومة من سدوم

وقال مسكين الدارمي :

وأرجم قبره في كل عام ... كرجم الناس قبر أبي رغال

وسنورد فيما يرد من هذا الكتاب قصة الحبشة وورودهم الحرم وما كان من أمرهم في ذلك .

قال : وفي طريق العراق الى مكة ـ وذلك بين الثلعبية والهبير نحو البطان ـ موضع يعرف بقبر العبادي ، ترجمه المارة الى هذه الغاية كما ترجم قبر أبي رغال .

قبر العبادي

وللعبادي خبر ظريف قد أتينا على ذكره في كتاب « أخبار الزمان » وفي كتاب « حدائق الأذهان » وفي أخبار أهل البيت رضي الله عنهم .

فكان ملك أبرهة على اليمن الى أن هلك بعد أن رجع من الحرم وقد سقطت أنامله ، وتقطعت أوصاله ، حين بعث الله عليه الطير الأبابيل ثلاثا وأربعين سنة .

وكان قدوم أصحاب الفيل مكة يوم الأحد لسبع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمانمائة واثنتين وثلاثين سنة للاسكندر ، وست عشرة سنة ومائتين من تاريخ العرب الذي أوله حجة الغدر .

وسنذكر بعد هذا في الموضع المستحق له من هذا الكتاب جملا من تاريخ العالم وتاريخ الأنبياء والملوك ، في باب نفرده لذلك ان شاء الله تعالى .

ثم ملك اليمن بعد أبرهة الأشرم ولده يكسوم ، فعم أذاه سائر اليمن ، وكان ملكه الى أن هلك عشرين سنة .

مسروق بن أبرهة

ثم ملك بعده مسروق بن أبرهة ، فاشتدت وطأته على اليمن ، وعم أذاه سائر الناس ، وزاد على أبيه وأخيه في الأذى ، وكانت أمه من آل ذي يزن . وكان سيف بن ذي يزن قد ركب البحار ، ومضى الى قيصر يستنجده ، فأقام ببابه سبع سنين ، فأبى أن ينجده وقال : أنتم يهود ، والحبشة نصارى ، وليس في الديانة أن ننصر المخالف على الموافق .

فمضى الى كسرى أنو شروان فاستنجده ومت اليه بالقرابة ، وسأله النصرة .

فقال له كسرى : وما هذه القرابة التي أدليت بها الي ؟

فقال : أيها الملك ، الجبلة ، وهي الجلدة البيضاء ، اذ كنت أقرب اليك منهم .

فوعده أنو شروان بالنصرة على السودان ، وشغل بحرب الروم وغيرها من الأمم .

ومات سيف بن ذي يزن ، فأتى بعده ابنه معد يكرب بن سيف ، فصاح على باب الملك ، فلما سئل عن حاله ، قال : لي قبل الملك ميراث .

فوقف بين يدي أنو شروان ، فسأله عن ميراثه ، فقال : أنا ابن الشيخ الذي وعده الملك بالنصرة على الحبشة .

فوجه معه وهرز اصبهبذ الديلم في أهل السجون ، فقال : ان فتحوا فلنا ، وان هلكوا فلنا ، وكلا الوجهين فتح .

فحملوا في السفن في دجلة ومعهم خيولهم وعددهم وأموالهم ، حتى أتوا أبلة البصرة ـ وهي فرج البحر ، ولم يكن حينئذ بصرة ولا كوفة ، وهذه مدن اسلامية ـ فركبوا في سفن البحر ، وساروا حتى أتوا ساحل حضرموت بموضع يقال له مثوب ، فخرجوا من السفن ، وقد كان أصيب بعضهم في البحر ، فأمرهم وهرز أن يحرقوا السفن ليعلموا أنه الموت ، ولا وجه يؤملون المفر اليه فيجهدون أنفسهم .

وفي ذلك يقول رجل من حضرموت :

أصبح في مثوب ألف من الجنن ... من رهط ساسان ورهط مهرسن
ليخرجوا السودان من أرض اليمن ... دلهم قصد السبيل ذو يزن

في شعر له طويل .

ونمي خبرهم الى ملك اليمن مسروق بن أبرهة ، فأتاهم في مائة ألف من الحبشة وغيرهم من حمير وكهلان ومن سائر من سكن اليمن من الناس وتصاف القوم .

وكان مسروق على فيل عظيم ، فقال وهرز لمن كان معه من الفرس : اصدقوهم الحملة ، واستشعروا الصبر ، ثم تأمل ملكهم وقد نزل عن الفيل فركب جملا ، ثم نزل عن الجمل فركب فرسا ، ثم أنف أن يحارب على فرس فركب حمارا ، استصغارا لأصحاب السفن ،فقال وهرز : ذهب ملكه ، وتنقل من كبير الى صغير .

وكان بين عيني مسروق ياقوتة حمراء معلقة في تاجه بمعلاق من الذهب تضيء كالنار ، فرمى وهرز ، ورمى القوم ، وقال وهرز لأصحابه : قد رميت ابن الحمارة ، فانظروا ان كان القوم يجتمعون عليه ولا يتفرقون عنه فهو حي ، وان كان أصحابه يجتمعون عليه ويتفرقون عنه فقد هلك .

فنظروا اليهم فرأوهم يجتمعون ويتفرقون عنه ، فأخبروه بذلك ، فقال : احملوا على القوم واصدقوهم .

فحملوا عليهم وصدقوهم ، فانكشفت الحبشة وأخذهم السيف ، ورفع رأس مسروق ورؤوس خواص الحبشة ورؤسائهم فقتل منهم نحو ثلاثين ألفا .

وقد كان أنو شروان اشترط على معديكرب شروطا : منها أن الفرس تتزوج باليمن ولا تتزوج اليمن منها ، وفي ذلك يقول الشاعر :

على أن ينحكوا النسوان منهم   ولا ينكحوا في الفارسينا

وخراج يحمله اليه .

فتوج وهرز معديكرب بتاج كان معه وبدنة من الفضة ألبسه اياها ، ورتبه في ملكه على اليمن ، وكتب الى أنو شروان بالفتح ، وخلف هناك جماعة من أصحابه .

وكان جميع ما ملكت الأحابش اليمن اثنتين وسبعين سنة . وكان ملك مسروق بن أبرهة الى أن قتله وهرز ثلاث سنين ، وذلك لخمس وأربعين خلت من ملك أنو شروان .

وأتت معد يكرب الوفود من العرب تهنئه بالملك ، فأتاه عبد المطلب وجد أمية بن أبي الصلت .

وقد ذكرنا خبر عبد المطلب ووفادته على ابن ذي يزن في هذا الكتاب فيا بعد ، وما قيل من الشعر .

وفي مسير الفرس الى اليمن ونصرتهم على الحبشة يقول بعض أولاد فارس :

نحن خضنا البحار حتى فككنا	حميرا من بلية السودان
بليوث من آل ساسان شوس	يمنعون الحريم بالمران
وبيض بواتر تتلالا	كسنا البرق في ذرى الأبدان
فقتلنا مسروق اذ تاه لما	أن تداعت قبائل الحبشان
وفلقنا ياقوتة بين عينيـ	ـه بنشابة الفتى الساساني
وهرز الديلمي لما رآه	رابط الجأش ثابت الأركان
وحوينا بلاد قحطان قسرا	ثم سرنا الى ذرى غمدان
فنعمنا فيه بكل سرور	ومننا على بني قحطان

وفي ذلك يقول البحتري يمدح أبناء العجم . ويذكر فضل الفرس على أسلافه لأنه من قحطان .

فكم لكم من يد يزكو الثناء بها	ونعمة ذكرها باق على الزمن
ان تفعلوها فليست بكر أنعمكم	ولا يد كأياديكم على اليمن
أيام جلى أنو شروان جدكم	غيابة الذل عن سيف بن ذي يزن
اذ لا تزال خيول الفرس دافعة	بالضرب والطعن عن صنعا وعن عدن
أنتم بنو المنعم المجدي ونحن بنو	من فاز منكم بفضل الطول والمنن

وفود العرب تهنىء معديكرب

قال المسعودي : وأتت معديكرب الوفود من العرب تهنئه بعود الملك اليه ، وأشراف العرب وزعماؤها ، وفيهم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وأمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وخويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي وأبو زمعة جد أمية بن أبي الصلت الثقفي ـ وقيل : بل أبو الصلت أبوه ـ فدخلوا اليه وهو في أعلى قصره بمدينة صنعاء المعروف بغمدان وهو مضمخ بالعنبر ، وسواد المسك يلوح على مفرقه ، وسيفه بين يديه ، وعلى يمينه ويساره الملوك وأبناء الملوك وأبناء المقاول .

عبد المطلب يهنىء الملك

فتكلمت الخطباء ، ونطقت الزعماء ، وقد تقدمهم عبد المطلب بن هاشم فقال عبد المطلب :

« ان اللّه جل جلاله قد أحلك ـ أيها الملك ـ محلا رفيعا ، صعبا منيعا ، شامخا باذخا ، وأنبتك منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وبسق فرعه ، في أكرم معدن ، وأطيب موضع وموطن .

« فأنت ـ أبيت اللعن ـ رأس العرب وربيعها الذي تخصب به ، وأنت ـ أيها الملك ـ ذروة العرب الذي له تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومعقلها الذي تلتجىء اليه العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف ، فلن يخمد ذكر من أنت سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه .

« ايها الملك ، نحن أهل حرم اللّه ، وسدنة بيته ، أشخصنا اليك الذي أبهجنا من كشف الكرب الذي فدحنا ، ونحن وفد التهنئة ، لا وفد المرزئة » .

فقال له الملك : وأيهم أنت أيها المتكلم ؟

فقال : أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف .

فقال الملك معد يكرب بن سيف : ابن أختنا ؟

قال : نعم .

قال : أدنوه مني .

فأدني ، ثم أقبل عليه وعلى الوفد ، فقال لهم : مرحبا وأهلا ، وناقة ورحلا ، ومستناخا سهلا . وملكا ربحلا ، يعطي عطاء جزلا . قد سمع الملك مقالتكم ، وعرف قرابتكم ، وقبل وسيلتكم ، فأنتم أهل الليل والنهار ، لكم الكرامة ما أقمتم ، والحباء اذا ظعنتم .

أبو زمعة يهنئه

ثم قام أبو زمعة جد أمية بن أبي الصلت الثقفي : فأنشأ يقول :

ليطلب الوتر أمثال ابن ذي يزن	في لجة البحر أحوالا وأحوالا
حتى أتى ببني الأحرار يحملهم	تخالهم في سواد الليل أجبالا
للّه درهم من عصبة خرجوا	ما ان رأيت لهم في الناس أمثالا
أرسلت سدا على سود الكلاب فقد	أمسى شريدهم في الأرض فلالا

فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا	في رأس غمدان دارا منك محلالا
ثم اطل بالمسك اذ شالت نعامتهم	وأسبل اليوم في برديك اسبالا
تلك المكارم لا قعبان من لبن	شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

ولمعديكرب بن سيف بن ذي يزن كلام كثير مع عبد المطلب وكوائن أخبره بها ، في أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وبدء ظهوره ، بشر به عبد المطلب ، وأخبره عن أحواله ، وما يكون من أمره ، وحبا جميع الوفد ، وانصرفوا .

وقد أتينا على ما كان من أخبارهم في كتابنا « أخبار الزمان » فأغنى عن اعادته ووصفه .

***

مقتل معديكرب

قال المسعودي : وأقام معديكرب بن سيف بن ذي يزن ملكا على اليمن ، واصطنع عبيدا من الحبشة حرابة يمشون بين يديه بالحراب . فركب في بعض الأيام من باب قصره المعروف بغمدان بمدينة صنعاء ، فلما صار الى رحبتها عطفت عليه الحرابة من الحبشة ، فقتلوه بحرابهم .

وكان ملكه أربع سنين ، وهو آخر ملوك اليمن من قحطان ، فعدد ملوكهم سبعة وثلاثون ملكا ، وملكوا ثلاثة آلاف سنة ومائة وتسعين سنة .

***

رواية عبيد بن شرية

قال المسعودي : وأما عبيد بن شرية الجرهمي حين وفد على معاوية ، وسأله عن أخبار اليمن وملوكها وتواريخ سننها ، فانه ذكر أن أول ملوك اليمن على حسب ما قدمنا في هذا الباب سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، ملك مائة سنة وأربعا وثمانين سنة .

ثم ملك بعده الحارث بن شداد بن ملطاظ بن عمرو ، مائة وخمسا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده ابرهة بن الرائش ، وهو ابرهة ذو المنار ، مائة وثلاثا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده فريقس بن ابرهة مائة واربعا وستين سنة .

ثم ملك بعده اخوه العبد بن أبرهة ، خمسا وأربعين سنة .

ثم ملك بعده الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو وهو ذو الصرح ، سنة .

ثم ملكت بعده بلقيس بنت الهدهاد سبع سنين .

ثم ملك سليمان بن داود عليهما السلام ، ثلاثا وعشرين سنة ، على حسب ما قدمنا من أمر بلقيس .

ثم ملك أرخبعم بن سليمان سنة .

ثم رجع الملك على حمير فملك من بعد أرخبعم بن سليمان ناشر النعم بن يعفر بن عمرو ذي الأذعار خمسا وثلاثين سنة .

وقد قيل في تسميته ذا الأذعار خبر تأباه العقول ، وتنكر النفوس كون مثله في العالم ، ويجوز كون ذلك في المقدور ، وأنه أنما سمي الأذعار لأنه وصل الى قوم في أقاصي مفاوز اليمن وأرض حضرموت مشوهي الخلقة ، عجيبي الصورة ،وجوههم في صدورهم ، فلما رأى أهل اليمن ذلك أذعرهم ما شاهدوا من ذلك ، وجزعت منه نفوسهم ، فسمي ذا الأذعار .

وقيل غير ذلك ، والله أعلم بكيفيته .

***

ثم ملك بعده عمرو بن شمر بن افريقس ثلاثا وخمسين سنة .

ثم ملك بعده تبع الاقرن بن عمرو وهو تبع الأكبر ، مائة سنة وثلاثا وخمسين سنة .

ثم ملك بعده ابنه ملكيكرب بن تبع خمسا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده تبع بن ملكيكرب بن تبع ، وهو تبع أبو كرب أسعد بن ملكيكرب ، أربعا وثمانين سنة .

ثم ملك بعده كلال بن متوب ، اربعا وسبعين سنة .

ثم ملك بعده تبع بن حسان بن تبع ثلثمائة سنة وستا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده مرثد سبعا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده أبرهة بن الصباح ثلاثا وسبعين سنة .

ثم ملك بعده ذو شناتر بن زرعة ، ويقال يوسف ، ويقال : بل اسمه عريب بن قطن ، تسعا وثمانين سنة .

ثم ملك بعده لخنيعة ، ويعرف بذي الشناتر ، أربعا وثمانين سنة .

فذلك ألف وتسعمائة سنة وسبع وعشرون سنة .

وانما ذكرنا ما حكيناه عن عبيد بن شرية في ترتيب ملوكهم ، وتباين تواريخ سنيهم ، لنأتي على جميع ما قيل في ذلك من التنازع ، والله ولي التوفيق .

***

ملك فارس باليمن

ولما قتلت الحبشة معديكرب بن سيف بن ذي يزن ـ على حسب ما قدمنا ـ في الرحبة

بحرابهم كان بصنعاء خليفة لوهرز في جماعة من العجم ، ممن كان ضمهم وهرز الى معديكرب فركب وأتى على من كان هنالك من الحبشة ، وضبط البلد ، وكتب بذلك الى وهرز وهو بباب أنو شروان الملك ، وذلك بالمدائن من أرض العراق .

فأعلم وهرز بذلك الملك ، فسيره في البر في أربعة آلاف من الأساورة ، وأمره باصلاح اليمن ، وألا يبقي على أحد من بقايا الحبشة ، ولا على جعد قطط قد شرك السودان في نسبه .

فأتى وهرز اليمن ، ونزل صنعاء ، فلم يترك بها أحدا من السودان ولا من أنسابهم ، وملك أنو شروان وهرز على اليمن الى أن هلك بصنعاء .

ثم ملك بعده النوشجان بن وهرز الى أن هلك بها .

ثم ملك بعده رجل من فارس يقال له سبحان .

ثم ملك بعده خرزاد ستة أشهر .

ثم ملك بعده ابن سبحان .

ثم ملك بعده المرزبان وكان من أهل بيت مملكة فارس .

ثم ملك بعده خرخسرو ، وكان مولده باليمن .

ثم ملك بعده باذان بن ساسان .

ملك اليمن في أبناء ابراهيم

قال المسعودي : فهؤلاء جميع من ملك اليمن من قحطان والحبشة والفرس .

وقد ملك اليمن رجل من ولد ابراهيم الخليل عليه السلام ، وهو يعد من ملوك اليمن واسمه هينبة بن أميم بن بدل بن مدين بن ابراهيم الخليل عليه السلام . وكان له شأن عظيم في ملك اليمن ، وطالت أيامه .

وذكره امرؤ القيس في شعره فقال :

وهينبة الذي زادت قواه على زيدان اذ حان الزوال
تمكن قائما وبنى طريقا الى زيدان أعيط لا ينال

ويقال : انه منتبه بن أميم بن بدل بن لسان بن ابراهيم الخليل .

عاصمة اليمن

وقد كانت ملوك اليمن تنزل بمدينة ظفار ، مثل آل ذي سحر وآل ذي الكلاع وآل ذي

أصبح وآل ذي يزن ، الا اليسير منهم فانهم نزلوا غيرها ، وكان على باب ظفار مكتوب بالقلم الأول في حجر أسود :

يوم شيدت ظفار قيل : لمن أنـ	ت ؟ فقالت : لحمير الأخيار
ثم سيلت : من بعدذاك ؟ فقالت :	ان ملكي للأحبش الأشرار
ثم سيلت : من بعدذاك؟ فقالت:	ان ملكي لفارس الأحرار
ثم سيلت : ما بعدذاك؟ فقالت:	ان ملكي الى قريش التجار
ثم سيلت: ما بعدذاك ؟ فقالت:	ان ملكي لحمير صحار
وقليلا ما يلبث القوم فيها	منذ شيدت مشيدها للبوار
ومن أسود يلقيهم البحر فيها	تشعل النار في أعالي الديار

وهذا خبر عن ملوك تداولوها ، أخبروا عن ملكهم قبل كونه ، فتداولتها هذه الملوك على حسب ما وصفنا ، وينتظر في المستقبل من الزمان ما ذكرنا من وقود النيران في أعالي الديار .

وعند أهل اليمن أن ديارهم سيغلب عليها الأحابش في آخر الزمان بعد هنات وكوائن وأحداث ، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم وعلى اليمن عمال كسرى ، ثم غلب الاسلام فظفر بحمد الله .

وقد أتينا على أخبار من ذكرناه من الملوك ، وسيرهم ، ومطافاتهم في البلاد وحروبهم ، وأبنيتهم في سائر مطافاتهم ، في الكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن اعادته في هذا الباب .

مساحة اليمن وحدوده

وبلد اليمن طويل عريض : حده مما يلي مكة الى الموضع المعروف بطلحة الملك سبع مراحل ، ومن صنعاء الى عدن ـ وهو آخر عمل اليمن ـ تسع مراحل ، والمرحلة من خمسة فراسخ الى ستة ، والحد الثاني من وادي وحا الى ما بين مفاوز حضرموت وعمان عشرون مرحلة ، ويلي الوجه الثالث بحر اليمن على ما ذكرنا أنه بحر القلزم والصين والهند ، فجميع ذلك عشرون مرحلة في ست عشرة مرحلة .

وأسماء ملوك اليمن كذي يزن وذي نواس وذي منار وغير ذلك مضافة الى مواضع والى أفعال لهم وسير وحروب وغير ذلك ، وهي سمات لهم تميزهم عن غيرهم ، وتبين كل واحد منهم عن غيره من ملوكهم .

واذ قد ذكرنا جوامع من أخبار اليمن وملوكها فلنذكر الآن ملوك الحيرة من بني نصر وغيرهم ، للحوقهم باليمن ، ثم نعقب ذلك بملوك الشام وغيرهم من الملوك ، ان شاء الله تعالى .

ذكر ملوك الحيرة من بني نصر وغيرهم

جذيمة الوضاح ومقتله

ولما هلك جذيمة الوضاح وأتت عليه الزباء بنت عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر ، وقد كان ملك من مشارق الشام الى الفرات من قبل الروم ، وكانت داره بالموضع المعروف بالمضيق ، بين بلاد الخانوقة وقرقيسيا ، وقد كانت الزباء ملكت بعد أبيها ، وأطمعت جذيمة في نفسها الى أن قتلته .

وأقام جذيمة ملكا في زمن ملوك الطوائف خمسا وتسعين سنة ، وفي ملك أردشير بن بابك وسابور الجنود بن أردشير ثلاثا وعشرين سنة ، فكان ملكه مائة وثماني عشرة سنة .

وكان يكنى بأبي مالك ، وفيه يقول بعض شعراء الجاهلية وهو سويد بن أبي كاهل اليشكري :

ان أذق حتفي فقبلي ذاقه   طسم عاد وجديس ذو الشنع
وأبو مالك القيــل الذي   قتلته بنت عمرو بالخدع

مالك بن فهم

وكان الملك قبل جذيمة أباه ، وهو أول من ملك الحيرة ، والله أعلم ، وكان يقال له مالك بن فهم بن دوس بن الأزد بن الغوث بن نبت بـن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بـن يعـرب بن قحطان . وكـان سار من اليمن مع ولـد جفنة بن عمرو بن عامر مزيقياء ، فسار بنو جفنة نحو الشام ، وانفصل مالك نحو العراق فملك على مضر بن نزار اثنتي عشرة سنة ، ثم ملك بعده ابنه جذيمة على ما ذكرنا .

عمرو بن عدي

ثم ملك بعد جذيمة ابن أخته عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك ابن غنم بن نمارة بن لخم ، وهو أول من نزل من الملـوك الحيرة واتخذها منزلاً ودار ملك . واليه تنسب الملوك النصرانية ، وهم ملوك الحيرة ، فكـان ملك عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة مائة سنة .

***

قصة عمرو بن عدي

قال المسعودي : وقد ذكر غير واحد ممن عني بأخبار العرب وأيامها أن جذيمة أول من

ملك من قضاعة ، وهو جذيمة بن مالك بن فهم التنوخي .

وأنه قال ذات يوم لندمائه : لقد ذكر لي عن غلام من لخم ، في أخواله من اياد ، له ظرف وأدب ، فلو بعثت اليه فوليته كأسي والقيام على رأسي لكان الرأي .

قالوا : الرأي ما رأي الملك ، فليبعث اليه . ففعل .

فلما قدم عليه قال : من أنت ؟

قال : أنا عدي بن نصر بن ربيعة ، فولاه مجلسه .

فعشقته رقاش بنة مالك أخت الملك ، فقالت : يا عدي ، اذا سقيت القوم فامزج لهم وغلق للملك ، فاذا اخذت الخمر منه فاخطبني منه فانه يزوجك ، فأشهد القوم ان فعل .

ففعل الغلام ذلك وخطبها وزوجها به ، فأشهد عليه ، وانصرف الغلام اليها فأنبأها ، فقالت : عرس بأهلك ، ففعل .

فلما أصبح غدا متضرجا بالخلوق ، فقال له جذيمة : ما هذه الآثار يا عدي ؟

قال : آثار العرس .

قال : وأي عرس ؟

قال : عرس رقاش ؟

فنخر وأكب على الأرض ، ورفع عدي جراميزه وهرب ، وأسرع جزيمة في طلبه فلم يجده ، وقال بعضهم : بل قتله ، وبعث اليها يقول :

حدثيني رقاش لا تكذبيني   أبحرٍّ زنيت أم بهجين ؟
أم بعبد فأنت أهل لعبد   أم بدون فأنت أهل لدون ؟

فأجابته رقاش تقول :

أنت زوجتني وما كنت أدري   وأتاني النساء للتزيين
ذاك من شربك المدامة صرفا   وتماديك في الصبا والمجون

فنقلها جذيمة اليه ، وحصنها في قصره ، فاشتملت على حمل ، وولدت غلاما فسمته عمرا ، ووشحته ، حتى اذا ترعرع حلته وعطرته وألبسته كسوة فاخرة ، ثم أزارته خاله ، فأعجب به ، وألقيت عليه منه محبة ومودة . حتى اذا خرج الملك في سنة مكلئة قد أكمأت ،

فبسط له في روضة ، وخرج عمرو في غلمة يجتنون الكمأة ، فكانوا اذا أصابوا كمأة طيبة أكلوها ، واذا أصابها عمرو خبأها ، ثم أقبلوا يتعادون وعمرو يتقدمهم ، ويقول :

هذا جنـاي وخيـاره فيـه   اذ كـل جـان يده الى فيـه

فالتزمه جذيمة وحباه .

قصة نديمي جذيمة

ثم أن الجن استطارته ، فضرب له جذيمة في الافاق زمانا ، فلم يسمع له بخبر فكف عنه اذ أقبل رجلان يقال لأحدهما مالك ، وللآخر عقيل ، ابنا فالج ، وهما يريدان الملك بهدية ، فنزلا على ماء ، ومعهما قينة يقال لها أم عمرو ، فنصبت لهما قدرا ، وأصلحت لهما طعاما .

فبينما هما يأكلان اذ أقبل رجل أشعث اغبر الرأس قد طالت أظفاره وساءت حاله ، حتى جلس مزجر الكلب . ومد يده ، فناولته القينة طعاما . فأكل ، فلم يغن عنه شيئا ، فمد يده فقالت القينة : ان تعط العبد كراعا طلب ذراعا . . فأرسلتها مثلا .

ثم ناولت صاحبيها من شرابها ، وأوكت زقها ، فقال عمرو بن عدي :

عدلـت الكـأس عنا أم عمرو   وكـان الكـأس مجراهـا اليمينا
وما شر الثلاثة أم عمرو   بصاحبك الـذي لا تصبحينا

فقال له الرجلان : من أنت ؟

فقال : إن تنكراني فلن تنكرا حسبي ، أنا عمرو بن عدي .

فقاما اليه فلثماه ، وغسلا رأسه ، وقلما أظفاره ، وقصرا من لمته ، وألبساه من طرائف ثيابهما ، وقالا : ما كنا لنهدي الى الملك هدية هي أنفس عنده ولا هو عليها أحرص من ابن أخته ، قد رده اللّه اليه !

فخرجا به ، حتى اذا وقفا على باب الملك بشراه به ، فسر به وصرفه الى أمه ، وقال لهما : حكمكما .

فقالا : حكمنا منادمتك ما بقيت وبقينا .

قال : ذلك لكما .

فهما ندمانا جذيمة المعروفان ، واياهما عنى متمم بن نويرة اليربوعي في مرثيته لأخيه مالك حين قتله خالد بن الوليد بن المغيرة يوم البطاح :

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وقال أبو خراش الهذلي :

ألم تعلمي أن قد تفرق قبلنا خليلا صفاء مالك وعقيل

وان أم عمرو عمدت اليه ، فبعثت معه حفدة يقومون عليه في الحمام ، حتى اذا خرج ألبسته من طرائف ثياب الملوك ، وجعلت في عنقه طوقا من ذهب لنذر كان عليها ، ثم أمرته بزيارة خاله .

فلما رأى خاله لحيته والطوق في عنقه قال : شب عمرو عن الطوق .

وأقام عمرو مع جذيمة خاله قد حمل عنه عامة أمره .

بين الزباء وجذيمة

وان الزباء بنة عمرو بن ظرب بن حسان بن أذينة بن السميدع بن هوبر ، ملكة الشام والجزيرة ، من أهل بيت عاملة من العماليق كانوا في سليح .

وقال بعضهم : بل كانت رومية ، وكانت تتكلم بالعربية ، مدائنها على شاطىء الفرات من الجانب الشرقي والغربي ، وهي اليوم خراب .

وكانت ـ فيما ذكر ـ قد سقفت الفرات وجعلت من فوقه أبنية رومية ، وجعلته أنقابا بين مدائنها . وكانت تغزو بالجنود قبائل .

فخطبها جذيمة الأبرش ، فكتبت اليه : إني فاعلة ، ومثلك من يرغب فيه ، فاذا شئت فاشخص اليَّ . وكانت بكرا .

فجمع عند ذلك جذيمة أصحابه فاستشارهم ، فأشاروا عليه بالمضي ، وخالفهم قصير ابن سعد تابع كان له من لخم ، فأمره الا يفعل ، ويكتب اليها ، فان كانت صادقة أقبلت اليك ، والا لم تقع في حبائلها .

فعصاه وأطاعهم ، وسار حتى اذا كان ببقة ـ من دون هيت الى الأنبار ـ جمعهم

وشاورهم فأمروه بالشخوص اليها لما علموا من رأيه في ذلك ، وقال قصير : تنصرف ودمك في وجهك .

فقال جذيمة : ببقة قضي الأمر . . فأرسلها مثلا .

وقال قصير بن سعد حين رآه قد عزم : لا يطاع لقصير أمر . . فأرسلها مثلا .

وظعن جذيمة ، حتى اذا عاين مدينتها ـ وهي بمكان دون الخانوقة ـ ونظر الى الكتائب من دونها ، فهاله ما رأى ، فقال : أي قصير ، ما الرأي ؟

فقال قصير : اني تركت الرأي ببقة .

فقال عند ذلك : أشر علي .

فقال : ان لقيتك الكتائب فحيتك بتحية الملك وانصرفوا أمامك فالمرأة صادقة ، وان هم أخذوا بجنبيك ووقفوا دونك فالقوم منعطفون عليك فيا بينهم وبين جنودهم ، فاركب العصا فانها لا تدرك ولا تسبق : يعني فرسا كانت جنبت معه .

فاستقبله القوم وأحاطوا به ، فلم يركب العصا ، فعمد اليها قصير فركبها وحمل وانطلق .

فالتفت جذيمة فاذا هو بالعصا عليها قصير أمام خيلهم حتى توارت به ، فقال جذيمة : ما ضل من تجري به العصا .

فأدخل على الزباء فاستقبلته وقد كشفت عن كبعثاتها (أي عفلها) وتنظفت باستها ، وقالت . يا جذيمة ، أي متاع عروس ترى ؟

قال : أرى متاع أمة لكعاء غير ذات خفر .

فقالت : أما والله ما ذاك من عدم مواس ، ولا قلة أواس ، ولكن شيمة ما أناس .

ثم أجلسته على نطع ، ودعت له بطست من عسجد ، فقطعت رواهشه واستنزفته ، حتى اذ ضعفت قواه ضرب بيده فقطرت قطرة من دمه على دعامة من رخام ، وقد قيل لها : انه ان وقع من دمه قطرة في غير طست طلب بدمه .

فقالت : أي جذيمة ، لا تضيعن من دمك شيئا ، فاني أنما بعثت اليك لأنه بلغني أن دمك شفاء من الخبل .

فقال جذيمة : وما يحزنك من دم أضاعه أهله ؟!

وفي ذلك يقول البعيث :

من الدارميين الذين دماؤهم   شفاء من الداء المجنة والخبل

واستصفت دمه ، وجعلته في برنية

وقال بعضهم : دخل عليها جذيمة في قصر لها ليس فيه الا الجواري ، وهي على سريرها ، فقالت للاماء : خذن بيد سيدكن ، ثم دعت بنطع فأجلسته عليه فعرف الشر . وكشفت عن عورتها ، فاذا هي قد عقدت شعر استها من وراء ، فقالت : أشوار عروس ترى ؟

فقال : بل شوار أمة بظراء !

فقالت : أما واللّه ما ذاك من عدم مواس ، ولا قلة أواس ، ولكنها شيمة ما أناس .

ثم أمرت برواهشه فقطعت . فجعل دمه يشخب في النطع كراهة أن يفسد مقعدها ، فقال جذيمة : لا يحزنك دم أراقه أهله .

عمرو بن عدي يأخذ بثأر خاله

ونجا قصير ، فأورد الخبر على عمرو بن عبد الجن التنوخي بالحيرة ، فأشفق لذلك ،. فقال له قصير : اطلب بثأر ابن عمك ، والا سبتك العرب . فلم يحفل بذلك .

فخرج قصير الى عمرو بن عدي ، فقال له : هل لك في أن أصرف الجنود اليك على أن تطلب ثأر خالك ؟

فضمن له ذلك ، فصرف وجوه الجنود اليه ، ومنّاهم بالمال والحال ، فانصرف اليه منهم بشر كثير فالتقى هو والتنوخي ، فلما خافوا الفناء تابعه التنوخي ، وتم الأمر لعمرو بن عدي .

فقال له قصير : انظر ما وعدتني به في الزباء .

فقال عمرو : وكيف لنا بها وهي أمنع من عقاب الجو ؟

فقال : أما اذ أبيت فاني جادع أنفي وأذني ومحتال لقتلها جهدي ، فأعني وخلاك ذم .

فقال له عمرو : أنت أبصر ، وعلى معونتك .

فجدع أنفه ، فقيل : لأمر ما جدع قصير أنفه .

ثم انطلق حتى دخل على الزباء ، فقالت : من أنت ؟

فقال . أنا قصير ، لا ورب المشارق ما كان على وجه الأرض بشر كان أنصح لجذيمة ولا أغش لك مني ، حتى جدع عمرو بن عدي أنفي وأذني ، فعرفت أني لا أكون مع أحد هو أثقل عليه مني معك .

فقالت : أي قصير ، نقبل منزلتك ونصرفك في بضائعنا .

فأعطته مالا للتجارة ، فأتى بيت مال الحيرة ، فاستخف ما فيه بأمر عمرو بن عدي ، وانصرف به اليها .

فلما رأت ما جاءها به فرحت بذلك ، وزادته مالا الى ما جاء به .

وقال : انه ليس من ملك الا وهم يتخذون في مدائنهم أنقابا تكون لهم عددا .

فقالت له : أما اني قد فعلت ذلك .. قد نقبت سربا وبنيته من تحت سريري هذا حتى أخرج من تحت الفرات الى سرير أختي رحيلة .

ففرح بذلك قصير ، ثم ظعن حتى أتى عمرا ، فركب عمرو في ألفي رجل على الف بعير في الصناديق ، حتى صار اليها . فتقدم قصير وسبق الأبعرة ، فقال لها : اصعدي حائط مدينتك ، وانظري الى مالك ، وتقدمي الى بوابك فلا يتعرض لشيء من أموالنا ، فاني قد جئت بمال صامت .

وكانت قد أمنته ، فلم تكن تخافه ، وصعدت وفعلت ما أمرها فلما نظرت الى ثقل مشي الجمال قالت :

ما للجمال مشيها وئيدا	أجندلا يحملن أم حديدا ؟
أم صرفانا باردا شديدا	أم الرجال جثما قعودا ؟

ودخلت الابل المدينة ، حتى اذا بقي آخرها جمل عيل صبر البواب ، فطعن بمنخسة كانت في يده خاصرة رجل فضرط ، فقال البواب : بشتا بشتا ، وهي بالنبطية أي : في الجوالق شر .

وثار الرجال من الجوالق ضربا بأسيافهم ، فخرجت الزباء هاربة الى سربها ، فأبصرت قصيرا عند نفقها مصلتا سيفه ، فانصرفت راجعة ، وتلقاها عمرو بن عدي فضربها .

وقال بعضهم : مصت خاتمها ، وكان فيه سم ساعة ، وقالت : بيدي لا بيد عمرو .

وخربت المدينة ، وسبيت الذراري ، فقالت الشعراء في أمرها وأمر قصير فأكثرت ، فمن ذلك قول المتلمس :

ومن طلب الأوتار ما حز أنفه	قصير، ورام الموت بالسيف بيهس
نعامة لما صرع القوم رهطه	تبين في أثوابه كيف يلبس

ومن ذلك قول عدي بن زيد التميمي يصف ذلك من أمرهم :

ألا يا أيها الملك المرجى ألـم تسمع بخطب الأولينا
دعـا بالبقة الأمراء يوما جذيمة عام ينجوهـم ثبينا
وطاوع أمرهـم وعصى قصيرا وكـان يقول ، لو وقع ، اليقينا
لخطبته التي غدرت وخانت وهـن ذوات غائلـة لحينا

مع اشعار كثيرة قيلت في ذلك

وكانت الزباء لا تأتي حصنا الا ضفرت شعر استها من خلفه ، ثم تقاعست فتقلعه . حتى فعلت ذلك بمارد حصن دومة الجندل وبالأبلق حصن تيمياء (حصنين منيعين) فقالت : تمرد مارد وعز الأبلق . . . فذهبت مثلا .

وهما الحصنان اللذان تذكرهما العرب في أشعارها كثيرا ، قال الأعشى في ذلك :

بالأبلـق الفرد من تيماء منزله حصن حصين وجار غـير غدار

وجذيمة الوضاح الذي يقول فيه :

ماست مودعة الحديث فمنجد منهم وغائر
أن تاه أحور ذو رعين لنا وأحوى ذو أباعر
والملك كان لذي نواس حوله من ذي بحائر
بالسابغات وبالقنا والبيض تبرق والمغافر
أزمان عملاق وفيهم منهم باد وحاضر

وانما سمي جذيمة الأبرش الوضاح لأنه كان به برص ، فكني عنه اعظاما له .

***

قال المسعودي : هذا بدء خبر بني عدي ، وقد قدمنا أن مدة ملكه كانت مائة سنة .

بقية ملوك الحيرة

وملك بعده ولده امرؤ القيس بن عمرو بن عدي ستين سنة .

وملك بعده عمرو بن امرؤه القيس ، وهو محرق العرب خمسا وعشرين سنة ، وكانت أمه مارية البرية أخت ثعلبة بن عمرو من ملوك غسان .

وملك النعمان بن امرىء القيس قاتل الفرس خمسا وستين سنة ، وكانت أمه الهيجمانة بنت سلول من مراد ، ويقال من اياد .

وملك المنذر بن النعمان بن امرىء القيس خمسا وعشرين سنة ، وكانت أمه الفراسية بنت مالك بن المنذر ، من آل نصر .

وملك النعمان بن المنذر فارس حليمة ، وهو الذي بنى الخورنق وكردس الكراديس ، خمسا وثلاثين سنة ، وكانت أمه هند بنت زيد مناة من آل غسان .

وملك الأسود بن النعمان ، عشرين سنة ، وكانت أمه هند بنت الهيجمانة ، من آل نصر .

وملك المنذر بن الأسود بن النعمان بن المنذر أربعا وثلاثين سنة ، وكانت أمه ماء السماء بنت عوف بن النمر بن قاسط بن هيت بن أقصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار . وانما سميت ماء السماء لحسنها وجمالها .

ثم ملك بعده عمرو بن المنذر ، أربعا وعشرين سنة ، وكانت أمه حليمة بنت الحارث من آل معديكرب .

وملك المنذر بن عمرو بن المنذر ، ستين سنة ، وكانت أمه أخت عمرو بن قابوس من آل نصر .

ثم ملك قابوس بن المنذر ثلاثين سنة ، وكانت أمه هند بنت الحارث ، من آل معاوية ابن معديكرب .

وملك النعمان بن المنذر ـ وهو الذي يقال له : أبيت اللعن ـ اثنتين وعشرين سنة . وكانت أمه سلمى بنت وائل بن عطية من كلب .

بين النابغة والنعمان

وذكر عدة من الأخباريين أن النابغة استأذن على النعمان يوما ، فقال له الحاجب : ان الملك على شرابه .

قال النابغة : فهو وقت الملق ، تقبله الأفئدة ، وهو جذل للرحيق والسماع ، فان تلج تلق المجد عن غرر مواهبه ، فأنت قسيم ما أفدت .

قال له الحاجب : ما تغي عنايتي بدون شكرك ، فكيف أرغب فيا وصفت ودون ما طلبت رهبة التعدي ، فهل من سبب ؟

قال النابغة : ومن عنده ؟

قال الحاجب : خالد بن جعفر الكلابي نديمه .

فقال النابغة : هل لك أن تؤدي الى خالد عني ما أقول لك ؟

قال : وما هو ؟

قال : تقول ان من قدرك وفاء الدرك بك ، وناحيتي من الشكر ما قد علمت .

فلما صار خالد الى بعض ما تبعثه موارد الشراب عليه نهض ، فاعترضه الحاجب فقال : ليهنك أبا البسام حادث النعيم .

قال : وما ذاك ؟

فأخبره الخبر .

وكان خالد رفيقا ، يأتي الأشياء بلطف وحسن بصيرة ، فدخل مبتسما ، وهو يقول :

الا لمثلك أو من أنت سابقه سبق الجواد اذا استولى على الأمد

واللات لكأني أنظر الى أملاك ذي رعين ، وقد مدت لهم قضبان المجد الى معالم أحسابكم ، ومناقب أنسابكم ، في حلبة أنت - أبيت اللعن - غرتها ، فجئت سابقا متمهلا ، وجاءوا لم يلم لهم سعي .

قال النعمان : لأنت في وصفك أبلغ احسانا من النابغة في نظام قافيته .

فقال خالد : ما أبلغ فيك حسنا ، الا وهو دون قدرك استحقاقا للشرف الباهر ، ولو كان النابغة حاضرا لقال وقلنا .

فأمر النعمان بادخاله ، فخرج اليه الحاجب ، فقال النابغة : ما وراءك ؟

فقال : قد أذن بفتح الباب ، ورفع الحجاب ، ادخل .

فدخل ، ثم انتصب بين يديه ، وحياه بتحية الملك . وقال : أبيت اللعن ، أتفاخر وأنت سائس العرب ، وغرة الحسب . واللات لأمسك أيمن من يومه ، ولقفاك أحسن من وجهه ، وليسارك أسمح من يمينه ، ولوعدك أصلح من رفده . ولعبيدك أكثر من قومه ، ولاسمك أشهر من قدره ، ولنفسك أكبر من حده ، وليومك أشرف من دهره .

ثم قال :

أخلاق مجدك جلت ما لها خطر في الجود والبأس بين العلم والخبر
متوج بالمعالي فوق مفرقه وفي الوغى ضيغم في صورة القمر

فتهلل وجه النعمان بالسرور ، ثم أمر فحشي فوه جوهرا ، ثم قال : بمثل هذا فلتمدح الملوك .

بين النعمان وزيد بن عدي وكسرى

وقد كان النعمان قتل عدي بن زيد العبادي ، وكان يكتب لكسرى أبرويز بالعربية ، ويترجم له اذا وفد عليه زعماء العرب ، لموجدة وجدها عليه النعمان . . . في خبر طويل الشرح .

فلما قتل صار زيد بن عدي ابنه مكان أبيه ، فذكر لأبرويز جمال نساء آل المنذر ، ووصفهن له ، فكتب الى النعمان يأمره أن يبعث اليه بأخته .

فلما قرأ النعمان كتابه قال للرسول ، وهو زيد بن عدي : يا زيد ، أما لكسرى في مها السواد كفاية حتى يتخطى الى العربيات ؟!

فقال زيد : انما أراد الملك اكرامك ـ أبيت اللعن ـ بصهرك ، ولو علم أن ذلك يشق عليك لما فعله . وسأحسن ذلك عنده ، وأعذرك بما يقبله .

فقال له النعمان : فافعل ، فقد تعرف ما على العرب في تزويج العجم من الغضاضة والشناعة .

فلما انصرف الى كسرى أخبره أنه رغب عنه ، فأدى اليه قوله في مها السواد على أقبح الوجوه ، وأوجده عليه ، وقال : ما المها ؟

فقال : البقر .

فأخذ عليه وقال : رب عبد قد صار في الطغيان الى أكثر من هذا .

فلما بلغت كلمته الى النعمان تخوفه فخرج هاربا حتى صار الى طيء ، لصهر كان له فيهم . ثم خرج من عندهم حتى أتى بني رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس ، فقالوا له : أقم معنا فانا مانعوك مما نمنع منه أنفسنا .

فجزاهم الخير ، ورحل عنهم يريد كسرى ليرى فيه رأيه ، وذلك قول زهير بن أبي سلمى :

ألم تر للنعمان كان بنجوة	من الدهر لو أن امرأ كان ناجيا
فغير عنه ملك عشرين حجة	من الدهر يوم واحد كان غاويا
فلم أر مسلوبا له مثل ملكه	أقل صديقا معطيا أو مواسيا
خلا أن حيا من رواحة حافظوا	وكانوا أناسا يتقون المخازيا

يسيرون حتى جيشوا عند ثأره ... هجان المطايا والعتاق المذاكيا
فجازاهم خيرا وأثنى عليهم ... وودعهم توديع أن لا تلاقيا

وأقبل النعمان حتى أتى المدائن ، فصف له كسرى ثمانية آلاف جارية عليهن المصبغات صفين ، فلما صار النعمان بينهن قلن له : أما فينا للملك غنى عن بقر السواد ؟!

فعلم النعمان أنه غير ناج منه ، ولقيه زيد بن عدي ، فقال له النعمان : أنت فعلت هذا بي ، لئن تخلصت لأسقينك بكأس أبيك .

فقال له زيد : امض نعيم ، فقد أخيت لك أخية لا يقطها المهر الأرن .

وأمر كسرى بالنعمان ، فحبس بساباط المدائن ، ثم أمر به فرمي تحت أرجل الفيلة . وقال بعضهم : بل مات في محبسه بساباط .

وقد ذكرت ذلك الشعراء فأكثرت فمن ذلك قول الأعشى وأجاد :

ولا الملك النعمان يوم لقيته ... بغبطته يعطي الصكاك ويرفق
ويجبى اليه المسلمون ، وعنده ... صريعون في أنهارها والخورنق
ويقسم أمر الناس يوما وليلة ... وهم ساكتون والمنية تنطق
فذاك وما أنجى من الموت ربه ... بساباط حتى مات وهو محزرق

وقال هانىء بن مسعود الشيباني :

ان ذا التاج ، لا أبالك ، أضحى ... في الورى رأسه تخوت الفيول
ان كسرى عدا على الملك النعـ ... ـمان حتى سقاه مر البليل

ومما رثي به النعمان :

لم تبكه هند ولا أختها ... خرقاء ، واستعجم ناعيه
بين فيول الهند تخبطنه ... مختبطا تدمى نواحيه

وقد كان النعمان حين أراد المضي الى كسرى مستسلما مر على بني شيبان فأودعهم سلاحه وعياله عند هانىء بن مسعود بن هانىء الشيباني ، فلما أتى كسرى على النعمان بعث

الى هانىء بن مسعود وطالبه بتركته ، فامتنع وأبى أن يخفر الذمة . فكان ذلك السبب الذي أهاج حرب ذي قار ، وقد أتينا على ذلك في الكتاب الأوسط فأغنى عن اعادته هنا .

بنت النعمان عند سعد بن أبي وقاص

وقد كانت حرقة بنت النعمان بن المنذر اذا خرجت الى بيعتها يفرش لها طريقها بالحرير والديباج ، مغشى بالخز والوشي ، ثم تقبل في جواريها حتى تصل الى بيعتها ، وترجع الى منزلها . فلما هلك النعمان نكبها الزمان ، فأنزلها من الرفعة الى الذلة .

ولما وفد سعد بن أبي وقاص القادسية أميرا عليها لما هزم اللّه الفرس وقتل رستم ، فأتت حرقة بنت النعمان في حفدة من قومها وجواريها وهن في زيها عليهن المسوح والمقطعات السود ، مترهبات تطلب صلته ، فلما وقفن بين يديه أنكرهن سعد ، فقال : أفيكن حرقة ؟

قالت : ها أنذه .

قال : أنت حرقة ؟

قالت : نعم ، فما تكرارك في استفهامي ؟

ثم قالت : ان الدنيا دار زوال ، ولا تدوم على حال ، تنتقل بأهلها انتقالا ، وتعقبهم بعد حال حالا . كنا ملوك هذا المصر يجبى لنا خراجه ، ويطيعنا أهله مدى المدة وزمان الدولة ، فلما أدبر الأمر وانقضى صاح بنا صائح الدهر ، فصدع عصانا وشتت شملنا ، وكذلك الدهر يا سعد انه ليس يأتي قوما بمسرة الا ويعقبهم بحسرة .

ثم أنشأت تقول :

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا ... اذا نحن فيهم سوقة ليس نعرف
فأفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها ... تقلب تارات بنا وتصرف

فقال سعد : قاتل اللّه عدي بن زيد ، كأنه ينظر اليها حيث يقول :

ان للدهر صولة فاحذرنها ... لا تبيتن قد أمنت الدهورا
قد يبيت الفتى معافى فيردى ... ولقد كان آمنا مسرورا

قال : فبينا هي واقفة بين يدي سعد اذ دخل عمرو بن معديكرب ، وكان زوارا لأبيها

في الجاهلية ، فلما نظر اليها قال : أنت حرقة ؟

قال : نعم .

قال : فما دهمك فأذهب محمودات شيمك ، وأين تتابع نعمتك وسطوات نقمتك ؟

فقالت : يا عمرو ، ان للدهر لسطوات وعثرات وعبرات ، تعثر بالملوك وأبنائهم ، فتخفضهم بعد رفعة ، وتفردهم بعد منعة ، وتذلهم بعد عزة . ان هذا لأمرأكنا ننتظره ، فلما حل بنا لم ننكره .

قال : فأكرمها سعد ، وأحسن جائزتها ، فلما أرادت فراقه قالت : حتى أحييك بتحية ملوكنا بعضهم لبعض ، لا نزع الله من عبد صالح نعمة الا جعلك سببا لردها عليه .

ثم خرجت من عنده فلقيها نساء المدينة ، فقلن لها : ما فعل بك الأمير ؟

قالت : حاط لي ذمتي ، وأكرم وجهي ، انما يكرم الكريم الكريم .

وسنذكر خبر هند بنت النعمان مع المغيرة بن شعبة أيام أمرته على الكوفة ، فيما يرد من هذا الكتاب ، عند ذكرنا لأخبار معاوية بن أبي سفيان .

***

قال أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي : فهؤلاء ملوك الحيرة الى أن ظهر الاسلام ، فأظهره الله ، وأذل الكافرين . فجميع من سمينا من هؤلاء الملوك من ولد عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة الأبرش ، على حسب ما قدمنا آنفا في صدر هذا الباب .

ثم جاء الاسلام وملك الفرس كسرى أبرويز بن هرمز ، فملك على العرب بالحيرة اياس بن قبيصة الطائي ، فكان ملكه تسع سنين . ولثمانية أشهر ، مضت من ملك اياس ، كان مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم ملك الحيرة جماعة من الفرس ، وقد كان قبل عمرو بن عدي ملوك على الحيرة على حسب ما ذكرنا . وكان عدة الملوك بالحيرة ثلاثة وعشرين ملكا من بني نصر وغيرهم من العرب والفرس ، وكان مدة ملكهم ستمائة سنة واثنتين وعشرين سنة وثمانية أشهر .

وقد قيل : ان عمران الحيرة وبدوه الى أن خربت في وقت بناء الكوفة ، كان خمسمائة سنة وبضعا وثلاثين سنة .

خراب الحيرة

قال المسعودي : ولم يزل عمرانها يتناقص من الوقت الذي ذكرنا الى صدر من أيام المعتضد ، فانه استولى عليها الخراب . وقد كان جماعة من خلفاء بني العباس ـ كالسفاح والمنصور والرشيد وغيرهم ـ ينزلونها ويصلون المقام بها لطيب هوائها ، وصفاء جوهرها ، وصحة ترتبتها ، وصلابتها ، وقرب الخورنق ، والنجف منها .

وقد كان فيها ديارات كثيرة فيها رهبان ، فلحقوا بغيرها من البلاد ، لتداعي الخراب اليها ، وأقفرت من كل أنيس في هذا الوقت ، ليس بها الا الصدى والبوم . وعند كثير من أهل الدراية التامة بما يحدث في المستقبل من الزمان أن سعدها سيعود بالعمران ، وأن هذا النحس عنها سيزول . . . وكذلك الكوفة .

***

قال المسعودي : ولمن سمينا من ملوك الحيرة أخبار وسير وحروب قد أتينا على ذكرها والغرر من مبسوطها في كتابنا « أخبار الزمان » ، وفيما بعد من هذا الكتاب ، فأغنى ذلك عن اعادته في هذا الباب .

ذكر ملوك الشام من اليمن

من غسان وغيرهم من الملوك

اول ملوك الشام

كان أول من ملك الشام من اليمن فالغ بن يغور .

ثم ملك بعده يوتاب ، وهو أيوب بن رزاح ، وقد ذكر الله عز وجل في كتابه ما كان من خبره على لسان نبيه ، وما اقتص من أمره .

ثم غلبت الروم على ديارها ، فتفرقوا في البلاد ، وكانت قضاعة بن مالك بن حمير أول من نزل الشام وانضافوا الى ملوك الروم ، فملكوهم بعد أن دخلوا في النصرانية على من حوى الشام من العرب .

تنوخ ونسبها

وكان أول من ملك من تنوخ النعمان بن عمرو بن مالك .

ثم ملك بعده عمرو بن النعمان بن عمرو ثم ملك بعده الحواري بن النعمان ، ولم يملك من تنوخ الا من ذكرنا .

وهو تنوخ بن مالك بن فهم بن تيم اللات بن الأزد بن وبرة بن ثعلبة بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير .

وقد تنوزع في قضاعة : أمن معد كان أم من قحطان ؟ فقضاعة تأبى أن تكون من معد وتزعم أنها من قحطان على ما ذكرنا . وقد قيل في نسب قضاعة واتصالها بحمير غير ما ذكرنا من النسب .

سليح ونسبها

ثم وردت سليح الشام فغلبت على تنوخ وتنصرت ، فملكتها الروم على العرب الذين بالشام ، وهم ولد سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، فاستقام ملك سليح بالشام ، وتفرقت قبائل العرب لما كان بمأرب وقصة عمرو بن عامر مزيقياء ، فسارت غسان الى الشام وهم من ولد مازن .

وذلك أن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ولد مازن ، واليه ترجع قبائل غسان .

مازن

وانما غسان ماء شربوا منه فسموا بذلك ، وهو ما بين زبيد ورمع ، وادي الأشعريين

بأرض اليمن ، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت الأنصاري :

اما سألــت فانا معشر نجب   الأزد نسبتنا والمــاء غسان

وسنذكر بعد هذا الموضع خبر عمرو بن عامر مزيقياء ، وخبر سيل العرم ، وتفرقهم في البلاد ، وخبر الماء المعروف بغسان .

وقد ذكر أن عمرو بن عامر حين خرج من مأرب لم يزل مقيما على هذا الماء الى أن أدركه الموت ، وكان عمره ثمانمائة سنة : أربعمائة سوقة ، وأربعمائة ملكا .

ملوك غسان على الشام

وغلبت غسان على من بالشام من العرب ، فملكها الروم على العرب ، فكان أول من ملك من ملوك غسان بالشام الحارث بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة ابن مازن ، وهو غسان بن الأزد بن الغوث .

ثم ملك بعده الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر بن حارثة ، وأمه مارية ذات القرطين بنت أرقم بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو .

وذكر أنها مارية بنت ظالم بن وهب بن معاوية بن ثور ، وهو كندة .

وهي التي ذكرتها الشعراء في أشعارها ، وتنسب جماعة من ملوك غسان اليها .

وملك بعده النعمان بن الحارث بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو .

ثم ملك بعده المنذر أبو شمر بن الحارث بن جبلة بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو .

ثم ملك بعده عوف بن أبي شمر .

ثم ملك بعده الحارث بن أبي شمر ، فكان ملكه حين بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

حسان والحارث الغساني

وذكر عدة من الأخباريين أن حسان بن ثابت الأنصاري زار الحارث بن أبي شمر الغساني بالشام ، وكان النعمان بن المنذر اللخمي ملك الحيرة يساميه ، فقال له وهو عنده : يا بن الفريعة ، لقد نبئت أنك تفضل النعمان عليّ .

فقال : وكيف أفضله عليك ، فوالله لقفاك أحسن من وجهه ، ولأمك أشرف من أبيه ، ولأبوك أشرف من جميع قومه ، ولشمالك أجود من يمينه ، ولحرمانك أنفع من نداه ، ولقليلك أكثر من كثيره ، ولثمادك أمرع من غديره ، ولكرسيك أرفع من سريره ، ولجداولك

أغور من بحره ، وليومك أطول من شهره ، ولشهرك أمد من حوله ، ولحولك خير من حقبه ، ولزندك أورى من زنده ، ولجندك أعز من جنده . . . وانك من غسان وانه من لخم ، فكيف أفضله عليك أو أعدله بك ؟!

فقال : يا بن الفريعة ، هذا لا يسمع الا في شعر .

فقال :

ونبئت أن أبا منذر يساميك للحارث الأصغر
قفاؤك أحسن من وجهه وأمك خير من المنذر
ويسرى يدي على عسرها كيمنى يديه على المعسر

جبلة بن الأيهم

ثم ملك بعده جبلة بن الأيهم بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة بن عمرو بن عامر ابن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن ، وهو غسان بن الأزد بن الغوث ، وهو الملك الذي امتدحه حسان بن ثابت الأنصاري ، حيث يقول في شعر طويل :

أشهرنها فان ملكك بالشا م الى الروم فخر كل يماني

وفيه يقول أيضا :

لمن الدار أقفرت بمعان بين أعلى اليرموك والصمان
من قريات من ثلاثين علت ناسكا منه بالقصور الدواني
قد دنا الفصح والولائد ينظمـ ـن سراعا أكلة المرجان
ذاك مغنى لآل جفنة في الدهـ ـر ، وحقا تصرف الأزمان
صلوات المسيح في ذلك الديـ ـر دعاء القسيس والرهبان

وهذه مواضع وقرى من غوطة دمشق وأعمالها بين الجولان واليرموك .

منازل غسان

وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان ، وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها ، ومنهم من نزل الأردن من أرض الشام .

وجبلة بن الأيهم هو الذي أسلم وارتد عن دينه خوف العار والقود من اللطمة .

وخبره واضح مشهور قد أتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا ، وسائر أخبار ملوك تنوخ وسليح وغسان وغيرهم ممن ملك الشام ، ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم الحارث بن أبي شمر الغساني الى الاسلام وترغيبه في الايمان ، وقد أتينا على خبره وما كان من اسلامه وأخباره مع النبي صلى الله عليه وسلم في كتابنا « أخبار الزمان » .

وفي أبيه يقول النابغة :

هذا غلام حسن وجهه مستقبل الخير سريع التمام

للحارث الأكبر والحارث الأصـ ـغر ، والحارث خير الأنام

ثم لهند ولهند وقد أسرع في الخيرات منه أمام

وخمسة آباؤهم ما هم أكرم من يشرب صوب الغمام

فجميع من ملك من ملوك غسان بالشام أحد عشر ملكا .

وقد كان بالشام ملوك ببلاد مادب من أرض البلقاء من بلاد دمشق ، وكذلك مدائن قوم لوط من أرض الأردن وبلاد فلسطين .

وكانت خمس مدن ، وكانت دار المملكة منها والمدينة العظمى مدينة سدوم ، وكانت سمة كل ملك يملكها بارعا . وكذلك ذكر في التوراة ، وذكرت أسماء هذه المدن ، أعرضنا عنه ، اذ كان فيه خروج عن شرط الاختصار .

وقد كان لكندة وغيرها من العرب من قحطان ومعد ملوك كثيرة لم نتعرض لذكرها ، اذ كان لا أسماء لهم تعمهم وتشهرهم ، كقولنا الخليفة وقيصر وكسرى والنجاشي ، ولئلا يطول الكتاب بذكرهم .

وقد أتينا على سائر ملوك العرب من معد وقحطان وغيرهم ممن وسم بالملك في بعض الممالك في سائر الأمم الخالية والممالك الباقية ، من البيضان والسودان ، ممن أمكن ذكره وتأتي لنا الأخبار عنه .

وانما ذكرنا في هذا الكتاب من الملوك من اشتهر ملكه ، وعرفت مملكته ميلا الى الاختصار ، وطلبا للايجاز ، وتنبيها على ما سلف من اخبارهم في كتبنا المتقدم ذكرها من تصنيفنا ، والله الموفق .

ذكر البوادي من العرب وغيرها من الأمم وعلة سكناها البدو، وجمل من أخبار العرب وغير ذلك مما اتصل بهذا المعنى

قد تقدم ذكرنا لولد قحطان ، وأن من عداهم من العرب العاربة دثرت من عاد وطسم وجديس وعملاق وجرهم وثمود وعبيل ووبار ، وسائر من سمينا ، وأن من بقي ممن ذكرنا دخلوا في العرب الباقية الى هذا الوقت ، وهم قحطان ، ومعد ، ولا نعلم أن قبيلا بقي يشار اليه في الأرض من العرب الأولى غير معد وقحطان .

وذكرنا من طاف البلاد من ملوكهم ، مثل التبابعة والأذواء ، ومن شيد البنيان في الشرق والغرب ، ومصر الأمصار . وبنى المدن الكبار ، كافريقس بن أبرهة ، وما بنى بالمغرب من المدن كمدينة افريقية وصقلية ، وما كور من الكور هنالك ، وما اتخذ من العمائر ، وكمسير شمر الى أرض المشرق ، وبنيانه سمرقند ، ومن خلف هنالك من حمير بها ، وببلاد التبت والصين .

وقد ذكر ذلك جماعة من شعرائهم ممن سلف وخلف .

بين دعبل والكميت

وقد افتخر دعبل بن علي الخزاعي في قصيدته التي يرد فيها على الكميت ، وفخر دعبل بمن سلف من ملوكهم ومسيرهم في الأرض وأن لهم من الفضل ما ليس لمعد بن عدنان ، فقال في شعره :

همو كتبوا الكتاب بباب مرو وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم جمعوا الجموع بسمرقند وهم غرسوا هناك التبتينا

وقد كان لليمن ملوك لا يدعون بالتبابعة ، ممن تقدم وتأخر منهم ، حتى ينقاد الى ملكه أهل الشحر وحضرموت ، فحينئذ يستحق أن يسمى تبعا ، ومن تخلف من ملكه من ذكرنا سمي ملكا ، ولم يطلق عليه تبع .

وقد قال الله عز وجل في قصة قريش وتفاخرها بقوتها : « أهم خير أم قوم تبع ... » حين دخل الحرم فبعث الله عليه الظلة .

وانما سمي تبعا بمن تبعه ، وكذلك حكي عن عبد الله بن العباس .

بين تبع وقباد ملك الطوائف

وقد كان تبع أبو كرب سار في الأرض ووطىء الممالك وذللها ، ووطىء أرض العراق في ملك الطوائف ، وعميد الطوائف حينئذ جوذر بن سابور ، فلقي أبو كرب ملكا من الطوائف يقال له قباد ، وليس بقباد بن فيروز من الساسانية ، فانهزم قباد ، وأتى تبع أبو كرب على ملكه ، وملك العراق والشام والحجاز وكثيرا من الشرق .

وفي ذلك يقول تبع ويذكر ما صنع :

ورد الملك تبع وبنوه ورثوهم جدودهم والجدودا
اذ جنبنا جيادنا من ظفار ثم سرنا بها مسيرا بعيدا
فاستبحنا بالخيل ملك قباد وابن أقلود قائما مصفودا
فكسونا البيت الذي حرّ رم اللّه ملاء مقصبا وبرودا
وأقمنا به من الشهر عشرا وجعلنا لبابه اقليدا
ثم طفنا بالبيت سبعا وسبعا وسجدنا عند المقام سجودا

وقال أيضا فيه :

لست بالتبع اليماني ان لم تركض الخيل في سواد العراق
وتؤدي ربيعة الخرج قسرا أو تعقني عوائق العواق

وقد كانت لنزار بن معد معه وقائع وحروب كثيرة ، واجتمعت عليه معد بن ربيعة ومضر ، واياد وأنمار ، وتداعت بجدها نزار ، وتواهبت ما كان بينها من الدماء والثأر ، فكانت لهم عليه ، ففي ذلك يقول أبو داود الايادي :

ضربنا على تبع جزية جياد البرود وخرج الذهب
وولى أبو كرب هاربا وكان جبانا كثير الرهب
وأتبعه فهوى للجبين وكان العزيز بها من غلب

وقد ذكرنا في الكتاب الأوسط بدء النسب من ابراهيم عليه الصلاة والسلام وولد اسماعيل وتفرق النسب الى نزار بن معد ، وتشعب الناس من نزار بن معد بن عدنان ،

فلنذكر الآن في هذا الموضع خبر ولد نزار الأربعة مع الأفعى بن الأفعى الجرهمي ، ثم نعقب ذلك بما اليه قصدنا في هذا الباب من هذا الكتاب ، من علة سكنى البوادي من العرب البدو وغيرهم ممن سكن الجبال والأودية وسائر البراري والقفار .

أولاد نزار بن معد

ذكر عدة من رواة أخبار العرب أن نزار بن معد ولد أربعة أولاد :

ايادا ، وبه كان يكنى . وأنمارا ، وبجيلة وخثعم من ولده على ما قيل ، اذ كان فيما ذكرنا تنازع لأن من الناس من ألحقهم باليمن ، ومن الناس من ذكر فيهم ما وصفنا أنهم من ولد أنمار بن نزار . وربيعة . ومضر .

فلما حضرت نزارا الوفاة دعا بنيه ودعا بجارية له شمطاء ، فقال لاياد : هذه الجارية وما أشبهها من مالي فلك .

ثم أخذ بيد مضر ، فأدخله قبة له حمراء من أدم ، ثم قال : هذه القبة وما أشبهها من مالي فلك .

ثم أخذ بيد ربيعة وقال له : هذا الفرس الأدهم والخباء الأسود وما أشبههما من مالي فلك .

ثم أخذ بيد أنمار وقال له : هذه البدرة ، والمجلس وما أشبههما من مالي فلك . . .

فان أشكلت عليكم هذه القسمة فأتوا الأفعى بن الأفعى الجرهمي ـ وكان ملك نجران ـ حتى يقسم بينكم وتراضوا بقسمته .

قصتهم مع الأفعى الجرهمي

فلم يلبث نزار الا قليلا حتى هلك ، وأشكلت القسمة على ولده ، فركبوا رواحلهم ثم قصدوا نحو الأفعى ، حتى اذا كانوا منه على يوم وليلة من أرض نجران ، وهم في مفازة ، اذا هم بأثر بعير .

فقال اياد : ان هذا البعير الذي ترون أثره أعور .

فقال أنمار : وانه لأبتر .

قال ربيعة : وانه لأزور .

قال مضر : وانه لشرود .

فلم يلبثوا أن رفع اليهم راكب توضع به راحلته ، فلما غشيهم قال لهم : هل رأيتم من بعير ضال في وجوهكم ؟

قال اياد : أكان بعيرك أعور ؟

قال : فانه لأعور .

قال أنمار : أكان بعيرك أبتر ؟

قال : فانه لأبتر .

قال ربيعة : أكان بعيرك أزور ؟

قال : فانه لأزور .

قال مضر : أكان بعيرك شرودا ؟

قال : انه لشرود .

ثم قال لهم : فأين بعيري ؟ دلوني عليه .

قالوا : واللّه ما أحسسنا لك ببعير ولا رأيناه .

قال : أنتم أصحاب بعيري ، وما أخطأتم من نعته شيئا !

قالوا : ما رأينا لك بعيرا .

فتبعهم حتى قدموا نجران . فلما أناخوا بباب الأفعى استأذنوا اليه ، فأذن لهم ، فدخلوا . وصاح الرجل من وراء الباب : أيها الملك ، هؤلاء أخذوا بعيري ثم حلفوا أنهم ما رأوه .

فدعا به الأفعى ، فقال : ما تقول ؟

فقال : أيها الملك ، هؤلاء ذهبوا ببعيري وهم أصحابه .

فقال لهم الأفعى : ما تقولون ؟

قالوا : رأينا في سفرنا هذا اليك أثر بعير فقال أياد : انه لأعور .

قال : وما يدريك أنه أعور ؟

قال : رأيته مجتهدا في رعي الكلأ من شق قد لحسه ، والشق الآخر واف كثير الالتفاف لم يمسه ، فقلت انه أعور .

وقال أنمار : رأيته يرمي ببعره مجتمعا ، ولو كان أهلب لمصع به ، فعلمت أنه أبتر .

وقال ربيعة : رأيت أثر احدى يديه ثابتا والآخر فاسدا ، فعلمت أنه أزور .

وقال مضر : رأيته يرعى الشقة من الأرض ، ثم يتعداها فيمر بالكلأ الملتف الغض فلا ينهش منه ، حتى يأتي ما هو أرق منه ، فيرعى فيه ، فعلمت أنه شرود .

فقال الأفعى : صدقوا ، قد أصابوا أثر بعيرك وليسوا بأصحابه . . . التمس بعيرك .

ثم قال الأفعى للقوم : من أنتم ؟

فأخبروه بحالهم ، وانتسبوا اليه فرحب بهم وحياهم .

ثم قال : ما خطبكم ؟

فقصوا عليه قصة أبيهم .

قال الأفعى : وكيف تحتاجون اليّ وأنتم على ما أرى ؟

قالوا : أمرنا بذلك أبونا .

ثم أمر بهم فأنزلوا ، وأمر خادما له على دار الضيافة أن يحسن اليهم ويكرم مثواهم والطافهم بأفضل ما يقدر عليه .

ثم أمر وصيفا له من بعض خدمه ظريفا أديبا ، فقال له انظر كل كلمة تخرج من أفواههم فائتني بها .

فلما نزلوا بيت الضيافة أتاهم القهرمان بقرص من شهد ، فأكلوا وقالوا : ما رأينا شهدا أعذب ولا أحسن ولا أشد حلاوة منه .

فقال اياد : صدقتم ، لولا أن نحله ألقاه في هامة جبار ! . . فوعاها الغلام .

فلما حضر غداؤهم وجيء بالشواء فاذا بشاة مشوية فأكلوها وقالوا : ما رأينا شواء أجود شيا ، ولا أرخص لحما ، ولا أسمن منه .

فقال أنمار : صدقتم لولا أنه غذي بلبن كلبة !

ثم جاءهم بالشراب فلما شربوا قالوا : ما رأينا خمرا أرق ولا أعذب ولا أصفى ولا أطيب رائحة منه .

فقال ربيعة : صدقتم لولا أن كرمها نبت على قبر !

ثم قالوا : ما رأينا منزلا أكرم قرى ، ولا أخصب رحلا ، من هذا الملك .

قال مضر : صدقتم لولا أنه لغير أبيه !

فذهب الغلام الى الأفعى فأخبره بما كان منهم ، فدخل الأفعى على أمه ، فقال : أقسمت عليك الا ما أخبرتني من أنا ومن أبي ؟

فقالت : يا بني ، وما دعاك الى هذا ؟ أنت ابن الأفعى الملك الأكبر .

قال : حقا لتصدقني ، فلما ألح عليها قالت : يا بني ، ان أباك الأفعى الذي تدعى له كان شيخا قد أثقل ، فخشيت أن يخرج هذا الملك عنا أهل البيت ، وقد كان قدم الينا شاب من أبناء الملوك ، فدعوته الى نفسي ، فعلقت بك منه .

ثم بعث الى القهرمان ، فقال : أخبرني عن الشهد الذي بعثت به الى هؤلاء النفر ، ما خطبه ؟

قال : إنا أخبرنا بدبر في طف ، فبعثت اليه من يشوره ، فأخبروني أنهم هجموا على

عظام نخرة منكرة في ذلك الطف ، فاذا النحل قد عسلت في جمجمة من تلك العظام ، فأتوا بعسل لم أر مثله ، فقدمته الى القوم لجودته !

ثم بعث الى صاحب مائدته فقال : ما هذه الشاة التي شويتها لهؤلاء القوم ؟

قال : اني بعثت الى الراعي أن ابعث اليّ بأحسن شاة عندك ، فبعث بها الي ، وما سألته عنها .

فبعث الى الراعي أن أعلمني خبر هذه الشاة ، قال : إنها أول ما ولدت من غنمي عام أول ، فماتت أمها ، فبقيت ، وكانت كلبة لي قد وضعت فأنست السخلة بجراء الكلبة ، فكانت ترضع من الكلبة مع جرائها . فلم أجد في غنمي مثلها ، فبعثت بها اليك .

ثم بعث الى صاحب الشراب ، فقال : ما هذا الخمر الذي سقيت لهؤلاء القوم ؟

قال : من حبة كرم نبتت غرستها على قبر أبيك ، فليس في العرب مثل شرابها .

فقال الأفعى : ما هؤلاء القوم ؟ ان هم الا شياطين !

ثم أحضرهم فقال : ما خطبكم ؟ قصوا عليّ قصتكم .

فقال اياد : ان أبي جعل لي خادمة شمطاء وما أشبهها من ماله .

فقال : ان أباك ترك غنما برشاء ، فهي لك ورعاؤها مع الخادم .

قال أنمار : ان ابي جعل لي بدرة ومجلسه وما أشبهها من ماله .

قال : فلك ما ترك أبوك من الرقة والحرث والأرض

فقال ربيعة : ان أبي جعل لي فرسا أدهم ، وبيتا أسود ، وما أشبهها من ماله .

قال : فإن أباك ترك خيلا دهما وسلاحا ، فهي لك وما فيها من عبيد . . . فسمى ربيعة الفرس .

فقال مضر : ان أبي جعل لي قبة حمراء من أدم ، وما أشبهها من ماله .

فقال : ان أباك ترك ابلا حمراء فهي لك وما أشبهها من ماله .

فصارت لمضر الأبل والقبة الحمراء ، والذهب ، فسمي مضر الحمراء . وكانوا على ذلك مع أخوالهم جرهم بمكة ، فأصابتهم سنة أهلكت الشاء وعامة الإبل . وبقيت الخيل ، وكان ربيعة يغزو عليها ويصل اخوته . وذهب ما كان لأنمار من شاء في تلك السنين .

ثم عاود الناس الخصب والغيث ، فرجعت الابل وثابت اليها أنفسها ومشت ، فتناسلت وكثرت ، وقام مضر بأمر اخوته .

فبينا هم كذلك ، وقد قدم الرعاء بابلهم فتعشوا ليلا وعشوا رعاءهم ، فقام مضر يوصي الرعاء وفي يد أنمار عظم يتعرقه فرمى به في ظلمة الليل وهو لا يبصر فأوتد في عين مضر

وفقأها . فتأوه مضر وصاح عيني عيني ، وتشاغل به اخوته ، فركب أنمار بعيرا من كرائم ابله ، فلحق بديار اليمن ، وكان بين اخوته ما ذكرنا من التنازع .

فهؤلاء ولد نزار الأربعة : اليهم يرجع سائر ولد نزار ، على حسب ما قدمنا أن مضر الحمراء لما ذكرنا من أمر القبة ، وبذلك تفتخر مضر في كلامها من المنثور والمنظوم ، وربيعة الفرس ، وربيعة القشعم من الفروسية والشجاعة والنجدة والعز وشن الغارات لما ذكرنا من أمر الفرس . واياد وقد ذكرنا ما لحق عقبه . وأنمار وقد بينا الخلاف في تفرع نسله وما قاله النسابون في عقبه .

ولكل واحد من هؤلاء ومن أعقب أخبار كثيرة يطول ذكرها ، ويتسع شرحها : من ذكر ما حلوا به من الديار ، وتشعب أنسابهم وتسلسلها ، قد أتى الناس على ذكرها .

وقد قدمنا فيما سلف من كتبنا اليسير من مبسوطها ، فمنعنا ذلك من اعادته في هذا الكتاب .

فلنذكر الآن الغرض من هذا الباب الذي به ترجم ، واليه نسب ، من سكنى من حل البدو من العرب وغيرها من الأمم المتوحشة كالترك والكرد والبجة والبربر ، ومن تقطن بالبراري وقطن الجبال ، والعلة الموجبة لذلك من فعلهم .

علة سكنى البدو

تباين الناس في السبب الموجب لما وصفنا ، فذهب كثير من الناس الى أن الجيل الأول ممن سكن الأرض مكثوا حينا من الزمان لم يبنوا بناء ، ولا شيدوا مدنا ، وكان سكناهم في شبه الأكواخ والمظال .

ثم أن نفرا منها أخذوا في ابتناء المساكن ، وخلف من بعدهم خلف فابتنوا الأبنية . وثبتت فرقة منهم على سجيتها الأولى في البيوت والأظلال ينتجعون الأماكن الرفهة الخصبة وينتقلون عنها اذا أجدبت ، فمضت هذه الطائفة على نهج الأقدمين .

وذكرت طائفة أن أول ذلك أن الناس لما نضب عنهم الطوفان الذي أهلك اللّه به الأرض في زمن نوح على نبينا وعليه السلام ، تفرق من نجا في طلب البقاع الخصبة المتخيرة ، وانفرد من انفرد بانتجاع الأرضين وحلول البيداء ، واستوطن آخرون بقاعا تخيروها .

كمن ابتنى اقليم بابل من النبط ، ومن حله من ولد حام بن نوح عليه السلام مع نمروذ ابن كنعان بن سنجاريب بن نمروذ الأول بن كوش بن حام بن نوح ، وذلك حين تملك على اقليم بابل من قبل الضحاك ، وهو بيوراسف .

وكمن حل ببلاد مصر من ولد حام على حسب ما ذكرنا في باب مصر وأخبارها في هذا الكتاب .

وكمن عمر الشام من الكنعانيين .

وكمن حل بوادي البربر وهم هوارة وزناتة وضريسة ومغيلة وور فجومة ونفزة وكتامة ولواتة ومزانة ونفوسة ولفطة وصدينة ومصمودة وزنارة وغمارة وقالة ووارقة وأتيتة وبابة وبنو سبخون وأركنة وهي من زناتة وبنو كلان وبنو مصدريان وبنو أفباس وزبجن وبنو منهوسا وصنهاجة ، ومن سكن من أنواع الأحابيش وغيرهم الغابة المعروفة بغابة العافريم سون ورعوين والعورفة ويكسوم ، ومنهم من سكن غير الغابة واتسع في هذه البلاد من المغرب .

وقد ذكرنا أن أرض البربر خاصة كانت أرض فلسطين من بلاد الشام ، وأن ملكهم كان جالوت ، وهذا الاسم سمة لسائر ملوكهم ، الى أن قتل داود عليه الصلاة والسلام ملكهم جالوت ، فلم يتملك عليهم بعده ملك .

وأنهم انتهوا الى ديار المغرب الى موضع يعرف بلوبية ومراقية ، فانتشروا هنالك ، فنزل منهم زناتة ومغيلة وضريسة الجبال من تلك الديار وتبطنوا الأودية ، ونزلوا أرض برقة ، ونزلت هوارة بلاد اياس وهي بلاد طرابلس المغرب أي الثلاث المدن .

وقد كانت هذه الديار للافرنجة والروم ، فانجلوا عن البربر حين أوطنوا أرضهم الى جزائر البحر الرومي فسكن الأكثر منهم جزيرة صقلية .

وتفرقت البربر ببلاد افريقية وأقاصي بلاد المغرب من نحو من مسافة ألفي ميل ، وانتهوا الى موضع يعرف بقبوسة ، على أكثر من ألفي ميل من بلاد القيروان .

وتراجعت الروم والافرنجة الى مدنهم وعمائرهم ، وذلك على موادعة وصلح من البربر ، واختارت البربر سكنى الجبال والأودية والرمال والدهاس وأطراف البراري والقفار .

ومن بحر افريقية وصقلية يخرج المرجان ، وهو المتصل ببحر الظلمات المعروف ببحر أقيانس .

وغير هؤلاء ممن ذكرنا من الأمم ، ممن سكن قطع الأرض ، وابتنى المدائن شرقا وغربا .

ورأت العرب أن جولان الأرض وتخير بقاعها على الأيام أشبه بأولي العز وأليق بذوي الأنفة ، وقالوا : لنكون محكمين في الأرض ونسكن حيث نشاء ، أصلح من غير ذلك . فاختاروا سكنى البدو ، من أجل ذلك .

وذكر آخرون أن القدماء من العرب لما ركبهم اللّه من سمو الأخطار ، ونبل الهمم والأقدار ، وشَلَة الأنفة ، والحمية من المعرة ، والهرب من العار ، بدأت بالتفكير في المنازل ، والتقدير للمواطن ، فتأملوا شأن المدن والأبنية ، فوجدوا فيها معرة ونقصا .

وقال ذوو المعرفة والتمييز منهم : ان الأرضين تمرض كما تمرض الأجسام وتلحقها الآفات ، والواجب تخير المواضع بحسب أحوالها من الصلاح ، اذ الهواء ربما قوي فأضر بأجسام سكانه ، وأحال أمزجة قطانه .

وقال ذوو الآراء منهم : ان الأبنية والتحويط حصر عن التصرف في الأرض ، ومقطعة عن الجولان ، وتقييد للهمم ، وحبس لما في الغرائز من المسابقة الى الشرف ، ولا خير في اللبث على هذه الحالة .

وزعموا أيضا ان الأبنية والأطلال تحصر الغذاء وتمنع اتساع الهواء ، وتسد سروحه عن المرور وقذاه عن السلوك ، فسكنوا البر الأفيح الذي لا يخافون فيه من حصر ومنازلة ضر ، هذا مع ارتفاع الأقذاء ، وسماحة الأهواء ، واعتزال الوباء ، ومع تهذيب الأحلام في هذه المواطن ، ونقاء القرائح في التنقل في المساكن ، مع صحة الأمزجة ، وقوة الفطنة ، وصفاء الألوان ، وصيانة الأجسام ، فان العقول والآراء تتولد من حيث تولد الهواء ، وطبع الهواء الفضاء ، وفي هذا الأمن من العاهات والأسقام والعلل والآلام :

فآثرت العرب سكنى البوادي والحلول في البيداء ، فهم أقوى الناس هما ، وأشدهم أحلاما ، وأصحهم أجساما ، وأعزهم جارا ، وأحماهم ذمارا ، وأفضلهم جوارا ، وأجودهم فطنا ، لما أكسبهم اياه صفاء الجو ونقاء الفضاء ، لأن الأبدان تحتوي أجزاؤها على متكاثف الأكدار ، وعناء الأقذار ، مما يرتفع اليه ، ويتلاطم في عرصاته وأفقه من جميع المستحيلات ، والمستنقعات من المياه ، ففي أكنافه جميع ما يتصعد اليه .

ولذلك تراكبت الأقذاء والأدواء والعاهات في أهل المدن ، وتركبت في أجسامهم ، وتضاعفت في أشعارهم وأبصارهم . . .

ففضلت العرب على سائر من عداها من بوادي الأمم المتفرقة لما ذكرنا من تخيرها الأماكن وارتيادها المواطن .

قال المسعودي : ولذلك جانبوا فظاظة الأكراد وسكان الجبال من الأجيال الجافية وغيرهم الذين مساكنهم حزون الأرض ودهاسها . وذلك أن هذه الأمم الساكنة هذه الجبال والأودية تناسب أخلاقها مساكنها في انخفاضها وارتفاعها ، لعدم استقامة الاعتدال في أرضها ، فلذلك أخلاق قطانها على ما هي عليه من الجفاء والغلظ .

خطيب العرب عند كسرى
يعلل اختيار قومه البداوة

وذكر الهيثم بن عدي و الشرقي بن القطامي وغيرهما من الأخباريين أنه وفد على كسرى أنو شروان بعض خطباء العرب ،فسأله كسرى عن شأن العرب وسكناها البر واختيارها البدو ، فقال : أيها الملك ، ملكوا الأرض ولم تملكهم ، وأمنوا عن التحصن بالأسوار ، واعتمدوا على المرهفات الباترة ، والرماح الشارعة جننا وحصونا ، فمن ملك قطعة من الأرض فكأنها كلها له ، يردون منها خيارها ، ويقصدون ألطافها .

قال : فأين حظوظهم من الفلك ؟

قال : من تحت الفرقدين ورأس المجرة وسعد الجدي مشرقين في البر بحسب ذلك .

قال : فما رياحها ؟

قال : أكثرها النكباء بالليل ، والصبا عند انقلاب الشمس .

قال : فكم الرياح ؟

قال : أربع ، فاذا انحرفت واحدة منهن قيل : نكباء ، وما بين سهيل الى طرف بياض الفجر جنوب ، وما بإزائها مما يستقبلها من المغرب شمال ، وما جاء من وراء الكعبة فهي دبور ، وما جاء من قبل ذلك فهي صبا .

قال : فما أكثر غذائهم ؟

قال : اللحم واللبن والنبيذ والتمر .

قال : فما خلائقهم ؟

قال : العز والشرف ، والمكارم ، وقرى الضيف ، واذمام الجار ، واجارة الخائف ، وأداء الحمالات ، وبذل المهج في المكرمات ، وهم سراة الليل ، وليوث الغيل ، وعمار البر ، وأنس القفر ، ألفوا القناعة ، وشنفوا[1] الضراعة ، لهم الأخذ بالثار ، والأنفة من العار ، والحماية للذمار .

قال كسرى : لقد وصفت عن هذا الجيل كرما ونبلا ، وما أولانا بانجاح وفادتك فيهم .

فتخيرت العرب في البر أنزالا منها مشات ومنها مصايف : فمنهم المنجد والمتهم ، فالمنجد منهم هم الذين سكنوا أرض نجد ، والمتهم هم الذين سكنوا أرض تهامة . ومنهم

---

١ ـ شنفوا : كرهوا أو أبغضوا .

من سكن أغوار الأرض كغور بيسان وغور غزة من أرض الشام من بلاد فلسطين والأردن ومن سكنه من لخم وجذام .

ولجميع العرب مياه يجتمعون عليها وملكية يعرجون اليها ، كالدهناء والسماوة والتهائم وأنجاد الأرض والبقاع والقيعان والوهاد . ولست تكاد ترى قبيلا من العرب توغل من الاماكن المعروفة لهم والمياه المشهورة بهم ، كماء ضارج وماء العقيق والهباءة وما أشبه ذلك من المياه .

***

الأكراد ونسبهم ومساكنهم

وأما أجناس الأكراد وأنواعهم فقد تنازع الناس في بدئهم :

فمنهم من رأى أنهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، انفردوا في قديم الزمان ، وانضافوا الى الجبال والأودية ، دعتهم الى ذلك الأنفة ، وجاوروا من هنالك من الأمم الساكنة المدن والعمائر من الأعاجم والفرس ، فحالوا عن لسانهم ، وصارت لغتهم أعجمية ، ولكل نوع من الأكراد لغة لهم بالكردية .

ومن الناس من رأى أنهم من مضر بن نزار ،وأنهم من ولد كرد بن مرد بن صعصعة بن هوازن ، وأنهم انفردوا في قديم الزمان لوقائع ودماء كانت بينهم وبين غسان .

ومنهم من رأى أنهم من ربيعة ومضر ، وقد اعتصموا في الجبال طلبا للمياه والمراعي فحالوا عن اللغة العربية لما جاورهم من الأمم .

ومن الناس من ألحقهم باماء سليمان بن داود عليهما السلام حين سلب ملكه ووقع على امائه المنافقات الشيطان المعروف بالجسد ، وعصم الله منه المؤمنات أن يقع عليهن ، فعلق منه المنافقات . فلما رد الله على سليمان ملكه ووضع تلك الإماء الحوامل من الشيطان قال : أكردوهن الى الجبال والأودية ، فربتهم أمهاتهم ، وتناكحوا ، وتناسلوا ، فذلك بدء نسب الأكراد .

ومن الناس من رأى أن الضحاك ذا الأفواه ـ المقدم ذكره في هذا الكتاب ـ الذي تنازعت فيه الفرس والعرب من أي الفريقين هو ، أنه خرج بكتفيه حيتان فكانتا لا تغذيان الا بأدمغة الناس ، فأفنى خلقا كثيرا من فارس ، واجتمعت الى حربه جماعة كثيرة وافاه أفريدون بهم وقد شالوا راية من الجلود تسميها الفرس درفش كاوان . فأخذ أفريدون الضحاك وقيده في جبل دنباوند على ما ذكرنا .

وقد كان وزير الضحاك في كل يوم يذبح كبشا ورجلا ويخلط أدمغتهما . ويطعم تينك

الحيتين اللتين كانتا في كتفي الضحاك ، ويطرد من تخلص الى الجبال ، فتوحشوا وتناسلوا في تلك الجبال فهم بدء الأكراد ، وهؤلاء من نسلهم ، وتشعبوا أفخاذا .

وما ذكرنا من خبر الضحاك فالفرس لا يتناكرونه ولا أصحاب التواريخ القديمة ولا الحديثة .

وللفرس في أخبار الضحاك مع ابليس أخبار عجيبة ، وهي موجودة في كتبهم . وتزعم الفرس أن طهومرث المقدم ذكره في ملوك الفرس الأولى هو نوح النبي عليه السلام ، وتفسير درفش بالفارسية الفهلوية ـ وهي الأولى ـ الراية والمطرد والعلم .

***

وأما الترك وأجناسها فقد قدمنا كثيرا من أخبارها ، وقد غلط قوم فزعموا أن الترك من ولد طوح بن أفريدون . وهذا غلط بيّن ، لأن طوح ولاه أفريدون على الترك وسلم على الروم ، وكيف توليه عليهم وهم ولده ؟

وما قلنا يدل على أن الترك من غير ولد طوح بن أفريدون ، بل لطوح في الترك عقب مشهور .

والمعظم في أجناس الترك هم التبت ، وهم من حمير على حسب ما ذكرنا أن بعض التبابعة رتبهم هناك .

وما قلنا من الأكراد فالأشهر عند الناس ، والأصح من أنسابهم ، أنهم من ولد ربيعة ابن نزار، فأما نوع من الأكراد ـ وهم الشوهجان ببلاد ما بين الكوفة والبصرة ، وهي أرض الدينور وهمذان ـ فلا تناكر بينهم أنهم من ولد ربيعة بن نزار بن معد .

والماجردان ـ وهم من الكنكور ببلاد أذربيجان والهلبانية والسراة وما حوى بلاد الجبال من الشادنجان واللزبة والمادنجان والمزدنكان والبارسان والخالية والجبارقية والجاوانية والمستكان ومن حل بلاد الشام من الدبابلة وغيرهم ـ فالمشهور فيهم أنهم من مضر بن نزار . ومنهم اليعقوبية والجورقان وهم نصارى ، وديارهم مما يلي بلاد الموصل وجبل الجودي .

وفي الأكراد من رأيهم رأي الخوارج والبراءة من عثمان وعلي رضي الله عنهما .

فهذه جمل من أخبار بوادي العالم ، وقد أعرضنا عن ذكر الغوز والخرلج وهم أنواع من الترك نحو بلاد غرش وبسطام وبست مما يلي بلاد سجستان وكذلك من بلاد كرمان من أرض القفص والبلوج والجت .

بعض ايام العرب

قال المسعودي : فأما أيام العرب ووقائعها وحروبها ، فقد ذكرناها فيما سلف من كتبنا ، وما كان منها في الجاهلية والاسلام ، كيوم الهباءة ، وحروب ذبيان وغطفان ، وما

كان بين عبس وسائر العرب من نزار واليمن ، وحرب داحس والغبراء ، وحرب بكر بن وائل وتغلب ، وهي حرب البسوس ، ويوم الكلاب ويوم خزاز ، ومقتل شاس بن زهير ، ويوم ذي قار ، ويوم شعب جبلة ، وما كان من بني عامر وغيرهم ، وحرب الأوس والخزرج ، وما كان بين غسان وعك .

وسنورد بعد هذا الباب جملا من أخبار العرب الدائرة وغيرها وتفرقها في البلاد ، ونذكر جملا من آرائها ودياناتها في الجاهلية وما ذهبت اليه في الغيلان والهواتف والقيافة والكهانة والتفرس والصدى والهام ، وغير ذلك من شيمها ، وبالله التوفيق .

ذكر ديانات العرب وآرائها في الجاهلية وتفرقها في البلاد وخبر أصحاب الفيل وعبد المطلب وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

ديانات العرب في الجاهلية

قال المسعودي : كانت العرب في جاهليتها فرقا : منهم الموحد المقر بخالقه ، المصدق بالبعث والنشور ، موقنا بأن الله يثيب المطيع ، ويعاقب العاصي . وقد تقدم ذكرنا في هذا الكتاب وغيره من كتبنا من دعا الى الله عز وجل ونبه أقوامه على آياته في الفترة ، كقس بن ساعدة الايادي ورئاب الشني ، وبحيرا الراهب ، وكان من عبد القيس .

وكان من العرب من أقر بالخالق ، وأثبت حدوث العالم وأقر بالبعث والاعادة ، وأنكر الرسل ، وعكف على عبادة الأصنام . وهم الذين حكى الله عز وجل قولهم : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » .

وهذا الصنف هم الذين حجوا الى الأصنام وقصدوها ، ونحروا لها البدن ، ونسكوا لها النسائك ، وأحلوا لها وحرموا .

ومنهم من أقر بالخالق ، وكذب بالرسل والبعث ، ومال الى قول أهل الدهر . وهؤلاء الذين حكى الله تعالى الحادهم ، وخبر عن كفرهم ، بقوله تعالى : « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا ، نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » ، فرد الله عليهم بقوله : « مالهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » .

ومنهم من مال الى اليهودية والنصرانية .

ومنهم المار على عنجهيته ، الراكب لهجمته .

وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة ، ويزعمون أنها بنات الله ، فكانوا يعبدونها لتشفع لهم الى الله ، وهم الذين أخبر الله عز وجل عنهم بقوله تعالى : « ويجعلون لله البنات سبحانه ، ولهم ما يشتهون » ، وقوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك اذن قسمة ضيزى » .

عبد المطلب بن هاشم

فممن كان مقرا بالتوحيد ، مثبتا للوعيد ، تاركا للتقليد ، عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، وقد كان حفر بئر زمزم ، وكانت مطوية ، وذلك في ملك كسرى قباذ ، فاستخرج منها غزالتي ذهب عليهما الدر والجوهر ، وغير ذلك من الحلى ، وسبعة أسياف قلعية ، وسبعة أدرع سوابغ . فضرب من الأسياف بابا للكعبة ، وجعل احدى الغزالتين

صفاح ذهب في الباب ، وجعل الأخرى في الكعبة .

وكان عبد المطلب أول من أقام الرفادة والسقاية للحاج ، وكان أول من سقى الماء بمكة عذبا ، وجعل باب الكعبة مذهبا . وفي ذلك يقول عبد المطلب :

أعـطي بلا شح ولا مشاحح سقيـا على رغـم العــدو الكاشح
بعــد كنوز الحلى والصفائح حليـا لبيـت اللّـه ذي المسارح

وكان قد نذر ان رزقه اللّه عز وجل عشرة أولاد ذكور أن يقرب أحدهم للّه تعالى ، فكان أمره ـ حين رزقه اللّه اياهم ـ أن قرب أحبهم اليه وهو عبد اللّه أبو النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فضرب عليه بالقداح حتى افتداه بمائة من الابل . . في خبر طويل .

أصحاب الفيل

وكان أبرهة حين سار بالحبشة وأتى أنصاب الحرم ، فنزل بالموضع المعروف بحب المحصب ، فأتى بعبد المطلب بن هاشم فأخبر أنه سيد مكة ، فعظمه وهابه لاستدارة نور النبي صلى اللّه عليه وسلم في جبينه، فقال له : سلني يا عبد المطلب فأبى أن يسأله الا ابلا له ، فأمر بردها عليه وقال له : ألا تسألني الرجوع ؟

فقال : أنا رب هذه الابل ، وللبيت رب سيمنعه منك .

وانصرف عبد المطلب الى مكة وهو يقول :

يا أهــل مكــة قد وافاكــم ملك مع الفيـول على أنيــابها الزرد
هذا النجاشي قد سارت كتائبه مع الليـوث عليهـا البيض تتقد
يريــد كعبتكــم ، واللّــه مانعه كمنع تبع لمـا جاءهـا حرد

وأمر قريشا أن تلحق ببطون الأودية ورؤوس الجبال من معرة الحبشة ، وقلد الابل النعال وخلاها في الحرم ، ووقف بباب الكعبة وهو يقول :

يا رب لا أرجو لهم سواكا يا رب فامنع منهــم حماكا
ان عدو البيــت من عاداكا فامنعهــم أن يخربوا قراكا

ويقول :

يارب ان العبد يمنع رحله فامنع رحالك لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك

فأرسل اللّه عليهم الطير الأبابيل ، أشباه اليعاسيب ، ترميهم بحجارة من سجيل ، وهو طين خلط بحجارة خرجت من البحر ، مع كل طير ثلاثة أحجار ، فأهلكهم اللّه عز وجل .

وقد ذكرنا خبر أبي رغال فيما سلف من هذا الكتاب حين دلهم على الطريق ، وهلاكه في الطريق . وجعلت الحبشة يومئذ تسأل عن نفيل بن حبيب الخثعمي يدلها على الطريق ، ونفيل يسمع كلام الحبشة وسؤالها عنه ، وقد ريع لما عمهم من البلاء ، وانفرد من جملتهم يؤمل الخلاص ، وقد تاهوا ، فأنشأ يقول :

ألا ردي جمالك يا ردينا نعمناكم مع الاصباح عينا
فانك لو رأيت ولن تريه لدى جنب المحصب ما رأينا
حمدت اللّه اذ عاينت طيرا وحصب حجارة تلقى علينا
وكل القوم يسأل عن نفيل كأن علي للحبشان دينا

وقد ذكرنا ما كان منهم في هلك عميدهم فيما سلف من هذا الكتاب .
فلما صدهم اللّه عز وجل عن الكعبة أنشأ عبد المطلب يقول :

أيها الداعي لقد أسمعتني ثم ما بي عن نداكم من صمم
ان للبيت لربا مانعا من يرده بأثام يصطلم
رامه تبع فيمن جندت حمير والحي من آل قدم
فانثنى عنه وفي أوداجه جارح أمسك منه بالكظم
قلت والأشرم تردي خيله : ان ذا الأشرم غر بالحرم
نحن آل اللّه فيما قد مضى لم يزل ذاك على عهد ابرهم
نحن دمرنا ثمودا عنوة ثم عادا قبلها ذات الارم
نعبد اللّه وفينا سنة صلة القربى وايفاء الذمم
لم تزل للّه فينا حجة يدفع اللّه بها عنا النقم

القول بتناسخ الأرواح

قال المسعودي : وقد استدل قوم ممن ذهب الى الغلو في بعض المذاهب والخروج عما

أوجبته قضية العقل وضرورات الحواس بهذا الشعر وقول عبد المطلب فيما كان منهم في قديم الزمان ، وأيدوا ذلك الشعر بشعر العباس بن عبد المطلب في مدحه النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ما ذكره قريم بن أوس بن حارثة بن لأم الطائي أنه هاجر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم عليه منصرفه من تبوك فأسلم ، قال : سمعت العباس بن عبد المطلب يقول : يا رسول الله ، اني أريد أن أمتدحك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل لا يفضض الله فاك يا عمي » .

فأنشأ يقول :

من قبلها طبت في الظلال وفي	مستودع حيث يخصف الورق
ثم هبطت البلاد ، لا بشر	أنت ، ولا مضغة ، ولا علق
بل حجة تركب السفين ، وقد	ألجم نسرا وأهله الغرق
تنقل من صالب الى رحم	اذا مضى عالم بدا طبق
وأنت لما ولدت أشرقت الـ	أرض ، وضاءت بنورك الأفق
حتى احتوى بيتك المهيمن من	خندق علياء تحتها النطق
فنحن في ذلك الضياء وفي النـ	ـنور وسبل الرشاد نخترق

قالوا : وهذا الخبر قد ذكره أصحاب السير والأخبار والمغازي ، ونقلوا هذا المديح من قول العباس ، وما كان من سرور النبي صلى الله عليه وسلم بذلك واستبشاره به ، فجعلت هذه الطائفة من الغلاة ما ذكرنا من الشعرين ـ شعر عبد المطلب ، وشعر العباس ـ دلالة لهم على مواطن ادعوها ، وتغلغلوا الى شبه بعيدة استخرجوها ، يمنع منها ما تقدم من أوائل العقول ، وموجبات الفحص . . .

ذكر ذلك جماعة من مصنفي كتبهم ، ومن حذاق مبرزيهم ، من فرق المحمدية والعلبانية ، وغيرهم من فرق الغلاة : منهم اسحاق بن محمد النخعي المعروف بالأحمر في كتابه المعروف بكتاب « الصراط » ، وقد ذكر ذلك الفياض بن علي بن محمد بن الفياض في كتابه المعروف بـ « القسطاس » في نقضه لكتاب « الصراط » .

وذكره المعروف بالنهكيني في نقضه هذا الكتاب المترجم بالصراط .

وهؤلاء محمدية نقضوا هذا الكتاب ، وهو على مذهب العلبانية .

وقد أتينا على ذكر هؤلاء المحمدية والعلبانية والمغيرية والقدرية وسائر فرق الغلاة وأصحاب التفويض والوسائط ، واستقصينا النقض عليهم وعلى سائر من ذهب الى القول

بتناسخ الأرواح في أنواع أشلاء الحيوان ، ممن ادعى الاسلام وغيرهم ممن سلف من اليونانيين والهند والثنوية والمجوس واليهود والنصارى .

وذكرنا قول أحمد بن حائط وابن يافوس وجعفر القاضي ، الى من نجم في وقتنا ممن تقدم وتأخر الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) ممن أحدث قولا تفريعا على ما سلف من أصولهم ، وأبدى شبها أيد بها ما تقدم من مذاهبهم ، مثل الحسين بن منصور المعروف بالحلاج ، وأصحاب أبي يعقوب المزابلي ، ثم أصحاب السوق ومن تأخر عنهم وفارقهم في أصولهم ، مثل أبي جعفر محمد بن علي الشلمغاني المعروف بابن أبي الغرائر وغيرهم ممن أمم نهجهم .

وذكرنا الفرق بينهم وبين غيرهم من أصحاب الدور في هذا الوقت ممن يراعي وقت الظهور ، وأصحاب حجج الليل والنهار ، اذ كان هؤلاء قد أثبتوا القول بالتناسخ ، وأن الأرواح تنتقل في شيء من الأجسام الحيوانية ، وأحالوا على القديم عز وجل أن يجوز عليه شيء مما تقدم .

فلنرجع الآن الى ما كنا فيه آنفا ، وما تغلغل بنا الكلام عنه من ذكر عبد المطلب .

***

الاختلاف في ايمان عبد المطلب

تنازع الناس في عبد المطلب :

فمنهم من رأى أنه كان مؤمنا موحدا ، وأنه لم يشرك بالله عز وجل ، ولا أحد من آباء النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه نقل في الأصلاب الطاهرة ، وأنه أخبر أنه ولد من نكاح لا من سفاح .

ومنهم من رأى أن عبد المطلب كان مشركا ، وغيره من آباء النبي صلى الله عليه وسلم الا من صح ايمانه . وهذا موضع فيه تنازع بين الامامية والمعتزلة والخوارج والمرجئة وغيرهم ، من الفرق في النص والاختيار .

وليس كتابنا هذا موسوما للحجاج فنذكر حجاج كل فريق منهم . وقد أتينا على قول كل فريق منهم وما أيد به قوله في كتابنا « المقالات في أصول الديانات » وفي كتاب « الاستبصار » ووصف أقاويل الناس في الامامة وفي كتاب « الصفوة » أيضا .

وكان عبد المطلب يوصي ولده بصلة الأرحام ، واطعام الطعام ، ويرغبهم ويرهبهم . . . فعل من يراعي في المتعقب معادا وبعثا ونشورا . وجعل السقاية والرفادة الى ابنه عبد مناف ـ وهو أبو طالب ـ وأوصاه بالنبي صلى الله عليه وسلم .

أبو طالب

وقدتنوزع في اسم أبي طالب :

فمنهم من رأى أن اسمه عبد مناف ـ على ما وصفنا ـ ومنهم من رأى أن كنيته اسمه ، وأن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه كتب في كتاب النبي صلى اللّه عليه وسلم ليهود خيبر باملاء النبي صلى اللّه عليه وسلم « وكتب علي بن أبي طالب » باسقاط الألف .

وقد ذكر عبد المطلب في شعر له وصية أبي طالب بالنبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقال :

أوصيت من كنيته بطالب بابن الذي قد غاب ليس بآئب

وقد كان أكثر العرب ممن بقي ودثر يقر بالصانع ، ويستدل على الخالق .

اختلاط الألسنة

وقد كان في ملك النمروذ بن كوش بن حام بن نوح هيجان الريح التي نسفت صرح النمروذ ببابل من أرض العراق ، فبات الناس ولسانهم سرياني ، وأصبحوا وقد تفرقت لغاتهم على اثنين وسبعين لسانا ، فسمي الموضع من ذلك الوقت بابل . فصار من ذلك في ولد سام بن نوح تسعة عشر لسانا ، وفي ولد حام بن نوح ستة عشر لسانا ، وفي ولد يافث بن نوح سبعة وثلاثون لسانا . . . على حسب ما ذكرنا في صدر هذا الكتاب .

مسير يعرب وسكناه اليمن

وكان من تكلم بالعربية يعرب وجرهم وعاد وعبيل وجديس وثمود وعملاق وطسم ، ووبار وعبد ضخم . فسار يعرب بن قحطان بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح بمن تبعه من ولده وغيرهم وهو يقول :

أنا ابن قحطان الهمام الأفضل الأيمن المعرب ذي المهلل
يا قوم سيروا في الرعيل الأول أنا البدي باللسان المسهل
الأبين المنطق غير المشكل حثوت والأمة في تبلبل
يا قوم سيروا في الرعيل الأول نحو يمين الشمس في تمهل

فحل باليمن على ما وصفنا آنفا من هذا الكتاب .

مسير عاد الى الأحقاف

وسار بعده عاد بن عوص بن ارم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه وهو يقول :

انى أنا عاد الطويـل البادي وسام جدي ابن نوح الهادي
فقد رأيتـم يعـرب الزيادي وسـوقـه الطـارف والتـلاد

فحل بالأحقاف وأداني الرمل بين عمان وحضرموت واليمن .

ارم ذات العماد

وتفرق هؤلاء في الأرض ، فانتشر منهم ناس كثير : منهم جيرون بن سعد بن عاد حل بدمشق فمصر مصرها ، وجمع عمد الرخام و المرمر اليها ، وشيد بنيانها ، وسماها ارم ذات العماد . وقد روي عن كعب الأحبار في ارم ذات العماد غير هذا .

وهذا الموضع بدمشق في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) سوق من أسواقها عند باب المسجد الجامع ، يعرف بجيرون ، وجيرون هو بنيان عظيم ، كان قصر هذا الملك ، عليه أبواب من نحاس عجيبة : بعضها على ما كانت عليه ، والبعض من مسجد الجامع ، وقد ذكرنا فيما مر خبر نبي اللّه هود .

نزول ثمود الحجر

وسار بعد عاد بن عوص ثمود بن عابر بن ارم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه وهو يقول :

أنا الفتى الـذي دعـا ثمودا يا قوم سيروا ودعـوا الترديدا
لعلنـا أن ندرك الـوفودا فنلحـق البـادي لـنـا العديدا
انـا أبينـا اليعـرب الحميـدا وعـاد ما عـاد الفتـى الجليـدا

فنزل هؤلاء الحجر الى فرع ، وقد تقدم ذكرهم فيما سلف من هذا الكتاب ، وخبر نبيهم صالح عليه السلام ، وأنهم نحو وادي القرى ، بين الشام والحجاز .

مسير جديس الى اليمامة

وسار بعد ثمود جديس بن عابر بن ارم بن سام بن نوح بولده ، ومن تبعه وهو يقول :

أنا جديس والمسير المسلكا فدتك نفسي يا ثمود المهلكا
دعـوتني فقد قصدت نحوكا اذ سارت العيس وأبدت شخصكا

وقد قلنا فيما سلف : ان هؤلاء الذين نزلوا اليمامة .

مسير عملاق الى مواضع مختلفة

وسار بعد جديس عملاق بن لاوذ بن ارم بن سام بن نوح بولده ومن تبعه ، وهو يقول :

لما رأيت الناس ذات تبلبل وسار منا ذو اللسان الأول
وحدثتنا في اللحاق الأول فسرت حثا بالسوام المهمل

فنزل هؤلاء أكناف الحرم والتهائم .

ومنهم من سار الى بلاد مصر والمغرب وقيل : ان هؤلاء بعض فراعنة مصر .

وقد ذكرنا قول من ألحق العماليق وغيرهم ممن ذكرنا بعيص بن اسحاق بن ابراهيم الخليل ، وزعم أنهم من ولد العيص على حسب ما ذكرنا فيما تقدم .

وقد كانت للعماليق ملوك كثيرة سلفت في مواضع من الأرض بالشام وغيره . وقد أتينا على أخبارهم وذكر ممالكهم وحروبهم في كتابنا « أخبار الزمان » .

وقد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب قصة يوشع بن نون مع ملك العماليق ببلاد أيلة ، وهو السميدع بن هوبر . وقد كان من بقي من العماليق انضافوا الى ملوك الروم ، فملكتهم الروم على مشارق الشام والغرب والجزيرة من ثغور الشام فيما بينهم وبين فارس .

أذينة بن السميدع العملاقي

فممن ملك الروم من العماليق : أذينة بن السميدع ، الذي ذكره الأعشى في قوله :

أزال أذينة عن ملكه وأخرج عن ملكه ذا يزن

وقد كان ملك بعد العماليق حسان بن أذينة بن طرب بن حسان ، ويقال : هو الذي يعرف بأمه زباء .

ثم ملك عمرو بن طرب ، ويقال : هو الذي كان يعرف بأمه زباء ، وقد كان بينه وبين جذيمة الأبرش الأزدي أبي مالك حروب كثيرة ، فقتله جذيمة على ما ذكرنا ، وما كان من قتل الزباء لجذيمة وقول الشاعر :

كأن عمرو بن زبا لم يعش ملكا ولم يكن حوله الرايات تختفق
لاثم جذيمة من ضرساء مشعلة فيها خراشف بالنيران ترتشق

مسير طسم الى البحرين

ثم سار طسم بن لاوذ بن ارم بن سام بن نوح بعد عملاق بن لاوذ بولده ، ومن تبعه وهو يقول :

اني أنا طسم وجدي سام	سام بن نوح وهـو الامام
لمـا رأيـت الأخ والأعلاما	قلـت لنفسي : الحقي السواما
أخاك عملاقا وذا الاقدام	يا فث لا كان وليـي حام

فنزل هؤلاء البحرين .

وقد كـان جميـع من ذكـرنا بدوا ، وانتشروا في الأرض ، على حسب ما ذكـرنا من مساكنهم ، وكثرت جديس ، فملكت عليها الأسود بن غفار ، وكثرت طسم ، فملكت عليها عملوق بن جديس .

وقد ذكر عبيد بن شرية الجرهمي حين وفد على معاوية وأخبره أن طسم بن لاوذ بن ارم ابن سام بن نوح ، وجديس بن عابر بن سام بن نوح ، هم العرب العاربة ، وقد كان منزلهم جميعا باليامة ، واسمها اذ ذاك جو .

عملوق الظالم ملك طسم

وكان لطسم ملك يقال له عملوق ، وكان ظلوما غشوما ، لا ينهاه شيء عن هواه ، مع اصراره واقدامه على جديس ، وتعديه عليهم ، وقهره اياهم . فلبثوا في ذلك دهرا ، وهم أهل مظالم ، قد غمطوا النعمة ، وانتهكوا الحرمة ، وبلادهم أفضل البلاد ، وأكثرها خيرا ، فيها صنوف الشجر والأعناب ، وهي حدائق ملتفة ، وقصور مصطفة .

فلم يزل على ذلك حتى أتته امرأة من جديس ، يقال لها هزيلة بنت مازن ، وزوج لها قد فارقها ، يقال له ماشق ، فأراد قبض ولده منها فأبت عليه ، فارتفعا الى الملك عملوق ليحكم بينهما .

فقالـت المرأة : أيها الملك ، هذا الـذي حملته تسعـا ، ووضعته دفعـا ، وأرضعته شفعا ، ولم أنل منه نفعا ، حتى اذا تمت أوصالـه ، واستوفت خصالـه ، أراد أن يأخذه قسرا ، ويسلبنيه قهرا ، ويتركني منه صفرا .

قال زوجها : قد أخذت المهر كاملا ، ولم أنل منه نائلا ، الا ولدا خاملا ، فافعل ما كنت فاعلا .

فأمر الملك أن يؤخذ الولد منهما ويجعل في غلمانه ، فقالت هزيلة في ذلك :

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا ... فأبرم حكما في هزيلة ظالما
لعمري لقد حكمت لا متورعا ... ولا فهما عند الحكومة عالما
ندمت فلم أقدر على متزحزح ... وأصبح زوجي حائر الرأي نادما

فبلغ الملك قول هزيلة ، فغضب وأمر ألا تتزوج امرأة من جديس فتزف الى زوجها حتى تحمل اليه ، فيفترعها قبل زوجها .
فلقوا من ذلك ذلا طويلا ، ولم تزل تلك حالتهم حتى تزوجت عفيرة ، وقيل الشموس ، بنت غفار الجديسي أخت الأسود بن غفار . فلما كانت لليلة هديها الى زوجها ، انطلق بها الى عملوق الملك ليطأها على عادته ، ومعها القينات يغنين ويقلن في غنائهن :

ابدي بعملوق وقومي فاركبي ... وبادري الصبح بأمر معجب
فما لبكر بعدكم من مذهب

فلما دخلت عفيرة على عملوق افترعها وخلى سبيلها ، فخرجت عفيرة على قومها في دمائها شاقة جيبها عن قبلها ودبرها ، وهي تقول :

لا أحد أذل من جديس ... أهكذا يفعل بالعروس ؟

وقالت أيضا تحرض قومها جديس على طسم ، وأبت أن تمضي الى زوجها ، من كلمة :

أيصلح ما يؤتى الى فتياتكم ... وأنتم رجال فيكم عدد الرمل
أيصلح تمشي في الدما فتياتكم ... صبيحة زفت في النساء الى البعل
فان أنتم لا تغضبوا بعد هذه ... فكونوا نساء لا تفروا من الكحل
ودونكم طيب العروس فانما ... خلقتم لأثواب العروس وللغسل
فقبحا وشيكا للذي ليس دافعا ... ويختال يمشي بيننا مشية الفحل
فلو أننا كنا الرجال وكنتم ... نساء لكنا لا نقر على الذل

فموتوا كراما واصبروا لعدوكم بحرب تلظى في القرام من الجزل
ولا تجزعـوا للحرب يا قوم انما تقوم بأقوام كرام على رجل
فيهلك فيهـا كل نكس مواكل ويسلـم فيهـا ذو النجابة والفضل

وفي ذلك يقول أخوها :

جاءت تمشي طسم في خميس كالريـح في هشهشة اليبيس
اطسم ما لقيـت من جديس حقا لك الويـل فهيسي هيسي

التفكير في الانتقام

قال : فلما سمعت جديس بذلك وغيره من قولها اجتمعت غضبا للملك ، فقال لهم الأسود بـن غفار ، وكان فيهم سيدا مطاعا : يا جديس ، أطيعوني فيما آمركم به ، وأدعوكم اليه ، ففي ذلك عز الدهر ، وذهاب الذل .

قالوا : وما ذلك ؟

قال : قد علمتم أن هؤلاء ـ يعني طسما ـ ليسوا بأعز منكم ، ولكن ملك صاحبهم عليكم وعليهم هو الذي يذعننا اليه بالطاعة ، ولولا ذلك ما كان له علينا من فضل ، ولو امتنعنا منه لكان لنا النصف .

فقالوا : قد قبلنا قولك ، ولكن القوم أقراننا ، وأكثر عددا وعدداً منا ، فنخاف ان ظفروا بنا ألا يقيلونا .

فقال : والله يا جديس لتطيعنني فيما آمركم به وأدعوكم اليه أو لأتكئن على سيفي فأقتل به نفسي .

قالوا : فانا نطيعك فيما قد عزمت عليه .

قال : اني صانع لعملوق وقومه من طسم طعاما وداعيهـم اليـه ، فاذا جاءوا اليـه متفضلين في الحلل والنعال نهضنا اليهم بأسيـافنا ، فانفردت أنا بالملك ، وانفرد كل رجل منكم برجل منهم .

قالوا له : فافعل ما بدا لك .

واجتمع رأيهم عليه .

فقالت عفيرة لأخيها الأسود : لا تفعل هذا ، فان الغدر فيه ذلة وعار ، ولكن كابدوا القوم في ديارهم تظفروا أو تموتوا كراما .

قال : لا ، ولكن نمكر بهم ، فيكون ذلك أمكن لنا من نواصيهم ، وأبلغ في الانتقام منهم .

فقالت عفيرة في ذلك أشعارا قد ذكرناها فيا سلف من كتبنا .

ثم ان الأسود صنع طعاما كثيرا ، وأمر قومه فاخترطوا سيوفهم ودفنوها في الرمل حيث أعدوا الطعام ، ثم قال لهم : اذا أتاكم القوم يرفلون في حليهم فخذوا أسيافكم ثم شدوا عليهم قبل أن يأخذوا مجالسهم ، وابدأوا بالرؤساء ، فانكم اذا قتلتموهم لم تبالوا بالسفلة ، ولم تكن بعد ذلك منهم حال تكرهونها .

قالوا : نفعل ما قلت .

ثم دعا الأسود بعملوق الطسمي ومن معه من رؤساء طسم باليمامة ، فأسرعوا اجابة دعوة الأسود . فلما توافوا الى المدعاة وثبت جديس ، فاستثاروا سيوفهم من الرمل ، وشدوا على عملوق وأصحابه فقتلوهم حتى أفنوهم عن آخرهم ، ومضوا الى ديارهم فانتهبوها .

وقال الأسود بن غفار في ذلك أشعارا يرثي بها طسما ، ويذكر بغيها وفعل عملوق بأخته ، يطول بذكرها الكتاب ، وقد تقدمت فيما سلف من كتبنا .

رباح الطسمي يستنجد حمير على جديس

قال : وهرب رجل من طسم ، وكان اسمه رباح بن مرة الطسمي ، فأتى الى حسان ابن تبع الحميري ـ ملك اليمن يومئذ ـ فاستغاث به . وقد كان عمد الى جريدة نخل رطبة فجعل عليها طينا رطبا ، وحملها معه وأخرج معه كلبة . فلما ورد على حسان كسر يد كلبته ، ونزع الطين عن الجريدة فخرجت خضراء ، ودخل الى حسان واستعاذ به : وأخبره بالذي صنعت جديس بقومه .

فقال له الملك : لله أبوك ، فمن أين مبداك ؟

قال : جئتك ـ أبيت اللعن ـ من أرض قريبة وقوم انتهك منهم ما لم ينتهك من أحد . . . أنا رباح بن مرة الطسمي ، دعتنا جديس الى مدعاة لهم فأجبناهم متفضلين في الحلل وقد أعدوا لنا السلاح عند جفانهم ، فما ذقنا الطعام حتى صرنا حطاما ، بلا طلب دم ولا ترة سلفت . فدونك ، أبيت اللعن ، قوما قطعوا أرحامنا ، وسفكوا دماءنا .

قال الملك حسان : أمعك خرجت هذه الجريدة وهذه الكلبة ؟

قال . نعم .

قال الملك : ان كنت صادقا فقد خرجت من أرض قريبة . ووعده بالنصرة ، ثم نادى

في حمير بالمسير ، وأعلمهم بما فعل بطسم .

قالوا : من فعل هذا أبيت اللعن ؟

قال . عبيدهم .

قالوا : مالنا في هذا من أرب ، هم اخواننا فلا نعين بعضنا على بعض ، وهم عبيدك أيها الملك فدعهم .

فقال حسان : ما هذا بحسن ، أرأيتم لو كان هذا فيكم أكان حسنا لملككم أن يهدر دماءكم ؟ وما علينا في الحكم الا أننا ننصف بعضنا من بعض .

فقام فرسانهم فقالوا : أبيت اللعن ، الأمر أمرك ، فمرنا بما أحببت ، فأمرهم بالمسير فساروا وسار بهم رباح بن مرة حتى اذا صاروا من اليمامة على ثلاث قال رباح بن مرة للملك حسان : أبيت اللعن ، ان لي أختا متزوجة في جديس ليس في الأرض أبصر منها ، انها تبصر الراكب على مسيرة ثلاث ليال ، وأنا أخاف أن تنذر القوم بك ، فتأمر كل واحد من أصحابك أن يقتلع شجرة من الأرض فيجعلها أمامه ثم يسير .

فأمرهم حسان بذلك ، ففعلوا ثم ساروا .

زرقاء اليمامة

وكـان اسم أخت رباح « يمامة » بنت مرة ، فأشرفت من منظرهـا فقالـت : يا جديس ، لقد سارت اليكم الشجر .

قالوا لها : وماذاك ؟

قالت : أرى أشجارا تسير ووراءهـا شيء ، واني لأرى رجلا من وراء شجرة ينهش كتفا أو يخصف نعلا .

فكذبوها ، وكان ذلك كما ذكرت . فغفلوا عن أخذ أهبة الحرب ، ففي ذلك تقول اليمامة لجديس تحذرهم :

اني أرى شجرا من خلفهـا بشر فكيف تجتمع الأشجار والبشر ؟
ثوروا بأجمعكـم في وجه أولهم فان ذلك منكـم فاعلموا ظفر

وأقبل الملك حسان بحمير ، حتى اذا كان من جو على مسيرة ليلة عبأ جيشه ثم صبحها فاستباح أهلها من جديس قتلا ، فأفناهم وسبى نساءهم وصبيانهم ، وهرب الأسود بن غفار ملكها حتى نزل بدار طيء فأجاروه من الملك وغيره ، من غير أن يعرفوه ، فيذكر أن نسله اليوم في طيىء مذكور .

فلما فرغ حسان من جديس دعا باليمامة بنت مرة ، وكانت امرأة زرقاء ، فأمر فنزعت عيناها فاذا في داخلها عروق سود ، فسألها عن ذلك ، فقالت : حجر أسود يقال له الاثمد كنت أكتحل به فنشب الى بصري .

وكانت هي أول من اكتحل به ، فاتخذوه بعد ذلك كحلا . وأمر الملك باليمامة فصلبت على باب جو ، وقال : سموا جوا باليمامة ، فسميت بها الى اليوم .

***

مسير وبار بن أميم

قال المسعودي : ثم سار ـ بعد طسم بن لاوذ ـ وبار بن أميم بن لاوذ بن ارم بن سام ابن نوح بولده ومن تبعه من قومه ، فنزل بأرض وبار بالأرض المعروفة برمل عالج ، فأصابهم نقمة من الله فهلكوا لما كان من بغيهم في الأرض .

وقد قدمنا فصلا من ذلك فيما سلف من هذا الكتاب على ما زعم الأخباريون من العرب ، وخروجهم بذلك عن حد المعقول والمعتاد من الأمر المفهوم ، بزعمهم أن الله عز وجل حين أهلك هذه الأمة العظيمة المعروفة بوبار ، كما أهلك طسما وجديسا وداسما ، وكانت ديار داسم بأرض السماوة فأهلكوا بالريح السوداء الحارة ، وداسم كانت ديارهم بالجولان وجازر من أرض نوى من بلاد حوران والبثنية ، وذلك بين دمشق وطبرية من أرض الشام ، وعملاق وعاد وثمود .

وأن الجن كانت تسكن في ديار وبار ، وحمتها من كل من أرادها وقصد اليها من الإنس . وأنها كانت أخصب بلاد الله عز وجل ، وأكثرها شجرا ، وأطيبها ثمرا وعنبا ونخلا وموزا . وان دنا أحد من الناس الى تلك البلاد غالطا أو متعمدا حثت الجن في وجهه التراب ، وسفت عليه سوافي الرمل ، وأثارت عليه الزوابع . فان أراد الرجوع عنها خبلوه وتيهوه . وربما قتلوه .

وهذا الموضع عند كثير من ذوي الحجا باطل ، فاذا قيل لهم : دلونا على جهته ، وقفونا على حده ، زعموا أنها من أرادها ألقى على قلبه الصرفة ، حتى كأنهم بنو اسرائيل الذين كانوا مع موسى في التيه فصدهم الله تعالى عن الخروج ، ولم يجعل لهم سبيلا الى أن تم فيهم مراده ،وانتهى فيهم حكمه .

وقد قال في ذلك شاعرهم يخبر بمثل ما وصفنا من قولهم في هذه الأرض المجهولة :

دعـا جحفلا لا يهتدى لمقيله من اللـؤم حتى يهتدى لوبار
وداع دعـا والليـل مرخ سدوله رجاء القرى يا مسلـم بن جبار

وأقوالهم في مثل هذا كثيرة .

والعرب ممن سلف وخلف في الجاهلية والاسلام يخبرون عن هذه الأرض كاخبارهم عن وادي القرى والصمان والدهناء والرمل الذي بيبرين وغيرها من الأرضين التي نزلوا فيها ، ويخيمون عليها طلبا للماء والكلأ .

وزعموا أنه ليس بهذه الأرض اليوم أحد الا الجن والابل الوحشية . وهي عندهم من الابل التي قد ضربت فيها فحول الجن ، فالوحشية من نسل ابل الجن ، والعبدية والعسجدية والعمانية قد ضربت فيه الوحشية .

وفي ذلك يقول أبو هريم :

كأني على وحشيـة أو نعامة لها نسب في الـطير وهـو ظليم

والأشعار في ذلك كثيرة .

وفي بسطنا لجوامع أخبار العرب فيما نقلته عن أسلافها ـ مما أمكن كونه وخرج عن حد الـوجوب والجواز ـ خروج عن حد الايجاز والاختصار ، وقد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا .

مسير عبد ضخم للطائف

وسار بعد وبار بن أميم عبد ضخم بن ارم بن نوح بولده ومن تبعه فنزلوا الطائف ، فهلك هؤلاء ببعض غوائل الدهر ، فدثروا وذكرتهم الشعراء . وفيهم يقول الأزدي :

وعبد ضخم اذا نسبتهم ابيض أهـل الحـي بالنسب
ابتدعـوا منـطلقـا يجمعهـم فبـين الخـط قحـة العـرب

بدء الكتابة بالعربية

وذكروا أن هؤلاء هم أول من كتب بالعربية ، ووضع حروف المعجم ، وهي حروف ا ب ت ث ، وهي التسعة والعشرون حرفا ، وقد قيل غير ذلك ، على حسب تنازع الناس في بدء الكتابة .

مسير جرهم الى مكة

وسار بعد عبد ضخم بن ارم جرهم بن قحطان بولده ومن تبعه ، وطافوا البلاد ، حتى أتوا مكة فنزلوها . وفي ذلك يقول مضاض بن عمرو الجرهمي :

هذا سبيـــل كسبيـــل يعرب	البادىء القول المبين المعرب
يا قوم سيروا عن فعـــال الأجنب	جرهـــم جدي وقحطان أبي

مسير أميم الى فارس

وسار أميم بن لاوذ بن ارم بعد جرهم بن قحطان فحل بأرض فارس ، فالفرس ـ على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في باب تنازع الناس في أنساب فارس ـ من ولد كيومرث بن أميم بن لاوذ بن ارم بن سام بـن نوح . وفي ذلك يقول بعض من تقدم من أهل الحكمة من شعراء فارس في الاسلام :

أبونا أميـــم الخير من قبل فارس	وفارس أرباب الملوك ، بهم فخري
وما عد قوم من حديـــث وحادث	من المجد الا ذكـرنا أفضل الذكر

أميم بن لاوذ
أول امرىء بنى البيوت

وقد ذكر جماعة من أهل السير والأخبار أن جميع من ذكرنا من هذه القبائل كانوا أهل خيم وبدوا مجتمعين في مساكنهم من الأرض .

وأن أميما أول من ابتنى البنيـــان ، ورفع الحيـــطان ، وقطع الأشجار ، وسقف السقوف ، واتخذ السطوح .

وأن ولد حام بن نوح حلوا ببلاد الجنوب .

وأن ولد كوش بن كنعان خاصة هم النوبة ، على حسب ما قدمنا آنفا في باب السودان من هذا الكتاب .

وأن فخذا من ولد كنعان بن حام ساروا نحو بلاد افريقية وطنجة من أرض المغرب ، فنزلوها ، وزعم هذا القائل أن البربر من ولد كنعان بن حام .

انساب البربر

وقد تنازع الناس في بدء أنساب البربر : فمنهم من رأى أنهم من غسان وغيرهم من

اليمن ، وأنهم تفرقوا حول تلك الديار حين تفرق الناس من بلاد مأرب عندما كان سيل العرم . ومنهم من رأى أنهم من قيس عيلان . ومنهم من رأى غير ذلك . وقد ذكرناه فيا سلف من كتبنا .

ونزل ولد كنعان بن حام ـ وهم الأغلب من ولد كنعان ـ بلاد الشام ، فهم الكنعانيون وبهم تعرف تلك الديار ، فقيل بلاد كنعان .

وقد قدمنا فيا سلف من هذا الكتاب أخبار مصر بن حام وبيصر والأنباط .

مسير نوفير الى الهند

وسار نوفير بن لوط بن حام بولده ومن تبعه الى أرض الهند والسند . وبالسند أمم لهم أجسام طوال ، وهم على بلاد المنصورة من أرض السند ، فعلى هذا القول أن الهند والسند من ولد نوفير بن فوط بن حام بن نوح . فولد حام في الجنوب من الأرض الأكثر منهم ، وولد يافث في الشمال فيا بين الشرق والمغرب على حسب ما ذكرنا من الأمم وتفرقها في الشرق وغيره مما يلي جبل القبخ والباب والأبواب .

عبادة عاد وبغيهم

وبغت عاد في الأرض وملكها الخلجان بن الوهم ، فكانوا يعبدون ثلاثة أصنام ، وهي : صمود ، وصداء ، والهباء . فبعث اللّه اليهم هودا على حسب ما قدمنا ، فكذبوه . وهو هود بن عبد اللّه بن رياح بن خالد بن الخلود بن عاد بن عوص بن ارم بن سام ابن نوح .

وقد قدمنا أن قوم عاد كانوا عشر قبائل ، وقد تقدم ذكر أسمائهم ، فدعا عليهم هود ، فمنعوا المطر ثلاث سنين ، وأجدبت الأرض فلم يدر عليهم ضرع .

أصل الشرك

وقد كان من ذكرنا من الأمم لا يجحد الصانع جل وعز ، ويعلمون أن نوحا عليه السلام كان نبيا ، وأنه وفى لقومه بما وعدهم من العذاب ، الا أن القوم دخلت عليهم شبه بعد ذلك لتركهم البحث واستعمال النظر ، ومالت نفوسهم الى الدعة ، وما تدعو اليه الطبائع من الملاذ والتقليد ، وكان في نفوسهم هيبة الصانع ، والتقرب اليه بالتماثيل وعبادتها ، لظنهم أنها مقربة لهم اليه . وكانوا مع ذلك يعظمون موضع الكعبة ، وكان موضعها على ما ذكرنا ربوة حمراء .

وفود عاد على مكة

فوفدت عاد الى مكة يستسقون لهم ، وكان بمكة يومئذ العماليق ، فأتى الوفد مكة ،

فأقبلوا على الشرب واللهو ، حتى غنتهم الجرادتان قينتا معاوية بن بكر بشعر فيه حث لهم على ما وردوا من أجله ، وهو :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم لعل اللّه يمطرنا غماما
فيسقي أرض عاد ان عادا قد امسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وان الوحش تأتي أرض عاد فلا تخشى لراميهم سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية والسلاما

ثم ان معاوية بن بكر دعا احدى الجرادتين فغنت :

ألا يا قيل من عوص ومن عاد بن سام
وعاد كالشماريخ من الطول الكرام
سقى اللّه بني عاد معا صوب الغمام

فاستيقظ القوم من غفلتهم ، وبادروا الى الاستسقاء لقومهم ، فكان من أمرهم في مجيء السحاب واختيارهم لما اختاروه منها ما قد اتضح ، وفيهم يقول مرثد بن سعد من كلمة :

عصت عاد رسولهم فأمسوا عطاشا لا تبلهم السماء
ألا قبح الاله حلوم عاد فان قلوبهم قفر هواء
لهم صنم يقال له صمود يقابله صداء والهباء
فبصرنا النبي سبيل رشد فأبصرنا الهدى وناى العماء
واني موقن فاستيقنوه بأن اله هود هو العلاء
وأن اله هود هو الهي على اللّه التوكل والرجاء
واني لاحق بالأمس هودا واخوته اذا حق المساء

مهلك عاد

فأرسل اللّه عز وجل على عاد الريح العقيم ، فخرجت الريح عليهم من واد لهم ، فلما رأوا ذلك قالوا : « هذا عارض ممطرنا » وتباشروا بذلك .

فلما سمع هود ذلك من قولهم قال : « بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم » .

فأتتهم الريح يوم الأربعاء ، فلم تأت الأربعاء الثانية ومنهم حي ، فمن أجل ذلك كره الناس يوم الأربعاء .

وقد بينا فيما يرد من هذا الكتاب كيفية ذلك ، وكيف وقوعه من أيام الشهر في باب ذكر الشهور .

فلما شاهد هود النبي صلى اللّه عليه وسلم ما نال قومه ، انفرد هو ومن معه من المؤمنين ، وفي ذلك يقول الهيل بن الخليل :

لو أن عاداً سمعت من هود ... واتبعت طريقه الرشيد
وقد أتى بالوعد والوعيد ... عاداً وبالتقريب والتبعيد
ما أصبحت عاثرة الجدود ... صرعى على الآناف والخدود
ساقطة الأجساد بالوصيد ... ماذا جنى الوفد من الوفود ؟

أحدوثة في الأبد الأبيد

وقال مهد بن سعد في شعر له :

دعاهم خيفة للّه هود ... فما نفع النذير ولا أجابوا
فلما أن أبوا الا عتوا ... أصابهم ببغيهم العذاب

وقد كان الآخر من ملوكهم الخلجان ، وقد تقدم ذكرنا في هذا الباب لملك عاد وثمود وغيرهم .

وقيل : ان أول من ملك عاداً من الملوك عاد بن عوص ثلثمائة سنة ، ثم ملك ابن عاد ابن عوص .

الجحفة

قال : ولما دثرت هذه الأمم من العرب والقبائل ، خلت منهم الديار فسكنها غيرهم من الناس ، فنزل قوم من بني حنيفة اليمامة واستوطنوها ، وقد كانوا نزلوا بلاد الجحفة

بين مكة والمدينة وقطنوها ، فقال شاعرهم يرثي من كان في تلك الديار :

ان طسما وجرهما وجديسا والعماليق في السنين الخوالي
عمروا البيت حقبة ثم ولوا واستمرت بهم صروف الليالي
وأراك الزمان منهم ، وأضحى غيرهم ساكنا بتلك الخوالي
ورماهم ريب الزمان فأمسوا دورهم بلقع لمر الشمال

وقد كان نزل بلاد الجحفة بين مكة والمدينة عبيل بن عوص بن ارم بن سام بن نوح هو وولده ومن تبعه فهلكوا بالسيل ، فسمي ذلك الموضع بالجحفة لاجحافها عليهم .

يثرب

وكان يثرب بن قانية بن مهليل بن ارم بن عبيل نزل بالمدينة هو وولده ومن تبعه فسميت به يثرب ، فهلك هؤلاء أيضا ببعض غوائل الدهر وآفاته ، فقال شاعرهم :

عين جودي على عبيل ، وهل ير جع ما فات فيضها بالسجام ؟
عمروا يثربا وليس بها سفـ ـر ولا صارخ ولا ذو سنام
غرسوا لينها بمجرى معين ثم حفوا الفسيل بالآجام

وقد أخبر اللّه جلت قدرته عنهم فقال : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » .

قوم شعيب

وقد تنازع أهل الشرائع في قوم شعيب بن نويل بن رعويل بن مر بن عنقاء بن مدين بن ابراهيم الخليل صلى اللّه عليه وسلم وكان لسانه العربية :
فمنهم من رأى أنهم من العرب الداثرة ، والأمم البائدة ، وبعض من ذكرنا من الأجيال الخالية .

ومنهم من رأى أنهم من ولد المحض بن جندل بن يعصب بن مدين بن ابراهيم ، وأن شعيبا أخوهم في النسب .

وقد كانوا عدة ملوك تفرقوا في ممالك متصلة ومنفصلة : فمنهم المسمى بأبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت ، وهم على ما ذكرنا بنو المحض بن جندل .

حروف الجمل

وأحرف الجمل على أسماء هؤلاء الملوك ، وهي التسعة والعشرون حرفا التي يدور عليها حساب الجمل . وقد قيل في هذه الأحرف غير ما ذكرنا من الوجوه ، على حسب ما قدمنا في هذا الكتاب ، وليس كتابنا هذا موضعا لما قاله الناس فيها، وتنازعوا في تأويلها والمراد بها .

وكان أبجد ملك مكة وما يليها من الحجاز . وكان هوز وحطي ملكين ببلاد وج ، وهي أرض الطائف وما اتصل بذلك من أرض نجد ، وكلمن وسعفص وقرشت ملوكا بمدين ، وقيل : ببلاد مصر .

وكان كلمن على ملك مدين ، ومن الناس من رأى أنه كان ملكا على جميع من سمينا مشاعا متصلا على ما ذكرنا .

عذاب يوم الظلة

وأن عذاب يوم الظلة كان في ملك كلمن منهم . وأن شعيبا دعاهم فكذبوه ، فوعدهم بعذاب يوم الظلة ، ففتح عليهم باب من السماء من نار . وانحاز شعيب بمن آمن معه الى الموضع المعروف بالأيكة ، وهي غيضة نحو مدين .

فلما أحس القوم بالبلاء واشتد عليهم الحر وأيقنوا بالهلاك طلبوا شعيبا ومن آمن معه وقد أظلتهم سحابة بيضاء طيبة النسيم والهواء لا يجدون فيهم ألم العذاب ، فأخرجوا شعيبا ومن آمن معه من موضعهم ، وأزالوهم عن أماكنهم ، وتوهموا أن ذلك ينجيهم مما نزل بهم . فجعلها الله عليهم نارا ، فأتت عليهم .

فرثت حارثة بنت كلمن أباها فقالت وكانت بالحجاز :

كلمن هدم ركني هلكه وسط المحله
سيد القوم أتاه الـ حتف نارا تحت ظله
كونت نارا، وأضحت دار قومي مضمحله

وفي ذلك يقول المنتصر بن المنذر المديني :

ألا يا شعيب قد نطقت مقالة أتيت بها عمرا وحي بني عمرو

وهم ملكوا أرض الحجاز وأوجها	كمثل شعاع الشمس في صورة البدر
ملوك بني حطي وسعفص ذي الندى	وهــوز أربـــاب البنية والحجر
وهــم قطنوا البيـــت الحرام ورتبوا	حطورا وساموا في المكـارم والفخر

ولهؤلاء الملـوك أخبار عجيبة من حروب وسير ، وكيفيــة تغلبهـــم على هذه الممالك وتملكهم عليها ، وابادتهم من كان فيها وعليها قبلهم من الأمم ، قد أتينا على ذكرها فيما تقدم من كتبنا في هذا المعنى مما كتابنا هذا منبه عليها وباعث على درسها .

حضورا وتنازع الناس في أنسابهم

وأما بنو حضورا وكانت أمة عظيمة ذات بطش وشدة ، فغلبت على كثير من الأرض والممالك . وقد تنازع الناس فيهم :

فمنهم من ألحقهم بمن ذكرنا من العرب البائدة ممن سمينا ، ومنهم من رأى أنهم من ولد يافث بن نوح ، وقيل في أنسابهم غير ما ذكرنا من الوجوه .

وقد كان الله عز وجل بعث اليهم شعيب بـن مهدم بن حضورا بن عدي نبيا ناهيا عما كانوا عليه . وهذا غير شعيب بن نويل بن رعويل بن مر بن عنقاء بن مدين بن ابراهيـم الخليل صاحب مدين المتزوج ابنته موسى بن عمران المقدم ذكره ، وبينهما مئون من السنين .

وقد كان بين موسى بن عمران وبين المسيح ألف نبي .

ولما بعث الى حضورا ، واشتد كفرهم جد نبيهم شعيب بن مهدم في دعائهم وخوفهم وتوعدهم ، فقتلوه من بعد ظهور معجزات كانت له ودلائل أظهرها الله على يديه تدل على صدقه وتثبت حجته على قومه .

فلم يضيع الله دمه ، ولم يكذب وعيده ، فأوحى الله تعالى الى نبي كان في عصره ـ وهو برخيا بن أخنيا بن رزنائيل بن شالتان ، وكان من سبط يهوذا بن اسرائيل بـن اسحاق ابن ابراهيم الخليـل عليـه السلام ـ أن يأتي بختنصر ، وكـان بالشام ، وقيـل : غـيره من الملوك ، فيأمره أن يغزو العرب الذين لا أغلاق لبيوتهم .

فلما أتى برخيا ذلك الملك ، قال له الملك : صدقت ، لي سبع ليال أومر في نومي بما ذكرت ، وأنادي بمجيئك الي ، وأبشر بخطابك ، ويقال لي ما أمرتني به ، وأن أنتصر للنبي المقتول الفريد المظلوم .

فسار اليهم في جنوده وغشي دارهم في عساكـره ، وصاح بهم صائح من السماء وقد استعدوا لحربه من حيث عم الصوت جميعهم ، وهو يقول :

سيغلب قوم غالبوا اللّه جهرة | وان كايدوه كان أقوى وآكيدا
كذاك يضل اللّه من كان قلبه | مريضا ومن والى النفاق وألحدا

فلموا سمعوا ذلك علموا أن الأمر قد نزل بهم ، فانفضت جنودهم ، وتفرقت جموعهم ، وولت كتائبهم يتراكضون ، وأخذهم السيف فحصدوا أجمعين .

وقد ذكر أن في قصة هلكهم قال اللّه عز وجل من قائل : « فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون » .

مناز ل حضورا

وقد تنوزع في ديارهم والموضع الذي كانوا فيه :

فمن الناس من رأى أنهم كانوا بأرض السماوة ، وأنها كانت عمائر متصلة ذات جنان ومياه متدفقة ، وذلك بين العراق والشام الى حد الحجاز ، وهي الآن ديار خراب براري وقفار .

ومنهم من رأى أن ديارهم كانت بلاد جند قنسرين ، الى تل ماسح ، الى خناصرة ، الى بلاد سورية . وهذه المدن في هذا الوقت مضافة الى أعمال حلب من بلاد قنسرين من أرض الشام .

***

قال المسعودي : وقد أتينا على جمل من أخبار العرب الماضية والباقية ، وقد كان قبل ظهور الاسلام للباقي منهم مذاهب وآراء في النفوس وتغول الغيلان والهواتف والجن ، وسنورد جملا منها منفردة على حسب ما يقتضيه شرط الاختصار في هذا الكتاب ، وعلى حسب ما نمي الينا من أخبارهم ، واتصل بنا من آثارهم ، وذكره الناس من آرائهم ، عن الفاني والباقي منهم ان شاء اللّه تعالى .

ذِكرُ مَا ذهَبَ إِليـهِ العَرَبُ
فِي النّفوس وَالهَام وَالصّفر وَغير ذٰلك
مِن مَذاهِب الجاهليّة فِي النّفوس وَالمَرئ

الاختلاف في النفس

كانت للعرب مذاهب في الجاهلية في النفوس ، وآراء يتنازعون في كيفياتها :

فمنهم من زعم أن النفس هي الدم لا غير ، وأن الروح الهواء الذي في باطن جسم المرء منه نفسه .

ولذلك سموا المرأة منه نفساء ، لما يخرج منها من الدم .

ومن أجل ذلك تنازع فقهاء الأمصار فيما له نفس سائلة اذا سقط في الماء : هل ينجسه أم لا ؟

وقال تأبط شرا لخاله الشنفرى الأكبر وقد سأله عن قتيل قتله : كيف كانت قصته ؟ فقال : ألجمته عضبا ، فسالت نفسه سكبا .

وقالوا : ان الميت لا ينبعث منه الدم ولا يوجد فيه ، بدأ في حال الحياة وطبيعته طبيعة الحياة والنماء مع الحرارة والرطوبة ، لأن كل حي فيه حرارة ورطوبة ، فاذا مات بقي اليبس والبرد ، ونفيت الحرارة .

وقال ابن براق من كلمة :

وكم لاقيت ذا نجب شديد … تسيل به النفوس على الصدور
اذا الحرب العوان به استهامت … وحال ، فذاك يوم قمطرير

وطائفة منهم تزعم أن النفس طائر ينبسط في جسم الانسان ، فاذا مات أو قتل لم يزل مطيفا به متصورا اليه في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشا . وفي ذلك يقول بعض الشعراء وذكر أصحاب الفيل :

سلط الطير والمنون عليهم … فلهم في صدى المقابر هام

الهام

لأن هذا الطائر يسمونه الهام ، والواحدة هامة .

وجاء الاسلام وهم على ذلك حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لاهام ولا صفر » .

ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيرا ، ثم يكبر حتى يصير كضرب من البوم ، وهي أبدا تتوحش وتصدح ، وتوجد أبدا في الديار المعطلة والنواويس ، وحيث مصارع القتلى وأجداث الموتى .

ويزعمون أن الهامة لا تزال على ذلك عند ولد الميت في محلته بفنائهم ، لتعلم ما يكون بعده فتخبره به ، حتى قال الصلت بن أمية لبنيه :

هامي تخبرني بما تستشعروا فتجنبوا الشنعاء والمكروها

وفي ذلك يقول في الاسلام توبة في ليلى الأخيلية :

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت علي ودوني جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة ، أو زقا اليها صدى من جانب القبر صائح

وهذا من قولهم يدل على أن الصدى قد ينزل الى قبورهم ويصعد .
ومن ذلك ما روي عن حاتم طيء مما سنورد خبره في هذا الكتاب :

أتيت لصحبك تبغي القرى لدى حفر صدحت هامها

وسنذكر هذا الشعر في أخبار الحجاج بن يوسف مع ليلى الأخيلية من هذا الكتاب وقد قيل : ان هذه الأبيات لغير توبة في غير ليلى . . .
وهذا كثير في أشعارهم ومنثور كلامهم وسجعهم وخطبهم ، وغير ذلك من محاوراتهم .

تنقل الأرواح

وللعرب وغيرهم من أهل الملل ممن سلف وخلف كلام كثير في تنقل الأرواح ، وقد أتينا على مبسوط ذلك في كتابنا المترجم بـ « سر الحياة » وكتاب « الدعاوي » وبالله التوفيق .

ذكر أقاويل العرب في الغيلان والتغول وما لحق بهذا الباب

رأي العرب في الغول

للعرب في الغيلان وتغولها أخبار ظريفة .

العرب يزعمون أن الغول يتغول لهم في الخلوات ، ويظهر لخواصهم في أنواع من الصور ، فيخاطبونها ، وربما ضيفوها .

وقد أكثروا من ذلك في أشعارهم ، فمنها قول تأبط شرا :

وأدهم قد جبت جلبابه كما اجتابت الكاعب الخيعلا
على اثر نار ينور بها فبت لها مدبرا مقبلا
فأصبحت والغول لي جارة فيا جارتي أنت ما أهولا
وطالبتها بضعها فالتوت بوجه تغول فاستغولا
فمن كان يسأل عن جارتي فان لها باللوى منزلا

ويزعمون أن رجليها رجلا عنز ، وكانوا اذا اعترضتهم الغول في الفيافي يرتجزون ويقولون :

يا رجل عنز انهقي نهيقا لن نترك السبسب والطريقا

تلون الغول وتضليلها

وذلك أنها كانت تتراءى لهم في الليالي وأوقات الخلوات ، فيتوهمون أنها انسان فيتبعونها، فتزيلهم عن الطريق التي هم عليها ، وتتيههم . وكان ذلك قد اشتهر عندهم وعرفوه ، فلم يكونوا يزولون عما كانوا عليه من القصد ، فاذا صيح بها على ما وصفنا شردت عنهم في بطون الأودية ورؤوس الجبال .

وقد ذكر جماعة من الصحابة ذلك ، منهم عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه ، أنه شاهد ذلك في بعض أسفاره الى الشام ، وأن الغول كانت تتغول له ، وأنه ضربها بسيفه ، وذلك قبل ظهور الاسلام ، وهذا مشهور عندهم في أخبارهم .

رأي الفلاسفة

وقد حكي عن بعض المتفلسفين أن الغول حيوان شاذ من جنس الحيوان ، مشوه لم تحكمه الطبيعة . وأنه لما خرج منفردا في نفسه وهيئته ، توحش من مسكنه فطلب القفار . وهو يناسب الانسان والحيوان البهيمي في الشكل .

وقد ذهبت طائفة من الهند الى أن ذلك انما يظهر من فعل ما كان غائبا من الكواكب عند طلوعها ، مثل الكوكب المعروف بكلب الجبار ، وهي : الشعرى العبور ، وأن ذلك يحدث داء في الكلاب ، وسهيل في الحمل ، والذئب في الدب .

وحامل رأس الغول يحدث عند طلوعه تماثيل وأشخاص تظهر في الصحارى ، وغيرها من العامر والخرائب ، فتسميه عوام الناس غولا ، وهي ثمانية وأربعون كوكبا .

وقد ذكرها بطليموس وغيره ممن تقدم وتأخر . وقد وصف ذلك أبو معشر في كتابه المعروف بـ « المدخل الكبير الى علم النجوم » وذكر كيفية صورة كل كوكب عند ظهوره في أنواع مختلفة .

وزعمت طائفة من الناس أن الغول اسم لكل شيء يعرض للسفار ، ويتمثل في ضروب من الصور ، ذكرا كان أو أنثى ، الا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى .

وقد قال أبو المطراب عبيد بن أيوب العنبري :

وحالفني الوحوش على الوفاء   وتحت عهودهن وبا البعاد
وغولا قفرة ذكرا وأنثى   كأن عليهما قطع النجاد

وقال آخر وهو كعب بن زهير الصحابي :

فما تدوم على حال تكون بها   كما تَلَوَّن في أثوابها الغول

وقد قدمنا ذكر ذلك فيما سلف من كتبنا في هذا المعنى ، وأن كل كوكب من هذه يظهر في صورة مخالفة لما تقدمه من الصور يحدث في هذا العالم نوعا من الأفعال لم ينفرد بفعله غيره من الكواكب .

وكانت العرب قبل الاسلام تزعم أن الغيلان توقد بالليل النيران للعبث ، والتحيل ، واختلال السابلة . . . قال أبو المطراب :

فللـه در الغـول ، أي رفيقة لصاحب قفر حالف وهـو معبر
أرنت بلحن بعـد لحن وأوقدت حوالي نيرانا تلـوح وتزهر

قول العرب في السعلاة

وقد فرقوا بين السعلاة والغول . . . قال عبيد بن أيوب :

وساخرة مني ، ولـو أن عينها رأت ما رأت عيني من الهول جنت
أبيـت بسعـلاة وغـول بقفرة اذا الليـل وارى الجن فيـه أرنت

وقد وصفها بعضهم ، فقال :

وحافر العنز في ساق مدملجة وجفن عين خلاف الانس بالطول

قولهم في الشياطين ونحوهم

وللناس كلام كثير في الغيـلان ، والشيـاطين ، والمـردة ، والجن ، والقطرب ، والغـدار ، وهـو نوع من الأنواع المتشيـطنة يعـرف بهذا الاسم ، يظهـر في أكناف اليمن والتهائم ، وأعالي صعيد مصر . وأنه ربما يلحق الانسان فينكحه فيتدود دبره فيموت ، وربما يتوارى للانسان فيذعره .

فاذا أصاب الانسان ذلك منه يقول له أهل تلك النواحي التي سمينا : أمنكوح هو أم مذعور ؟ فان قالوا منكوح يئس منه ، وان كان مذعورا أسكن روعه ، وشجع مما ناله .

وذلك أن الانسان اذا عاين ذلك سقط مغشيا عليه ، ومنهـم من يظهـر له ذلك فلا يكترث به لشهامة قلبه ، وشجاعة نفسه .

وما ذكرنا مشهور في البلاد التي سمينا . ويمكن جميع ما قلنا مما حكيناه عما ذكرنا من أهل هذه البقاع أن يكون ضربا من السوانح الفاسدة والخواطر الرديئة ، أو غـير ذلك من الآفات والأدواء المعترضة لجنس الحيوان من الناطقين وغيرهم ، والله أعلم بكيفية ذلك .

ولم نذكر في هذا الكتاب ما ذكره أهل الشرائع ، وما ذكره أهل التواريخ والمصنفون لكتب البدو ، كوهب بن منبه ، وابن اسحاق وغيرهما ، أن الله تعالى خلق الجان من نار السموم ، وخلق منه زوجته ، كما خلق حواء من آدم .

وأن الجان غشيها ، فحملت منه ، وأنها باضت احدى وثلاثين بيضة .

وأن بيضة من تلك البيض تفلقت عن قطربة ، وهي : أم القطارب ، وأن القطربة على صورة الهرة .

وأن الأبالس من بيضة أخرى منهم الحارث أبو مرة ، وأن مسكنهم البحور .

وأن المردة من بيضة أخرى ، مسكنهم الجزائر .

وأن الغيلان من بيضة أخرى ، مسكنهم الخلوات والفلوات .

وأن السعالي من بيضة أخرى ، سكنوا الحمامات والمزابل .

وأن الهوام من بيضة أخرى ، سكنوا الهواء في صورة الحيات ذوات أجنحة يطيرون هنالك .

وأن من بيضة أخرى اللواسق .

وأن من بيضة أخرى الحماميص . . . لأنا قد ذكرنا ذلك فيما سلف من كتبنا ، وتقدم من تصنيفنا ، وأتينا على ذكر ما تشعب من أنسابهم ، والمشهور من أسمائهم ومساكنهم من الأرض والبحار .

وان كان ما ذكره أهل الشرع مما وصفنا ممكنا غير ممتنع ولا واجب . وان كان أهل النظر والبحث والمستعملون لقضية العقل والفحص يمتنعون مما ذكرناه ، ويأبون ما وصفنا .

والمصنف حاطب ليل ، فأوردنا ما قاله الناس من أهل الشرائع وغيرهم ، اذ كان الواجب على كل ذي تصنيف أن يورد جميع ما قاله أهل الفرق في معنى ما ذكرناه .

وأتينا أيضا على سائر ما خبرنا من الأشخاص التي هي غير مرئية من الجن والشياطين ، وما قالوه في سلوك الجن في الناس في كتابنا المترجم بكتاب « المقالات في أصول الديانات » ، وبالله التوفيق .

ذكر قول العرب في الهواتف والجان

قال المسعودي : فأما الهواتف فقد كانت كثرت في العرب ، واتصلت بديارهم ، وكان أكثرها أيام مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي أولية مبعثه . ومن حكم الهواتف أن تهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئي .

قول العرب في الهواتف والجان

قال المسعودي : وقد تنازع الناس في الهواتف والجان ، فذكر فريق منهم أن ما تذكره العرب وتنبيء به من ذلك انما يعرض لها من قبل التوحد في القفار ، والتفرد في الأدوية ، والسلوك في المهامه والمروراء[1] الموحشة .

لأن الانسان اذا صار في مثل هذه الأماكن وتوحد ، تفكر ، واذا هو تفكر وجل وجبن ، واذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة ، والأوهام المؤذية ، والسوداوية الفاسدة ، فصورت له الأصوات ، ومثلت له الأشخاص ، وأوهمته المحال ، بنحو ما يعرض لذوي الوسواس .

وقطب ذلك وأسه سوء التفكير ، وخروجه على غير نظام قوي ، أو طريق مستقيم سليم ، لأن المتفرد في القفار والمتوحد في المروراء مستشعر للمخاوف ، متوهم للمتالف ، متوقع للحتوف ، لقوة الظنون الفاسدة على فكره ، وانغراسها في نفسه ، فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف به واعتراض الجان له .

وقد كانت العرب قبل ظهور الاسلام تقول : ان من الجن من هو على صورة نصف الانسان ، وأنه كان يظهر لها في أسفارها وحين خلواتها وتسميه شقا .

بين شق وعلقمة بن صفوان

وذكر عن علقمة بن صفوان بن أمية بن محرب الكناني ، جد مروان بن الحكم لأمه ، أنه خرج في بعض الليالي يريد مالا له بمكة ، فانتهى الى الموضع المعروف الى هذا الوقت بحائط حرمان ، فاذا هو بشق قد ظهر له في أوصاف ذكرها فقال شق :

علقم اني مقتول وان لحمي مأكول
أضربهم بالمسلول ضرب غلام مشمول
رحب الذراع بهلول

---

١ ـ المروراء (بفتح الميم والراء وسكون الواو) الارض لا شيء بها . وجمعها مروري ومروريات .

فقال علقمة :

شق ، مالي ولك اغمد عني منصلك

تقتل من لا يقتلك ؟

فقال شق :

علقم ، غنيت لك كيما أبيح معقلك

فاصبر لما قد حم لك

فضرب كل منهما صاحبه ، فخرا ميتين . وهذا مشهور عندهم ، وأن علقمة بن صفوان قتلته الجن .

قتل الجن لحرب بن أمية

وذكروا عن الجن بيتين من الشعر قالتهما في حرب بن أمية حين قتلته الجن وهما :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

واستدلوا على أن هذا الشعر من قول الجن بأن أحدا من الناس لا يتأتى له أن ينشد هذين البيتين ثلاث مرات متواليات لا يتتعتع في انشادهما ، لأن الانسان قد ينشد العشرين بيتا والأكثر والأقل أشد من هذا الشعر وأثقل منه ولا يتتعتع فيه .

بعض من قتلته الجن

وممن قتلته الجن مرداس بن أبي عامر السلمي ، وهو أبو عباس بن مرداس السلمي .

ومنهم الغريض المغني ، بعد أن ظهر غناؤه وحمل عنه ، وقد كانت الجن نهته أن يغني بأبيات من الشعر ، فغناها فقتلته .

قبر حاتم طيء يقري الضيف

وحديث يحيى بن عقاب ، عن علي بن حرب ، عن أبي عبيدة معمر بن المثنى ، عن منصور بن يزيد الطائي ، ثم الصامتي قال :

رأيت قبر حاتم طيء ببقة ، وهو أعلى جبل له واد يقال له الحابل ، واذا قدر عظيمة

من بقايا قدور حجر مكفأة في ناحية من القبر من القدور التي كان يطعم فيها الناس ، وعن يمين قبره أربع جوار من حجارة ، وعلى يساره أربع جوار من حجارة ، كلهن صاحبة شعر منشور محتجرات على قبره كالنائحات عليه ، لم ير مثل بياض أجسامهن ، وجمال وجوههن ، مثلهن الجن على قبره ، ولم يكن قبل ذلك .

والجواري بالنهار كما وصفنا ، فاذا هدأت العيون ارتفعت أصوات الجن بالنياحة عليه ، ونحن في منازلنا نسمع ذلك ، الى أن يطلع الفجر ، فاذا طلع الفجر سكتن وهدأن ، وربما مر المار فيراهن فيفتتن بهن فيميل اليهن عجبا بهن ، فاذا دنا منهن وجدهن حجارة .

وحدث يحيى بن عقاب الجوهري قال : حدثنا علي قال : أنبأني عبد الرحمن بن يحيى المنذري ، عن أبي المنذر هشام الكلبي قال : حدثنا أبو مسكين بن جعفر بن محرز بن الوليد ، عن أبيه ، وكان مولى لأبي هريرة ، قال : سمعت محمد بن أبي هريرة يحدث قال :

كان رجل يكنى أبا البختري مر في نفر من قومه بقبر حاتم طيء ، فنزلوا قريبا منه ، فبات أبو البختري يناديه : يا أبا الجعد ، أقرنا .

فقال قومه له : مهلا ما تكلم رمة بالية ؟

قال : ان طيئا تزعم أنه لم ينزل به أحد قط الا قراه .

وناموا ، فلما أن كان في آخر الليل قام أبو البختري مذعورا فزعا ينادي : واراحلتاه .

فقال له أصحابه : ما بدا لك ؟

قال : خرج حاتم من قبره بالسيف ، وأنا أنظر ، حتى عقر ناقتي .

قالوا له : كذبت .

ثم نظروا الى ناقته بين نوقهم مجدلة لا تنبعث ، فقالوا له : قد والله قراك .

فظلوا يأكلون من لحمها شواء وطبيخا حتى أصبحوا ، ثم أردفوه ، وانطلقوا سائرين ، فاذا راكب بعير يقود آخر قد لحقهم فقال : أيكم أبو البختري ؟

فقال أبو البختري : أنا ذلك .

قال : أنا عدي بن حاتم ، وان حاتما جاءني الليلة في النوم ونحن نزول وراء هذا الجبل ، فذكر شتمك اياه ، وأنه قرى أصحابك براحلتك ، وأنشدني يقول في شعره :

أبا البختري ، لأنت امرؤ ظلوم العشيرة شتامها
أتيت بصحبك تبغي القرى لدى حفرة صلحت هامها
أتبغي لي الذم عند المبيت وحولك طي وأنعامها ؟

فانا سنشبع اضيافنا ونأتي المطي فنعتامها

وقد أمرني أن أحملك على بعير مكان راحلتك ، فدونكه .

وقد ذكر هذا سالم بن زرارة الغطفاني في مدحه عدي بن حاتم حيث يقول :

أبوك أبو سفانة الخير لم يزل لدن شب حتى مات في الخير راغبا
به تضرب الأمثال في الشعر ميتا وكان له اذ ذاك حيا مصاحبا
قرى قبره الأضياف اذ نزلوا به ولم يقر قبر قبله الدهر راكبا

وحدث أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد عن أبي حاتم السجستاني ، عن أبي عبيدة معمر بن المثنى ، قال :

سمعت شيخا من العرب قد أناف على المائة يقول : انه خرج وافدا على بعض ملوك بني أمية .

قال : فسرت في ليلة صهاكية حالكة كأن السماء قد برقعت نجومها بطرائق السحاب ، وضللت الطريق ، فتولجت واديا لا أعرفه ، فأهمتني نفسي بطرحها حتى الصباح ، فلم آمن عريف الجن ، فقلت : أعوذ برب هذا الوادي من شره ، وأستجيره في طريقي هذا ، وأسترشده ، فسمعت قائلا يقول من بطن الوادي :

تيامن تجاهك تلق الكلا تسير وتأمن في المسلك

قال : فتوجهت حيث أشار الي وقد أمنت بعض الأمن ، فاذا أنا بأقباس نار تلمع أمامي في حللها كالوجوه على قامات كالنخيل السحيقة ، فسرت وأصبحت بأوشال ، وهو ماء لكلب بقرب برية دمشق .

وقد ذكر الله عز وجل ذلك من فعلهم في كتابه فقال : « وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن ، فزادوهم رهقا » .

ذكر ما ذهبت إليه العرب
من القيافة والزجر والعيافة والسانح والبارح
وغير ذلك

الخلاف في القيافة وجوازها

تنازع الناس في العيافة والقيافة وغيرها مما ذكر :

فذهبت طائفة الى تحقيق القيافة والأخذ بها ، لأن الأشباه تنزع ، وغير جائز أن يكون الولد غير مشبه لأبيه ، أو أحد من أهله من جهة من الجهات .

ومنهم من ذهب الى أن في الولد مواضع تلحقها القيافة دون غيرها من الأعضاء مما لم يحلها الشبه ، ولا توافق بينهما بحد مشترك .

وأبى آخرون ما وصفنا ، اذ كان الناس قد يتشابهون في حد الانسانية وغير ذلك من الحدود ، ويفترقون في غيرها من الصور . وليس وجود الأغلب من الأشباه مما يوجب الحاق الشبه بشبهه ، دون أن يخالف من حيث أوجبت قضية العقل الاختلاف بالتباين .

اختصاص العرب بذلك

وهذه المعاني من خواص ما للعرب ، وما تفردت به ، دون سائر الأمم في الأغلب منها .

وان كانت الكهانة قد وجدت في غيرها ، فان القيافة والزجر والتفاؤل والتطير ليس لغيرها في الأغلب من الأمور ، وليس هو موجودا في سائر العرب ، وانما هو للخاص منها الفطن والمتدرب الظنن .

وان وجد ذلك في بعض الأمم ، كوجود ذلك في الافرنجة ، وما جانسها ممن هنالك من الأمم ، فيمكن أن يكون ذلك موروثا عن العرب ، ومأخوذا منها في سالف الدهر ، لأن العرب قد تنقلت في البلاد ، وتغيرت لغاتها ، فنسب ذلك الى الجنس الذي قطنت بينهم العرب .

ويمكن أن تكون الافرنجة ، ومن وجد فيها ذلك من الأمم ، أخذوه بعد ظهور الاسلام عمن جاورهم من أمم العرب ، ممن سكن بلاد الأندلس من الأرض الكبيرة . وان كان ذلك قبل ظهور الاسلام فهو ما ذكرنا آنفا .

ويمكن أن يكون اللّه عز وجل خص بذلك أمما غير العرب ، كما خص العرب به ، اذ كان ذلك داخلا في الامكان ، خارجا من باب الممتنع والواجب ، فيكون الزجر والفأل

شاملا لبعض العرب وغيرها من خواص الأمم ، كوجود النقط للبربر ، والنظر في الكف ، وغير ذلك مما خص به كل جنس من الناس .

منشأ القيافة

وقد ذهبت طائفة ممن سلف ، من أهل البحث والتنقير الى أن القيافة اسم مشتق من القفو ، وهو معنى استدلالي .

وأصل ذلك أن الأشكال انفصلت في صورة أنسابها بأشياء تخص الأنواع بالتشكيل وخواص وجدت لما به ضربت الفواصل أضرابها في وحيدات الأشخاص ، وكان التناسل على وساعة وقدر من الغير لما توجبه الطبيعة من اتفاق كل شيء في حوزته ، وصرفه الى وجهه . . . كما خصت الطبيعة كل نوع من الجنس بفصل أبانته من أغياره ، وفرقت بينه وبين أشكاله ، فكذلك أيضا خصت أوحاد الأشخاص المنفصلة في الهيئة بتغير الغير من أغياره .

وكذلك لا تكاد فنون الصور تتراءى في المرائي لغير من أغياره .

وكذلك لا تكاد وان ضمها النوع وشملتها المادة ، فالقائف يقارب بين الهيئات ، فيحكم للأقرب صورة ، لأن تشبيه النسل أقرب من تشبيه النوع .

وكذلك تشبيه الشخص الى النوع أقرب منه الى الجنس ، لأن النوع والشخص ضمهما حدان مشتركان ، وانما ضم الجنس واحد فهو أصل القيافة عند هذه الطائفة ، وهو ضرب من ضروب البحث ، وإلحاق النظير في الأغلب بنظيره ، من حيث تساويهما من حيث ذكرنا في قضية العقل ، وهو القياس بعينه .

وليس هذا الاستدلال من كلام أحد من فقهاء القائسين ولا غيرهم من المسلمين ، وانما هذا الكلام انتزعناه من كلام طائفة من الفلاسفة المتقدمين .

فيجب أن يكون نظر القائف ـ على قول هذه الطائفة ـ الى القدم ، لأنها نهاية الشكل وغاية الهيئة . والولد لو خالف صورة أبيه في كنه أفعاله ، وباينه في سائر شكله في الأغلب يوافقه في القدم ، لأن النسل لابد له من تخصيص قوته بشيء يميزه من غيره ويبينه من سواه .

ولذلك وجدوا الطول في أزد شنوءة ، ولذلك صار الجفاء والغلظ في الروم ، وأصحاب الأجيال ، والأكثر من أهل الشام ، وأوباش مصر ، واللؤم في الخزر وأهل حران من بلاد ديار بكر ، والشح بفارس ، واللؤم على الطعام بأصفهان ، وصار تفرطح الرجلين وفطس الأنوف في السودان ، والطرب في الزنج خاصة .

وهذا الذي وصفنا عند هذه الطائفة من أسرار الطبيعة ، وخواص تأثير الأشخاص العلوية ، والأجسام السماوية .

وقد تقصينا هذا الشأن على كماله في كتابنا في الأسرار الطبيعية ، وخواص تأثير الأشخاص العلوية والغرائب الفلسفية في كتابنا في الرؤوس السبعية في أنواع السياسات المدنية وملكها الطبيعية ، وفي كتاب الاسترجاع في الكلام على من زعم أن العالم متغير جوهره الى الظلمة ، وأن النور فيه غريب مختار ، وأن ستة أنفس كانوا نورا بلا أجساد : شيث بن آدم ، وزرادشت ، والمسيح ، ويونس ، واثنان لا يمكن ذكرهما ، وأن النور والظلمة قديمان ، وأنهما لا يريان الا غير ممتزجين ، وأن الأشياء لا تعمل الا في جوهرهما ، ثم امتزجا من تلقاء أنفسهما ، من غير داخل عليهما ، ولا مكره أكرههما ، وهذا الخلف من الكلام والفاسد من المقال .

وأعجب من هذا القول قول زرادشت نبي المجوس : ان القديم تعالى ذكره طالت وحدته فطالت فكرته . فلما أن طالت فكرته ، واشتدت وحشته ، توالد الهم منه ، وهو الشيطان ، من تلك الوحشة التي ولدتها تلك الفكرة ونتجتها الوحدة . وأن الله عز وجل لو كان قادرا على افناء الهم منه لما ضرب له أجلا ، ولا أجل له أمرا يغوي عباده ، ويفسد بلاده .

وهذا هو المحال بعينه ، والتناقض بنفسه .

وعجب آخر من الآراء من قول بولص : ان المسيح عليه السلام هو الذي أرسله ، وان المسيح انسان وإله : لأنه اله صار انسانا ، وانسان صار إلها .

وقد أتينا على جمل من متناقضات أهل الآراء ، في أثناء ما تقدم من كتبنا ، وانما تشعب بنا الكلام الى هذا النوع ، وتغلغل بنا القول الى هذا المعنى ، لأنه من جنس ما كنا فيه ، لكن عند ذكرنا لما أودعناه كتاب الاسترجاع والابانة عن غرض فيه . . . فلنرجع الآن الى ما كنا فيه من هذا الكتاب .

الزجر

وحدثنا المنقري عن العتبي قال : وقف عبيد الراعي ذات يوم مع ركب بفيفاء قفر ، وكانوا يريدون استقصاد رجل من تميم ، اذ سنحت ظباء سود منكرة ، ثم اعترضت الركب مقصرة في حضرها ، واقفة على شأنها . فأنكر ذلك عبيد الراعي ، ولم ينتبه له أصحابه ، فقال عبيد :

ألم تدر ما قال الظباء السوانح؟ أطفن أمام الركب والكرب رائح ؟
فكر الذي لم يعرف الزجر منهم وأيقن قلبي أنهن نوائح

ثم شارفوا مقصدهم ، فألفوا الرئيس قد نهشته أفعى فأتت عليه .

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : وهذا من غريب الزجر ، وذلك أن السانح مرجو عند العرب ، والبارح هو المخوف . وأظن عبيدا انما زجر الظباء في حالة رجوعها ، ووصف الحال الأول في شعره ، كما أن من شرط الواصف أن يبدأ بهوادي الأسباب فيوضح عنها . . . فهذا وجه زجر عبيد الراعي في شعره .

اختصاص بعض العرب
ببعض هذه الأمور

ويقال : ان الكهانة لليمن ، والزجر لبني أسد ، والقيافة لبني مدلج وأحياء مضر بن نزار بن معد ، لما كان من فعل بني نزار الأربعة في مسيرهم نحو الأفعى الجرهمي ، ووصفهم الجمل الشارد ، على ما ذكرنا ، وذلك منهم قيافة . . . فمن هنالك تفرقت القيافة من أحياء مضر على حسب ما تغلغل في العروق ونزع .

وأهل المياه أكهن ، وأهل البر الفائح أقوف .

وبأرض الجفار ـ وهي بلاد الرمل بين بلاد مصر وأرض الشام ـ أناس من العرب في تلك الجفار يتناول الانسان من تمر نخلهم فيغيب عنهم السنين ولم يروه ولا شاهدوه ، فان رأوه بعد مدة علموا أنه الآخذ لثمرهم ، ولا يكادون يخطئون . وهذا من فعلهم مشهور ، ولا يكاد تخفى عليهم أقدام أي الناس هم .

ورأيت بهذه الأرض أناسا قد رتبهم ولاة المنازل يطوفون في هذا الرمل ، يعرفون بالقصاص ، يقصون آثار الناس وغيرهم ، فيخبرون ولاة المنازل أي الناس هم ممن طرق تلك البلاد ، وهم لم يروهم ، بل رأوا آثار أقدامهم ، وهذا معنى لطيف ، وحس دقيق .

القيافة

وقد قفت القافة بقريش حين خرج النبي صلى اللّه عليه وسلم وأبو بكر الى الغار ، حتى أتت باب الغار على حجر صلد ، وصخر صم ، وجبال لا رمل عليها ولا طين ولا تراب تتبين عليه الأقدام ، فحجبهم اللّه تعالى عن نبيه صلى اللّه عليه وسلم بما كان من نسج العنكبوت ، وما سفت عليه الرياح ، وما لحق القائف من الحيرة ، وقوله : الى هنا انتهت الأقدام ، ومعه الجماعة من قريش ، لا يرون على الصلد ما يرى ولا على الصفوان ما يشاهد ، وأبصارهم سليمة ، والآفات عنها مرتفعة ، والموانع زائلة .

ولولا أن هنالك لطيفة لا يتساوى الناس في علمها ، ولا يتفقون بالأبصار احصاء ادراكها ، لما استأثر بذلك طائفة دون أخرى .

وأهل الجبال والقفار والدهاس أزجر وأعرف .

القيافة عند أهل الشرع

وقد ذهب قوم من أهل الشريعة ، من فقهاء الأمصار وغيرهم ممن سلف ، الى الحكم بالقيافة ، استدلالا على شرف القيافة ، وعظم خطرها ، وكبر محلها ، وتحقيق فضلها ، لتعجب النبي صلى الله عليه وسلم منها ، وتصديقه مجززا المدلجي .

وقد أنكر جماعة من فقهاء الأمصار ، ممن سلف وخلف ، الحكم بالقيافة ، والدليل على فساد الحكم بها إلحاق النبي صلى الله عليه وسلم الولد بأبيه حين شك فيه لعدم التشابه فقال : يارسول الله ، ان امرأتي وضعت غلاما ، وانه لأسود .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم مقربا الى فهمه وقصدا منه لفساد علته التي قصدها وشك من أجلها في ولده : « فهل لك من ابل ؟ » .

قال : نعم .

قال : « فما ألوانها ؟ » .

قال : حمر .

قال : « فهل فيها من أورق ؟ » .

قال : نعم .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « فمن أين ذلك ؟ » .

قال : لعل عرقا نزع .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « فلعل عرقا نزع » .

وقوله صلى الله عليه وسلم في قصة شريك بن سحماء « إن جاءت به على النعت المكروه ، فهو الذي رميت به » فلما جاءت به على النعت المكروه ، وجد التشابه بينه وبين من رميت به ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لولا حكم الله لكان لي ولك شأن » .

فألحق الولد مع عدم الشبه هنالك ، ولم يلحق بالشبه ههنا ، ولم يجعله حكما ، وقضى بوجود الفراش . وثبوت النص على فساد الحكم بالتشابه .

وهذا باب قصدنا فيه هذا الكلام ، وانما ذكرنا هذا الفصل لنذكر الحكم بضده من القيافة . وهذا باب يطول فيه الخطب ، ويكثر في معانيه الشرح ، لغموضه ولطفه .

وقد ذكرنا وجه الكلام في ذلك وما ذهبت اليه كل فرقة من الناس ممّن سلف وخلف في كتابنا المترجم بـ « كتاب الرؤوس السبعة في الاحاطة بسياسة العالم وأسراره » ، وهو كتاب مشهور مستوعب .

ذِكر الكهانة وما قيل في ذلك
وما اتصل بهذا الباب ممّا يراه النّاس
وحدّ النّفس النّاطقة

اصل ادعاء علم الغيب

تنازع الناس في الكهانة : فذهبت طائفة من حكماء اليونانيين والروم الى التكهن ، وكانوا يدعون العلوم من الغيوب .

فادعى صنف منهم أن نفوسهم قد صفت فهي مطلعة على أسرار الطبيعة ، وعلى ما تريد ان يكون منها ، لأن صور الأشياء عندهم في النفس الكلية .

وصنف منهم ادعى أن الأرواح المنفردة ـ وهي الجن ـ تخبرهم بالأشياء قبل كونها ، وأن أرواحهم كانت قد صفت ، حتى صارت لتلك الأرواح من الجن متفقة .

وذهب قوم من النصارى أن السيد المسيح انما كان يعلم الغائبات من الأمور ، ويخبر عن الأشياء قبل كونها ، لأنه كانت فيه نفس عالمة بالغيب . ولو كانت تلك النفس في غيره من أشخاص الناطقين لكان يعلم الغيب .

ولا خلت أمة الا وقد كان فيها كهانة . ولم يكن الأوائل من الفلاسفة اليونانية يدفعون الكهانات . وشهر فيهم أن فيثاغورس كان يعلم علوما من الغيب وضروربا من الوحي ، لصفاء نفسه وتجردها من أدران هذا العالم .

والصابئة تذهب الى أن أوريايس الأول وأوريايس الثاني ـ وهما هرمس ، وأغاثيمون ـ كانوا يعلمون الغيب ، ولذلك كانوا أنبياء عند الصابئة . ومنعوا أن تكون الجن أخبرت من ذكرنا بشيء من ضروب الغيب ، لكن صفت نفوسهم حتى اطلعوا على ما استتر عن غيرهم من جنسهم .

وطائفة ذهبت الى أن التكهن سبب نفساني لطيف يتولد من صفاء مزاج الطباع ، وقوة النفس ، ولطافة الحس .

وذكر كثير من الناس أن الكهانة تكون من قبل شيطان يكون مع الكاهن يخبره بما غاب عنه . وأن الشياطين كانت تسترق السمع وتلقيه على ألسنة الكهان فيؤدون الى الناس الأخبار ، بحسب ما يرد اليهم .

وقد أخبر الله عز وجل بذلك في كتابه فقال : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا » . . . الى آخر القصة .

وقوله تعالى : « يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا » .

وقوله تعالى : « وان الشياطين ليوحون الى أوليائهم ليجادلوكم . . . » .

والشياطين والجن لا تعلم الغيب ، وانما ذلك لاستراقها السمع مما تسمع من الملائكة بظاهر قوله عز وجل : « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .

وطائفة ذهبت الى أن وجه سبب الكهانة من الوحي الفلكي ، وأن ذلك يكون في المولد عند ثبوت عطارد على شرفه . وأما ما عداه من الكواكب المدبرات من النيرين والخمسة اذا كانت في عقد متساوية ، وأرباع متكافئة ، ومناظر متوازية ، وجب لصاحب المولد التكهن والاخبار بالكائنات قبل حدوثها ، لاشراق هذه الأشراق الكوكبية .

ومن هؤلاء من أوجب كون ذلك في القرانات الكبار .

وذهب كثير ممن تقدم وتأخر أن علة ذلك علل نفسانية ، وان النفس اذا قويت وزادت قهرت الطبيعة ، وأبانت للانسان كل سر لطيف ، وخبرته بكل معنى شريف ، وغاصت بلطافتها في انتخاب المعاني اللطيفة البديعة فاقتنصتها وأبرزتها على الكمال .

وكشفت هذه الطائفة وجه اعتلالها فيما ذكرنا ، فانهم قالوا : رأينا الانسان ينسب الى قسمين ، وهما النفس والجسد ، ووجدنا الجسد مواتا لا حركة له ولا حس الا بالنفس . وكان الميت لا يعلم شيئا ولا يؤديه فوجب أن يكون العلم للنفس .

والنفوس طبقات : منها الصافي وهي النفس الناطقة ، ومنها الكدر ، وهي النفس الحسية والنفس النزاعية والنفس المتخيلة ، ومنها ما قوته في الانسان أزيد من قوة الجسم ، ومنها ما قوة الجسم أزيد منه .

فلما كانت النسبة النورية للانسان الى النفس ، كانت تهدي الانسان الى استخراج الغيب وعلم الآتي ، وكانت فطنته وظنونه أبعث وأعم . فاذا كانت النفس في غاية البروز ونهاية الخلوص ، وكانت تامة النور وكاملة الشعاع ، كان توجلها في دراية الغائب بحسب ما عليه نفوس الكهنة .

وبهذا وجد الكهان على هذه السبيل : من نقصان الأجسام وتشويه الخلق ، كما اتصل بنا عن شق وسطيح وسملقة وزوبعة وسديف بن هوماس وطريفة الكاهنة وعمران أخي مزيقياء وحارثة وجهينة وكاهنة باهلة وأشباههم من الكهان .

العرافة وبعض العرافين

وأما العراف ـ وهو دون الكاهن ـ فمثل الأبلق الأزدي ، والأحلج الدهري ، وعروة

ابن زيد الأزدي ، ورباح بن عجلة عراف اليمامة الذي قال فيه عروة :

جعلت لعراف اليمامة حكمه　　وعراف نجد ان هما شفياني

وكهند صاحب المستنبر ، وكان في نهاية التقدم في العرافة .

الكهانة في العرب

والكهانة أصلها نفسي ، لأنها لطيفة باقية ومقارنة لأعجاز باهرة . وهي تكون في العرب على الأكثر وفي غيرهم على وجه الندرة ، لأنه شيء يتولد على صفاء المزاج الطبيعي ، وقوة مادة نور النفس .

واذا أنت اعتبرت أوطانها رأيتها متعلقة بعفة النفس ، وقمع شرها بكثرة الوحدة ، وادمان التفرد ، وشدة الوحشة من الناس ، وقلة الأنس بهم .

وذلك أن النفس اذا هي تفردت فكرت ، واذا هي فكرت تعدت ، واذا تعدت هطل عليها سحب العلم النفسي ، فنظرت بالعين النورية ، ولحظت بالنور الثاقب ، ومضت على الشريعة المستوية ، فأخبرت عن الأشياء على ما هي به وعليه .وربما قويت النفس في الانسان فأشرفت به على دراية الغائبات قبل ورودها .

وكان كبراء اليونانيين ينعتون هذه الطائفة بالروحانية ، ويقولون : ان النفس اذا هي زادت وكانت أكبر جزء في الانسان ، تهدت الى استخراج البدائع والأخبار المستترات . واستدلوا على ذلك أن الانسان اذا قوي فكره وزادت مواد نفسه وخاطره ، فكر في الطارىء قبل وروده فعلم صورته ، فيكون وروده الى حال على ما تصوره .

الرؤيا وأسبابها

وهكذا النفس ايضا اذا تهذبت كانت الرؤيا في النوم صادقة وفي الزمان موجودة .

وقد تنازع الناس في الرؤيا ، والسبب الموقع لها ، وماهيتها ، وكيفية وقوعها .

فقال فريق : ان النوم هو اشتغال النفس عن الأمور الظاهرة بملاقاة حوادث باطنة فيها . وذلك على وجهين :

أحدهما معروف بالعين قائم بالصفة في خواطر تحدث في النفس معاني تعبرها وتفرق بينها ، فتشغل به عن استعمال الظاهر . والباطن فيه يؤدي اليه الحواس الخمس ، فتبطل الحواس عن الادراك الى الحاس ـ أعني الروح ـ لاشتغال الروح عن استعمالها . واذا وجب بطلانها سمي نوما عرضيا ، لأنه ليس النوم الكلي الذي يعم الأطفال والعجائز والشيوخ

الذين خرجوا من مواقع السرور أو مخافة الشر ، وكذلك نوم الليل على ما وصفنا .

والوجه الآخر ـ وهو النوم الكلي الذي يعم الأطفال والعجائز والطبقات الحيوانية ذوات الفكر وغيرها ـ وهي طبيعة توجبها الخلقة في وقته ضرورة كما يوجب الجوع في وقته ضرورة ، لأن الجوع عند أهل صناعة الطب علة ، وهي الموجبة تحديد الكبد من الفراغ من الأغذية .

ومنهم من رأى أن النفس تدرك صورة الأشياء على ضربين : أحدهما حس والآخر فكر . فالصورة المحسوسة لا تدركها الا في هيئتها ، فاذا تخلص علمها عندها كان ادراكها مفردا من طبعها ، فيكون فكر الانسان ما لم يتم تابعا للحس ، حتى اذا نام فعدمت النفس الحواس كلها ، كانت تلك الصورة التي اخذتها من أعيان الأشياء فيها قائمة كأنها محسوسة ، لأن الحس بها في أعيانها كان قبل استيلائها بالفكر ضعيفا ، فلما ارتفع الحس قوي الفكر فصار يصور الأشياء كأنها محسوسة يخطر على بال النائم منها كما يخطر على باله اذا كان يقظان الشيء الذي قد كان أنيسه .

وليس لذلك نظام ، وانما هو ما اتفق ، فلذلك يرى الانسان كأنه يطير وليس بطائر ، وانما يرى صورة الطيران مفردة كما يعلمها اذ غابت ، ولكن فكرته فيها تقوى حتى كأنها معاينة له .

فأما ما يراه النائم من الأشياء التي تدل على ما يريد فانما ذلك لأن النفس عالمة بالصور ، فاذا خلصت في المنام من شوائب الأجسام أشرفت على ما تريد أن ينالها .

وهي عالمة أنها في حال اليقظة لا يمكنها معرفة ذلك ، فتتخيل خيالات تدل بها على تلك الأشياء التي تريد أن تكون ، حتى اذا انتبهت تذكرت تلك الخيالات وتلك الأشياء . فمن كانت نفسه صافية لم تكد رؤياه تكذب ، ومن كانت نفسه كدرة كانت تكذب كثيرا . ثم ما بين الكدرة والصافية وسائط ، على حسب مراتبها من الصفاء والكدر يكون صدق ما تخيلته وكذبه .

وقال فريق آخر : اذا بطل استعمال النفس للحواس ظاهرا ، لم يبطل استعمالها في نفسها ، ولم يبطل استعمال قواها ، فتنتقل في الأماكن ، وتشاهد الأشخاص بالقوة الروحانية التي ليست بجسم ،ولا بالقوة الجسمانية الغليظة .

وذلك أن القوة الجسدانية لا تدرك الا بمشاركة وملابسة الأشياء : إما باتصال كاتصال اللون من الملون ، وإما بانفصال كانفصال الجسم من الأماكن . والروح تدرك المتصل والمنفصل جميعا ، لا بمشاركة الجسد الذي يوجب الحاجة الى قرب المدرك .

ومنهم من رأى أن النوم هو اجتماع الدم وجريانه الى الكبد .

ومنهم من رأى أن ذلك هو سكون النفس وهدوء الروح .

ومنهم من زعم أن ما يجده الانسان في نومه من الخواطر انما هو من عمل الأغذية والأطعمة والطبائع .

ومنهم من رأى أن بعض الرؤيا من الملك وبعضها من الشيطان . واعتل هؤلاء بقوله تعالى : « انما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا » .

ومنهم من رأى أنها جزء من أحد وستين جزءا من النبوة . وتنازع هؤلاء في كيفية ذلك الجزء وماهيته .

ومنهم من ذهب الى أن الانسان الحساس هو غير هذا الجسم المرئي ، وأنه يخرج عن البدن في حال النوم فيشاهد العالم ويرى الملكوت ، على حسب صفائه ، واعتل هؤلاء وغيرهم - ممن ذهب الى نحو هذا المعنى - بقوله عز وجل : « الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها فيمسك الذي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى » .

وذهب الجمهور من المتطببين في ذلك الى أن الاحلام من الأخلاط ، وترى بقدر مزاج كل واحد منها وقوته . وذلك أن الذين تشتعل أجسادهم من المرة الصفراء يرون في منامهم النيران والنواويس ودخانا ومصابيح وبيوتا تحترق ومدائن تلتهب بالنار ، ونحو ذلك وما أشبهه .

والغالب على من كان مزاجه البلغم أن يرى بخورا وأنهارا وعيونا وأحواضا وغدرانا ومياها كثيرة وأمواجا . ويرى كأنه يسبح أو يصيد سمكا ونحو ذلك وما قاربه .

والغالب على من كان مزاجه السوداء أن يرى في منامه أجداثا وقبورا وأمواتا مكفنين بسواد ، وبكاء ونوحا ورنينا وصراخاً وأشياء مفزعة وأمورا مفظعة وفيلة وأسودا .

والغالب على من كان مزاجه الدم أن يرى خمرا ونبيذا ورياحين ولعبا وقصفا وعزفا وأنواع الملاهي والرقص والسكر والفرح والسرور والثياب المصبغات من الحمرة وغيرها ، وما لحق بهذا الباب مما وصفنا من أنواع السرور .

ولا خلاف بين المتطببين في أن الضحك واللعب - على ما ذكرناه - من أنواع السرور من الدم ، وأن كل حزن وخوف ، وان اختلفت معانيه ، فان ذلك من المرة السوداء . واحتجوا بضروب من الاحتجاجات ، فهذه جملتها .

وقد أوضحنا هذا في كتابنا « الرؤيا والكمال » وفي كتاب « طب النفوس » فلا وجه لاطنابنا في هذا الموضع من كتابنا هذا ، اذ كان هذا الكتاب كتاب خبر لا كتاب بحث نظر .

وانما تغلغل بنا الكلام لما تشعب من مذاهبهم في اخبارنا عنهم ، ولم نعرض في هذا الكتاب لما ذهبت اليه الناس في تحديد النفس ، وما قاله أفلاطون في تحديده للنفس ان النفس جوهر محرك للبدن ، وما حده صاحب المنطق أن حد النفس كمال الجسم الطبيعي ، وحدها من وجه آخر أنه حي بالقوة ، ولا للفرق بين النفس والروح ، لأن الفرق بينهما أن الروح جسم والنفس لا جسم ، وأن الروح يحويه البدن ، وأن النفس لا يحويها البدن ، وأن الروح اذا فارق البدن بطل والنفس تبطل أفعالها في البدن ، ولا تبطل هي في ذاتها ، والنفس تحرك البدن وتنيله الحس .

وقد ذكر أفلاطون في كتاب السياسة المدنية نهر البستان وما يلحق الانسان من صفات النفس الداخلة على النفس الناطقة . وذكر أفلاطون في كتابه الى طيماوس ، وفي كتاب فاردون ، وكيفية مقتل سقراط الحكيم وتكلم في ذلك في النفس والصورة .

وقد تكلم الناس في طبقات النفوس وصفاتها من أصحاب الاثنين وغيرهم من الفلاسفة . ثم تنازع أهل الاسلام في ماهية الانسان الحساس الدراك المأمور المنهي ، وما قالته المتصوفة وأصحاب المعارف والدعاوى في طبقات النفوس من النفس المطمئنة ، والنفس اللوامة ، والنفس الأمارة بالسوء ، وغير ذلك مما ذهب اليه اليهود والنصارى والمجوس والصابئة ، وغير ذلك مما قد أتينا على ايضاحه في كتاب « سر الحياة » وغيره من كتبنا .

سطيح وشق الكاهنان

وقد كان سطيح الكاهن ـ وهو ربيع بن ربيعة بن مسعود بن مازن بن ذئب بن عدي ابن مازن بن غسان ـ يدرج سائر جسده كما يدرج الثوب ، لا عظم فيه الا جمجمة الرأس ، وكانت اذا لمست باليد يلين عظمها .

وكان شق بن مصعب بن شكران بن أترك بن قيس بن عنقر بن أنمار بن ربيعة بن نزار معه في عصر واحد ، وكان فيهما جمرة الكهانة .

وكذلك سملقة وزوبعة كانا في عصر واحد ، والله أعلم .

ذكر جمل من أخبار الكهان
وسيل العرم ، وتفرق الأرد في البلدان

قال المسعودي : قد ذكرنا جملا من الكهانة والقيافة والزجر والبارج والسانح فلنذكر الآن لمعا من أخبار الكهان ، وتفرق ولد سبأ في البلدان .

السد وبانيه ومكانه

ولم يزل ولد قحطان في أطيب عيش الى أن هلك سبأ ، وكان القوم بعد مضي سبأ تداولتهم الأعصار قرنا بعد قرن ، الى أن أرسل الله عليهم سيل العرم .

وذلك أن الرياسة انتهت فيهم الى عمرو بن عمرو مزيقياء ، وهو عمرو بن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف بن ثعلبة بن امرىء القيس بن مازن بن الأزد بن الغوث بن كهلان ابن سبأ ، وذلك ببلاد مازن من أرض اليمن .

وهي بلاد سبأ التي ذكر الله في القرآن أنه أرسل على أهلها سيل العرم ، وهو السد ، وكان فرسخا في فرسخ ، بناه لقمان الأكبر العادي ـ وهو لقمان بن عاد بن عاد ـ وقد ذكرنا خبره وخبر غيره ممن كان عمر منهم عمر النسور .

وهذا السد هو الذي كان يرد عنهم السيل فيما سلف من الدهر اذا حان أن يغشى أموالهم ، فمزقهم الله كل ممزق ، وباعد بين أسفارهم ، والناس في قصة هلكهم يختلفون ، وفي سياقة أخبارهم يتباينون .

وصف بلاد سبأ

وذكر أصحاب التاريخ القديم أن أرض سبأ كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها ، وأكثرها جنانا وغيطانا ، وأفسحها مروجا ، مع بنيان حسن وشجر مصفوف ، ومساكب للماء متكاثفة ، وأنهار وأزهار متفرقة .

وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المجد على هذه الحالة ، وفي العرض مثل ذلك .

وأن الراكب والمار كان يسير في تلك الجنان من أولها الى أن ينتهي الى آخرها لا تواجهه الشمس ولا تعارضه ، لاستتار الأرض بالعمارة الشجرية ، واستيلائها عليها ، واحاطتها بها .

وكان أهلها في أطيب عيش وأرفهه ، وأهنأ حال ، وأرغد قرى ، وفي نهاية الخصب ، وطيب الهواء ، وصفاء الفضاء ، وتدفق الماء ، وقوة الشوكة ، واجتماع الكلمة ، ونهاية المملكة .

وكانت بلادهم في الأرض مثلا ، وكانوا على طريقة حسنة من اتباع شريف الأخلاق ، وطلاب الافضال على القاصد والسفر بحسب الامكان وما توجبه القدرة من الحال .

فمكثوا على ذلك ما شاء الله من الأعصار ، ولا يعاندهم ملك الا قصموه ، ولا يوافيهم جبار في جيش الا كسروه ، فذلت لهم البلاد ، وأذعن لطاعتهم العباد ، فصاروا تاج الأرض .

وكانت المياه التي هي أكثر ما يرد الى أرض سبأ تظهر من مخراق من الحجر الصلد والحديد من ذلك السد والجبال ، طول المخراق فيما وصفنا فرسخ ، وكان وراء السد والجبال أنهار عظام .

وكان في هذا المخراق الآخذ من تلك الأنهار ثلاثون نقباً مستديرة في استدارة الذراع طولا وعرضا مدورة على أحسن هندسة وأكمل تقدير .

وكانت المياه تخرج من تلك الأنقاب في مجاريها حتى تأتي الجنان فترويها سقيا ، وتعم شرب القوم .

وقد كانت أرض سبأ قبل ما وصفنا من العمارة والخصب يركبها السيل من تلك المياه .

وكان ملك القوم في ذلك الزمان يقرب الحكماء ويدنيهم ويؤثرهم ويحسن اليهم . فجمعهم من أقطار الأرض للالتجاء الى رأيهم ، والأخذ من محض عقولهم ، فشاورهم في دفع ذلك السيل وحصره وذلك أنه كان ينحدر من أعالي الجبل هابطا على رأسه حتى يهلك الزرع ويسوق من حملته البناء .

فأجمع القوم رأيهم على عمل مصارف له الى براري تقذف به الى البحر ، وأخبروا الملك أن الماء اذا حفرت المصارف الهابطة طلبها ، وانحدر فيها ، ولم يتراكم حتى يعلو الجبال ، لأن في طباع الماء طلاب الخفض .

فحفر الملك المصارف حتى انحدر الماء وانصرف وتدافع الى تلك الجهة ، واتخذوا السد في الموضع الذي كان فيه بدء جريان الماء من الجبل الى الجبل ، وجعلوا فيه المخراق على ما وصفنا آنفا . ثم اجتذبوا من تلك المياه نهرا مرسلا ومقدارا معلوما ينتهي في جريانه الى المخراق ، ثم ينبعث الماء منه الى تلك الأنقاب ، وهي الثلاثون مخراقا الصغار التي قدمنا ذكرها ، وكانت البلاد عامرة على ما وصفنا آنفا .

مبدأ التهدم

ثم ان تلك الأمم بادت ومرت عليها السنون وضربها الدهر بضرباته وطحنها بكلكله ، وعمل الماء في أصول ذلك المخراق ، وأضعفه مر السنين عليه وتدافع الماء حوله ،

وقد قيل في المثل : اذا أثر تواتر الماء على الحجر الصلد ، فما ظنك بسيل يتدافع على حديد وحجر مصنوع ؟

فلما سكنت أبناء قحطان ما وصفنا من هذه الديار ، وتغلبت على من كان فيها من القطان ، لم تعلم الآفة من انحطام السد والمخراق وضعفه ، فغلب الماء عند تناهي السد والبنيان في الضعف عنه على السد والمخراق والبنيان ، فقذف به في جريه ورمى به في تياره ، وذلك ابان زيادة الماء .

واستولى الماء على تلك الديار والجنان والعمائر والبنيان ، حتى انقرض سكان تلك الأرض ، وزالوا عن تلك المواطن .

فهذه جملة من أخبار سيل العرم وبلاد سبأ .

العرم

ولا خلاف بين ذوي الدراية منهم أن العرم هو المسناة التي قد أحكموا عملها لتكون حاجزا بين ضياعهم وبين السيل ، ففجرته فأرة ، ليكون ذلك أظهر في الأعجوبة ، كما أفار الله تعالى ماء الطوفان من جوف تنور ليكون أثبت في العبرة وأوكد في الحجة .

ولا يتناكر أحلاف قحطان من أهل تلك الديار الى هذا الوقت ما كان من العرم ، لاستفاضته فيهم ، وشهرته عندهم .

مفاخرة عند السفاح
بين قحطاني وعدناني

وقد فخر بعض أولاد قحطان في مجلس السفاح بمناقب قحطان من حمير وكهلان على ولد نزار ، وخالد بن صفوان وغيره من نزار بن معد منصتون هيبة للسفاح ، لأن أخواله من قحطان .

فقال السفاح لخالد بن صفوان : ألا تنطق وقد غمرتكم قحطان بشرفها وعلت عليكم بقديم مناقبها ؟

فقال خالد : ماذا أقول لقوم ليس فيهم الا دابغ جلد ، أو ناسج برد ، أو سائس قرد ، أو راكب عرد ، أغرقتهم فأرة ، وملكتهم امرأة ، ودل عليهم هدهد !

ثم مر في ذمهم الى أن انتهى الى ما كان من قصتهم وتملك الحبشة وما كان من استنقاذ الفرس اياهم على حسب ما قدمنا آنفا .

العرم في شعر العرب

وقد ذكروا في أشعارهم العرم ، وما كان لسبأ وأرض مأرب ، وأن مأرب سمة للملك

الذي كان يتملك على هذه البلدة ، وأن هذا الاسم وقع على هذا البلد فاشتهر به وصار سمة له ، وقال الشاعر :

من سبأ الحاضريـن مأرب اذ يبنون من دون سيلـه العرم

وقد قيل : ان مأرب سمة لقصر هذا الملك في صدر الزمن ، قال أبو الطمحان في ذلك :

ألـم تروا مأربا ما كان أحصنه وما حواليـه من سور وبنيان ؟
ظل العبادي يسقي فوق قلته ولـم يهب ريـب دهـر جد خوان
حتى تناولـه من بعـد ما هجعوا يرقى اليـه على أسباب كتان

وقد ذكر الأعشى في شعره ما وصفناه ، حيث يقول في كلمته :

ففي ذاك للمؤتسي أسوة بمأرب عفى عليهـا العرم
رخام بناه لهم حمير اذا جاء ماؤهـم لم يرم
فأغنى الحروث وأغنامها على سلعـة ماؤهـم قد قسم
فطار الفيـول وفيالها بها في فيـافي سراب يطم
وكـانوا بذلكـم حقبة فمال بهم جارف منهدم
فطاروا سراعـا وما يقدمو ن منه لشرب صبي فطم

طول العمر وعمر النسور

وقد ذكرنا في كتابنا « أخبار الزمان » الملك الذي طال عمره وحسنت سيرته ، وأنه بنى هذا السد الذي هو المسناة ، وأن عمره انتهى على عمر النسور ، عند ذكرنا لطول الأعمار .

وقد أكثرت العرب في صفة طول عمر النسر ، وضربت به الأمثال ، وبلبد ، وبصحة بدن الغراب .

فمن ذلك ما ذكره الخزرجي في شعره عند ذكره لطول عمر معاذ بن مسلم بن رجاء مولى القعقاع بن حكيم من قوله فيه عند ذكره سنه وهرمه ، وهو :

ان معـاذ بن مسلـم رجل قد ضج من طول عمره الأبد
قدشـاب رأس الزمـان واختضب الدهـر وأثـواب عمـره جلد
يا نسر لقمان كم تعيش ، وكم تلبس ثوب الحيـاة يا لبد ؟
قد أصبحت دار حمير خربت وأنت فيهـا كأنك الوتد
تسأل غربانها اذا حجلت كيف يكـون الصداع والرمد

علة طول الأعمار ونقصها

وقد قدمنا فيما سلف في مواضع من هذا الكتاب ما قالت الأوائل في علة طول الأعمار وقصرها ، وعظم الأجسام في بدء الأمر ، وتناقصها على مرور الأعصار ومضي الدهور .

وأن الله تبارك وتعالى لما بدأ الخلق كانت الطبيعة التي جعلها الله جبلة للأجسام في تمام الكثرة ونهاية القوة والكمال . والطبيعة اذا كانت تامة القوة كانت الأعمار أطول ، والأجسام أقوى ، لأن طرق الموت الطارىء يكون بانحلال قوى الطبيعة .

فلما كانت القوة أتم ، كانت الأعمار أزيد ، وكان العالم في أولية شأنه تام العمر ، ثم لم يزل ينقص أولا فأولا لنقصان المادة فتنقص الأجسام والأعمار مع نقصان المـادة ، حتى يكون آخر مائية الطبيعة في تناهي النقص في الأجسام والأعمار .

وقد أبى ما ذكـرنا من عظم أجسام الناطقين في صدور الـزمان كثير من أهـل النظر والبحث ممن تأخر ، وزعموا أن تأثيرهم في بنيانهم وما ظهر في الأرض من أعمارهم يدل على صغر أجسامهم ، وأنها كانت كأجسامنا ، لما شاهدوه من مساكنهم وأبوابهم وممراتهـم فيما أحدثوه من البنيان والهياكل والديار والمساكن في سائر الأرض . . . كديار ثمود ، ونحتهـا المساكن في الجبال ، وحفرها في الصخر الصلد بيوتا صغارا وأبوابا لطافا ، وكذلك أرض عاد ومصر والشام وسائر بقاع الأرض في الشرق والغرب .

وهذا باب ان أكثرنا القول فيه طال ، وان أطنبنا في صفته كثر . فلنرجع الآن الى ما عنه عدلنا ، ومن صفته خرجنا ، من ذكر سبأ ومأرب ، وما كان من الملك في ذلك الوقت وهو عمرو بن عامر .

عود لذكر سبأ

وكان للملك عمرو بن عامر المقدم ذكره في هذا الباب أخ كاهـن عقيـم ، يقال له عمران ، وكان لعمرو كاهنة من أهله من حمير يقال لها طريفة الخير .

فكان أول شيء وقع بمأرب وعرف من سيل العرم ان عمران الكاهن أخا عمرو رأى في كهانته أن قومه سوف يمزقون كل ممزق ويباعد بين أسفارهم ، فذكر ذلك لأخيه عمرو ، وهو الملك مزيقياء الذي كانت محنة القوم في أيام ملكه ، والله أعلم بكيفية ذلك .

طريفة الكاهنة

وبينا طريفة الكاهنة ذات يوم نائمة ، اذ رأت فيما يرى النائم أن سحابة غشيت أرضهم وأرعدت وأبرقت ، ثم صعقت فأحرقت ما وقعت عليه ، ووقعت الى الأرض ، فلم تقع على شيء الا أحرقته .

ففزعت طريفة لذلك ، وذعرت ذعرا شديدا ، وانتبهت وهي تقول : ما رأيت مثل اليوم ، قد أذهب عني النوم ، رأيت غيما أبرق ، وأرعد طويلا ثم أصعق ، فما وقع على شيء الا أحرق ، فما بعد هذا الا الغرق .

فلما رأوا ما داخلها من الرعب خفضوها وسكنوا من جأشها حتى سكنت .

ثم ان عمرو بن عامر دخل حديقة من حدائقه ومعه جاريتان له ، فبلغ ذلك طريفة فأسرعت نحوه ، وأمرت وصيفا لها يقال له سنان أن يتبعها ، فلما برزت من باب بيتها عارضها ثلاث مناجد منتصبات على أرجلهن واضعات أيديهن على أعينهن ، وهي دواب تشبه اليرابيع يكن بأرض اليمن .

فلما رأتهن طريفة وضعت يدها على عينها وقعدت ، وقالت لوصيفها : اذا ذهبت هذه المناجد عنا فأعلمني .

فلما ذهبت أعلمها ، فانطلقت مسرعة . فلما عارضها خليج الحديقة التي فيها عمرو وثبت من الماء سلحفاة ، فوقعت على الطريق على ظهرها وجعلت تريد الانقلاب فلا تستطيع ، فتستعين بذنبها وتحثو التراب على بطنها وجنبها وتقذف بالبول .

فلما رأتها طريفة جلست الى الأرض ، فلما عادت السلحفاة الى الماء مضت طريفة الى أن دخلت على عمرو الحديقة حين انتصف النهار في ساعة شديد حرها ، فاذا الشجر يتكفأ من غير ريح ، فنفذت حتى دخلت على عمرو ومعه جاريتان له على الفراش .

فلما رآها استحيا منها ، وأمر الجاريتين فنزلتا عن الفراش ، ثم قال لها : هلمي يا طريفة الى الفراش .

فتكهنت ، وقالت :والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، ان الشجر لتالف ، وسيعود الماء لما كان في الدهر السالف .

فقال عمرو : من خبرك بهذا ؟

قالت : أخبرني المناجد ، بسنين شدائد ، يقطع فيها الولد والوالد .

قال : ما تقولين ؟

قالت : أقول قول الندمان لهفا ، قد رأيت سلحفا ، تجرف التراب جرفا ، وتقذف بالبول قذفا ، فدخلت الحديقة فاذا الشجر يتكفا .

قال عمرو : وما ترين ذلك ؟

قالت : هي داهية ركيمة ، ومصائب عظيمة ، لأمور جسيمة .

قال : وما هي ؟ ويلك !

قالت : أجل ، ان لي الويل ، وما لك فيها من نيل ، فلي ولك الويل ، مما يجيء به السيل .

فألقى عمرو نفسه على الفراش وقال : ما هذا يا طريفة ؟

قالت : هو خطب جليل ، وحزن طويل ، وخلف قليل ، والقليل خير من تركه .

قال عمرو : وما علامة ذلك ؟

قالت : تذهب الى السد فاذا رأيت جرذا يكثر بيديه في السد الحفر ، ويقلب برجليه من الجبل الصخر ، فاعلم أن النقر عقر ، وأنه وقع الأمر .

قال : وما هذا الأمر الذي يقع ؟

قالت : وعد من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نزل ، فبغيرك يا عمرو فليكن الثكل .

فانطلق عمرو الى السد يحرسه ، فاذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلا . فرجع الى طريفة فأخبرها الخبر وهو يقول :

أبصرت أمرا عادني منه ألم	وهاج لي من هوله برح السقم
من جرذ كفحل خنزير الأجم	أو تيس مرم من أفاريق الغنم
يسحب صخرا من جلاميد العرم	له مخاليب وأنياب قضم
ما فاته سحلا من الصخر قصم	كأنما يرعى حظيرا من سلم

فقالت له طريفة : ان من علامة ما ذكرت لك أن تجلس في مجلسك بين الجنتين ، ثم تأمر بزجاجة فتوضع بين يديك ، فانها ستمتلىء بين يديك من تراب البطحاء من سهلة الوادي ورمله ، وقد علمت أن الجنان مظلة ما يدخلها شمس ولا ريح .

فأمر عمرو بزجاجة فوضعت بين يديه ، فلم يمكث الا قليلا حتى امتلأت من تراب البطحاء . فذهب عمرو الى طريفة فأخبرها بذلك ، وقال : متى ترين هلاك السد ؟

قالت : فيما بينك وبين السبع السنين .

قال : ففي أيها يكون ؟

قالت : لا يعلم ذلك الا الله تعالى ، ولو علمه أحد لعلمته . ولا يأتي عليك ليلة فيما بينك وبين السبع السنين الا ظننت هلاكه في غدها أو في تلك الليلة .

عمرو بن عامر يتحيل للخروج من بلاده

ورأى عمر في النوم سيل العرم ، وقيل له : ان آية ذلك أن ترى الحصباء قد ظهرت في سعف النخل . فذهب الى كرب النخل وسعفه فوجد الحصباء قد ظهرت فيها ، فعلم أن ذلك واقع بهم ، وأن بلادهم ستخرب ، فكتم ذلك وأخفاه ، وأجمع أن يبيع كل شيء له بأرض سبأ ، ويخرج منها هو وولده .

ثم خشي أن يستنكر الناس ذلك ، فصنع طعاما وأمر بإبل فنحرت ، وبغنم فذبحت ، وصنع طعاما واسعا ، ثم بعث الى أهل مأرب أن عمرا صنع يوم مجد وذكر فاحضروا طعامه .

ثم دعا ابنا له يقال له مالك ـ ويقال : بل كان يتيما في حجره ـ فقال : اذا جلست أطعم الطعام الناس فاجلس عندي ونازعني الحديث ، واردده عليّ ، وافعل بي مثل ما أفعله بك .

وجاء أهل مأرب ، فلما جلسوا أطعم الناس وجلس عنده الذي أمره بما أمره به ، فجعل ينازعه الحديث ، ويرد عليه ، فضرب عمرو وجهه وشتمه ، فصنع الصبي بعمرو مثل ما صنع به ، فقام عمرو وصاح : واذلاه ، يوم فخر عمرو ومجده يضرب وجهه صبي . وحلف ليقتلنه ، فلم يزالوا بعمرو حتى تركه . ففي ذلك قال حاجر الأزدي :

يا رب لطمة غدر قد سخنت بها بكف عمرو والتي بالغدر قد غرقت

ثم قال : والله لا أقيم ببلد صنع هذا بي فيه ، ولأبيعن عقاري فيه وأموالي ، فقال الناس بعضهم لبعض : اغتنموا غضبة عمرو ، واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى . فابتاع الناس منه جميع ماله بأرض مأرب .

وفشا بعض حديثه فيما بلغه من شأن سيل العرم ، فخرج ناس من الأزد وباعوا أموالهم ، فلما أكثروا البيع استنكر ذلك الناس ، فأمسكوا بأيديهم عن الشراء .

فلما اجتمعت الى عمرو بن عامر أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم ، فقال أخوه عمران الكاهن : قد رأيت أنكم ستمزقون كل ممزق ، ويباعد بين أسفاركم ، واني أصف لكم البلدان فاختاروا أيها شئتم ، فمن أعجبه منكم صفة بلد فليصر اليها : من كان منكم ذا هم بعيد ، وجمل شديد ، ومزاد جديد ،فليلحق بقصر عمان المشيد . . . فكان الذين نزلوه أزد عمان .

قال : ومن كان منكم ذا هم غير بعيد ، وجمل غير شديد ، ومزاد غير جديد ، فليلحق بالشعب من كرود .

قال : وهي أرض همدان . . . فلحق به وادعة بن عمرو ، فاقتسموا فيهم .

فقال الكاهن : ومن كان منكم ذا حاجة ووطر ، وسياسة ونظر ، وصبر على أزمات الدهر ، فليلحق ببطن مر .

وكان الذين سكنوه خزاعة ، سميت بذلك لانخزاعها في ذلك الموضع عمن كان معها من الناس ، وهم بنو عمرو بن لحي ، فتخزعت هنالك الى هذه الغاية . وفي ذلك يقول حسان بن ثابت :

ولما هبطنا بطن مر تخزعت خزاعة منا في ملوك كراكر

في شعر له طويل .

ومالك وأسلم وملكان بنو قصي بن حارثة ابن عمرو مزيقياء .

وقال الكاهن : ومن كان يريد الراسيات في الوحل ، المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل .

وهي المدينة ، وكان الذين سكنوها الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقياء .

قال الكاهن : ومن كان يريد منكم الخمر والخمير ، والديباج والحرير ، والأمر والتدبير ، فليلحق ببصرى وحفير .

وهي أرض الشام ، فكان الذين سكنوها غسان .

قال الكاهن : ومن كان منكم يريد الثياب الرقاق ، والخيول العتاق ، والكنوز والأرزاق ، فليلحق بالعراق .

وكان الذين لحقوا بالعراق منهم مالك بن فهم الازدي وولده ، ومن كان بالحيرة من غسان ، على حسب ما قدمنا آنفا فيا سلف من هذا الكتاب .

وقال هشام بن الكلبي : وأما أبي فكان يقول : انما نزل بالحيرة من غسان مع تبع بعد هذا بزمان .

ثم خرج عمرو بن عامر مزيقياء وولده ، من مأرب ، وخرج من كان بمأرب من الأزد يريدون أرضا تجمعهم يقيمون بها ، ففارقهم وادعة بن عمرو بن عامر مزيقياء ، فسكنوا همدان .

وتخلف مالك بن اليمان بن فهم بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد ، وكان بعدهم بمأرب ملكا الى أن كان من أمرهم ما كان من الهلاك .

ثم ساروا حتى اذا كانوا بنجران تخلف أبو حارثة بن عمرو بن عامر مزيقياء ودعبل بن كعب بن أبي حارثة فانتسبوا في مذحج .

قال أبو المنذر : ويقال ان أبا حارثة هو جد الحارث بن كعب بن أبي حذيفة الذي بنجران ، والله أعلم .

ثم سار عمرو بن عامر حتى اذا كان بين السراة ومكة أقام هنالك أناس من بني نصر من الأزد ، وأقام معهم عمران بن عامر الكاهن أخو عمرو بن عامر مزيقياء ، وعدي بن حارثة ابن عمرو مزيقياء .

وسار عمرو بن عامر وبنو مازن حتى نزلوا بين بلاد الأشعريين وعك على ماء يقال له غسان ، بين واديين يقال لهما زبيد ورمع ، وهما مما يلي صدورهما بين صعيد يقال له : صعيد الحسك وبين الجبال التي تدفع به في زبيد ورمع ، فأقاموا على غسان ، وشربوا منه ، فسموا غسان ، وغلب على أسمائهم ، فلا يعرفون الا به . . . قال شاعرهم :

اما سألت فانامعشرنجب الأزد نسبتنا والماء غسان

والذين سموا غسان من بني مازن الأوس والخزرج ، ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقياء ، وجفنة بن عمرو مزيقياء ، والحارث وعوف وكعب ومالك بنو عمرو مزيقياء ، والنوم وعدي ابنا حارثة بن ثعلبة بن امرىء القيس بن مازن بن الأزد .

وللقوم اخبار في تفرقهم ، ومن دخل منهم في معد بن عدنان ، وما كان بينهم من الحروب الى أن ظفرت بهم بنو معد ، فأخرجتهم الى أن لحقوا بالسراة ـ والسراة جبل الأزد الذي هم به يقال لهم السراة ، ويقال له : الحجاز ، وانما سمي السراة من هذا الجبل ظهره ، فيقال لظهره السراة كما يقال لظهر الدابة السراة ـ فأقاموا به وكانوا في سهله وجبله وما قاربه .

وهو جبل على تخوم الشام ، وفرز بينه وبين الحجاز مما يلي أعمال دمشق والأردن وبلاد فلسطين ويلاقي جبل موسى .

عبادة أهل مأرب وصنعهم في رسلهم

وقد كان أهل مأرب يعبدون الشمس ، فبعث الله اليهم رسلا يدعونهم الى الله ، ويزجرونهم عما هم عليه ، ويذكرونهم آلاء الله ونعمته عليهم . فجحدوا قولهم ، وردوا كلامهم ، وأنكروا أن يكون للّه عليهم نعمة ، وقالوا لهم : ان كنتم رسلا فادعوا الله أن يسلبنا ما أنعم به علينا ، ويذهب عنا ما أعطانا ، وفي ذلك تقول امرأة منهم كافرة :

ان كان ما نصبح في ظلاله　　من ربكـم فلينطلـق بماله
اليه عنا والى عياله

فأجابتها امرأة مؤمنة ، فقالت :

لولا الالـه لم يكـن عيالنا　　ولـم يسع عيالنا أموالنا
هوالـذي يجيبنا سؤالنا　　ويـكشف الغـم اذا ما هالنا

فدعت عليهم الرسل ، فأرسل الله عليهم سيل العرم ، فهدم سدهـم وغشى الماء أرضهم ، فأهلك شجرهم وأباد خضراءهم ، وأزال أموالهم وأنعامهم .

فأتوا رسلهم ، فقالوا : ادعوا الله أن يخلف علينا نعمتنا ، ويخصب بلادنا ، ويرد علينا ما شرد من أنعامنا ، ونعطيكم موثقا ألا نشرك بالله شيئا .

فسألت الرسل ربها ، فأجابهم الى ذلك ، وأعطاهم ما سألوا ، فأخصبت بلادهم ، واتسعت عمائرهـم الى أرض فلسطين والشام : قرى ومنازل وأسواقا .

فأتتهم رسلهم ، فقالوا : موعدكم أن تؤمنوا بالله .

فأبوا الا طغيانا وكفرا ، فمزقهم الله كل ممزق ، وابعد بين أسفارهم .

***

قال المسعودي : واذ قد ذكرنا جملا من أخبار السد وبلاد مأرب ، وعمرو بن عامر ، وغير ذلك مما تقدم ذكره في هذا الباب ، فلنرجع الآن الى أخبار الكهان .

اول كهانة سطيح الغساني

وكان أول ما تكهن به سطيح الغساني أنه كان نائما في ليلة صهاكية مظلمة مع اخوته في

لحاف ، والحي خلوف ، اذ زعق من بينهم ورن وتأوه ، وقال : والضياء والشفق ، والظلام والغسق ، ليطرقنكم ما طرق .

قالوا : ما طرق يا سطيح ؟

قال : ما طرق الا الأجلح ، حين سرى الليل البهيم الأفلح ، وولاهم بسردح .

قالوا : وما علامة ذلك يا سطيح ؟

قال : أمر يسد النقرة ، ذو حبسة في الوجرة وحرة بعد حرة ، في ليلة قرة .

فانصرفوا عن قوله ، واستهانوا بأمره ، وتعاصفت مدود من أودية هناك ، ففاجأتهم في ليلة باردة قرة ، كما ذكر ، فساقت الأنعام والمواشي ، وكادت أن تذهب بعامتهم .

ولسطيح الكاهن ولشق بن صعب أخبار كثيرة عجيبة : منها رؤيا تبع الحميري في أن جمرة خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تهمة ، أكلت منها كل ذات جمجمة ، وما فسراه له في ذلك .

وكذلك خبر سطيح وعبد المسيح في رؤيا الموبذان ، وارتجاج الايوان .

وخبر سملقة وزوبعة ، وما كان من أمرهما .

وخبر شأن الظليم والشجرة، وما كان بين عك وغسان من الحرب في رقة اللبن وحلاوته وثخنه ، ونزول غسان أعلى الوادي ، وعك في أسفله ، وما كان في ذلك من القيافة بينهم في طلوع الشمس وغروبها على ابلهم .

وخبر السموأل بن حسان بن عادياء ، وما كان من أمره ، وأمر خازن الكاهن ، وما قاله حين طرقه ليلا ، وانقياده الى ذمته ، وما كان من العير الأقمر ، والظليم الأحمر ، والفرس الأشقر ، والجمل الأزور ، والشيخ الأحقر . . . وغير ذلك مما ذكرناه فيما سلف من كتبنا في « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط . والله أعلم .

ذكر سني العرب والعجم وشهورها
وما اتفق منها وما اختلف

قال المسعودي : عدة الشهور عند العرب وسائر العجم اثنا عشر شهرا .

فلنذكر الآن سني وشهور وأيام ما اشتهر أهله من جل الأمم ، وهم العرب والفرس والروم والسريانيون والقبط ، اذ كان قول اليونانيين في ذلك هو ما ذهبت اليه الروم .

ولم نعرض لوصف قول الهند في السنين والشهور والأيام وما ذهبوا اليه في ذلك من حسابهم ، ومن تبعهم على ذلك من أهل الصين وكثير من الممالك والأمم ، اذ كان في ذلك خروج عما عليه الجمهور والمعهود بين الناس .

ونجعل المبتدأ بذكر سني وشهور القبط لموافقتها السريانيين ، ثم نعقب بعد ذلك بذكر شهور السريانيين ، وموافقتها لشهور الروم .

ثم نتبع ذلك بذكر سني العرب وشهورها وأيامها .

ثم نعقب بعد ذلك بذكر سني الفرس وشهورها وأيامها ولأية علة استحق عندها تسمية كل شهر منها ، وكل يوم ، وما قالته العرب في تسمية الليالي ، وجمل من ذكر أفعال الشمس والقمر وتأثيرهما في هذا العالم في الجماد والنبات والحيوان . . . وغير ذلك مما يقف عليه المتأمل عند قراءته ـ ان شاء الله تعالى ـ على ما يريد ، والله تعالى ولي التوفيق .

ذكر شهور القبط والسريانيين والخلاف في أسمائها وجمل من التاريخ

شهور القبط ومقابلها

من شهور السريان

أول شهور القبط توت وهو أيلول ، وبابه وهو تشرين الأول ، وهاتور وهو تشرين الثاني ، وكيهك وهو كانون الأول ، وطوبة وهو كانون الثاني ، وأمشير وهو شباط ، وبرهمات وهو آذار ، وبرمودة وهو نيسان ، وبشنس وهو أيار ، وبؤونة وهو حزيران ، وأبيب وهو تموز ، ومسرى وهو آب .

وللقبط بعد هذا خمسة أيام لواحق ، تدعى العمياء ، تزيدها على ما سمينا من شهورها ، وهي ثلثمائة يوم وستون يوما ، فتصير السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوما .

سنة القبط

وأول يوم من السنة عند القبط هو اليوم التاسع والعشرون من آب ، وعدة كل شهر منها ثلاثون يوما .

وكانت أيام السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوما كعدة أيام سنة الفرس ، وكانت شهور القبط فيما مضى توافق أوائلها شهور الفرس ، فكان أول توت أول آذرماه ، ثم كل شهر كذلك على هذا الوصف الى آخر سنة القبط آخر آذرماه . وهذا الحساب بعينه موجود في كتب الزيجات في النجوم .

وأهل مصر وسائر القبط في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) يستعملون في حسابهم في الشهور غير ما قدمنا . وذلك أنهم زادوا في أيام السنة ربع يوم على مذهب السريانيين والروم ، فصارت شهورهم مخالفة لشهور الفرس وموافقة لشهور السريانيين والروم في عدد أيام السنة .

وتاريخ القبط في كتاب المجسطي من أول السنة التي ملك فيها البخت نصر وكان أولها يوم الأربعاء .

مبدأ التواريخ

وأما تاريخ القبط في كتاب زيج بطليموس ، فمن أول سنة ملك فيلقوس وكان أولها يوم الأحد .

والتباين الذي بين تاريخ البخت نصر وتاريخ يزدجرد ألف وثلثمائة وتسع وتسعون سنة فارسية وثلاثة أشهر . والذي بين تاريخ فيلقوس وتاريخ يزدجرد تسعمائة وخمس وخمسون سنة وثلاثة أشهر ، وبين تاريخ الاسكندر وتاريخ يزدجرد تسعمائة واثنتان وأربعون سنة من سني الروم ومائتان وتسعة وخمسون يوما ، وبين تاريخ يزدجرد وتاريخ الهجرة من الأيام ثلاثة آلاف وستمائة وأربعة وعشرون يوماً .

فأول هذه التواريخ تاريخ البخت نصر ، ثم تاريخ فيلقوس ، ثم تاريخ ابنه الاسكندر ، ثم تاريخ الهجرة ، ثم تاريخ يزدجرد .

أوائل كل تاريخ

وتاريخ العرب من أول السنة التي هاجر فيها النبي صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة ، وكان أولها يوم الخميس .

وتاريخ الفرس من أول السنة التي ملك فيها يزدجرد بن شهريار بن كسرى أبرويز ، وكان أولها يوم الثلاثاء .

وتاريخ الروم والسريانيين من أول السنة من ملك الاسكندر ، وكان أولها يوم الاثنين ، والله تعالى أعلم بحقيقة ذلك .

ذكر شهور السريانيين
ووصف موافقتها لشهور العرب
وعدة أيام السنة ومعرفة الأنواء

شهورهم وأيام كل شهر

فأول ذلك أن أيـام السنة ثلثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم ، وهـي مختلفة في العدد : فنيسان ثلاثون يوما ، وأيار أحد وثلاثون يوما ، وحزيران ثلاثون يوما ، ولثماني عشرة ليلة منه رجوع الشمس هابطة من الشمال على ما أوجبه حساب الهند ، وهو أطول يوم في السنة وليلته أقصر ليلة ، وتموز أحد وثلاثون يوما ، وآب أحد وثلاثون يوما .

فاذا انسلخ آب ذهب الحر . . . قال محمد بن عبدالملك الزيات :

برد الماء وطاب الليل والتذ الشراب ومضى عنك حزيران وتموز وآب .

وأيلول ثلاثون يوما ، ولخمس منه عيد زكريا ، ولعشر منه تطلع الصرفة فينصرف الحر ، ولثلاث عشرة منه عيد الصليب ، وهو اليوم الرابع عشر منه ، وفي هذا اليوم تفتح الترع بمصر على حسب ما ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب ، ولتمام عشرين منه يستوي الليل والنهار .

وقال أبو نواس :

مضى أيلـول وارتفع الحرور   وأخبت نارهـا الشعـرى العبور

سر تسمية المهرجان

وتشرين الأول أحد وثلاثون يوما ، وفيه يكون المهرجان ، وبين النيروز والمهرجان مائة وتسعة وستون يوما .

وعند الفرس في معنى المهرجان أنه كان لهم ملك في قديم الزمان من ملوك الفرس قد عم ظلمه خواص الناس وعوامهم ، وكـان يسمى مهر ، وكـانت الشهـور تسمى بأسماء الملوك ، فقيل مهرماه ، ومعنى ماه : هو الشهر .

وأن ذلك الملك طال عمره واشتدت وطأته ، فمات في النصف من هذا الشهر ، وهو مهرماه فسمي ذلك اليوم الذي مات فيه « مهرجان » وتفسيره نفس مهر ذهبت ، لأن الفرس تقدم في لغتها ما تؤخره العرب في كلامها ، وهذه اللغة الفهلوية ، وهي الفارسية الأولى .

وأهل المروءات بالعراق وغيرها من مدن العجم يجعلون هذا اليوم أول يوم من الشتاء ، فتغير فيه الفرش والآلات وكثيرا من الملابس ، والخمس منه ـ وهو تشرين الأول ـ عيد كنيسة القيامة ببيت المقدس .

وفي هذا اليوم تجتمع النصارى من سائر الأرض ، وتنزل عليهم نار من السماء ، فيسرج هناك الشمع ، ويجتمع فيه من المسلمين خلق عظيم للنظر الى العيد ، ويقتلع فيه ورق الزيتون ، ويكون للنصارى فيه أقاصيص .

ولهذه النار حيلة لطيفة وسر عظيم ، وقد ذكرنا وجه الحيلة في ذلك في كتابنا المترجم بـ « كتاب القضايا والتجارب » .

وتشرين الثاني ثلاثون يوما ، وكانون الأول ثلاثون يوما ، ولتسع عشرة منه يكون النهار تسع ساعات ونصفا وربعا ، وهو منتهى قصره ، والليل أربع عشرة ساعة وربعا ، وهو منتهى طوله ، وليلة الخامس والعشرين منه ميلاد المسيح عليه السلام .

وكانون الثاني أحد وثلاثون يوما ، وأول يوم منه القلندس ، فيكون فيه بالشام لأهله عيد يوقدون في ليلته النيران ، ويظهرون الأفراح ، لا سيما بمدينة أنطاكية ، وما يكون في كنيسة القسيان بها من القداس عندهم . وكذلك بسائر الشام وبيت المقدس ومصر وأرض النصرانية كلها ، وما يظهر أهل دين النصرانية بأنطاكية من الفرح والسرور وايقاد النيران والمآكل والمشارب ، ويساعدهم على ذلك عوام الناس وكثير من خواصهم .

وذلك أن مدينة أنطاكية بها كرسي البطرك المعظم عندهم في ديانتهم ، وأن النصرانية تسمي أنطاكية مدينة الله ، ويسمونها أيضا مدينة الملك ، وأم المدن ، لأن بدو ظهور النصرانية كان فيها .

بطارقة النصارى

والبطارقة عند النصرانية أربعة : أولهم صاحب مدينة رومية ، ثم الثاني وهو صاحب مدينة قسطنطينية ، وهي أقسس ، واسمها القديم بوزنطيا ، ثم الثالث وهو صاحب الاسكندرية من أرض مصر ، ثم الرابع وهو صاحب أنطاكية .

ورومية وأنطاكية لبطرس ، فبداوا برومية لأنها لبطرس ، ثم ختموا بأنطاكية لأنها له ، وتعظيما لبولس .

وقد أحدثوا كرسيا ببيت المقدس ، ولم يكن هذا متقدما ، وانما هو محدث ، وكان لايليا وهو بيت المقدس أسقف ، ولكورة لد من أرض فلسطين .

المشهور من كنائسهم

وبأنطاكية أيضا كنيسة بولس ، وتعرف بأنطاكية بدير البراغيث ، وهي مما يلي باب فارس . وبها أيضا كنيسة أخرى تدعى أشمونيت ، وبها عيد عظيم للنصرانية ، وكذلك بها كنيسة بربارا ، وكنيسة مريم ، وهي كنيسة مدورة ، وبنيانها من احدى عجائب العالم في التشييد والرفعة .

وكان الوليد بن عبدالملك بن مروان اقتلع من هذه الكنيسة عمدا عجيبة من المرمر والرخام لمسجد دمشق حملت في البحر الى ساحل دمشق ، وبقي الأكثر من هذه الكنيسة الى هذا الوقت .

وقد كان لملك من ملوك الروم مع اليهود بأنطاكية خبر عجيب في كنيسة أشمونيت وكانت خارج السور من أنطاكية ، وهي في أيدي اليهود ، فعوضت اليهود دار الملك بأنطاكية بدلا من كنيسة أشمونيت .

وهذه الدار التي كانت دار الملك تعرف في هذا الوقت بدار اليهود .

ولليهود حيلة احتالوها حين خرجت الكنيسة من أيديهم حتى قتلوا من النصرانية خلقا عظيما من نشر خشب فيها وغير ذلك .

وقدمنا أخبار بطرس وبولس وما كان من أمرهما بمدينة رومية وغيرهما من تلاميذ المسيح وتفرقهم في البلاد ، وذكرنا قصة الملك الذي بنى مدينة أنطاكية ، وهو المعروف بأنطيخش ، وتفسير ذلك محوط الحوائط . وكان اسم أنطاكية بالرومية على اسمه أنطيخش ، فلما ورد المسلمون وافتتحوها حذفت الأحرف الا الألف والنون والطاء .

وفي تاريخ النصارى الملكية وغيرها من أهل دين النصرانية يكون لمولد المسيح الى وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) تسعمائة سنة وأربعون سنة . وتكون سنو الاسكندر ألفا ومائتين وخمسا وثمانين ، ويكون من الاسكندر الى المسيح ثلثمائة سنة وتسع وستون .

هذا ما وجدت في تاريخ الملكية في كنيسة القسيان بمدينة أنطاكية .

وسنذكر بعد هذا الموضع جملا من التاريخ في باب نفرده لذلك ان شاء الله تعالى .

عود الى الشهور وأيامها

فلنرجع الان الى وصف حساب الشهور : شباط ثمانية وعشرون يوما وربع ثلاث سنين متوالية ، والرابعة كبيسة فيكون تسعا وعشرين يوما ، وتكون السنة ثلثمائة وستة وستين يوما .

ولسبعة منه تسقط الجمرة الأولى ، وهي الجبهة ، ولأربع عشرة منه تسقط الجمرة

الثانية ، وهي الزبرة ، ولاحدى وعشرين منه تسقط الجمرة الثالثة ، وهي الصرفة ، وينصرف البرد ، وثلاثة أيام من آخره أيام العجوز .

وأذار أحد وثلاثون يوما ، ولأربعة من أوله تتم أيام العجوز . .

أيام العجوز

والعرب تسمي هذه السبعة الأيام : صنا ، وصنبرا ، وويرا ، وآمرا ، ومؤتمرا ، ومعللا ، ومطفىء الجمر . . . قال بعض العرب في أسماء أيام العجوز :

كسع الشتاء بسبعة غبر صن وصنبر وبالوبر
وبآمر وأخيه مؤتمر ومعلل وبمطفىء الجمر
فاذا انقضت أيام شتوتنا أيام صادرة عن القر
كسع الشتاء موليا هرباً وأتتك واقدة من الحر

ولخمس عشرة من أذار يستوي الليل والنهار ، وتحل الشمس الحمل ، وهذا اليوم تحويل سنة العالم ، قال أبو نواس :

أما ترى الشمس حلت الحملا وطاب وزن الزمان واعتدلا
وغنت الطير بعد عجمتها واستوفت الخمر حولها كملا
واكتست الأرض من زخارفها وشي نبات تخالها حللا
فاشرب على جدة الزمان فقد أصبح وجه الزمان مقتبلا

وليس بحلول الشمس الحمل تستوفي الخمر سنة ، وانما أراد بحلولها قربها من الحول والقوة .

* * *

شهور الروم

قال المسعودي : وأما شهور الروم فهي موافقة لشهور السريانيين في العدد ، وذلك أن أول شهور يواريوس ، وهو كانون الثاني ، وقد قدمنا أن في أول يوم منه يكون القلندس ، وشباط فبراريوس ، وآذار مارتيوس ، ونيسان ابريليس وأيار مايوس ، وحزيران يونيوس ، وتموز يوليوس ، وآب أغسطوس ، وأيلول سبطمبر ، وتشرين الأول أقطوبر ، وتشرين الثاني نوفمبر ، وكانون الأول دشمبر .

ذكر شهور الفرس
أسماء الشهور وعدة أيامها

شهور الفرس كلها ثلاثون يوما ، فأولها فروردماه ، وأول يوم منه النيروز ، وبينه وبين المهرجان مائة وأربعة وسبعون يوما .

والثاني أرديبهشت ماه ، وخرداذ ماه ، وتيرماه ، وتيمروز عيد المهرجان ، ومردادماه ، وشهريرماه ، ومهرماه ، ويوم السادس عشر منه المهرجان .

وأباناه فيه أبان روز عيد أبان كاه ، وفي آخره خمسة أيام الفرودجان .

وآذار ماه ، وأول يوم منه يخرج الكوسج فيه راكبا بغاله بالعراق وأرض فارس ، ولا يعرف ما وصفنا الا بالعراق وأرض العجم ـ وأهل الشام والجزيرة ومصر واليمن لا يعرفون ذلك ـ ويطعم مدة من الأيام الجوز والثوم واللحم السمين ، وما عدا ذلك من الأطعمة الحارة والأشربة المسخنة الدافعة للبرد ، فيظهر طاردا للبرد ، فيصب عليه الماء البارد ، فلا يجد لذلك شيئا من ألمه ، ويصيح بالفارسية ، كرما كرما ، يعني الحر الحر .

وهذا وقت عيد الأعاجم : يطربون فيه ، ويظهرون السرور ، وكذلك في أوقات كثيرة من فصول السنة .

ودوران الأذرخش ، وديماه ، وبهمناه ، واسفندار مزماه .

فذلك ثلثمائة وخمسة وستون يوما ، والله أعلم .

ذكر أيام الفرس
اسماء الأيام

وهي هرمز وبهمان وأرديبهشت وشهرير واسفندارمز وخرداذ ومرداذ ودیباذر وآذر وأبان وخور وماه وتير وجوش ودبر ومهر ودمل وأسروش وفروردين وبهرام ، ورام ، وفيه يقول الشاعر :

باكر بنا للذة المدام في يوم سبت ويوم رام
شريطتي فيه أن تراني وقت الضحى فاتر الكلام

وباد وديبادين وآذار وأشتاد وأسمان وداماد ومار وسفند وأنيران .

فأما أيامهم المعروفة بالفرودجان فهي أهندكاه ،اسميهاه، مشركاه ، مشروكاه . كاساه .

وكانت العرب تسمي هذه الأيام الخمسة : الهرير ، والهبير ، وقالب الفهر ، وحافل الضرع ، ومدحرج البعر .

كبس الفرس

وكـانت الفرس تكبس كل مائة وعشريـن سنة شهـرا ، وانما أخروا ذلك الى مائة وعشرين سنة ، لأن أيامهم كانت سعودا ونحوسا ، فكرهوا أن يكبسوا في كل أربع سنين يوما ، فتنتقل بذلك أيام السعود الى أيام النحوس ، ولا يكون النيروز أول يوم من الشهر ، والله تعالى أعلم .

ذكر سني العرب وشهورها
وتسمية أيامها ولياليها

اسماء الشهور

شهور الأهلة أولها المحرم ، وأيامها ثلثمائة وأربعة وخمسون يوما تنقص عن السرياني أحد عشر يوما وربع يوم ، فتفرق في كل ثلاث وثلاثين سنة سنة ، فتنسلـخ تلك السنة العربية ، ولا يكون فيها نيروز .

ايماء الى النسيء

وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهرا وتسميه النسيء ، وهو التأخير ، وقد ذم الله تبارك وتعالى فعلهم بقوله : « انما النسيء زيادة في الكفر » .

ورسمت العـرب الشهـور فبدأت بالمحرم ، لأنه أول السنة ، وانما سمته المحرم لتحريمها الحرب والغـارات فيـه ، وصفر بالأسواق التي كانت باليمن تسمى الصفريـة ، وكانوا يمتارون منها ، ومن تخلف عنها هلك جوعا ، وقال نابغة ذبيان :

انى نهيـت بني ذبيـان عن أفق وعـن ترفههـم في كل أصفار

وقيل : انما سمي الصفر لأن المدن كانت تخلو فيه من أهلها بخروجهم الى الحرب ، وهو مأخوذ من قولهم : صفرت الدار منهم اذا خلت .

وربيع وربيع ، لارتباع الناس والدواب فيهما . فان قيل : قد توجد الدواب ترتبع في غير هذا الوقت ، قيل : قد يمكن أن يكون هذا الاسم لزمهما في ذلك الوقت ، فاستمر تعريفهما بذلك مع انتقال الزمان واختلافه .

وجمادى وجمادى ، لجمود الماء فيهما في الزمان الذي سميت به هذه الشهور ، لأنهم لم يعلموا أن الحر والبرد يدوران فتنتقل أوقات ذلك .

ورجب ، لخوفهم اياه ، يقال : رجبت الشيء ، اذا خفته ، وأنشد :

* فلا تهيبها ولا ترجبها *

وشعبان ، لتشعبهم الى مياههم وطلب الغارات .

ورمضان لشدة حر الرمضاء فيه ذلك الوقت . والوجه الآخر أنه اسم من أسماء الله تعالى ذكره ، ولا يجوز أن يقال رمضان ، وانما يقال : شهر رمضان .

وشوال ، لأن الابل كانت تشول في ذلك الوقت بأذنابها من شهوة الضراب ، تشاءمت به العرب ، ولذلك كرهت التزويج فيه .

وذو القعدة ، لقعودهم فيه عن الحرب والغارات .

وذو الحجة ، لأن الحج فيه .

الحرم

والأشهر الحرم هي المحرم ، ورجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة .

شهور الحج

وأشهر الحج شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة ، والأيام المعلومات العشر ، والأيام المعدودات أيام التشريق ، والتعجيل باتفاق غير جائز الا في اليوم الثالث من يوم النحر ، فدل ذلك على أن أولها ثاني يوم النحر ، ولو كان يوم النحر من المعدودات كان يوم التعجيل في ثلاثة أيام .

وهذا خلاف القرآن ، لاخبار الله تعالى أن التعجيل في يومين من المعدودات ، واذا كانت المعدودات ما وصفنا صح أن المعلومات منها ، والذبح في يوم النحر ذبح في المعلومات لكونه منها .

ولا تمانع بين العرب أن يقول القائل « أتيتك في الشهر » ، والاتيان انما كان في بعضه ، و « جئتك في اليوم » والمجيء في بعض أوقاته ، ولا يصام يوم النحر ، ولا يوم الفطر ، ولا أيام منى ، لفرض ولا تطوع ، لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، ولم يخص فرضا من تطوع بالنهي ، فالواجب الامتناع على ما وصفنا .

وقد ذكر عن عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم « نهى عن صيام ثلاثة أيام التشريق » .

وفي جميع ما ذكرنا من المعلومات والمعدودات والصيام في أيام التشريق خلاف بين الناس .

وأيام التشريق أولها ثاني النحر ، وآخرها اليوم الثالث عشر من ذي الحجة الى العصر .

تسمية أيام التشريق

قال المسعودي : وقد اختلف الناس في علة تسميتها أيام التشريق ، وهي أيـام منى ولياليها .

فقالت طائفة : انما سميت أيام التشريق لأنهم كانوا يذبحون الذبائح بمنى ويشرقون اللحم في الشمس .

وقال آخرون : انما سميت أيام التشريق لأن أهل مكة وغيرهم يتشرقون منصرفين الى أوطانهم .

وفيه قول آخر ، وهو أنها انما سميت أيام التشريـق لأنهم كانوا يخرجون بمنى وغيرهـا كالمـزدلفة الى مصليـات لهم في فضاء من الأرض فيسمونها المشارق ، واحدهــا مشراق ، يسبحون ويدعون ، فسميت بذلك أيام التشريق .
وفيه قول آخر ، وهو أن طائفة زعمت أنه مأخوذ من ذبح البهائم ، وهو التشريق ، وقالوا : ان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الضحيـة بالمشرقة ، يعني المشقوقة الأذنين بالطول ، فهي أيام التشريق .

وللناس في التشريق من أهل الآراء والنحل كلام كثير لا يحتمله كتابنا هذا ، وانما ذكرنا ما أوردناه لتغلغل الكلام بنا اليه واتصاله بما قدمناه ، وان كان كلاما يلحق بالفقه .

الايام النحسات

والأيام النحسات : كل أربعاء يوافق أربعا من الشهر ، مثل أربع خلون ، وأربع عشرة خلت ، وأربع عشرة بقيت وأربع وعشرين ، وأربع بقين .

أسماء الأيام عند العرب قديما

وأما أسماء الأيام فأولها الأحد ، وانما سمي بذلك لأنه أول يوم خلقه الله من الزمان ، وبذلك نطقت التوراة ، وقد قدمنا في صدر هذا الكتاب ما في الأيام من بدء الخلق .

والاثنين ، وسمي لأنه ثان .

والثلاثاء ، وسمي لأنه ثالث .

والأربعاء لأنه رابع .

والخميس لأنه خامس .

والجمعة لأن الخلق اجتمعوا فيه .

والسبت لأن الخلق انقطع فيه وخلق في آخره آدم ، وهو مأخوذ من قولهم : نعل سبتية ، اذا كانت مقطوعة الشعر . ويقال : سبت شعره ، اذا قطعه .

وكانت العرب تسميها في الجاهلية : الأحد أول ، والاثنين أهون ، والثلاثاء جبار ، والأربعاء دبار ، والخميس مؤنس ، والجمعة عروبة ، والسبت شيار . . . قال شاعرهم :

أؤمل أن أعيش وأن يومي بأول أو بأهــون أو جبار
أو المــردي دبار فان أفته فمؤنس أو عروبة أو شيار

أسماء الشهور عند العرب

وكانوا يسمون الشهور : المحرم ناتق ، وصفر ثقيل ، ثم طليق ، ناجر ، أسلخ ، أميح ، أحلك ، كسع ، زاهر ، برك ، حرف ، نعس ، وهو ذو الحجة .

الأزمنة الأربعة

وقد اختلف العرب في أسماء الأزمنة الأربعة : فزعمت طائفة منها أن أولها الوسمي ، وهو الخريف ، ثم الشتاء ، ثم الصيف ، ثم القيظ . ومنهم من يعد الأول من فصول السنة الربيع ، وهو الأشهر والأعم ، والعرب تقول : خرفنا في بلد كذا ، وشتونا في بلد كذا ، وتربعنا في بلد كذا ، وصفنا في بلد كذا .

شهور الروم مرسومة على فصول السنة دون شهور العرب

وشهور العرب ليست مرتبة على فصول السنة ، ولا على حساب سنة الشمس ، بل المحرم وغيره من الشهور العربية قد يقع تارة في الربيع وتارة في غيره من فصول السنة .

وشهور الروم مرسومة على ما يوافق فصول السنة التي تقطع فيها الشمس بروج الفلك عن آخرها ، ومقادير أيام كل شهر منها ولياليه في الطول والقصر وظهور ما يظهر فيه من النجوم الثابتة للأبصار واستتار ما يستتر منها على مر الدهور والسنين .

وهي اثنا عشر شهرا على حسب ما ذكرنا أن أولها تشرين الى أيلول ، فكل فصل من السنة أربعة شهور معلومة من هذه الاثني عشر شهرا غير حائلة ولا منتقلة انتقال الشهور العربية .

ولكل برج منها شهر : فأيلول وتشرين وتشرين لسلطان السوداء ، وكانون وكانون وشباط لسلطان البلغم ، وآذار ونيسان وأيار لسلطان الدم ، وحزيران وتموز وآب لسلطان الصفراء .

فأيلول لبرج السنبلة ، وتشرين الأول لبرج الميزان ، وتشرين الآخر لبرج العقرب ، وكانون الأول برجه القوس ، وكانون الآخر برجه الجدي ، وشباط برجه الدلو ، وأذار برجه الحوت ، ونيسان برجه الحمل ، وأيار برجه الثور ، وحزيران برجه الجوزاء ، وتموز برجه السرطان ، وآب برجه الأسد .

قال المسعودي : وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملا من الكلام في الطبائع وفصول السنة ، وما يلائم ذلك من المآكل والمشارب وغير ذلك مما لحق بهذا الباب ، ان شاء الله تعالى ، والله ولي التوفيق .

ذكر قول العرب في ليالي الشهور القمرية وغيرها

كانت العرب تخبر عن القمر في كل ليلة من الشهور على حسب ما هو به من الضياء وغيره على طريق المسألة والجواب ، فتقول : قيل للقمر : ما أنت ابن ليلة ؟

قال : رضاع سخيلة ، حل أهلها برميلة .

قيل : فما أنت لليلتين ؟

قال : حديث أمتين ، ذواتي افك ومين .

قيل : فما أنت لثلاث ؟

قال : حديث فتيات ، يجتمعن من شتات ، وقيل : قليل الثبات .

وقيل : فما أنت لأربع ؟

قال : غنمة ترتع ، غير جائع ولا مرضع .

قيل : فما أنت لخمس ؟

قال : حديث وأنس .

قيل : فما أنت لست ؟

قال : سر وبت .

قيل : فما أنت لسبع ؟

قال : تصفر في الشفع ، وقيل : دلجة الضبع .

قيل : فما أنت لثمان ؟

قال : قمر أصبحان ، وقيل : رغيف اقتسمه أخوان .

قيل : فما أنت لتسع ؟

قال : تلتقط في الجرع .

قيل : فما أنت لعشر ؟

قال : محق للفجر .
قيل : فما أنت لاحدى عشرة ؟
قال : أرى مساء وأرى بكرة .
قيل : فما أنت لاثنتي عشرة ؟
قال : موفق للسير في البدو والحضر .
قيل : فما أنت لثلاث عشرة ؟
قال : قمر باهر ، يعشي عين الناظر .
قيل : فما أنت لأربع عشرة ؟
قال : مقتبل الشباب ، أضيء بين السحاب
قيل : فما أنت لخمس عشرة ؟
قال : تم التمام ، ونفدت الأيام .
قيل : فما أنت لست عشرة ؟
قال : ناقص الخلق ، في الغرب والشرق .
قيل : فما أنت لسبع عشرة ؟
قال : ركب الفقير الفقر .
قيل : فما أنت لثماني عشرة ؟
قال : قليل البقاء ، سريع الفناء .
قيل : فما أنت لتسع عشرة ؟
قال : بطيء الطلوع من الخشوع .
قيل : فما أنت لعشرين ؟
قال : أطلع سحرة ، وأرى بكرة .
قيل : فما أنت لاحدى وعشرين ؟
قال : لا أطيل السرى ، الا ريثما أرى .
قيل : فما أنت لاثنتين وعشرين ؟
قال : مسفع خطب ، وليث حرب .
قيل : فما أنت لثلاث وعشرين ؟
قال : كالقبس ، أطلع في الغلس .
قيل : فما أنت لأربع وعشرين ؟
قال : أطلع في قسمة ولا أجلي ظلمة .

قيل : فما أنت لخمس وعشرين ؟
قال : أنا في تلك الليال ، لا قمر ولا هلال .
قيل : فما أنت لست وعشرين ؟
قال : دنا الأجل ، وانقطع الأمل .
قيل : فما أنت لسبع وعشرين ؟
قال : دنا ما دنا ، فليس في من سنا .
قيل : فما أنت لثمان وعشرين ؟
قال : أطلع بكرا ، ولا أرى ظهرا .
قيل : فما أنت لتسع وعشرين ؟
قال : أسبق شعاع الشمس ، ولا أطيل الجلس .
قيل : فما أنت لثلاثين ؟
قال : هلال مستقبل سريع الأفل .

تقسيم الليالي ثلاثا وثلاثا
واسم كل ثلاث

وكانت العرب تسمي الثلاث الأولى من ليالي الشهر ، فتقول : ثلاث غرر ، والثلاث التي تليها ثلاث سمر ، والثلاث التي تليها ثلاث زهر ، والثلاث التي تليها ثلاث درر ، والثلاث التي تليها ثلاث قمر ، وثلاث بيض .

وتقول في النصف الثاني من الشهر في الثلاث الأول ثلاث درع ، وفي الثلاث التي تليها ثلاث ظلم ، وفي الثلاث التي تليها ثلاث حناديس ، وفي الثلاث التي تليها ثلاث دواري ، وفي الثلاث التي تليها ثلاث محاق .

وقيل في وجه آخر من الروايات انه يقال لليالي الشهر ثلاث هلل ، وثلاث قمر وست نفل وثلاث بيض وثلاث درع ، وثلاث بهم ، وست حناديس ، وليلتان داريتان ، وليلة محاق .

اسماء الهلال والليالي

قال المسعودي : فأما ما ذهب اليه العرب في تسمية القمر فانها تسميه في ليلة طلوعه هلالا ، وما لم يستدر فهو هلال ، ثم تسميه قمرا اذا ما استدار ، واذا ما حجر وأضاء فهو قمير . . . قال شاعرهم :

وقمير بدا ابن خمس وعشريـ ـن له قالت الفتاتان قوما

ثم يستوي لثلاث عشرة منه ، وهي ليلة السواء ، ثم ليلة البدر لأربع عشرة .

ويقال : غلام بدر ، اذا امتلأ شبابا قبل أن يحتلم ، ويقال : عين حدرة بدرة ، اذا كانت حديدة كعين الفرس .

والليالي البيض ليلة ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة ، والليالي الدرع هي التي تسود صدورها وتبيض سائرها .

والمحاق اذا ما طلعت عليه الشمس .

والسواد حين يستتر فيكون خلف الشمس .

ويقال : قد حجر القمر ، اذا استدار بخط رقيق من غير أن يغلظ .

ويقال : أفتق القمر اذا أصابته فرجة من السحاب فخرج وأفتق علينا فأبصرنا الطريق .

وكل سواد من الليل حندس .

والليالي الزهر الليالي البيض ، والزهرة : البياض .

والله الموفق للصواب .

ذكر القول في تأثير النيرين في هذا العالم
وجمل مما قيل في ذلك
وغير ذلك ممّا لحق بهذا الباب

قال المسعودي : ذهب الحكماء جميعا من اليونانيين وغيرهم الى أن أفعال القمر في الجواهر التي قلنا عظيمة ، الا أنها أقصر من أفعال الشمس ، وهو الثاني بعدها . وذلك أن الشهور به تكون ، وعلى حسب حركته يجري أمرها ، وأفعاله ترى أعظم وأبين في حيوان البحر خاصة . وهو ينمي النبات وغيره ، ويعظم البحار ، ويسمن الحيوان ، ويلزم النساء الطمث أزمانا محدودة .

***

تصور الجنين في الرحم

قال المسعودي رحمه الله : وقد تنازع الناس في كيفية تصور الجنين في الرحم :

فذهب قوم من أهل القدم الى أن في المني قوة تصور الجنين اما منه واما من دم الطمث .

وذهب قوم الى أن في الرحم قالبا يتصور فيه الجنين .

وقد ذكر جالينوس في كتابه عن أبقراط أن مقام المني مقام الفاعل والمفعول في تصور الجنين .

وقال صاحب المنطق : ان ذلك بمنزلة الفاعل ، وان الجنين يتصور في دم الطمث من المني .

قال : والمني يعطي الدم مثل الحركة ، ثم يستحيل ريحا فيخرج من الرحم .

وزعم جالينوس أن الجنين يكون من المني ، وقد يجذب اليه الدم ، الذي هو الطمث ، والروح من العروق والشريانات فيكون من المني ، ومن ذلك الدم الذي يجذبه ، ومن الريح الذي تصير اليه من الشريانات .

قال : وكون الجنين بمنزلة كون النبات ، والطبيعة تصوره من المني والدم ، وتفعل الطبيعة في الجنين ما تفعله في النبات .

لأن بزر النبات يحتاج الى أرض لينال منها ما يغتذي به ، فالجنين الى الرحم ، والنبات يرسل عروقه من الأصول ليجذب بها من الأرض غذاءه . . . وللجنين في المشيمة شريانات والعروق نظير لذلك وهي أصول الجنين .

وبزر النبات ينبت منه سوق ، ومن السوق أغصان كبار ، ثم من هذه الأغصان أغصان أخرى تتفرع أولا حتى تنتهي الى الأقاصي . . . ونظير ذلك يوجد في الجنين ، فتجد السوق في بدنه ثلاثة من كل واحد من الأغصان الأصول ، وهي : الشريان الأعظم ، والعرق الأجوف ، والنخاع . ثم تجد كل واحد من هذه تتشعب منه شعب كالأغصان المنقسمة الى أغصان أخر حتى ينتهي الى الأطراف .

ثم قال بعد ذلك : ان المني هو المحرك لنفسه ، وان الجنين يكون من الرجل والمرأة ودم الطمث .

وحكى جالينوس عن أبندقلس أن أجزاء الولد منقسمة في مني الذكر والأنثى ، وأن شهوة الجماع تسوق هذه الأجزاء الى الالتئام . وهذا موجود في كتاب أبندقلس الكبير وفيما ذكره من مذهبه في كيفية تركيب العالم واتصال النفس بعالمها وغير ذلك .

وقد ذهب قوم من أهل القدم الى أن ذلك هو أجزاء تخرج من أعضاء الانسان لطيفة من جنس سائر أعضاء الانسان ، فتنصب في الرحم ، فيتغذى منه وينمو ، فيكون من ذلك الجنين .

الولد يشبه أباه وأهل بيت أبيه

ومنهم من رأى أن هذه الأجزاء الواردة من سائر أعضاء الذكر تقاربها مواد من الرحم ومن ماء المرأة عند اجتمعها فيكون الجنين من ذلك .

فمن ذلك صار الولد يشبه أباه في الأغلب من سائر الأعضاء ويشاكله وأهل بيت أبيه ، ولهذا وقع الشبه بين البنين والآباء في الأغلب من تشابه الأعضاء ، ومن ههنا أدركت القافة إلحاق النسب عند الشبه والشك في النسب ، وذلك على قول من رأى إلحاق النسب بالقيافة

من الفقهاء ، وقد تقدم الكلام في هذا المعنى فيما سلف من هذا الكتاب في باب القيافة .

وللناس في كيفية تصور الجنين في الرحم وما بدؤه وما عنصره وكيفية تقلبه من النطفة الى العلقة ومن العلقة الى المضغة الى استكمال شكله كلام كثير ، منهم أصحاب الاثنين وغيرهم ممن تقدم وتأخر ، أعرضنا عن ذكر ذلك اذ كان فيه خروج عما اليه قصدنا في هذا الباب .

***

قال المسعودي رحمه الله : والذي يقضي على سائر ما تقدم وصفه وينقطع علم العقول عنده ، هو ما أخبره به الباري عز وجل في كتابه بقوله : « هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء ، لا اله الا هو العزيز الحكيم » ، ولم يخبر عن كيفية وقوع ذلك وما سبب مواده ، بل استأثر بعلمه ، وأبدى الدلالة بظهور حكمته دالة على توحيده واتقانه لما اظهر لعباده من حكمته .

ثم أخبر عن المبدأ الذي خلقهم منه فقال ، « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى » ، وقال عز وجل : « يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء الى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .

الاختلاف في تأثير النيرين

قال المسعودي : وللناس ممن سلف من الأوائل وخلف من الشرعيين كلام كثير في كيفية أفعال النيرين وتأثيرهما في هذا العالم ، وما قالوه في ذلك ، وما خصوا به كل واحد منهما وأفردوه ، وما ذهبوا اليه من فعل الثاني منهما وهو القمر ، وما يظهر من تأثيره في الجزر والمد في بحر الصين والهند والحبش واليمن على حسب ما قدمنا في هذا الكتاب .

وكذلك فعله في المعادن وأدمغة الحيوان والبيض وسائر النبات ، وما يظهر من الزيادات فيه عند امتلائه والنقص عند نقصانه ، وما يكون من بحرانات المرضى في اليوم السابع من العلة والرابع عشر والحادي والعشرين والثامن والعشرين ، لأن للقمر أربعة أشكال هي أثبت صوره ، فيه شكل التنصيف ، وشكل التمام ، وشكل التنصيف عن التمام ، وشكل المحاق ، ولكل شكل من هذه سبعة أيام ، لأنه في سبع ليالي يتنصف : وفي الرابعة عشرة يتم ، وفي الحادية والعشرين يتنصف ، وفي الثامنة والعشرين ينمحق ... فكذلك البحرانات .

وعند هذه الطائفة يصح في السابع والرابع عشر والحادي والعشرين والثامن والعشرين ، ويصح أيضا في تنصيفات هذه ، اذ كانت هذه الأشكال أثبت أشكال الشيء المنقسم .

وقد خالف هؤلاء خلق كثير ممن ذهب الى غير هذا القول ، وأن ذلك من قبل الأخلاط وغير ذلك من الطبائع الأربع وغيرها مما قد أتينا على ايضاحه في كتابنا المترجم بكتاب « الزلف » وفي كتاب « المبادي والتراكيب » وغير ذلك في كيفية تأثير الشمس والقمر .

كروية السماء والأرض

وأما الدلائل على أن السماء على مثال الكرة وتدويرها بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة ، وأن الأرض بجميع أجزائها من البر والبحر على مثال الكرة ، وأن كرة الأرض مثبتة في وسط السماء كالمركز ، وقدرها عند قدر السماء قدر النقطة في الدائرة صغرا ، ووصف الربع المسكون من الأرض ، وما يعرض فيه من دور الفلك واختلاف الليل والنهار ، ووصف خواص هذا الربع المسكون من الأرض ، ووصف المواضع التي تطلع الشمس فيها شهورا لا تغرب ، وتغرب شهورا لا تطلع . . . فقد أتينا على وصف جميع ذلك وما اتضح عليه وانتصب من البراهين ، وما قاله الناس في ذلك في كتابنا المترجم بكتاب « أخبار الزمان » ، وما أوضحنا فيه من هيئة الأفلاك والكواكب .

وأن الأرض مع ما وصفنا تدويرها موضوعة في جوف الفلك كالمحة في البيضة ، والنسيم جاذب أيضا لما في أبدان الخلق من الخفة ، والأرض جاذبة لما في أبدانهم من الثقل ، اذ كانت الأرض بمنزلة حجر المغناطيس الذي يجذب بطبعه الحديد ، وأن الأرض مقسومة نصفين ، وبينهما خط الاستواء ، وهو بين المشرق الى المغرب .

وهذا عندهم هو طول الأرض ، لأنه أكبر خط في كرة الأرض ، كما أن منطقة البروج أكبر خط في الفلك ، وعرض الأرض من القطب الجنوبي الى القطب الشمالي الذي تدور حوله بنات نعش .

وأن استدارة الأرض في خط الاستواء ست وثلاثون درجة ، والدرجة خمسة وعشرون فرسخا ، والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع ، والذراع اثنان وأربعون أصبعا ، والأصبع ست حبات وتسعان مصفوفة بعضها الى بعض ، يكون ذلك تسعة آلاف فرسخ .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في باب ذكر الأرض والبحار ومبادىء الأنهار مقدار الميل والذراع الأسود . وانما نذكر في كل موضع من هذا الكتاب ما يسنح لنا ونجده في كتب الناس ، فننقل ذلك عنهم على ما وجدناه في كتبهم ، لا أنا نقطع على صحته ، اذ كان ما

يذهب اليه في مقدار الميل من الأذرع ، والذراع من الأصابع ، هو ما بيناه آنفا في باب ذكر الأرض والبحار .

وبين خط الاستواء وكل واحد من القطبين تسعون درجة ، واستدارتها عرضا مثل ذلك . وزعم هؤلاء أن العمارة في الأرض بعد خط الاستواء أربع وعشرون درجة ، وأن الباقي قد عمه البحر الكبير ، وأن الخلق على الربع الشمالي من الأرض ، والربع الجنوبي خراب لشدة الحر فيه ، والنصف الباقي من الأرض لا ساكن فيه .

وكل ربع من الشمال والجنوب سبعة أقاليم ، وقد ذكرناها فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا الأرض والأقاليم السبعة ، وأن عدد المدن عند صاحب كتاب الجغرافيا أربعة آلاف مدينة ومائتا مدينة ، فأما قبلة أهل المشرق والمغرب والتيمن والجنوبي ، فقد ذكرنا جملا من ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » .

وقد حرر ذلك في كتابه أبو حنيفة الدينوري . وقد سلب ذلك ابن قتيبة ونقله الى كتبه نثلا ، وجعله عن نفسه ، وقد فعل ذلك في كثير من كتب أبي حنيفة الدينورى هذا ، وكان أبو حنيفة هذا ذا محل من العلم كبير .

ولبطليموس في كتاب المجسطي ، وغيره ممن تقدم ، ثم لمن طرأ بعد ظهور الاسلام ـ مثل الكندي ، وابن المنجم ، وأحمد بن الطيب ، وما شاء الله ، وأبي معشر ، والخوارزمي ، ومحمد بن كثير الفرغاني فيما ذكره في كتابه الفصول الثلاثين ، وثابت بن قرة ، والتبريزي ، ومحمد بن جابر البتاني ، وغير هؤلاء ممن قد عني بعلوم الهيئة ـ علوم كثيرة في هذا المعنى ، وانما ننقل من ذلك الى هذا الكتاب لمعا ، طلبا للاختصار والايجاز ، وبالله التوفيق .

ذكر أرباع العالم والطبائع وما خص به كل جزء منه من الشرق والغرب والتيمن والجنوبي والأهوية وغير ذلك من سلطان الكواكب وما لحق بهذا الباب واتصل بهذا المعنى

الطبائع الأربع

قال المسعودي : فأما الطبائع الأربع : فالنار حارة يابسة ، وهي الطبيعة الأولى . والطبيعة الثانية باردة رطبة ، وهي الماء . والطبيعة الثالثة الهواء ، وهو حار رطب . والطبيعة الرابعة الأرض ، وهي باردة يابسة . . . فاثنتان منها تذهبان الصعداء ، وهما النار والهواء . واثنتان ترسخان سفلا ، وهما الأرض والماء .

والعالم أربعة أجزاء :

فالمشرق الربع الأول ، وجميع ما فيه حار رطب مثل الهواء والدم . وهذا الربع ريحه الجنوب ، وله من الساعات الأولى والثانية والثالثة ، وله من قوى البدن قوة الطبيعة الهاضمة ، ومن المذاقات حظه الحلاوة ، وله من الكواكب القمر والزهرة ، وله من البروج الحمل والثور والجوزاء .

وللحكماء في هذا خطب طويل في وصف هذه الأرباع منها جمل فيما مضى وما يأتي .

والمغرب : وهو الربع الثاني ، وجميع ما فيه بارد رطب مثل الماء والبلغم والشتاء . ورياحه الدبور ، وله من الساعات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة ، وله من المذاقات المالح وما شابه ذلك . وله من القوى القوة الدافعة . وله من الكواكب المشتري وعطارد ، ومن البروج الجدي والدلو والحوت .

والجزء الثالث التيمن ، وجميع ما فيه حار يابس مثل المرة الصفراء ، والصيف . وريحه الصبا . وله من الساعات الرابعة والخامسة والسادسة من النهار . وله من قوى البدن القوة النفسانية والحيوانية . وله من المذاقات المرارة . وله من الكواكب المريخ والشمس ، ومن البروج السرطان والسنبلة والميزان .

والجزء الرابع هو الجنوبي وجميع ما فيه بارد يابس ، مثل الأرض والمرة السوداء والخريف . وريحه الشمال . وله من الساعات السابعة والثامنة والتاسعة . وله من قوى البدن القوة الماسكة ، ومن الطعوم والمذاقات العفص . وله من الكواكب زحل ، وله من البروج الميزان والعقرب والقوس .

والأرض بعد ما وصفنا تتهيأ في الهيئة ، وتختلف في التأثير على مقادير الخطوط ، فاذا بعد الخط كان التأثير بخلاف ما هو اذا قرب ، لموجبات متنافية متغايرة .

وأفضل المواضع من المسكون ما تطرح الشمس ضوء شعاعها اليه ، والى الاقليم الرابع ينتهي عند هذه الطائفة شعاعها في صفوه وارتفاع كدره ، لأن شعاع الشمس يهبط متساويا الى هذا الموضع وهو العراق .

***

علة عدم سكنى بعض الأرض

قال المسعودي : والمواضع التي لا تسكن عند هذه الطائفة عدمت السكنى لعلتين :

احداهما افراط الحر ، واحراق الشمس ، وكثرة تواتر شعاعها على تلك الأرضين ، حتى قد جعلتها كلسية وأغاضت مياهها لكثرة التنشيف .

والعلة الأخرى بعد الشمس عن الاقليم وارتفاعها عن حوزاته ، فاكتنف تلك الأرضين البرد ، واستولى عليها القر والجمد ، فزاد افراط البرد في الجو حتى أزال حسن الاعتدال ورفع فضيلة النشف ، فلم تلبث الحرارة في الأجسام ، ولم تظهر الرطوبة في انماء الحيوان هنالك ، فصارت تلك البلاد قاعا صفصفا من الحيوان والنبات .

وهذه البلدان التي نراها مفرطة الحرارة والبرودة هي تناسب ما ذكرنا من هذه الديار البلاقع .

ولهذه الطائفة كلام كثير في فناء العالم ونقصه وعوده جديدا . وذكروا أن السلطان في هذا الوقت السنبلة ، وهو سبعة آلاف سنة ، وذلك عمر هذا العالم البشري ، وقد ساعد السنبلة المشتري في التدبير .

وأن نهاية العالم في كثرة قطع الكوكب المدبر المسافة التامة بالقوى ، فاذا استكمل قطع المسافة التي ذكروها في الفلك ، فهنالك يقع النفاد ويكون الدثور بالعالم .

والكواكب اذا كملت ما لها من كر ودور عاد التدبير الى الأول منها ، وعادت أشخاص كل عالم وصوره مع اجتماع المواد التي كانت له في حال حركة تأثير الكوكب الذي كان التدبير اليه . . . وهكذا عند هؤلاء يجري شأن العالم سرمدا .

مدة سلطان الكواكب

وزعموا أن سلطان الحمل اثنا عشر ألف سنة ، وسلطان الثور احدى عشرة ألف سنة ، وسلطان الجوزاء عشرة آلاف سنة ، وسلطان السرطان تسعة آلاف سنة ، وسلطان الأسد ثمانية آلاف سنة ، وسلطان السنبلة سبعة آلاف سنة ، وسلطان الميزان ستة آلاف سنة ، وسلطان العقرب خمسة آلاف سنة ، وسلطان القوس أربعة آلاف سنة ، وسلطان

الجدي ثلاثة آلاف سنة ، وسلطان الدلو ألفا سنة ، وسلطان الحوت ألف سنة . . . فجميع ذلك ثمانية وسبعون ألف سنة ، وعند ذلك هو انقضاء العالم ونقض ما فيه ورجوعه الى كونه .

وتكلم هؤلاء في الجن الذين كانوا في الأرض قبل خلق الله آدم واستخلافه في الأرض ، وأن المتولي لهم كوكب من الكواكب النارية .

وتكلم كلا الفريقين في أوج الشمس عند انفصالها الى البروج الجنوبية ، وما يحدث في العالم في كون الشمال جنوبا والجنوب شمالا ، وتحول العامر غامرا والغامر عامرا ، على حسب ما ذكرنا في كتابنا المترجم بكتاب « الزلف » .

اجناس الاجسام

وقد ذهب غير هؤلاء ممن تقدم من الأوائل الى أن التي وجدبها سائر الموجودات كالأول والثواني والثوالث على قدر مراتبها في العقل النفس والصورة والهيولى ، وأنها المبادىء على حسب ما رتبناه وقدمناه في كتاب «الزلف» فما عدا ما وصفنا فهي الأجسام. وأجناسها ستة : الجسم السماوي ، والجسم الأرضي ، والحيواني الناطق ، والحيواني غير الناطق ، والنبات ، والأجسام الحجرية ، وهي المعدنية . والأسطقسات الأربعة وهي : النار والهواء والماء والأرض .

وتكلم هؤلاء فيما يخص كل واحد مما ذكرنا مما لا يحتمله كتابنا هذا ، اذ كان فيه خروج عن الغرض الميمم فيه . وقد أتينا على بسط ذلك في كتاب « الرؤوس السبعية ، في باب السياسة المدنية ، وعدد أجزائها وعللها الطبيعية » . وهل ملك تلك المدينة جزء من أجزائها أو من غيرها ؟ واليه نهاية أجزائها على حسب ما ذكره فرفوريوس في كتابه في وصف منازعة أفلاطون وأرسطاطاليس في ذلك .

فأما علة كون الشتاء بأرض الهند في الحالة التي يكون الصيف بها عندنا ، والحالة التي يكون فيها عندنا الشتاء يكون الصيف عندهم ، فقد ذكرنا علة ذلك ووجه البرهان عليه ، وأن ذلك للشمس في قربها وبعدها .

وكذلك علة تكون السودان في بعض البقاع من الأرض دون بعض ، وتفلفل شعورهم ، وغير ذلك من مشهور أوصافهم .

وعلة تكون البيضان في بعض البقاع دون بعض ، وتفطر ألوان الصقالبة وشقرتهم وصهوبة شعورهم .

وما لحق الترك من استرخاء مفاصلهم وتعوج أسواقهم ولين عظامهم ، حتى ان

أحدهم ليرمي بالنشاب من خلف كرميه من قدام ، فيصير وجهه قفاه وقفاه وجهه ، ومطاوعة فقارات الظهور لهم على ذلك ، وكون الحمرة في وجوههم عند تكامل الحرارة في الوجه على الأغلب من كونها وارتفاعها ، لغلبة البرد على أجسامهم .

وقد أتينا بحمد الله على شرح ذلك ، وما انتظم من الدلائل الدالة على مصداق ما ذكرنا فيما سلف من كتبنا في هذه المعاني المقدم ذكرها .

ولم نتعرض لذكر ما لم يصح عندنا في العالم وجوده حسا ولا خبرا قاطعا للعذر ولا دافعا للريب ومزيلا للشك ، كأخبار العامة في كون النسناس ، وأن وجوههم على نصف وجوه الناس ، وأنهم ذوو ألباب ، وقولهم في عنقاء مغرب .

وقد زعـم كثير من الناس أن الحيـوان الناطق ثلاثة أجناس : ناس ، ونسناس ، ونسانس . وهذا محال من القول ، لأن النسناس انما وقع هذا الاسم على السفلة من الناس والرذال ، وقد قال الحسن : ذهب الناس وبقي النسناس ، وقال الشاعر :

ذهـب الناس فاستقلوا ، وصرنا خلفا في أراذل النسناس

أراد به ما وصفنا : أي ذهب الناس وبقي من لا خير فيه .

وقد ذهب كثير من الناس الى أن الجن نوعان : أعلاهم وأشدهم الجن ، وأخفضهم وأضعفهم الحن ، وأنشد الراجز :

* مختلف نجرهم جن وحن *

وهذا التفصيل بين الجنسين من الجن لم يرد به خبر ، ولا صح به أثر ، وانما ذلك من توهم الأعراب على حسب ما بيناه آنفا .

النسناس

وقد غلب على كثير من العوام الأخبار عن معرفة النسناس وصحة وجوده في العالم ، كالأخبار عن وجوده في الصين وغيرها من المالك النائية والأمصار القاصية ، فبعضهم يخبر عن وجودهم في المشرق ، وبعضهم في المغرب ، فأهل المشرق يذكرون كونها بالمغرب ، وأهل المغرب يذكرون أنها بالمشرق . . . وكذلك كل صقع من البلاد يشير سكـانه الى أن النسناس فيما بعد عنهم من البلاد ونأى من الديار .

وقد رووا في ذلك خبرا مخرجه من طريق الآحاد أن ذلك في بلاد حضرموت من أرض

الشحر ، وهو ما ذكره عبد الله بن سعيد بن كثير بن عفير المصري ، عن أبيه ، عن يعقوب ابن الحارث بن نجيم ، عن شبيب بن شيبة بن الحارث التميمي ، قال : قدمت الشحر فنزلت على رأسها ، فتذاكرنا النسناس ، فقال : صيدوا لنا منها .

فلما أن رجعت اليه مع بعض أعوانه المهريين اذ أنا بنسناس منها ، فقال لي النسناس : أنا بالله وبك .

فقلت لهم : خلوه .

فخلوه ، فلما حضر الغداء قال : هل اصطدتم منها شيئا ؟

قالوا : نعم ، ولكن خلاه ضيفك .

قال : استعدوا ، فإنا خارجون في قنصه .

فلما خرجنا الى ذلك في السحر خرج منها واحد يعدو وله وجه كوجه الانسان وشعرات في ذقنه ، ومثل الثدي في صدره ، ومثل رجلي الانسان رجلاه ، وقد ألظ به كلبان ، وهو يقول :

الويل لي مما به دهاني دهري من الهموم والأحزان
قفا قليلا أيها الكلبان واستمعا قولي وصدقاني
انكما حين تحارباني ألفيتماني حضرا عناني
لولا سباتي ما ملكتماني حتى تموتا أو تفارقاني
لست بخوار ولا جبان ولا بنكس رعش الجنان
لكن قضاء الملك الرحمن يذل ذا القوة والسلطان

قال : فالتقيا به فأخذاه ، ويزعمون أنهم ذبحوا منها نسناسا ، فقال قائل منها : سبحان الله ، ما أشد حمرة دمه ، فذبحوه أيضا .

فقال نسناس آخر من شجرة : كان يأكل السماق .

قال : فقالوا نسناس آخر ، خذوه .

فأخذوه وذبحوه .

فقالوا : لو سكت هذا لم يعلم بمكانه .

فقال نسناس من شجرة أخرى . أنا صمت .

قالوا : نسناس ، خذوه .

فأخذوه فذبحوه .

فقال نسناس من شجرة أخرى : يا لسان احفظ رأسك .
فقالوا : نسناس خذوه ، فأخذوه .
وزعم من روى هذا الخبر أن المهرة تصطادها في بلادها وتأكلها .

***

قال المسعودي : ووجدت أهل الشحر من بلاد حضرموت وساحلها ، وهي الأحساء - مدينة على الشاطىء من أرض الأحقاف ، وهي أرض الرمل وغيرها مما اتصل بهذه الديار من أرض اليمن وغيرها من عمان وأرض المهرة - يستطرفون أخبار النسناس اذا ما حدثوها ، ويتعجبون من وصفه ، ويتوهمون أنه ببعض بقاع الأرض مما قد نأى عنهم وبعد ، كسماع غيرهم من أهل البلاد بذلك عنهم .

وهذا يدل على عدم كونه في العالم ، وانما ذلك من هوس العامة واختلاطها ، كما وقع لهم في خبر عنقاء مغرب ، وهذا يدل على عدم كونه في العالم. ، وررووافيه حديثا عزوه الى ابن عباس .

ونحن لم نحل وجود النسناس والعنقاء وغير ذلك مما اتصل به بهذا النوع من الحيوان الغريب النادر في العالم من طريق العقل ، فان ذلك غير ممتنع في القدرة ، ولكن أحلنا ذلك لأن الخبر القاطع للعذر لم يرد بصحة وجود ذلك في العالم ، وهذا باب داخل في حيز الممكن الجائز ، خارج عن باب الممتنع والواجب .

ويحتمل هذه الأنواع من الحيوان النادر ذكرها كالنسناس والعنقاء والعرابد وما اتصل بهذا المعنى أن تكون أنواعا من الحيوان أخرجتها الطبيعة من القوة الى الفعل ولم تحكمه ، ولم يتأت فيه الصنع كتأتيه في غيره من الحيوان ، فبقي شاذا فريدا متوحشا نادرا في العالم طالبا للبقاع النائية من البر مباينا لسائر أنواع الحيوان من الناطقين وغيرهم ، للضدية التي فيه لغيره مما قد أحكمته الطبيعة ، وعدم المشاكلة والمناسبة التي بينه وبين غيره من أجناس الحيوان وأنواعه على حسب ما قدمنا في باب الغيلان فيما سلف من هذا الكتاب . وفي الاكثار من هذا خروج عن الغرض الذي اليه قصدنا في هذا الكتاب .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب من الأخبار عمن زعم ان المتوكل أمر حنين بن اسحاق أو غيره من أهل عصره ممن عني بهذا الشأن من الحكماء ، أن يتأتى له ويحتال في حمل النسناس والعربد من أرض اليمامة ، وأن حنينا حمل له شيئا من ذلك .

وقد أتينا على شرح هذا الخبر فيمن أرسل الى اليمامة في حمل العربد والى بلاد الشحر في حمل النسناس في كتابنا « أخبار الزمان » ، والله تعالى أعلم بصحة هذا الخبر ، وليس لنا في

ذلك الا النقل ، وأن نعزوه الى راويه ، وهو المقلد يعلم ذلك فيا حكاه ورواه ، فننظمه على حسب ما يتأتى لنا نظمه في الموضع المستحق له ، والله ولي التوفيق برحمته .

العنقاء

وأما ما ذكره عن ابن عباس فهو خبر يتصل بخبر خالد بن سنان العبسي ، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب خبر خالد بن سنان العبسي ، وأنه ذكر أنه كان في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، وذكرنا خبره مع النار واطفائه لها .

فلنذكر الآن خبر العنقاء على حسب ما رووه فلا بد من اعادة خبر خالد لذكر العنقاء واتصال الخبرين ، ومخرج هذه الأخبار كلها عن ابن عفير .

حدث الحسن بن ابراهيم قال : حدثنا محمد بن عبد الله المروزي ، قال : حدثنا أسد بن سعيد بن كثير بن عفير ، عن أبيه ، عن جده كثير ، عن جد أبيه عفير ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الله خلق طائرا في الزمان الأول من أحسن الطير ، وجعل فيه من كل حسن قسطا ، وخلق وجهه على مثال وجوه الناس ، وكان في أجنحته كل لون حسن من الريش ، وخلق له أربعة أجنحة من كل جانب منه ، وخلق له يدين فيهما مخالب ، وله منقار على صفة منقار العقاب غليظ الأصل ، وجعل له أنثى على مثاله ، وسماهما بالعنقاء .

« وأوحى الله تعالى الى موسى بن عمران : اني خلقت طائرا عجيبا ، خلقته ذكرا وأنثى ، وجعلت رزقه في وحش بيت المقدس ، وآنستك بهما ، ليكونا مما فضلت به بني اسرائيل .

« فلم يزالا يتناسلان حتى كثر نسلهما ، وأدخل الله موسى وبني اسرائيل في التيه فمكثوا فيه أربعين سنة حتى مات موسى وهارون في التيه وجميع من كان مع موسى من بني اسرائيل ، وكانوا ستمائة ألف ، وخلفهم نسلهم في التيه ، ثم أخرجهم الله تعالى من التيه مع يوشع بن نون تلميذ موسى ووصيه ، فانتقل ذلك الطائر فوقع بنجد والحجاز في بلاد قيس عيلان .

« ولم يزل هنالك يأكل من الوحوش ويأكل الصبيان وغير ذلك من البهائم الى أن ظهر نبي من بني عبس بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم يقال له خالد بن سنان ، فشكا اليه الناس ما كانت العنقاء تفعل بالصبيان ، فدعا الله عليها أن يقطع نسلها فقطع الله نسلها فبقيت صورتها تحكى في البسط وغير ذلك » .

وقد ذهب جماعة من ذوي الروايات الى أن قول الناس في أمثالهم « عنقاء مغرب » انما

هو للأمر العجيب النادر وقوعه ، وقولهم « جاء فلان بعنقاء مغرب » يريدون أنه جاء بأمر عجيب ، قال شاعرهم :

وصبحهم بالجيش عنقاء مغرب

والعنق : السرعة .

خالد بن سنان العبسي

قال ابن عباس : وكان خالد بن سنان نبي بني عبس بشر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما حضرته الوفاة قال لقومه : اذا أنا مت فادفنوني في حقف من هذه الأحقاف ـ وهي تلول عظام من الرمل ـ واحرسوا قبري اياماً ، فاذا رأيتم حمارا أشهب أبتر يدور حول الحقف الذي فيه قبري أياما ، فاجتمعوا ثم انبشوا قبري وأخرجوني الى شفير القبر ، وأحضروا لي كاتبا ومعه ما يكتب فيه حتى أملي عليكم ما يكون وما يحدث الى يوم القيامة .

قال : فرصدوا قبره بعد وفاته ثلاثا ثم ثلاثا ثم ثلاثا ، فاذا بالحمار يرعى حول الحقف قريبا من قبره ، واجتمعوا عليه لينبشوه كما أمرهم ، فحضر ولده وشهروا سيوفهم ، وقالوا : والله لا تركنا أحدا ينبشه ، أتريدون ان نعير بذلك غدا وتقول لنا العرب : هؤلاء ولد المنبوش .؟

فانصرفوا عنه وتركوه .

قال ابن عباس : ووردت ابنة له عجوز قد عمرت على النبي صلى الله عليه وسلم ، فتلقاها بخير وأكرمها وأسلمت ، وقال لها : « مرحبا بابنة نبي ضيعه أهله » .

قال شاعر بني عبس :

بني خالد لو أنكم اذ حضرتم ... نبشتم عن الميت المغيب في القبر
لأبقى عليكم آل عبس ذخيرة ... من العلم لا تبلى على سالف الدهر

خلق الخيل

وقد رويت عن ابن عفير أخبار كثيرة في هذا المعنى وأشباهه من فنون الأخبار من أخبار بني اسرائيل وغيرها .

منها خبر خلق الخيل ، وهو ما حدث به الحسن بن ابراهيم الشعبي القاضي ، قال :

حدثنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله المروزي قال : حدثنا أبو الحارث أسد بن سعيد بن كثير ابن عفير ، عن أبيه ، عن جده كثير ، عن جد أبيه عفير قال : قال عكرمة : أخبرني مولاي ابن عباس ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان الله لما أراد أن يخلق الخيل أوحى الى الريح الجنوبي : اني خالق منك خلقا فاجتمعي ، فاجتمعت ، فأمر جبريل فأخذ منها قبضة . ثم قال الله : هذه قبضتي » .

قال : « ثم خلق الله منها فرسا كميتا ، ثم قال الله : خلقتك فرسا ، وجعلتك عربيا ، وفضلتك على سائر ما خلقته من البهائم بسعة الرزق ، والغنائم تقاد على ظهرك ، والخير معقود بناصيتك .

« ثم أرسله فصهل ، فقال الله : باركت فيك ، بصهيلك أرعب المشركين ، واملأ مسامعهم ، وأزلزل أقدامهم ، ثم وسمه بغرة وتحجيل .

« فلما خلق الله آدم قال : يا آدم ، أخبرني أي الدابتين أحب اليك الفرس أو البراق ؟

« قال : وصورة البراق على صورة البغل ، لا ذكر ولا أنثى ، فقال آدم : يا رب ، اخترت أحسنهما وجها ، فاختار الفرس .

« فقال الله : يا آدم ، اخترت عزك وعز ولدك باقيا ما بقوا وخلدوا » .

قال ابن عباس : فذلك الوسم فيه وفي ولده الى يوم القيامة ... يعني الغرة والتحجيل .

***

قال المسعودي رحمه الله : قد ذكر عيسى بن لهيعة المصري في كتابه المترجم بكتاب « الحلائب والجلائب » وذكره لكل حلبة أجريت فيها الخيل في الجاهلية والاسلام : أن سليمان بن داود زود أناسا من الأزد فرسا يصيدون عليه ، فسمي زاد الراكب ، وكذلك ذكر ابن دريد في كتاب الخيل وغيره .

وللناس في الخيل أخبار عظيمة كثيرة قد أتينا على ذكرها في السالف من كتبنا .

ولولا أن المصنف حاطب ليل لذكره في تصنيفه من كل نوع لما ذكرنا هذه الأخبار ، اذ الناس من أهل العلم والدراية في قبول الأخبار على وجوه .

الكلام على الأخبار

وقد ذهبت طائفة الى أن الأخبار التي تقطع العذر وتوجب العلم والعمل هي أخبار الاستفاضة ، ما رواه الكافة عن الكافة ، وأن ما عدا ذلك فغير واجب قبوله .

وذهب الجمهور من فقهاء الأمصار الى قبول خبر الاستفاضة ، وهو خبر التواتر ، وأنه يوجب العلم والعمل ، وأوجبوا العمل بخبر واحد ، وزعموا أنه موجب للعمل دون العلم بأوصاف ذكروها .

ومن الناس من ذهب الى غير هذه الوجوه في قبول الأخبار من الضرورية وغيرها .

وما ذكرناه من حديث النسناس والعنقاء وخلق الخيل فغير داخل في أخبار التواتر الموجبة للعمل واللاحقة بما أوجب العمل دون العلم ، ولا بالأخبار المضطرة لسامعها الى قبولها عند ورودها واعتقاد صحتها عن مخبرها ، وهذا النوع من الأخبار قد قدمنا أنها في حيز الجائز الممكن الذي ليس بواجب ولا ممتنع ، وهي لاحقة بالاسرائيليات من الأخبار والأخبار من عجائب البحار .

ولولا ما قدمنا آنفا من اشتراطنا على أنفسنا الاختصار والايجاز لذكرنا ما اتصل بهذا المعنى من الأخبار مما رواه أصحاب الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم حملة السنن ونقلة الآثار ، مما لا يتناكرونه ، ويعرفونه ولا يدفعونه . . .

أمثلة من الأخبار

مثل حديث القرد الذي كان في السفينة في عهد بني اسرائيل مع رجل كان يبيع الخمر لأهل السفينة ويشوب الخمر بالماء ، وأنه جمع من ذلك دراهم كثيرة ، وأن القرد قبض على الكيس الذي كانت فيه الدراهم وصعد على الدقل (وهو صاري المركب ويدعى بالعراق الدقل) فحل الكيس ولم يزل يرمي درهما الى الماء ودرهما الى السفينة ، حتى قسم ذلك نصفين .

ومثل ما روى الشعبي عن فاطمة بنت قيس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك قد رواه عن فاطمة بنت قيس عدة من الصحابة ، وهو خبر تميم الداري ، أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر عنه أنه أخبره أنه ركب البحر في جماعة من بني عمه في سفينة ، فأضل بهم البحر وألقاهم الى جزيرة فخرجوا من السفينة الى الجزيرة فنظروا الى دابة عظيمة قد نشرت شعرها ، فقالوا لها : أيتها الدابة ، ما أنت ؟

فقالت : أنا الجساسة التي أخرج آخر الزمان .

وذكروا عنها كلاما غير هذا ، وأنها قالت : عليكم بصاحب القصر ، فنظروا فاذا هم بقصر من حاله ووصفه كذا ، واذا هم برجل بالحديد والقيود مسلسل الى عمود من حديد وصفة وجهه كذا ، وأنه خاطبهم وساءلهم ، وأنه الدجال ، وأنه أخبرهم بجمل من الملاحم ، وأنه لا يدخل مدينة النبي صلى الله عليه وسلم .

وغير ذلك مما ذكر في هذا الحديث ، وغيره مما ورد من الأخبار في معناه . وهذا باب كبير يتسع وصفه ، ويعظم شرحه .

عود الى ذكر أرباع العالم والطبائع

ثم رجع بنا القول الى ما كنا فيه آنفا من ذكر أرباع العالم والطبائع ، وما اتصل بهذا المعنى ، وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب جوامع من الكلام في الطبائع وغيرها مما ينبه على عظم هذا الباب ومبسوطه .

للطعام انهضامات ثلاثة

وقد زعم جماعة ممن تقدم وتأخر من الأطباء ومصنفي الكتب في الطبيعيات وغيرها أن للطعام ثلاثة انهضامات :

أما الأول فهي المعدة ، فان المعدة تهضم الطعام فتأخذ قوته فيصير مثل ماء الكشك ، ثم تدفعه الى الكبد ، ثم يدفعه الكبد في العروق الى جميع الجسد كاندفاع الماء من النهر الى السواقي والمشارب . فتهضمه أعضاء الجسد التالية ، فتصيره الى شبهها : اللحم لحما والشحم شحما ، وكذلك العروق والعصب وما سوى ذلك . وأن أقتارها اذا استوت ، استوت أقدار القوى ، واذا استوت القوى استوى الجسد واعتدل ويصح باذن الله تعالى .

فصول السنة وأثر كل منها

وأن الزمان أربعة فصول الصيف ، والخريف ، والشتاء ، والربيع : فالصيف يقوي المرة الصفراء ويكثر اهتياجها ، والخريف يقوي السوداء ، والشتاء يقوي البلغم ، والربيع يقوي الدم .

ثم ينقسم عمر الانسان أربعة أقسام : الصبا وفيه يقوى الدم والشباب ، وفيه تقوى المرة الصفراء ، والكهولة وفيها تقوى السوداء ، والشيخوخة وفيها يقوى البلغم .

وأن البلدان أيضا تنقسم على أربعة أقسام : المشرق وطبيعته الحرارة والرطوبة ، وفيه يقوى الدم . والجنوب وطبيعته البرودة واليبس ، وفيه تقوى المرة السوداء . والغرب وطبيعته البرودة والرطوبة وفيه يقوى البلغم . والتيمن وطبيعته الحرارة واليبس ، وفيه تقوى المرة الصفراء .

وأن بنية الأصول من الجسد ربما كانت مستوية معتدلة الأخلاط ، وربما كان أحد الأخلاط أغلب في البنية فتظهر قوته بأعلامهم حتى يكون مقويا لذلك الخلط اذا هاج .

وقد قال أبقراط : ينبغي أن يكون كل شيء في هذا العالم مقدرا على سبعة أجزاء ، فالنجوم سبعة ، والأقاليم سبعة ، والأيام سبعة ، وأسنان الناس سبعة : أولها طفل ، ثم

صبي الى أربع عشرة سنة ، ثم غلام الى احدى وعشرين سنة ، ثم شاب ما دام يشب ويقبل الزيادة الى خمس وثلاثين سنة ، ثم كهل الى الأربعين ، ثم شيخ الى سبع وأربعين سنة ، ثم هرم الى آخر العمر .

الهواء وأثره على الانسان والحيوان

وجميع تغير أحوال الحيوان من الناطقين وغيرهم فمن الهواء يكون ذلك .

وقد قال الحكيم أبقراط : ان تغير حالات الهواء هو الذي يغير حالات الناس : مرة الى الغضب ، ومرة الى السكون ، والى الهم والسرور وغير ذلك . واذا استوت حالات الهواء استوت حالات الناس وأخلاقهم .

وقال : ان قوى النفس تابعة لمزاجات الأبدان ، ومزاجات الأبدان تابعة لتصرف الهواء : اذا برد مرة وسخن أخرى خرج الزرع مرة نضيجا ومرة غير نضيج ، ومرة قليلا ومرة كثيرا ، ومرة حارا ومرة باردا ، فتتغير لذلك صورهم ومزاجاتهم ، واذا اعتدل الهواء واستوى خرج الزرع معتدلا ، فاعتدل بذلك الصور والمزاجات .

الاستدلال بالاقاليم على تأثير الهواء

فأما علة تشابه صور الترك فانه لما استوى هواء بلدانهم في البرد استوت صورهم وتشابهت ، وكذلك أهل مصر لما استوت أهواؤهم تشابهت صورهم ، ولما كان الغالب على هواء الترك البرد وعجزت الحرارة عن تنشيف رطوبات أبدانهم ، كثرت شحومهم ، ولانت أبدانهم ، وتشبهوا بالنساء في كثير من أخلاقهم ، فضعفت شهوة الجماع فيهم ، وقل ولدهم ، لبرد مزاجهم ، وللرطوبة الغالبة عليهم . وقد يكون ضعف الشهوة أيضا لكثرة ركوب الخيل .

وكذلك نساؤهم : لما سمنت أبدانهن ورطبت ضعفت أرحامهن عن جذب الزرع اليها .

وأما حمرة ألوانهم فللبرد كما ذكرنا ، لأن البياض اذا ألحت عليه البرودة صار الى الحمرة ، وبيان ذلك أن أطراف الأصابع والشفة والانف اذا أصابها برد شديد احمرت .

وذكر الحكيم أبقراط أن في بعض البلدان من الجنوب بلدة كثيرة الأمطار كثيرة النبات والعشب ، وأن أشجارها ذاهبة في الهواء ، ومياهها عذبة ودوابها عظيمة ، وهي مخصبة ، لأن تلك البلاد لم يلحقها حر الشمس ، ولم يلحقها يبس البرد ، فأجسام أهلها عظيمة ، وصورهم جميلة ، وأخلاقهم كريمة . فهم ـ في صورهم وقاماتهم واعتدال طبائعهم ـ يشبهون باعتدال زمان الربيع ، غير أنهم أصحاب دعة لا يحتملون الشدائد والكد .

وقال أبقراط في معنى ما وصفنا وما اليه قصدنا ، من بيان الأهوية وتأثيرها في الحيوان والنبات : ان الروح المطبوعة فيها هي التي تجذب الهواء الينا ، وان الرياح تقلب الحيوان من حال الى حال ، وتصرفه من حر الى برد ، ومن يبس الى رطوبة ، ومن سرور الى حزن ، وكما تغير ما في البيوت من بزر أو عسل أو فضة أو شراب أو سمن فتسخنها مرة وتبردها أخرى وترطبها مرة وتيبسها أخرى .

وعلة ذلك أن الشمس والكواكب تغير الهواء بحركاتها ، واذا تغير الهواء تغير بتغيره كل شيء ، فمن تقدم وعرف أحوال الأزمنة وتغيرها والدلائل التي فيها عرف السبب الأعظم من أسباب العلم ، وتقدم في حفظ صحة الأبدان .

أثر الجنوب

وقال أيضا : ان الجنوب اذا هبت أذابت الهواء وبردته ، وسخنت البحار والأنهار ، وكل شيء فيه رطوبة ، وتغير لون كل شيء وحالاته ، وهي ترخي الأبدان والعصب ، وتورث الكسل ، وتحدث ثقلا في السماع ، وغشاوة في البصر لأنها تحلل المرة ، وتنزل الرطوبة الى أصل العصب الذي يكون فيه الحس .

أثر الشمال

وأما الشمال فانها تصلب الأبدان ، وتصح الأدمغة ، وتحسن اللون ، وتصفي الحواس ، وتقوي الشهوة والحركة ، غير أنها تحرك السعال ووجع الصدر .

وقد زعم بعض من تأخر في الاسلام من الحكماء أن الجنوب اذا هب بأرض العراق تغير الورد ، وتناثر الورق ، وتشقق القنبيط ، وسخن الماء ، واسترخت الأبدان ، وتكدر الهواء .

قال : وذلك شبه ما قاله أبقراط : ان الصيف أوبأ من الشتاء ، لأنه يسخن الأبدان فيرخيها ويضعف قواها ، وان أهل العراق يكون الرجل منهم نائما في فراشه فيحس بهبوبها ، وانه اذا هبت الشمال برد الخاتم في اصبعه واتسع لانضمام البدن بها ، واذا هبت الجنوب سخن الخاتم وضاق ، واسترخى البدن ، وحدث فيه الكسل ، وهذا يجده سائر من بالعراق ممن له حس ، اذا صرف همته الى تأمل الأمصار في بقاع الأرض والبلدان ، وان كان ذلك بالعراق أظهر لعموم الاعتدال .

الرياح الأربع

ثم قال الحكيم أبقراط في معنى ما ذكرناه : ان الرياح العامة أربعة : احداها تهب من جهة المشرق ، وهي القبول ، والثانية من المغرب ، وهي الدبور ، والثالثة من التيمن ،

وهي الجنوب ، والرابعة من التيسر ، وهي الشمال .

فأما الريح التي تهب في بلد دون بلد فانها تسمى الريح البلدية .

***

مساحات الممالك وما بينها من المسافة

قال المسعودي : وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب جوامع من الأخبار عن الأرض والبحار ، وكثير من الممالك والبلدان ، وذكرنا في هذا الكتاب جوامع من الأخبار من الطبائع والاهوية والبلدان ، وأرباع الأرض من العامر والغامر ، وغير ذلك مما تقدم ذكره وانتظم تصنيفه واتسق بحمد الله ايراده ، فرأينا أن نختم هذا الباب بجوامع من مساحات الممالك ، وما بينها من البعد والقرب ، على حسب ما حكاه الفزاري صاحب كتاب الزيج والقصيدة في هيئة النجوم والفلك . . .

زعم الفزاري أن عمل أمير المؤمنين من فرغانة وأقصى خراسان الى طنجة بالمغرب ثلاثة آلاف وسبعمائة فرسخ ، والعرض من باب الأبواب الى جدة ستمائة فرسخ ، ومن الباب الى بغداد ثلثمائة فرسخ ، ومن مكة الى جدة اثنان وثلاثون ميلا .

عمل الصين من المشرق أحد وثلاثون ألف فرسخ في أحد عشر ألف فرسخ .

عمل الهند في المشرق أحد عشر ألف فرسخ في سبعة آلاف فرسخ .

عمل التبت خمسمائة فرسخ في مائتين وثلاثين فرسخا .

عمل كابلشاه أربعمائة فرسخ في ستين فرسخا .

عمل التغرغر بالترك ألف فرسخ في خمسمائة فرسخ .

عمل الترك لخاقان سبعمائة فرسخ في خمسمائة فرسخ .

عمل الخزر واللان سبعمائة فرسخ في خمسمائة فرسخ .

عمل برجان ألف وخمسمائة فرسخ في ثلثمائة فرسخ .

عمل الصقالبة ثلاثة آلاف وخمسمائة فرسخ في أربعمائة فرسخ وعشرين فرسخا .

عمل الروم بقسطنطينية خمسة آلاف فرسخ في أربعمائة وعشرين فرسخا .

عمل رومية بالروم ثلاثة آلاف فرسخ في سبعمائة فرسخ .

عمل الأندلس لعبد الرحمن بن معاوية ثلثمائة فرسخ في ثمانين فرسخا .

عمل ادريس الفاطمي ألف ومائتا فرسخ في مائة وعشرين فرسخا .

عمل ساحل سلجماسة لبني المنتصر أربعمائة فرسخ في ثمانين فرسخا .

عمل أنبيه ألفان وخمسمائة فرسخ في ستمائة فرسخ .

عمل غانة بلاد الذهب ألف فرسخ في ثمانين فرسخا .
عمل ورام مائتا فرسخ في ثمانين فرسخا .
عمل نخلة مائة فرسخ وعشرون فرسخا في ستين فرسخا .
عمل واح ستون فرسخا في أربعين فرسخا .
عمل البجة مائتا فرسخ في ثمانين فرسخا .
عمل النجاشي ألف وخمسمائة فرسخ في أربعمائة فرسخ .
عمل الزنج بالمشرق سبعة آلاف وستمائة فرسخ في خمسمائة فرسخ .
عمل أسطولا لأحمد بن المنتصر أربعمائة فرسخ في مائتين وخمسين فرسخا .

فذلك الطول اثنان وسبعون ألفا وأربعمائة وثمانون فرسخا ، والعرض خمسة وعشرون ألف ومائتان وخمسون فرسخا .

وأما الكلام في وصف أصول الطب ، وهل ذلك مأخوذ من طريق الرياضة والقياس أم غيره ، ووصف تنازع الناس في ذلك ، فلم نتعرض لايراده في هذا الباب ، وان كان متعلقا ومتصلا بالكلام في الطبائع وجمل المعاني المذكورة في هذا الباب ، لأنا قد أوردناه فيما يرد من هذا الكتاب في أخبار الواثق على ايضاح جرى بحضرته ، وقد حضر مجلسه حنين بن اسحاق وابن ماسويه وبختشيوع وميخائيل ، وغيرهم من الفلاسفة والمتطببين ، فأغنى ذلك عن ايراده في هذا الباب .

ولولا أن الكتاب يرد على أغراض مختلفة من الناس لما هم عليه من اختلاف الطبائع والتباين في المراد ، لما ذكرنا بعض ما نورد فيه من أنواع العلوم وفنون الأخبار ، وقد يلحق الانسان الملل لقراءته ما لا تهوى نفسه فينتقل منه الى غيره ، فجمعنا فيه من سائر ما يحتاج الناس من ذوي المعرفة الى علمه . ولما تغلغل بنا الكلام في نظمه وتشعبه واتصاله بغيره من المعاني مما لم يتقدم ذكره .

وقد أتينا على مبسوط سائر ما ذكرناه على الاتساع والايضاح في كتابنا « أخبار الزمان » وفي الكتاب الأوسط ، والله تعالى أعلم .

ذِكرُ البيُوت المعظمَة وَالهيَاكل المشرّفَة وَبيُوت النّيران وَالأصْنَام وَذِكر الكوَاكب وَغَير ذَلك مِن عجَائب الدّنيَا

عبادة الهند واتخاذهم الأصنام

قال المسعودي : كان كثير من أهل الهند والصين وغيرهم من الطوائف يعتقدون أن الله عز وجل جسم ، وأن الملائكة أجسام لها أقدار ، وأن الله تعالى وملائكته احتجبوا بالسماء ، فدعاهم ذلك الى أن اتخذوا تماثيل وأصناما على صورة الباري عز وجل ، وبعضها على صورة الملائكة ، مختلفة القدود والأشكال ، ومنها على صورة الانسان وعلى خلافها من الصور ، يعبدونها ، وقربوا لها القرابين ، ونذروا لها النذور ، لشبهها عندهم بالباري وقربها منه .

عبادتهم الكواكب واتخاذهم اصناما لها

وأقاموا على ذلك برهة من الزمان وجملة من الأعصار ، حتى نبههم بعض حكمائهم على أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية الى الله تعالى ، وأنها حية ناطقة ، وأن الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله ، وأن كل ما يحدث في هذا العالم فانما هو على قدر ما تجري به الكواكب عن أمر الله . فعظموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم ، فمكثوا على ذلك دهرا .

فلما رأوا الكواكب تخفي بالنهار وفي بعض أوقات الليل لما يعرض في الجو من السواتر ، أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا لها أصناما وتماثيل على صورها وأشكالها ، فجعلوا لها أصناما وتماثيل بعدد الكواكب الكبار المشهورة .

وكل صنف منهم يعظم كوكبا منها ، ويقرب لها نوعا من القربان خلاف ما للآخر ، على أنهم اذا عظموا ما صوروا من الأصنام تحركت لهم الأجسام العلوية من السبعة بكل ما يريدون وبنوا لكل صنم بيتا وهيكلا مفردا ، وسموا تلك الهياكل بأسماء تلك الكواكب .

وقد ذهب قوم الى أن البيت الحرام هو بيت زحل ، وانما طال عندهم بقاء هذا البيت على مرور الدهور معظما في سائر الأعصار لأنه بيت زحل ، وأن زحل تولاه ، لأن زحل من شأنه البقاء والثبوت ، فما كان له فغير زائل ولا دائر ، وعن التنظيم غير حائل ، وذكروا أمورا أعرضنا عن ذكرها لشناعة وصفها .

بوداسف أول الصابئة

ولما طال عليهم العهد عبدوا الأصنام على أنها تقربهم الى الله ، وألفوا عبادة الكواكب ، فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر بوداسف بأرض الهند ، وكان هنديا .

وقد كان بوداسف خرج من أرض الهند الى السند ، ثم سار الى بلاد سجستان وبلاد زابلستان ، وهي بلاد فيروز بن كبك ، ثم دخل السند ، ثم الى كرمان ، فتنبأ وزعم أنه رسول الله وأنه واسطة بين الله وبين خلقه ، وأتى أرض فارس ، وذلك في أوائل ملك طهمورث ملك فارس .

وقيل : ذلك في ملك جم . وهو أول من أظهر مذاهب الصابئة على حسب ما قدمنا آنفا فيا سلف من هذا الكتاب .

وقد كان بوداسف أمر الناس بالزهد في هذا العالم والاشتغال بما علا من العوالم ، اذ كان من هنالك بدء النفوس ، واليها يقع الصدر من هذا العالم .

وجدد بوداسف عند الناس عبادة الأصنام ، والسجود لها ، لشبه ذكرهـا ، وقرب لعقولهم عبادتها بضروب من الحيل والخدع .

جم أول من دعا الى عبادة النار

وذكر ذوو الخبرة بشأن هذا العالم وأخبار ملوكهم أن جم الملك أول من عظم النار ، ودعا الناس الى تعظيمهـا ، وقال : انها تشبه ضوء الشمس والكواكـب ، لأن النور عنده أفضل من الظلمة ، وجعل للنور مراتب .

ثم تنازع هؤلاء بعده ، فعظم كل فريق منهم ما يرون تعظيمه من الأسماء تقربا الى الله بذلك ثم تنازعوا برهة من الزمان .

عمرو بن لحي اظهر الأصنام بمكة

ونشأ عمرو بن لحي فساد قومه بمكة ، واستولى على أمر البيت ، ثم سار الى مدينة البلقاء من عمل دمشق بأرض الشام ، فرأى قوما يعبدون الأصنام ، فسألهم عنها ، فقالوا : هذه أرباب نتخذها ، نستنصر بها فننصر ، ونستسقي بها فنسقى ، وكل ما نسألهم نعطى . فطلب منهم صنما يدعونه هبل ، فسار به الى مكة ونصبه على الكعبة ومعه اساف ونائلة ، ودعا الناس الى تعظيمها وعبادتها ، ففعلوا ذلك . . . الى أن أظهر الله الاسلام وبعث محمدا عليه السلام ، فطهر البلاد ، وأنقذ العباد .

البيت الحرام

وقد قال هؤلاء : ان البيـت الحرام من البيـوت السبعـة المعـظمة المتخذة على أسماء الكواكب من النيرين والخمسة .

بيت للمجوس بأصبهان

وبيت ثان معظم على رأس جبل بأصبهان يقال له مارس ، وكانت فيه أصنام الى أن أخرجهـا منه يستاسف الملك لما تمجس وجعلـه بيـت ناره ، وذلك على ثلاثة فراسخ من

أصبهان ، وهذا البيت معظم عند المجوس الى هذه الغاية .

بيت بالهند

والبيت الثالث يدعى مندوسان ببلاد الهند . وهذا البيت تعظمه الهند ، وله قرابين تقرب ، وفيه أحجار المغناطيس الجاذبة والدافعة والمنفرة من أوصاف لا يسعنا الاخبار عنها ، فمن أراد أن يبحث عن ذكرها فليبحث ، فانه بيت مشهور ببلاد الهند .

بيت البرامكة ببلخ

والبيت الرابع هو النوبهار الذي بناه منوشهر بمدينة بلخ من خراسان على اسم القمر ، وكان من يلي سدانته تعظمه الملوك في ذلك الصقع ، وتنقاد الى أمره وترجع الى حكمه ، وتحمل اليه الأموال ، وكانت عليه وقوف .

وكان الموكل بسدانته يدعى البرمك . وهو سمة عامة لكل من يلي سدانته ، ومن أجل ذلك سميت البرامكة ، لأن خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت .

وكان بنيان هذا البيت من أعلى البنيان تشييدا ، وكان تنصب على أعلاه الرماح عليها شقاق الحرير الأخضر طول الشقة مائة ذراع فما دونها ، قد نصب لذلك رماح وخشب تدفع قوة الريح بما عليها من الحرير ، فيقال والله اعلم : ان الريح خطفت يوما بعض تلك الشقاق ورمت به ، فأصيب على مسافة خمسين فرسخا ، وقيل أكثر من تلك المسافة . وهذا يدل على زيادته في الجو وتشييد بنيانه .

وكان الحيز المحيط بهذا البنيان أميالا لم نذكرها ، اذ كان أمر ذلك مشهورا من وصف علو السور وعرضه .

قال المسعودي : وقد ذكر بعض أهل الرواية والتنقير أنه قرأ على باب النوبهار ببلخ كتابا بالفارسية ترجمته : « قال بوداسف : أبواب الملوك تحتاج الى ثلاث خصال : عقل ، وصبر ، ومال » . واذا تحته بالعربية : « كذب بوداسف ، الواجب على الحر اذا كان معه واحدة من هذه الثلاث الخصال الا يلزم باب السلطان » .

غمدان بصنعاء

والبيت الخامس بيت غمدان الذي بمدينة صنعاء من بلاد اليمن ، وكان الضحاك بناه على اسم الزهرة ، وخربه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فهو في وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) خراب قد هدم فصار تلا عظيما .

وقد كان الوزير علي بن عيسى بن الجراح ـ حين نفي الى اليمن وصار الى صنعاء ـ بنى فيه سقاية وحفر فيه بئرا .

ورأيت غمدان ردما وتلا عظيما قد انهدم بنيانه ، وصار جبل تراب كأنه لم يكن .

وقد كان أسعد بن يعفر صاحب قلعة كحلان النازل بها وصاحب مخاليف اليمن في هذا الوقت ، وهو المعظم في اليمن ، أراد أن يبني غمدان ، فأشار عليه يحيى بن الحسين الحسني ألا يتعرض لشيء من ذلك ، اذ كان بناؤه على يدي غلام يخرج من أرض سبأ وأرض مأرب يؤثر في صقع من هذا العالم تأثيرا عظيما .

وقد ذكر هذا البيت جد أمية بن أبي الصلت ـ وقيل : هو أبو الصلت ـ أمية ، واسمه ربيعة ، في مدحه لسيف بن ذي يزن ، وقيل : ان الممدوح بهذا الشعر معد يكرب بن سيف حين يقول :

اشرب هنيئاعليـك التاج مرتفقا — برأس غمدان دارامنك محلالا

وكان أبو أمية جاهليا ، وهو القائل في أصحاب الفيل :

ان آيـات ربنا بينات — ما يماري بهن الا كفور
غلـب الفيـل بالمغمس حتى — ظل يحبو كأنه معقور
حولـه من شباب كندة فتيا — ن ملاويـث في الحروب صقور
واضعـا خلفـه الجـرار كما قطر — صخر من جانب محدور

وقد قيل : ان ملوك اليمن كانوا اذا قعـدوا في أعلى هذا البنيـان بالليـل واشتعلـت الشموع رأى الناس ذلك من مسيرة ثلاثة أيام .

بيت بفرغانة بخراسان

والبيت السادس كاوسان ، بناه كاوس الملك بناء عجيبا على اسم المدبر الأعظم من الأجسام السماوية وهـو الشمس ، بمدينة فرغـانة من مدائن خراسان ، وخربه المعتصم بالله ، ولهدمه هذا البيت خبر طريف قد أتينا على ذكره في كتاب « أخبار الزمان » .

بيت بالصين

والبيت السابع بأعالي بلاد الصين ، بناه ولد عامور بن سوبل بن يافث بن نوح ، وأفرده للعلة الأولى ، اذ كان منشأ هذا الملك ومبدأه وباعث الأنوار اليه .

وقيل : انما بناه بعض ملوك الترك في قديم الزمان ، وجعله سبعة أبيات ، في كل بيت

منها سبع كوى ، يقابل كل كوة صورة منصوبة على صورة كوكب من الخمسة ، والنيرين من أنواع الجواهر المضافة الى تأثير تلك الكواكب ، من ياقوت أو عقيق أو زمرد على اختلاف ألوان الجواهر .

ولهم في هذا الهيكل سر يسرونه في بلاد الصين ، بما قد زخرف لهم فيه القول وزينه لهم الشيطان .

ولهم في هذا الهيكل علوم في اتصال الأجسام السماوية وأفعالها بعالم الكون الذي تحدثه ، وما يحدث فيه من الحركات والأفعال عند تحرك الأجسام السماوية .

وقد قرب ذلك الى عقولهم : بأن جعل لهم مثالا من الشاهد يدل على ما غاب عنهم من فعل الأجسام السماوية في هذا العالم ، وهو خشب الديباج الذي ينسج به ، فبضرب من حركات الصانع بذلك الخشب والخيوط الابريسم تحدث ضروب من الحركات. فاذا اتصلت افعاله وتواترت حركاته من النسج للثوب الديباج تمت الصورة فيه ، فبضرب من الحركات يظهر جناح طائر وبآخر رأسه ، وبآخر رجلاه . . . فلا يزال كذلك حتى تتم الصورة على حسب مراد الصانع لها .

فجعلوا هذا المثال واتصال الابريسم بآلة النسج وما يحدثه الصانع في ذلك من الأفعال مثالا لما ذكرنا من الكواكب العلوية ، وهي الأجسام السماوية : فبضرب من الحركات ظهر في العالم الطائر ، وبضرب آخر بيضة ، وبضرب آخر فرخ . . . وكذلك سائر ما يحدث في العالم ، ويسكن ويتحرك ويوجد ويعدم ، ويتصل وينفصل ، ويجتمع ويفترق ، ويزيد وينقص ، من جماد أو نبات او حيوان ناطق أو غير ناطق ، فانما يحدث عن حركات الكواكب على حسب ما وصفنا من نسج الديباج وغيره من الصنائع .

وأهل صناعة النجوم لا يتناكرون أن يقولوا : أعطته الزهرة كذا ، وأعطاه المريخ كذا ، كالشقرة وصهوبة الشعر ، وأعطاه زحل خفة العارضين وجحوظ العينين ، وأعطاه عطارد دقة الصنعة ،واعطاه المشتري الحياء والعلم والدين ، وأعطته الشمس كذا ، وأعطاه القمر كذا .

وهذا باب يكثر القول فيه ويتسع وصف مذاهب الناس فيه ، وما قالوه في بابه .

ذكر البيوت المعظمة عند اليونانيين

البيوت المضاف بناؤها الى من سلف من اليونانيين ثلاثة بيوت :

بيت انطاكية

فبيت منها كان بأنطاكية من أرض الشام ، على جبل بها داخل المدينة ، والسور محيط

بها ، وقد جعل المسلمون في موضعه مرقبا لينذرهم من قد رتب فيه من الرجال بآلروم اذا وردوا من البر والبحر ، وكانوا يعظمونه ، ويقربون فيه القرابين ، فخرب عند مجيء الاسلام .

وقد قيل : ان قسطنطين الأكبر بن هيلاني الملكة المظهرة لدين النصرانية هو المخرب لهذا البيت ، وكانت فيه الأصنام والتماثيل من الذهب والفضة وأنواع الجواهر .

وقد قيل : ان هذا البيت هو بيت بمدينة أنطاكية على يسرة الجامع اليوم ، وكان هيكلا عظيما .

والصابئة تزعم أن الذي بناه هو سقلابيوس ، وهو في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) سوق يعرف بسوق الجزارين . وقد كان ثابت بن قرة بن كراني الصابىء الحراني ـ حين اوفى المعتضد بالله في سنة تسع وثمانين ومائتين في طلب وصيف الخادم ـ أتى هذا الهيكل وعظمه ، وأخبر من شأنه ما وصفنا .

الأهرام بمصر

والبيت الثاني من بيوت اليونانيين هو بعض تلك الأهرام التي ببلاد مصر ، وهو يرى من الفسطاط على أميال منها .

بيت المقدس

والبيت الثالث هو بيت المقدس ، على ما زعم القوم . وأهل الشريعة انما تخبر أن داود عليه السلام بناه ، وأتمه سليمان بعد وفاة أبيه .

والمجوس تزعم أن الذي بناه الضحاك ، وأنه سيكون له في المستقبل من الزمان خطب طويل ، ويقعد فيه ملك عظيم ، وذلك عند ظهور شوبين على بقرة من صفتها كذا ، ومعه من الناس كذا من العدد . . . وأقاصيص تدعيها المجوس في هذا المعنى ، واختلاط طويل ننزه كتابنا عن ذكره ، والله تعالى ولي التوفيق .

ذكر البيوت المعظمة عند أوائل الروم

بيت قرطاجنة

كانت البيوت المعظمة عند أوائل الروم قبل ظهور دين النصرانية بيت ببلاد المغرب بمدينة قرطاجنة ـ وهي تونس ـ من وراء بلاد القيروان ، وهي من أرض الافرنجة ، وبني على اسم الزهرة بأنواع من الرخام .

بيت بافرنجة

والبيت الثاني بافرنجة ، وهو بيت عظيم عندهم .

بيت مقدونية

والبيت الثالث عندهم بمقدونية ، وأمره مشهور في التشييد ، وما كان من خبره بمقدونية ، وقد أتينا على أخباره وأخبار غيره فيما سلف من كتبنا ، والله تعالى أعلم .

ذكر البيوت المعظمة عند الصقالبة

البيت الأول

كانت في ديار الصقالبة بيوت تعظمها : منها بيت كان لهم في الجبل الذي ذكرت الفلاسفة أنه أحد جبال العالم العالية .

وهذا البيت له خبر في كيفية بنائه ، وترتيب أنواع أحجاره ، واختلاف ألوانه ، والمخاريق المصنوعة له ، فيه على أعلاه ، وما من مطلع الشمس في تلك المخاريق المصنوعة ، وما أودع فيه من الجواهر والآثار المرسومة فيه الدالة على الكائنات المستقبلة ، وما تنذر به تلك الجواهر من الأحداث قبل كونها ، وظهور أصوات من أعاليه لهم ، وما كان يلحقهم عند سماع ذلك . .

البيت الثاني

وبيت اتخذه بعض ملوكهم على الجبل الأسود ، تحيط به مياه عجيبة ذوات ألوان وطعوم مختلفة عامة المنافع . وكان لهم فيه صنم عظيم على صورة رجل قد انحنى على نفسه . وهو شيخ بيده عصا يحرك بها عظام الموتى من النواويس ، وتحت رجله اليمنى صور أنواع من النمل ، وتحت الأخرى غرابيب سود من صور الغداف وغيرها ، وصور عجيبة لأنواع من الأحابيش والزنج .

البيت الثالث

وبيت آخر على جبل لهم يحيط به خليج من البحر قد بني بأحجار المرجان الأحمر ، وأحجار الزمرد الأخضر ، في وسطه قبة عظيمة ، تحتها صنم عظيم أعضاؤه من جواهر أربعة : زمرد أخضر ، وياقوت أحمر ، وعقيق أصفر ، وبلور أبيض ، ورأسه من الذهب الأحمر ، وبازائه صنم آخر على صورة جارية ، وكان يقرب له قرابين ودخن ، وكان ينسب هذا البيت الى حكيم كان لهم في قديم الزمان .

وقد أتينا على خبره ، وما كان من أمره بأرض الصقالبة ، وما أحدث فيهم من الذكوك والحيل والمخاريق المصطنعة التي اجتذب بها قلوبهم ، وملك نفوسهم ، واسترق بها عقولهم ، مع شراسة أخلاق الصقالبة واختلاف طبائعهم ، فيما سلف من كتبنا ، والله تعالى ولي التوفيق .

ذكر البيوت المعظمة والهياكل المشرفة للصابئة وغيرها وغير ذلك مما لحق بهذا الباب واتصل بهذا المعنى

هيكل العقل والعلة الأولى

للصابئة من الحرانيين هياكل على أسماء الجواهر العقلية والكواكب ، فمن ذلك هيكل العلة الأولى ، وهيكل العقل ، وما أدري أأشاروا الى العقل الأول أم الثاني .

وقد ذكر صاحب المنطق في كتابه في المقالة الثالثة من كتاب النفس العقل الأول الفعال ، والعقل الثاني ، وذكر ذلك تامسطيس في كتابه في شرح كتاب النفس الذي عمله صاحب المنطق ، وقد ذكر العقل الأول والثاني الاسكندر الأفرودسي في مقالة أفردها في ذلك قد ترجمها اسحاق بن حنين .

جملة من هياكلهم

ومن هياكل الصابئة هيكل السلسلة ، وهيكل الصورة ، وهيكل النفس ، وهذه مدورات الشكل ، وهيكل زحل مسدس ، وهيكل المشتري مثلث ، وهيكل المريخ مربع مستطيل ، وهيكل الشمس مربع ، وهيكل عطارد مثلث الشكل ، وهيكل الزهرة مثلث في جوف مربع مستطيل ، وهيكل القمر مثمن الشكل .

وللصابئة فيما ذكرنا رموز وأسرار يخفونها .

وقد حكى رجل من ملكية النصارى من أهل حران يعرف بالحارث بن سنباط للصابئة الحرانيين أشياء ذكرها من قرابين يقربونها من الحيوان ، ودخن للكواكب يبخرون بها ، وغير ذلك مما امتنعنا عن ذكره مخافة التطويل .

والذي بقي من هياكلهم المعظمة في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) بيت لهم بمدينة حران في باب الرقة يعرف بمغليتيا ، وهو هيكل آزر أبي ابراهيم الخليل عليه السلام عندهم .

وللقوم في آزر وابنه ابراهيم كلام كثير ليس كتابنا موضعا له .

ولابن عيشون الحراني القاضي ـ وكان ذا فهم ومعرفة ، وتوفي بعد الثلثمائة ـ قصيدة طويلة يذكر فيها مذاهب الحرانيين المعروفين بالصابئة ، ذكر فيها هذا البيت وما تحته من السراديب الأربعة المتخذة لأنواع صور الأصنام التي جعلت مثالا للأجسام السماوية وما ارتفع من ذلك من الأشخاص العلوية ، وأسرار هذه الأصنام ، وكيفية ايرادهم لأطفالهم الى هذه السراديب وعرضهم لهم على هذه الأصنام ، وما يحدث ذلك في ألوان صبيانهم من الاستحالة

الى الصفرة وغيرها لما يسمعون من ظهور أنواع الأصوات وفنون اللغات من تلك الأصنام والأشخاص ، بحيل قد اتخذت ومنافيخ قد عملت . . .

تقف السدنة من وراء جدر فتتكلم بأنواع من الكلام ، فتجري الأصوات في تلك المنافيخ والمخاريق والمنافذ الى تلك الصور المجوفة والأصنام المشخصة ، فيظهر منها نطق على حسب ما قد عمل في قديم الزمان ، فيصطادون به العقول ، وتسترق بها الرقاب ، ويقام بها الملك والممالك .

ومما ذكره في هذه القصيدة قوله :

ان نفيس العجائب بيت لهم في سرادب
تعبد فيه الكواكب أصنامهم خلف غائب

ولهذه الطائفة المعروفة بالحرانيين والصابئة فلاسفة ، الا أنهم من حشوية الفلاسفة ، وعوامهم متباينون لخواص حكمائهم في مذاهبهم ، وانما أضفناهم الى الفلاسفة اضافة سبب لا اضافة حكمة ، لأنهم يونانية وليس كل اليونانيين فلاسفة ، انما الفلاسفة حكماؤهم .

ورأيت على باب مجمع الصابئة بمدينة حران مكتوبا على مدقة الباب بالسريانية قولا لأفلاطون فسره مالك بن عقبون وغيره منهم وهو : « من عرف ذاته تأله » .

وقد قال أفلاطون : « الانسان نبات سماوي ، والدليل على هذا أنه شبيه شجرة منكوسة أصلها الى السماء وفروعها في الأرض » .

ولأفلاطون وغيره ممن سلك طريقه في النفس الناطقة كلام كثير في هل النفس في البدن أو البدن في النفس ، كالشمس أهي في الدار أو الدار في الشمس .

وهذا قول يتغلغل بنا الكلام فيه الى الكلام في تنقل الأرواح في أنواع الصور .

القول في تنقل الأرواح

وقد تنازع أهل هذه الآراء ممن قصد هذه المقالة في النقلة على وجهين ، فطائفة من الفلاسفة القدماء اليونانيين والهند ـ ممن لم يثبت كلاما منزلا ولا نبيا مرسلا ، منهم أفلاطون ومن يمم طريقهم ـ حكي عنهم أنهم زعموا أن النفس جوهر ليست بجسم ، وأنها حية عالمة مميزة لأجل ذاتها وجوهرها ، وأنها هي المدبرة للأجسام المركبة من طبائع الأرض المتضادة ، وغرضها في ذلك أن تقيمها على العدل وما تتم به السياسة المستقيمة والنظام المتسق وتردها من الحركة المضطربة الى المنتظمة .

وزعموا أنها تلذ وتتألم وتموت ، وموتها عندهم انتقالها من جسد الى جسد بتدبير ، وبطلان ذلك الشخص الذي فسد ووصف بالموت ، لأن شخصها يفسد ، ولأن جوهرها ينتقل .

وزعموا أنها عالمة بذاتها وجوهرها ، عالمة بالمعقولات من ذاتها وجوهرها ، وفيها قبول علم المحسوسات من جهة الحس .

ولأفلاطون وغيره في هذه المعاني كلام يطول ذكره ، ويعجز عن وصفه واظهاره لاعتياصه وغموضه ، وكذلك صاحب المنطق وفيثاغورس وغيرهما من الفلاسفة ممن تقدم وتأخر ، لأن الطالب لعلم هذه الأشياء والاحاطة بفهمها وبلوغ غايتها لا يدرك ذلك ، لما نصبوا من الكتب ، ورتبوا من التصنيف للعلوم المؤدية الى معرفة علومهم وأغراضهم التي اليها قصدوا في كتبهم ، وهي معرفة الألفاظ الخمس ، وهي : الجنس ، والفصل ، والنوع ، والخاصة ، والعرض .

المقولات

ثم معرفة المقولات ، وهي عشرة : الجوهر ، والكمية ، والكيفية ، والاضافة ـ وهي النسبة ـ وهذه أربع بسائط ، والست الأخر مركبات ، وهي : الزمان ، والمكان ـ والجدة ـ وهي الملك ـ والوضع ، والفاعل ، والمنفعل ، ثم ما بعد ذلك مما يترقى فيه الطالب الى أن ينتهي الى علم ما بعد الطبيعة من معرفة الأول والثاني .

عود الى الكلام عن الصابئة

ثم رجع بنا الأخبار عن مذاهب الصابئة من الحرانيين ، وذكر من أخبر عن مذاهبهم وكشف عن أحوالهم .

فمن ذلك كتاب رأيته لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي الفيلسوف صاحب كتاب « المنصوري » في الطب وغيره ، ذكر فيه مذاهب الصابئة الحرانيين منهم ، دون من خالفهم من الصابئة ، وهم الكيماريون ، وذكر أشياء يطول ذكرها ويقبح عند كثير من الناس وصفها ، أعرضنا عن حكايتها ، اذ كان في ذلك خروج عن حد الغرض من كتابنا الى وصف الآراء والديانات .

وقد خاطبت مالك بن عقبون وغيرهم منهم بشيء مما ذكرنا وغيره مما عنه كتبنا ، فمنهم من اعترف ببعضه ، وأنكر بعضا من ذكر القرابين وغيره من الآراء . . . مثل فعلهم بالثور الأسود ، فانه يضرب وجهه بالملح اذا شدت عيناه ثم يذبح ، ويراعي كل عضو من أعضائه وما يظهرمنه من الحركات والاختلاج على ما يدل ذلك من أحوال السنة وغير ذلك من أسرارهم ومحالاتهم وأحوال قرابينهم .

قال المسعودي : وقد ذكر جماعة ممن له تأمل بشأن هذا العالم والبحث عن أخباره أن بأقاصي بلاد الصين هيكلا مدورا له سبعة أبواب ، في داخله قبة مسبعة عظيمة الشأن عالية السمك ، في أعالي القبة شبه الجوهرة ، يزيد على رأس العجل تضيء منه جميع أقطار ذلك الهيكل .

وأن جماعة من الملوك حاولوا أخذ تلك الجوهرة فلم يدن أحد منها على مقدار عشرة أذرع الا خرّ ميتا ، وان حاول أحد منهم أخذ هذه الجوهرة بشيء من الآلات الطوال كالرماح وغيرها وانتهت الى هذا المقدار من الذرع انعكست وعطلت ، وان رميت بشيء كان كذلك . . .

فليس شيء من الحيل يؤدي الى تناولها بوجه ولا بسبب ، وان تعرض لشيء من هدم هذا الهيكل مات من يروم ذلك .

وهذا عند جماعة من أهل الخبرة لقوة دافعة منفردة قد عملت من أنواع الأحجار المغناطيسية .

وفي هذا الهيكل بئر مسبعة الرأس متى أكب الانسان على رأس البئر اكبابا متمكنا تهور في البئر فصار في أسفلها على أم رأسه .

وعلى رأس هذه البئر شبه الطوق مكتوب عليه بقلم قديم أراه بقلم المسند : « هذه بئر تؤدي الى مخزن الكتب وتاريخ الدنيا وعلوم السماء وما كان فيما مضى من الدهر وما يكون فيما يأتي منه . وتؤدي هذه البئر أيضا الى خزائن رغائب هذا العالم ، لا يعمل الى الوصول اليها والاقتباس منها الا من وازت قدرته قدرتنا ، واتصل علمه بعلمنا ، وصارت حكمته كحكمتنا ، فمن قدر على الوصول الى هذا المخزن فليعلم أنه قد وازانا ، ومن عجز عن الوصول الى ما وصفنا فليعلم أنا أشد منه بأسا ، وأقوى حكمة ، وأكثر علما ، وأثقب دراية ، وأتم عناية » .

والأرض التي عليها هذا الهيكل والقبة وفيها البئر أرض حجرية صلبة عالية من الأرض كالجبل الشامخ لا ترام قلعته ولا يتأتى نقب ما تحته ، فاذا أدرك البصر ذلك الهيكل والقبة والبئر وقع للرائي عند رؤيته ذلك جزع وحزن واجتذاب للقلب اليه وحنين على افساده وتأسف على افساد شيء منه أو هدمه ، والله أعلم بذلك .

ذكر الأخبار عن بيوت النيران وغيرها
رأيهم في النار والنور

فأما بيوت النيران ومن رسمها من ملوك الفرس الأولى والثانية فأول ما يحكي ذلك عنه

أفريدون الملك ، وذلك أنه وجد نارا يعظمها أهلها ، وهم معتكفون على عبادتها ، فسألهم عن خبرها ووجه الحكمة منهم في عبادتها ، فأخبروه بأشياء اجتذبت نفسه الى عبادتها ، وأنها واسطة بين الله وبين خلقه ، وأنها من جنس الآلهة النورية ، وأشياء ذكروها أعرضنا عن ذكرها لاعتياصها .

وذلك أنهم جعلوا للنور مراتب ، وفرقوا بين طبع النار والنور ، وان الحيوان يجتذب فيحرق نفسه كالفراش الطائر بالليل ، فما لطف يطرح نفسه في السراج فيحرقها ، وغير ذلك مما يقع في صيد الليالي من الغزلان والطير والوحوش ، وكظهور الحيتان من الماء اذا قربت من السراج في الزوارق ، كما يصطاد ببلاد البصرة السمك في الليل : يظهر من الماء طافيا ، حتى يقع في جوف المركب والسرج قد جعلت حواليه .

وأن النور صلاح هذا العالم ، وشرف النار على الظلمة ومضادته لها ، ومرتبة الماء وزيادته على النار باطفائه ومضادته لها ، وأنه أصل لكل حي ومبدأ لكل نام .

أماكن بيوت النيران

فلما أخبر أفريدون بما ذكرنا أمر بحمل جزء منها الى خراسان ، فاتخذ لها بيتا بطوس .

واتخذ بيتا آخر بمدينة بخارا يقال له برد سورة .

وبنى آخر من بيوت النار بسجستان يقال له كراكر كان اتخذه بهمن بن اسفنديار بن يستاسف .

وبيت آخر ببلاد الشيز والران ، وكان فيه أصنام فأخرجها أنو شروان .

وقيل : إن أنو شروان صادف هذا البيت وفيه نار معظمة فنقلها الى الموضع المعروف بالبركة .

وبيت آخر للنار يقال له كوسجة بناه كيخسرو الملك .

وقد كان بقومس بيت للنار معظم لا يدرى من بناه يقال له جريش .

ويقال : ان الاسكندر لما غلب عليها تركها ولم يطفئها .

ويقال : انه كان في ذلك الموضع فيما مضى مدينة عظيمة عجيبة البناء فيها بيت كبير عجيب الهيئة فيه أصنام ، فأخربت تلك المدينة بما فيها من البيوت ، ثم بني بعد ذلك بيت وجعلت فيه تلك النار .

وبيت آخر يسمى كنجده بناه سياوخس بن كاوس الجبار ، وذلك في زمان لبثه بمشرق الصين مما يلي البركند .

وبيت نار بمدينة أرجان من أرض فارس اتخذ في أيام بهراسف .

زرادشت والبيوت التي اتخذها

وهذه البيوت العشرة كانت قبل ظهور زرادشت بن اسبيان نبي المجوس ، ثم اتخذ زرادشت بن اسبيان بعد ذلك بيوت النيران وكان مما اتخذ بيت بمدينة نيسابور من بلاد خراسان ، وبيت آخر بمدينة نساو البيضاء من أرض فارس .

وقد كان زرادشت أمر يستاسف الملك أن يطلب نارا كان يعظمها جم الملك ، فطلبت فوجدت بمدينة خوارزم ، فنقلها بعد ذلك يستاسف الى مدينة درابجرد من أرض فارس وكورها بهذا البيت .

وهذه النار تسمى في وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) آزرجوي ، وتفسير ذلك نار النهر ، وذلك أن آزر أحد أسماء النار ، وجوي أحد أسماء النهر بالفارسية الأولى .

والمجوس تعظم هذه النار ما لا تعظم غيرها من النيران والبيوت .

وذكرت الفرس أن كيخسرو لما خرج غازيا الى الترك سار الى خوارزم ، فمر على تلك النار ، فلما وجدها عظمها وسجد لها ـ ويقال : إن أنوشروان هو الذي نقلها الى الكاريان ـ فلما ظهر الاسلام تخوفت المجوس أن يطفئها المسلمون ، فتركوا بعضها بالكاريان ، ونقلوا بعضها الى نسا والبيضاء من كورة فارس ، لتبقى احداهما ان طفئت الأخرى .

بيت باصطخر

وللفرس بيت نار باصطخر فارس تعظمه المجوس ، وكان في قديم الزمان فأخرجته حماية بنت بهمن بن اسفنديار وجعلته بيت نار ، ثم نقلت عنه النار فتخرب .

والناس في وقتنا هذا يذكرون أنه مسجد سليمان بن داود ، وبه يعرف .

وقد دخلته ، وهو على نحو فرسخ من مدينة اصطخر ، فرأيت بنيانا عجيبا ، وهيكلا عظيما ، وأساطين صخر عجيبة ، على أعلاها صور من الصخر طريفة من الخيل وغيرها من الحيوان عظيمة القدر والأشكال ، محيط بذلك حيز عظيم وسور منيع من الحجر ، وفيه صور الأشخاص قد تشكلت وأتقنت صورها ، يزعم من جاور هذا الموضع أنها صور الأنبياء .

وهو في سفح جبل والريح غير خارجة من ذلك الهيكل في ليل ولا نهار ، ولها هبوب ودوي ، يذكر من هنالك من المسلمين أن سليمان بن داود عليهما السلام حبس الريح في ذلك الموضع ، وأنه كان يتغدى ببعلبك من أرض الشام ، ويتعشى في هذا المسجد ، وينزل بينهما بمدينة تدمر وملعبها المتخذ فيها .

ومدينة تدمر في البرية بين العراق ودمشق وحمص من أرض الشام يكون منها الى الشام نحو خمسة أيام أو ستة ، وهي بنيان عجيب من الحجر ، وكذلك الملعب الذي فيها ، وفيها خلق من الناس من العرب من قحطان .

بيت بسابور

وفي مدينة سابور من أرض فارس بيت للنار معظم عندهم ، اتخذه دارا بن دارا .

بيت بجور

وفي مدينة جور من أرض فارس ـ وهو البلد الذي يحمل منه ماء الورد الجوري واليه يضاف ـ بيت للنار بناه أردشير بن بابك ، وقد رأيته . وهو على ساعة منها على عين هناك عجيبة ، وله عيد ، وهو أحد متنزهات فارس .

وفي وسط مدينة جور بنيان كانت تعظمه الفرس يقال له الطربال أخربه المسلمون .

وبين جور ومدينة كوار عشرة فراسخ ، وبها يعمل ماء الورد المعمول بجور وكوار أطيب ماء ورد يعمل في العالم ، لصحة التربة وصفاء الهواء ، وفي ألوان سكان هذه البلاد حمرة في بياض ليست لغيرهم من أهل الأمصار .

ومن كور الى مدينة شيراز ـ وهي قصبة فارس ـ عشرة فراسخ .

ولجور وكوار وشيراز وغيرها من كور فارس أخبار ، ولما فيها من البنيان أقاصيص يطول ذكرها قد دونتها الفرس . وكذلك ما كان بأرض فارس من الموضع المعروف بماء النار وقد بني عليه هيكل .

وكان كورش الملك ـ حين ولد المسيح عليه السلام ـ بعث ثلاثة أنفس : دفع الى أحدهم صرة من لبان ، والى آخر صرة من مر ، والى آخر صرة من تبر ، وسيرهم يهتدون بنجم وصفه لهم . فساروا حتى انتهوا الى السيد المسيح وأمه مريم بأرض الشام .

والنصارى تغلو في قصة هؤلاء النفر ، وهذا الخبر موجود في الانجيل .

وان هذا الملك كورش نظر الى نجم قد طلع بمولد المسيح عيسى ، فكانوا اذا ساروا سار معهم ذلك النجم ، واذا وقفوا وقف بوقوفهم .

وقد أتينا في كتابنا « أخبار الزمان » على شرح هذا الخبر ، وما قالت فيه المجوس والنصارى ، وخبر الرغفان التي دفعتها اليهم مريم ، وما كان من الرسل وجعلهم الخبز تحت الصخرة وغوصها في الأرض ـ وذلك بفارس ـ وكيف حفر عليها الى الماء ، وأنها وجدت قد صارت شعلتي نار على وجه الأرض تتقدان ، وغير ذلك مما قيل في هذا الخبر .

بيوت أخرى

وقد كان أردشير بنى بيتا آخر يقال له بارنوا ، وفي اليوم الثاني من غلبته على فارس ، وبيت نار على خليج القسطنطينية من بلاد الروم ، بناه سابور بن أردشير بن بابك ـ وهو سابور الجنود ـ حين نزل على هذا الخليج ، وحاصر القسطنطينية في عساكره ، فلم يزل هذا البيت هنالك الى خلافة المهدي فخرب ، وله خبر عجيب .

وكـان سابور الجنود اشترط على الـروم بناء هذا البيـت وعمارته عند حصاره القسطنطينية ، وكان مسيره في جيوش فارس وغيرها من الترك وملوك الأمم ، فسمي سابور الجنود ، لكثرة من تبعه من الجنود .

حصن الحضر

وقد كان سابور لما سار الى بلاد الجزيـرة عدل عن طريقه فنزل الحصن المعـروف بالحضر ، وقد كان هذا الحصن للساطرون بن اسيطرون ملك السريانيين ، في رستاق يقال له أياجر من بلاد الموصل .

وقد ذكرته الشعراء ، لعظم ملكه وكثرة جيـوشه وحسن بنائه لهذا الحصن المعـروف بالحضر ، فممن ذكره منهم أبو داود جارية بن حجاج الايادي بقوله :

وأرى المـوت قد تدلى من الحضـ ـر على رب أهلـه الساطرون
ولقد كـان آمـنا للدواهي ذا ثـراء وجوهـر مـكنون

قول في نسب النعمان بن المنذر

وقد قيل : ان النعمان بن المنذر من ولد الساطرون بن اسيطرون . . . يقال : هو النعمان بن المنذر بن امرىء القيس بن عمرو بن عدي بن نصر بن الساطرون بن اسيطرون .

والساطرون واسيطرون هذه ألقاب ، وهم ملوك ملكوا على السريانيين .

ثم تملك تلك الديار بعد من ذكرنا ممن أفناهم الدهر الضيزن بن جبهلة ـ وجبهلة أمه ، وهو الضيزن بن معاوية ـ ملكا على قومه من تنوخ بن مالك بن فهم بن تيم اللات بن أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة .

وهو الضيزن بن معاوية بن العبيد بن حرام بن سعد بن سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة .

وكان كثير الجنود ، مهادنا للروم ، متحيزا اليهم ، يغير رجاله على العراق والسواد . وكان في نفس سابور عليهم ذلك .

فلما نزل على حصنه تحصن الضيزن في الحصن ، فأقام سابور عليه شهرا لا يجد سبيلا الى فتحه ، ولا يتأتى له حيلة في دخوله فنظرت النضيرة بنت الضيزن يوما وقد أشرفت من الحصن الى سابور فهويته وأعجبها جماله ، وكان من أجمل الناس وأمدهم قامة ، فأرسلت

اليه : إن أنت ضمنت لي أن تتزوجني وتفضلني على نسائك دللتك على فتح هذا الحصن .

فضمن لها ذلك ، فأرسلت اليه : أئت الثرثار ـ وهو نهر في أعلاه ـ فأنثر فيه تبنا ثم اتبعه فانظر أين يدخل فأدخل الرجال منه ، فان ذلك المكان يفضي الى الحصن .

ففعل ذلك سابور ، فلم يشعر أهل الحصن الا وأصحاب سابور معهم في الحصن ، وقد عمدت النضيرة فسقت أباها الخمر حتى أسكرته طمعا في تزوج سابور اياها ، وأمر سابور بهدم الحصن بعد أن قتل الضيزن ومن معه . وعرس سابور بالنضيرة بنت الضيزن فباتت مسهدة ، فقال لها سابور : ما لك لا تنامين ؟

فقالت : ان جنبي يتجافى عن فراشك .

قال : ولم ، فوالله ما نامت الملوك على ألين منه وأوطأ ، وان حشوه لزغب النعام ؟!

فلما أصبح سابور نظر فاذا ورقة آس بين عكنها ، فتناولها فكاد بطنها أن يدمى ، فقال لها : ويحك ، بم كان أبواك يغذيانك ؟

فقالت : بالزبد والمخ والثلج والشهد وصفو الخمر .

فقال لها سابور : اني لجدير ألا استبقيك بعد انقلاب أبويك وقومك ، وكانت حالتك عندهم الحالة التي تصفين !

فأمر بها فربطت بغدائرها الى فرسين جموحين ، ثم خلى سبيلهما ، فقطعاها .

ففي هذا الملك المقتول ومن كان معه في الحصن يقول حري بن الدهاء العبسي :

ألـم يحزنك والأنباء تنمي ... بما لاقت سراة بني العبيد
ومصرع ضيـزن وبني أبيه ... وأحلاف الـكتائب من يزيد
أتاهــم بالفيـول مجللات ... وبالأبطال سابور الجنود
فهــدم من بروج الحصن صخرا ... كأن بناءه زبر الحديد

وفي قتل سابور للنضيرة بنت الضيزن وما كان منها من الغدر بأبيها وقومهـا وارشاد سابور الى دخول الحصن يقول عدي بن زيد العبادي :

والحضر صبت عليـه داهية ... من فوقه قد أيد ساكنها
ربيبة لم توق والدها ... لحينهـا إذ أضاع راقبها
وأسلمت أهلهـا لليلتها ... تظن أن الـرئيس خاطبها
وكان حظ العروس اذ جشر الصبـ ... ـح دماء تجـري سبائبها

والشعر في هذه القصة كثير .

جملة من بيوت النار

وبأرض العراق بيت للنار بالقرب من مدينة السلام ، بنته بوران بنت كسرى أبرويز الملكة في الموضع المعروف بأستنيا .

وبيوت النيران كثيرة مما بنته المجوس بالعراق وأرض فارس وكرمان وسجستان وخراسان وطبرستان والجبال وأذربيجان والران ، وفي الهند والسند والصين وأعرضنا عن ذكرها ، وانما ذكرنا ما اشتهر منها .

بيت بعل

والهياكل المعظمة عند اليونانيين وغيرهم كثيرة : مثل بيت بعل ، وهو الصنم الذي ذكره الله عز وجل بقوله : « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » !

وهو بمدينة بعلبك من أعمال دمشق من كورة سنير . وقد كانت اليونانية اختارت لهذا الهيكل قطعة من الأرض بين جبل لبنان وجبل سنير فاتخذته موضعا للأصنام .

وهما بيتان عظيمان أحدهما أقدم من الآخر ، فيهما من النقوش العجيبة المحفورة في الحجر الذي لا يتأتى حفر مثله في الخشب مع علو سمكهما وعظم أحجارهما وطول أساطينهما ، ووسع فتحهما ، وعجيب بنيانهما .

وقد أتينا على خبر هذه الهياكل ، وما كان من خبر القتل على رأس ابنة الملك ، وما نال أهل هذه المدينة من سفك الدماء .

جيرون بدمشق

وهيكل عظيم البنيان في مدينة دمشق ، وهو المعروف بجيرون ، وقد ذكرنا خبره فيما سلف من هذا الكتاب ، وأن بانيه جيرون بن سعد العادي ، ونقل اليه عمد الرخام ، وأنه ارم ذات العماد المذكورة في القرآن ، الا ما ذكر عن كعب الأحبار حين دخل على معاوية بن أبي سفيان وسأله عن خبرها وذكر عجيب بنيانها من الذهب والفضة والمسك والزعفران ، وأنه يدخلها رجل من العرب يتيه له جملان فيخرج في طلبهما فيقع اليها ، وذكر حلية الرجل .

ثم التفت في مجلس معاوية فقال : هذا هو الرجل ، وكان الأعرابي قد دخلها يطلب ما ندّ من ابله .

فأجاز معاوية كعبا ، وتبين صدق مقالته وايضاح برهانه .

فان كان هذا الخبر عن كعب حقا في هذه المدينة فهو حسن . وهو خبر يدخله الفساد من جهات من النقل وغيره ، وهو من صنعة القصاص .

وقد تنازع الناس في هذه المدينة ، وأين هي . ولم يصح عند كثير من الأخباريين ممن وفد على معاوية من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير الغابرين من العرب وغيرهم من المتقدمين فيها ، الا خبر عبيد بن شرية واخباره اياه عما سلف من الأيام ، وما كان فيها من الكوائن والحوادث وتشعب الأنساب ، وكتاب عبيد بن شرية متداول في أيدي الناس مشهور .

وقد ذكر كثير من الناس ممن له معرفة بأخبارهم أن هذه أخبار موضوعة من خرافات مصنوعة ، نظمها من تقرب للملوك بروايتها ، وصال على أهل عصره بحفظها والمذاكرة بها ، وأن سبيلها سبيل الكتب المنقولة الينا والمترجمة لنا من الفارسية والهندية والرومية ، وسبيل تأليفها مما ذكرنا . . .

كتاب ألف ليلة وليلة

مثل كتاب هزار أفسانه ، وتفسير ذلك من الفارسية الى العربية ألف خرافة ، والخرافة بالفارسية يقال لها أفسانه .

والناس يسمون هذا الكتاب ألف ليلة وليلة ، وهو خبر الملك والوزير وابنته وجاريتها وهما شيرزاد ودينا زاد .

ومثل كتاب فرزة وسيماس وما فيه من أخبار ملوك الهند والوزراء .

ومثل كتاب السندباد .

وغيرها من الكتب في هذا المعنى .

أصل مسجد دمشق

وقد كان مسجد دمشق قبل ظهور النصرانية هيكلا عظيما فيه التماثيل والأصنام على رأس منارته تماثيل منصوبة ، وقد كان بني على اسم المشتري وطالع سعد ، ثم ظهرت النصرانية فجعلته كنيسة ، وظهر الاسلام فجعل مسجدا ، وأحكم بناءه الوليد بن عبدالملك . والصوامع منه لم تغير ، وهي منائر الأذان الى هذا الوقت .

البريص بدمشق

وقد كان بدمشق أيضا بناء عجيب يقال له البريص ، وهو مبقي الى هذا الوقت في وسطها ، وكان يجري فيه الخمر في قديم الزمان . وقد ذكرته الشعراء في مدحها لملوك غسان من مأرب وغيرهم .

الديماس بانطاكية

وهيكل أنطاكية يعرف بالديماس ، على يمين مسجدها الجامع ، مبني بالآجر العادي

والحجر ، عظيم البنيان ، وفي كل سنة يدخل القمر عند طلوعه من باب من أبوابه ومن أعاليه في بعض الأهلة الصيفية ، وقد ذكر أن هذا الديماس من بناء الفرس حين ملكت أنطاكية ، وأنه بيت نار لها .

***

قال المسعودي : وقد ذكر أبو معشر المنجم في كتابه المترجم بـ « كتاب الألوف » الهياكل والبنيان العظيم الذي يحدث بناؤه في العالم في كل ألف عام ، وكذلك ذكره ابن المازيار تلميذ أبي معشر في كتابه « المنتخب من كتاب الألوف » .

وقد ذكر غيرهما ممن تقدم عصرهما وممن تأخر عنهما كثيرا من البنيان والعجائب في الأرض . وقد أعرضنا عن ذكرها وذكر السد الأعظم ، وهو سد يأجوج ومأجوج .

بعض عجائب الدنيا

وقد تنازع الناس في كيفية بنائه . . .

كتنازعهم في ارم ذات العماد على ما ذكرنا آنفا .

وكيفية بناء الأهرام التي بأرض مصر وما عليها من الكتابة المرسومة .

وما بصعيد مصر من البرابي المصنوعة ، وبغير أرض الصعيد من بلاد مصر .

وأخبار مدينة العقاب ، وما ذكر الناس فيها ، وكونها في وهاد مصر وأنها في جهة الواحات مما يلي المغرب والحبشة .

وخبر العمود الذي ينزل منه الماء في فصل من السنة بأرض عاد .

وأخبار النمل الذي على قدر الذئاب والكلاب .

وقصة أرض الذهب التي حذاء سجلماسة من أرض المغرب ، ومن هنالك من وراء النهر العظيم ، ومبايعتهم من غير مشاهدتهم ولا مخاطبتهم ، وتركهم المتاع ، وغدو الناس الى أمتعتهم فيجدون أعمدة الذهب وقد تركت الى جنب كل متاع من تلك الأمتعة . فان شاء مالك المتاع اختار الذهب وترك المتاع ، وان شاء أخذ متاعه وترك الذهب ، وانْ أحب الزيادة ترك الذهب والمتاع .

وهذا مشهور بأرض المغرب بسجلماسة ومنها يحمل التجار الأمتعة الى ساحل هذا النهر ، وهو نهر عظيم واسع الماء .

وكذلك بأقاصي خراسان مما يلي بلاد الترك من أقاصي ديارهم أمة تتبايع على مثل هذا الوصف من غير مخاطبة ولا مشاهدة ، وهم هنالك على نهر عظيم أيضا .

وخبر البئر المعطلة والقصر المشيد ، وذلك ببلاد الشحر من بلاد الأحقاف بين اليمن

وحضر موت ، والبئر وما فيها من الخرق واتصالها بالقرى والفضاء من أعلاها وأسفلها وما قاله الناس في تأويل هذه الآية فيها ، وهل المراد بالقصر والبئر هذا القصر والبناء أم غيره .

وأخبار مخاليف اليمن ، وهي القلاع والحصون كقلعة نحل وغيرها .

وأخبار مدينة رومية وكيفية بنائها وما حوته من عجيب الهياكل والكنائس ، والعمود الذي عليه السودانية من النحاس وما يحمل اليها من الزيتون في أيامه بالشام وغيره ، ويحمل ذلك الطائر المعروف بالسودانية في مخالبه ومنقاره ، فيطرحونه في تلك السودانية النحاس ، فيكثر زيتون رومية وزيتها من ذلك ، على حسب ما ذكرنا في أخبار الطلسمات عن بلينوس وغيره في كتابنا « أخبار الزمان » .

ثم أخبار البيوت السبعة التي ببلاد الأندلس ، وخبر مدينة الصفر وقبة الرصاص التي بمفاوز الأندلس ، وما كان من خبر الملوك السالفة فيها وتعذر الوصول اليها ، ثم ما كان من أمر صاحب عبدالملك بن مروان في نزوله عليها ، وما تهافت فيه المسلمون عند الطلوع على سورها ، واخبارهم عن أنفسهم أنهم وصلوا الى نعيم الدنيا والآخرة .

وخبر المدينة التي أسوارها من الصفر ساحل البحر الحبشي في أطراف مفاوز الهند ، وما كان من أخبار ملوك الهند وعدم وصولهم اليها ، وما يجري من وادي الرمل نحوها .

وما ببلاد الهند من الهياكل المتخذة للأصنام التي على صورة البدرة المتقدم ظهورها في قديم الزمان بأرض الهند .

وخبر الهيكل المعظم الذي ببلاد الهند المعروف بالأدري ، وهذا عند الهند يقصد من البلدان الشاسعة ، وله بلد قد وقف عليه وحوله ألف مقصورة فيها جوار لم تنظر لتعظيم هذا الصنم من الهند .

وخبر الهيكل الذي فيه الصنم ببلاد المولتان على نهر مهران من أرض السند .

وخبر سندان كسرى ببلاد قرماسين من أعمال الدينور من ماء الكوفة . . .

وكثير من أخبار العالم وخواص بقاعه وأبنيته وجباله وبدائع ما فيه من الخلق من الحيوان وغيره ، مما قد أتينا على ذكره فيما سلف من كتبنا .

وكذلك ما خص به كل بلد من أنواع الفواكه دون غيره من البلدان ، في الاسلام وغيره من الممالك ، وما بان به أهل كل بلد من اللباس والأخلاق دون غيرهم ، وما انفردوا به من أنواع الأغذية والمآكل والمشارب والشيم ، وعجائب كل بلد .

وذكرنا أخبار البحار وما قيل في اتصال بعضها ببعض وتغلغل مياهها ، وما يحدث في كل بحر منها من الآفات وما فيه من الجواهر دون غيره من البحار ، كتكون المرجان ببحر المغرب ، وعدمه من غيره ، ووجود اللؤلؤ في البحر الحبشي دون غيره .

محاولات قديمة لوصل
بحر الروم (الأبيض المتوسط)
ببحر القلزم (البحر الأحمر)

وقد كان بعض من ملك من الروم حفر بين القلزم وبحر الروم طريقا فلم يتأت له ذلك ، لارتفاع القلزم ، وانخفاض بحر الروم ، وأن الله عز وجل قد جعل ذلك حاجزا على حسب ما أخبر في كتابه .

والموضع الذي حفره ببحر القلزم يعرف بذنب التمساح على ميل من مدينة القلزم ، عليه قنطرة عظيمة يجتاز عليها من يريد الحج من مصر .

وأجرى خليجا من هذا البحر الى موضع يعرف بالهامة (ضيعة لمحمد بن علي الماذراني من أرض مصر في هذا الوقت وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) ، فلم يتأت له اتصال ما بين بحر الروم وبحر القلزم .

وحفر خليجا آخر مما يلي بلاد تنيس ودمياط وبحيرتها ، ويعرف هذا الخليج بالزبر والخبية ، واستمر الماء في هذا الخليج من بحر الروم وبحيرة تنيس الى موضع يعرف بنعنعان حتى اتصل بنحو بلاد الهامة . فكانت المراكب تدخل من بحر الروم الى نحو من هذه القرية ، ومن بحر القلزم في خليج ذنب التمساح ، فيتتابع أرباب المراكب ، ويقرب حمل ما في كل بحر الى آخر . ثم ارتدم ذلك على تطاول الدهور ، وملأته السوافي من الرمل وغيره .

وقد رام الرشيد أن يوصل بين هذين البحرين مما يلي النيل من أعالي مصبه من نحو بلاد الحبشة وأقاصي صعيد مصر ، فلم تتأت له قسمة ماء النيل . فرام ذلك مما يلي بلاد الفرما نحو بلاد تنيس ، على أن يكون مصب بحر القلزم الى البحر الرومي ، فقال يحيى بن خالد : يختطف الروم الناس من المسجد الحرام والطواف .

وذلك أن مراكبهم تنتهي من بحر الروم الى بحر الحجاز ، فتطرح سراياها مما يلي جدة ، فيختطف الناس من المسجد الحرام ومكة والمدينة على ما ذكرنا .

فامتنع من ذلك .

وقد حكي عن عمرو بن العاص ـ حين كان بمصر ـ أنه رام ذلك ، فمنعه منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وذلك لما وصفنا من فعل الروم وسراياهم ، وذلك في حال ما افتتحها عمرو بن العاص في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وآثار الحفر بين هذين البحرين ـ فيما ذكرنا من المواضع والخلجان ـ بينة على حسب ما شرعت فيه الملوك السالفة طلبا لعمارة الأرض ، وخصب البلاد ، وعيش الناس بالأقوات ، وأن يحمل الى كل بلد ما ليس فيه من الأقوات وغيرها من ضروب المنافع وضروب المرافق . والله تعالى أعلم .

ذكر جامع التاريخ
من بدء العالم إلى مولد رسول الله ﷺ
وما لحق بهذا الباب

بعض قول الطبيعيين

قد ذكرنا فيا سلف من كتبنا جملا من تباين الناس في بدء العالم ، ممن أثبت حدوثه ونفاه ، وما جرت الآراء بهم فيه الى جهات شتى .

وقد أخبرنا أنهم طوائف الهند وفرق من اليونانيين ، ومن وافقهم على القول بالقدم من الفلكيين والطبيعيين ، وما أوردته الفلكية من قولها : ان الحركة الصانعة للأشخاص المحلة فيها الأرواح متى قطعت المسافة التي بين العقدة التي ابتدأت منها ، حتى تنتهي اليها راجعة ، ثم تنفصل عنها ، أعادت كل ما بدأت به أولا كهيئته وأشخاصه وصوره وضروب أشكاله ، اذ كانت العلة والسبب اللذين بوجودهما توجد الأشياء قد وجدا عودا كما وجدا بدءا ، فوجب ظهور الأشياء متى عادت الى المبدأ الذي كان عنه الصدر .

ثم ما تعقب هذا القول من قول الطبيعيين : ان علة كون الأشياء الجسمانية والنفسانية من قبل حركات الطبائع واختلاطها ، لأن الطبيعة عندهم تحركت في بدوها واختلطت ، فأظهر الحيوان والنبات وسائر الموجودات في العالم ، وجعلت لها أصلا من التناسل ، لما عجزت عن تبقية الأشخاص وعدلت الى النسل .

وان الطبائع المتبقية تنتقل من مركب الى بسيط ، ومن بسيط الى مركب ، حتى اذا أدى المركب كنه ما فيه عادت الأشياء الى البسيط ، وابتدأ الكون مارا على طريقه ، لأن الذي أوجبه أولا قد وجد ، فحقه أن يوجد منه بوجود المعنى الذي أوجده ، فظهر ذلك الظهور ، كالنبات في الربيع ، وتحرك قوته تحت الثرى .

وذلك أن الشمس تبلغ في الربيع الى رأس الحمل ، بادئة في شرفها ، آخذة في ممرها ، وهي العلة الكبرى في احياء النبات .

ويأخذ الثمر في الظهور من الشجر بادئا كما كان ظاهرا بالمثال الأول الذي قد باد في الشتاء وبيبسه وبرده ، لأن علة الكون الحرارة والرطوبة ، وعلة الفساد البرد واليبس .

فاذا انتقلت الأشياء من الحرارة والرطوبة الى البرد واليبوسة ، فارقت الكون المتمم ودخلت الفساد .

فاذا انتهى بها الفساد الى غايته وأوصلها الى نهايته ، عاقبها الكون بوصول الشمس الى

رأس الحمل ، فبدأ بها كعادته في انشائها ، وأبرزها من خساسة الفساد الى نفاسة الكون .

ولو كانت الحواس تضبط شأن الأجسام وتحيط بانتقالها من حال الى حال لشاهدت ممرها في دائرة الزمان ، مبتدئة من رتبة ، راجعة اليها ، مشكلة في محيط الدائرة بأشكال توافق بعضها ، والشكول مختلفة باختلاف العلل ، متفرقة كاختلاف الأسباب .

وفي هذا القول من هذه الطائفة ما صرح بالقول بالقدم وأبان عليه .

دليل على حدوث العالم

وقضية الفحص توجب أن الأشياء الموجودة غير خالية من احدى المنزلتين :

اما أن يكون بدء وانتهاء ، واما أن يكون بلا بدء ولا انتهاء . فان كان بلا بدء ولا انتهاء ، فواجب أن يكون أجزاؤها وأبعاضها غير متناهية ، وواجب أن يكون الزمان غير عاد لها ولا حاصر لجميعها .

وقد وجدنا التناهي والابتداء في أجزائها وأبعاضها على الدوام ، وانا في كل يوم جديد نعاين خلقا جديدا ، وصورا في العالم لم تكن ، وصورا بادئة قد كانت متأثلة .

وفي هذا ما يدل على حصر الأشياء ووقوعها في غاية انتهاء صورها ، وواجب أن للأشياء بدءا وانتهاء ، وبطل وهم المتوهم أن الأشياء بلا نهاية ، وأن ليس لها ابتداء ولا غاية ، وذلك باطل ومحال فاسد .

ولو وجب أن تكون الأشياء الموجودة بلا نهاية لوجب ألا يزول شيء من مركزه ، ولا يتحول عن رتبته ، ولبطلت الاستحالة ، وسقطت المضادة ، وهذا مستحيل .

ولو وجب أن تكون الأشياء على غير نهاية ، لما كان لقولنا اليوم وأمس وغدا معنى ، لأن هذه الأزمان تعد ما هو النهاية ، ويوجد في حوزتها ايجاد ما لم يكن وادخالها في حوزتها ما هو كائن .

المحدث للعالم

وفيما ذكرنا ما أوضح عن تنقل شأن المعاني ، ودل على حدوث الأجسام . وهذه الدلالة مأخوذة من الحس ، ومستظهرة للعقول والبحث . اذ قد أوضح أن الأشياء محدثة لكونها بعد أن لم تكن ، فلا بد لها من محدث هو بخلافها لا شكل له ولا مثل ، لأن العقل لا يقيم لشيء مثلا حتى يعلم له قدرا ووزنا ، ويعادله بمثله وشكله .

وتعالى جل وعز من لا تعبر عن ذاته اللغات ، وتعجز العقول أن تحصره بالصفات ، وتدركه بالاشارات ، أو يكون ذا غايات ونهايات .

***

قال المسعودي : فلنرجع الآن الى الكلام في حصر تاريخ العالم ووصف أقاويل

الطوائف في ذلك المعنى ، لأنا انما ذكرنا الكلام في حدوث العالم لما ذكرنا قول من قال بقدمه ودل على أزليته ، وقد تقدم ذكرنا لقول الهند في ذلك فيا سلف من هذا الكتاب .

عمر الدنيا

وأما اليهود فانهم زعموا أن عمر الدنيا ستة آلاف سنة ، وأخذوا في ذلك مأخذا شرعيا .

وذهبت النصارى الى أن عمر العالم ما ذهبت اليه اليهود .

وأما الصابئة من الحرانيين والكيماريين ، فقد ذكرنا قولهم في ذلك في جملة قول اليونانيين .

وأما المجوس فانهم ذهبوا في ذلك الى حد غير معلوم من نفاذ قوة الهرمندة وكيده ، وهو الشيطان . ومنهم من ذهب في ذلك الى نحو ما ذهب اليه أصحاب الاثنين في المزاج والخلاص ، وأن العالم سيعود بدءا متخلصا من الشرور والآفات .

وزعمت المجوس أن من وقت زرادشت بن أسبيان نبيهم الى الاسكندر مائتين وثمانين سنة .

وملك الاسكندر ست سنين .

ومن ملك الاسكندر الى ملك أردشير خمسمائة سنة وسبع عشرة سنة .

ومن ملك أردشير الى الهجرة خمسمائة سنة وأربع وستون سنة .

فذلك من هبوط آدم الى هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ستة آلاف سنة ومائة سنة وست وعشرون سنة : منها من هبوط آدم عليه السلام الى الطوفان ألفان ومائتان وست وخمسون سنة .

ومن الطوفان الى مولد ابراهيم الخليل عليه السلام ألف وتسع وسبعون سنة .

ومن مولد ابراهيم الى ظهور موسى بعد ثمانين سنة خلت من عمر موسى بن عمران ـ وهو وقت خروجه ببني اسرائيل ، من مصر الى التيه ـ خمسمائة وخمس وستون سنة .

ومن خروجهم الى سنة أربع من ملك سليمان بن داود عليه السلام ـ وذلك وقت ابتدائه في بناء بيت المقدس ـ ستمائة وست وثلاثون سنة .

ومن بناء بيت المقدس الى ملك الاسكندر سبعمائة وسبع عشرة سنة .

ومن ملك الاسكندر الى مولد المسيح ثلثمائة سنة وتسع وستون سنة ، ومن مولد المسيح الى مولد النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة واحدى وعشرون سنة ، وبين أن رفع الله المسيح وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة الى وفاة النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة سنة وست وأربعون سنة .

وبين مبعث المسيح وهجرة النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة وأربع وتسعون سنة .

وكانت وفاة نبينا صلى الله عليه وسلم في سنة تسعمائة وخمس وثلاثين سنة من سني ذي القرنين .

ومن داود الى محمد صلى الله عليه وسلم ألف سنة وسبعمائة سنة وسنتان وستة أشهر وعشرة أيام .

ومن ابراهيم الى محمد صلى الله عليه وسلم ألفا سنة وسبعمائة سنة وعشرون سنة وستة أشهر وعشرة أيام .

ومن نوح الى محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة آلاف سنة وسبعمائة سنة وعشرون سنة وعشرة أيام . . .

فعلى هذا القول جميع جملة التاريخ من هبوط آدم الى الأرض الى مبعث النبي صلى الله عليه وسلم أربعة آلاف سنة وثمانمائة سنة واحدى عشرة سنة وستة أشهر وعشرة أيام . فجملة التاريخ من هبوط آدم الى الأرض الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) من خلافة المتقي بالله ونزوله الرقة من ديار مصر ، خمسة آلاف سنة ومائة وست وخمسون سنة .

وقد ذكرنا جملا من التاريخ فيما سلف من هذا الكتاب فلم نعلم منه ما تقدم .

وللمجوس في التواريخ أقاصيص يطول ذكرها ، وعود الملك اليهم والى غيرهم من الطوائف السالفة في بدو العالم وفنائه ، ومن قال منهم ببقائه ، وأن لا بدء له ولا نهاية ، ومن ذهب منهم الى أن له انتهاء ولا بدء له .

وقد أتينا على ذلك فيما سلف من كتبنا فأغنى ذلك عن الاعادة في هذا الكتاب ، لاشتراطنا فيه على أنفسنا الاختصار والايجاز والتنبيه على ما سلف لنا من الكتب .

رأي أهل النظر من المسلمين

وقد ذهب جماعة من أهل البحث والنظر من أهل الاسلام الى أن الدلالة قد قامت على حدوث العالم وكونه بعد أن لم يكن . وأن المحدث له الخالق الباري جل وعز ، أحدثه لا من شيء ويبعثه لا من شيء في الآخرة ليصح بذلك وعده ووعيده ، اذ كان الصادق في وعده ووعيده لا مبدل لكلماته ، وأن أول العالم من لدن آدم .

وقد غاب عنا حصر السنين واحصاؤها ، وتنازع الناس في بدء التاريخ ، والكتاب لم يخبر بحصر أوقاته ولا بين عن كيفيته ولا أعداد سنيه فيما مضى .

وليس علم ذلك مما تهجم عليه الآراء ، ولا تحصره أقضيات العقول وموجبات الفحص وضرورات الحواس عند مذكراتها لمحسوساتها . فكيف توجب أن يوقت عمر الدنيا

بسبعة آلاف سنة ، والله عز وجل يقول وقد ذكر الأجيال ومن ضمه الهلاك : « وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا » ، والله تعالى ذكره لا يقول الكثير الا في الشيء الحقيقي الكثير ، وأعلمنا في كتابه خلقه آدم ، وما كان من أمره وأمر الأنبياء بعده ، وأخبر عن شأن بدء الخلق ، ولم يخبرنا بمقدار ذلك فنقف عليه كوقوفنا عندما أخبرنا به ، ولا سيما مع علمنا أن المدى بيننا وبينه متفاوت ، وأن الأرض كثرت بها المدن والملوك والعجائب .

فلا نحصر ما لم يحصره الله عز وجل ، ولا نقبل من اليهود ما أوردته ، لنطق القرآن أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويكتمون الحق وهم يعلمون ، ونفيهم النبوات ، وجحدهم ما أتوا به من الآيات مما أظهره الله عز وجل على يدي عيسى ابن مريم من المعجزات ، وعلى يدي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من البراهين الباهرات والدلائل والعلامات .

والله عز وجل يخبرنا بما أهلك من الأمم لما كان من فعلهم وكفرهم بربهم ، قال الله عز وجل: «الحاقة ما الحاقة. وما أدراك ما الحاقة. كذبت ثمود وعاد بالقارعة. فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية » .

ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « كذب النسابون » ، وأمر أن ينسب الى معد ، ونهى أن يتجاوز بالنسب الى ما فوق ذلك ، لعلمه بما مضى من الأعصار الخالية والأمم الفانية .

ولولا أن النفوس الى الطارف أحن ، وبالنوادر أشغف ، والى قصار الأحاديث أميل وبها أكلف ، لذكرنا من أخبار المتقدمين وسير الملوك الغابرين ما لم نذكره في هذا الكتاب ، ولكن ذكرنا فيه ما قرب تناوله تلويحا بالقول دون الايضاح والشرح ، اذ كان معولنا في جميع ذلك على ما سلف من كتبنا وتقدم من تصنيفنا ، واذا علم الله عز وجل موقع النية ووجه القصد أعان على السلامة من كل مخوف .

وقد ذكرنا في هذا الكتاب من كل فن من العلوم وكل باب من الآداب ، على حسب الطاقة ومبلغ الاجتهاد والاختصار والايجاز ، لمعا سيعرفها من تأمل ، وينبه بها من رآها .

واذ قد ذكرنا جوامع ما يحتاج المبتدى والمنتهى من علوم العالم وأخباره ، فلنذكر الآن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومولده ، ومبعثه ، وهجرته ، ووفاته ، وأيام الخلفاء والملوك عصر فعصرا ، الى وقتنا هذا .

ولم نعرض في كتابنا هذا لكثير من الأخبار ، بل لوحنا بالقول بها تخوفا من الاطالة ووقوع الملل ، اذ ليس ينبغي للعاقل أن يحمل النية على ما ليس في طاقتها ، ويسوم النفس ما ليس في جبلتها ، وانما الألفاظ على قدر المعاني فكثيرها لكثيرها ، وقليلها لقليلها ، وهذا باب كبير ، وبعضه ينوب عن بعض ، والجزء منه يوهمك الكل ، والله تعالى ولي التوفيق .

ذكر مولد النبي صلى الله عليه وسلم ونسبه وغير ذلك مما لحق بهذا الباب

تقديم

قد ذكرنا فيما سلف من كتبنا من بدء التاريخ في أخبار العالم وأخبار الأنبياء والملوك وعجائب البر والبحر ، وجوامع التاريخ للفرس والروم والقبط ، وشهور الروم والقبط ، وما كان من مولد النبي صلى الله عليه وسلم الى مبعثه ، ومن آمن به قبل رسالته .

وقد قدمنا في هذا الكتاب من كان بينه وبين المسيح من أهل الفترة فلنذكر الآن مولده ، إذ كان الطاهر المطهر الأغر الأزهر ، الذي اتسعت أعلام نبوته ، وتواترت دلائل رسالته ، ونطقت الشهادات له قبل بعثته .

نسبه الشريف

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد بن ناخور بن سود بن يعرب بن يشجب بن ثابت بن اسماعيل بن ابراهيم خليل الرحمن بن تارح وهو آزر بن ناخور بن ساروخ بن أرعواء بن فالغ بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ ابن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

هذا ما في نسخة ابن هشام في كتاب المغازي والسير عن ابن اسحاق ، والنسخ مختلفة الأسماء في النسب من نزار .

الخلاف في نسب معد بن عدنان

وفي نسخة أن نزارا ابن معد بن عدنان بن أدد بن سام بن يشجب بن يعرب بن الهميسع ابن صانوع بن يامد بن قيدر بن اسماعيل بن ابراهيم بن تارح بن ناخور بن أرعواء بن أسروح بن فالغ بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح بن متوشلخ بن أخنوخ بن مهلاييل ابن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم .

وفي رواية ابن الاعرابي عن هشام بن محمد الكلبي : هو نزار بن معد بن عدنان بن أد ابن أدد بن الهميسع بن نبت بن سلامان بن قيدر بن اسماعيل بن ابراهيم الخليل بن تارح بن ناخور بن أرعواء بن فالغ بن عابر بن شالح بن ارفخشذ بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ ابن أخنوخ بن يرد بن مهلاييل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

وفي التوراة أن آدم عليه السلام عاش تسعمائة سنة وثلاثين سنة ، فيجب والله أعلم أن

آدم عليه السلام كان عند مولد لمك ـ وهو أبو نوح النبي عليه السلام ـ ابن ثمانمائة سنة وأربع وستين سنة ، وشيث ابن سبعمائة وأربع وأربعين سنة ، فيجب على هذا الوصف من الحساب أن مولد نوح عليه السلام كان بعد وفاة آدم بمائة وست وعشرين سنة .

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم ـ على حسب ما ذكرنا من نهيه ـ أن يتجاوز عن معد ، فقد ثبت أن نتوقف في النسب على معد ، وقد اختلف أهل النسب على ما ذكرنا ، فالواجب الوقف عند أمره عليه السلام ونهيه .

***

قال المسعودي : وقد وجدت نسب معد بن عدنان في السفر الذي أثبته باروخ بن ناريا كاتب أرميا النبي صلى الله عليه وسلم أن معدا بن عدنان بن أدد بن الهميسع بن سلامان بن عوص بن برو بن متساويل بن أبي العوام بن ناسل بن حرا بن يلدرام بن بدلان بن كالح بن فاجم بن ناخور بن ماحي بن عسقي بن عنف بن عبيد بن الرعاء بن حمران بن يسن بن هرى ابن بحري بن يلحي بن أرعوا بن عنفاء بن حسان بن عيسى بن أقتاد بن ايهام بن معصر بن ناجب بن رزاح بن سماي بن مر بن عوص بن عوام بن قيدر بن اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليه السلام .

وقد كان لأرمياء مع معد بن عدنان أخبار يطول ذكرها ، وما كان من أمرهما بالشام ، وقد أتينا على ذكر ذلك فيما سلف من كتبنا ، وإنما ذكرنا هذا النسب من هذا الوجه ليعلم تنازع الناس في ذلك .

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تجاوز معد ، لعلمه من تباعد الأنساب وكثرة الآراء في طول هذه المدة والأعصار .

كنية الرسول صلى الله عليه وسلم

وكنيته صلى الله عليه وسلم أبو القاسم ، وفي ذلك يقول الشاعر :

للـه ممن قد برا صفوة وصفوة الخلـق بنو هاشم
وصفوة الصفوة من هاشم محمد النور أبو القاسم

اسماؤه

وهو محمد ، وأحمد ، والماحي الذي يمحو الله به الذنوب ، والعاقب ، والحاشر الذي يحشر الله الناس على عقبه ، صلى الله عليه وسلم .

مولده

وكان مولده عليه الصلاة والسلام عام الفيل ، وكان بين عام الفيل وعام الفجار عشرون سنة .

حروب الفجار

والفجار[1] حرب كانت بين قيس عيلان وبني كنانة، استحلوا فيها القتال في الأشهر الحرم ، فسميت الفجار .

وكنانة : ابن خزيمة بن مدركة ، وهو عمرو ، بن الياس بن مضر بن نزار .

وكان ولد الياس عمرا وعامرا وعميرا ، فعمر وهو مدركة ، وعامر هو طابخة ، وعمير هو قمعة . وكانت أمهم ليلى بنت حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وهي خندف . فغلب على من ذكرنا الألقاب ، ونسب ولد الياس الى أمهم خندف[2] وفي ذلك يقول قصي بن كلاب بن مرة :

إني لدى الحرب وحي وأبي عند تناديهم بآل وهب
معترم الصولـة عالي النسب أمي خندف والياس أبي

بطون قريش

وقريش خمسة وعشرون بطنا ، وهم :

بنو هاشم بن عبد مناف .

بنو المطلب بن عبد مناف .

بنو الحارث بن عبد المطلب .

بنو أمية بن عبد شمس .

بنو نوفل بن عبد مناف .

بنو الحارث بن فهر .

بنو أسد بن عبد العزى .

---

(١) قال الجوهري : « الفجار : يوم من ايام العرب ، وهي أربعة افجرة كانت بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان في الجاهلية ، وكانت الدبرة على قيس . وإنما سمت قريش هذه الحرب فجارا لانها كانت في الأشهر الحرم . فلما قاتلوا فيها قالوا : قد فجرنا ، فسميت فجارا » .

(٢) قوله « وكان ولد الياس » الخ قال المجد : « وولد الياس بن مضر عمرا ، وهو مدركة ، وعامرا وهو طابخة ، وعميرا وهو قمعة . وأمهم خندف (كزبرج) ، وهي ليلى بنت حلوان بن عمران . وكان الياس خرج في نجعة ، فنفرت ابله من أرنب ، فخرج اليها عمرو وادركها ، وخرج عامر فتصيدها وطبخها ، وانقمع عمير في الخباء ، وخرجت امهم تسرع ، فقال لها الياس : أين تخندفين ؟ فقالت : ما زلت اخندف في أثركم ، فلقبوا مدركة وطابخة وقمعة وخندف » .

بنو عبد الدار بن قصي ، وهم حجبة الكعبة .
بنو زهرة بن كلاب .
بنو تيم بن مرة .
بنو مخزوم .
بنو يقظة .
بنو مرة .
بنو عدي بن كعب .
بنو سهم .
بنو جمح . . .

والى هنا تنتهي قريش البطاح على حسب ما قدمناه فيا سلف من هذا الكتاب .

بنو مالك بن حنبل .
بنو معيط بن عامر بن لؤي .
بنو نزار بن عامر .
بنو سامة بن لؤي .
بنو الأدرم ، وهو تيم بن غالب .
بنو محارب بن فهر .
بنو الحارث بن عبد الله بن كنانة .
بنو عائذة ، وهو خزيمة بن لؤي .
بنو نباتة ، وهو سعد بن لؤي .

ومن بني مالك الى آخر القبائل في قريش الظواهر على حسب ما قدمنا فيا سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا للمطيبين وغيرهم من قريش .

حلف الفضول

وكان من حرب الفجار ما ذكرنا للمتفاخرين بالعشائر والتكاثر ، وانتهى الفجار في شوال ، وكان حلف الفضول بعد منصرفهم من الفجار ، فقال بعضهم :

نحن كنا الملوك من آل نجد ... وحماة الزمان عند الذمار
ومنعنا الحجون من كل حي ... ومنعنا الفجار يوم الفجار

وفي ذلك قال خراش بن زهير العامري :

فلا توعــديني بالفجار فانه أحل ببطحاء الحجون المخازيا

سبب حلف الفضول

وقد كان الحلف في ذي القعدة بسبب رجل من زبيد من اليمن ، وكان باع سلعة له من العاص بن وائل السهمي ، فمطله بالثمن حتى يئس ، فعلا جبل أبي قبيس ، وقريش في مجالسها حول الكعبة ، فنادى بشعر يصف فيه ظلامته ، رافعا صوته مناديا يقول :

يا للــرجال لمظلــوم بضاعته ببطن مكــة نادي الحي والنفر
إن الحرام لمــن تمت حرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فمشت قريش بعضها الى بعض ، وكان أول من سعى في ذلك الزبير بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف ، واجتمعت قبائل قريش في دار الندوة ، وكانت للحل والعقد ، وكــان ممن اجتمع بها من قريش بنو هاشم بن عبد مناف ، وبنو المطلـب بن عبد مناف ، وزهرة بــن كلاب ، وتيم بن مرة ، وبنو الحارث بن فهر ، فاتفقوا على أنهم ينصفون المظلوم من الظالم ، فساروا الى دار عبد الله بن جدعان ، فتحالفوا هنالك .

ففي ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب :

حلفت لنعقدن حلفا عليهم وان كنا جميعــا أهــل دار
نسميــه الفضول إذا عقدنا يعــز به الغريــب لدى الجوار
ويعلــم من حوالي البيــت أنا أباة الضيــم نهجر كل عار

الفجارات

وقد قدمنا في كتابنا الأوسط أخبار الأحلاف والفجارات الأربعة : فجار الرجل ، أو فجار بدر بن معشر ، وفجار القرد ، وفجار المرأة ، والفجار الرابع هو فجار البراض .

وبين الفجار الرابع الذي كان فيه القتال وبين بنيان الكعبة خمس عشرة سنة .

وكان من حضور النبي صلى الله عليه وسلم ومشاهدته الفجار الرابع الى أن خرج الى الشام في تجارة خديجة ، ونظر نسطورا الراهب اليه وهو في صومعته ، والنبي صلى الله عليه وسلم مع ميسرة ، وقد أظلته غمامة ، فقال : هذا نبي ، وهذا آخر الأنبياء . . . أربع سنين

وتسعة اشهر وستة أيام . والى أن تزوج خديجة بنت خويلد شهران ، وأربعة وعشرون يوما . والى أن شهد بنيان الكعبة ، وحضر منازعة قريش في وضع الحجر الأسود عشر سنين .

قريش تبني الكعبة

وقد كان السيل هدم الكعبة فسرق منها لما انهدمت غزال من الذهب وحلي وجواهر ، فنقضتها قريش .

وكان في حيطانها صور كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة : منها صورة ابراهيم الخليل في يده الأزلام ، ويقابلها صورة اسماعيل ابنه على فرس يجيز بالناس مفيضا . والفاروق قائم على وفد من الناس يقسم فيهم . وبعد هذه الصور صور كثيرة من أولادهم الى قصي بن كلاب وغيرهم ، في نحو من ستين صورة مع كل واحد من تلك الصور انه صاحبها ، وكيفية عبادته ، وما اشتهر من فعله .

وضع الحجر الأسود

ولما بنت قريش الكعبة ورفعت سمكها وتأتي لها ما أرادت في بنيانها من الخشب الذي ابتاعوه من السفينة التي رمى بها البحر الى ساحلهم التي بعث بها ملك الروم من القلزم من بلاد مصر الى الحبشة ، لتبنى هنالك له كنيسة . وانتهوا الى موضع الحجر على ما ذكرنا ، وتنازعوا أيهم يضعه .

فاتفقوا أن يرضوا بأول من يطلع عليهم من باب بني شيبة ، فكان أول من ظهر لأبصارهم النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك الباب ، وكانوا يعرفونه بالأمين ، لوقاره وهديه وصدق اللهجة ، واجتنابه القاذورات والأدناس .

فحكموه فيما تنازعوا فيه ، وانقادوا الى قضائه .

فبسط ما كان عليه من رداء ـ وقيل كساء طاروني ـ وأخذ عليه الصلاة والسلام الحجر فوضعه في وسطه ، ثم قال لأربعة رجال من قريش ـ وهم أهل الرياسة فيهم ، والزعماء منهم ، وهم : عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وأبو حذيفة بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم ، وقيس بن عدي السهمي ـ ليأخذ كل واحد منهم بجنب من جنبات هذا الرداء ، فشالوه حتى ارتفع عن الأرض ، وأدنوه من موضعه ، فأخذ عليه الصلاة والسلام الحجر ووضعه في مكانه وقريش كلها حضور ، وكان ذلك أول ما ظهر من فعله وفضائله وأحكامه .

فقال قائل ممن حضر من قريش متعجبا من فعلهم وانقيادهم الى أصغرهم سنا :

واعجباً لقوم أهل شرف ورياسة وشيوخ وكهول عمدوا الى أصغرهم سنا ، وأقلهم مالا . فجعلوه عليهم رئيسا وحاكما . . . أما واللات والعزى ليفوقنهم سبقا ، وليقسمن بينهم حظوظا وجدودا وليكونن له بعد هذا اليوم شأن ونبأ عظيم .

وقد تنوزع في هذا القائل : فمن الناس من رأى أنه ابليس ظهر في ذلك اليوم في جمعهم في صورة رجل من قريش كان قد مات ، وزعموا أن اللات والعزى أحيتاه لذلك المشهد .

ومنهم من رأى أنه بعض رجالهم وحكمائهم ومن كانت له فطنة .

كسوة

فلما استتمت قريش بناء الكعبة كستها أردية الزعماء ، وهي الوصائل ، وأعادوا الصور التي كانت مصورة في الكعبة ، وأتقنوا شكل ذلك واحكامه .

وكان أبو طالب حاضرا ، فلما سمع هذا الكلام من القائل في النبي صلى الله عليه وسلم ، وما يكون من أمره في المستقبل ، أنشأ يقول :

إن لنا أوله وآخره في الحكم العدل الذي لا ننكره
وقد جهدنا جهدنا ليغمره وقد عهدنا أوله وآخره
فان يكن حقا ففينا أكثره

وكان من بناء الكعبة الى أن بعثه الله صلى الله عليه وسلم خمس سنين ، ومن مولده الى يوم مبعثه أربعون سنة ويوم .

تحديد المولد

والذي صح من مولده عليه الصلاة والسلام أنه كان بعد قدوم أصحاب الفيل مكة بخمسين يوما ، وكان قدومهم مكة يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ثمانمائة واثنتين وثمانين من عهد ذي القرنين . وكان قدوم أبرهة مكة لسبع عشرة خلت من المحرم ولست عشرة ومائتين من تاريخ العرب ، الذي أوله حجة الغدر ولسنة أربعين من ملك كسرى أنو شروان .

وكان مولده عليه الصلاة والسلام لثمان خلون من ربيع الأول من هذه السنة بمكة ، في دار ابن يوسف ، ثم بعد ذلك بنتها الخيزران أم الهادي والرشيد مسجدا .

وكان أبوه عبد الله غائبا بأرض الشام ، فانصرف مريضا ، فمات بالمدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم حمل . وقد تنوزع في ذلك ، فمنهم من قال : إنه مات بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم بشهر ، ومنهم من قال : إنه مات في السنة الثانية من مولده .

نسب أمه عليه السلام

وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب .
وفي السنة الأولى من مولده دفع الى حليمة بنت عبد الله بن الحارث ترضعه .
وفي السنة الثانية من كونه في بني سعد كان أبو عبد الله يقول :

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان
قد ساد في المهد على الغلمان أعيذه بالبيت ذي الأركان

وفي رواية أن عبد المطلب قال :

لا هم رب الراكب المسافر يحمد قلب بخير طائر
تنح عن طريقه الفواجر وحيه برصد الطواهر
واحبس كل حلف فاجر في درج الريح والأعاصر

احداث قبل النبوة

وفي السنة الرابعة من مولده شق الملكان بطنه ، واستخرجا قلبه ، فشقاه وأخرجا منه علقة سوداء ، ثم غسلا بطنه وقلبه بالثلج ، وقال أحدهما لصاحبه : زنه بعشرة من أمته . فوزنه فرجحح ، ثم ما زال يزيد حتى بلغ لألف ، فقال : والله لو وزنته بأمته لوزنها .

وفي السنة الخامسة ردته الى أمه مرضعته حليمة ، وقيل : في مستهل السادسة وبين ذلك وبين عام الفيل خمس سنين وشهران وعشرة أيام .

وفي السنة السابعة من مولده خرجت به أمه الى أخواله تزورهم ، فتوفيت بالأبواء ، وقدمت به أم أيمن الى مكة بعد خامسة من موت أمه .

وفي السنة الثامنة من مولده توفي جده عبد المطلب ، وضمه عمه أبو طالب اليه ، وكان في حجره .

وخرج مع عمه الى الشام ، وله ثلاث عشرة سنة .

ثم خرج في تجارة لخديجة بنت خويلد الى الشام مع غلامها ميسرة وهو ابن خمس وعشرين سنة .

***

قال المسعودي : وقد أتينا على مبسوط هذا الباب ، في كتابينا : « أخبار الزمان » والأوسط .

ذكر مبعثه صلى الله عليه وسلم وما جاء من ذلك إلى هجرته

مجمل

ثم بعث الله رسوله ، وأكرمه بما اختصه به من نبوته ، بعد بنيان الكعبة بخمس سنين على ما قدمنا آنفا ، وهو ابن أربعين سنة كاملة ، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، واخفى أمره ثلاث سنين .

ونكح خديجة بنت خويلد وله خمس وعشرين سنة .

وأنزل عليه بمكة من القرآن اثنتان وثمانون سورة ، ونزل تمام بعضها بالمدينة .

وأول ما نزل عليه من القرآن « اقرأ باسم ربك الذي خلق » .

وأتاه جبريل صلى الله عليه وسلم في ليلة السبت ، ثم في ليلة الأحد ، وخاطبه بالرسالة في يوم الاثنين ، وذلك بحراء ، وهو أول موضع نزل فيه القرآن ، وخاطبه بأول السورة الى قوله تعالى « علم الانسان ما لم يعلم » . ونزل تمامها بعد ذلك .

وخوطب بفرض الصلوات ركعتين ركعتين ، ثم أمر بإتمامها بعد ذلك ، وأقرت ركعتين في السفر وزيد في صلاة الحضر .

تحديد المبعث

وكان مبعثه صلى الله عليه وسلم على رأس عشرين سنة من ملك كسرى أبرويز ، وذلك على رأس مائتي سنة من يوم التحالف بالربذة ، وذلك لستة آلاف ومائة وثلاث عشرة سنة من هبوط آدم عليه السلام .

وقد ذكر مثل هذا عن بعض حكماء العرب في صدر الاسلام ممن قرأ الكتب السالفة على حسب ما استخرج منها ، وفي ذلك يقول في أرجوزة طويلة :

في رأس عشرة من السنين ... الى ثلاث حصلت يقين
والمائة المعدودة التمام ... الى ألوف سدست نظام
أرسله الله لنا رسولا ... وكان فينا هادي السبيلا

اسلام علي بن أبي طالب

وقد تنوزع في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه واسلامه :

فذهب كثير من الناس الى أنه لم يشرك بالله شيئا فيستأنف الاسلام ، بل كان تابعا

للنبي صلى الله عليه وسلم في جميع أفعاله ، مقتديا به ، وبلغ وهو على ذلك ، وأن اللـه عصمه وسدده ووفقه لتبعيته لنبيه عليه السلام ، لأنهما كانا غير مضطرين ولا مجبورين على فعل الطاعات ، بل مختارين قادريـن ، فاختارا طاعـة الـرب ، وموافقة أمره ، واجتناب منهياته .

ومنهم من رأى أنه أول من آمن ، وأن الرسول دعاه وهو موضع التكليف بظاهر قوله عز وجل : « وأنذر عشيرتك الأقربين » . وكان بدؤه بعلي اذ كان أقرب الناس اليه وأتبعهم له .

ومنهم من رأى غير ما وصفنا .

وهذا موضع قد تنازع الناس فيه من الشيعة ، وقد احتج كل فريق لقولـه ممن قال بالنص في الإمامة والاختيار ، وأرضى كل فريق كيفية اسلامه ومقدار سنيه .

وقد أتينا على الكلام في ذلك على الشرح والايضاح في كتابنا المترجم بـ « كتاب الصفوة في الإمامة » وفي كتاب « الاستبصار » وفي كتاب « الزاهي » وغيره من كتبنا في هذا المعنى .

اسلام أبي بكر ومن أسلم بإسلامه

ثم أسلم أبو بكر رضي الله عنه ، ودعا قومه الى الاسلام ، فأسلم على يديه عثمان بن عفان والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، فجاء بهم الى النبي صلى الله عليه وسلم فأسلموا .

فهؤلاء النفر سبقوا بالايمان .

وقد قال بعض من تقدم من الشعراء في صدر الاسلام يذكرهم :

فيـا سائلي عن خيـار العبا د ، صادفت ذا العلـم والخبره
خيـار العباد جميعـا قريش وخير قريش ذوو الهجره
وخير ذوي الهجرة السابقون ثمانيـة وحدهـم نصره
علي وعثمان ثم الزبير وطلحة ، واثنان من زهره
وشيخان قد جاورا أحمدا وجاور قبراهما قبره
فمن كان بعـدهما فاخرا فلا تذكـروا عندهـم فخره

أول من أسلم

وقد اختلف في أول من أسلم :

فمنهم من رأى أن أبا بكر الصديق كان أول الناس اسلاما ، وأسبقهم ايمانا ، ثم بلال ابن حمامة ، ثم عمرو بن عنبسة .

ومنهم من ذهب الى أن أول من أسلم من النساء خديجة ، ومن الرجال علي .

ومنهم من رأى أن أول من أسلم زيد بن حارثة ، حب النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم خديجة ، ثم علي كرّم الله وجهه .

وقد ذكرنا ما اجتبينا من القول في ذلك فيما قدمنا ذكره من كتبنا في هذا المعنى ، والله تعالى ولي التوفيق .

ذكر هجرته وجوامع مما كان في أيامه الى وقت وفاته صلى الله عليه وسلم

تقدمة

أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بالهجرة ، وفرض عليه الجهاد ، وذلك في سنة احدى من سني الهجرة ، وهي السنة التي نزل فيها الأذان ، وكانت سنة أربع عشرة من المبعث .

وكان ابن عباس يقول : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة ، وأقام بمكة ثلاث عشرة سنة ، وهاجر عشرا ، وقبض وهو ابن ثلاث وستين سنة .

تحديد المهجر

وكانت سنة احدى من الهجرة ، وهي سنة اثنتين وثلاثين من ملك كسرى أبرويز ، وسنة تسع من ملك هرقل ملك النصرانية ، وسنة تسعمائة وثلاث وثلاثين من ملك الاسكندر المقدوني .

الهجرة

قال المسعودي : وقد ذكرنا في الكتاب الأوسط كيفية فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في خروجه من مكة ودخوله الغار واستئجار علي له الإبل ، ونومه على فراشه .

فخرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة ، ومعه أبو بكر وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، وعبد الله بن أريقط الديلي دليل لهم على الطريق ، ولم يكن مسلما .

وكان مقام علي بن أبي طالب بعده بمكة ثلاثة أيام الى أن أدى ما أمر بأدائه ، ثم لحق بالرسول صلى الله عليه وسلم .

دخول المدينة

وكان دخوله عليه الصلاة والسلام الى المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ، فأقام بها عشر سنين كوامل ، وكان نزوله عليه الصلاة والسلام في حال موافاته بالمدينة بقباء على سعد بن خيثمة وابتنى المسجد .

وكان مقامه بقباء يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس .

وسار يوم الجمعة ارتفاع النهار ، وأتته الأنصار حيا حيا يسأله كل فريق منهم النزول عليه ، ويتعلقون بزمام راحلته وهي تجذبه ، فيقول عليه الصلاة والسلام : « خلوا عنها فانها مأمورة » ، حتى أدركته الصلاة في بني سالم ، فصلى بهم يوم الجمعة ، وكانت تلك أول جمعة صليت في الاسلام .

وهذا موضع تنازع الفقهاء في العدد الذي تتم بهم صلاة الجمعة : فذهب الشافعي في آخرين معه الى أن الجمعة لا تجب اقامتها حتى يكون عدد المصلين أربعين فصاعدا ، وأقل من ذلك لا يجزي ، وخالفه غيره من الفقهاء من أهل الكوفة وغيرهم .

وكانت صلاته في بطن الوادي المعروف بوادي رانوناء الى هذه الغاية .

ثم استوى على ناقته ، فسارت لا تعرج على شيء ، ولا يردها راد ، حتى أتت الى موضع مسجده عليه الصلاة والسلام ـ والموضع يومئذ لغلامين يتيمين من بني النجار ـ فبركت ، ثم سارت فمضت غير بعيد ، ثم عادت الى مبركها فبركت واطمأنت ، والنبي صلى الله عليه وسلم يراعي أحكام الباري فيه ، وتوفيقه له .

فنزل عنها ، وسار الى منزل أبي أيوب الأنصاري ـ وهو خالد بن كليب بن ثعلبة بن عوف بن سحيم بن مالك بن النجار ـ فأقام في منزله شهرا حتى ابتنى المسجد من بعد ابتياعه الموضع .

وأحدقت به الأنصار واشتد سرورهم به ، وأظهروا التأسف على ما فاتهم من نصرته . وفي ذلك يقول صرمة بن أبي أنس أحد بني عدي بن النجار من قصيدة :

ثوى في قريش بضع عشرة حجة	يذكر لا يلقى صديقا مواتيا
ويعرض في أهل المواسم نفسه	فلم ير من يوفي ولم ير داعيا
فلما أتانا أظهر الله دينه	وأصبح مسرورا بطيبة راضيا
وأصبح لا يخشى من الناس واحدا	بعيدا ، ولا يخشى من الناس دانيا
بذلنا له الأموال في كل ملكنا	وأنفسنا عند الوغى والتآسيا
ونعلم أن الله لا رب غيره	وأن رسول الله للحق رائيا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم	جميعا ، وإن كان الحبيب المصافيا

فافترض صيام شهر رمضان ، وحولت القبلة الى الكعبة بعد قدومه بثمانية عشر شهرا ، وقد قيل : إنه أنزل عليه بالمدينة من القرآن اثنتان وثلاثون سورة .

علته ووفاته صلى الله عليه وسلم

ثم قبضه الله يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول سنة عشر في الساعة التي دخل فيها المدينة ، في منزل عائشة رضي الله عنها ، وكانت علته اثني عشر يوما .

غزواته

وكانت غزواته صلى الله عليه وسلم بنفسه ستا وعشرين غزوة ، ومنهم من رأى أنها

سبع وعشرون : الأولون جعلوا منصرف النبي صلى الله عليه وسلم من خيبر الى وادي القرى غزوة واحدة ، والذين جعلوها سبعا وعشرين جعلوا غزوة خيبر مفردة ووادي القرى منصرفه اليها غزوة أخرى غير خيبر .

فوقع التنازع في أعداد الغزوات من هذا الوجه ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين فتح الله خيبر انصرف منها الى وادي القرى من غير أن يأتي المدينة .

ترتيبها

وكان أول غزواته صلى الله عليه وسلم من المدينة بنفسه الى ودان ، وهي المعروفة بغزوة الأبواء .

ثم غزوة بواط الى ناحية رضوى .

ثم غزوة العشيرة من بطن ينبع .

ثم غزوة بدر الأولى ، وكان خروجه طلبا لكرز بن جابر .

ثم غزوة بدر الكبرى ، وهي بدر الثانية التي قتل فيها صناديد قريش وأشرافها وأسر من أسر من زعمائهم .

ثم غزوة بني سليم حتى بلغ الموضع المعروف بالكدر ماء لبني سليم .

ثم غزوة السويق طلبا لأبي سفيان بن حرب فبلغ فيها الموضع المعروف بقرقرةالكدر .

ثم غزوة غطفان الى نجد وتعرف هذه الغزوة بغزوة ذي أمر .

ثم غزوة بحران وهو موضع بالحجاز من وق الفرع .

ثم غزوة أحد .

ثم غزوة حمراء الأسد .

ثم غزوة بني النضير .

ثم غزوة ذات الرقاع من نجد .

ثم غزوة بدر الأخيرة .

ثم غزوة دومة الجندل .

ثم غزوة المريسيع .

ثم غزوة الخندق .

ثم غزوة بني قريظة .

ثم غزوة بني لحيان بن هذيل بن مدركة .

ثم غزوة ذي قرد .

ثم غزوة بني المصطلق من خزاعة .
ثم غزوة الحديبية . . . لا يريد قتالا فصده المشركون .
ثم غزوة خيبر .
ثم اعتمر عليه السلام عمرة القضاء .
ثم فتح مكة .
ثم غزوة حنين .
ثم غزوة الطائف .
ثم غزوة تبوك .

قاتل منها في تسع غزوات : بدر ؛ وأحد ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، والفتح ، وحنين ، والطائف ، وتبوك .

قول الواقدي في غزواته

هذا قول محمد بن اسحاق ، فأما ما ذهب اليه الواقدي فانه وافق ابن اسحاق في قتال النبي صلى الله عليه وسلم في هذه التسع الغزوات . وزاد أن النبي صلى الله عليه وسلم قاتل في غزاة وادي القرى ، وذلك أن غلامه المعروف بمدعم رمي بسهم فقتل ، وقاتل في يوم الغابة فقتل من المشركين ستة نفر ، وقتل يومئذ محرز بن نضلة .

ففي قول الواقدي أنه قاتل في احدى عشرة غزوة ، وفي قول ابن اسحاق في تسع . فقتاله في التسع باتفاق منهما ، وزاد الواقدي على ما ذكرنا .

وقد قيل : إن أول غزوة غزاها عليه السلام ذات العشيرة .

سراياه وبعوثه

وقد تنازع من سلف من أهل السير والأخبار في عدة سراياه وبعوثه .

فقال قوم : إن عدة سراياه وبعوثه بين أن قدم المدينة وبين أن قبضه الله خمس وثلاثون بعثا وسرية .

وذكر محمد بن جرير الطبري في كتابه في التاريخ قال : حدثني الحارث قال : حدثنا ابن سعد قال : قال محمد بن عمرو الواقدي : كانت سرايا النبي صلى الله عليه وسلم ثمانيا وأربعين سرية ، وقيل : إن سراياه صلى الله عليه وسلم وبعوثه كانت ستة وستين .

مشاهير الأحداث

وقبض صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة على حسب ما تقدم في صدر هذا الباب من قول ابن عباس ، ولم يخلف من الولد الا فاطمة عليها السلام ، وتوفيت بعده بأربعين يوما ، وقيل : سبعين يوما ، وقيل غير ذلك .

وكان تزوج علي بن أبي طالب لفاطمة عليهما السلام بعد سنة مضت من الهجرة ، وقيل أقل من ذلك .

وكانت أول امرأة تزوج بها النبي صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وكانت وفاتها في شوال بعد مبعثه بثلاث سنين .

وأسرى به وهو ابن احدى وخمسين سنة وثمانية أشهر وعشرين يوما .

وكانت وفاة عمه أبي طالب ـ واسمه عبد مناف بن عبد المطلب ـ بعد وفاة خديجة بثلاثة أيام ، وهو ابن تسع وأربعين سنة وثمانية أشهر ، وقد قيل إن أبا طالب اسم له .

وتزوج بعد وفاة خديجة بسودة بنت زمعة بن قيس بن عبد ود بن نضر بن مالك بن حسل .

وتزوج بعائشة رضي الله عنها قبل الهجرة بسنتين ، وقيل : تزوجها بعد وفاة خديجة ، ودخل بها بعد الهجرة بسبعة أشهر وتسعة أيام .

وقد أتينا على ذكر سائر أزواجه في الكتاب الأوسط ، فأغنى ذلك عن اعادته .

روى جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي عن أبيه علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : إن الله عز وجل أدب محمدا صلى الله عليه وسلم فأحسن تأديبه ، فقال : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » .

فلما كان كذلك قال الله تعالى : « وانك لعلى خلق عظيم » . . .

فلما قبل من الله فوض اليه فقال : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » . وكان يضمن على الله الجنة ، فأجيز له ذلك .

وكان عدة من تزوج من النساء خمس عشرة دخل باحدى عشرة منهن ، ولم يدخل بأربع ، وقبض عليه السلام عن تسع .

النزاع في عمره عليه الصلاة والسلام

قال المسعودي : وقد تنوزع في مقدار عمره عليه الصلاة والسلام ، وقد قدمنا ما روي في ذلك عن ابن عباس ، وهو ما ذكره حماد بن سلمة عن أبي حمزة عن ابن عباس ، وقد روي عن أبي هريرة مثل قول ابن عباس .

وذكر عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن وهو ابن ثلاث وأربعين سنة ، وأقام بمكة عشرا ، وبالمدينة عشرا ، وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وكذلك ذكر عن عائشة قالت : توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وقد روي عن ابن عباس من وجه آخر أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قبض وهو ابن خمس وستين سنة .

وكذلك ذكر ابن هشام قال : حدثنا علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، وذكر قتادة عن الحسن عن دغفل ـ يعني ابن حنظلة ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي وهو ابن خمس وستين .

وقد قيل : إنه قبض وهو ابن ستين ، وذكر ذلك عن ابن عباس وعائشة وعروة بن الزبير .

وذكر حماد قال : أخبرنا عمرو بن دينار ، عن عروة بن الزبير ، قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة ، ومات وهو ابن ستين .

وذكر شيبان عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة قال : حدثتني عائشة رضي الله عنها وابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث وهو ابن اربعين سنة ، فلبث بمكة عشر سنين ، وبالمدينة عشر سنين ، وقبض وهو ابن ستين ، صلى اللّه عليه وسلم .

وإنما حكينا هذا الخلاف ليعلم من نظر في كتابنا هذا أنا لم نغفل شيئا مما قالوه ، ولا تركنا شيئا ذكروه ، إلا ذكرنا منه ما تأتى لنا ذكره وأشرنا اليه ، ميلا الى الاختصار وطلباً للايجاز .

وفاته وتكفينه ودفنه
صلى الله عليه وسلم

والذي وجدنا عليه آل محمد عليه الصلاة والسلام أنه قبض ابن ثلاث وستين سنة . ولما غسل عليه الصلاة والسلام كفن في ثلاثة أثواب : ثوبين صحاريين ، وثوب حبرة ، أدرج فيها ادراجا . ونزل في قبره علي بن أبي طالب والفضل وقثم ابنا العباس وشقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ذكر في مقدار الثياب للكفن غير ما ذكرنا ، والله أعلم بكيفية ذلك .

ولنرجع الآن الى ذكر لمع من أموره وأخبار كانت من مولده الى وفاته صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم .

ذِكر أمور وَأحوال مِن مَولِدِه الى وَفَاتِهِ صَلّى الله عَلَيهِ وَسَلّمَ

تقدمة

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب من ذكر مولده عليه الصلاة والسلام ومبعثه ووفاته جوامع يكتفي بها العالم المستبصر ، ويتنبه بها الطالب المسترشد ، وذكرنا جملا من الكوائن والأحداث في تضاعيف ذلك ، وأفردنا هذا الباب لذكر ترتيب جمل من السنين من مولده الى وفاته ، وجمل أحداث وكوائن كانت في أيامه ، ليقرب تناول ذلك على مريـده ، ويسهـل مأخذه على الطالب له ، وإن كنا قد أتينا على لمع من مبسوط هذا الباب فيما نقدمه من الأبواب ان شاء الله تعالى .

السنة الأولى من مولده

ففي أول سنة من مولده دفع الى حليمة بنت عبد الله بن الحارث بن شجنة بن جابر بن رزام بـن ناصر بن سعد بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان ابن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

السنة الخامسة

وفي السنة الخامسة من مولده ردته حليمة الى أمه ، على حسب ما ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب .

السنة السادسة

وفي السنة السادسة أخرجته أمه الى أخواله زائرة فتوفيت بالأبواء بين مكة والمدينة ، ونمي ذلك الى أم أيمن ، فخرجت اليه ، وقدمت به الى مكة ، وكانت مولاة له قد ورثها عن أمه .

خروجه الى الشام

وفي السنة التاسعة خرج مع عمه أبي طالب الى الشام ، وقيل : انه خرج مع عمه أبي طالب الى الشام وله ثلاث عشرة سنة . وقد كان أبو طالب أخا عبد الله أبي النبي صلى الله عليه وسلم لأبيه وأمه ، فلذلك كفل بأمر النبي صلى الله عليه وسلم من بين سائر اخوته ، وهم : العباس ، وحمزة ، والزبير ، وحجل ، والمقوم ، وضرار ، والحارث ، وأبو لهب ، وهم عشرة بنو عبد المطلب ..

وكان لعبد المطلب ستة عشر ولدا : عشرة ذكور ، وهم من سمينا ، وست اناث ،

وهن : عاتكة ، وصفية ، وأميمة ، والبيضاء ، وبرّة ، وأروى ، ولم يسلم منهن الا صفية أم الزبير بن العوام ، وقد تنوزع في أروى : فمنهم من قال إنها أسلمت ، ومنهم من خالف ذلك .

وفي خروجه عليه السلام مع عمه في هذه السنة نظر اليه بحيرا الراهب ، وأوصاهم بمراعاته من اليهود فانهم أعداؤه لعلمهم بما يكون من نبوته على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب عند ذكرنا لخبر بحيرا الراهب وما كان من اخباره بنبوته صلى الله عليه وسلم ، وذلك في باب أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد عليهما السلام .

شهوده الفجار

وقد قدمنا أنه عليه الصلاة والسلام شهد يوم حرب الفجار ، وذلك في سنة احدى وعشرين ، وأنها حرب كانت بين قريش وقيس عيلان ، فيما سلف من هذا الكتاب وغيره ، وأنها انما سميت بهذا الاسم الذي هو الفجار لأنها كانت في الأشهر الحرم ، وكانت لقيس على قريش .

وأن النبي صلى الله عليه وسلم لما شاهدها صارت لقريش على قيس ، وكان على قريش يومئذ عبد الله بن جدعان التيمي ، وكان نخاسا في الجاهلية بياعا للجواري ، وكانت هذه احدى الدلائل المنذرة بنبوته عليه السلام والتيمن بحضوره .

سنة ست وعشرين

وفي سنة ست وعشرين كان تزويجه بخديجة بنت خويلد ، وهي يومئذ بنت أربعين ، وقيل في سنها غير هذا

ست وثلاثين

وفي سنة ست وثلاثين بنت قريش الكعبة ، وتراضت به ، فوضع الحجر على حسب ما قدمنا .

احدى وأربعين .

وفي سنة احدى واربعين بعثه الله نبيا ورسولا الى كافة الناس ، وذلك يوم الاثنين لعشر خلون من ربيع الأول ، على حسب تنازع الناس في تاريخ مبعثه عليه الصلاة والسلام .

ست وأربعين

وفي سنة ست وأربعين كان حصار قريش للنبي صلى الله عليه وسلم وبني هاشم وبني عبد المطلب في الشعب .

خمسين

وفي سنة خمسين كان خروجه صلى الله عليه وسلم ومن تبعه من الشعب .

وفي هذه السنة كانت وفاة خديجة زوجه وفيها كان خروجه الى الطائف على حسب ما ذكرنا .

احدى وخمسين

وفي سنة احدى وخمسين كان الاسراء به صلى الله عليه وسلم الى بيت المقدس ، على حسب ما نطق به التنزيل .

أربع وخمسين

وفي سنة أربع وخمسين كانت هجرته صلى الله عليه وسلم الى المدينة ، وفيها بنى صلى الله عليه وسلم مسجده . وفيها دخل بعائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها وهي ابنة تسع ، وتزوج بها قبل الهجرة وهي بنت سبع ، وقيل : انه تزوجها وهي بنت ست سنين ، وبنى بها في المدينة بعد الهجرة بسبعة أشهر .

وقيل عن عائشة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض وهي بنت ثماني عشرة سنة ، وكانت وفاتها سنة ثمان وخمسين من الهجرة بالمدينة ، وصلى عليها أبو هريرة في أيام معاوية بن أبي سفيان وقد قاربت السبعين .

وفيها أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآذان ، وأرى عبد الله بن زيد كيفية الأذان في منامه ، وفيها كان تزوج علي بن أبي طالب بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على حسب ما ذكرنا من التنازع في التاريخ .

اثنتين من الهجرة

وفي سنة اثنتين من الهجرة افترض على المؤمنين صوم شهر رمضان .

وفي هذه السنة أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتوجه الى الكعبة ، وفيها توفيت ابنته رقية ، وفي آخر هذه السنة (وهي سنة اثنتين من الهجرة) كان دخول علي بن أبي طالب بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها كانت وقعة بدر ، وذلك في يوم الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان .

ثلاث من الهجرة

وفي سنة ثلاث كان تزويجه بزينب بنت خزيمة ، وكانت وفاتها بعد شهرين .

وفي هذه السنة كان تزويجه بحفصة بنت عمر بن الخطاب ، وفيها كان تزويج عثمان ابن عفان بأم كلثوم ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها كان مولد الحسن بن علي بن ابي طالب على ما في ذلك من التنازع في التاريخ ، وفيها كانت غزوة أحد ، وفي هذه الغزوة استشهد حمزة بن عبد المطلب .

اربع من الهجرة

وفي سنة أربع كانت غزوته المعروفة بذات الرقاع ، وفي هذه الغزاة صلى صلاة الخوف بالناس ، على حسب ما ذكر في كيفية ذلك من التنازع ، وفيها كان تزويجه بأم سلمة بنت أبي أمية ، وفيها كانت غزوته الى اليهود من بني النضير وامتنعوا منه بحصونهم ، فقطعوا نخلهم وشجرهم ، وأضرموا النار عليهم ، فلما رأى ذلك صالحهم .

وفيها كانت غزوته الى بني المصطلق ، وفيها (وهي سنة أربع) كان مولد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ، وقد قيل إن مولد فاطمة رضي الله تعالى عنها كان قبل الهجرة بثماني سنين .

خمس من الهجرة

وفي سنة خمس كانت غزوة الخندق وما كان فيها من حفر الخندق ، وفيها غزا اليهود من بني قريظة ، وكان من أمرهم ما قد شهر ، وفيها كان تزويجه بزينب بنت جحش ، وفيها كان تقوّل أهل الافك على عائشة رضي الله تعالى عنها .

ست من الهجرة

وفي سنة ست كان استسقاؤه عليه السلام لما لحق الناس من الضر والجدب ، وفيها اعتمر عمرته المعروفة بعمرة الحديبية وواعد المشركين ، وفيها أخذ فدك ، وفيها تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان ، ووجه بالرسل الى كسرى وقيصر ، وكان فيها أداؤه لكتابة جويرية بنت الحارث وتزويجه بها .

سبع من الهجرة

وفي سنة سبع غزا خيبر فافتتحها ، واصطفى صفية بنت حيى بن أخطب لنفسه ، وفيها تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية خالة عبد الله بن عباس في سفره حين اعتمر عمرة القضاء على ما ذكر من التنازع في نكاحه لها ، أفي حال حله نكحها أم في حال احرامه ، وما قال الفقهاء في ذلك ، وتنازع الناس في نكاح المحرم .

وفيها كان قدوم حاطب بن أبي بلتعة من مصر من عند المقوقس ملكها ومعه مارية القبطية أم ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك من هدايا المقوقس اليه .

وفيها كان قدوم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة ، ومعه أولاده وزوجته وغيرهم من المسلمين ممن كان بأرض الحبشة .

ثمان من الهجرة

وفي سنة ثمان استشهد جعفر بن أبي طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة بأرض مؤتة من أرض البلقاء من أرض الشام وأعمال دمشق في وقعتهم مع الروم ، وفيها كانت وفاة

زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : غير ذلك من التاريخ .

فتح مكة

وفي سنة ثمان كان افتتاح النبي صلى الله عليه وسلم مكة ، وقد تنازع الناس في فتحها أصلحا كان أم عنوة ؟ وفيها كسرت الأصنام ، وهدمت العزى ، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يا معشر قريش ، ما ترون اني فاعل بكم ؟ » .

قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وفيها غزا غزوة حنين ، وكان على هوازن مالك بن عوف النضري ومعه دريد بن الصمة . وفيها كانت غزوة الطائف ، وفيها كان اعطاؤه للمؤلفة قلوبهم وفيهم أبو سفيان صخر بن حرب وابنه معاوية ، وفيها كان مولد ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مارية القبطية .

تسع من الهجرة

وفي سنة تسع حج أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالناس ، وقرأ علي بن أبي طالب عليهم سورة براءة ، وأمر ألا يحج مشرك ، وأنه لا يطوف بالبيت عريان . وفيها كانت وفاة أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عشر من الهجرة

وفي سنة عشر حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، وقال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » .

وفيها كانت وفاة ابراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام ، وقيل غير ذلك . وفيها كان بعثه عليه السلام بعلي الى اليمن ،وأحرم كاحرام النبي صلى الله عليه وسلم .

احدى عشرة من الهجرة

وفي سنة احدى عشرة كانت وفاته صلى الله عليه وسلم على حسب ما قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب قبل هذا الباب من ذكر وفاته ومقدار عمره وما قاله الناس في ذلك .

وفيها كانت وفاة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم على حسب ما ذكرنا من تنازع الناس في مقدار عمرها ومدة بقائها بعد أبيها ومن الذي صلى عليها : العباس بن عبد المطلب أم بعلها علي .

ولما قبضت جزع عليها بعلها علي جزعا شديدا واشتد بكاؤه وظهر أنينه وحنينه وقال في ذلك :

لكــل اجتماع من خليلــين فرقة وكــل الــذي دون الممات قليل
وإن افتقادي فاطما بعــد أحمد دليــل على ألا يدوم خليل

أولاده عليه الصلاة والسلام

وكل أولاده صلى الله عليه وسلم من خديجة خلا ابراهيم : ولد له صلى الله عليه وسلم القاسم ، وبه كان يكنى ، وكان أكبر بنيه سنا ، ورقية وأم كلثوم ـ وكانتا تحت عتبة وعتيبة ابني أبي لهب عمه فطلقاهما لخبر يطول ذكره ، فتزوجهما عثمان بن عفان واحدة بعد واحدة ـ وزينب ، وكانت تحت أبي العاص بن الربيع ، وفرق الاسلام بينهما ، ثم أسلم فردها عليه بالنكاح الأول .

وهذا موضع خلاف بين أهل العلم في كيفية رده عليه السلام لزينب على أبي العاص .

وولدت من أبي العاص امامة ، وتزوجها علي بعد موت فاطمة عليهما السلام .

وولد له عليه الصلاة والسلام بعد ما بعث عبد الله وهو الطيب والطاهر ـ الثلاثة الأسماء ، لأنه ولد في الاسلام ـ وفاطمة ، وابراهيم .

وقد أتينا في كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط على ما كان في سنة سنة من مولده عليه السلام الى مبعثه ، ومن مبعثه الى هجرته ، ومن هجرته الى وفاته ، ومن وفاته الى وقتنا هذا (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) وما كان في ذلك من المغازي والفتوح ، والسرايا والبعوث ، والطرائق والأحداث ، وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعا منبهين بذلك على ما سلف من كتبنا .

ومذكرين لما تقدم من تصنيفنا ، وبالله التوفيق .

ذكر ما بدا به عليه الصلاة والسلام من الكلام مما لم يحفظ قبله عن أحد من الأنام

تقدمة

قال أبو الحسن علي بن الحسين بن علي بن عبد الله المسعودي : بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، ومبشرا للناس اجمعين ، وقرنه الله بالآيات والبراهين النيرات، وأتى بالقرآن المعجز ، فتحدى به قوما وهم الغاية في الفصاحة ، والنهاية في البلاغة ، وأولو العلم باللغة والمعرفة بأنواع الكلام من الرسائل والخطب والسجع والمقفى والمنثور والمنظوم والأشعار في المكارم وفي الحث والزجر والتحضيض والإغراء والوعد والوعيد والمدح والتهجين . . . فقرع به أسماعهم ، وأعجز به أذهانهم ، وقبح به أفعالهم ، وذم به آراءهم ، وسفه به أحلامهم ، وأزال به دياناتهم ، وأبطل به سنتهم . ثم أخبر عن عجزهم مع تظاهرهم ألا يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، مع كونه عربيا مبينا .

وقد تنازع الناس في نظم القرآن واعجازه ، وليس الغرض من هذا الكتاب وصف أقاويل المختلفين ، والأخبار عن كلام المتنازعين ، اذ كان كتاب خبر ،لا كتاب بحث ونظر .

أتاه الله الحكمة

ثبت عنه عليه السلام بالعلم الموروث ، ونقل الينا الباقي عن الماضي من بعد قيام الأدلة على صدقه ، وما أورد من المعجزات والدلائل والعلامات التي أظهرها الله على يديه ليؤدي رسالات ربه الى خلقه أنه قال : « أوتيت جوامع الكلم » .

وقال : « اختصر لي الكلام » . . . مخبرا عما أوتيه من الحكمة والبيان غير القرآن المعجز ، وهو ما أوتيه عليه الصلاة والسلام من الحكمة والنطق اليسير ، والكلام القصير المفيد للمعاني الكثيرة والوجوه المتفرقة ، مع ما فيه من الحكمة وتمام المصلحة .

وكان كلامه صلى الله عليه وسلم أحسن المقال وأوجزه ، لقلة ألفاظه ، وكثرة معانيه .

موجز من كلامه

فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم عند عرضه لنفسه على القبائل بمكة ومعه أبو بكر وعلي ووقوفه على بكر بن وائل ، وتقدم أبي بكر اليهم ، وما جرى بينه وبين دغفل من الكلام في النسب « البلاء موكل بالمنطق » وهذا مما سبق اليه من الكلام ولم يضف الى غيره من الأنام .

ثم اخباره عن الحرب وقوله « الحرب خدعة » ، فعلم بهذا اللفظ اليسير والكلام الوجيز أن آخر مكايد الحرب القتال بالسيف ، إذ كان بدؤها خدعة ، كما قال عليه السلام ـ وهذا يعرفه كل ذي رأي صحيح وذي رياسة وسياسة .

ثم قال : « العائد في هبته كالعائد في قيئه » ، زاجرا بهذا القول للواهب أن يسترجع شيئا وهبه ، اذ كان القيء لا يرجع فيه من قاءه .

وللناس في هذا المعنى كلام كثير وخطب طويل ، وإنما الغرض فيما نذكر ايراد كلامه صلى الله عليه وسلم ، ووصف قوله الذي لم يتقدمه به أحد من الناس .

وقوله « احثوا في وجوه المداحين التراب » ، المراد من ذلك اذا كذب المادح ، ولم يرد عليه السلام اذا شكر الانسان غيره بما أولاه أو وصفه بما هو فيه أو قال ماله أن يقول أن يحثى في وجهه التراب ، ولو كان هذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم اذن ما مدح أحد أحدا ، إذ كان هذا النهي عموما للصادق والكاذب ، وأن يحثى في وجه الجميع التراب .

وهذا خلاف ما جاء به التنزيل حيث يقول عز وجل مخبرا عن نبيه يوسف وقوله للملك : « اجعلني على خزائن الأرض ، إني حفيظ عليم » ، فقدم مدح نفسه ووصف حاله .

وجميع ما يذكر في هذا الباب مستفيض في السير والأخبار ، متعارف عند العلماء ، متداول بين الحكماء ، يتمثل به كثير من الناس ، وتستعمل العوام كثيرا منه في ألفاظها ، وتورده في أمثالها وخطاباتها ، والأكثر منهم لا يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من تكلم به ، وسبق الى ايراده .

وقال عليه الصلاة والسلام ; « مطل الغني ظلم ، ومن أتبع على ملىء فليتبع » .

وقوله : « الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

« رأس الحكمة مخافة الله » .

« يا خيل الله اركبي وأبشري بالجنة » .

« الآن حمي الوطيس » .

« لا ينتطح فيها عنزان » .

« لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

« لا يجني على المرء الا يده » .

« ليس الخبر كالمعاينة » .

« الشديد من غلب نفسه » .

« بورك لأمتي في بكورها » .

« ساقي القوم آخرهم شربا » .

« المجالس بالأمانات » .

« لو بغى جبل على جبل لدك الباغي منهما » .

« ابدأ بمن تعول » .

« مات حتف أنفه » ، يريد بذلك الفجأة ، وأنه مات من غير علة ولا حال أوجبت ولا سبب من أسباب الموت تقدمت .

« لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنما والزكاة مغرما » .

« قيدوا العلم بالكتابة » .

« خير المال عين ساهرة لعين نائمة » .

« المسلم مرآة المسلم » .

« رحم الله من قال خيرا فغنم أو سكت عن شر فسلم » .

« المرء كثير باخوانه » .

« اليد العليا خير من اليد السفلى » .

« ترك الشر صدقة » .

« فضل العلم خير من فضل العبادة » .

« الغنى غنى النفس » .

« الأعمال بالنيات » .

« أي داء أدوأ من البخل » .

« الحياء خير كله » .

« الخيل معقود بنواصيها الخير » .

« السعيد من وعظ بغيره » .

« عدة المؤمن كأخذ باليد » .

« إن من الشعر لحكمة ومن البيان لسحرا » .

« عفو الملوك بقاء للملك » .

« ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء » .

« المكر والخديعة في النار » .

« المرء مع من أحب ، وله ما اكتسب » .

« ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا » .

« المستشار مؤتمن » .

« من قتل دون ماله فهو شهيد » .
« لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث » .
« الدال على الخير كفاعله » .
« الندم توبة » .
« الولد للفراش وللعاهر الحجر » .
« كل معروف صدقة » .
« لا يشكر الله من لا يشكر الناس » .
« لا يؤوي الضالة الا ضال » .
« حبك الشيء يعمي ويصم » .
« السفر قطعة من العذاب » .
وقوله للأنصار : « انكم لتقلون عند الطمع وتكثرون عند الفزع » .
وقوله : « المسلمون عند شروطهم الا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا » .
« الرجل أحق بصدر مجلسه وصدر دابته » .
« الناس معادن كمعادن الذهب والفضة » .
« الظلم ظلمات يوم القيامة » .
« تمام التحية المصافحة » .
« جبلت النفوس على حب من أحسن اليها » .
« أمنك من أعتبك » .
« ما نقص مال من صدقة » .
« التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .
« الشاهد يرى ما لا يرى الغائب » .
« خذ حقك في عفاف واف أو غير واف » .
« أعطوا الأجير اجرته قبل أن يجف عرقه » .
« أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف يوم القيامة » .
« الجنة تحت ظلال السيوف » .
« ليس بمؤمن من خاف جاره بوائقه » .
« اتقوا النار ولو بشق تمرة » .
« أعروا النساء يلزمن الحجاب » .
« الكلمة الطيبة صدقة » .

« لا خير لك في صحبة من لا يرى لك مثل ما يرى لنفسه » .
« الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » .
« ما أملق تاجر صدق » .
« الدعاء سلاح المؤمن » .
« خير الأمور أوسطها » .
« اذا أتاكم الزائر فأكرموه » .
« اشفعوا تحمدوا أو تؤجروا » .
« الايمان الصبر والسماحة » .
« أفضلكم أفضلكم معرفة » .
« ما هلك امرؤ عن مشورة» .
« ما عال امرؤ اقتصد » .
« ما هلك امرؤ عرف قدره » .
« شر العمى عمى القلب » .
« الكذب مجانب للايمان » .
« ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » .
« من أثنى فقد كفى » .
« قلة الحياء كفر » .
« المؤمنون هينون لينون » .
« شر الندامة يوم القيامة » .
« شر المعذرة عند الموت » .
« أقبلوا عثرات الكرام » .
« اطلبوا الخير عند صباح الوجوه » .
« الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستعملكم فيها ينظر كيف تعملون » .
« انتظار الفرج عبادة » .
« كادت الفاقة أن تكون كفرا » .
« لم يبق من الدنيا الا بلاء وفتنة » .
« في كل عام ترذلون » .
« زر غبا تزدد حبا » .
« الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس » ، أو قال « جمع الناس » .

وقوله : « لا يلقى الله أحد الا نادما : من عمل خيرا قال يا ليتني ازددت ، ومن عمل غير ذلك قال يا ليتني قصرت » .

وهذا مثل قوله : « اياكم والتسويف وطول الأمل ، فإنه كان سببا لهلاك الأمم » .

وقوله : « ليس منا من غشنا » ، وهذا القول يحتمل معاني كثيرة : منها أن يكون اخبارا أن من غش المسلمين على حسب الحال في الوقت أن بعض أهل الكتاب أو المنافقين أخبر عنه بما كان من فعله ، ويحتمل ان يكون على طريق الزجر والنهي عن الغش .

وقد قيل غير ذلك ، والله أعلم ، مثل ما روى عنه أبو مسعود البدري أنه قال : « لا يبقى على وجه الأرض بعد مائة أحد الا مات » . فاستفاضت هذه الرواية عن أبي مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فجزع الأكثر ، فأفضى ذلك الى علي رضي الله عنه ، فقال : صدق أبو مسعود فيما قال ، وذهب عنه المراد بذلك ، وإنما مراد النبي صلى الله عليه وسلم ألا يبقى على وجه الأرض أحد بعد رأس مائة ممن رأى النبي صلى الله عليه وسلم الا مات .

وقوله : « استعينوا على أموركم بالكتمان ، وعلى قضاء حوائجكم بالأسرار » .

ذكر بعض من جمع موجز
أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام

قال المسعودي : وقد جمع كثير ممن تقدم وممن شاهدناه كثيرا من ألفاظ النبي صلى الله عليه وسلم فأوردوها في كتبهم ، وذكروها في تصنيفهم . وقد أفرد أبو محمد بن الحسن بن دريد لذلك كتابا ترجمه بكتاب « المجتبى » يذكر فيه جملا من ألفاظه صلى الله عليه وسلم ، وكذلك ذكر أبو اسحاق الزجاجي النحوي ـ صاحب أبي العباس المبرد ـ وأبو عبد الله نفطويه ، وجعفر بن محمد بن حمدان الموصلي ، وغير هؤلاء ممن تقدم عنهم . . . أوردنا من ذلك في هذا الكتاب ما سهل ايراده وتأتى لنا ذكره ، على حسب الحاجة اليه واستحقاق الموضع له ، وإن كنا قد أتينا على جميع ما يحتاج اليه في هذه المعاني فيما سلف من كتبنا وتقدم من تصنيفنا ، فأغنى ذلك عن اعادتها ، والله تعالى ولي التوفيق . » .

ذِكر خِلافة أبي بكر الصّدّيق
رَضِيَ الله تعَالى عَنه

اجمال تاريخه

قال المسعودي ؛ ثم بايع الناس أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ، في سقيفة بني ساعدة بن كعب بن الخزرج الأنصاري ، في يوم الإثنين الذي توفي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتوفي أبو بكر ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، مستوفيا لعمر النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا اتفاق في سائر الروايات على ما ذكرنا .

وكان مولد أبي بكر بعد الفيل بثلاث سنين . وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر وعشرة أيام ، ودفن الى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأسه على كتف رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . كذلك قالت عائشة .

وقد قيل : إن أبا بكر كانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرين يوما .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب جملا من أيامهم ومقادير ولايتهم .

وكذلك نفرد فيما يرد في هذا الكتاب ـ بعد ذكرنا لأيام بني أمية وبني العباس ـ باباً نذكر فيه جامع التاريخ الثاني من الهجرة الى هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) في خلافة أبي اسحاق المتقي لله ، أو بعد ذلك من الأوقات الى حيث ينتهي بنا التصنيف ، وما ذكره أصحاب الزيجات في النجوم ، وما أرخوه في مقادير السنين والشهور والأيام ، والخلاف بينهم وبين تاريخ أصحاب السير والأخبار وكتب التاريخ من الأخباريين وغيرهم ، اذ كان التفاوت بين الفريقين بيّناً ، ومعولنا على ذلك ما ذكره أصحاب الزيجات .

ذكر نسبه
ولمع من أخباره وسيره رضي الله عنه

نسبه

كان اسم أبي بكر رضي الله عنه عبد الله بن عثمان ، وهو أبو قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ، وفي مرة يجتمع برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقبه عتيق ، لبشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم اياه انه عتيق الله من النار ،

فسمي يومئذ عتيقا ، وهو الصحيح . وقيل : إنما سمي عتيقا لعتق أمهاته .

واستخلف وأبوه في الحياة .

صفاته

وكان أزهد الناس ، وأكثرهم تواضعا في أخلاقه ولباسه ومطعمه ومشربه ، وكان لبسه في خلافته الشملة والعباءة .

تواضعه و زهده ونسكه

وقدم اليه زعماء العرب وأشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل والحبر وبرود الوشي المثقل بالذهب والتيجان ، فلما شاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم .

وفود العرب اليه

وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ، ومعه ألف عبد دون من كان معه من عشيرته ، وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلل .

فلما شاهد من أبي بكر ما وصفنا ألقى ما كان عليه وتزيا بزيه ، حتى إنه رؤي يوما في سوق من أسواق المدينة على كتفيه جلد شاة ، ففزعت عشيرته لذلك وقالوا له : قد فضحتنا بين المهاجرين والأنصار .

قال : أفأردتم مني أن أكون ملكا جبارا في الجاهلية جبارا في الاسلام ، لا هاالله ، لا تكون طاعة الرب الا بالتواضع لله والزهد في هذه الدنيا .

وتواضعت الملوك ومن ورد عليه من الوفود بعد التكبر وتذللوا بعد التجبر .

بين أبي بكر وأبي سفيان

وبلغ أبا بكر رضي الله عنه عن أبي سفيان صخر بن حرب أمر ، فأحضره وأقبل يصيح عليه ، وأبو سفيان يتملقه ويتذلل له ، وأقبل أبو قحافة فسمع صياح أبي بكر ، فقال لقائده : على من يصيح ابني ؟

فقال له : على أبي سفيان .

فدنا من أبي بكر وقال له : أعلى أبي سفيان ترفع صوتك يا عتيق الله ، وقد كان بالأمس سيد قريش في الجاهلية ، لقد تعديت طورك وجزت مقدارك .

فتبسم أبو بكر ومن حضره من المهاجرين والأنصار ، وقال له : يا أبت ، إن الله قد رفع بالاسلام قوما وأذل به آخرين .

ولم يتقلد أحد الخلافة وأبوه باق غير أبي بكر .

نسب امه

وأم أبي بكر سلمى ، وتكنى : أم الخير ، بنت صخر بن عمرو بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة .

وارتدت العرب بعد استخلافه بعشرة أيام .

أولاده

وكان له من الولد ؛ عبد الله ، وعبد الرحمن ، ومحمد .

فأما عبد الله ، فانه شهد يوم الطائف مع النبي صلى الله عليه وسلم فلحقته جراحة وبقي الى خلافة أبيه أبي بكر ، ومات في خلافته ، وخلف سبعة دنانير ، فاستكثرها أبو بكر ، ولا عقب لعبد الله .

وأما عبد الرحمن بن أبي بكر ، فانه شهد يوم بدر ، مع المشركين ، ثم أسلم فحسن اسلامه . ولعبد الرحمن أخبار ، وله عقب كثير بدو وحضر في ناحية الحجاز مما يلي الجادة من طريق العراق في الموضع المعروف بالصفينيات والمسح .

ومحمد بن أبي بكر ، أمه أسماء بنت عميس الخثعمية ، ومنها عقب جعفر بن أبي طالب ، وخلف عليها حين استشهد عبد الله وعونا ومحمدا ابني جعفر ، فقتل عون ومحمد ابنا جعفر بالطف مع الحسين بن علي ، ولا عقب لهما ، وعقب جعفر عن عبد الله بن جعفر ، وولد لعبد الله بن جعفر علي واسماعيل واسحاق ومعاوية ، وتزوجها بعده أبو بكر الصديق ، فخلف منها محمد .

ثم تزوجها علي بن أبي طالب فأولدها أولادا درجوا ، ولا عقب له منها .

وأم اسماء العجوز الحريشية كان لها أربع بنات ، وهذه العجوز أكرم الناس أصهارا ، كانت ميمونة الهلالية تحت النبي صلى الله عليه وسلم ، وأم الفضل تحت العباس بن عبد المطلب ، وسلمى تحت حمزة بن عبد المطلب ، وخلف منها بنتا ، وأسماء تحت من ذكرنا من جعفر وأبي بكر وعلي .

والعقب من محمد بن أبي بكر قليل ، وأم جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق .

وكان محمد بن أبي بكر يدعى عابد قريش لنسكه وزهده ، ورباه علي بن أبي طالب ، وسنذكر خبره فيما يرد من هذا الكتاب ومقتله في أخبار معاوية بن أبي سفيان .

موت أبي قحافة

ومات أبو قحافة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وهو ابن تسع وتسعين

سنة ، وذلك في سنة ثلاث عشرة من الهجرة ، وهي السنة التي استخلف فيهـا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقد قيل : إنه مات في سنة أربع عشرة .

يوم السقيفة

ولما بويع أبو بكر في يوم السقيفة وجددت البيعة له يوم الثلاثاء على العامة خرج علي فقال : أفسدت علينا أمورنا ، ولم تستشر ، ولم ترع لنا حقا .

فقال أبو بكر : بلى ، ولكنني خشيت الفتنة .

وكان للمهاجرين والأنصار يوم السقيفة خطب طويل ، ومجاذبة في الامامة ، وخرج سعد بن عبادة ولم يبايع ، فصار الى الشام ، فقتل هناك في سنة خمس عشرة ، وليس كتابنا هذا موضعا لخبر مقتله ، ولم يبايعه أحد من بني هاشم حتى ماتت فاطمة رضي الله عنها .

عدي بن حاتم الطائي

ولما ارتدت العرب الا أهل المسجدين ، ومن بينهما وأناسا من العرب ، قدم عدي بن حاتم بابل الصدقة الى أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، ففي ذلك يقول الحارث بن مالك الطائي .

وفينا وفاء لم ير الناس مثله   وسربلنا مجدا عدي بن حاتم

علته

وكان أبو بكر رضي الله عنه قد سمته اليهود في شيء من الطعام ، وأكل معه الحارث ابن كلدة فعمي ، وكان السم لسنة ، ومرض أبو بكر قبل وفاته بخمسة عشر يوما .

كلام له

ولما احتضر قال : ما آسي على شيء إلا على ثلاث فعلتها وددت أني تركتها ، وثلاث تركتها وددت أني فعلتها ، وثلاث وددت أني سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها :

فأما الثلاث التي وددت أني تركتها : فوددت أني لم أكن فتشت بيت فاطمة ، وذكر في ذلك كلاما كثيرا ، ووددت أني لم أكـن قد حرقت الفجاءة وأطلقته نجيحا أو قتلته صريحا ، ووددت أني يوم سقيفة بني ساعدة قذفت الأمر في عنق أحد الرجلين فكان أميرا وكنت وزيرا .

والثلاث التي تركتها ووددت أني فعلتها : وددت أني يوم أتيت بالأشعث بن قيس أسيرا ضربت عنقه ، فانه قد خيل لي أنه لا يرى شرا الا أعانه ، ووددت أني كنت قد قذفت

المشرق بعمر بن الخطاب ، فكنت قد بسطت يميني وشمالي في سبيل الله ، وودت أني يوم جهزت جيش الردة ورجعت أقمت مكاني فان سلم المسلمون سلموا ، وأن كان غير ذلك كنت صدر اللقاء أو مددا .

وكان أبو بكر قد بلغ مع الجيش الى مرحلة من المدينة وهو الموضع المعروف بذي القصة .

والثلاث التي وددت أني سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها : وددت أني كنت سألته في من هذا الأمر ، فلا ينازع الأمر أهله ، ووددت أني سألته عن ميراث العمة وبنت الأخ فان بنفسي منهما حاجة ، ووددت أني سألته هل للأنصار في هذا الأمر نصيب فنعطيهم اياه .

بناته

وخلف من البنات . أسماء ذات النطاقين ، وهي أم عبد الله بن الزبير ، وعمرت مائة سنة حتى عميت ، وعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم .

بيعة علي اياه

وقد تنوزع في بيعة علي بن أبي طالب اياه ؛ فمنهم من قال : بايعه بعد موت فاطمة بعشرة أيام ، وذلك بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم نيف وسبعين يوما ، وقيل : بثلاثة أشهر ، وقيل : ستة ، وقيل غير ذلك .

وصيته لأمراء الجيش

ولما أنفذ أبو بكر الأمراء الى الشام كان فيما أوصى به يزيد بن أبي سفيان وهو مشيع له ، فقال له : اذا قدمت على أهل عملك فعدهم الخير وما بعده ، واذا وعدت فأنجز . ولا تكثرن عليهم الكلام ، فان بعضه ينسي بعضا . وأصلح نفسك يصلح الناس لك . واذا قدمت عليك رسل عدوك فأكرم منزلتهم ، فإنه أول خيرك لهم ، وأقلل حبسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك ، وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت الذي تلي كلامهم . ولا تجعل سرك مع علانيتك فيمرج عملك . واذا استشرت فاصدق الخبر تصدق لك المشورة ، ولا تكتم المستشار فتؤتي من قبل نفسك . واذا بلغك عن العدو عورة فاكتمها حتى تعاينها ، واستر في عسكرك الأخبار ، وأذك حرسك ، وأكثر مفاجأتهم في ليلك ونهارك ، واصدق اللقاء اذا لقيت ، ولا تجبن فيجبن من سواك .

المتنبئون

وقد أعرضنا عن ذكر كثير من الأخبار في هذا الكتاب طلبا للاختصار والايجاز : منها

خبر العنسي الكذاب المعروف بعيهلة ، وما كان من خبره باليمن وصنعاء ، وتنبئه ومقتله ، وما كان من فيروز ، وغيره من الأنباء في أمرهم ، وخبر طليحة وتنبئه ، وخبر سجاح بنت الحارث بن سويد ، وقيل : بنت غطفان وتكنى أم صادر ، وهي التي يقول فيها قيس بن عاصم :

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها   وأصبحت أنبيــاء الناس ذكرانا

وفيها يقول الشاعر :

أضل اللّـه سعـي بني تميم   كما ضلــت بخطبتهــا سجاح

وقد كانت مع ادعائها النبوة مكذبة بنبوة مسيلمة الكذاب ، ثم آمنت بنبوته . وكانت قبل ادعائها النبوة متكهنة تزعم أن سبيلها سبيل سطيح وابن سلمة والمأمون الحارثي وعمرو ابن لحي وغيرهم من الكهان ، وصارت الى مسيلمة فنكحها .

وما كان من خبر مسيلمة كذاب اليمامة ، وحربه لخالد بن الوليد وقتل وحشي له مع رجل من الأنصار ، وذلك في سنة احدى عشرة ، وما كان من أمره مع الأنصار في يوم سقيفة بني ساعدة والمهاجرين ، وقول المنذر بن الحباب : أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ، أما والله ان شئتم لنعيدنها جذعة .

وقصة سعد بن عبادة ، وما كان من بشر بن سعد ، وتخلي الأوس عن معاضدة سعد خوفا أن يفوز بها الخزرج .

وأخبار من قعد عن البيعة ومن بايع ، وما قالت بنو هاشم ، وما كان من قصة فدك ، وما قاله أصحاب النص والاختيار في الإمامة ، ومن قال بإمامة المفضول وغيره ، وما كان من فاطمة وكلامها متمثلة حين عدلت الى قبر أبيها عليه الصلاة والسلام من قول صفية بنت عبد المطلب :

قد كان بعــدك أنباء وهينمة   لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

الى آخر الشعر ، الى غير ذلك مما تركنا ذكره من الأخبار في هذا الكتاب ، إذ كنا قد أتينا على جميع ذلك في كتاب « أخبار الزمان » والكتاب الأوســط ، فأغنى ذلك عن ذكره هاهنا ، والله أعلم .

ذكر خلافة عمر بن الخطاب
رضي الله تعالى عنه

موجز

وبويع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فيا أن دخلت سنة ثلاث وعشرين خرج حاجا ، فأقام الحج في تلك السنة ، ثم أقبل حتى دخل المدينة ، فقتله فيروز أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة تمام سنة ثلاث وعشرين ، فكانت ولايته عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال .

وقتل في صلاة الصبح ، وهو ابن ثلاث وستين سنة ، ودفن مع النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ، عند رجلي النبي صلى الله عليه وسلم .

وقيل : إن قبورهم مسطرة : أبو بكر الى جنب النبي صلى الله عليه وسلم ، وعمر الى جنب أبي بكر .

وحج في خلافته تسع حجج .

وبعد أن قتل صلى بالناس عبد الرحمن بن عوف .

وجعلها شورى الى ستة ، وهم . علي ، وعثمان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وعبد الرحمن بن عوف .

وصلى عليه صهيب الرومي .

وكانت الشورى بعده ثلاثة أيام .

ذكر نسبه
ولمع من أخباره وسيره رضي الله عنه

نسبه

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن قرظ بن رياح بن عبد الله بن رزاح بن عدي بن كعب . وفي كعب يجتمع نسبه مع نسب النبي صلى الله عليه وسلم . وأمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وكانت سوداء .

وإنما سمي الفاروق لأنه فرق بين الحق والباطل ، وكنيته أبو حفص ، وهو أول من سمي بأمير المؤمنين ، سماه عدي بن حاتم ، وقيل غيره ، والله أعلم .

وكان أول من سلم عليه بها المغيرة بن شعبة ، وأول من دعا له بهذا الاسم على المنبر أبو موسى الأشعري ، وأبو موسى أول من كتب اليه : لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من أبي

موسى الأشعري . فلما قرىء ذلك على عمر قال : إني لعبد الله ، وإني لعمر ، وإني لأمير المؤمنين ، والحمد لله رب العالمين .

صفاته

وكان متواضعا ، خشن المليس ، شديدا في ذات الله ، واتبعه عماله في سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه ، كل يتشبه به ممن غاب أو حضر ، وكان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم وغيره ، ويشتمل بالعباءة ، ويحمل القربة على كتفه مع هيبة قد رزقها . وكان أكثر ركابه الابل ، ورحله مشدودة بالليف ، وكذلك عماله ، مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من الأموال .

عماله

وكان من عماله سعيد بن عامر بن خزيم ، فشكاه أهل حمص اليه وسألوه عزله ، فقال عمر : اللهم لا تفل فراستي فيه اليوم . وقال لهم : ماذا تشكون منه ؟

قالوا : لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار ، ولا يجيب أحدا بليل ، وله يوم في الشهر لا يخرج الينا .

فقال عمر : عليَّ به .

فلما جاء جمع بينهم وبينه ، فقال : ما تنقمون منه ؟

قالوا : لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار .

فقال : ما تقول يا سعيد ؟

قال : يا أمير المؤمنين ، إنه ليس لأهلي خادم ، فأعجن عجيني ، ثم أجلس حتى يختمر ثم أخبز خبزي ، ثم أتوضأ وأخرج اليهم .

قال : وماذا تنقمون منه ؟

قالوا : لا يجيب بليل .

قال : قد كنت أكره أن أذكر هذا ، إني جعلت الليل كله لربي ، وجعلت النهار لهم .

قال : وماذا تنقمون منه ؟

قالوا : له يوم في الشهر لا يخرج الينا فيه .

قال : نعم ، ليس لي خادم فأغسل ثوبي ثم أجففه فأمسي .

فقال عمر : الحمد لله الذي لم يفل فراستي فيك ، يا أهل حمص ، استوصوا بواليكم خيرا .

قال : ثم بعث اليه عمر بألف دينار ، وقال : استعن بها ، فقالت له امرأته : قد أغنانا الله عن خدمتك .

فقال لها : ألا ندفعها الى من يأتينا بها أحوج ما كنا اليه ؟

قال : بلى .

فصرها صررا ثم دفعها الى من يثق به ، وقال : انطلق بهذه الصرة الى فلان ، وبهذه الى يتيم بني فلان ، وهذه الى مسكين بني فلان . . . .

حتى بقي منها شيء يسير ، فدفعه الى امرأته ، وقال : أنفقي هذا ، ثم عاد الى خدمته .

فقالت له امرأته : ألا تبعث الي بذلك المال فنشتري لنا منه خادما ؟

فقال : سيأتيك أحوج ما تكونين اليه .

سلمان الفارسي

ومن عماله على المدائن سلمان الفارسي ، وكان يلبس الصوف ، ويركب الحمار ببرذعته بغير اكاف ، ويأكل خبز الشعير ، وكان ناسكا زاهدا . فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبي وقاص : أوصني يا أبا عبد الله .

قال : نعم .

قال : اذكر الله عند همك اذا هممت ، وعند لسانك اذا حكمت ، وعند يدك اذا قسمت .

فجعل سلمان يبكي ، فقال له : يا أبا عبد الله ما يبكيك ؟

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن في الآخرة عقبة لا يقطعها الا المخفون » ، ، وأرى هذه الأساودة حولي .

فنظروا فلم يجدوا في البيت الا اداوة وركوة ومطهرة .

أبو عبيدة

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح ، وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي ، فعذل على ذلك ، وقيل له : إنك بالشام والي أمير المؤمنين ، وحولنا الأعداء ، فغير من زيك ، وأصلح من شارتك ، فقال ، ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عمر يحرض على الجهاد

وذكر الواقدي في كتابه في فتوح الأمصار أن عمر قام في المسجد ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم دعاهم الى الجهاد وحثهم عليه وقال : إنكم قد أصبحتم في غير دار مقام

بالحجاز ، وقد وعدكم النبي صلى الله عليه وسلم فتح بلاد كسرى وقيصر ، فسيروا الى أرض فارس .

فقام أبو عبيدة فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا أول من انتدب من الناس .

فلما انتدب أبو عبيدة انتدب الناس ، وقيل لعمر : أمر على الناس رجلا من المهاجرين أو الأنصار .

فقال : لا أؤمر عليهم ألا أول من انتدب . . . فأمر أبا عبيدة .

وفي حديث آخر أنه قيل له : أتؤمّر رجلا من ثقيف على المهاجرين والأنصار ؟

فقال : كان أول من انتدب فوليته ، وقد أمرته ألا يقطع أمرا دون مسلمة بن أسلم بن حريش وسليط بن قيس ، وأعلمته أنهما من أهل بدر

وخرج فلقي جمعا من العجم عليهم رجل يقال له جالينوس ، فانهزم . وسار أبو عبيدة حتى عبر الفرات ، وعقد له بعض الدهاقين جسرا ، فلما خلف الفرات وراءه أمر بقطع الجسر ، فقال له مسلمة بن أسلم : أيها الرجل ، إنه ليس لك علم بما نرى ، وأنت تخالفنا ، وسوف يهلك من معك من المسلمين بسوء سياستك . . . . تأمر بجسر قد عقد أن يقطع فلا يجد المسلمون ملجأ من هذه الصحارى والبراري ، فلا تريد ألا أن تهلكهم في هذه القطعة .

فقال : أيها الرجل ، تقدم فقاتل فقد حم نرى .

وقال سليط : إن العرب لم تلق مثل جمع فارس قط ، ولا كان لهم بقتالهم عادة ، فاجعل لهم ملجأ ومرجعا من هزيمة ان كانت .

فقال : والله لا فعلت : جبنت يا سليط ؟

فقال سليط : والله ما جبنت ، وأنا أجرأ منك نفسا وقبيلا ، ولكن والله أشرت بالرأي .

فلما قطع أبو عبيد الجسر والتحم الناس واشتد القتال ، نظرت العرب الى الفيلة عليها التجافيف فرأوا شيئا لم يروا مثله قط ، فانهزم الناس جميعا ، ثم مات في الفرات اكثر ممن قتل بالسيف

وخالف أبو عبيد سليطا ، وقد كان عمر أوصاه أن يستشيره ولا يخالفه . وكان رأي سليط ألا يعبر حتى يعبروا اليه ، ولا يقطع الجسر فخالفه .

وقال سليط في بعض قوله : لولا أني أكره خلاف الطاعة لانجزت بالناس ، ولكني أسمع وأطيع ، وإن كنت قد أخطأت وأشركني عمر معك .

فقال له أبو عبيد : تقدم أيها الرجل .

فقال : أفعل .

فتقدما فقتلا جميعا .

وقد كان أبو عبيد في هذا اليوم ترجل ، وقد قتل من الفرس نحو ستة آلاف ، فدنا من الفيل ورمحه في يده فطعنه في عينه ، فخبط الفيل أبا عبيد بيده . وجال الناس ، وتراجعت رجال فارس ، فأخذ الناس السيف لما قتل أبو عبيد .

وبادر رجل من بكر بن وائل والمثنى بن حارثة فحمى الناس حتى عقدوا الجسر فعبروا ومعهم المثنى بن حارثة ، وقد فقد من الناس أربعة آلاف غرقا وقتلا .

وكان على جيش فارس في هذا اليوم جاذويه ، ومعه راية فارس التي كانت لأفريدون ، حتى ثار الناس من الوهاد ، وهي المعروفة بدرفش كاويان وكانت من جلود النمور طولها إثنا عشر ذراعا في عرض ثمانية أذرع على خشب طوال موصل . وكانت فارس تتيمن بها وتظهرها في الأمر الشديد ، وقد قدمنا الخبر عن هذه الراية في أخبار الفرس الأولى فيما سلف من هذا الكتاب .

ولما قتل أبو عبيد الثقفي بالجسر شق ذلك على عمر وعلى المسلمين ، فخطب عمر الناس وحثهم على الجهاد ، وأمرهم بالتأهب لأرض العراق ، وعسكر عمر بصرار وهو يريد الشخوص ، وقد استعمل على مقدمته طلحة بن عبيد الله ، وعلى ميمنته الزبير بن العوام ، وعلى ميسرته عبد الرحمن بن عوف . ودعا الناس ، فاستشارهم فأشاروا عليه بالمسير .

ثم قال لعلي : ما ترى يا أبا الحسن ، أسير أم بعث ؟

قال : سر بنفسك فإنه أهيب للعدو وأرهب له .

فخرج من عنده ، فدعا العباس في جلة من مشيخة قريش وشاورهم ، فقالوا : أقم وابعث غيرك ليكون للمسلمين ان انهزموا فئة ، وخرجوا .

فدخل اليه عبد الرحمن بن عوف ، فاستشاره ، فقال عبد الرحمن : فديت بأبي وأمي ، أقم وابعث ، فانه ان انهزم جيشك فليس كهزيمتك ، وإنك ان تهزم أو تقتل يكفر المسلمون ولا يشهدوا أن لا إله الا الله أبدا .

قال : أشر عليَّ من أبعث ؟

قال : قلت : سعد بن أبي وقاص .

قال عمر : أعلم أن سعدا رجل شجاع ، ولكني أخشى ألا يكون له معرفة بتدبير الحرب .

قال عبد الرحمن : هو على ما تصف من الشجاعة ، وقد صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد بدرا فاعهد اليه عهدا وشاورنا فيما أردت أن تحدث اليه ، فانه لن يخالف أمرك .

ثم خرج فدخل عثمان عليه ، فقال له : يا أبا عبد الله أشر علي أسير أم أقيم ؟

فقال عثمان : أقم يا أمير المؤمنين وابعث بالجيوش ، فانه لا آمن أن أتى عليك آت أن ترجع العرب عن الاسلام ، ولكن ابعث الجيوش وداركها بعضها على بعض ، وأبعث رجلا له تجربة بالحرب وبصر بها .

قال عمر : ومن هو ؟

قال : علي بن أبي طالب .

قال : فالقه وكلمه وذاكره ذلك ، فهل تراه مسرعا اليه أو لا .

فخرج عثمان فلقي عليا فذاكره ذلك ، فأبى علي ذلك وكرهه ، فعاد عثمان الى عمر فأخبره ، فقال له عمر : ومن ترى ؟

قال : سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل .

قال : ليس بصاحب ذلك .

قال عثمان : طلحة بن عبيد الله .

قال له عمر : أين أنت من رجل شجاع ضروب بالسيف رام بالنبل ، ولكني أخشى ألا يكون له معرفة بتدبير الحرب .

قال : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟

قال : سعد بن أبي وقاص .

فقال عثمان : هو صاحب ذاك ، ولكنه رجل غائب ، وما منعني من ذكره الا أني قلت : رجل غائب في عمل .

فقال عمر : أرى أن أوجهه ، وأكتب اليه أن يسير من وجهه ذلك .

فقال عثمان : ومره فليشاور قوما من أهل التجربة والبصر بالحرب ولا يقطع الأمور حتى يشاورهم .

ففعل عمر ذلك وكتب الى سعد بالتوجه نحو العراق .

وقد كان جرير بن عبد الله البجلي قدم على عمر ـ وقد اجتمعت اليه بجيلة ـ فسرحهم نحو العراق ، وجعل لهم ربع ما ظهروا عليه من السواد ، وساهمهم مع المسلمين ، وخرج عمر فشيعهم .

ولحق جرير بناحية الأبلة ثم صاعد الى ناحية المدائن ، ونمي قدوم جرير الى مرزبان بالمدائن وكان في عشرة آلاف من فارس من الأساورة ، وذلك بعد يوم الجسر ومقتل أبي عبيد وسليط ، فقال بجيلة لجرير : أعبر الدجلة الى المدائن .

فقال جرير : ليس ذلك بالرأي ، وقد مضى لكم في ذلك عبرة بمن قتل من اخوانكم يوم الجسر ، ولكن امهلوا القوم ، فان جمعهم كثير حتى يعبروا اليكم ، فان فعلوا فهو الظفر ان شاء الله تعالى .

فأقامت الفرس أياما بالمدائن ، ثم أخذوا في العبور ، فلما عبر منهم النصف أو نحوه حمل عليهم جرير فيمن تسرع معه من بجيلة ، فثبتوا ساعة ، فقتل المرزبان ، وأخذهم السيف ، وغرق أكثرهم في دجلة ، وأخذ المسلمون ما كان في عسكرهم .

وسار جرير فاجتمع مع المثنى بن حارثة الشيباني بالبجلة ، فأقبل اليهما مهران في جيوشه ، فامتنع المسلمون من العبور اليهم ، فعبر مهران ، وبغى على المسلمين ، فالتقوا ، وصبر الفريقان جميعا حتى قتل مهران ، قتله جرير بن عبد الله البجلي وحسان بن المنذر بن ضرار الضبي : ضربة البجلي ، وطعنه الضبي ، وفاز جرير بمنطقته وسلبه .

وتنازع جرير وحسان في أيهما القاتل لمهران-وقد كان جرير ضربه بعد أن طعنه حسان ، ولحسان في ذلك أبيات :

ألم ترني خالست مهران نفسه	بأسمر فيه كالخلال طرير
فخر صريعا والتقاني برجله	وبادر في رأس الهمام جرير
فقال : قتيلي والحوادث جمة	وكاد جرير للسرور يطير
فقال أبو عمرو : وقتلي قتلته	ومثلي قليل والرجال كثير
فأرسل يمينا أن رمحك ناله	وأكرم أن تحلف وأنت أمير

وقد تنازع أهل الأخبار والسير في جرير والمثنى : فمن الناس من ذهب الى أن جريرا كان هو المولى على الجيش ، ومنهم من رأى أن جريرا على قومه والمثنى على قومه .

ولما قتل مهران أعظمت الفرس ذلك ، وسار شيرازاد في جمع فارس الأعظم ، وكنيته بوران ، وقد كانت جمهرة الأساورة تقدمت وتقدم أمامهم رستم ، فتنحى المسلمون لما بلغهم مسيره ، فلحق جرير بكاظمة فنزلها ، وسار المثنى بقومه من بكر بن وائل فنزل بسيراف ، وبها آبار كثيرة بين الكوفة وزبالة على ثلاثة أميال من المنزل المعروف بواقصة . وكان المثنى قد أصيب بجراحات كثيرة في بدنه يوم الجسر وغيره فمات بسيراف ، رحمه‌الله تعالى .

سعد بن أبي وقاص

ولما ورد كتاب عمر على سعد بن أبي وقاص نزل زبالة على حسب ما أمره به عمر ، ثم أتى سيراف ، وأتاه الناس من الشام وغيرها ، ثم سار فنزل العذيب وهو على فم البر وطرف السواد مما يلي القادسية .

فالتقى جيش المسلمين وجيش الفرس وعليهم رستم ، والمسلمون يومئذ في ثمانية وثمانين ألفا ـ وقيل : إن من أسهم له ثلاثون ألفا ـ والمشركون في ستين ألفا ، أمام جيوشهم الفيلة عليها الرجال .

وحرض الناس بعضهم بعضا ، وبرز أهل النجدات ، فأنشبوا القتال ، وخرج اليهم أقرانهم من صناديد فارس ، فاعتوروا الضرب والطعن . وخرج غالب بن عبد الله الأسدي في من خرج ذلك اليوم وهو يقول :

قد علمت واردة المسالح ذات البنان واللبان الواضح
أني سمام البطل المشايح وفارج الأمر المهم الفادح

فخرج اليه هرمز ـ وكان من ملوك الباب والأبواب ، وكان متوجا ـ فأسره غالب أسرا فأتى به سعدا ، وكر راجعا الى المطاردة ، وحمي الوطيس ، وخرج عاصم بن عمرو وهو يقول :

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين يتغشاه الذهب
أني امرؤ لا من يعنيه السبب مثلي على مثلك يغريه العتب

فبرز اليه عظيم من أساورتهم ، فجالا ، ثم إن الفارسي ولى ، واتبعه عاصم حتى لجأ الى صفوفهم ، وعموه . وغاص عاصم بينهم حتى أيس الناس منه ، ثم خرج في مجنبات القلب ، وقدامه بغل عليه صناديق موكبية بآلة حسنة ، فأتى به سعد بن مالك وعلى البغل رجل عليه مقطعات ديباج وقلنسوة مذهبة .

واذا هو خباز الملك ، وفي الصناديق لطائف الملك من الأخبصة والعسل المعقود .

فلما نظر اليه سعد قال : انطلقوا به الى أهل موقفه ، وقولوا : ان الأمير قد نفلكم هذا فكلوه .

ففعلوا .

أيام القادسية

وكانت وقعة القادسية في المحرم سنة أربع عشرة ، ومال من الفيلة سبعة عشر فيلا على كل فيل عشرون رجلا ، وعلى الفيل تجافيف الحديد والقرون مجللة بالديباج والحرير نحو بجيلة ، وحول الفيلة الرجال والخيول . فبعث سعد الى بني أسد لما نظر الى المراكب والفيول قد مالت الى بجيلة ، فأمرهم بمعونتهم .

ومالت عشرون فيلا نحو القلب ، فخرج طلحة بن خويلد الأسدي مع فرسان بني أسد ، فقتل منهم خمسمائة رجل سوى من قتل من غيرهم فباشروا قتال الفيلة حتى أوقفوها ، واشتد الجلاد على بني أسد في هذا اليوم من سائر الناس ، وهذا اليوم يعرف بيوم أغواث .

فلما أصبح الناس في اليوم الثاني أشرف على الناس خيول المسلمين من الشام ، والأمداد سائرة قد غطت بأسنتها الشمس عليها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص في خمسة آلاف فارس من بني ربيعة ومضر وألف من اليمن ، ومعهم القعقاع بن عمرو ، وذلك بعد فتح دمشق بشهر .

وقد كان عمر رضي الله عنه كتب الى أبي عبيدة بن الجراح بصرف أصحاب خالد بن الوليد الى العراق ، ولم يذكر في كتابه خالدا ، فشح أبو عبيدة بتخلية خالد عن يده ، وبعث برجاله وعليهم هاشم بن عتبة على ما ذكرنا .

وقد كان في نفس عمر على خالد أشياء من أيام أبي بكر في قصة مالك بن نويرة ، وغير ذلك .

وكان خالد بن الوليد خال عمر .

فتقدم القعقاع في أوائل المدد ، فأيقن أهل القادسية بالنصر على فارس ، وزال عنهم من لحقهم بالأمس من القتل والجراح ، وبرز القعقاع حين وروده أمام الصف ونادى : هل من مبارز ؟

فبرز اليه عظيم منهم ، فقال له القعقاع : من أنت ؟

قال : أنا بهمن بن جاذويه . وهو المعروف بذي الحاجب .

فنادى القعقاع : يا لثارات أبي عبيد وسليط وأصحابهم يوم الجسر !

وقد كان ذو الحاجب مبارزا لهم على ما ذكرنا من قتله اياهم .

فجالا ، فقتله القعقاع ، ويقال : إن القعقاع قتل في ذلك اليوم ثلاثين رجلا في ثلاثين حملة ، كل حملة يقتل فيها رجلا .

وكان آخر من قتل عظيم من عظمائهم يقال له بزرجمهر ، ففيه يقول القعقاع :

حبوته جياشة بالنفس هدارة مثل شعاع الشمس
في يوم أغواث فليل الفرس أنخس بالقوم أشد نخس
حتى يفيض معشري ونفسي

وبارز في ذلك اليوم الأعور بن قطبة شهريار سجستان فقتل كل واحد منهما صاحبه ، فقال أخو الأعور في ذلك :

لم أر يوما كان أحلى وأمر من يوم أغواث اذا افتر الثغر
من غير ضحك كان أسوا وأبر

واعتل سعد فتخلف في حصن العذيب ، وجلس في أعلاه يشرف على الناس ، وقد تواقف الفريقان جميعا .

وأمسى الناس ينتمون ، فلما سمع ذلك سعد قال لمن كان عنده في أعلى القصر : إن تم الناس على الانتماء فلا توقظوني فانهم أقوياء على عدوهم ، وإن سكتوا فأيقظوني فان ذلك شر . واشتد القتال في الليل .

أبو محجن الثقفي

وكان أبو محجن الثقفي محبوسا في أسفل القصر ، فسمع انتماء الناس الى آبائهم وعشائرهم ، ووقع الحديد وشدة البأس ، فتأسف على ما يفوته من تلك المواقف ، فحبا حتى صعد الى سعد يستشفعه ويستقيله ، ويسأله أن يخلي عنه ليخرج ، فزجره سعد ورده ، فانحدر راجعا .

فنظر الى سلمى بنت حفصة زوجة المثنى بن حارثة الشيباني ، وقد كان سعد تزوجها بعده ، فقال : يا بنت حفصة ، هل لك في خير ؟

فقالت : وما ذاك ؟

قال : تخلين عني وتعيريني البلقاء ، والله علي إن سلمني الله أن أرجع اليك حتى أضع رجلي في القيد .

فقالت : وما أنا وذلك ؟

فرجع يرسف في قيده وهو يقول :

كفى حزنا ان ترتدي الخيل بالقنا وأترك مشدودا علي وثاقيا

اذا قمت عناني الحديـد فأغلقت مصاريـع من دوني تصم المناديا
وقد كنت ذا مال كثير وثروة فقد تركـوني واحدا لا أخا ليا
فللـه عهـد لا أخيس بعهده لئن فرجت ألا أزور الحوانيا

فقالت سلمى : إني استخرت الله ورضيت بعهدك . فأطلقته ، وقالت : شأنك وما أردت .

فاقتاد بلقاء سعد ، وأخرجها من باب القصر الـذي يلي الخندق ، فركبها ثم دب عليها ، حتى اذا كان بحيـال ميمنة المسلمين كبر ، ثم حمل على ميسرة القوم يلعـب برمحه وسلاحه بين الصفين ، فأوقف ميسرتهم وقتل رجالا كثيرة من فتاكهم ، ونكس آخرين ، والفريقان يرمقونه بأبصارهم .

وقد تنوزع في البلقاء فمنهم من قال : إنه ركبها عريا ، ومنهم من قال : بل ركبها بسرج .

ثم غاص في المسلمين ، فخرج في ميسرتهـم ، وحمل على ميمنة القوم فأوقفهـم ، وجعل يلعب برمحه وسلاحه ، لا يبدو له فارس الا هتكه ، فأوقفهم وهابته الرجال .

ثم رجع فغاص في قلب المسلمين ، ثم بـرز أمامهم ووقف بازاء قلب المشركـين ، ففعل مثل أفعاله في الميمنة والميسرة ، وأوقف القلب ولم يبرز منهم فارس الا اختطفه ، وحمل عن المسلمين الحرب .

فتعجب الناس منه ، وقالوا : من هذا الفارس الذي لم نره في يومنا ؟

فقال بعضهم : هو ممن قدم علينا من اخواننا من الشام من أصحاب هاشم بن عتبة المرقال .

وقال بعضهم : إن كان الخضر عليه السلام يشهد الحرب فهذا هو الخضر قد منّ الله به علينا ، وهو علم نصرنا على عدونا .

وقال قائل منهم : لولا أن الملائكة لا تباشر الحروب لقلنا انه ملك .

وأبو محجن كالليث الضرغام قد هتك الفرسان كالعقاب يجول عليهم ، ومن حضر من فرسان المسلمين ، مثل عمرو بن معد يكرب وطلحة بن خويلد والقعقاع بن عمرو وهاشم ابن عتبة المرقال وسائر فتاك العرب وأبطالها ينظرون اليه وقد حاروا في أمره .

وجعل سعد يفكر ويقول وهو مشرف على الناس من فوق القصر : والله لولا محبس أبي محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء .

فلما انتصف الليل تحاجز الناس ، وتراجعت الفرس على أعقابها ، وتراجع المسلمون الى مواضعهم على بقيتهم ومصافهم ، وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر من حيث خرج ولا يعلم به ، ورد البلقاء الى مربطها ، وعاد في محبسه ، ووضع رجله في القيد ، ورفع عقيرته وهو يقول :

لقد علمت ثقيف غير فخر	بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكرمهم دروعا سابغات	وأصبرهم اذا كرهوا الوقوفا
وليلة قادس لم يشعروا بي	ولم أشعر بمخرجي الزحوفا
وأنا وفدهم في كل يوم	فان عتبوا فسل بهم عريفا
فان احبس فذلكم بلائي	وان أترك أذيقهم الحتوفا

فقالت له سلمى : يا أبا محجن ، في أي شيء حبسك هذا الرجل ؟ تعني سعدا .

قال : والله ما حبسني بحرام أكلته ولا شربته ، ولكني كنت صاحب شراب في الجاهلية ، وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لساني فأصف القهوة وتداخلني أريحية فألتذ بمدحي إياها ، فلذلك حبسني لأني قلت فيها :

اذا مت فادفني الى جنب كرمة	تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفلاة فانني	أخاف اذا ما مت ألا أذوقها

وقد كان بين سلمى وسعد كلام كثير أوجب غضبه عليها ، لذكرها المثنى عند مختلف القنا ، فأقامت مغاضبة له عشية أغواث وليلة الهرير وليلة السواد ، حتى اذا أصبحت أتته فترضته وصالحته .

ثم أخبرته خبرها مع أبي محجن ، فدعا به ، فأطلقه ، وقال : اذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله .

قال : لا جرم ، والله لا أجبت لساني الى صفة قبيح أبدا .

يوم عماس

وأصبح الناس في اليوم الثالث وهم على مصافهم ، وهو يوم عماس ، وأصبحت الأعاجم على مواقفها ، وأصبح بين الفريقين كالرجلة الحمراء ـ يعني الحرة ـ في عرض ما

بين الصفين ، وقد قتل من المسلمين ألفان وخمسمائة ما بين رثيث وميت ، وقتل من الأعاجم ما لا يحصى . فقال سعد : أيها الناس ، من شاء غسل الشهيد الميت والرثيث ، ومن شاء فليدفنهم بدمائهم .

وأقبل المسلمون على قتلاهم فأحرزوهم وجعلوهم وراء ظهورهم ، وكان النساء والصبيان يدفنون الشهيد ويحملون الرثيث الى النساء ويعالجونهم من كلومهم .

وكان بين موضع الوقعة مما يلي القادسية وبين حصن العذيب نخلة ، فاذا حمل الجريح وفيه تمييز وعقل ونظر الى تلك النخلة ـ ولم يكن هنالك يومئذ نخلة غيرها ، واليوم بها نخل كثير ـ قال لحامله : قد قربت من السواد ، فأريحوني تحت ظل هذه النخلة ، فيراح تحتها ساعة ، فسمع رجل من الجرحى يقال له بجير من طيء ، وهو يجود بنفسه ويقول :

ألا فاسلمي يا نخلة بين قادس   وبين العذيب ، لا يجاورك النخل

وسمع آخر من بني تيم الله ـ وقد أريح تحتها وحشوته خارجة من جوفه ـ وهو يقول :

أيا نخلة الجرعا ، ويا نخلة العدا   سقتك العوادي والغيوث الهواطل

وأثخن الأعور بن قطبة ، فحمل من المعركة ، فسأل حماله أن يريحه تحتها حتى اذا بلغ اليها قال :

أيا نخلة بين العذيب فتلعة   سقتك الغوادي الداجنات من النخل

وأصبح الناس صبيحة يوم القادسية ، وهي صبيحة ليلة الهرير ، وهي : تسمى ليلة القادسية من تلك الأيام ، والناس حيارى ولم يغمضوا ليلتهم كلها ، وحرض رؤساء القبائل عشائرهم ، واشتد الجلاد الى أن جاء وقت الزوال . فكان أول من زال حين قام قائم الظهيرة الهرمزان والنيرمران ، فتأخرا وثبتا حيث انتهيا .

وانفرج القلب حين قام قائم الظهيرة ، وهبت ريح عاصف فقطعت طيارة رستم عن سريره ، فهوت في نهر العتيق والريح دبور ، فمال الغبار عليهم .

وانتهى القعقاع وأصحابه الى سرير رستم فعثروا به وقد قام رستم عنه حين طارت

الريح بالطيارة الى بغال قد قدمت عليهم بمال يومئذ فهي واقفة ، فاستظل في ظل بغل منها وحمله .

وضرب هلال بن علقمة الحمل الذي رستم في ظله فقطع حباله ، ووقع على رستم أحد العدلين ولا يراه هلال ولا يشعر به ، فأزال من ظهره فقارة ، وضربه هلال ضربة فنفحت مسكا .

ومضى رستم الى نحو نهر العتيق فرمى بنفسه فيه ، واقتحم هلال عليه فتناوله برجله ، ثم خرج له الى الخندق وضربه بالسيف حتى قتله ، ثم جاء به يجره حتى رماه بين أرجل البغال وصعد السرير ونادى : قتلت رستم ورب الكعبة ، الي الي ..

فطاف به الناس لا يحسون السرير ولا يرونه ، وتنادوا . وتجبنت قلوب المشركين عندها وانهزموا وأخذهم السيف ، فمن غريق وقتيل .

وقد كان ثلاثون ألفا منهم قرنوا انفسهم بعضهم الى بعض بالسلاسل والحبال وتحالفوا بالنور وبيوت النيران لا يبرحون حتى يقتحموا أو يقتلوا ، فجثوا على الركب ، وقرع بين أيديهم قناديل النشاب ، فقتل القوم جميعا .

وقد تنوزع فيمن قتل رستم : فذهب الأكثر الى أن قاتله هلال بن علقمة من تيم الرباب على ما قدمنا ، ومنهم من رأى أن قاتله رجل من بني أسد ، ولذلك يقول شاعرهم في ذلك اليوم ـ وهو عمرو بن شاس الأسدي ـ من أبيات :

جلبنا الخيل من أكناف نيق الى كسرى فوافقها رعالا
تركن بهم على الأقسلم شجوا وبالحقوين أياما طوالا
قتلنا رستما وبنيه قسرا تثير الخيل فوقهم الهيالا
تركنا منهم حيث التقينا قياما لا يريدون ارتحالا

وأخذ ضرار بن الخطاب في ذلك اليوم من فارس الراية العظمى المقدم ذكرها أنها من جلود النمور المعروفة بدرفش كاويان ، وكانت مرصعة بالياقوت واللؤلؤ وأنواع الجواهر ، فعوض منها بثلاثين ألفا ، وكانت قيمتها ألفي ألف ومائتي ألف .

وقتل في ذلك اليوم حول هذه الراية ـ غير ما ذكرنا من المقرنين وغيرهم ـ عشرة آلاف .

تحديد تاريخ القادسية

وقد تنازع الناس ممن سلف وخلف في عام القادسية والعذيب :

فذهب كثير من الناس الى أن ذلك كان في سنة ست عشرة ، وهذا قول الواقدي عن آخرين من الناس .

ومنهم من ذهب الى أن ذلك كان في سنة خمس عشرة .

ومنهم من رأى أنه كان في سنة أربع عشرة .

والذي قطع عليه محمد بن اسحاق انها كانت في سنة خمس عشرة ، وقال : في سنة أربع عشرة أمر عمر بن الخطاب بالقيام في شهر رمضان لصلاة التراويح .

والذين ذهبوا الى أن وقعة القادسية كانت في سنة أربع عشرة احتجوا بهذه الرواية .

وكتب عمر الى الأمصار باقامة صلاة التراويح .

وذهب كثير من الناس منهم المدائني وغيره أن عمر أنفذ عتبة بن غزوان في سنة أربع عشرة الى البصرة فنزلها ومصرها .

تمصير البصرة

وذهب كثير من الناس أنها مصرت في ربيع سنة ست عشرة ، وأن عتبة بن غزوان انما خرج اليها من المدائن بعد فراغ سعد بن أبي وقاص من حرب جلولاء وتكريت ، وأن عتبة قدم البصرة وهي يومئذ تدعى أرض الهند وفيها حجارة بيض فنزل موضع الخريبة .

تمصير الكوفة

ومصر سعد بن أبي وقاص الكوفة في سنة خمس عشرة ، ودلهم على موضعها ابن نفيلة الغساني ، وقال لسعد ، أدلك على أرض ارتفعت عن البر وانحدرت عن الفلاة ، فدله على موضع الكوفة اليوم .

أبو لؤلؤة ، غلام المغيرة بن شعبة

قال المسعودي : وكان عمر لا يترك أحدا من العجم يدخل المدينة ، فكتب اليه المغيرة ابن شعبة : إن عندي غلاما نقاشا نجارا حدادا فيه منافع لأهل المدينة ، فان رأيت أن تأذن لي في الارسال به فعلت ، فأذن له .

وقد كان المغيرة جعل عليه كل يوم درهمين ، وكان يدعى أبا لؤلؤة ، وكان مجوسيا من أهل نهاوند . فلبث ما شاء الله ، ثم أتى عمر يشكو اليه ثقل خراجه ، فقال له عمر : وما تحسن من الأعمال ؟

قال : نقاش ، نجار ، حداد .

فقال له عمر : ما خراجك بكثير في كنه ما تحسن من الأعمال .

فمضى عنه وهو يتذمر .

قال : ثم مر بعمر يوما آخر وهـو قاعـد ، فقال له عمر : ألـم أحدث عنك أنك تقول : لو شئت أن أصنع رحا تطحن بالريح لفعلت .

فقال أبو لؤلؤة : لأصنعن لك رحا يتحدث الناس بها .

ومضى أبو لؤلؤة ، فقال عمر : أما العلج فقد توعدني آنفا .

فلما أزمع بالذي أوعد به أخذ خنجرا فاشتمل عليه ثم قعد لعمر في زاوية من زوايـا المسجد في الغلس ، وكان عمر يخرج في السحر فيوقظ الناس للصلاة ، فمر به ، فثار اليه فطعنه ثلاث طعنات احداهن تحت سرته وهي التي قتلته . وطعن اثني عشر رجلا من أهل المسجد فمات منهم ستة وبقي ستة ، ونحر نفسه بخنجره فمات .

فدخل عليه ابنه عبد الله بن عمر وهـو يجود بنفسه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، استخلف على أمة محمد ، فانه لو جاءك راعي ابلك أو غنمك وترك ابله أو غنمه لا راعي لها للمته وقلت له : كيف تركت أمانتك ضائعة ؟ فكيف يا أمير المؤمنين بأمة محمد ؟ فاستخلف عليهم .

فقال : إن استخلف عليهم فقد استخلف عليهم أبو بكر ، وإن أتركهم فقد تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فيئس منه عبد الله حين سمع ذلك منه .

وكان اسلام عمر قبل الهجرة بأربع سنين ، وكان يخضب بالحناء والكتم .

أولاد عمر

وكـان له من الولـد : عبد اللـه ، وحفصة زوج النبي صلى اللـه عليـه وسلـم ، وعاصم ، وعبيد الله ، وزيد ، من أم ، وعبد الرحمن ، وفاطمة ، وبنات أخر ، وعبد الرحمن الأصغر ـ وهو المحدود في الشراب ، وهو المعروف بأبي شحمة ـ من أم .

عمر وابن عباس رضي الله عنهما

وذكر عبد الله بن عباس أن عمر أرسل اليه فقال : يا بن عباس ، إن عامل حمص هلك ، وكان من أهل الخير ، وأهل الخير قليل ، وقد رجوت أن تكون منهم ، وفي نفسي منك شيء لم أره منك ، وأعياني ذلك ، فما رأيك في العمل ؟

قال : لن اعمل حتى تخبرني بالذي في نفسك .

قال : وما تريد الى ذلك ؟

قال : أريده ، فان كان شيء أخاف منه على نفسي خشيت منه عليها الذي خشيت ، وإن كنت بريئا من مثله علمت أني لست من أهله ، فقبلت عملك هنالك ، فاني قلما رأيتك طلبت شيئا الا عاجلته .

فقال : يا بن عباس ، إني خشيت أن يأتي علي الـذي هو آت وانت في عملك فتقول : هلم الينا ، ولا هلم اليكم دون غيركم ، إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم .

قال : والله قد رأيت من ذلك ، فلم تراه فعل ذلك ؟

قال : والله ما أدري أضن بكم عن العمل فأهـل ذلك أنتم ، أم خشي أن تبايعـوا بمنزلتكم منه فيقع العتاب ، ولا بد من عتاب ، وقد فرغت لك من ذلك ، فما رأيك ؟

قال : قلت : أرى ألا أعمل لك .

قال : ولم ؟

قال : ان عملت لك وفي نفسك ما فيها لم أبرح قذى في عينك .

قال : فأشر علي .

قلت : إني أرى أن تستعمل صحيحا منك صحيحا لك .

عمر يستعمل النعمان بن مقرن
غازيا لنهاوند

وذكر علقمة بن عبد الله المزني ، عن معقل بـن يسار ، أن عمر بن الخطاب شاور الهرمزان في فارس واصبهان وأذربيجان ، فقال له : أصبهان الرأس ، وفارس وأذربيجان الجناحان ، فان قطعت أحد الجناحين ناء الرأس بالجناح الآخر ، وإن قطعت الرأس وقع الجناحان ، فابدأ بالرأس .

فدخل المسجد فاذا هو بالنعمان بن مقرن يصلي ، فقعد الى جنبه ، فلما قضى صلاته قال : ما أراني الا مستعملك .

قال : أما جابيا فلا ، ولكن غازيا .

قال : فانك غازٍ .

فوجهه وكتب الى أهل الكوفة أن يمدوه ، وبعث معه الزبير بن العوام ، وعمرو بن معد يكرب ، وحذيفة ، وابن عمرو ، والأشعث بن قيس .

فأرسل النعمان المغيرة بن شعبة الى ملكهم ، وهو يقال له ذو الجناحين ، فقطع اليهم نهرهم ، فقيل لذي الجناحين : إن رسول العرب ها هنا ، فشاور أصحابه ، فقال : ما ترون ؟

فقالوا : اقعد له في بهجة الملك أو اقعد له في هيئة الحرب .

فقال : بل أقعد له في بهجة الملك .

فصعد على سريره ووضع التاج على رأسه وأقعد أبناء الملوك سماطين عليهم الأقراط وأسورة الذهب والديباج ، وأذن للمغيرة ، فأخذ بضبعيه رجلان ومعه سيفه ورمحه .

قال : فجعل المغيرة يطعن برمحه في بسطهم يخرقها لينظروا فيغضبهم بذلك حتى قام بين يديه وجعل يكلمه والترجمان يترجم بينهما .

فقال : إنكم معشر العرب أصابكم جهد ، فان شئتم مرناكم ورجعتم .

فتكلم المغيرة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنا معشر العرب كنا أذلة يطؤنا الناس ولا نطؤهم ، ونأكل الكلاب والجيف ، ثم إن الله تعالى بعث منا نبيا في شرف منا أوسطنا حسبا وأصدقنا حديثا ، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم ببعثه ، وأخبرنا بأشياء وجدناها كما قال لنا ، وأنه وعدنا فيما وعدنا به أنا سنملك ما هاهنا ونغلب عليه . وإني أرى هاهنا هيئة وبزة ما من خلفي بتاركيها حتى يصيبوها أو يموتوا .

فقالت لي نفسي : لو جمعت جراميزك ووثبت فقعدت مع العلج على سريره حتى يتطير .

قال : فوثبت وثبة فاذا أنا معه على سريره ، فجعلوا يلكزونني بأرجلهم ويجذبونني بأيديهم . فقلت لهم : إنا لا نفعل برسلكم هكذا ، وإن كنت قد فجرت واستخففت فلا تؤاخذوني ، فان الرسل لا يصنع بها هكذا .

فقال الملك : إن شئتم قطعنا اليكم وان شئتم قطعتم الينا .

قلت : بل نقطع اليكم . . . فقطعنا اليهم .

قال : فتسلسلوا كل خمسة وستة حتى لا يفروا ، فدنونا اليهم فضايقناهم ، فرشقونا حتى أشرعوا فينا ، فقال المغيرة للنعمان : إنه قد أشرع في الناس وقد جرحوا ، فلو حملت .

فقال النعمان : إنك لذو مناقب ، وقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم القتال ، وكان اذا لم يقاتل أول النهار انتظر حتى تزول الشمس وتهب الرياح وينزل النصر .

ثم قال : إني هازٌ لوائي ثلاث مرات ، فأما أول هزة فليقض الرجل حاجته وليتوضأ ، وأما الثانية فلينظر الرجل الى شسعه وليلزم سلاحه ، فاذا هززت الثالثة فاحملوا ولا يلوين احد على أحد ، وإن قتل النعمان . وإني داعٍ إلى الله بدعوة ، وأقسمت على كل امرىء منكم لما أمن عليها ، وقال : اللهم ارزق النعمان اليوم شهادة في نصر وفتح عليهم .

فأمن القوم ، فهز لواءه ثلاثا ، ثم أدنى درعه وحمل ، ثم حمل الناس . . . . فكان أول صريع .

قال معقل ، فأتيت عليه فذكرت عزيمته ألا أقف عليه ، وأعلمت غلمانه لأعرف مكانه ، وأمعنا القتل فيهم . ووقع ذو الجناحين عن بغلة له شهباء فانشق بطنه ، وفتح الله على المسلمين .

فأتيته الى مكان النعمان فصادفته وبه رمق فأتيته باداوة فغسلت وجهه ، فقال : من هذا ؟

قلت : معقل بن يسار .

قال : ما فعل الله بالناس ؟

قلت : فتح الله عليهم .

قال : الحمد لله كثيرا ، اكتبوا بذلك الى عمر . وفاضت نفسه .

واجتمع الناس الى الأشعث بن قيس ، وأرسلوا الى أم ولده : هل عهد اليك النعمان عهدا له أم عندك كتاب ؟

قالت : بل سفط فيه كتاب .

فأخرجوه فاذا فيه : إذا قتل النعمان ففلان ، وإن قتل فلان ففلان ، وإن قتل فلان ففلان .

فامتثلوا ، وفتح الله على المسلمين فتحا عظيما .

***

شهداء نهاوند

قال المسعودي رحمه الله : وهذه وقعة نهاوند ، وقد كان للأعاجم فيها جمع كثير وقتل هنالك خلق كثير : منهم النعمان بن مقرن ، وعمرو بن معد يكرب ، وغيرهما . وقبورهم الى هذا الوقت بينة معروفة على نحو فرسخ من نهاوند فيما بينها وبين الدينور ، وقد أتينا على وصف هذه الواقعة فيما سلف من كتبنا .

***

عمر يسأل عمرو بن معد يكرب
عن قبائل من العرب

وذكر أبو مخنف لوط بن يحيى قال : لما قدم عمرو بن معد يكرب من الكوفة على عمر سأله عن سعد بن أبي وقاص ، فقال فيه ما قال من الثناء . ثم سأله عن السلاح ، فأخبره بما علم . ثم سأله عن قومه ، فقال له : أخبرني عن قومك (مذحج) ودع طيئا .

قال : سلني عن أيهم شئت ؟

قال : أخبرني عن علة بن جلد .

قال : هم فرسان أغـراضنا ، وشفاة أمراضنا ، وهـم أعتقنا ، وأنجبنا ، وأسرعنا طلبا ، وأقلنا هربا ، وهم أهل السلاح والسماح والرماح .

قال عمر : فما أبقيت لسعد العشيرة ؟

قال : هم أعظمنا خميسا ، وأسخانا نفوسا ، وخيرنا رئيسا .

قال : فما أبقيت لمراد ؟

قال : هم أوسعنا دارا ، وخيرنا جارا ، وأبعـدنا آثارا ، وهـم الأتقيـاء البررة ، والساعون الفخرة .

قال : فأخبرني عن بني زبيد .

قال : أنا عليهم ضنين ، ولو سألت الناس عنهم لقالوا هم الرأس والناس الأذناب .

قال : فأخبرني عن طيء ؟

قال : خصوا بالجود ، وهم جمرة العرب . .

قال : فما تقول في عبس ؟

قال : حجم عظيم ، وزبن أثير .

قال : أخبرني عن حمير .

قال : رعوا العفو ، وشربوا الصفو .

قال : فأخبرني عن كندة .

قال : ساسوا العباد ، وتمكنوا من البلاد .

قال : فأخبرني عن همدان .

قال : أبناء الليل ، وأهل النيل ، يمنعون الجار ، ويوفون الذمار ويطلبون الثار .

قال : أخبرني عن الأزد .

قال : هم أقدمنا ميلادا وأوسعنا بلادا .

قال : فأخبرني عن الحارث بن كعب ؟

قال : هم الحسكة المسكة ، تلقى المنايا على أطراف رماحهم .

قال : فأخبرني عن لخم .

قال : آخرنا ملكا ، وأولنا هلكا .

قال : فأخبرني عن جذام .

قال : أولئك كالعجوز الغبراء ، وهم أهل مقال وفعال .

قال : فأخبرني عن غسان .

قال : أرباب في الجاهلية نجوم في الاسلام .

قال : فأخبرني عن الأوس والخزرج ؟

قال : هم الأنصار ، وهم أعزنا دارا ، وأمنعنا ذمارا ، وقد كفانا الله مدحهم اذ يقول : « والذين تبوؤوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

قال : فأخبرني عن خزاعة ؟

قال : أولئك مع كنانة لنا نسبهم وبهم نصرنا .

قال : فأي العرب أبغض اليك أن تلقاه ؟

قال : أما من قومي فوادعة من همدان ، وغطيف من مراد ، وبلحارث من مذحج ، وأما من معد فعدي من فزارة ، ومرة من ذبيان ، وكلاب من عامر ، وشيبان من بكر بن وائل . ثم لو جلت بفرسي على مياه معد ما خفت هيج أحد ما لم يلقني حراها وعبداها .

قال : ومن حراها ومن عبداها ؟

قال : أما حراها فعامر بن الطفيل وعيينة بن الحارث بن شهاب التميمي . وأما عبداها فعنترة العبسي وسليك المناقب .

عمر يسأل عمرا عن الحرب

ثم سأله عن الحرب فقال : سألت عنها خبيرا ، هي والله يا أمير المؤمنين مرة المذاق ، اذا شمرت عن ساق ، من صبر فيها ظفر ، ومن ضعف فيها هلك ، ولقد أحسن واصفها فأجاد :

الحرب أول ما تكون فتية ... تبدو بزينتها لكل جهول

حتى اذا حميت وشب ضرامها ... عادت عجوزا غير ذات حليل

شمطاء جزت رأسها وتنكرت ... مكروهة للشّم وللتقبيل

ثم سأله عن السلاح ، فأخبره بما عرف حتى بلغ السيف ، قال : هنالك قارعتك أمك عن ثكلها ، فعلاه عمر بالدرة ، وقال : بل أمك قارعتك عن ثكلها ، والله اني لأهمّ أن أقطع لسانك .

فقال عمرو : الحمى أضرعتني لك اليوم ، وخرج من عنده وهو يقول :

أتوعدني كأنك ذو رعين بأنعم عيشة أو ذو نواس
فكم قد كان قبلك من مليك عظيم ظاهر الجبروت قاس
فأصبح أهله بادوا ، وأمسى ينقل من أناس في أناس
فلا يغررك ملكك ، كل ملك يصير مذلة بعد الشماس

قال فاعتذر عمر اليه ، وقال : ما فعلت ما فعلته الا لتعلم أن الاسلام أفضل وأعز من الجاهلية ، وفضله على الوفد .

عمرو يحدث عمر عن فراره

وقد كان عمر آنس عمرا بعد ذلك ، وأقبل يسأله ويذاكره الحروب وأخبارها في الجاهلية فقال له عمر : يا عمرو ، هل انصرفت عن فارس قط في الجاهلية هيبة له ؟

قال : نعم ، والله ما كنت أستحل الكذب في الجاهلية فكيف استحله في الاسلام ؟ لأحدثنك حديثا لم أحدث به أحدا قبلك : خرجت في جريدة خيل لبني زبيد أريد الغارة ، فأتينا قوما سراة .

فقال عمر : كيف عرفت أنهم سراة ؟

قال : رأيت مزاود وقدورا مكفأة وقباب أدم حمرا ونعما كثيرا وشاء .

قال عمرو : فأهويت الى أعظمها قبة بعد ما حوينا السبي ، وكان متبددا من البيوت ، واذا امرأة بادية الجمال على فرش لها . فلما نظرت الي والى الخيل استعبرت ، فقلت : ما يبكيك ؟

فقالت : والله ما أبكي على نفسي ،ولكني أبكي حسدا لبنات عمي يسلمن وأبتلى أنا من بينهن .

فظننت والله أنها صادقة ، فقلت لها : وأين هن ؟

قالت : في هذا الوادي .

فقلت لأصحابي : لا تحدثوا شيئا حتى آتيكم ، ثم همزت فرسي حتى علوت كثيبا ، فاذا أنا بغلام أصهب الشعر ، أهلب ، أقنى ، أقبّ ، يخصف نعاله وسيفه بين يديه وفرسه عنده . فلما نظر الي رمى النعل من يده ثم أحضر غير مكترث ، فأخذ سلاحه وأشرف على ثنية . فلما نظر الى الخيل محيطة ببيته ، ركب ثم أقبل نحوي وهو يقول :

أقول لما منحتني فاها وألبستني بكرة رداها
اني سأحوي اليوم من حواها فليت شعري اليوم من دهاها

فحملت عليه وأنا أقول :

عمرو على طول الردى دهاها بالخيل يبقيها على وجاها
حتى اذا حل بها حواها

ثم حملت عليه بالفرس ، فاذا هو أروغ من هر ، فراغ عني ، ثم حمل علي فضربني بسيفه ضربة جرحتني . فلما أفقت من ضربته حملت عليه ، فراغ والله ، ثم حمل علي ، ثم صرعني ، ثم استاق ما في أيدينا . ثم استويت على فرسي ، فلما رآني أقبل وهو يقول :

أنا عبيد الله محمود الشيم وخير من يمشي بساق وقدم
عدوه يفديه من كل السقم
أنا ابن ذي التقليد في الشهر الأصم أنا ابن ذي الاكليل قتال البهم
من يلقني يودِ كما أودت ارم أتركه لحما على ظهر وضم

فراغ والله عني ، ثم حمل علي فضربني ضربة أخرى . ثم صرخ صرخة ، ورأيت الموت والله يا أمير المؤمنين ليس دونه شيء وخفته خوفا لم أخف قط أحدا مثله ، وقلت له : من أنت ثكلتك أمك ؟ فوالله ما اجترأ علي أحد قط الا عامر بن الطفيل لاعجابه بنفسه ، وعمرو بن كلثوم لسنه وتجربته ، فمن أنت ؟

قال : بل من أنت ؟ خبرني والا قتلتك .

قلت : أنا عمرو بن معديكرب .

قال : وأنا ربيعة بن مكدم .

قلت : اختر مني احدى ثلاث خصال : إن شئت اجتلدنا بسيفينا حتى يموت الأعجز منا ، وإن شئت اصطرعنا وان شئت السلم ، وأنت يا بن أخي حدث ، وبقومك اليك حاجة .

قال : بل هي اليك ، فاختر لنفسك . فاخترت السلم .

ثم قال : انزل عن فرسك .

قلت : يا ابن أخي قد جرحتني جراحتين ، ولا نزول لي .

فوالله ما كف عني حتى نزلت عن فرسي ، فأخذ بعنانه ، ثم أخذ بيده وانصرفنا الى الحي وأنا اجر رجلي ، حتى طلعت علينا الخيل . فلما رأوني همزوا خيولهم الي فناديتهم : اليكم .

وأرادوا ربيعة ، فمضى والله كأنه ليث حتى شقهم ، ثم أقبل علي فقال : يا عمرو ، لعل أصحابك يريدون غير الذي تريد .

فصمت والله القوم ما فيهم أحد ينطق وأعظموا ما رأوا منه .

فقلت : يا ربيعة بن مكدم ، لا يريدون الا خيرا .

وإنما سميته ليعرفه القوم ، فقال لهم : ما تريدون ؟

فقالوا : وما تريد ؟ قد جرحت فارس العرب وأخذت سيفه وفرسه .

ومضى ومضينا معه ، حتى نزل ، فقامت اليه صاحبته وهي ضاحكة تمسح وجهه . ثم أمر بإبل فنحرت ، وضربت علينا قباب .

فلما أمسينا جاءت الرعاء ومعهم أفراس لربيعة لم أر مثلها قط ، فلما رأى نظري اليها قال : كيف ترى هذه الخيول ؟ .

قلت : لم أر مثلها قط .

قال : أما لو كان عندي بعضها ما لبثت في الدنيا الا قليلا .

فضحكت ، وما ينطق أحد من أصحابي ، فأقمنا عنده يومين ثم انصرفنا .

عمرو بن معديكرب
يغير على بني كنانة

قال : وقد كان عمرو بن معديكرب بعد ذلك بزمان أغار على كنانة في صناديد قومه ، فأخذ غنائمهم ، وأخذ امرأة ربيعة بن مكدم .

فبلغ ذلك ربيعة ـ وكان غير بعيد ـ فركب في الطلب على فرس عريّ ومعه رمح بلا سنان حتى لحقه . فلما نظر اليه قال : يا عمرو ، خل عن الظعينة وما معك .

فلم يلتفت اليه ، ثم أعاد عليه ، فلم يلتفت اليه ، فقال : يا عمرو ، إما أن تقف لي ، وإما أن أقف لك .

فوقف عمرو ، وقال : لقد أنصف القارة من راماها ، قف لي يا ابن أخي .

فوقف له ربيعة ، فحمل عليه عمرو وهو يقول :

أنا أبو ثور ووقاف الزلق   لست بمأفون ولا فيَّ خرق

وأسد القوم اذا احمر الحدق اذا الرجال عضهم ناب الفرق
وجدتني بالسيف هتاك الحلق

حتى اذا ظن أنه قد خالطه السنان اذا هو لبب لفرسه ، ومر السنان على ظهر الفرس .
ثم وقف له عمرو، فحمل عليه ربيعة وهو يقول :

أنا الغلام ابن الكناني لا بلخ كم من هزبر قد رآني فانشدخ

فقرع بالرمح رأسه ، ثم قال : خذها اليك يا عمرو ، ولولا أني أكره قتل مثلك لقتلتك .

فقال عمرو : لا ينصرف الا أحدنا ، فقف لي .

فحمل عليه حتى اذا ظن أنه قد خالطه السنان اذا هو حزام لفرسه ، ومر السنان على ظهر الفرس .

ثم حمل عليه ربيعة فقرع بالرمح رأسه أيضا ، وقال : خذها اليك يا عمرو ثانية ، وإنما العفو مرتان .

وصاحت به امرأته : السنان لله درك .

فأخرج سنانا من سنخ ازاره كأنه شعلة نار ، فركبه على رمحه ، فلما نظر اليه عمرو ، وذكر طعنته بلا سنان قال له عمرو : يا ربيعة ، خذ الغنيمة .

قال : دعها وانج .

فقالت بنو زبيد :أنترك غنيمتنا لهذا الغلام ؟

فقال لهم عمرو : يا بني زبيد ، والله لقد رأيت الموت الأحمر في سنانه ، وسمعت صريره في تركيبه .

فقالت بنو زبيد :لا يتحدث العرب أن قوما من بني زبيد فيهم عمرو بن معد يكرب تركوا غنيمتهم لمثل هذا الغلام .

قال عمرو : إنه لا طاقة لكم به ، وما رأيت مثله قط ، فانصرفوا عنه .

وأخذ ربيعة امرأته والغنيمة وعاد الى قومه .

***

قال المسعودي رحمه الله : ولعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أخبار كثيرة في أسفاره في الجاهلية الى الشام والعراق مع كثير من ملوك العرب والعجم ، وسير في الاسلام ،

وأخبار وسياسات حسان ، وما كان في أيامه من الكوائن والأحداث وفتوح مصر والشام والعراق وغيرها من الأمصار ، قد أتينا على مبسوطها في كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وإنما نذكر في هذا الكتاب لمعا مما لم نذكره فيما سلف من كتبنا ، وبالله التوفيق .

ذكر خلافة عثمان بن عفان
رضي الله تعالى عنه

موجز

بويع عثمان يوم الجمعة غرة المحرم ، لليلة بقيت من ذي الحجة ، سنة ثلاث وعشرين .

وقيل لاثنتي عشرة ليلة مضت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين .

وقيل غير ذلك مما سنورده بعد هذا الموضع ، إلا أنه في ذي الحجة .

فجميع ما ولي اثنتا عشرة سنة الا ثمانية أيام .

وقتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة ، ودفن بالمدينة بموضع يعرف بحش كوكب .

وكانت خلافته رضي الله تعالى عنه اثنتي عشرة سنة الا ثمانية أيام .

ذكر نسبه
ولمع من أخباره وسيره رضي الله عنه
نسبه وأولاده

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . ويكنى بأبي عبد الله وأبي عمرو ، والأغلب منهما أبو عبد الله . وأمه أروى بنت كريز بن جابر بن حبيب بن عبد شمس .

وكان له من الولد : عبد الله الأكبر ، وعبد الله الأصغر ـ أمهما رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وأبان ، وخالد ، وسعيد ، والوليد ، والمغيرة ، وعبد الملك ، وأم أبان ، وأم سعيد ، وأم عمرو ، وعائشة .

وكان عبد الله الأكبر يلقب بالمطرف لجماله وحسنه ، وكان كثير التزوج ، كثير الطلاق .

وكان أبان أبرص أحول ، قد حمل عنه أصحاب الحديث عدة من السنن ، وولي لبني مروان مكة وغيرها .

وكان سعيد أحول بخيلا ، وقتل في زمن معاوية .

وكان الوليد صاحب شراب وفتوة ومجون ، وقتل أبوه وهو مخلق الوجه سكران عليه مصبغات واسعة .

وبلغ عبد اللّٰه الأصغر من السن ستا وسبعين عاما ، فنقره ديك في عينه ، فكان ذلك سبب موته .

وعبد الملك مات صغيرا ولا عقب له .

صفاته

وكان عثمان في نهاية الجود والكرم والسماحة والبذل في القريب والبعيد ، فسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته ، وتأسوا به في فعله . وبنى داره في المدينة ، وشيدها بالحجر والكلس ، وجعل أبوابها من الساج والعرعر ، واقتنى أموالا وجنانا وعيونا بالمدينة .

ثروته

وذكر عبد اللّٰه بن عتبة أن عثمان يوم قتل كان له عند خازنه من المال خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار ، وخلف خيلا كثيرا وابلا .

ثروة الزبير بن العوام

وفي أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور : منهم الزبير بن العوام ، بنى داره بالبصرة ، وهي المعروفة في هذا الوقت (وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة) تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهاز من البحريين وغيرهم ، وابتنى أيضا دورا بمصر والكوفة والاسكندرية ، وما ذكرنا من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول الى هذه الغاية .

وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف الزبير ألف فرس ، وألف عبد وأمة ، وخططا بحيث ذكرنا من الأمصار .

ثروة طلحة بن عبيد اللّٰه

وكذلك طلحة بن عبيد اللّٰه التيمي : ابتنى داره بالكوفة المشهورة به هذا الوقت ، المعروفة بالكناسة بدار الطلحيين . وكان غلته من العراق كل يوم ألف دينار ـ وقيل أكثر من ذلك ـ وبناحية الشراة أكثر مما ذكرنا . وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج .

ثروة عبد الرحمن بن عوف

وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهري ، ابتنى داره ووسعها ، وكان على مربطه مائة فرس ، وله ألف بعير ، وعشرة آلاف شاة من الغنم ، وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله اربعة وثمانين ألفا .

ثروة قوم من الصحابة

وابتنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ، فرفع سمكها ، ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات .

وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار .

وابتنى المقداد داره بالمدينة في الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن .

ومات يعلى بن منية ، وخلف خمسمائة ألف دينار ، وديونا على الناس ، وعقارات ، وغير ذلك من التركة ما قيمته ثلثمائة ألف دينار .

وهذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه ،في من تملك من الأموال في أيامه ، ولم يكن مثل ذلك في عصر عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة .

وحج عمر فأنفق في ذهابه ومجيئه الى المدينة ستة عشر دينارا ، وقال لولده عبد الله : لقد أسرفنا في نفقتنا في سفرنا هذا .

ولقد شكا الناس أميرهم بالكوفة سعد بن أبي وقاص ـ وذلك في سنة احدى وعشرين ـ فبعث عمر محمد بن مسلمة الأنصاري حليف بني عبد الأشهل ، فحرق عليه باب قصر الكوفة ، وعرضه في مساجد الكوفة يسألهم عنه ، فحمده بعضهم ، وشكاه بعض ، فعزله ، وبعث على الكوفة عمار بن ياسر على الثغر ، وعثمان بن حنيف على الخراج ، وعبد الله بن مسعود على بيت المال ، وأمره أن يعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين ، وفرض لهم في كل يوم شاة ، فجعل شطرها وسواقطها لعمار بن ياسر ، والشطر الآخر بين عبد الله بن مسعود وعثمان بن حنيف . . .

فأين عمر ممن ذكرنا ، وأين هو عما وصفنا ؟

عمال عثمان رضي الله عنه

وقدم على عثمان عمه الحكم بن أبي العاص وابنه مروان وغيرهما من بني أمية ـ والحكم هو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي غربه عن المدينة ، ونفاه عن جواره ـ وكان عماله جماعة منهم الوليد بن عقبة بن أبي معيط على الكوفة ، وهو ممن أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه من أهل النار ، وعبد الله بن أبي سرح على مصر ، ومعاوية بن أبي سفيان على الشام ، وعبد الله بن عامر على البصرة ، وصرف عن الكوفة الوليد بن عقبة ، وولاها سعيد بن العاص .

الوليد بن عقبة

وكان السبب في صرف الوليد بن عقبة وولاية سعيد ـ على ما روي ـ أن الوليد بن عقبة كان يشرب مع ندمائه ومغنيه من أول الليل الى الصباح ، فلما آذنه المؤذنون بالصلاة

خرج متفضلا في غلائله ، فتقدم الى المحراب في صلاة الصبح ، فصلى بهم أربعا ، وقال : أتريدون أن أزيدكم ؟

وقيل : انه قال في سجوده وقد أطال : اشرب واسقني .

فقال له بعض من كان خلفه في الصف الأول : ما تزيد لا زادك اللّه من الخير ، واللّه لا أعجب الا ممن بعثك الينا واليا وعلينا أميرا .

وكان هذا القائل عتاب بن غيلان الثقفي .

وخطب الناس الوليد فحصبه الناس بحصباء المسجد ، فدخل قصره يترنح ، ويتمثل بأبيات لتأبط شرا :

ولست بعيـدا عن مدام وقينة ... ولا بصفا صلـد عن الخير معزل
ولـكنني أروي من الخمر هامتي ... وأمشي المـلا بالساحب المتسلسل

وفي ذلك يقول الحطيئة :

شهـد الحطيئة يوم يلقى ربه ... أن الوليـد أحق بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم ... أأزيدكـم ؟! ثملا وما يدري
ليزيـدهـم أخرى ، ولـو قبلوا ... لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ، ولو ... خلـوا عنانك لم تزل تجري

وأشاعوا في الكوفة فعله ، وظهر فسقه ومداومته شرب الخمر ، فهجم عليه جماعة من المسجد منهم أبو زينب بن عوف الأزدي وجندب بن زهير الأزدي وغيرهما ، فوجدوه سكران مضجعا على سريره لا يعقل ، فأيقظوه من رقدته ، فلم يستيقظ ، ثم تقايأ عليهم ما شرب من الخمر .

فانتزعوا خاتمه من يده وخرجوا من فورهم الى المدينة ، فأتـوا عثمان بن عفان ، فشهدوا عنده على الوليد أنه شرب الخمر .

فقال عثمان : وما يدريكما أنه شرب خمرا ؟

فقالا : هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية . وأخرجا خاتمه فدفعاه اليه .

فزجرهما ودفع في صدورهما ، وقال : تنحيا عني .

فخرجا من عنده وأتيا علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه وأخبراه بالقصة ، فأتى عثمان وهو يقول : دفعت الشهود ، وأبطلت الحدود .

فقال له عثمان : فما ترى ؟

قال : أرى أن تبعث الى صاحبك فتحضره ، فان أقاما الشهادة عليه في وجهه ولم يدرأ عن نفسه بحجة أقمت عليه الحد .

فلما حضر الوليد دعاهما عثمان فأقاما الشهادة عليه ولم يدل بحجة . فألقى عثمان السوط الى علي ، فقال علي لابنه الحسن : قم يا بني فأقم اليه ما أوجب اللّه عليه .

فقال : يكفينيه بعض من ترى .

فلما نظر الى امتناع الجماعة عن اقامة الحد عليه توقيا لغضب عثمان لقرابته منه ، أخذ علي السوط ودنا منه . فلما أقبل نحوه سبه الوليد ، وقال : يا صاحب مكس .

فقال عقيل بن أبي طالب وكان ممن حضر : انك لتتكلم يا ابن أبي معيط كأنك لا تدري من أنت ، وأنت علج من أهل صفورية (وهي قرية بين عكاء واللجون ، من أعمال الأردن ، من بلاد طبرية ، كان ذكر أن أباه كان يهوديا منها) .

فأقبل الوليد يروغ من علي ، فاجتذبه علي فضرب به الأرض ، وعلاه بالسوط ، فقال عثمان : ليس لك أن تفعل به هذا .

قال : بل وشرا من هذا اذا فسق ومنع حق اللّه تعالى أن يؤخذ منه .

سعيد بن العاص

وولي الكوفة بعده سعيد بن العاص ، فلما دخل سعيد الكوفة واليا أبى أن يصعد المنبر حتى يغسل ، وأمر بغسله وقال : ان الوليد كان نجسا رجسا .

فلما اتصلت أيام سعيد بالكوفة ظهرت منه أمور منكرة ، فاستبد بالأموال ، وقال في بعض الأيام أو كتب به الى عثمان : انما هذا السواد قطين لقريش .

فقال له الأشتر ، وهو مالك بن الحارث النخعي : أتجعل ما أفاء اللّه علينا بظلال سيوفنا ومراكز رماحنا بستانا لك ولقومك ؟

ثم خرج الى عثمان في سبعين راكبا من أهل الكوفة ، فذكروا سوء سيرة سعيد بن العاص ، وسألوا عزله عنهم .

فمكث الأشتر وأصحابه أياما لا يخرج لهم من عثمان في سعيد شيء ، وامتدت أيامهم بالمدينة .

وقدم على عثمان أمراؤه من الأمصار : منهم عبد اللّه بن سعد بن أبي سرح من مصر ،

ومعاوية من الشام ، وعبد الله بن عامر من البصرة ، وسعيد بن العاص من الكوفة ، فأقاموا بالمدينة أياما لا يردهم الى أمصارهم كراهة أن يرد سعيدا الى الكوفة ، وكره أن يعزله ، حتى كتب اليه من بأمصارهم يشكون كثرة الخراج وتعطيل الثغور ، فجمعهم عثمان وقال : ما ترون ؟

فقال معاوية : أما أنا فراض بي جندي .

وقال عبد اللّه بن عامر بن كريز : ليكفك امرؤ ما قبله أكفك ما قبلي .

وقال عبد اللّه بن أبي سرح : ليس بكثير عزل عامل للعامة وتولية غيره .

وقال سعيد بن العاص : انك ان فعلت هذا كان أهل الكوفة هم الذين يولون ويعزلون ،وقد صاروا حلقا في المسجد ليس لهم غير الأحاديث والخوض ، فجهزهم في البعوث حتى يكون هم أحدهم أن يموت على ظهر دابته .

قال : فسمع مقالته عمرو بن العاص فخرج الى المسجد ،فاذا طلحة والزبير جالسان في ناحية منه ، فقالا له : تعال الينا .

فصار اليهما ، فقالا : ما وراءك ؟

قال: الشر ، ما ترك شيئا من المنكر ، الا أتى به وأمر به .

وجاء الأشتر فقالا له : ان عاملكم الذي أقمتم فيه خطباء قد رد عليكم وأمر بتجهيزكم في البعوث وبكذا وكذا .

فقال الأشتر : واللّه لقد كنا نشكو سوء سيرته وما قمنا فيه خطباء ، فكيف وقد قمنا ؟ . . وايم اللّه على ذلك لولا أني أنفذت النفقة وأنضيت الظهر لسبقته الى الكوفة حتى أمنعه من دخولها .

فقالا له : فعندناحاجتك التي تقوم بك في سفرك .

قال : فأسلفاني اذن مائة ألف درهم .

قال : فأسلفه كل واحد منهما خمسين ألف درهم ، فقسمه بين أصحابه ، وخرج الى الكوفة فسبق سعيدا ، وصعد المنبر وسيفه في عنقه ما وضعه بعد ، ثم قال : أما بعد ، فان عاملكم الذي أنكرتم تعديه وسوء سيرته قد رد عليكم ، وأمر بتجهيزكم في البعوث ، فبايعوني على ألا يدخلها .

فبايعه عشرة آلاف من أهل الكوفة ، وخرج راكبا متخفيا يريد المدينة أو مكة ، فلقي سعيدا بواقصة فأخبره الخبر ، فانصرف الى المدينة .

وكتب الأشتر الى عثمان : انا واللّه ما منعنا عاملك الدخول لنفسد عليك عملك ،

ولكن لسوء سيرته فينا وشدة عذابه ، فابعث الى عملك من أحببت .

فكتب اليهم : انظروا من كان عاملكم أيام عمر بن الخطاب فولوه .

فنظروا فاذا هو أبو موسى الأشعري ، فولوه .

بدء الطعن على عثمان وسببه

وفي سنة خمس وثلاثين كثر الطعن على عثمان رضي الله عنه ، وظهر عليه النكير لأشياء ذكروها من فعله :

منها ما كان بينه وبين عبد الله بن مسعود ، وانحراف هذيل عن عثمان من أجله .

ومن ذلك ما نال عمار بن ياسر من الفتن والضرب ، وانحراف بني مخزوم عن عثمان من أجله .

الوليد بن عقبة ويهودي مشعوذ

ومن ذلك فعل الوليد بن عقبة في مسجد الكوفة ، وذلك أنه بلغه عن رجل من اليهود من ساكني قريةمن قرى الكوفة مما يلي جسر بابل يقال لها زرارة يعمل أنواعا من الشعبذة والسحر يعرف ببطروني فأحضره فأراه في المسجد ضربا من التخييل ، وهو أن أظهر له في الليل فيلا عظيما على فرس يركض في صحن المسجد ، ثم صار اليهودي ناقة يمشي على جبل . ثم أراه صورة حمار دخل من فيه ثم خرج من دبره . ثم ضرب عنق رجل ففرق بين جسده ورأسه ، ثم أمر السيف عليه فقام الرجل .

وكان جماعة من أهل الكوفة حضورا منهم جندب بن كعب الأزدي ، فجعل يستعيذ بالله من فعل الشيطان ، ومن عمل يبعد من الرحمن . وعلم أن ذلك هو ضرب من التخييل والسحر ، فاخترط سيفه وضرب به اليهودي ضربة أدار رأسه ناحية من بدنه ، وقال : « جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا » .

وقد قيل : ان ذلك كان نهارا ، وان جندبا خرج الى السوق ودنا من بعض الصياقلة وأخذ سيفا ودخل فضرب به عنق اليهودي ، وقال : ان كنت صادقا فأحي نفسك .

فأنكر عليه الوليد ذلك ، وأراد أن يقيده به ، فمنعته الأزد ، فحبسه وأراد قتله غيلة .

ونظر السجان الى قيامه ليله الى الصبح ، فقال له : انج بنفسك .

فقال له جندب : تقتل بي .

قال : ليس ذلك بكثير في مرضاة الله والدفع عن ولي من أولياء الله .

فلما أصبح الوليد دعا به وقد استعد لقتله فلم يجده ، فسأل السجان ، فأخبره بهربه ، فضرب عنق السجان ، وصلبه بالكناسة .

بين عثمان وأبي ذر

ومن ذلك ما فعل بأبي ذر ، وهو أنه حضر مجلسه ذات يوم فقال عثمان : أرأيتم من زكى ماله هل فيه حق لغيره ؟

فقال كعب : لا يا أمير المؤمنين .

فدفع أبو ذر في صدر كعب ، وقال له : كذبت يا بن اليهودي . ثم تلا : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفين بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » .

فقال عثمان : أترون بأسا أن نأخذ مالا من بيت مال المسلمين فننفقه فيما ينوبنا من أمورنا ونعطيكموه ؟

قال كعب : لا بأس بذلك .

فرفع أبو ذر العصا فدفع بها في صدر كعب وقال : يا ابن اليهودي ، ما أجرأك على القول في ديننا !

فقال له عثمان : ما أكثر أذاك لي ، غيب وجهك عني فقد آذيتنا .

فخرج أبو ذر الى الشام ، فكتب معاوية الى عثمان : ان ابا ذر تجتمع اليه الجموع ، ولا آمن أن يفسدهم عليك ، فان كان لك في القوم حاجة فأحمله اليك .

فكتب اليه عثمان بحمله ، فحمله على بعير عليه قتب يابس معه خمسة من الصقالبة يطيرون به ، حتى أتوا به المدينة وقد تسلخت بواطن أفخاذه وكاد أن يتلف .

فقيل له : انك تموت من ذلك .

فقال : هيهات لن أموت حتى أنفى .

وذكر جوامع ما ينزل به بعد ، ومن يتولى دفنه . فأحسن اليه عثمان في داره أياما ، ثم دخل اليه فجلس على ركبتيه وتكلم بأشياء ، وذكر الخبر في ولد أبي العاص اذا بلغوا ثلاثين رجلا اتخذوا عباد الله خولا ، ومر في الخبر بطوله وتكلم بكلام كثير .

وكان في ذلك اليوم قد أتي عثمان بتركة عبد الرحمن بن عوف الزهري من المال ، فنثرت البدر حتى حالت بين عثمان وبين الرجل القائم ، فقال عثمان : اني لأرجو لعبد الرحمن خيرا ، لأنه كان يتصدق ، ويقري الضيف ، ترك ما ترون .

فقال كعب الأحبار : صدقت يا أمير المؤمنين .

فشال أبو ذر العصا ، فضرب بها رأس كعب ، ولم يشغله ما كان فيه من الألـم ، وقال : يا بن اليهودي تقول لرجل مات وترك هذا المال : ان اللّه أعطاه خير الدنيا وخير الآخرة ، وتقطع على اللّه بذلك ، وأنا سمعت النبي صلى اللّه عليه وسلـم يقول : « ما يسرني أن أموت وأدع ما يزن قيراطا » .

فقال له عثمان : وار عني وجهك .

فقال : أسير الى مكة .

قال : لا واللّه .

قال : فتمنعني من بيت ربي أعبده فيه حتى أموت ؟

قال : اي واللّه .

قال : فإلى الشام .

قال : لا واللّه .

قال : البصرة ؟

قال : لا واللّه .

قال : فاختر غير هذه البلدان .

قال : لا واللّه ما أختار غير ما ذكرت لك ، ولو تركتني في دار هجرتي ما أردت شيئاً من البلدان ، فسيرني حيث شئت من البلاد .

قال : فاني مسيرك الى الربذة .

قال : اللّه أكبر ، صدق رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قد أخبرني بكل ما أنا لاق .

قال عثمان : وما قال لك ؟

قال : أخبرني بأني أمنع عن مكة والمدينة وأموت بالربذة ، ويتولى مواراتي نفر ممن يردون من العراق نحو الحجاز .

وبعث أبو ذر الى جمل له فحمل عليه امرأته ـ وقيل : ابنته ـ وأمر عثمان أن يتجافاه الناس حتى يسير الى الربذة .

فلما طلع الى المدينة ومروان يسيره عنها طلع عليه علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ومعه ابناه الحسن والحسين وعقيل أخوه وعبد اللّه بن جعفر وعمار بن ياسر ، فاعترض مروان فقال : يا علي ، ان أمير المؤمنين قد نهى الناس أن يصحبوا أبا ذر في مسيره ويشيعوه ، فان كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك .

فحمل عليه علي بن أبي طالب بالسوط وضرب بين أذني راحلته ، وقال : تنح نحاك اللّه الى النار .

ومضى مع أبي ذر فشيعه ثم ودعه وانصرف .

فلما أراد علي الانصراف بكى أبو ذر ، وقال : رحمكم اللّه أهل البيت ، واذا رأيتك يا أبا الحسن وولدك ذكرت بكم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

فشكا مروان الى عثمان ما فعل به علي بن أبي طالب ، فقال عثمان : يا معشر المسلمين من يعذرني من علي ؟ رد رسولي عما وجهته له ، وفعل كذا ، واللّه لنعطينه حقه .

فلما رجع علي استقبله الناس ، فقالوا له : ان أمير المؤمنين عليك غضبان لتشييعك أبا ذر .

فقال علي : غضب الخيل على اللجم .

فلما كان بالعشي جاء الى عثمان ، فقال له : ما حملك على ما صنعت بمروان ، ولم اجترأت علي ورددت رسولي وأمري ؟

قال : أما مروان فانه استقبلني يردني فرددته عن ردي ، وأما أمرك فلم أرده .

قال عثمان : ألم يبلغك أني قد نهيت الناس عن أبي ذر وعن تشييعه ؟

فقال علي : أوكل ما أمرتنا به من شيء نرى طاعة اللّه والحق في خلافه اتبعنا فيه أمرك ؟ باللّه لا تفعل .

قال عثمان : أقد مروان .

قال : ومم أقيده ؟

قال . ضربت بين أذني راحلته وشتمته ، فهو شاتمك وضارب بين أذني راحلتك .

قال علي : أما راحلتي فهي تلك ، فان أراد أن يضربها كما ضربت راحلته فليفعل ، وأما أنا فواللّه لئن شتمني لأشتمنك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ولا أقول الا حقا .

قال عثمان : ولم لا يشتمك اذا شتمته ، فواللّه ما أنت عندي بأفضل منه ؟

فغضب علي بن أبي طالب وقال : ألي تقول هذا القول ، وبمروان تعدلني ؟ فأنا واللّه أفضل منك ، وأبي أفضل من أبيك ، وأمي أفضل من أمك ، وهذه نبلي قد نثلتها ، وهلم فانثل بنبلك .

فغضب عثمان واحمر وجهه ، فقام ودخل داره . وانصرف علي ، فاجتمع اليه أهل بيته ، ورجال من المهاجرين والأنصار .

فلما كان من الغد واجتمع الناس الى عثمان شكا اليهم عليا وقال : انه يعيبني ويظاهر من يعيبني . . . يريد بذلك أبا ذر وعمار بن ياسر وغيرهما .

فدخل الناس بينهما حتى اصطلحا ، وقال له علي : واللّه ما أردت بتشييع أبي ذر الا اللّه تعالى .

عمار بن ياسر

وقد كان عمار حين بويع عثمان بلغه قول أبي سفيان صخر بن حرب في دار عثمان عقيب الوقت الذي بويع فيه عثمان ودخل داره ومعه بنو أمية ، فقال أبو سفيان : أفيكم أحد من غيركم ؟ (وقد كان عمي) .

قالوا : لا .

قال : يا بني أمية ، تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذي يحلف به أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن الى صبيانكم وراثة .

فانتهره عثمان ، وساءه ما قال .

ونمي هذا القول الى المهاجرين والأنصار ، وغير ذلك الكلام ، فقام عمار في المسجد فقال : يا معشر قريش ، أما اذ صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ههنا مرة وههنا مرة ، فما أنا بآمن من أن ينزعه الله منكم فيضعه في غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله .

وقام المقداد فقال : ما رأيت مثل ما أوذي به أهل هذا البيت بعد نبيهم .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : وما أنت وذاك يا مقداد بن عمرو ؟

فقال : اني والله لأحبهم لحب رسول الله صلى الله عليه وسلم اياهم ، وان الحق معهم وفيهم ، يا عبد الرحمن ، أعجب من قريش - وانما تطولهم على الناس بفضل أهل هذا البيت - قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده من أيديهم ، أما وايم الله يا عبد الرحمن لو أجد على قريش أنصارا لقاتلتهم كقتالي اياهم مع النبي عليه الصلاة والسلام يوم بدر .

وجرى بينهم من الكلام خطب طويل قد أتينا على ذكره في كتابنا « أخبار الزمان » في أخبار الشورى والدار .

الثورة على عثمان

ولما كان سنة خمس وثلاثين سار مالك بن الحارث النخعي من الكوفة في مائتي رجل ، وحكيم بن جبلة العبدي في مائة رجل من أهل البصرة ، ومن أهل مصر ستمائة رجل عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي .

وقد ذكر الواقدي وغيره من أصحاب السير أنه ممن بايع تحت الشجرة ، الى آخرين ممن كان بمصر مثل عمرو بن الحمق الخزاعي وسعد بن حمران التجيبي ، ومعهم محمد بن أبي بكر الصديق ، وقد كان تكلم بمصر ، وحرض الناس على عثمان لأمر يطول ذكره كان السبب فيه مروان بن الحكم ، فنزلوا في الموضع المعروف بذي الخشب .

فلما علم عثمان بنزولهم بعث الى علي بن أبي طالب فأحضره وسأله أن يخرج اليهم ، ويضمن لهم عنه كل ما يريدون من العدل وحسن السيرة .

فسار علي اليهم ، فكان بينهم خطب طويل ، فأجابوه الى ما أراد وانصرفوا .

فلما صاروا الى الموضع المعروف بحسمي اذا هم بغلام على بعير وهو مقبل من المدينة ، فتأملوه فاذا هو ورش غلام عثمان ، فقرروه ، فأقر وأظهر كتابا الى ابن أبي سرح صاحب مصر وفيه : « اذا قدم عليك الجيش فاقطع يد فلان ، واقتل فلانا ، وافعل بفلان كذا » . . . وأحصى أكثر من في الجيش ، وأمر فيهم بما أمر .

وعلم القوم أن الكتاب بخط مروان ، فرجعوا الى المدينة ، واتفق رأيهم ورأي من قدم من العراق ، ونزلوا المسجد وتكلموا ، وذكروا ما نزل بهم من عمالهم ، ورجعوا الى عثمان فحاصروه في داره ، ومنعوه الماء . فأشرف على الناس وقال : ألا أحد يسقينا ؟

وقال : بم تستحلون قتلي وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث : كفر بعد ايمان ، أو زنى بعد احصان ، أو قتل نفس بغير نفس » ؟ والله ما فعلت ذلك في جاهلية ولا اسلام .

فبلغ عليا طلبه للماء ، فبعث اليه بثلاث قرب ماء ، فما وصل اليه ذلك حتى خرج جماعة من موالي بني هاشم وبني أمية ، وارتفع الصوت وكثر الضجيج ، وأحدقوا بداره بالسلاح وطالبوه بمروان ، فأبى أن يخلي عنه . وفي الناس بنو زهرة لأجل عبد الله بن مسعود لأنه كان من أحلافها ، وهذيل لأنه كان منها ، وبنو مخزوم وأحلافها لعمار ، وغفار وأحلافها لأجل أبي ذر ، وتيم بن مرة مع محمد بن أبي بكر . . وغير هؤلاء ممن لا يحمل كتابنا ذكره .

فلما بلغ عليا أنهم يريدون قتله بعث بابنيه الحسن والحسين مع مواليه بالسلاح الى بابه لنصرته ، وأمرهم أن يمنعوه منهم ، وبعث الزبير ابنه عبد الله ، وبعث طلحة ابنه محمدا ، وأكثر أبناء الصحابة أرسلهم آباؤهم اقتداء بمن ذكرنا ، فصدوهم عن الدار .

فرمى من وصفنا بالسهام ، واشتبك القوم ، وجرح الحسن ، وشج قنبر ، وجرح محمد بن طلحة . فخشي القوم أن يتعصب بنو هاشم وبنو أمية ، فتركوا القوم في القتال على الباب ، ومضى نفر منهم الى دار قوم من الأنصار فتسوروا عليها .

وكان ممن وصل اليه محمد بن أبي بكر ورجلان آخران ، وعند عثمان زوجته ، وأهله ومواليه مشاغيل بالقتال .

فأخذ محمد بن أبي بكر بلحيته ، فقال : يا محمد ، والله لو رآك أبوك لساءه مكانك .

فتراخت يده ، وخرج عنه الى الدار . ودخل رجلان فوجداه فقتلاه، وكان المصحف بين يديه يقرأ فيه ، فصعدت امرأته فصرخت وقالت: قد قتل أمير المؤمنين .

فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما من بني أمية ، فوجوده قد فاضت نفسه رضي اللّه عنه ، فبكوا . فبلغ ذلك عليا وطلحة والزبير وسعدا وغيرهم من المهاجرين والأنصار ، فاسترجع القوم ، ودخل علي الدار ، وهو كالواله الحزين ، وقال لابنيه : كيف قتل أمير المؤمنين وأنتما على الباب ؟ ولطم الحسن وضرب صدر الحسين ، وشتم محمد بن طلحة ، ولعن عبد اللّه بن الزبير .

فقال له طلحة : لا تضرب يا أبا الحسن ، ولا تشتم ولا تلعن ، لو دفع اليهم مروان ما قتل .

وهرب مروان وغيره من بني أمية ، وطلبوا ليقتلوا فلم يوجدوا .

وقال علي لزوجته نائلة بنت الفرافصة : من قتله وأنت كنت معه ؟

قالت : دخل اليه رجلان . . وقصت خبر محمد بن أبي بكر .

فلم ينكر ما قالت ، وقال : واللّه لقد دخلت عليه وأنا أريد قتله ، فلما خاطبني بما قال خرجت ، ولا أعلم بتخلف الرجلين عني ، واللّه ما كان لي في قتله من سبب ، ولقد قتل وأنا لا أعلم بقتله .

وكانت مدة ما حوصر عثمان في داره تسعا وأربعين يوما ، وقيل : أكثر من ذلك .

مقتل عثمان

وقتل في ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذي الحجة ، وذكر أن أحد الرجلين كنانة بن بشر التجيبي ، ضربه بعمود على جبهته ، والآخر منهما سعد بن حمران المرادي ، ضربه بالسيف على حبل عاتقه فحله .

وقد قيل : ان عمرو بن الحمق طعنه بسهام تسع طعنات ، وكان فيمن مال عليه عمير ابن ضابىء البرجمي التميمي ، وخضخض سيفه في بطنه .

مدفنه

ودفن على ما وصفنا في الموضع المعروف بحش كوكب ، وهذا الموضع فيه مقابر بني أمية ، ويعرف أيضا بحلة ، وصلى عليه جبير بن مطعم وحكيم بن حزام وأبو جهم بن حذيفة .

ولما حوصر عثمان كان أبو أيوب الأنصاري رضي اللّه عنه يصلي بالناس ، ثم امتنع ، فصلى بهم سهل بن حنيف ، فلما كان يوم النحر صلى بهم علي .

وقيل : ان عثمان قتل ومعه في الدار من بني أمية ثمانية عشر رجلا منهم مروان بن الحكم .

ما قيل فيه من الرثاء

وفي مقتله تقول زوجته نائلة بنت الفرافصة :

ألا ان خير الناس بعــد ثلاثة قتيل التجيبي الذي جاء من مصر
وما لي لا أبكــي وتبكــي قرابتي وقد غيبوا عني فضول أبي عمرو

وقال حسان بن ثابت في من تخلف عنه وخذله من الأنصار وغيرهم ، وأعان عليه وعلى قتله ، والله أعلم بما قاله ، من أبيات :

خذلته الأنصار اذ حضر المو ت وكــانت ولايــة الأنصار
من عذيــري من الــزبير وطلــ حة اذ جاء أمر له مقدار
فتولى محمد بن أبي بكــ ـر عيــانا ، وخلفه عمار

في شعر له طويل يذكر فيه غير من ذكرنا ، وينسبهم الى التمالؤ على قتله ، والرضا بما فعل به ، والله أعلم .

وكان حسان عثمانيا منحرفا عن غيره ، وكان عثمان اليه محسنا ، وهو المتوعد للأنصار في قوله في شعره :

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني ما كان شأن علي وابن عفانا
لتسمعــن وشيكــا في ديارهم اللــه أكبر ، يا ثارات عثمانا

وكان عثمان رضي الله عنه كثيرا ما ينشد أبياتا قالها ويطيل ذكرها لا تعرف لغـيره ، منها :

تفنى اللــذاذة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الاثم والعار
يلقى عواقب سوء من مغبتها لا خير في لذة من بعدهــا النار

وكان الوليد بن عقبة بن أبي معيط أخا عثمان لأمه ، فسمع في الليلة الثانية من مقتل عثمان يندبه ، وهو يقول :

بني هاشم ، انا وما كان بيننا — كصدع الصفا ما يومض الدهر شاعبه
بني هاشم ، كيف الهوادة بيننا — وسيف ابن أروى عندكم وحرائبه
بني هاشم ، ردوا سلاح ابن اختكم — ولا تنهبوه ، لا تحل مناهبه
غدرتم به كيما تكونوا مكانه — كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

وهي أبيات .

فأجابه عن هذا الشعر ، وفيما رمى به بني هاشم ونسبه اليهم ، الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب ، فقال :

فلا تسألونا سيفكم ، ان سيفكم — أضيع ، وألقاه لدى الروع صاحبه
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا — فهم سلبوه سيفه وحرائبه
وكان ولي الأمر بعد محمد — علي ، وفي كل المواطن صاحبه
علي ولي اللّه أظهر دينه — وأنت مع الأشقين فيما تحاربه
وأنت امرؤ من أهل صفواء نازح — فما لك فينا من حميم تعاتبه
وقد أنزل الرحمن أنك فاسق — فما لك في الاسلام سهم تطالبه

***

قال المسعودي رحمه اللّه : ولعثمان أخبار وسير ومآثر حسان ، وقد أتينا على ذكرها في كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط ، وكذلك ما كان في أيامه من الكوائن والأحداث والفتوح والحروب مع الروم وغيرهم ، واللّه ولي التوفيق ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ذكر خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
كرّم الله وجهه

موجز

بويع علي بن أبي طالب في اليوم الذي قتل فيه عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فكانت خلافته الى أن استشهد أربع سنين وتسعة أشهر وثمانية أيام .

وقيل : أربع سنين وتسعة أشهر الا يوما .

وكانت الفرقة بينه وبين معاوية بن أبي سفيان على ما ذكرنا في خلافته .

وكان مولده في الكعبة .

وقيل : ان خلافته كانت خمس سنين وثلاثة أشهر وسبع ليال ، واستشهد وهو ابن ثلاث وستين سنة ، وعاش بعد الضربة الجمعة والسبت ، وتوفي ليلة الأحد .

وقد قيل في مقدار عمره أقل مما ذكرنا .

وقد تنوزع في موضع قبره :

فمنهم من قال : انه دفن في مسجد الكوفة .

ومنهم من قال : انه حمل الى المدينة فدفن عند قبر فاطمة .

ومنهم من قال : انه حمل في تابوت على جمل ، وان الجمل تاه ووقع الى وادي طيء .

وقد قيل من الوجوه غير ما ذكرنا ، وقد أتينا على ذلك في كتابنا « أخبار الزمان » والكتاب الأوسط .

ذكر نسبه
ولمع من أخباره وسيره رضي الله عنه

نسبه

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ويكنى أبا الحسن ، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف .

ولم يكن من عهد النبي صلى الله عليه وسلم الى وقتنا هذا من خلافة المتقي ممن ولي الخلافة من اسمه علي غيره ، وغير المكتفي بالله علي بن المعتضد .

وكان أول من ولده هاشميان من الخلفاء .

وقد قيل : انه بويع البيعة العامة بعد قتل عثمان بأربعة أيام ، وقد ذكرنا البيعة الأولى فيما سلف من هذا الكتاب .

وتنازع الناس في اسم أبي طالب أبيه .

إخوته وأخواته

وولد أبي طالب بن عبد المطلب أربعة ذكور وابنتان ، فطالب وعقيل وجعفر وعلي وفاختة وجمانة لأب وأم ، أمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وبين كل واحد من البنين عشر سنين : فطالب الأكبر ، وبينه وبين عقيل عشر سنين ، وبين عقيل وجعفر سنتان ، وبين جعفر وعلي عشر سنين .

وأخرج مشركو قريش طالب بن أبي طالب يوم بدر الى حرب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كرهاً ، ومضى ولم يعرف له خبر ، وحفظ من قوله في هذا اليوم :

يا رب اما خرجوا بطالب ... في مقنب من تلكم المقانب
فاجعلهم المغلوب غير الغالب ... والرجل المسلوب غير السالب

وكان زوج فاختة بنت أبي طالب أبو وهب هبيرة بن عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم ، وخلف عليها ابنا وبنتا ، وهاجرت ، ومات زوجها بنجران مشركا . وفيها يقول ببلاد نجران من أبيات كثيرة :

أشاقتك هند أم شآك سؤالها ... كذاك النوى أسبابها وانتقالها
وأرقني في رأس حصن ممرد ... بنجران يسري بعد نوم خيالها
فان تك قد تابعت دين محمد ... وقطعت الأرحام منك حبالها

وهي طويلة .

وكانت تكنى أم هانىء ، وقد استعمل علي ـ حين أفضت الخلافة اليه ـ ابنها جعدة بن هبيرة ، وجعدة هو القائل :

أبي من بني مخزوم ان كنت سائلا ... ومن هاشم أمي لخير قبيل
فمن ذا الذي ينأى علي بخاله ... وخالي علي ذو الندى وعقيل

وجمانة بنت أبي طالب كان بعلها سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهي أول

هاشمية ولدت لهاشمي . . كذلك ذكر الزبير بن بكار في كتابه في أنساب قريش وأخبارها .
وهاجرت وماتت بالمدينة في أيام النبي صلى الله عليه وسلم .

مسيره الى البصرة

وكان مسير علي الى البصرة في سنة ست وثلاثين ، وفيها كانت وقعة الجمل ، وذلك في يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى منها . وقتل فيها من أصحاب الجمل من أهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفا ، وقتل من أصحاب علي خمسة آلاف .

وقد تنازع الناس في مقدار من قتل من الفريقين ، فمن مقلل ومكثر : فالمقلل يقول : قتل منهم سبعة آلاف ، والمكثر يقول عشرة آلاف . . . على حسب ميل الناس وأهوائهم الى كل فريق منهم .

وكانت وقعة واحدة في يوم واحد .

وقيل : انه كان بين خلافة علي الى وقعة الجمل خمسة أشهر وأحد وعشرون يوما ، وبين وقعة الجمل وأول الهجرة خمس وثلاثون سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام ، وبين ذلك وبين دخول علي الى الكوفة شهر ، وبين ذلك وبين أول الهجرة خمس وثلاثون سنة وستة أشهر وعشرة أيام ، وبين دخول علي والتقائه مع معاوية للقتال بصفين ستة أشهر وثلاثة عشر يوما ، وبين ذلك وأول الهجرة ست وثلاثون سنة وثلاثة عشر يوما .

قتلى صفين وأيامها

وقتل بصفين سبعون ألفا : من أهل الشام خمسة وأربعون ألفا ، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا ، وكان المقام بصفين مائة يوم وعشرة أيام . وقتل بها من الصحابة ممن كان مع علي خمسة وعشرون رجلا : منهم عمار بن ياسر أبو اليقظان المعروف بابن سمية وهو ابن ثلاث وسبعين سنة .

وكانت عدة الوقائع بين أهل العراق والشام سبعون وقعة .

التقاء الحكمين

وفي سنة ثمان وثلاثين كان التقاء الحكمين وهما عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري بأرض البلقاء من أرض دمشق ـ وقيل : بدومة الجندل ـ وهي على نحو عشرة أميال من دمشق . وكان من أمرهما ما قد شهر .

وسنورد في هذا الكتاب جوامع ما ذكرنا ، وان كنا قد أتينا على مبسوط ذلك فيما سلف من كتبنا .

وفي هذه السنة حكمت الخوارج وتحكمت وهم الشراة .

وكان ممن شهد صفين مع علي من أصحاب بدر سبعة وثمانون رجلا : منهم سبعة عشر من المهاجرين ، وسبعون من الأنصار ، وشهد معه من الأنصار ممن تابع تحت الشجرة ، وهي بيعة الرضوان من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعمائة ، وكان جميع من شهد معه من الصحابة ألفان وثمانمائة .

حربه مع الخوارج

وفي سنة ثمان وثلاثين كان حربه مع أهل النهروان من الخوارج . وقعد عن بيعته جماعة عثمانية لم يروا الا الخروج عن الأمر : منهم سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وبايع يزيد بعد ذلك والحجاج لعبد الملك بن مروان ، ومنهم قدامة بن مظعون ، وأهبان بن صيفي ، وعبد الله بن سلام ، والمغيرة بن شعبة الثقفي .

وممن اعتزل من الأنصار : كعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ـ وكانا شاعرين ـ وأبو سعيد الخدري ، ومحمد بن مسلمة حليف بني عبد الأشهل، ويزيد بن ثابت ، ورافع بن خديج ، ونعمان بن بشير ، وفضالة بن عبيد ، وكعب بن عجرة ، ومسلمة بن خالد . . . في آخرين ممن لم نذكرهم من العثمانية من الأنصار ، وغيرهم من بني أمية وسواهم .

وانتزع علي أملاكا كان عثمان أقطعها جماعة من المسلمين ، وقسم ما في بيت المال على الناس ، ولم يفضل أحدا على أحد .

وبعثت أم حبيبة بنت أبي سفيان الى أخيها معاوية بقميص عثمان مخضبا بدمائه مع النعمان بن بشير الأنصاري .

واتصلت بيعة علي بالكوفة وغيرها من الأمصار ، وكان أهل الكوفة أسرع اجابة الى بيعته ، وأخذ له البيعة على أهلها أبو موسى الأشعري ، حتى تكاثر الناس عليه ، وكان عليها عاملا لعثمان .

بنو امية عند علي

وأتاه جماعة ممن تخلف عن بيعته من بني أمية : منهم سعيد بن العاص ، ومروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة بن أبي معيط ، فجرى بينه وبينهم خطب طويل ، وقال له الوليد : انا لم نتخلف عنك رغبة عن بيعتك ، ولكنا قوم وترنا الناس ، وخفنا على نفوسنا فعذرنا فيما نقول واضح ، أما أنا فقتلت أبي صبراً ، وضربتني حدّا .

وقال سعيد بن العاص كلاما كثيرا .

وقال له الوليد : أما سعيد فقتلت أباه ، وأهنت مثواه ، وأما مروان فانك شتمت أباه ، وعبت عثمان في ضمه إياه .

وقد ذكر أبو مخنف لوط بن يحيى أن حسان بن ثابت وكعب بن مالك والنعمان بن بشير ـ قبل نفوذه بالقميص ـ أتوا عليا في آخرين من العثمانية ، فقال كعب بن مالك : يا أمير المؤمنين ، ليس مسيئا من أعتب ، وخير كفر ما محاه عذر . . في كلام كثير ، ثم بايع وبايع من ذكرنا جميعا .

عمرو بن العاص

وقد كان عمرو بن العاص انحرف عن عثمان لانحرافه عنه وتوليته مصر غيره ، فنزل الشام . فلما اتصل به أمر عثمان وما كان من بيعة علي ، كتب الى معاوية يهزه ويشير عليه بالمطالبة بدم عثمان .

وكان فيما كتب به اليه : ما كنت صانعا اذا قشرت من شيء تملكه ، فاصنع ما أنت صانع .

فبعث اليه معاوية ، فسار اليه ، فقال له معاوية : بايعني .

قال : لا ، والله لا أعطيك من ديني حتى أنال من دنياك .

قال : سل .

قال : مصر طعمة .

فأجابه الى ذلك ، وكتب له به كتابا .

وقال عمرو بن العاص في ذلك :

معاوي لا أعطيك ديني ولـم أنل ... به منك دنيا،فانظرن كيف تصنع
فان تعـطني مصرا فاربح بصفقة ... أخذت بها شيخا يضر وينفع

المغيرة بن شعبة ينصح عليا ثم يرجع

وأتى المغيرة بن شعبة عليا ، فقال له : ان لك حق الطاعة والنصيحة ، وان الرأي اليوم تحوز به ما في غد ، وان المضاع اليوم تضيع به ما في غد . . . أقرر معاوية على عمله ، وأقرر ابن عامر على عمله ، وأقرر العمال على أعمالهم ، حتى اذا أتتك طاعتهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت .

قال : حتى أنظر .

فخرج من عنده وعاد اليه من الغد ، فقال : اني أشرت عليك بالأمس برأي وتعقبته برأي ، وانما الرأي أن تعاجلهم بالنزع فتعرف السامع من غيره ، وتستقبل أمرك .

ثم خرج من عنده فتلقاه ابن عباس خارجا وهو داخل ، فلما انتهى الى علي قال : رأيت المغيرة خارجا من عندك ففيم جاءك ؟

قال : جاءني أمس بكيت وكيت ، وجاءني اليوم بذيت وذيت .

فقال : أما أمس فقد نصحك ، وأما اليوم فقد غشك .

قال : فما الرأي ؟

قال : كان الرأي أن تخرج حين قتل عثمان أو قبل ذلك ، فتأتي مكة فتدخل دارك فتغلق عليك بابك : فان كانت العرب مائلة مضطرة في أثرك ، لا تجد غيرك . فأما اليوم فان بني أمية سيحسنون الطلب بأن يلزموك شعبة من هذا الأمر ، ويشبهون فيك على الناس .

وقال المغيرة : نصحته فلم يقبل ، فغششته .

وذكر أنه قال : والله ما نصحته قبلها ، ولا أنصحه بعدها .

قال المسعودي : ووجدت في وجه آخر من الروايات أن ابن عباس قال : قدمت من مكة بعد مقتل عثمان بخمس ليال ، فجئت عليا أدخل عليه ، فقيل لي : عنده المغيرة بن شعبة . فجلست بالباب ساعة ، فخرج المغيرة فسلم علي وقال : متى قدمت ؟

قلت : الساعة .

ودخلت علىٰ علي وسلمت عليه ، فقال : أين لقيت الزبير وطلحة ؟

قلت : بالنواصف .

قال : ومن معهما ؟

قلت : أبو سعيد بن الحارث بن هشام في فتية من قريش .

فقال علي : أما انهم لم يكن لهم بد أن يخرجوا يقولون نطلب بدم عثمان ، والله يعلم أنهم قتلة عثمان .

فقلت : أخبرني عن شأن المغيرة ، ولم خلا بك ؟

قال : جاءني بعد مقتل عثمان بيومين فقال : أخلني ، ففعلت .

فقال : ان النصح رخيص ، وأنت بقية الناس ، وأنا لك ناصح ، وأنا أشير عليك ألا ترد عمال عثمان عامك هذا ، فاكتب اليهم باثباتهم على أعمالهم فاذا بايعوا لك واطمأن أمرك عزلت من أحببت وأقررت من أحببت .

فقلت له : والله لا أداهن في ديني ، ولا أعطي الرياء في أمري .

قال : فان كنت قد أبيت فانزع من شئت واترك معاوية فان له جراءة وهو في أهل الشام مسموع منه ، ولك حجة في اثباته ، فقد كان عمر ولاه الشام كلها .

فقلت له : لا والله لا أستعمل معاوية يومين أبدا .

فخرج من عندي على ما أشار به ، ثم عاد فقال : اني أشرت عليك بما أشرت به وأبيت عليّ ، فنظرت في الأمر ، واذا أنت مصيب لا ينبغي أن تأخذ أمرك بخدعة ، ولا يكون فيه دلسة .

قال ابن عباس : فقلت له : أما أول ما أشار به عليك فقد نصحك ، وأما الآخر فقد غشك . وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية فان بايع لك فعلي أن أقلعه من منزله .

قال : لا ، والله لا أعطيه الا السيف .

ثم تمثل :

فما ميتة ان متها غير عاجز بعار اذا ما غالت النفس غولها

فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنت رجل شجاع ، أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الحرب خدعة » ؟

فقال علي : بلىٰ .

قلت : أما والله لئن أطعتني لأصدرن بهم بعد ورود ، ولأتركنهم ينظرون في أدبار الأمور ، ولا يدرون ما كان وجهها ، من غير نقص لك ، ولا اثم عليك .

فقال لي : يا ابن عباس ، لست من هنياتك ولا هنيات معاوية في شيء تشير به علي برأي ، فاذا عصيتك فأطعني .

فقلت : أنا أفعل ، فان أيسر مالك عندي الطاعة .

والله وليّ التوفيق .

ذكر الأخبار عن يوم الجمل وبدئه وما كان فيه من الحرب وغير ذلك

تدبير الخروج على علي

ودخل طلحة والزبير مكة ، وقد كانا استأذنا عليا في العمرة ، فقال لهما : لعلكما تريدان البصرة أو الشام ، فأقسما أنهما لا يقصدان غير مكة ، وقد كانت عائشة رضي الله عنها بمكة .

وقد كان عبد الله بن عامر عامل عثمان على البصرة هرب عنها حين أخذ البيعة لعلي بها على الناس حارثة بن قدامة السعدي ، ومسير عثمان بن حنيف الأنصاري اليها على خراجها من قبل علي رضي الله عنه .

وانصرف عن اليمن عامل عثمان ، وهو يعلى بن منية ، فأتى مكة وصادف بها عائشة وطلحة والزبير ومروان بن الحكم في آخرين من بني أمية ، فكان ممن حرض على الطلب بدم عثمان ، وأعطى عائشة وطلحة والزبير اربعمائة ألف درهم ، وكراعا وسلاحا ، وبعث الى عائشة بالجمل المسمى عسكرا وكان شراؤه باليمن مائتي دينار .

فأرادوا الشام ، فصدهم بن عامر ، وقال : ان به معاوية ، ولا ينقاد اليكم ، ولا يطيعكم ، ولكن هذه البصرة لي بها صنائع وعدد . فجهزهم بألف ألف درهم ومائة من الابل وغير ذلك .

المسير الى البصرة

وسار القوم نحو البصرة في ستمائة راكب . فانتهوا في الليل الى ماء لبني كلاب يعرف بالحوأب ، عليه ناس من بني كلاب ، فعوت كلابهم على الركب ، فقالت عائشة : ما اسم هذا الموضع ؟

فقال لها السائق لجملها : الحوأب .

فاسترجعت وذكرت ما قيل لها في ذلك ، فقالت : ردوني الى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا حاجة لي في المسير .

فقال الزبير : بالله ما هذا الحوأب ، ولقد غلط فيما أخبرك به .

وكان طلحة في ساقة الناس ، فلحقها فأقسم أن ذلك ليس بالحوأب ، وشهد معهما خمسون رجلا ممن كان معهم ، فكان ذلك أول شهادة زور أقيمت في الاسلام .

فأتوا البصرة فخرج اليهم عثمان بن حنيف فمانعهم ، وجرى بينهم قتال ، ثم انهم

اصطلحوا بعد ذلك على كف الحرب الى قدوم علي .

فلما كان في بعض الليالي بيتوا عثمان بن حنيف فأسروه وضربوه ونتفوا لحيته ، ثم ان القوم استرجعوا وخافوا على مخلفيهم بالمدينة من أخيه سهل بن حنيف وغيره من الأنصار ، فخلوا عنه .

فأرادوا بيت المال فمانعهم الخزان والموكلون به وهم السبابجة ، فقتل منهم سبعون رجلا غير من جرح ، وخمسون من السبعين ضرب رقابهم صبرا من بعد الأسر . وهؤلاء أول من قتل ظلما في الاسلام وصبرا .

وقتلوا حكيم بن جبلة العبدي ، وكان من سادات عبد القيس وزهاد ربيعة ونساكها ، وتشاح طلحة والزبير في الصلاة بالناس ، ثم اتفقوا على أن يصلي بالناس عبد الله بن الزبير يوما ، ومحمد بن طلحة يوما . . . في خطب طويل كان بين طلحة والزبير الى أن اتفقا على ما وصفنا .

مسير علي الى العراق

وسار علي من المدينة بعد أربعة أشهر ، وقيل غير ذلك ، في سبعمائة راكب منهم أربعمائة من المهاجرين والأنصار ، منهم سبعون بدرياً وباقيهم من الصحابة . وقد كان استخلف على المدينة سهل بن حنيف الأنصاري .

فانتهى الى الربذة بين الكوفة ومكة من طريق الجادة ، وفاته طلحة وأصحابه ، وقد كان علي أرادهم ، فانصرف حين فاتوه الى العراق في طلبهم ، ولحق بعلي من أهل المدينة جماعة من الانصار فيهم خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين ، وأتاه من طيء ستمائة راكب .

وكاتب علي من الربذة أبا موسى الأشعري ليستنفر الناس ، فثبطهم أبو موسى ، وقال : انما هي فتنة . فنمي ذلك الى علي ، فولى على الكوفة قرظة بن كعب الأنصاري ، وكتب الى أبي موسى : اعتزل عملنا يا بن الحائك مذموما مدحورا ، فما هذا أول يومنا منك ، وان لك فينا لهنات وهنيات .

وسار علي بمن معه حتى نزل بذي قار ، وبعث بابنه الحسن وعمار بن ياسر الى الكوفة يستنفران الناس ، فسارا عنها ومعهما من أهل الكوفة نحو من سبعة آلاف ، وقيل : ستة آلاف وخمسمائة وستون رجلا منهم الأشتر . فانتهى علي الى البصرة وراسل القوم وناشدهم الله ، فأبوا الا قتاله .

قدوم علي الى البصرة

وذكر عن المنذر بن الجارود فيما حدث به أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحي ، عن

ابن عائشة ، عن معن بن عيسى ، عن المنذر بن الجارود قال : لما قدم علي رضي اللّه عنه البصرة دخل مما يلي الطف ، فأتى الزاوية . فخرجت أنظر اليه ، فورد موكب في نحو ألف فارس يتقدمهم فارس على فرس أشهب ، عليه قلنسوة وثياب بيض ، متقلد سيفا ومعه راية . واذا تيجان القوم الأغلب عليها البياض والصفرة مدججين في الحديد والسلاح .

فقلت من هذا ؟

فقيل : هذا أبو أيوب الأنصاري ، صاحب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وهؤلاء الأنصار وغيرهم .

ثم تلاهم فارس آخر عليه عمامة صفراء وثياب بيض ، متقلد سيفا ، متنكب قوسا ، معه راية ، على فرس أشقر ، في نحو ألف فارس .

فقلت من هذا ؟

فقيل : هذا خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين .

ثم مر بنا فارس آخر على فرس كميت ، معتم بعمامة صفراء ، من تحتها قلنسوة بيضاء ، عليه قباء أبيض مصقول ، متقلد سيفا ، متنكب قوسا ، في نحو ألف فارس من الناس ، ومعه راية .

فقلت من هذا ؟

فقيل لي : أبو قتادة بن ربعي .

ثم مر بنا فارس آخر ، على فرس أشهب ، عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها من بين يديه ومن خلفه شديد الأدمة ، عليه سكينة ووقار ، رافع صوته بقراءة القرآن ، متقلد سيفا ، متنكب قوسا ، معه راية بيضاء ، في ألف من الناس مختلفي التيجان ، حوله مشيخة وكهول وشباب ، كأنما قد أوقفوا للحساب ، أثر السجود قد أثر في جباههم .

فقلت : من هذا ؟

فقيل : عمار بن ياسر في عدة من الصحابة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم .

ثم مر بنا فارس على فرس أشقر ، عليه ثياب بيض وقلسنوة بيضاء وعمامة صفراء ، متنكب قوسا ، متقلد سيفا ، تخط رجلاه في الأرض ، في ألف من الناس الغالب على تيجانهم الصفرة والبياض ، معه راية صفراء .

قلت : من هذا ؟

قيل : هذا قيس بن سعد بن عبادة في عدة من الأنصار وأبنائهم وغيرهم من قحطان .

ثم مر بنا فارس على فرس أشهل ما رأينا احسن منه ، عليه ثياب بيض وعمامة سوداء قد سدلها من بين يديه بلواء .

قلت : من هذا ؟

قيل : هو عبد اللّه بن عباس في وفده ، وعدة من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

ثم تلاه موكب آخر فيه فارس أشبه الناس بالأولين .

قلت : من هذا ؟

قيل : عبيد اللّه بن العباس .

ثم تلاه موكب آخر فيه فارس أشبه الناس بالأولين .

قلت : من هذا ؟

قيل : قثم بن العباس أو معبد بن العباس .

ثم أقبلت المواكب والرايات يقدم بعضها بعضا ، واشتبكت الرماح . ثم ورد موكب فيه خلق من الناس عليهم السلاح والحديد ، مختلفو الرايات ، في أوله راية كبيرة ، يتقدمهم رجل كأنما كسر وجبر . . .

قال ابن عائشة : وهذه صفة رجل شديد الساعدين نظره الى الأرض أكثر من نظره الى الى فوق ، كذلك تخبر العرب في وصفها اذا أخبرت عن الرجل أنه كسر وجبر . .

كأنما على رؤوسهم الطير ، وعن يمينه شـاب حسن الوجه ، وعن يساره شاب حسن الوجه ، وبين يديه شاب مثلهما .

قلت : من هؤلاء ؟

قيل : هـذا علي بن أبي طالب ، وهذان الحسن والحسين عن يمينه وشماله ، وهذا محمد بن الحنفية بين يديه معه الراية العظمى ، وهذا الذي خلفه عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب ، وهؤلاء ولد عقيل وغيرهم من فتيان بن هاشم ، وهؤلاء المشايخ هم أهـل بدر من المهاجرين والأنصار .

فساروا حتى نزلوا الموضع المعروف بالزاوية ، فصلى أربع ركعات ، وعفر خديه على التراب ، وقد خالط ذلك دموعه ، ثم رفع يديه يدعو : اللهم رب السموات وما أظلت ، والأرضين وما أقلت ، ورب العرش العظيم ، هذه البصرة ، أسألك من خيرها ، وأعوذ بك من شرها . اللهم أنزلنا فيها خير منزل وأنت خير المنزلين . اللهم ان هؤلاء القوم قد خلعوا طاعتي ، وبغوا علي ، ونكثوا بيعتي ، اللهم احقن دماء المسلمين .

وبعث اليهم من يناشدهم اللّه في الدماء ، وقال : علام تقاتلونني ؟

فأبوا الا الحرب ، فبعث اليهم رجلا من أصحابه يقال له مسلم معه مصحف يدعوهم الى اللّه ، فرموه بسهم فقتلوه ، فحمل الى علي وقالت أمه :

يا رب ان مسلما أتاهم يتلو كتاب اللّـه لا يخشاهم
فخضبوا من دمه لحاهم وأمـه قـائمـة تـراهـم

مبدأ القتال

وأمر علي رضي اللّه عنه أن يصافوهم ، ولا يبدأوهم بقتال ، ولا يرموهم بسهم ، ولا يضربوهم بسيف ، ولا يطعنوهم برمح ، حتىٰ جاء عبد اللّه بن بديل بن ورقاء الخزاعي من الميمنة بأخ له مقتول ،وجاء قوم من الميسرة برجل قد رمي بسهم فقتل . فقال علي : اللهم اشهد ، وأعذروا الى القوم .

ثم قام عمار بن ياسر بين الصفين فقال : أيها الناس ، ما أنصفتم نبيكم حين كففتم عقائلكم في الخدور وأبرزتم عقيلته للسيوف .

وعائشة على جمل في هودج من دفوف الخشب قد ألبسوه المسوح وجلود البقر ، وجعلوا دونه اللبود ، وقد غشي على ذلك بالدروع .

فدنا عمار من موضعها ، فنادىٰ : الى ماذا تدعين ؟

قالت : الى الطلب بدم عثمان .

فقال : قاتل اللّه في هذا اليوم الباغي والطالب بغير الحق .

ثم قال : أيها الناس ، انكم لتعلمون أينا الممالىء في قتل عثمان ؟

ثم أنشأ يقول وقد رشقوه بالنبل :

فمنك البكـاء ، ومنك العويل ومنك الريـاح ، ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الامام وقاتلـه عندنا من أمر

وتواتر عليه الرمي واتصل ، فحرك فرسه ، وزال عن موضعه وأتى علياً فقال : ماذا ننتظر يا أمير المؤمنين وليس لك عند القوم الا الحرب ؟

خطبة لعلي قبل الالتحام

فقام علي رضي اللّـه عنه في الناس خطيبا رافعـا صوته فقال : أيها الناس ، اذا هزمتموهم فلا تجهزوا على جريح ، ولا تقتلوا أسيرا ، ولا تتبعوا موليا ، ولا تطلبوا مدبرا ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، ولا تهتكوا سترا ، ولا تقربوا شيئا من أموالهم الا ما تجدونه في عسكرهم من سلاح أو كراع أو عبد أو أمة ، وما سوى ذلك فهو ميراث لورثتهم على كتاب اللّه .

بين علي والزبير رضي اللّه عنهما

وخرج علي بنفسه حاسرا على بغلة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لا سلاح عليه فنادى : يا زبير ، اخرج الي .

فخرج اليه الزبير شاكا في سلاحه ، فقيل ذلك لعائشة ، فقالت : واثكلك يا أسماء .

فقيل لها : ان علياً حاسر ، فاطمأنت .

واعتنق كل واحد منهما صاحبه ، فقال له علي : ويحك يا زبير ، ما الذي أخرجك ؟

قال : دم عثمان .

قال : قتل اللّه أولانا بدم عثمان ، أما تذكر يوم لقيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في بني بياضة وهو راكب حماره ، فضحك اليّ رسول اللّه ، وضحكت اليه ، وأنت معه ، فقلت أنت : يا رسول اللّه ، ما يدع علي زهوه . فقال لك : « ليس به زهو ، أتحبه يا زبير ؟ » ، فقلت : اني واللّه لأحبه ، فقال لك : « انك واللّه ستقاتله وأنت له ظالم » .

فقال الزبير : أستغفر اللّه ، واللّه لو ذكرتها ما خرجت .

فقال له : يا زبير ارجع .

فقال : وكيف أرجع الآن وقد التقت حلقتا البطان ؟ هذا واللّه العار الذي لا يغسل .

فقال : يا زبير ارجع بالعار قبل أن تجمع العار والنار .

فرجع الزبير وهو يقول :

اخترت عارا على نار مؤججة ... ما ان يقوم لها خلق من الطين
نادى علي بأمر لست أجهله ... عار لعمرك في الدنيا وفي الدين
فقلت : حسبك من عذل أبا حسن ... فبعض هذا الذي قد قلت يكفيني

فقال ابنه عبد اللّه : أين تذهب وتدعنا ؟

فقال : يا بني ، أذكرني أبو الحسن بأمر كنت قد أنسيته .

فقال : لا واللّه ، ولكنك فررت من سيوف بني عبد المطلب ، فإنها طوال حداد ، تحملها فتية أنجاد .

قال : لا واللّه ، ولكني ذكرت ما أنسانيه الدهر ، فاخترت العار على النار ، أبالجبن تعيرني لا أبا لك ؟

ثم أمال سنانه وشد في الميمنة فقال علي : أفرجوا له فقد هاجوه .

ثم رجع فشد في الميسرة . ثم رجع فشد في القلب . ثم عاد الى ابنه ، فقال : أيفعل هذا جبان ؟

مقتل الزبير ورثاؤه

ثم مضى منصرفا ، حتى أتى وادي السباع والأحنف بن قيس معتزل في قومه من بني تميم ، فأتاه آت فقال له : هذا الزبير مارا .

فقال : ما أصنع بالزبير وقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس يقتل بعضهم بعضا وهو مار الى منزله سالما ؟

فلحقه نفر من بني تميم ، فسبقهم اليه عمرو بن جرموز ، وقد نزل الزبير الى الصلاة ، فقال : أتؤمني أو أؤمك ؟

فأمه الزبير ، فقتله عمرو في الصلاة .

وقتل الزبير رضي الله عنه وله خمس وسبعون سنة .

وقد قيل ان الأحنف بن قيس قتله بارساله من أرسل من قومه . وقد رثته الشعراء وذكرت غدر عمرو بن جرموز به ، وممن رثاه زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل أخت سعيد بن زيد ، فقالت :

غدر ابن جرموز بفارس بهمة ... يوم اللقاء ، وكان غير مسدد
يا عمرو ، لو نبهته لوجدته ... لا طائشا رعش الجنان ولا اليد
هبلتك أمك أن قتلت لمسلما ... حلت عليك عقوبة المتعمد
ما ان رأيت ولا سمعت بمثله ... فيمن مضى ممن يروح ويغتدي

وأتى عمرو عليا بسيف الزبير وخاتمه ورأسه ، وقيل : انه لم يأت برأسه ، فقال علي : سيف طالما جلا الكرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكنه الحين ومصارع السوء ، وقاتل ابن صفية في النار .

ففي ذلك يقول عمرو بن جرموز التميمي في أبيات :

أتيت عليا برأس الزبير ... وقد كنت أرجو به الزلفة
فبشر بالنار قبل العيان ... وبئس بشارة ذي التحفة
لسيان عندي قتل الزبير ... وضرطة عنز بذي الجحفة

بين علي وطلحة رضي الله عنهما

ثم نادى علي رضي اللّــه عنه طلحة حين رجع الــزبير : يا أبا محمد ، ما الــذي أخرجك ؟

قال : الطلب بدم عثمان .

قال علي : قتل اللّه أولانا بدم عثمان ، أما سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : « اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » وأنت أول من بايعني ثم نكثت ، وقد قال اللّه عز وجل : « ومن نكث فانما ينكث على نفسه » ؟

فقال : أستغفر اللّه ، ثم رجع .

فقال مروان بن الحكم : رجع الزبير ويرجع طلحة ، ما أبالي رميت ههنا أم ههنا .

فرماه في أكحله فقتله ، فمر به علي بعد الوقعة في موضعه في قنطرة قرة ، فوقف عليه ، فقال : إنا للّه وانا اليه راجعون ، واللّه لقد كنت كارها لهذا ، أنت واللّه كما قال القائل :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه — اذا ما هو استغنى ويبعده الفقر
كــأن الثــريـا علقـت في يمينــه — وفي خده الشعرى ، وفي الآخر البدر

وذكر أن طلحة رضي اللّه عنه لما ولى سمع وهو يقول :

ندامة ما ندمت وضل حلمي — ولهفي ثم لهف أبي وأمي
ندمت ندامة الكسعــي لما — طلبت رضا بني جرم بزعمي

وهو يمسح عن جبينه الغبار ويقول : « وكان أمر اللّه قدرا مقدورا » .

وقيل : انه سمع وهو يقول هذا الشعر وقد جرحه في جبهته عبد الملك ورماه مروان في أكحله وقد وقع صريعا يجود بنفسه .

ترجمة طلحة

وهو طلحة بن عبيد اللّه بن عثمان بن عبيد اللّه بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، وهو ابن عم أبي بكر الصديق ، ويكنى أبا محمد ، وأمه الصعبة ، وكانت تحت أبي سفيان صخر بن حرب . . . كذلك ذكر الزبير بن بكار في كتابه في أنساب قريش .

وقتل وهو ابن أربع وستين سنة ، وقيل غير ذلك ، ودفن بالبصرة ، وقبره ومسجده

فيها مشهور الى هذه الغاية ، وقبر الزبير بوادي السباع .

مقتل محمد بن طلحة

وقتل محمد بن طلحة مع أبيه في ذلك اليوم ، ومر به علي فقال : هذا رجل قتله بره بأبيه وطاعته له ، وكان يدعى بالسجاد ، وقد تنوزع في كنيته :

فقال الواقدي : كان يكنى بأبي سليمان ، وقال الهيثم بن عدي : كان يكنى بأبي القاسم .

وفيه يقول قاتله :

وأشعث سجاد بآيات ربه	قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
شككت له بالرمح جيب قميصه	فخر صريعا لليدين وللفم
على غير شيء غير أن ليس تابعا	عليا ، ومن لا يتبع الحق يندم
يذكرني حاميم والرمح شارع	فهلا تلا حاميم قبل التقدم

وقد كان أصحاب الجمل حملوا على ميمنة علي وميسرته فكشفوها ، فأتاه بعض ولد عقيل وعلي يخفق نعاسا على قربوس سرجه ، فقال له : يا عم ، قد بلغت ميمنتك وميسرتك حيث ترى ، وأنت تخفق نعاسا ؟

قال : اسكت يا ابن أخي ، فان لعمك يوما لا يعدوه ، والله ما يبالي عمك وقع على الموت أو وقع الموت عليه .

ثم بعث الى ولده محمد بن الحنفية ، وكان صاحب رايته : احمل على القوم ، فأبطأ محمد بحملته ـ وكان بازائه قوم من الرماة ينتظر نفاد سهامهم ـ فأتاه علي فقال : هلا حملت .

فقال : لا أجد متقدما الا على سهم أو سنان ، واني منتظر نفاد سهامهم وأحمل .

فقال له : احمل بين الأسنة ، فان للموت عليك جنة .

فحمل محمد ، فشك بين الرماح والنشاب فوقف ، فأتاه علي فضربه بقائم سيفه ، وقال : أدركك عرق من أمك .

وأخذ الراية وحمل ، وحمل الناس معه ، فما كان القوم الا كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، وأطافت بنو ضبة بالجمل وأقبلوا يرتجزون ويقولون :

نحن بنو ضبة أصحاب الجمل	ننازل الموت اذا الموت نزل
ردوا علينا شيخنا ثم بجل	ننعى ابن عفان بأطراف الأسل

والموت عندنا احلى من العسل

وقطع على خطام الجمل سبعون يدا من بني ضبة منهم سعد بن سود القاضي متقلدا مصحفا ، كلما قطعت يد واحد منهم فصرع ، قام آخر فأخذ الخطام وقال : أنا الغلام الضبي .

ورمي الهودج بالنشاب والنبل حتى صار كأنه قنفذ . وعرقب الجمل وهو لا يقع وقد قطعت اعضاؤه وأخذته السيوف حتى سقط .

ويقال : ان عبد الله بن الزبير قبض على خطام الجمل ، فصرخت عائشة ، وكانت خالته : واثكل أسماء ، خل الخطام . وناشدته فخلى عنه .

ولما سقط الجمل ووقع الهودج ، جاء محمد بن أبي بكر فأدخل يده فقالت : من أنت ؟

قال : أقرب الناس منك قرابة ، وأبغضهم اليك ، أنا محمد أخوك . يقول لك أمير المؤمنين هل أصابك شيء ؟

قالت : ما أصابني الا سهم لم يضرني .

فجاء علي حتى وقف عليها ، فضرب الهودج بقضيب وقال : يا حميراء ، رسول الله أمرك بهذا ؟ ألم يأمرك أن تقري في بيتك ، والله ما أنصفك الذين أخرجوك اذ صانوا عقائلهم وأبرزوك .

وأمر أخاها محمدا فأنزلها في دار صفية بنت الحارث بن طلحة العبدي ، وهي أم طلحة الطلحات .

ووقع الهودج والناس مفترقون يقتتلون ، والتقى الأشتر مالك بن الحارث النخعي وعبد الله بن الزبير فاعتركا وسقطا على الأرض عن فرسيهما . وطال اعتراكهما على وجه الأرض ، فعلاه الأشتر ولم يجد سبيلا الى قتله لشدة اضطرابه من تحته ، والناس حولهما يجولون ، وابن الزبير ينادي :

اقتلوني ومالكا واقتلوا مالكا معي

فلا يسمعه أحد لشدة الجلاد ووقع الحديد على الحديد ، ولا يراهما راء لظلمة النقع ، وترادف العجاج .

وجاء ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت الى علي فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تنكس اليوم رأس محمد ، واردد اليه الراية . فدعا به ، ورد عليه الراية ، وقال :

أطعنهم طعن أبيك تحمد لا خير في الحرب اذا لم توقد
بالمشرفي والقنا المسرد

ثم استسقى ، فأتي بعسل وماء ، فحسا منه حسوة ، وقال : هذا الطائفي وهو غريب بهذا البلد .

فقال له عبد الله بن جعفر : أما شغلك ما نحن فيه عن علم هذا ؟

قال : انه والله يا بني ما ملأ صدر عمك شيء قط من أمر الدنيا .

دخول علي البصرة

ثم دخل البصرة ، وكانت الوقعة في الموضع المعروف بالخريبة ، وذلك يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ست وثلاثين ، على حسب ما قدمنا آنفا من التاريخ ، وخطب الناس بالبصرة خطبته الطويلة التي يقول فيها : يا أهل السبخة ، يا أهل المؤتفكة ، ائتفكت بأهلك من الدهر ثلاثا ، وعلى الله تمام الرابعة . يا جند المرأة ، يا أتباع البهيمة ، رغا فأجبتم ، وعقر فانهزمتم ، أخلاقكم رقاق ، وأعمالكم نفاق ، ودينكم زيغ وشقاق ، وماؤكم أجاج وزعاق .

وقد ذم علي أهل البصرة بعد هذا الموقف مرارا كثيرة .

بين ابن عباس وعائشة

وبعث بعبد الله بن عباس الى عائشة يأمرها بالخروج الى المدينة ، فدخل عليها بغير اذنها ، واجتذب وسادة فجلس عليها ، فقالت له : يا ابن عباس ، أخطأت السنة المأمور بها ، دخلت الينا بغير اذننا وجلست على رحلنا بغير أمرنا .

فقال لها : لو كنت في البيت الذي خلفك فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دخلنا الا بإذنك ، وما جلسنا على رحلك الا بأمرك . وان أمير المؤننين يأمرك بسرعة الأوبة ، والتأهب للخروج الى المدينة .

فقالت : أبيت ما قلت وخالفت ما وصفت .

فمضى الى علي ، فخبره بامتناعها ، فرده اليها ، وقال : ان أمير المؤمنين يعزم عليك أن ترجعي .

فأنعمت وأجابت الى الخروج ، وجهزها علي وأتاها في اليوم الثاني ودخل عليها ومعه الحسن والحسين وباقي أولاده وأولاد اخوته وفتيان أهله من بني هاشم وغيرهم من شيعته من همدان .

فلما بصرت به النسوان صحن في وجهه وقلن : يا قاتل الأحبة .

فقال : لو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في هذا البيت .

وأشار الى بيت من تلك البيوت قد اختفى فيه مروان بن الحكم وعبد اللّه بن الزبير . وعبد اللّه بن عامر وغيرهم ، فضرب من كان معه بأيديهم الى قوائم سيوفهم لما علموا من في البيت مخافة أن يخرجوا منه فيغتالوه .

فقالت له عائشة ، بعد خطب طويل كان بينهما : اني أحب أن أقيم معك فأسير الى قتال عدوك عند سيرك .

فقال : بل ارجعي الى البيت الذي تركك فيه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

فسألته أن يؤمن ابن أختها عبد اللّه بن الزبير فأمنه .

وتكلم الحسن والحسين في مروان فأمنه ، وأمن الوليد بن عقبة وولد عثمان وغيرهم من بني أمية .

وأمن الناس جميعا ، وقد كان نادى يوم الوقعة : من ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن .

حزن علي على القتلى

واشتد حزن علي على من قتل من ربيعة قبل وروده البصرة ، وهم الذين قتلهم طلحة والزبير من عبد القيس وغيرهم من ربيعة ، وجدد حزنه قتل زيد بن صوحان العبدي ، قتله في ذلك اليوم عمرو بن سبرة ، ثم قتل عمار بن ياسر عمرو بن سبرة في ذلك اليوم أيضا ، وكان علي يكثر من قوله :

يا لهف نفسي على ربيعة . ربيعة السامعة المطيعة

وخرجت امرأة من عبد القيس تطوف في القتلى ، فوجدت ابنين لها قد قتلا ، وقد كان قتل زوجها وأخوان لها فيمن قتل قبل مجيء علي البصرة . فأنشأت تقول :

شهدت الحروب فشيبنني فلم أر يوما كيوم الجمل
أضر على مؤمن فتنة وأقتله لشجاع بطل
فليت الظعينة في بيتها وليتك عسكر لم ترتحل

وقد ذكر المدائني أنه رأى بالبصرة رجلا مصطلم الأذن ، فسأله عن قصته ، فذكر أنه خرج يوم الجمل ينظر الى القتلى ، فنظر الى رجل منهم يخفض رأسه ويرفعه وهو يقول :

لقد أوردتنا حومة المـوت أمنا فلـم تنصرف الا ونحن رواء
أطعنا بني تيـم لشقوة جدنا وما تيـم الا أعبد واماء

فقلت : سبحان اللّه ، أتقول هذا عند الموت ؟ قل لا اله الا اللّه .

فقال : يا بن اللخناء ، إياي تأمر بالجزع عند الموت ؟

فوليت عنه متعجبا منه ، فصاح بي : ادن مني ، ولقني الشهادة .

فصرت اليه ، فلما قربت منه استدناني ، ثم التقم أذني فذهب بها . فجعلت ألعنه وأدعو عليه ، فقال : اذا صرت الى أمك فقالت من فعل هذا بك ، فقل عمير بن الأهلب الضبي مخدوع المرأة التي أرادت أن تكون أمير المؤمنين .

خروج عائشة من البصرة

وخرجت عائشة من البصرة ، وقد بعث معها علي أخاهـا عبد الـرحمن بن أبي بكـر وثلاثين رجلا وعشرين امرأة من ذوات الدين من عبد القيس وهمدان وغيرها ، ألبسهـن العمائم وقلدهن السيوف ، وقال لهن : لا تعلمن عائشة أنكن نسوة وتلثمن كأنكن رجال ، وكن اللاتي تلين خدمتها وحملها .

فلما أتت المدينة قيل لها : كيف رأيت مسيرك ؟

قالت : كنت بخير واللّه ، لقد أعطى علي بن أبي طالب فأكثر ، ولكنه بعث معي رجالا أنكرتهم .

فعرفها النسوة أمرهـن ، فسجدت وقالـت : ما ازددت واللّـه يا بـن أبي طالـب الا كرما ، ووددت أني لم أخرج وان أصابتني كيت وكيت من أمور ذكرتها شاقة ، وانما قيل لي : تخرجين فتصلحين بين الناس فكان ما كان .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب أن الذي قتل من أصحاب علي في ذلك اليوم خمسة آلاف نفس ، ومن أصحاب الجمل وغيرهم من أهل البصرة وغيرهم ثلاثة عشر ألفا ، وقيل غير ذلك .

ووقف علي على عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد بن أبي العيص بن أمية وهو قتيل يوم الجمل فقال : لهفي عليك يعسوب قريش ، قتلت الغطاريف من بني عبد مناف ، شقيت نفسي وجدعت أنفي .

فقال له الأشتر : ما أشد جزعك عليهم يا أمير المؤمنين ، وقد أرادوا بك ما نزل بهم .

فقال : انه قامت عني وعنهم نسوة لم يقمن عنك .

وقد كان قتله في ذلك اليوم الأشتر النخعي . وأصيب كف ابن عتاب بمنى ـ وقيل باليمامة ـ ألقتها عقاب وفيها خاتم نقشه عبد الرحمن بن عتاب . وكان اليوم الذي وجد فيه الكف بعد يوم الجمل بثلاثة أيام .

ودخل علي بيت مال البصرة في جماعة من المهاجرين والأنصار ، فنظر الى ما فيه من العين والورق فجعل يقول : يا صفراء غري غيري ، ويا بيضاء غري غيري .

وأدام النظر الى المال مفكرا ، ثم قال : اقسموه بين أصحابي ومن معي خمسمائة خمسمائة ، ففعلوا فما نقص درهم واحد ، وعدد الرجال اثنا عشر ألفا .

وقبض ما كان في معسكرهم من سلاح ودابة ومتاع وآلة وغير ذلك فباعه وقسمه بين أصحابه ، وأخذ لنفسه كما أخذ لكل واحد ممن معه من أصحابه وأهله وولده خمسمائة درهم . فأتاه رجل من أصحابه فقال : يا أمير المؤمنين ، اني لم آخذ شيئا ، وخلفني عن الحضور كذا ، وأدلى بعذر . فأعطاه الخمسمائة التي كانت له .

وقيل لأبي لبيد الجهضمي من الأزد : أتحب عليا ؟

فقال : وكيف أحب رجلا قتل من قومي في بعض يوم ألفين وخمسمائة ، وقتل من الناس حتى لم يكن أحد يعزي أحدا ، واشتغل أهل كل بيت بمن لهم ؟

مسيره الى الكوفة

وولى علي على البصرة عبد الله بن عباس ، وسار الى الكوفة ، فكان دخوله اليها لاثنتي عشرة ليلة مضت من رجب .

وبعث الى الأشعث بن قيس يعزله عن أذربيجان وأرمينية، وكان عاملا لعثمان عليها .

وصرف عن همدان جرير بن عبد الله البجلي ، وكان عاملا لعثمان .

فكان في نفس الأشعث على علي ما ذكرنا من العزل ، وما خاطبه به حين قدم عليه فيما اقتطع هنالك من الأموال .

علي يبعث الى معاوية

ووجه بجرير بن عبد الله الى معاوية ، وقد كان الأشتر حذره من ذلك ، وخوفه من جرير ، وقد كان جرير قال لعلي : ابعثني اليه ، فانه لم يزل لي مستنصحا ووادّاً ، فآتيه وأدعوه أن يسلم لك هذا الأمر ، وأدعو أهل الشام الى طاعتك .

فقال الأشتر : لا تبعثه ولا تصدقه ، فوالله اني لأظن هواه هواهم ونيته نيتهم .

فقال علي : دعه حتى ننظر ما يرجع به الينا .

فبعث به وكتب الى معاوية معه يعلمه مبايعة المهاجرين والأنصار اياه واجتماعهم عليه ،

ونكث الزبير وطلحة ، وما أوقع اللّه بهما ، ويأمره بالدخول في طاعته ، ويعلمه أنه من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة .

فلما قدم عليه جرير دافعه وسايله أن ينتظره وكتب الى عمرو بن العاص على ما قدمنا ، فقدم عليه فأعطاه مصر طعمة على ما قدمنا في صدر هذا الباب . فأشار اليه عمرو بالبعث الى وجوه الشام وأن يلزم عليا دم عثمان ، ويقاتله بهم .

فقدم جرير على علي فأخبره خبرهم ، واجتماع أهل الشام مع معاوية على قتاله ، وأنهم يبكون على عثمان ويقولون : ان عليا قتله ، وآوى قتلته ومنع منهم ، وأنهم لا بد لهم من قتاله حتى يفنوه أو يفنيهم .

فقال الأشتر : قد كنت أخبرتك يا أمير المؤمنين بعداوته وغشه ، ولو بعثتني لكنت خيرا من هذا الذي أرخى خناقه وأقام حتى لم يدع بابا نرجو روحه الا فتحه ، ولا بابا يخاف منه الا أغلقه .

فقال جرير : لو كنت ثم لقتلوك ، واللّه لقد ذكروا أنك من قتلة عثمان .

قال الأشتر : لو أتيتهم واللّه يا جرير لم يعيني جوابهم ، ولا ثقل علي خطابهم ، ولحملت معاوية على خطة أعجلته فيها عن الفكر ، ولو أطاعني أمير المؤمنين فيك لحبسك وأشباهك في محبس فلا تخرجون منه حتى يستقيم هذا الأمر .

فخرج جرير عند ذلك الى بلاد قرقيسيا والرحبة من شاطىء الفرات ، وكتب الى معاوية يعلمه بما نزل به ، وأنه أحب مجاورته ، والمقام في داره . فكتب اليه معاوية يأمره بالمسير اليه .

بين المغيرة ومعاوية

وبعث معاوية الى المغيرة بن شعبة الثقفي ـ عند منصرف علي من الجمل ، وقبل مسيره الى صفين ـ بكتاب يقول فيه : لقد ظهر من رأي ابن أبي طالب ما كان تقدم من وعده لك في طلحة والزبير ، فما الذي بقي من رأيه فينا ؟

وذلك أن المغيرة بن شعبة لما قتل عثمان وبايع الناس عليا دخل عليه المغيرة فقال : يا أمير المؤمنين ، ان لك عندي نصيحة .

فقال : وما هي ؟

قال : ان اردت أن يستقيم لك ما أنت فيه فاستعمل طلحة بن عبيد اللّه على الكوفة ، والزبير بن العوام على البصرة ، وابعث الى معاويةبعهدهعلى الشام حتى تلزمه طاعتك ، فاذا استقر قرارها رأيت فيه رأيك .

قال : اما طلحة والزبير فسأرى رأيي فيهما ، وأما معاوية فلا والله لا يراني الله استعين به ما دام على حاله أبدا . ولكني أدعوه الى ما عرفته ، فان أجاب والا حاكمته الى الله .

فانصرف المغيرة مغضبا وقال :

نصحت عليا في ابن هند مقالة	فردت ، فلا يسمع لها الدهر ثانيه
وقلت له : أرسل اليه بعهده	على الشام ، حتى يستقر معاويه
ويعلم أهل الشام أن قد ملكته	وأم ابن هند عند ذلك هاويه
فلم يقبل النصح الذي جئته به	وكانت له تلك النصيحة كافيه

***

قال المسعودي رحمه الله : وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب ما كان من المغيرة مع علي ، وما أشار به ، وهذا أحد الوجوه المروية في ذلك .

فهذه جوامع ما يحتاج اليه من أخبار يوم الجمل وما كان فيه ، دون الإكثار والتطويل وتكرار الأسانيد في ذلك والله ولي التوفيق .

ذِكر جوامِع مما كانَ بينَ أهْلِ العِراقِ وأهْلِ الشَّام

بصفين

قال المسعودي رحمه الله : قد ذكرنا جملا وجوامع من أخبار علي رضي الله عنه بالبصرة وما كان يوم الجمل ، فلنذكر الآن جوامع من سيره الى صفين ، وما كان فيها من الحروب ، ثم نعقب ذلك بشأن الحكمين والنهروان ، ومقتله عليه السلام .

مسيره الى صفين

وكان سير علي من الكوفة الى صفين لخمس خلون من شوال سنة ست وثلاثين ، واستخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر الأنصاري . فاجتاز في مسيره المدائن ، ثم أتى الأنبار ، وسار حتى نزل الرقة ، فعقد له هنالك جسر ، فعبر الى جانب الشام .

عدد جيشه

وقد تنوزع في مقدار ما كان معه من الجيش ، فمكثر ومقلل ، والمتفق عليه من قول الجميع تسعون ألفا ، وقال رجل من أصحاب علي لما استقروا مما يلي الشام من أبيات كتب بها الى معاوية حيث يقول :

اثبت معاوي قد أتاك الحافل تسعون ألفا كلهم مقاتل
عما قليل يضمحل الباطل

جيش معاوية

وسار معاوية من الشام ، وقد تنوزع في مقدار من كان معه أيضا ، فمكثر ومقلل ، والمتفق عليه من الجميع خمس وثمانون ألفا ، فسبق عليا الى صفين ، وعسكر في موضع سهل أفيح اختاره قبل قدوم علي ، على شريعة لم يكن على الفرات في ذلك الموضع أسهل منها للوارد الى الماء ، وما عداها أخراق عالية ، ومواضع الى الماء وعرة ، ووكل أبا الأعور السلمي بالشريعة مع أربعين ألفا ، وكان على مقدمته .

وبات علي وجيشه في البر عطاشا قد حيل بينهم وبين الورود الى الماء ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : ان عليا لا يموت عطشا هو وتسعون ألفا من أهل العراق وسيوفهم على عواتقهم ، ولكن دعهم يشربون ونشرب .

فقال معاوية : لا والله ، أو يموتوا عطشا كما مات عثمان .

وخرج علي يدور في عسكره بالليل ، فسمع قائلا وهو يقول :

أيمنعنا القوم ماء الفرات وفينا علي وفينا الهدى ؟
وفينا الصلاة وفينا الصيام وفينا المناجون تحت الدجى

ثم مر بآخر عند راية ربيعة ، وهو يقول :

أيمنعنا القوم ماء الفرات وفينا الرماح وفينا الحجف ؟
وفينا علي له صولة اذا خوفوه الردى لم يخف
ونحن غداة لقينا الزبير وطلحة خضنا غمار التلف
فما بالنا أمس أسد العرين وما بالنا اليوم شاء النجف

وألقي في فسطاط الأشعث بن قيس رقعة فيها :

لئن لم يجل الأشعث اليوم كربة من الموت فيها للنفوس تفلت
فنشرب من ماء الفرات بسيفه فهبنا أناسا قبل كانوا فموتوا

فلما قرأها حمي وأتى عليا رضي اللّه عنه ، فقال له : اخرج في أربعة آلاف من الخيل حتى تهجم بهم في وسط عسكر معاوية فتشرب وتستقي لأصحابك أو تموتوا عن آخركم ، وأنا مسير الأشتر في خيل ورجالة وراءك .

فسار الأشعث في أربعة آلاف من الخيل ، وهو يقول مرتجزا :

لأوردن خيلي الفراتا شعث النواصي أو يقال ماتا

ثم دعا علي الأشتر فسرحه في أربعة آلاف من الخيل والرجالة ، فصار يؤم الأشعث وصاحب رايته وهو رجل من النخع وهو يرتجز ويقول :

يا أشتر الخيرات يا خير النخع وصاحب النصر اذا عم الفزع
قد جزع القوم وعموا بالفزع ان تسقنا اليوم فما هو بالبدع

ثم سار علي رضي اللّه عنه وراء الأشتر بباقي الجيش ، ومضى الأشعث فما رد وجهه أحد حتى هجم على عسكر معاوية ، فأزال أبا الأعور عن الشريعة ، وغرق منهم بشرا وخيلا ، وأورد خيله الفرات .

وذلك أن الأشعث داخلته الحمية في هذا اليوم ، وكان يقدم رمحه ثم يحث أصحابه فيقول : ازحموهم مقدار هذا الرمح ، فيزيلوهم عن ذلك المكان ، فبلغ ذلك من فعل الأشعث عليا ، فقال : هذا اليوم نصرنا فيه بالحمية .

وفي ذلك يقول رجل من أهل العراق :

كشف الأشعث عنا كربة الموت عيانا
بعد ما طارت طلاقا طيرة مست لهانا
فله المن علينا وبه دارت رحانا

وارتحل معاوية عن الموضع ، وورد الأشتر ، وقد كشف الأشعث القوم عن الماء ، وأزالهم عن مواضعهم ، وورد علي فنزل في الموضع الذي كان فيه معاوية .

فقال معاوية لعمرو بن العاص : يا أبا عبد اللّه ، ما ظنك بالرجل أتراه يمنعنا الماء لمنعنا اياه ؟

وقد كان انحاز بأهل الشام الى ناحية في البر نائية عن الماء ، فقال له عمرو : لا ، ان الرجل جاء لغير هذا ، وانه لا يرضى حتى تدخل في طاعته أو يقطع حبل عاتقك .

فأرسل اليه معاوية يستأذنه في وروده مشرعته واستقاء الناس من طريقه ودخول رسله في عسكره ، فأباحه علي كل ما سأل وطلب منه .

ولما كان أولُ يوم من ذي الحجة ـ بعد نزول علي على هذا الموضع بيومين ـ بعث الى معاوية يدعوه الى اتحاد الكلمة والدخول في جماعة المسلمين ، وطالت المراسلة بينهما . فاتفقوا على الموادعة الى آخر المحرم من سنة سبع وثلاثين ، وامتنع المسلمون عن الغزو في البحر والبر لشغلهم بالحروب ، وقد كان معاوية صالح ملك الروم على مال يحمله اليه لشغله بعلي .

ولم يتم بين علي ومعاوية صلح على غير ما اتفقا عليه من الموادعة في المحرم ، وعزم القوم على الحرب بعد انقضاء المحرم ، ففي ذلك يقول حابس بن سعد الطائي صاحب راية معاوية :

فما دون المنايا غير سبع بقين من المحرم أو ثمان

ولما كان في اليوم الآخر من المحرم قبل غروب الشمس ، بعث علي الى أهل الشام : اني قد احتججت عليكم بكتاب الله ، ودعوتكم اليه ، واني قد نبذت اليكم على سواء ، ان الله لا يهدي كيد الخائنين . فلم يردوا عليه جوابا الا « السيف بيننا وبينك أو يهلك الأعجز منا » .

مبدأ الحرب

وأصبح علي يوم الأربعاء ـ وكان أول يوم من صفر ـ فعبأ الجيش ، وأخرج الأشتر أمام الناس ، وأخرج اليه معاوية ـ وقد تصاف أهل الشام وأهل العراق ـ حبيب بن مسلمة الفهري ، وكان بينهم قتال شديد سائر يومهم ، وأسفرت عن قتلى من الفريقين جميعا ، وانصرفوا .

فلما كان يوم الخميس ـ وهو اليوم الثاني ـ أخرج علي هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري المرقال ، وهو ابن أخي سعد بن أبي وقاص ، وانما سمي المرقال لأنه كان يرقل في الحرب ، وكان أعور ذهبت عينه يوم اليرموك ، وكان من شيعة علي ، وقد أتينا على خبره في اليوم الذي ذهبت فيه عينه ، وحسن بلائه في ذلك اليوم ، في الكتاب الأوسط في فتوح الشام .

فأخرج اليه معاوية أبا الأعور السلمي وهو سفيان بن عوف ، وكان من شيعة معاوية والمنحرفين عن علي .

فكانت بينهم الحرب سجالا ، وانصرفوا في آخر يومهم عن قتل كثر .

وأخرج علي في اليوم الثالث ـ وهو يوم الجمعة ـ أبا اليقظان عمار بن ياسر في عدة البدريين وغيرهم من المهاجرين والأنصار فيمن تسرع معهم من الناس .

وأخرج اليه معاوية عمرو بن العاص في تنوخ وبهراء وغيرهما من أهل الشام .

فكانت الحرب بينهم سجالا الى الظهر ، ثم حمل عمار بن ياسر فيمن ذكرنا ، فأزال عمراً عن موضعه وألحقه بعسكر معاوية ، وأسفرت عن قتلى كثيرة من أهل الشام ، ودونهم من أهل العراق .

وأخرج علي في اليوم الرابع ـ وهو يوم السبت ـ ابنه محمد بن الحنفية في همدان وغيرها ممن خف معه من الناس ، فأخرج اليه معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب في حمير ولخم وجذام .

وقد كان عبيد اللّه بن عمر لحق بمعاوية خوفا من علي أن يقيده بالهرمزان .

وذلك أن أبا لؤلؤة - غلام المغيرة بن شعبة - قاتل عمر ، وكان في أرض العجم غلاما للهرمزان ، فلما قتل عمر شد عبيد اللّه على الهرمزان فقتله ، وقال : لا أترك بالمدينة فارسيا ولا في غيرها الا قتلته بأبي .

وكان الهرمزان عليلا في الوقت الذي قتل فيه عمر .

فلما صارت الخلافة الى علي أراد قتل عبيد اللّه بن عمر بالهرمزان لقتله اياه ظلما من غير سبب استحقه ، فلجأ الى معاوية .

فاقتتلوا في ذلك اليوم ، وكانت على أهل الشام ، ونجا ابن عمر في آخر النهار هربا .

وأخرج علي في اليوم الخامس - وهو يوم الأحد - عبد اللّه بن العباس ، فأخرج اليه معاوية الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، فاقتتلوا وأكثر الوليد من سب بني عبد المطلب بن هاشم ، فقاتله ابن عباس قتالا شديدا ، وناداه : ابرز الي يا صفوان ، وكان لقب الوليد . وكان الغلبة لابن عباس ، وكان يوما صعبا .

وأخرج علي في اليوم السادس - وهو يوم الاثنين - سعيد بن قيس الهمداني ، وهو سيد همدان يومئذ ، فأخرج اليه معاوية ذا الكلاع ، وكانت الحرب بينهما الى آخر النهار ، وأسفرت عن قتلى ، وانصرف الفريقان جميعا .

وأخرج علي في اليوم السابع - وهو يوم الثلاثاء - الأشتر في النخع وغيرهم ، فأخرج اليه معاوية حبيب بن مسلمة الفهري ، فكانت الحرب بينهم سجالا ، وصبر كلا الفريقين وتكافأوا وتواقفوا للموت ، ثم انصرف الفريقان ، وأسفرت عن قتلى منهما ، والجراح في أهل الشام أعم .

خروج علي للقتال

وخرج في اليوم الثامن - وهو يوم الأربعاء - علي رضي اللّه تعالى عنه بنفسه في الصحابة من البدريين وغيرهم من المهاجرين والأنصار وربيعة وهمدان .

قال ابن عباس : رأيت في هذا اليوم عليا وعليه عمامة بيضاء ، وكأن عينيه سراجا سليط ، وهو يقف على طوائف الناس في مراتبهم يحثهم ويحرضهم ، حتى انتهى الي وأنا في كثيف من الناس ، فقال : يا معشر المسلمين ، عموا الأصوات ، وأكملوا اللأمة ، واستشعروا الخشية ، وأقلقوا السيوف في الأجفان قبل السل ، والحظوا الشزر ، واطعنوا الهبر ، ونافحوا بالظبا ، وصلوا السيوف بالخطا والنبال بالرماح ، وطيبوا عن أنفسكم أنفسا ، فانكم بعين اللّه ، ومع ابن عم رسول اللّه . عاودوا الكر ، واستقبحوا الفر ، فانه

عار في الأعقاب ، ونار يوم الحساب ، ودونكم هذا السواد الأعظم ، والرواق المطنب ، فاضربوا نهجه ، فان الشيطان راكب صعيده ، مفترش ذراعيه ، قد قدم للـوثبة يدا وأخر للنكوص رجلا ، فصبرا جميلا حتى تنجلي عن وجه الحق ، وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم .

وتقدم علي للحرب على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم الشهباء ، وخرج معاوية في عدد أهل الشام ، فانصرفوا عند المساء وكل غير ظافر .

وخرج في اليوم التاسع ـ وهـو يوم الخميس ـ علي ، وخرج معاويـة ، فاقتتلـوا الى ضحوة من النهار ، وبرز أمام الناس عبيـد اللـه بن عمر بن الخطاب في أربعـة آلاف من الخضرية معممين بشقاق الحريـر الأخضر متقدمين للموت يطلبون بدم عثمان ، وابن عمر يقدمهم وهو يقول :

أنا عبيـــد الله ينميـني عمر   خير قريش من مضى ومن غبر
غـــير نبي اللـّـه والشيـخ الأغر   قد أبطأت في نصر عثمان مضر
والربعيون ، فلا أسقوا المطر

فناداه علي : ويحك يا ابن عمر ، علام تقاتلني ؟ والله لو كان أبوك حيا ما قاتلني .
قال : أطالب بدم عثمان .
قال : أنت تطلب بدم عثمان ، والله يطلبك بدم الهرمزان .
وأمر علي الأشتر النخعي بالخروج اليه ، فخرج الأشتر اليه وهو يقول :

اني أنا الأشتر معـــروف السير   اني أنا الأفعـــى العــراقي الذكر
لست من الحي ربيـــع أو مضر   لكنني من مذحج البيض الغرر

فانصرف عنه عبيد الله ولم يبارزه ، وكثرت القتلى يومئذ .

عمار بن ياسر

وقال عمار بن ياسر : اني لأرى وجـوه قوم لا يزالون يقاتلون حتى يرتاب المبطلون ، والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سعفات هجر لكنا على الحق وكانوا على الباطل .
وتقدم عمار فقاتل ثم رجع الى موضعه فاستسقى ، فأتته امرأة من نساء بني شيبان من

مصافهم بعس فيه لبن ، فدفعته اليه ، فقال : اللّه أكبر اللّه أكبر ، اليوم ألقى الأحبة تحت الأسنة ، صدق الصادق ، وبذلك أخبرني الناطق ، وهو اليوم الذي وعدت فيه .

ثم قال : أيها الناس ، هل من رائح الى اللّـه تحت العوالي ؟ والـذي نفسي بيده لنقاتلنهم على تأويله كما قاتلناهم على تنزيله ، وتقدم وهو يقول :

نحن ضربناكـم على تنزيله   فاليـوم نضربكـم على تأويله
ضربا يزيـل الهام عن مقيله   ويذهـل الخليـل عن خليله
أو يرجع الحق الى سبيله

فتوسط القوم ، واشتبكت عليه الأسنة ، فقتله أبو العادية العـاملي وابن جون السكسكي .

واختلفا في سلبه ، فاحتكما الى عبد اللّه بن عمرو بن العاص ، فقال لهما : اخرجا عني ، فاني سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول ، أو قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وولعت قريش بعمار : « ما لهم ولعمار ؟ يدعوهم الى الجنة ويدعونه الى النار » ؟

وكان قتله عند المساء ، وله ثلاث وتسعون سنة ، وقبره بصفين وصلى عليه علي عليه السلام ولم يغسله ، وكان يغير شيبه .

وقد تنوزع في نسبه فمن الناس من ألحقه ببني مخزوم ، ومنهـم من رأى أنه من حلفائهم ، ومنهم من رأى غير ذلك .

وقد أتينا على خبره في كتاب « مزاهـر الأخبار وطرائف الآثار » عند ذكـرنا الأشراط الخمسين الذين بايعوا عليا على الموت .

وفي قتله يقول الحجاج بن عزية الأنصاري ابياتا رثاه بها :

يالـلـرجال لعـين دمعهـا جاري   قد هاج حزني أبو اليقظان عمار
أهــوى اليــه أبو حوا فوارسه   يدعو السكـون وللجيشين اعصار
فاختل صدر أبي اليقظان معترضا   للـرمح ، قد وجبت فينا له النار
اللّه عن جمعهـم لا شك كان عفا   أتت بذلك آيـات وآثار
من ينزع اللّـه غلا من صدورهم   على الأسرة لم تمسسهـم النار

قال النبي له تقتلك شرذمة سيطت لحومهم بالبغي فجار
فاليوم يعرف أهل الشام أنهم أصحاب تلك وفيها النار والعار

ولما صرع عمار تقدم سعيد بن قيس الهمداني في همدان ، وتقدم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري في الأنصار وربيعة ، وعدي بن حاتم في طيء ، وسعيد بن قيس الهمداني في أول الناس ، فخلطوا الجمع بالجمع ، واشتد القتال ،وحطمت همدان أهل الشام حتى قذفتهم الى معاوية ، وقد كان معاوية قد صمد فيمن كان معه لسعيد بن قيس ومن معه من همدان .

وأمر علي الأشتر أن يتقدم باللواء الى أهل حمص وغيرهم من أهل قنسرين ، فأكثر القتل في أهل حمص وقنسرين بمن معه من القراء . وأبلى المرقال يومئذ بمن معه فلا يقوم له شيء ، وجعل يرقل كما يرقل الفحل في قيده ، وعلي وراءه يقول له : يا أعور ، لا تكن جبانا ، تقدم . والمرقال يقول :

قد أكثر القوم وما أقلا أعور يبغي أهله محلا
قد عالج الحياة حتى ملا لا بد أن يفل أو يفلا
أشلهم بذي الكعوب شلا

ثم صمد هاشم بن عتبة المرقال لذي الكلاع وهو في حمير ، فحمل عليه صاحب لواء ذي الكلاع ، وكان رجلا من عذرة وهو يقول :

أثبت فاني لست من فرعي مضر نحن اليمانيون ما فينا ضجر
كيف ترى وقع غلام من عذر ينعى ابن عفان ويلحى من غدر
يا أعور العين رمى فيها العور سيان عندي من سعى ومن امر

مصرع هاشم المرقال

فاختلفنا طعنتين ، فطعنه هاشم المرقال فقتله ، وقتل بعده تسعة عشر رجلا .

وحمل هاشم المرقال وحمل ذو الكلاع ومع المرقال جماعة من أسلم قد آلوا ألا يرجعوا أو يفتحوا أو يقتلوا ، فاجتلد الناس ، فقتل هاشم المرقال ، وقتل ذو الكلاع جميعا ، فتناول ابن المرقال اللواء حين قتل أبوه في وسط المعركة ، وكر في العجاج وهو يقول :

يا هاشم بن عتبة بن مالك أعـزز بشيـخ من قريش هالك
تخبطه الخيـلات بالسنابك أبشر بحور العـين في الأرائك
والروح والريحان عند ذلك

ووقف علي رضي اللّه عنه عند مصرع المـرقال ومن صرع حولـه من الأسلميـين وغيرهم ، فدعا لهم وترحم عليهم ، وقال من أبيات : .

جزى اللّـه خيرا عصبة أسلمية صباح الوجوه صرعوا حول هاشم
يزيـد وعبد اللّـه بشر بن معبد وسفيـان وابنا هاشم ذي المكارم
وعـروة لا ينفد ثناه وذكره اذا اخترطت يوما خفاف الصوارم

حذيفة بن اليمان وابناه

واستشهد في ذلك اليوم صفوان وسعد ابنا حذيفة بن اليمان ، وقد كان حذيفة عليلا بالكـوفة في سنة ست وثلاثين ، فبلغـه قتل عثمان وبيعـة الناس لعلي فقال : أخرجوني ، وادعوا « الصلاة جامعة » .

فوضع على المنبر ، فحمد اللّه وأثنى عليه وصلى على النبي وعلى آله ، ثم قال : أيها الناس ، ان الناس قد بايعوا عليا فعليكم بتقوى اللّه وانصروا عليا ووازروه ، فواللّه انه لعلى الحق آخرا وأولا ، وانه لخير من مضى بعد نبيكم ومن بقي الى يوم القيامة .

ثم اطبق يمينه على يساره ثم قال : اللهم اشهد ، اني قد بايعت عليا .

وقال : الحمد للّه الذي أبقاني الى هذا اليوم .

وقال لابنيه صفوان وسعد : احملاني وكونا معه ، فستكون له حروب كثيرة فيهلك فيها خلق من الناس ، فاجتهدا أن تستشهدا معه ، فانه واللّه على الحق ، ومن خالفه على الباطل .

ومات حذيفة بعد هذا اليوم بسبعة أيام ، وقيل : بأربعين يوما .

واستشهد عبد اللّه بن الحارث النخعي أخو الأشتر ، واستشهد فيـه عبد اللّـه وعبد الرحمن ابنا بديل بن ورقاء الخزاعي في خلق من خزاعة ، وكان عبد اللّه في ميسرة علي وهو يرتجز ويقول :

لم يبق الا الصبر والتوكل وأخذك الترس وسيف مصقل
ثم التمشي في الرعيل الأول

فقتل ، ثم قتل عبد الرحمن أخوه بعده ، فيمن ذكرنا من خزاعة .

ولما رأى معاوية القتل في أهل الشام وكلب أهل العراق عليهم استدعى بالنعمان بن جبلة التنوخي ـ وكان صاحب راية قومه في تنوخ وبهراء ـ وقال له : لقد هممت أن أولي قومك من هو خير منك مقدما ، وأنصح منك دينا .

فقال له النعمان : انا لو كنا ندعو قومنا الى جيش مجموع لكان في كسع الرجال بعض الأناة ، فكيف ونحن ندعوهم الى سيوف قاطعة ، وردينية شاجرة ، وقوم ذوي بصائر نافذة ، والله لقد نصحتك على نفسي ، وآثرت ملكك على ديني ، وتركت لهواك الرشد وأنا أعرفه ، وحدت عن الحق وأنا أبصره ، وما وفقت لرشد حين اقاتل على ملكك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول مؤمن به ومهاجرمعه ،ولو أعطيناه ما أعطيناك لكان أرأف بالرعية ، وأجزل في العطية ، ولكن قد بذلنا لك الأمر ولا بد من اتمامه كان غيا أو رشدا ، وحاشا أن يكون رشدا ، وسنقاتل عن تين الغوطة وزيتونها اذ حرمنا أثمار الجنة وأنهارها .

وخرج الى قومه ، وصمد الى الحرب .

مقتل عبيد الله بن عمر

وكان عبيد الله بن عمر اذا خرج الى القتال قام اليه نساؤه فشددن عليه سلاحه ، ما خلا الشيبانية بنت هانىء بن قبيصة ، فخرج في هذا اليوم ، وأقبل على الشيبانية ، وقال لها : اني قد عبأت اليوم لقومك ، وايم الله اني لأرجو أن أربط بكل طنب من أطناب فسطاطي سيدا منهم .

فقالت له : ما أبغض الا أن تقاتلهم .

فقال : ولم ؟

قالت : لأنه لم يتوجه اليهم صنديد في جاهلية ولا اسلام وفي رأسه صعر الا أبادوه ، وأخاف أن يقتلوك ، وكأني بك قتيلا وقد أتيتهم أسألهم أن يهبوا لي جيفتك .

فرماها بقوس فشجها وقال لها : ستعلمين بمن آتيك من زعماء قومك .

ثم توجه فحمل عليه حريث بن جابر الجعفي فطعنه فقتله ، وقيل : ان الأشتر النخعي هو الذي قتله ، وقيل : ان عليا ضربه ضربة فقطع ما عليه من الحديد حتى خالط سيفه حشوة جوفه ، وان عليا قال حين هرب فطلبه ليقيد منه بالهرمزان : لئن فاتني في هذا اليوم لا يفوتني في غيره .

وكلم نساؤه معاوية في جيفته ، فأمر أن تأتين ربيعة فتبذلن في جيفته عشرة آلاف ، ففعلن ذلك .

فاستأمرت ربيعة عليا ، فقال لهم : انما جيفته جيفة كلب لا يحل بيعها ، ولكن قد اجبتهم الى ذلك ، فاجعلوا جيفته لبنت هانىء بن قبيصة الشيباني زوجته .

فقالوا لنسوة عبيد الله : ان شئتن شددناه الى ذنب بغل ثم ضربناه حتى يدخل الى عسكر معاوية .

فصرخن وقلن : هذا أشد علينا ، وأخبرن معاوية بذلك .

فقال لهن : ائتوا الشيبانية فسلوها أن تكلمهم في جيفته ، ففعلن . وأتت القوم وقالت : أنا بنت هانىء بن قبيصة ، وهذا زوجي القاطع الظالم ، وقد حذرته ما صار اليه فهبوا إلي جيفته . ففعلوا ، وألقت اليهم بمطرف خز فأدرجوه فيه ودفعوه اليها فمضت به ، وكان قد شد في رجله الى طنب فسطاط من فساطيطهم .

ولما قتل عمار ومن ذكرنا في هذا اليوم حرض علي عليه السلام الناس وقال لربيعة : أنتم درعي ورمحي ، فانتدب له ما بين عشرة آلاف الى أكثر من ذلك من ربيعة وغيرهم ، قد جادوا بأنفسهم لله عز وجل ، وعلي أمامهم على البغلة الشهباء ، وهو يقول :

من أي يومي من المـــوت أفر أيـــوم لم يقدر أم يـوم قدر

وحمل وحملوا معه حملة رجل واحد ، فلم يبق لأهل الشام صف الا انتقض ، وأهمدوا كل ما أتوا عليه ، حتى أتوا الى قبة معاوية ، وعلي لا يمر بفارس الا قده وهو يقول :

أضربهم ولا أرى معاويه الأخزر العـــين العظيـــم الحاويه
تهوي به في النار أم الهاويه

وقيل : ان هذا الشعر لبديل بن ورقاء ، قاله في ذلك اليوم .

ثم نادى علي : يا معاوية ، علام يقتل الناس بيني وبينك ؟ هلم أحاكمك الى الله فأينا قتل صاحبه استقامت له الأمور .

فقال له عمرو : قد أنصفك الرجل .

فقال له معاوية : ما أنصفت ، وانك لتعلم أنه لم يبارزه رجل قط الا قتله أو أسره .

فقال له عمرو : وما يجمل بك الا مبارزته .

فقال له معاوية : طمعت فيها بعدي . وحقدها عليه .

وقد قيل في بعض الروايات : ان معاوية أقسم على عمرو لما أشار عليه بهذا أن يبرز الى علي ، فلم يجد عمرو من ذلك بدا ، فبرز .

فلما التقيا عرفه علي وشال السيف ليضربه به ، فكشف عمرو عن عورته ، وقال : مكره أخوك لا بطل .

فحول علي وجهه عنه ، وقال : قبحت .

ورجع عمرو الى مصافه .

وقد ذكر هشام بن محمد الكلبي عن الشرقي بن القطامي أن معاوية قال لعمرو بعد انقضاء الحرب : هل غششتني منذ نصحتني ؟

قال : لا .

قال : بلى والله يوم أشرت علي بمبارزة علي وأنت تعلم ما هو .

قال : دعاك الى المبارزة فكنت عن مبارزته على احدى الحسنيين : أما أن تقتله فتكون قد قتلت قاتل الأقران وتزداد شرفا الى شرفك ، واما أن يقتلك فتكون قد استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

فقال معاوية : يا عمرو ، الثانية أشد من الأولى .

وكان في هذا اليوم من القتال ما لم يكن قبل ، ووجدت في بعض النسخ من أخبار صفين أن هاشما المرقال لما وقع الى الأرض وهو يجود بنفسه رفع رأسه فاذا عبيد الله بن عمر مطروحا الى قربه جريحا ، فحبا حتى دنا منه ، فلم يزل يعض على ثدييه حتى ثبتت فيه ، أسنانه لعدم السلاح والقوة ، لانه أصيب فوقه ميتا هو ورجل من بكر بن وائل ، قد زحفا الى عبيد الله جميعا فنهشاه .

وانصرف القوم الى مواضعهم ، وخرج كل فريق منهم يحملون ما أمكن من قتلاهم .

ومرّ معاوية في خواص من أصحابه في الموضع الذي كانت ميمنته فيه ، فنظر الى عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي معفرا بدمائه ، وقد كان على ميسرة علي ، فحمل على ميمنة معاوية فأصيب على ما قدمنا آنفا ، فأراد معاوية أن يمثل به ، فقال له عبد الله بن عامر وكان صديقا لابن بديل : والله لا تركتك واياه .

فوهبه له ، فغطاه بعمامته ، وحمله فواراه ، فقال له معاوية : قد والله واريت كبشا من كباش القوم وسيدا من سادات خزاعة غير مدافع ، والله لو ظفرت بنا خزاعة لأكلونا ، ولو أنا من جندل دون هذا الكبش . وأنشأ يقول :

أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها   وان شمرت يوما به الحرب شمرا

كليث هزبر كان يحمي ذماره رمته المنايا قصدهـا فتقطرا

ونظر علي الى غسان في مصافهم لا يزولون فحرض أصحابه عليهم ، وقال : ان هؤلاء لن يزولوا عن موقفهم دون طعن يخرج منه النسيم ، وضرب يفلق الهام ويصج العظام ، وتسقط منه المعاصم والأكف ، وحتى تشدخ جباههم بعمد الحديد ، وتنتشر لممهم على الصدور والأذقان ، أين أهل الصبر وطلاب الأجر ؟

فثاب اليه عصابة من المسلمين من سائر الناس ، فدعا ابنه محمدا ، فدفع اليه الراية وقال : امش بها نحو هذه الراية مشيا رويدا حتى اذا أشرعت في صدورهم الرماح، فأمسك حتى يأتيك أمري ، ففعل .

وأتاه علي ومعه الحسن والحسين وشيوخ بدر وغيرهم من الصحابة وقد كردس الخيل ، فحملوا على غسان ومن يليها ، فقتلوا منها بشرا كثيرا ، وعادت الحرب في آخر النهار كحالها في أوله .

وحملت ميمنة معاوية وفيها عشرة آلاف من مذحج وعشرون ألفا مقنعون في الحديد على ميسرة علي ، فاقتطعوا ألف فارس ، فانتدب من أصحاب علي عبد العزيز بن الحارث الجعفي ، وقال لعلي : مرني بأمرك .

ليلة الهرير

فقال : شد الله ركنك ، سر حتى تنتهي الى اخواننا المحاط بهم ، وقل لهم : يقول لكم علي : كبروا ثم احملوا ونحمل حتى نلتقي .

فحمل الجعفي ، فطعن في عرضهم حتى انتهى اليهم ، فأخبرهم بمقالة علي ، فكبروا ، ثم شدوا حتى التقوا بعلي ، وشدخوا سبعمائة من أهل الشام ، وقتل حوشب ذو ظليم ، وهو كبش من كباش اليمن من أهل الشام ، وكان على راية ذهل بن شيبان وغيرها من ربيعة الحضين بن المنذر بن الحارث بن وعلة الذهلي ، وفيه يقول علي في هذا اليوم :

لمن راية سوداء يخفق ظلها اذا قلت قدمها حضين تقدما

فأمره بالتقدم ، واختلط الناس ، وبطل النبل ، واستعملت السيوف ، وجنهم الليل ، وتنادوا بالشعار ، وتقصفت الرماح ، وتكادم القوم ، وكان يعتنق الفارس الفارس ويقعان جميعا الى الأرض عن فرسيهما ، وكانت ليلة الجمعة ـ وهي ليلة الهرير ـ فكان جملة

من قتل علي بكفه في يومه وليلته خمسمائة وثلاثة وعشرين رجلا أكثرهم في اليوم .

وذلك أنه كان اذا قتل رجلا كبر اذا ضرب ، ولم يكن يضرب الا قتل ، ذكر ذلك عنه من كان يليه في حربه ، ولا يفارقه من ولده وغيرهم .

وأصبح القوم على قتالهم ، وكسفت الشمس ، وارتفع القتام ، وتقطعت الألوية والرايات ، ولم يعرفوا مواقيت الصلاة ، وغدا الأشتر يرتجز وهو يقول :

نحن قتلنا حوشبا لما غدا قد أعلما
وذا الكلاع قبله ومعبدا اذ أقدما
ان تقتلوا منا أبا اليقظان شيخا مسلما
فقد قتلنا منكم سبعين رأسا مجرما
أضحوا بصفين وقد لاقوا نكالا مؤلما

خدعة رفع المصاحف

وكان الأشتر في هذا اليوم ـ وهو يوم الجمعة ـ على ميمنة علي ، وقد أشرف على الفتح ، ونادت مشيخة أهل الشام : يا معشر العرب الله الله في الحرمات والنساء والبنات .

وقال معاوية : هلم مخبآتك يا ابن العاص ، فقد هلكنا ، وتذكر ولاية مصر .

فقال عمرو : أيها الناس ، من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه فكثر في الجيش رفع المصاحف ، وارتفعت الضجة ونادوا : كتاب الله بيننا وبينكم ، من لثغور الشام بعد أهل الشام ؟ ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ، ومن لجهاد الروم ، ومن للترك ، ومن للكفار ؟

ورفع في عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف ، وفي ذلك يقول النجاشي بن الحارث :

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا عليها كتاب الله خير قران
ونادوا عليا : يا ابن عم محمد أما تتقي أن يهلك الثقلان ؟

فلما رأى كثير من أهل العراق ذلك قالوا : نجيب الى كتاب الله وننيب اليه ، وأحب القوم الموادعة ، وقيل لعلي : قد أعطاك معاوية الحق ، ودعاك الى كتاب الله فاقبل منه .
وكان أشدهم في ذلك اليوم الأشعث بن قيس .

فقال علي : أيها الناس ، انه لم يزل من أمركم ما أحب حتى قرحتكم الحرب ، وقد والله أخذت منكم وتركت ، واني كنت بالأمس أميرا فأصبحت اليوم مأمورا ، وقد أحببتم البقاء .

فقال الأشتر : ان معاوية لا خلف له من رجاله ، ولك بحمد الله الخلف ، ولو كان له مثل رجالك لما كان له مثل صبرك ولا نصرك ، فاقرع الحديد بالحديد ، واستعن بالله .

وتكلم رؤساء أصحاب علي بنحو من كلام الأشتر .

فقال الأشعث بن قيس : انا لك اليوم على ما كنا عليه امس ، ولسنا ندري ما نكون غدا ، وقد والله فل الحديد ، وكلت البصائر .

وتكلم معه غيره بكلام كثير .

فقال علي : ويحكم ، انهم ما رفعوها لأنكم تعلمونها ولا يعلمون بها ، وما رفعوها لكم الا خديعة ودهاء ومكيدة .

فقالوا له : انه ما يسعنا أن ندعى الى كتاب الله فنأبى أن نقبله .

فقال : ويحكم ، انما قاتلتهم ليدينوا بحكم الكتاب ، فقد عصوا الله فيما أمرهم به ، ونبذوا كتابه ، فامضوا على حقكم وقصدكم ، وخذوا في قتال عدوكم ، فان معاوية وابن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن النابغة وعددا غير هؤلاء ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وأنا أعرف بهم منكم ، صحبتهم أطفالا ورجالا ، فهم شر أطفال ورجال .

وجرى له مع القوم خطب طويل قد أتينا ببعضه ، وتهددوه أن يصنع به ما صنع بعثمان .

وقال الأشعث : ان شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد .

قال : ذلك اليك فأته ان شئت .

فأتاه الأشعث فسأله ، فقال له معاوية نرجع نحن وأنتم الى كتاب الله ، والى ما أمر به في كتابه : تبعثون منكم رجلا ترضونه وتختارونه ، ونبعث برجل ، ونأخذ عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما في كتاب الله ولا يخرجا عنه ، وننقاد جميعا الى ما اتفقا عليه من حكم الله .

فصوّب الأشعث قوله ،وانصرف الى علي فأخبره ذلك .

فقال أكثر الناس : رضينا وقبلنا وسمعنا وأطعنا .

فاختار أهل الشام عمرو بن العاص ، وقال الأشعث ومن ارتد بعد ذلك الى رأي الخوارج : رضينا نحن بأبي موسى الأشعري .

فقال علي : قد عصيتموني في أول هذا الأمر فلا تعصوني الآن ، اني لا ارى أن أولي أبا موسى الأشعري .

فقال الأشعث ومن معه : لا نرضى الا بأبي موسى الأشعري .

قال : ويحكم ، هو ليس بثقة ، قد فارقني وخذل الناس مني ، وفعل كذا وكذا . . . وذكر أشياء فعلها أبو موسى . . ثم أنه هرب شهورا حتى أمنته ، لكن هذا عبد اللّه بن عباس أوليه ذلك .

فقال الأشعث وأصحابه : واللّه لا يحكم فينا مضريان .

قال علي : فالأشتر .

قالوا : وهل هاج هذا الأمر الا الأشتر .

قال : فاصنعوا الآن ما أردتم ، وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه .

فبعثوا الى أبي موسى وكتبوا له القصة . وقيل لأبي موسى : ان الناس قد اصطلحوا .

فقال : الحمد للّه .

قيل : وقد جعلوك حكما .

قال : انا للّه وانا اليه راجعون .

ذكر الحكمين وبدء التحكيم

كان أبو موسى الأشعري يحدث قبل وقعة صفين ويقول : ان الفتن لم تزل في بني اسرائيل ترفعهم وتخفضهم حتى بعثوا الحكمين يحكمان بحكم لا يرضى به من اتبعهما ، وان هذه الأمة لا تزال بها الفتن ترفعها وتخفضها حتى يبعثوا حكمين يحكمان بما لا يرضى به من اتبعهما .

فقال له سويد بن غفلة : اياك إن أدركت ذلك الزمان أن تكون أحد الحكمين .

قال : أنا ؟

قال : نعم أنت .

قال : فكان يخلع قميصه ويقول : لا جعل الله لي اذن في السماء مصعدا ، ولا في الأرض مقعدا .

فلقيه سويد بن غفلة بعد ذلك فقال : يا أبا موسى ، أتذكر مقالتك ؟

قال : سل ربك العافية .

شروط الحكم وموعد الاجتماع

وكان فيما كتب في الصحيفة ان يحيي الحكمان ما أحيا القرآن ، ويميتا ما أمات القرآن ، ولا يتبعان الهوى ، ولا يداهنان في شيء من ذلك . فان فعلا فلا حكم لهما ، والمسلمون من حكمهما براء .

وقال علي للحكمين حين أكره على أمرهما ورد الأشتر ، وكان قد اشرف في ذلك اليوم على الفتح ، فأخبره مخبر بما قالوا في علي وأنه ان لم يرده سلم الى معاوية يفعل به ما فعل بابن عفان ، فانصرف الأشتر خوفا على علي . فقال لهما علي : على أن تحكما بما في كتاب الله ، وكتاب الله كله لي ، فان لم تحكما بما في كتاب الله فلا حكم لكما .

وصيروا الأجل الى شهر رمضان على اجتماع الحكمين في موضع بين الكوفة والشام ، وكان الوقت الذي كتبت فيه الصحيفة لأيام بقين من صفر سنة سبع وثلاثين ، وقيل : بعد هذا الشهر منها .

ومر الأشعث بالصحيفة يقرؤها على الناس فرحا مسرورا ، حتى انتهى الى مجلس لبني تميم ، فيه جماعة من زعمائهم ، منهم عروة بن أذية التميمي ، وهو أخو بلال الخارجي ، فقرأها عليهم ، فجرى بين الأشعث وبين أناس منهم خطب طويل .

وان الأشعث كان بدء هذا الأمر والمانع لهم من قتال عدوهم حتى يفيئوا الى أمر الله

وقال له عروة بن أذية : أتحكمون في دين الله وأمره ونهيه الرجال ؟ لا حكم الا لله .

فكان أول من قالها ، وحكم بها ، وقد تنوزع في ذلك . وشد بسيفه على الأشعث ، فضم فرسه عن الضربة ، فوقعت في عجز الفرس ونجا الأشعث . وكادت العصبية أن تقع بين النزارية واليمانية ، لولا اختلاف كلمتهم في الديانة والتحكيم .

وفي فعل عروة بن أذية بالأشعث يقول رجل من بني تميم في أبيات :

عرو يا عرو كل فتنة قوم سلفت انما تكـون فتيه
ثم تنمى ويعـظم الخطب فيها فاحذرن غب ما أتيـت عريه
أعلى الأشعـث المعصب بالتا ج حملـت السلاح يا ابن أذيه
انها فتنة كفتنة ذي العجـ ل ، أيـا عروة العصا والعصيه
فانظر اليـوم ما يقول علي واتبعـه ، فذاك خير البريه

عدد قتلى صفين

وقد تنوزع في مقدار من قتل من أهل الشام والعراق بصفين :

فذكر أحمد بن الدورقي عن يحيى بن معين أن عدة من قتل بها من الفريقين في مائة يوم وعشرة أيام مائة ألف وعشرة آلاف من الناس : من أهل الشام تسعون ألفا ، ومن أهـل العراق عشرون ألفا .

ونحن نذهب الى أن عدد من حضر الحرب من أهل الشام بصفين أكثر مما قيل في هذا الباب ، وهو خمسون ومائة ألف مقاتل ، سوى الخدم والأتباع . وعلى هذا يجب أن يكون مقدار القوم جميعا من قاتل منهم ومن لم يقاتل من الخدم وغيرهم ثلثمائة ألف بل أكثر من ذلك ، لأن أقل من فيهم معه واحد يخدمه ، وفيهـم من معـه الخمسة والعشرة من الخدم والأتباع وأكثر من ذلك . وأهـل العـراق كانوا في عشريـن ومائة ألف مقاتل دون الأتباع والخدم .

وأما الهيثم بن عدي الطائي وغيره مثل الشرقي بن القطامي وأبي مخنف لوط بن يحيى فذكروا ما قدمنا ، وهو أن جملة من قتل من الفريقين جميعا سبعون ألفا : من أهل الشام خمسة وأربعون ألفا ، ومن أهل العراق خمسة وعشرون ألفا فيهـم خمسة وعشرون بدريـاً . وأن العدد كان يقع بالتقصي والاحصاء للقتلى في كل وقعة . وتحصيل هذا يتفاوت ، لأن في قتلى الفريقين من يعرف ومن لا يعرف ، وفيهـم من غرق ، وفيهـم من قتل في البر ، فأكلـه السباع فلم يدركهم الإحصاء ، وغير ذلك مما يعتور ما وصفنا . وسمعت امرأة بصفين من أهل العراق وقد قتل لها ثلاثة أولاد وهي تقول :

أعيني جودا بدمع سرب على فتية من خيار العرب
وما ضرهم غير حن النفوس بأي امرىء من قريش غلب

بعد التحكيم

ولما وقع التحكيم تباغض القوم جميعا ، وأقبل بعضهم يتبرأ من بعض ، تبرأ الاخ من أخيه ، والابن من أبيه ، وأمر علي بالرحيل ، لعلمه باختلاف الكلمة ، وتفاوت الرأي ، وعدم النظام لأمورهم ، وما لحقه من الخلاف منهم .

وكثر التحكيم في جيش أهل العراق ، وتضارب القوم بالمقارع ونعال السيوف ، وتسابوا ، ولام كل فريق منهم الآخر في رأيه .

وسار علي يؤم الكوفة ، ولحق معاوية بدمشق من أرض الشام ، وفرق عساكره فلحق كل جند منهم ببلده .

الخوارج الحرورية

ولما دخل علي رضي اللّه عنه الكوفة انحاز عنه اثنا عشر ألفا من القراء وغيرهم فلحقوا بحروراء ـ قرية من قرى الكوفة ـ وجعلوا عليهم شبيب بن ربعي التميمي ، وعلى صلاتهم عبد اللّه بن الكواء اليشكري من بكر بن وائل . فخرج علي اليهم وكانت له معهم مناظرات ، فدخلوا جميعا الكوفة . وانما سموا الحرورية لاجتماعهم في هذه القرية ، وانحيازهم اليها .

وقد ذكر يحيى بن معين قال : حدثنا وهب بن جابر بن حازم ، عن الصلت بن بهرام ، قال : لما قدم علي الكوفة جعلت الحرورية تناديه وهو على المنبر : جزعت من البلية ، ورضيت بالقضية ، وقبلت الدنية ، لا حكم الا للّه .

فيقول : حكم اللّه أنتظر فيكم .

فيقولون : « ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » .

فيقول علي : « فاصبر ان وعد اللّه حق ، ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » .

التقاء الحكمين

وفي سنة ثمان وثلاثين كان التقاء الحكمين بدومة الجندل ، وقيل : بغيرها على ما قدمنا من وصف التنازع في ذلك ، وبعث علي بعبد اللّه بن العباس وشريح بن هانىء الهمداني في أربعمائة رجل فيهم أبو موسى الأشعري ، وبعث معاوية بعمرو بن العاص ومعه شرحبيل ابن السمط في أربعمائة .

فلما تداني القوم من الموضع الذي كان فيه الاجتماع قال ابن عباس لأبي موسى : ان عليا لم يرض بك حكما لفضل عندك ، والمتقدمون عليك كثير ، وان الناس أبوا غيرك ، واني لأظن ذلك لشر يراد بهم ، وقد ضم داهية العرب معك ، ان نسيت فلا تنس أن عليا بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وليس فيه خصلة تباعده من الخلافة ، وليس في معاوية خصلة تقربه من الخلافة .

ووصى معاوية عمراً حين فارقه وهو يريد الاجتماع بأبي موسى ، فقال : يا أبا عبد الله ، ان أهل العراق قد أكرهوا عليا على أبي موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وقد ضم اليك رجل طويل اللسان قصير الرأي ، فأخر الحز ، وطبق المفصل ، ولا تلقه برأيك كله .

ووافاهم سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمرو وعبد الرحمن بن عوف الزهري والمغيرة بن شعبة الثقفي وغيرهم ـ وهؤلاء ممن قعد عن بيعة علي ـ في آخرين من الناس ، وذلك في شهر رمضان من سنة ثمان وثلاثين .

فلما التقى أبو موسى وعمرو ، قال عمرو لأبي موسى : تكلم وقل خيرا . .

فقال أبو موسى : بل تكلم أنت يا عمرو .

فقال عمرو : ما كنت لأفعل وأقدم نفسي قبلك ، ولك حقوق كلها واجبة لسنك وصحبتك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت ضيف .

فحمد الله أبو موسى وأثنى عليه ، وذكر الحدث الذي حل بالاسلام ، والخلاف الواقع بأهله ، ثم قال : يا عمرو : هلم الى أمر يجمع الله به الألفة ، ويلم الشعث ، ويصلح ذات البين .

فجزاه عمرو خيرا وقال : ان للكلام أولا وآخرا ، ومتى تنازعنا الكلام خطبا لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله ، فاجعل ما كان من كلام بيننا في كتاب يصير اليه أمرنا .

قال : فاكتب .

فدعا عمرو بصحيفة وكاتب ، وكان الكاتب غلاما لعمرو ، فتقدم اليه ليبدأ به أولا دون أبي موسى ، لما أراد من المكر به ، ثم قال له بحضرة الجماعة : اكتب فانك شاهد علينا ، ولا تكتب شيئا يأمرك به أحدنا حتى تستأمر الآخر فيه ، فاذا أمرك فاكتب ، واذا نهاك فانته ، حتى يجتمع رأينا ، اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان .

فكتب وبدأ بعمرو فقال له عمرو : لا أم لك أتقدمني قبله كأنك جاهل بحقه ؟

فبدأ باسم عبد اللّه بن قيس ، وكتب : تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا اله الا اللّه وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

ثم قال عمرو : ونشهد أن أبا بكر خليفة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، عمل بكتاب اللّه وسنة رسول اللّه حتى قبضه اللّه اليه ، وقد أدى الحق الذي عليه .

قال أبو موسى : اكتب .

ثم قال في عمر مثل ذلك ، فقال أبو موسى : اكتب .

ثم قال عمرو : واكتب : وأن عثمان ولي هذا الأمر بعد عمر على اجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ورضا منهم ، وأنه كان مؤمنا .

فقال أبو موسى الأشعري : ليس هذا مما قعدنا له .

قال عمرو : واللّه لا بد من أن يكون مؤمنا أو كافرا .

فقال أبو موسى : كان مؤمنا .

قال عمرو : فمره يكتب .

قال أبو موسى : اكتب .

قال عمرو : فظالما قتل عثمان أو مظلوما ؟

قال أبو موسى : بل قتل مظلوما .

قال عمرو : أفليس قد جعل اللّه لولي المظلوم سلطانا يطلب بدمه ؟

قال أبو موسى : نعم .

قال عمرو : فهل تعلم لعثمان وليا أولى من معاوية ؟

قال أبو موسى : لا .

قال عمرو : أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه ؟

قال أبو موسى : بلى .

قال عمرو للكاتب : اكتب .

وأمره أبو موسى فكتب .

قال عمرو : فانا نقيم البينة أن عليا قتل عثمان .

قال أبو موسى : هذا أمر قد حدث في الاسلام ، وانما اجتمعنا لغيره ، فهلم الى أمر يصلح اللّه به أمر أمة محمد .

قال عمرو : وما هو ؟

قال أبو موسى : قد علمت أن أهل العراق لا يحبون معاوية أبدا ، وأن أهل الشام لا

يحبون عليا أبدا ، فهلم نخلعهما جميعا ونستخلف عبد اللّه بن عمر . وكان عبد اللّه بن عمر على بنت أبي موسى .

قال عمرو : أيفعل ذلك عبد اللّه بن عمر ؟

قال أبو موسى : نعم اذا حمله الناس على ذلك فعل .

فعمد عمرو الى كل ما مال اليه أبو موسى فصوبه ، وقال له :هل لك في سعد ؟

قال له أبو موسى : لا .

فعدد له عمرو جماعة ، وأبو موسى يأبى ذلك الا ابن عمر .

فأخذ عمرو الصحيفة وطواها وجعلها تحت قدمه بعد أن ختماها جميعا ، وقال عمرو : أرأيت ان رضي أهل العراق بعبد اللّه بن عمر وأباه أهل الشام أتقاتل أهل الشام ؟

قال أبو موسى : لا .

قال عمرو : فان رضي أهل الشام وأبى أهل العراق أتقاتل أهل العراق ؟

قال أبو موسى : لا .

قال عمرو ؛ أما اذا رأيت الصلاح في هذا الأمر والخير للمسلمين فقم فاخطب الناس ، واخلع صاحبينا معا ، وتكلم باسم هذا الرجل الذي تستخلفه .

فقال أبو موسى : بل أنت قم فاخطب فأنت أحق بذلك .

قال عمرو : ما أحب أن أتقدمك ، وما قولي وقولك للناس الا قول واحد ، فقم راشدا .

تمام الخدعة

فقام أبو موسى فحمد اللّه وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى اللّه عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناس ، انا قد نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح ولم الشعث وحقن الدماء ، وجمع الألفة خلعنا عليا ومعاوية ، وقد خلعت عليا كما خلعت عمامتي هذه (ثم أهوى الى عمامته فخلعها) واستخلفنا رجلا قد صحب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بنفسه ، وصحب أبوه النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فبرز في سابقته ، وهو عبد اللّه بن عمر .

وأطراه ، ورغب الناس فيه ، ثم نزل .

فقام عمرو فحمد اللّه وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناس ، ان أبا موسى عبد اللّه بن قيس قد خلع عليا وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب ، وهو أعلم به ، ألا واني قد خلعت عليا معه ، وأثبت معاوية عليّ وعليكم ، وان أبا

موسى قد كتب في الصحيفة أن عثمان قد قتل مظلوما شهيدا وان لوليه سلطانا أن يطلب بدمه حيث كان ، وقد صحب معاوية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، وصحب أبوه النبي صلى الله عليه وسلم .

وأطراه ، ورغب الناس فيه ، وقال : هو الخليفة علينا ، وله طاعتنا وبيعتنا على الطلب بدم عثمان .

فقال أبو موسى : كذب عمرو ، لم نستخلف معاوية ، ولكنا خلعنا معاوية وعليا معا .

فقال عمرو : بل كذب عبد الله بن قيس ، قد خلع عليا ولم أخلع معاوية .

***

قال المسعودي رحمه الله : ووجدت في وجه آخر من الروايات أنهما اتفقا على خلع علي ومعاوية ، وأن يجعلا الأمر بعد ذلك شورى ، يختار الناس رجلا يصلح لهم ، فقدم عمرو أبا موسى ، فقال أبو موسى ، اني قد خلعت عليا ومعاوية ، فاستقبلوا أمركم ، وتنحى .

وقام عمرو مكانه فقال : ان هذا قد خلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية .

فقال أبو موسى : مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت ؟ انما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا .

فقال له عمرو : بل اياك يلعن الله ، كذبت وغدرت ، انما مثلك مثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث .

ثم وكز أبا موسى فألقاه لجنبه ، فلما رأى ذلك شريح بن هانىء قنع عمرا بالسوط ، وانخزل أبو موسى فاستوى على راحلته ولحق بمكة ، ولم يعد الى الكوفة ، وقد كانت خطته وأهله وولده بها ، وآلى الا ينظر الى وجه علي ما بقي . ومضى ابن عمر وسعد الى بيت المقدس فأحرما .

ما قيل من الشعر في التحكيم

وفي فعل الحكمين يقول أيمن بن خزيم بن فاتك الأسدي :

لو كان للقوم رأي يعصمون به ... عند الخطوب رموكم بابن عباس
لكن رموكم بوغد من ذوي يمن ... لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس

وفي اختلاف الحكمين والمحكمة يقول بعض من حضر ذلك :

رضينا بحكم اللّه لا حكم غيره وباللّــه ربا والنبي وبالذكر
وبالأصلــع الهادي علي أمامنا رضينابذاك الشيخ في العسرواليسر
رضينا به حيــا وميتا ، فانه امام الهدى في موقف النهي والأمر

ولأبي موسى يقول ابن أعين :

أبا موسى، بليــت وأنت شيخ قريــب العفو مخزون اللسان
وما عمرو صفاتك يا ابن قيس فيا للّــه من شيــخ يماني
فأمسيــت العشيــة ذا اعتذار ضعيف الركــن منكــوب الجنان
تعض الــكف من ندم ، وماذا يرد عليــك عضك للبنان ؟

وقيل : انه لم يكن بينهما غير ما كتباه في الصحيفة واقرار أبي موسى بأن عثمان قتل مظلوما وغير ذلك مما قدمنا ، وانهما لم يخطبا .

وذلك أن عمرا قال لأبي موسى : سم من شئت حتى أنظر معك ، فسمى أبو موسى ابن عمر وغيره ، ثم قال لعمرو : قد سميت أنا فسم أنت .

قال : نعــم ، أسمي لك أقوى هذه الأمة عليهــا ، وأسدهــا رأيــا ، وأعلمهــا بالسياسة ، معاوية بن أبي سفيان .

قال : لا واللّه ما هو لذلك بأهل .

قال : فآتيك بآخر ليس هو بدونه .

قال : من هو ؟

قال : أبو عبد اللّه عمرو بن العاص .

فلما قالها علم أبو موسى أنه يلعب به ، فقال : فعلتها لعنك اللّه ، فتسابا ، فلحق أبو موسى بمكة .

فلما انصرف أبو موسى انصرف عمرو بن العاص الى منزله ، ولم يأت الى معاوية ، فأرسل اليه معاوية يدعوه ، فقال : انما كنت أجيئك اذ كانت لي اليك حاجه ، فأما اذا كانت الحاجة الينا فأنت أحق أن تأتينا .

خدعة معاوية لعمرو بن العاص

فعلم معاوية ما قد دفع اليه ، فخمر الرأي وأعمل الحيلة ، وأمر معاوية بطعام كثير

فصنع ، ثم دعا بخاصته ومـواليه وأهله ، فقال : اني سأغدو الى عمرو فاذا دعوت بالطعام فدعوا مواليه وأهلـه فليجلسوا قبلكـم ، فاذا شبع رجل منهـم وقام فليجلس رجل منكـم مكانه ، فاذا خرجوا ولـم يبق في البيت أحد منهم فأغلقوا باب البيت ، واحذروا أن يدخل أحد منهم الا أن آمركم .

وغدا اليه معاوية وعمرو جالس على فرشة ، فلم يقم له عنها ، ولا دعاه اليها فجاء معاوية وجلس على الأرض ، واتكأ على ناحية الفراش . وذلك أن عمرا كان يحدث نفسه أنه قد ملك الأمر واليه العقد ، يضعها فيمن يرى ، ويندب للخلافة من يشاء .

فجرى بينهما كلام كثير ، وكان مما قاله عمرو : هذا الكتاب الذي بيني وبينه عليه خاتمي وخاتمه ، وقد أقر بأن عثمان قتل مظلوما ، وأخرج عليا من هذا الأمر ، وعرض علي رجالا لم أرهم أهلا لها ، وهذا الأمر اليَّ أن استخلف من شئته ، وقد أعطاني أهل الشام عهودهم ومواثيقهم .

فحادثه معاوية ساعة ، وأخرجه عما كانوا عليه ، وضاحكه وداعبه ، ثم قال : يا أبا عبد اللّه ، هل من غداء ؟

قال : أما شيء يشبع من ترى فلا والله .

فقال معاوية : هلم يا غلامي غداءك .

فجيء بالطعام المستعد فوضع ، فقال : يا أبـا عبـد اللّـه ، ادع مواليك وأهلك ، فدعاهم ثم قال له عمرو : وادع أنت أصحابك ، قال : نعم يأكل أصحابك أولا ، ثم يجلس هؤلاء بعد .

فجعلوا كلما قام رجل من حاشية عمرو قعد موضعه رجل من حاشية معاوية ، حتى خرج أصحاب عمرو وبقي اصحاب معاوية . فقام الـذي وكلـه بغلـق الباب ، فأغلـق الباب .

فقال له عمرو : فعلتها .

فقال : اي واللّه بيني وبينك أمران فاختر أيهما شئت : البيعة لي ، أو أقتلك ، ليس واللّه غيرهما .

قال عمرو : فائذن لغلامي وردان حتى أشاوره وأنظر رأيه .

قال : لا تراه واللّه ولا يراك الا قتيلا أو على ما قلت لك .

قال : فالوفاء اذن بطعمة مصر .

قال : هي لك ما عشت .

فاستوثق كل واحد منهما من صاحبه ، وأحضر معاوية الخواص من أهل الشام ، ومنع

أن يدخل معهم أحد من حاشية عمرو ، فقال لهم عمرو : قد رأيت أن أبايع معاوية ، فلم أر أحدا أقوى على هذا الأمر منه ، فبايعه أهل الشام وانصرف معاوية الى منزله خليفة .

بين علي وأصحابه

ولما بلغ عليا ما كان من أمر أبي موسى وعمرو قال : اني كنت تقدمت اليكم في هذه الحكومة ونهيتكم عنها ، فأبيتم الا عصياني ، فكيف رأيتم عاقبة أمركم اذ أبيتم علي ؟ والله اني لأعرف من حملكم على خلافي والترك لأمري ، ولو أشاء أخذه لفعلت ، ولكن الله من ورائه (يريد بذلك الأشعث بن قيس والله أعلم) ،وكنت فيما أمرت به كما قال أخو بني خثعم :

أمرتهــم أمري بمنعــرج اللوى   فلم يستبينواالرشدالا ضحى الغد

من دعا الى هذه الحكومة فاقتلوه قتله الله ولو كان تحت عمامتي هذه ، الا ان هذين الرجلين الخاطئين اللذين اخترتموهما حكمين قد تركا حكم الله ، وحكما بهوى أنفسهما بغير حجة ولا حق معـروف ، فأماتا ما أحيــا القرآن وأحييــا ما أماته ، واختلف في حكمهما كلامهما ، ولم يرشدهما الله ولم يوفقهما ، فبرىء الله منهما ورسوله وصالـح المؤمنين . فتأهبوا للجهاد واستعدوا للمسير ، وأصبحوا في عساكركم ان شاء الله تعالى .

***

قال المسعـودي : وقد اختلفت الفرق من أهـل ملتنا في الحكمين ، وقالـوا في ذلك أقاويل كثيرة ، وقد أتينا على ما ذهبوا اليه في ذلك وما قاله كل فريق منهم ، ومن أيد قوله من الخوارج والمعتزلـة والشيعـة وغيرهـم من فرق هذه الأمة في كتابنا في « المقالات في أصول الديانات » .

وذكرنا في كتاب « أخبار الزمان » قول علي في مواقفه وخطبه ، وما قاله في ذلك ، وما أكره عليه ، وتأنيبه لهم بعد الحكومة ، وما تقدم الحكومة من تحذيره اياهم منها حين ألحوا في تحكيم أبي موسى الأشعري وعمرو .

وحيث قال : ألا ان القوم قد اختاروا لأنفسهـم أقرب الناس مما يحبون ، واخترتم لأنفسكم أقرب الناس مما تكرهون ، انما عهدكم بعبد الله بن قيس بالأمس وهو يقول : ألا انها فتنة ، فقطعوا فيها أوتاركم وكسروا قسيكم ، فان يك صادقا فقد أخطأ في مسيره غير مستكره عليه ، وان يك كاذبا فقد لزمته التهمة .

وهذا كلام أبي موسى في تخذيله الناس ، وتحريضهم على الجلوس وتثبيطهم عن أمير المؤمنين علي في حروبه ومسيره الى الجمل وغيره .

ثم ما قاله في بعض مقاماته في معاتبته لقريش ، وقد بلغه عن أناس منهم ممن قعد عن بيعته ونافق في خلافته كلام كثير ، فقال : وقد زعمت قريش أن ابن أبي طالب شجاع ولكن لا علم له بالحروب ، تربت أيديهم ، وهل فيهم أشد مراسا لها مني ؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، وهأنذا قد أربيت على نيف وستين ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع .

***

قال المسعودي : واذ قد تقدم ذكرنا لجمل من أخبار الجمل وصفين والحكمين ، فلنذكر الآن جوامع من أخبار يوم النهروان ، ونعقب ذلك بذكر مقتله عليه السلام ، وان كنا قد أتينا على مبسوط سائر ما تقدم لنا في هذا الكتاب ، وما تأخر ، فيما سلف من كتبنا ، والله اعلم .

ذكر حروبه رضي الله عنه مع أهل النهروان
وما لحق بهذا الباب من مقتل محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه والأشتر النخعي وغير ذلك

اجتماع الخوارج ومسير علي اليهم

واجتمعت الخوارج في أربعة آلاف ، فبايعوا عبد اللّه بن وهب الراسبي ، ولحقوا بالمدائن ، وقتلوا عبد اللّه بن حباب عامل علي عليها : ذبحوه ذبحا ، وبقروا بطن امرأته وكانت حاملا ، وقتلوا غيرها من النساء .

وقد كان علي انفصل عن الكوفة في خمسة وثلاثين ألفا ، وأتاه من البصرة ، من قبل ابن عباس ـ وكان عامله عليها ـ عشرة آلاف فيهم الأحنف بن قيس وحارثة بن قدامة السعدي ، وذلك في سنة ثمان وثلاثين ، فنزل علي الأنبار والتأمت اليه العساكر .

فخطب الناس وحرضهم على الجهاد ، وقال : سيروا الى قتلة المهاجرين والأنصار قدما ، فانهم طالما سعوا في اطفاء نور اللّه ، وحرضوا على قتال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومن معه ، ألا ان رسول اللّه أمرني بقتال القاسطين وهم هؤلاء الذين سرنا اليهم ، والناكثين وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم ، والمارقين ولم نلقهم بعد ، فسيروا الى القاسطين ، فهم أهم علينا من الخوارج ، سيروا الى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا جبارين يتخذهم الناس أربابا ويتخذون عباد اللّه خولا ومالهم دولا .

فأبوا الا أن يبدأوا بالخوارج ، فسار علي اليهم ، حتى أتى النهروان ، فبعث اليهم بالحارث بن مرة العبدي رسولا يدعوهم الى الرجوع ، فقتلوه ، وبعثوا الى علي : ان تبت من حكومتك وشهدت على نفسك بالكفر بايعناك ، وان أبيت فاعتزلنا حتى نختار لأنفسنا اماما فانا منك براء .

فبعث اليهم علي : أن ابعثوا إليّ بقتلة اخواني فأقتلهم ثم أتارككم الى أن أفرغ من قتال أهل المغرب ، ولعل اللّه يقلب قلوبكم .

فبعثوا اليه : كلنا قتلة أصحابك ، وكلنا مستحل لدمائهم ، مشتركون في قتلهم .

وأخبره الرسول ـ وكان من يهود السواد ـ أن القوم قد عبروا نهر طبرستان ، وهذا النهر عليه قنطرة تعرف بقنطرة طبرستان ، بين حلوان وبغداد ، من بلاد خراسان .

فقال علي : واللّه ما عبروه ولا يقطعونه ، حتى نقتلهم بالرميلة دونه ؛

ثم تواترت الأخبار بقطعهم لهذا النهر ، وعبورهم هذا الجسر ، وهو يأبى ذلك ، ويحلف أنهم لم يعبروه ، وأن مصارعهم دونه .

ثم قال : سيروا الى القوم ، فوالله لا يفلت منهم الا عشرة ، ولا يقتل منكم إلا عشرة . فسار علي ، فأشرف عليهم ، وقد عسكروا بالموضع المعروف بالرميلة على حسب ما قال لأصحابه .

فلما أشرف عليهم قال : الله أكبر ، صدق الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فتصاف القوم ، ووقف عليهم بنفسه ، فدعاهم الى الرجوع والتوبة ، فأبو ورموا أصحابه ، فقيل له : قد رمونا .

فقال : كفوا .

فكرروا القول عليه ثلاثا وهو يأمرهم بالكف ، حتى أتي برجل قتيل متشحط بدمه ، فقال علي : الله أكبر ، الآن حل قتالهم ، احملوا على القوم ، فحمل رجل من الخوارج على أصحاب علي ، فجرح فيهم ، وجعل يغشى كل ناحية ويقول :

أضربهم ولو أرى عليا ألبسته أبيض مشرفيا

فخرج اليه علي رضي الله عنه ، وهو يقول :

يا أيهذا المبتغي عليا إني أراك جاهلا شقيا
قد كنت عن كفاحه غنيا هلم فابرز هاهنا اليا

وحمل عليه علي فقتله .

ثم خرج منهم آخر ، فحمل على الناس ، ففتك فيهم ، وجعل يكر عليهم ، وهو يقول :

أضربهم ولو أرى أبا حسن ألبسته بصارمي ثوب غبن

فخرج اليه علي وهو يقول :

يا أيهذا المبتغي أبا حسن اليك فانظر أينا يلقى الغبن

وحمل عليه علي وشكه بالرمح وترك الرمح فيه ، فانصرف علي وهو يقول : لقد رأيت أبا حسن فرأيت ما تكره .

وحمل أبو أيوب الأنصاري على زيد بن حصن فقتله ، وقتل عبد اللّه بن وهب الراسبي، قتله هانىء بن حاطب الأزدي ، وزياد بن حفصة ، وقتل حرقوص بن زهير السعدي ، وكان جملة من قتل من أصحاب علي تسعة ، ولم يفلت من الخوارج الا عشرة .

المخدج (ذو الثدية)

وأتى علي على القوم ، وهم أربعة آلاف ، فيهم المخدج ذو الثدية ، الا من ذكرنا من هؤلاء العشرة ، وأمر علي بطلب المخدج ، فطلبوه ، فلم يقدروا عليه ، فقام علي وعليه أثر الحزن لفقد المخدج ، فانتهى الى قتلى بعضهم فوق بعض ، فقال : أفرجوا ، ففرجوا يمينا وشمالا واستخرجوه .

فقال علي رضي اللّه عنه : اللّه أكبر ، ما كذبت على محمد ، وانه لناقص اليد ليس فيها عظم ، طرفها حلمة مثل ثدي المرأة ، عليها خمس شعرات أو سبع ، رؤوسها معقفة .

ثم قال : ائتوني به ، فنظر الى عضده ، فاذا لحم مجتمع على منكبه كثدي المرأة ، عليه شعرات سود ، اذا مدت اللحمة امتدت حتى تحاذي بطن يده الأخرى ، ثم تترك فتعود الى منكبه ، فثنى رجله ونزل ، وخر للّه ساجدا .

ثم ركب ومر بهم وهم صرعى ، فقال : لقد صرعكم من غركم .

قيل : ومن غرهم ؟

قال : الشيطان وأنفس السوء .

فقال أصحابه : قد قطع اللّه دابرهم الى آخر الدهر .

فقال : كلا والذي نفسي بيده ، وانهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء ، لا تخرج خارجة الا خرجت بعدها مثلها حتى تخرج خارجة بين الفرات ودجلة مع رجل يقال له الأشمط ، يخرج اليه رجل منا أهل البيت فيقتله ، ولا تخرج بعدها خارجة الى يوم القيامة .

وجمع علي ما كان في عسكر الخوارج ، فقسم السلاح والدواب بين المسلمين ، ورد المتاع والعبيد والاماء الى أهليهم ، ثم خطب الناس ، فقال : ان اللّه قد أحسن اليكم وأعز نصركم ، فتوجهوا من فوركم هذا الى عدوكم .

فقالوا : يا أمير المؤمنين ، قد كلت سيوفنا ، ونفدت نبالنا ونصلت أسنة رماحنا ، فدعنا نستعد بأحسن عدتنا .

وكان الذي كلمه بهذا الأشعث بن قيس ، فعسكر علي بالنخيلة .

تفرق أصحاب علي وردتهم

فجعل أصحابه يتسللون ويلحقون بأوطانهم ، فلم يبق معه الا نفر يسير ، ومضى الحارث بن راشد الناجي في ثلثمائة من الناس فارتدوا الى دين النصرانية ، وهم من ولد سامة ابن لؤي بن غالب ، من ولد اسماعيل عند أنفسهم ، وقد أبى ذلك كثير من الناس ، وذكروا أن سامة بن لؤي ما أعقب . وقد حكي عن علي فيهم ما قد ذكرناه في كتابنا في « أخبار الزمان » .

ولد سامة بن لؤي وعلي

ولست تكاد ترى ساميا الا منحرفا عن علي : من ذلك ما ظهر من علي بن الجهم الشاعر السامي من النصب والانحراف ، وقد أتينا على لمع من شعره وأخباره في الكتاب الأوسط ، ولقد بلغ من انحرافه ونصبه العداوة لعلي عليه السلام أنه كان يلعن أباه ، فسئل عن ذلك ، وبم استحق اللعن منه ؟ فقال : بتسميته اياي عليا .

فسرح اليهم علي معقل بن قيس الرياحي ، فقتل الحارث ومن معه من المرتدين بسيف البحر ، وسبى عيالهم وذراريهم ، وذلك بساحل البحرين .

فنزل معقل بن قيس بعض كور الأهواز بسبي القوم ، وكان هنالك مصقلة بن هبيرة الشيباني عاملا لعلي ، فصاح به النسوة : امنن علينا ، فاشتراهم بثلثمائة ألف درهم وأعتقهم ، وأدى من المال مائتي ألف وهرب الى معاوية .

فقال علي : قبح الله مصقلة ، فعل فعل السيد وفر فرار العبد ، لو أقام أخذنا ما قدرنا على أخذه ، فان أعسر أنظرناه ، وان عجز لم نأخذه بشيء .

وأنفذ العتق ، وفي ذلك يقول مصقلة بن هبيرة ، من أبيات :

تركت نساء الحي بكر بن وائل ... وأعتقت سبيا من لؤي بن غالب
وفارقت خير الناس بعد محمد ... لمال قليل لا محالة ذاهب

وفي ذلك يقول الآخر :

ومصقلة الذي قد باع بيعا ... ربيحا يوم ناجية بن سامة

ولمصقلة أفعال أتاها ، وحيل عملها قد ذكرناها وما قال في ذلك من الشعر في الكتاب الأوسط .

وقال علي بن محمد بن جعفر العلوي فيمن انتمى الى سامة بن لؤي بن غالب :

وسامة منا فأما بنوه فأمرهم عندنا مظلم
أناس أتونا بأنسابهم خرافة مضطجع يحلم
وقلنا لهم مثل قول الوصي وكل أقاويله محكم
اذا ما سئلت فلم تدر ما تقول فقل : ربنا أعلم

عمرو بن العاص ومحمد بن أبي بكر في مصر

وفي سنة ثمان وثلاثين وجه معاوية عمرو بن العاص الى مصر في أربعة آلاف ، ومعه معاوية بن خديج ، وأبو الأعور السلمي ، واستعمل عمرا عليها حياته ، ووفى له بما تقدم من ضمانه .

فالتقوا هم ومحمد بن أبي بكر ـ وكان عامل علي عليها ـ بالموضع المعروف بالمسناة ، فاقتتلوا ، فانهزم محمد لاسلام أصحابه اياه ، وتركهم له ، وصار الى موضع بمصر ، فاختفى فيه ، فأحيط بالدار ، فخرج اليهم محمد ومن معه من أصحابه ، فقاتلهم حتى قتل . فأخذه معاوية بن خديج وعمرو بن العاص وغيرهما ، فجعلوه في جلد حمار وأضرموه بالنار ، وذلك بموضع في مصر يقال له : كوم شريك . وقيل انه فعل به ذلك ، وبه شيء من الحياة .

وبلغ معاوية قتل محمد وأصحابه ، فأظهر الفرح والسرور . وبلغ عليا قتل محمد وسرور معاوية ، فقال : جزعنا عليه على قدر سرورهم ، فما جزعت على هالك منذ دخلت هذه الحروب جزعي عليه ، كان لي ربيبا ، وكنت أعده ولدا ، وكان بي برا ، وكان ابن أخي ، فعلى مثل هذا نحزن ، وعند الله نحتسبه .

ولاية الأشتر ومقتله بالعريش مسموما

وولى علي الأشتر مصر وأنفذه اليها في جيش ، فلما بلغ ذلك معاوية دس الى دهقان كان بالعريش فأرغبه وقال : أترك خراجك عشرين سنة ، واحتل للأشتر بالسم في طعامه .

فلما نزل الأشتر العريش سأل الدهقان : أي الطعام والشراب أحب اليه ؟

قيل له : العسل ؛ فأهدى له عسلا وقال : ان من أمره وشأنه كذا وكذا ، ووصفه للأشتر ، وكان الأشتر صائما ، فتناول منه شربة ، فما استقرت في جوفه حتى تلف ، وأتى من كان معه على الدهقان ومن كان معه . وقيل : كان ذلك بالقلزم ، والأول أثبت .

فبلغ ذلك عليا ، فقال : لليدين وللفم .

وبلغ ذلك معاوية ، فقال : ان للّه جندا من العسل .

وقبض أصحابه عن علي في هذه السنة ثلاثة أرزاق على حسب ما كان يحمل اليه من المال من أعماله ، ثم ورد عليه مال من أصبهان ، فخطب الناس ، وقال : اغدوا الى عطاء رابع ، فواللّه ما أنا لكم بخازن . وكان في عطائه أسوة للناس يأخذ كما يأخذ الواحد منهم .

ولم يكن بين علي ومعاوية من الحرب الا ما وصفنا بصفين ، وكان معاوية في بقية أيام علي يبعث سرايا تغير ، وكذلك كان علي يبعث من يمنع سرايا معاوية من أذية الناس . وقد أتينا على ذكر السرايا والغارات فيما سلف من كتبنا .

فرق المعاملة بين الجمل وصفين ، وسره

قال المسعودي رحمه اللّه : وقد تكلم طوائف من الناس ممن سلف وخلف من أهل الآراء من الخوارج وغيرهم في فعل علي يوم الجمل ، وصفين ، وتباين حكمه فيهما ، من قتله من أهل صفين ، مقبلين ومدبرين ، واجهازه على جرحاهم ، ويوم الجمل لم يتبع موليا ، ولا أجهز على جريح ، ومن ألقى سلاحه أو دخل داره كان آمنا .

وما أجابهم به شيعة علي في تباين حكم علي في هذين اليومين لاختلاف حكمهما ، وهو أن أصحاب الجمل لما انكشفوا لم يكن لهم فئة يرجعون اليها ، وانما رجع القوم الى منازلهم ، غير محاربين ولا منابذين ، ولا لأمره مخالفين ، فرضوا بالكف عنهم ، وكان الحكم فيهم رفع السيف ، اذ لم يطلبوا اليه أعوانا ، وأهل صفين كانوا يرجعون الى فئة مستعدة ، وامام منتصب ، يجمع لهم السلاح ، ويسني لهم الأعطية ، ويقسم لهم الأموال ، ويجبر كسيرهم ، ويحمل راجلهم ، ويردهم فيرجعون الى الحرب ، وهم الى امامته منقادون ، ولرأيه متبعون ، ولغيره مخالفون ، ولامامته تاركون ، ولحقه جاحدون ، وبأنه يطلب ما ليس له قائلون .

فاختلف الحكم لما وصفنا ، وتباين حكماهما لما ذكرنا .

ولكل فريق من السائل والمجيب كلام يطول ذكره ويتسع شرحه ، وقد أتينا على استيعابه ، وما ذكره كل فريق منهم فيما سلف من كتبنا ، فأغنى ذلك عن اعادته ، واللّه أعلم .

ذِكر مَقتَل أمير المؤمنين عَليّ بن أبي طَالِبْ رَضيَ اللهُ عَنه

المؤامرة

وفي سنة أربعين اجتمع بمكة جماعة من الخوارج ، فتذاكروا الناس ، وما هم فيه من الحرب والفتنة ، وتعاهد ثلاثة منهم على قتل علي ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص ، وتواعدوا واتفقوا على ألا ينكص رجل منهم عن صاحبه الذي يتوجه اليه ، حتى يقتله أو يقتل دونه ، وهم : عبد الرحمن بن ملجم ، لعنه الله ، وكان من تجيب ، وكان عدادهم في مراد ، فنسب اليهم ، وحجاج بن عبد الله الصريمي ، ولقبه : البرك ، وزادويه : مولى بني العنبر .

فقال ابن ملجم لعنه الله : أنا أقتل عليا .

وقال البرك : أنا أقتل معاوية .

وقال زادويه : أنا أقتل عمرو بن العاص .

واتعدوا أن يكون ذلك ليلة سبع عشرة من شهر رمضان ، وقيل : ليلة احدى وعشرين .

ابن ملجم وقطام

فخرج عبد الرحمن بن ملجم المرادي الى علي ، فلما قدم الكوفة أتى قطام بنت عمه ، وكان علي قد قتل أباها وأخاها يوم النهروان ، وكانت أجمل أهل زمانها ، فخطبها ، فقالت : لا أتزوج حتى تسمي لي .

قال : لا تسأليني شيئا الا أعطيته .

فقالت : ثلاثة آلاف وعبدا وقينة ، وقتل علي .

فقال : ما سألت هو لك مهر الا قتل علي ، فلا أراك تدركينه .

قالت : فالتمس غرته ، فان أصبته شفيت نفسي ونفعك العيش معي ، وان هلكت فما عند الله خير لك من الدنيا .

فقال : والله ما جاء بي الى هذا المصر وقد كنت هاربا منه الا ذلك ، وقد أعطيتك ما سألت .

وخرج من عندها وهو يقول :

ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي بالحسام المصمم
فلامهر أغلى من علي وان غلا ولا فتك الا دون فتك ابن ملجم

فلقيه رجل من أشجع يقال له شبيب بن نجدة من الخوارج ، فقال له : هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟

فقال : وما ذاك ؟

قال : تساعدني على قتل علي .

قال : ثكلتك أمك ، لقد جئت شيئا ادا ، قد عرفت غناءه في الاسلام ، وسابقته مع النبي صلى الله عليه وسلم .

فقال ابن ملجم : ويحك ، أما تعلم أنه قد حكم الرجال في كتاب الله ، وقتل اخواننا المصلين ؟ فنقتله ببعض اخواننا .

فأقبل معه حتى دخل على قطام ، وهي في المسجد الأعظم ، وقد ضربت كلة لها وهي معتكفة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر رمضان ، فأعلمتها أن مجاشع بن وردان بن علقمة قد انتدب لقتله معهما ، فدعت لهما بحرير فعصبتهما وأخذوا أسيافهم وقعدوا مقابلين لباب السدة التي يخرج منها علي للمسجد .

وكان علي يخرج كل غداة أول الأذان يوقظ الناس للصلاة ، وقد كان ابن ملجم مر بالأشعث وهو في المسجد فقال له : فضحك الصبح فسمعها حجر بن عدي ، فقال : قتلته يا أعور قتلك الله .

وخرج علي رضي الله عنه ينادي : أيها الناس ، الصلاة .

فشد عليه ابن ملجم وأصحابه وهم يقولون : الحكم لله لا لك . وضربه ابن ملجم على رأسه بالسيف في قرنه ، وأما شبيب فوقعت ضربته بعضادة الباب ، وأما مجاشع بن وردان فهرب .

وقال علي : لا يفوتنكم الرجل .

وشد الناس على ابن ملجم يرمونه بالحصباء ، ويتناولونه ويصيحون ، فضرب ساقه رجل من همدان برجله ، وضرب المغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وجهه فصرعه ، وأقبل به الى الحسن ، ودخل ابن وردان بين الناس ، فنجا بنفسه .

وهرب شبيب حتى أتى رحله ، فدخل اليه عبد الله بن نجدة ـ وهو أحد بني أبيه ـ فرآه ينزع الحرير عن صدره ، فسأله عن ذلك ، فخبره خبره ، فانصرف عبد الله الى رحله ، وأقبل اليه بسيفه فضربه حتى قتله .

وقيل : ان عليا لم ينم تلك الليلة ، وانه لم يزل يمشي بين الباب والحجرة ، وهو يقول : والله ما كذبت ولا كذبت ، وانها الليلة التي وعدت فيها .

فلما خرج صاح بط كان للصبيان ، فصاح بهن بعض من في الدار ، فقال علي : ويحك ، دعهن فانهن نوائح .

وقد ذكرت طائفة من الناس أن عليا رضي الله عنه أوصى الى ابنيه الحسن والحسين ، لأنهما شريكاه في آية التطهير ، وهذا قول كثير ممن ذهب الى القول بالنص .

وصية علي لأولاده

ودخل عليه الناس يسألونه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أرأيت ان فقدناك ، ولا نفقدك ، أنبايع الحسن ؟

قال : لا آمركم ولا أنهاكم ، وأنتم أبصر .

ثم دعا الحسن والحسين ، فقال لهما : أوصيكما بتقوى الله وحده ، ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ، ولا تأسفا على شيء منها .

قولا الحق ، وارحما اليتيم ، وأعينا الضعيف وكونا للظالم خصما وللمظلوم عونا ، ولا تأخذكما في الله لومة لائم .

ثم نظر الى ابن الحنفية فقال : هل سمعت ما أوصيت به أخويك ؟

قال : نعم .

قال : أوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقير أخويك ، وتزيين أمرهما ، ولا تقطعن أمرا دونهما .

ثم قال لهما : أوصيكما به ، فانه سيفكما وابن أبيكما ، فأكرماه واعرفا حقه .

فقال له رجل من القوم : ألا تعهد يا أمير المؤمنين ؟

قال : لا ، ولكني أتركهم كما تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال : فماذا تقول لربك اذا أتيته ؟

قال : أقول : اللهم انك أبقيتني فيهم ما شئت أن تبقيني ، ثم قبضتني وتركتك فيهم فان شئت أفسدتهم ، وان شئت أصلحتهم .

ثم قال : أما والله انها الليلة التي ضرب فيها يوشع بن نون ليلة سبع عشرة ، وقبض ليلة احدى وعشرين .

وبقي علي الجمعة والسبت ، وقبض ليلة الأحد ، ودفن بالرحبة عند مسجد الكوفة .

وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب في أخباره تنازع الناس في موضع قبره ، وما قيل في ذلك .

سنه وفضله

وقبض وقد أتى عليه اثنتان وسبعون سنة وقيل : اثنتان وستون ، وقد قدمنا تنازع الناس في مقدار سنه ، وكان كما قال الحسن : والله لقد قبض فيكم الليلة رجل ما سبقه الأولون الا بفضل النبوة ، ولا يدركه الآخرون . وان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبعثه المبعث فيكتنفه جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره ، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه .

وكان الذي صلى عليه الحسن ابنه ، وكبر عليه سبعا ، وقيل غير ذلك .

تركته

ولم يترك صفراء ولا بيضاء ، الا سبعمائة درهم بقيت من عطائه ، أراد أن يشتري بها خادما لأهله ، وقال بعضهم : ترك لأهله مائتين وخمسين درهما ومصحفه وسيفه .

فعلهم بابن ملجم

ولما أرادوا قتل ابن ملجم لعنه الله قال عبد الله بن جعفر : دعوني حتى أشفي نفسي منه . فقطع يديه ورجليه وأحمى له مسمارا حتى اذا صار جمرة كحله به .

فقال : سبحان الذي خلق الانسان ، انك لتكحل عمك بملمول الرصاص .

ثم ان الناس أخذوه وأدرجوه في بواري ثم طلوها بالنفط وأشعلوا فيها النار فاحترق .

وفيه يقول عمران بن حطان الرقاشي يمدحه في ضربته من شعر له طويل :

يا ضربة من تقي ما أراد بها الا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
اني لأذكره يوما فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزانا

فأجابه القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله الشافعي[1] :

اني لأبرأ مما أنت قائله عن ابن ملجم الملعون بهتانا
يا ضربة من شقي ما أراد بها الا ليهدم للاسلام أركانا
اني لأذكره يوما فألعنه دنيا ، وألعن عمرانا وحطانا
عليه ثم عليه الدهر متصلا لعائن الله اسرارا واعلانا
فأنتما من كلاب النار جاء به نص الشريعة برهانا وتبيانا

وزاد بعضهم على هذه الأبيات بيتا آخر وهو :

---

١ ـ من هنا الى آخر الشعر الوارد في الصفحة المقابلة لا نعتقد انه يكون مما كتبه المسعودي ، ولعله زيادة من بعض النساخ .

عليكما لعنة الجبار ما طلعت شمس، وماأوقدوافي الكون نيرانا

معارضة لبيتي اللعين ابن حطان لعنه الله في ابن ملجم أخزاه الله .

قل لابن ملجم، والأقدار غالبة، هدمت، ويلك، للاسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشي على قدم وأول الناس اسلاما وايمانا
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما سن الرسول لنا شرعا وتبيانا
صهر النبي ، ومولانا ، وناصره أضحت مناقبه نورا وبرهانا
وكان منه على رغم الحسود له مكان هارون من موسى بن عمرانا
وكان في الحرب سيفا صارما ذكرا ليثا اذا ما لقي الأقران أقرانا
ذكرت قاتله والدمع منحدر فقلت: سبحان رب الناس سبحانا
اني لأحسبه ما كان من بشر يخشى المعاد ولكن كان شيطانا
أشقى مراد اذا عدت قبائلها وأخسر الناس عند الله ميزانا
كعاقر الناقة الأولى التي جلبت على ثمود بأرض الحجر خسرانا
قد كان يخبرهم أن سوف يخضبها قبل المنية أزمانا فأزمانا
فلا عفا الله عنه ما تحمله ولا سقى قبر عمران بن حطانا
لقوله في شقي ظل مجترما ونال ما ناله ظلما وعدوانا :
« يا ضربة من تقي ما أراد بها الا ليبلغ من ذي العرش رضوانا »
بل ضربة من غوي أورثته لظى مخلدا قد أتى الرحمن غضبانا
كأنه لم يرد قصدا بضربته الا ليصلى عذاب الخلد نيرانا

ولعمران بن حطان ولأبيه حطان أخبار كثيرة قد أتينا على ذكرها في كتابنا « أخبار الزمان » في باب أخبار الخوارج من الأزارقة والأباضية والحمرية والصفرية والنجدية وغيرهم من فرق الخوارج الى سنة ثماني عشرة وثلثمائة .

وكان آخر من خرج منهم ربيعة المعروف بغيرون ، فأدخل على المقتدر بالله ، بعث به ابن حمدان من كفر توثا ، وقد كان خرج في أيامه أيضا المعروف بأبي شعيب .

***

وقد رثى الناس أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه في ذلك الوقت والى هذه الغاية ،

وذكروا مقتله ، وممن رثاه في ذلك الوقت أبو الأسود الدؤلي من أبيات :

ألا أبلــغ معاويــة بن حرب   فلا قرت عيــون الشامتينا
أفي شهــر الصيــام فجعتمونا   بخير الناس طرا أجمعينا ؟
قتلتم خير من ركــب المطايا   وذللهــا ومن ركــب السفينا
ومن لبس النعــال ومن حذاها   ومن قرأ المثاني والمبينا
اذا استقبلــت وجه أبي حسين   رأيــت النور فوق الناظرينا
لقد علمت قريش حيــث كانت   بأنك خيرهــم حسبا ودينا

البرك ومعاوية

وانطلق البرك الصريمي الى معاوية فطعنه بخنجر في أليته وهو يصلي فأخذ وأوقف بين يديه ، فقال له : ويلك ، وما أنت ، وما خبرك ؟

قال : لا تقتلني ، وأخبره ، قال : انا تبايعنا في هذه الليلة عليك ، وعلى علي ، وعلى عمرو ، فان أردت فاحبسني عندك ، فان كانا قتلا والا خليــت سبيلي فطلبت قتل علي ، ولك علي أن أقتله وأن آتيك حتى أضع يدي في يدك .

فقال بعض الناس : قتله يومئذ ، وقال بعضهــم : حبسه حتى جاءه خبر قتل علي فأطلقه .

زادويه وعمرو بن العاص

وانطلق زادويه ـ وقيل انه عمرو بن بكر التميمي ـ الى عمرو بن العــاص ، فوجد خارجة قاضي مصر جالسا على السرير يطعم الناس في مجلس عمرو ، وقيــل : بل صلى خارجة بالناس الغداة ذلك اليوم ، وتخلف عمرو عن الصلاة لعارض ، فضربه بالسيف ، فدخل عليه عمرو وبه رمق ، فقال له خارجة : والله ما أراد غيرك .

فقال عمرو : ولكن الله أراد خارجة .

وأوقف الرجل بين يدي عمرو ، فسأله عن خبره ، فقص عليه القصة وأخبره أن عليا ومعاوية قد قتلا في هذه الليلة .

فقال : ان قتلا أو لم يقتلا فلا بد من قتلك .

فبكى ، فقيل له : أجزعا من الموت مع هذا الاقدام ؟

فقال : لا والله ، ولكن غما أن يفوز صاحباي بقتل علي ومعاوية ولا أفوز أنا بقتل عمرو .

فضربت عنقه وصلب .

وكان علي رضي الله عنه كثيرا ما يتمثل :

تلكم قريش تمناني لتقتلني فلا وربك ما بروا وما ظفروا
فان هلكت فرهن ذمتي لهم بذات ودقين لا يعفو لها أثر

وكان يكثر من ذكر هذين البيتين :

اشدد حيازيمك للموت فان الموت لاقيكا
ولا تجزع من الموت اذا حل بواديكا

وسمعا منه في الوقت الذي قتل فيه ، فانه قد خرج الى المسجد ، وقد عسر عليه فتح باب داره ـ وكان من جذوع النخل ـ فاقتلعه وجعله ناحية ، وانحل ازاره ، فشده وجعل ينشد هذين البيتين المتقدمين .

وقد كان معاوية دس أناسا من أصحابه الى الكوفة يشيعون موته ، وأكثر الناس القول في ذلك حتى بلغ عليا ، فقال في مجلسه : قد أكثرتم من نعي معاوية ، والله ما مات ولا يموت حتى يملك ما تحت قدمي ، وانما أراد ابن آكلة الأكباد أن يعلم ذلك مني ، فبعث من يشيع ذلك فيكم ليعلم ويتيقن ما عندي فيه ، وما يكون من أمره في المستقبل من الزمان .

ومر في كلام كثير يذكر فيه أيام معاوية ومن تلاه من يزيد ومروان وبنيه ، وذكر الحجاج وما يسومهم من العذاب ، فارتفع الضجيج ، وكثر البكاء والشهيق ، فقام قائم من الناس فقال : يا أمير المؤمنين ، لقد وصفت أمورا عظيمة ، آلله ان ذلك كائن ؟

قال علي : والله ان ذلك لكائن ، ما كذبت ولا كذبت .

فقال آخرون : متى يكون ذلك يا أمير المؤمنين ؟

قال : اذا خضبت هذه من هذه .

ووضع احدى يديه على لحيته والأخرى على رأسه ، فأكثر الناس من البكاء . فقال : لا تبكوا في وقتكم هذا فستبكون بعدي طويلا .

فكاتب أكثر أهل الكوفة معاوية سرا في أمورهم ، واتخذوا عنده الأيادي ، فوالله ما مضت الا أيام قليلة حتى كان ذلك .

وسنذكر فيما يرد من هذا الكتاب ـ بعد ذكرنا لزهده ولمع من كلامه ـ جملا من أخباره أيضا في أيام معاوية بن أبي سفيان ، والله ولي التوفيق .

ذكر لمع من كلامه وأخباره وزهده
رضوان الله عليه

لم يلبس عليه السلام في أيامه ثوبا جديدا ، ولا اقتنى ضيعة ولا ربعا ، الا شيئا كان له بينبع مما تصدق به وحبسه .

والذي حفظ الناس عنه من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة ، وتداول الناس عنه ذلك قولا وعملا .

خيار العباد

وقيل له : من خيار العباد ؟

قال : الذين اذا أحسنوا استبشروا ، واذا أساءوا استغفروا ، واذا أعطوا شكروا ، واذا ابتلوا صبروا ، واذا أغضبوا غفروا .

وصف الدنيا

وكان يقول : « الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها .

« الدنيا مسجد أحباء الله ومصلى ملائكة الله ، ومهبط وحيه ، ومتجر أوليائه ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا فيها الجنة .

« ومن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ، ونادت بفراقها ، ونعت نفسها وأهلها ، ومثلت لهم ببلائها البلاء ، وشوقت بسرورها الى السرور ، وراحت بضجيعة ، وابتكرت بعافية ، تحذيرا وترغيبا وتخويفا .

« فذمها رجال غب الندامة ، وحمدها آخرون غب المكافأة ، ذكرتهم فذكروا تصاريفها ، وصدقتهم فصدقوا حديثها .

«فياأيها الذام للدنيا المغتر بغرورها ، متى استدامت لك الدنيا ؟ بل متى غرتك من نفسها ؟ أبمضاجع آبائك من البلى ؟ أم بمصارع أمهاتك من الثرى ؟ كم قد عللت بكفك ومرضت بيدك من تبغي له الشفاء وتستوصف له الدواء من الأطباء ؟ لم تنفعه بشفاعتك ، ولم تسعف له بطلبتك ، قد مثلت لك به الدنيا نفسك ، وبمصرعه مصرعك ، غدا لا ينفعك بكاؤك ، ولا يغني عنك أحباؤك » .

ولا تسمع في مدح الدنيا أحسن من هذا .

ومما حفظ من كلامه في بعض مقاماته في صفة الدنيا أنه قال : « ألا ان الدنيا قد ارتحلت

مدبرة ، وان الآخرة قد دنت مقبلة ، ولهذه أبناء ، ولهذه أبناء ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا .

« ألا وكونوا من الزاهدين في الدنيا والرغبين في الآخرة ، ان الزاهدين في الدنيا اتخذوا الأرض بساطا والتراب فراشاً والماء طيبا ، وقوضوا الدنيا تقويضا .

« ألا ومن اشتاق الى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات ، ومن راقب الآخرة سارع في الخيرات .

« ألا وان لله عبادا كأنهم يرون أهل الجنة في الجنة منعمين مخلدين ، ويرون أهل النار في النار معذبين ، قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، أنفسهم عفيفة ، وحاجتهم خفيفة ، صبروا أياما قليلة فصارت لهم العقبى ، وراحة طويلة : أما الليل فصافوا أقدامهم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يجأرون الى ربهم ، ويسعون في فكاك رقابهم ، وأما النهار فعلماء حكماء بررة أتقياء ، كأنهم القداح براهم الخوف والعبادة ، ينظر اليهم الناظر فيقول مرضى ، وما بالقوم من مرض ، ان خولطوا فقد خالطهم أمر عظيم من ذكر النار ومن فيها » .

وقال لابنه الحسن : يا بني ، استغن عمن شئت تكن نظيره ، وسل من شئت تكن حقيره ، وأعط من شئت تكن أميره .

ودخل عليه رجل من أصحابه فقال : كيف أصبحت يا أمير المؤمنين ؟

قال : أصبحت ضعيفا مذنبا ، آكل رزقي ، وأنتظر أجلي .

قال : وما تقول في الدنيا ؟

قال : وما أقول في دار أولها غم ، وآخرها موت ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حزن ، حلالها حساب ، وحرامها عقاب .

قال : فأي الخلق أنعم ؟

قال : أجساد تحت التراب ، قد أمنت من العقاب ، وهي تنتظر الثواب .

وصف علي عند معاوية

ودخل ضرار بن ضمرة ـ وكان من خواص علي ـ على معاوية وافدا ، فقال له : صف لي عليا .

قال : اعفني يا أمير المؤمنين .

قال معاوية : لابد من ذلك .

فقال : أما اذا كان لابد من ذلك ، فانه كان واللّه بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يعجبه من الطعام ما خشن ، ومن اللباس ما قصر .

وكان واللّه يجيبنا اذا دعوناه ، ويعطينا اذا سألناه ، وكنا واللّه ـ على تقريبه لنا وقربه منا ـ لا نكلمه هيبة له ، ولا نبتدئه لعظمه في نفوسنا ، يبسم عن ثغركاللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويرحم المساكين ، ويطعم في المسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ، يكسو العريان ، وينصر اللهفان ، ويستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل وظلمته .

وكأني به وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، وهو في محرابه قابض على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء الحزين ويقول : يا دنيا غري غيري ، ألي تعرضت أم الي تشوفت ؟ هيهات هيهات ، لا حان حينك ، قد أبنتك ثلاثا لا رجعة لي فيك ، عمرك قصير ، وعيشك حقير ، وخطرك يسير . آه من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق » .

من كلامه

فقال له معاوية : زدني شيئا من كلامه .

فقال ضرار : كان يقول أعجب ما في الانسان قلبه ، وله مواد من الحكمة ، وأضداد من خلافها ، فان سنح له الرجاء أماله الطمع ، وان مال به الطمع أهلكه الحرص ، وان ملكه القنوط قتله الأسف ، وان عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وان أسعده الرضا نسي التحفظ ، وان ناله الخوف فضحه الجزع ، وان أفاد مالا أطغاه الغنى ، وان عضته فاقة فضحه الفقر ، وان أجهده الجوع أقعده الضعف ، وان أفرط به الشبع كظته البطنة ، فكل تقصير به مضر ، وكل افراط له مفسد .

فقال له معاوية : زدني كل ما وعيته من كلامه .

قال هيهات أن آتي على جميع ما سمعته منه .

ثم قال : سمعته يوصي كميل بن زياد ذات يوم فقال له : يا كميل ذب عن المؤمن فان ظهره حمى اللّه ، ونفسه كريمة على اللّه ، وظالمه خصم اللّه ، وأحذركم من ليس له ناصر الا اللّه .

قال : وسمعته يقول ذات يوم : ان هذه الدنيا اذا أقبلت على قوم أعارتهم محاسن غيرهم ، واذا أدبرت عنهم سلبتهم محاسن أنفسهم .

قال : وسمعته يقول : بطر الغنى يمنع من عز الصبر .

قال : وسمعته يقول : ينبغي للمؤمن أن يكون نظره عبرة ، وسكوته فكرة ، وكلامه حكمة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن قتل جعفر بن أبي طالب الطيار بمؤتة من أرض الشام ـ لا يبعث بعلي في وجه من الوجوه الا ويقول : « رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين » .

وحمل علي يوم أحد على كردوس من المشركين خشن فكشفهم ، فقال جبريل : يا محمد ، ان هذه لهي المواساة .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا جبريل ان عليا مني .

قال جبريل : وأنا منكم .

كذلك ذكره اسحاق عن ابن اسرائيل وغيره .

ووقف على علي سائل ، فقال للحسن : قل لأمك تدفع اليه درهما .

فقال : انما عندنا ستة دراهم للدقيق .

فقال علي : لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده . . . ثم أمر للسائل بالستة الدراهم كلها .

فما برح علي رضي الله عنه حتى مر به رجل يقود بعيرا ، فاشتراه منه بمائة وأربعين درهما ، وأنسأ أجله ثمانية أيام . فلم يحل أجله حتى مر به رجل والبعير معقول فقال : بكم هذا ؟

فقال علي : بمائتي درهم .

فقال : قد أخذته .

فوزن له الثمن ، فدفع علي منه مائة وأربعين درهما للذي ابتاعه منه ، ودخل بالستين الباقية على فاطمة عليها السلام ، فسألته : من أين هي ؟

فقال : هذه تصديق لما جاء به أبوك صلى الله عليه وسلم : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » .

ومر ابن عباس بقوم ينالون من علي ويسبونه ، فقال لقائده : أدنني منهم ، فأدناه .

فقال : أيكم الساب الله ؟

قالوا : نعوذ بالله أن نسب الله .

فقال : أيكم الساب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقالوا : نعوذ بالله أن نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال : أيكم الساب علي بن أبي طالب ؟

قالوا : أما هذه فنعم .

قال : أشهد لقد سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : « من سبني فقد سب اللّه ، ومن سب عليا فقد سبني » . فأطرقوا .

فلما ولى قال لقائده : كيف رأيتهم ؟

فقال :

نظروا اليــك بأعــين مزورة　　　نظر التيــوس الى شفار الجازر

فقال : زدني فداك أبي وأمي .

فقال :

خزر العيــون منكسي أذقانهم　　　نظر الذليــل الى العزيــز القاهر

قال : زدني فداك أبي وأمي .

قال : ما عندي مزيد .

قال : ولكن عندي :

أحياؤهــم تجني على أمواتهم　　　والميتــون فضيحـــة للغابـــر

وصيته يـوم مـوتـه

وقد ذكر جماعة من أهل النقل عن أبي عبد اللّه جعفر بن محمد عن أبيه محمد بن علي ابن الحسين بن علي ، أن عليا قال في صبيحة الليلة التي ضربه فيها عبد الرحمن بن ملجم بعد حمد اللّه والثناء عليه والصلاة على رسوله صلى اللّه عليه وسلم :

« كل امرىء ملاقيه ما يفر منه ، والأجل تساق النفس اليه ، والهرب منه موافاته . كم اطردت الأيام أتحينها عن مكنون هذا الأمر فأبى اللّه عز وجل الا اخفاءه . هيهات علم مكنون .

« أما وصيتي فاللّـه لا تشركـوا به شيئا ، ومحمدا لا تضيعـوا سنته ، أقيموا هذيـن

العمودين ، حمل كل امرىء منكم مجهوده ، وخفف عن الحملة رب رحيم ، ودين قويم ، وامام عليم . كنا في اعصار ذي ريـاح تحت ظل غمامة ، اضمحل راكدهـا فمحطها من الأرض حيا ، وبقي من بعدي جنة جلول، ساكنة بعد حركة ، كاظمة بعد نطق .

« ليعظكم هدوئي وخفوت أطرافي ، انه أوعظ لكم من نطق البليغ ، ودعتكم وداع امرىء مرصد لتلاق ، وغدا ترون ويكشف عن ساق ، عليكم السلام الى يوم المرام . كنت بالأمس صاحبكم واليوم عظة لكم ، وغـدا أفارقكـم . ان أفق فأنا ولي دمي ، وان أمت فالقيامة ميعادي ، والعفو أقرب للتقوى ، ألا تحبون أن يغفر اللّه لكم واللّه غفور رحيم » .

تزهيده في الدنيا

ومن خطبه قبل هذا ، وتزهيده في هذه الدنيا ، قوله في بعض مقاماته وخطبه :

« ان الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وان الآخرة قد أشرفت وأقبلت باطلاع ، وان المضمار اليوم والسباق غدا .

« ألا انكم في أيام أمل من ورائه أجل : فمن أخلص في أيام أمله قبل حضور أجله فقد حسن عمله ، وما قصر أجله ، ومن قصر في أيام أجله خسر أجله .

« ألا فاعملوا للّه في الرغبة ، كما تعملـون في الـرهبة . ألا واني لم أر كالجنة نام طالبها ، ولا كالنار نام هاربها . ألا وانه من لم ينفعه الحق يضره الباطل ، ومن لا يستقيم له الهدى يجزيه الضلال . وقد أمرتم بالظعن ودللتم على الزاد ، وان أخوف ما أخافه عليكم اتباع الهوى وطول الأمل » .

***

وفضائل علي ومقاماته ومناقبه ووصف زهده ونسكه أكثر من أن يأتي عليه كتابنا هذا أو غيره من الكتب ، أو يبلغه اسهاب مسهب ، أو اطناب مطنب .

وقد أتينا على جمل من أخباره وزهده وسيره ، وأنواع من كلامه وخطبه في كتابنا المترجم بكتاب « حدائق الأذهان ، في أخبار آل محمد عليه السلام » ، وفي كتاب « مزاهر الأخبار ، وطرائف الآثار ، للصفوة النورية والذرية الزكية أبواب الرحمة وينابيع الحكمة » .

***

فضائله رضي اللّه عنه

قال المسعودي: والأشياء التي استحق بها أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم

الفضل هي : السبق الى الايمان ، والهجرة ، والنصرة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، والقربى منه ، والقناعة ، وبذل النفس له ، والعلم بالكتاب والتنزيل ، والجهاد في سبيل اللّه ، والورع ، والزهد ، والقضاء ، والحكم ، والفقه ، والعلم .

وكل ذلك لعلي عليه السلام منه النصيب الأوفر ، والحظ الأكبر ، الى ما ينفرد به من قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين آخى بين أصحابه : « أنت أخي » ، وهو صلى اللّه عليه وسلم لا ضد له ولا ند .

وقوله صلوت اللّه عليه وسلامه : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، الا أنه لا نبي بعدي » .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » .

ثم دعاؤه عليه الصلاة والسلام وقد قدم اليه أنس الطائر : « اللهم أدخل اليّ أحب خلقك اليك يأكل معي من هذا الطائر » ، فدخل عليه علي . . . الى آخر الحديث .

فهذا وغيره من فضائله وما اجتمع فيه من الخصال مما تفرق في غيره ، ولكل فضائل ممن تقدم وتأخر .

وقبض النبي صلى اللّه عليه وسلم وهو راض عنهم مخبر عن بواطنهم بموافقتها لظواهرهم بالايمان ، وبذلك نزل التنزيل وتولى بعضهم بعضا .

فلما قبض رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وارتفع الوحي حدثت أمور تنازع الناس في صحتها منهم ، وذلك غير يقين ، ولا يقطع عليهم بها ، واليقين من أمورهم ما تقدم ، وما روي مما كان في أحداثهم بعد نبيهم صلى اللّه عليه وسلم فغير متيقن ، بل هو ممكن ، ونحن نعتقد فيهم ما تقدم ، واللّه أعلم بما حدث ، واللّه ولي التوفيق .

ذكر خلافة الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه

موجز

ثم بويع الحسن بن علي بن أبي طالب بالكوفة بعد وفاة علي أبيه بيومين ، في شهر رمضان من سنة أربعين ، ووجه عماله الى السواد والجبل .

وقتل الحسن عبد الرحمن بن ملجم ، على حسب ما ذكرنا .

ودخل معاوية الكوفة بعد صلح الحسن بن علي ، لخمس بقين من شهر ربيع الأول في سنة احدى وأربعين .

وكانت وفاة الحسن ـ وهو يومئذ ابن خمس وخمسين سنة ـ بالسم .

ودفن بالبقيع مع أمه فاطمة بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، واللّه ولي التوفيق .

ذكر نسبه
ولمع من أخباره وسيره رضي اللّه عنه

سم الحسن رضي اللّه عنه

حدثنا جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهم ، قال : دخل الحسين على عمي الحسن بن علي لما سقي السم ، فقام لحاجة الانسان ثم رجع ، فقال : لقد سقيت السم عدة مرار فما سقيته مثل هذه ، لقد لفظت طائفة من كبدي فرأيتني أقلبه بعود في يدي .

فقال له الحسين : يا أخي ، من سقاك ؟

قال : وما تريد بذلك ؟ فان كان الذي أظنه فاللّه حسيبه ، وان كان غيره فما أحب أن يؤخذ بي بريء .

فلم يلبث بعد ذلك الا ثلاثا حتى توفي رضي اللّه عنه .

ذكر الذي سمه

وذكر أن امرأته جعدة بنت الأشعث بن قيس الكندي سقته السم ، وقد كان معاوية دس اليها : انك ان احتلت في قتل الحسن وجهت اليك بمائة ألف درهم ، وزوجتك من يزيد .

فكان ذلك الذي بعثها على سمه . فلما مات وفى لها معاوية بالمال ، وأرسل اليها : انا نحب حياة يزيد ، ولولا ذلك لوفينا لك بتزويجه .

وذكر أن الحسن قال عند موته : لقد حاقت شربته ، وبلغ أمنيته ، والله لا وفى لها بما وعد ، ولا صدق فيما قال .

وفي فعل جعدة يقول النجاشي الشاعر ، وكان من شيعة علي ، في شعر له طويل :

جعدة بكيه ولا تسأمي ... بعد بكاء المعول الثاكل
لم يسبل الستر على مثله ... في الأرض من حاف ومن ناعل
كان اذا شبت له ناره ... يرفعها بالسند الغاتل
كيما يراها بائس مرمل ... وفرد قوم ليس بالآهل
يغلي بنيء اللحم، حتى اذا ... أنضجه لم يغل من آكل
أعني الذي أسلمنا هلكه ... للزمن المستحرج الماحل

وفي ذلك يقول آخر من شيعة علي رضي الله عنه :

تأس فكم لك من سلوة ... تفرج عنك غليل الحزن
بموت النبي ، وقتل الوصي ... وقتل الحسين ، وسم الحسن

***

قال المسعودي رحمه الله : ووجدت في كتاب « الأخبار » لأبي الحسن علي بن محمد بن سليمان النوفلي عن صالح بن علي بن عطية الأصم قال : حدثنا عبد الرحمن بن العباس الهاشمي ، عن أبي عون صاحب الدولة ، عن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، عن أبيه ، عن جده ، عن العباس بن عبد المطلب . قال : كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ أقبل علي بن أبي طالب ، فلما رآه أسفر عن وجهه ، فقلت : يا رسول الله ، انك لتسفر في وجه هذا الغلام .

فقال : يا عم رسول الله ، والله لله أشد حبا له مني ، انه لم يكن نبي الا وذريته الباقية بعده من صلبه ، وان ذريتي بعدي من صلب هذا ، انه اذا كان يوم القيامة دعي

الناس بأسمائهم وأسماء أمهاتهم سترا من اللّه عليهم ، الا هـذا وشيعته فانهم يدعون بأسمائهم وأسماء آبائهم لصحة ولادتهم » .

رثاء ابن الحنفية للحسن

ولما دفن الحسن رضي اللّه عنه وقف محمد ابن الحنفية أخوه على قبره فقال : لئن عزت حياتك ، لقد هدت وفاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمن بدنك ، وكيف لا تكون هكذا وأنت عقبة الهدى ، وخلف أهل التقوى ، وخامس أصحاب الكساء ، غذتك بالتقوى أكف الحق ، وأرضعتك ثدي الايمان ، وربيت في حجر الاسلام ، فطبت حيا وميتا ، وان كانت أنفسنا غير سخية بفراقك ، رحمك اللّه أبا محمد .

ووجدت في وجه آخر من الروايات في أخبار أهل البيت أن محمدا وقف على قبره فقال : أبا محمد ، لئن طابت حياتك لقد فجع مماتك ، وكيف لا تكون كذلك وأنت خامس أهل الكساء ، وابن محمد المصطفى ، وابن علي المرتضى ، وابن فاطمة الزهراء ، وابن شجرة طوبى ؟ . . ثم أنشأ يقول رضي اللّه عنه :

أأدهن رأسي أم تطيب مجالسي ... وخدك معفور وأنت سليب

أأشرب ماء المزن من غير مائه ... وقد ضمن الأحشاء منك لهيب

سأبكيك ما ناحت حمامة أيكة ... وما اخضر في دوح الحجاز قضيب

غريب وأكناف الحجاز تحوطه ... ألا كل من تحت التراب غريب

ووجدت في بعض كتب التواريخ في أخبار الحسن ومعاوية أن بخلافة الحسن صح الخبر عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلام : « الخلافة بعدي ثلاثون سنة » ، لأن أبا بكر الصديق رضي اللّه عنه تقلدها سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام ، وعمر رضي اللّه عنه عشر سنين وستة أشهر وأربع ليال ، وعثمان رضي اللّه عنه احدى عشرة سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما ، وعلي رضي اللّه عنه أربع سنين وسبعة أشهر الا يوما ، والحسن رضي اللّه عنه ثمانية أشهر وعشرة أيام . . . فذلك ثلاثون سنة .

سرور معاوية بموت الحسن

وحدث محمد بن جرير الطبري ، عن محمد بن حميد الرازي ، عن علي بن مجاهد ، عن محمد بن اسحاق ، عن الفضل بن عباس بن ربيعة ، قال : وفد عبد اللّه بن العباس على معاوية ، قال : فواللّه اني لفي المسجد اذ كبر معاوية في الخضراء فكبر أهل الخضراء ،

ثم كبر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء ، فخرجت فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف من خوخة لها ، فقالت : سرك اللّه يا أمير المؤمنين ، ما هذا الذي بلغك فسررت به ؟

قال : موت الحسن بن علي .

فقالت : انا للّه وانا اليه راجعون .

ثم بكت وقالت : مات سيد المسلمين ، وابن بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

فقال معاوية : نعما واللّه ما فعلت ، انه كان كذلك أهلا أن تبكي عليه .

ثم بلغ الخبر ابن عباس رضي اللّه عنهما ، فراح فدخل على معاوية ، قال : علمت يا ابن عباس أن الحسن توفي .

قال : ألذلك كبرت ؟

قال : نعم .

قال : أما واللّه ما موته بالذي يؤخر أجلك ، ولا حفرته بسادة حفرتك ، ولئن أصبنا به فقد أصبنا قبله بسيد المرسلين وامام المتقين ورسول رب العالمين ، ثم بعده بسيد الأوصياء ، فجبر اللّه تلك المصيبة ، ورفع تلك العثرة .

فقال : ويحك يا ابن عباس ، ما كلمتك قط الا وجدتك معدا .

وفي نسخة أنه لما صالح الحسن معاوية كبر معاوية في الخضراء ، وكبر أهل الخضراء ، ثم كبر أهل المسجد بتكبير أهل الخضراء ، فخرجت فاختة بنت قرظة من خوخة لها ، فقالت : سرك اللّه يا أمير المؤمنين ، ما هذا الذي بلغك ؟

قال : أتاني البشير بصلح الحسن وانقياده ، فذكرت قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم « ان ابني هذا سيد أهل الجنة ، وسيصلح اللّه به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين » ، فالحمد للّه الذي جعل فئتي احدى الفئتين .

ولما صالح الحسن معاوية لما ناله من أهل الكوفة وما نزل به أشار عمرو بن العاص على معاوية وذلك بالكوفة أن يأمر الحسن فيقوم فيخطب الناس ، فكره ذلك معاوية ، وقال : ما أريد أن يخطب بالناس .

قال عمرو : لكني أريد أن يبدو عيه للناس بأنه يتكلم في أمور لا يدري ما هي ، ولم يزل به حتى أطاعه ، فخرج معاوية فخطب الناس ، وأمر رجلا أن ينادي بالحسن بن علي ، فقام اليه ، فقال : قم يا حسن فكلم الناس .

فقام فتشهد في بديهته ، ثم قال : أما بعد أيها الناس ، فان الله هداكم بأولنا ، وحقن

دماءكم بآخرنا ، وان لهذا الأمر مدة ، والدنيا دول ، قال اللّه عز وجل لنبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم : « قل ان أدري أقريب أم بعيد ما توعدون . انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون . وان أدري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين » .

ثم قال في كلامه ذلك : يا أهل الكوفة ؛ لو لم تذهل نفسي عنكم الا لثلاث خصال لذهلت : مقتلكم لأبي ، وسلبكم ثقلي ، وطعنكم في بطني . وأني قد بايعت معاوية فاسمعوا له وأطيعوا .

وقد كان أهل الكوفة انتهبوا سرادق الحسن ورحله ، وطعنوا بالخنجر في جوفه ، فلما تيقن ما نزل به انقاد الى الصلح .

خطبة للحسن

وقد كان علي رضي اللّه عنه وكرم اللّه وجهه اعتل فأمر ابنه الحسن رضي اللّه عنه أن يصلي بالناس يوم الجمعة ، فصعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه ، ثم قال : ان اللّه لم يبعث نبيا الا اختار له نقيبا ورهطا وبيتا ، فوالذي بعث محمدا بالحق نبيا لا ينتقص من حقنا أهل البيت أحد الا نقصه اللّه من عمله مثله ، ولا تكون علينا دولة الا وتكون لنا العاقبة ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

خطبة أخرى

ومن خطب الحسن رضي اللّه عنه في أيامه في بعض مقاماته أنه قال : نحن حزب اللّه المفلحون ، وعترة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الأقربون ، وأهل بيته الطاهرون الطيبون ، وأحد الثقلين اللذين خلفهما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . والثاني كتاب اللّه فيه تفصيل كل شيء ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والمعول عليه في كل شيء ، لا يخطئنا تأويله ، بل نتيقن حقائقه . فأطيعونا ، فان طاعتنا مفروضة اذ كانت بطاعة اللّه والرسول وأولي الأمر مقرونة . . . « فان تنازعتم في شيء فردوه الى اللّه والرسول » ، « ولو ردوه الى الرسول ، والى أولي الأمر لعلمه الذين يستنبطونه منهم » .

وأحذركم الاصغاء لهتاف الشيطان انه لكم عدو مبين ، فتكونون كأوليائه الذين قال لهم : « لا غالب لكم اليوم من الناس واني جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال اني بريء منكم اني أرى ما لا ترون » . فتلقون للرماح أزرا ، وللسيوف جزرا ، وللعمد خطأ ، وللسهام غرضا ، ثم لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في ايمانها خيرا ، واللّه أعلم .

******

بهذا يكون قد تم ـ بحمد اللّه وتوفيقه ـ طبع الجزء الأول من كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » ، تصنيف الرحالة الكبير والمؤرخ الجليل أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ، وتحقيق فضيلة الأستاذ الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ـ عفا اللّه تعالى عنه ـ بشركة الاعلانات الشرقية ، مؤسسة الطباعة لدار التحرير للطبع والنشر ، ويليه باذن اللّه الجزء الثاني منه ، مفتتحا بخلافة معاوية بن أبي سفيان ، واللّه الموفق للصواب .

« كتاب التحرير »

فهرس المجلد الأول
من
مروج الذهب للمسعودي

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـوع | الصفحـة

الموضـوع	الصفحـة

الموضـوع	الصفحـة

الموضـوع	الصفحـة

الموضــوع	الصفحــة

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحـة

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحــة

الموضوع	الصفحة
الفيوم	٣٠٠
بين ابن طولون ورجل مصري	٣٠١
بحيرة تنيس ودمياط	٣٠٢
الاهرام	٣٠٤
بين يهودي ونصراني	٣٠٧
بعض عجائب مصر ونيلها	٣٠٨
من نزل مصر من أبناء نوح	٣٠٩
جملة من ملوك مصر	٣١٠
كتابة على البرابي	٣١٢
كتابة على الأهرام	٣١٣
بقية ملوك مصر	٣١٥
عدة ملوك مصر	٣١٧
دفائن ارض مصر	٣١٧
ذكر اخبار الاسكندرية وبنائها وملوكها	
وعجائبها وما الحق بهذا الباب	٣٢١
اختيار الموضع	٣٢١
المال	٣٢٤
منارة الاسكندرية	٣٢٤
حيلة لهدم المنارة	٣٢٥
الطواويس	٣٢٧
سرة بناء المنارة	٣٢٧
ذكر السودان وانسابهم واختلاف	
اجناسهم وانواعهم وتباينهم في ديارهم	
واخبار ملوكهم	٣٢٩
ولد كوش بن كنعان ومساكنهم	٣٢٩
الزرافة	٣٢٩
فليمي ملك الزنج	٣٣٠

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحــة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـوع | الصفحـة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع | الصفحـــة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحــة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحـــة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضـوع الصفحـة

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحــه

الموضـــوع	الصفحـــة

